اللسانيات البنيوية

منهجيات واتجاهات

تأليف

د. مصطفى غلفان





د. مصطفى غلفان

- من مواليد 9 أيار/مايو 1952 بالدار البيضاء.
- حاصل على دكتوراه السلك الثالث في اللسانيات العامة من جامعة باريس 7، حزيران/يونيو 1980.
- حاصل على دكتوراه الدولة في اللسانيات من جامعة الحسن الثاني، عين الشق- الدار البيضاء، 1991.
- أستاذ التعليم العالي سابقاً بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بمراكش من ثم الدار البيضاء - عين الشق.
- عضو الهيئة الاستشارية بمجلة الدراسات المعجمية، الرباط، المغرب.
- عضو سابق بالعديد من مجموعات البحث والتكوين بكليات الآداب المغربية.
- رئيس شعبة اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب، الدار البيضاء- عين الشق ما بين 1990 و 1992.
- نشر ما يزيد على عشرين دراسة علمية في مختلف المجالات اللغوية: نحو ولسانيات عامة ولسانيات عربية ومصطلح ومنها:
- اللسانيات العربية الحديثة أسئلة المنهج، عمان، دار ورد للنشر والتوزيع، 2011 (منشورات فريق البحث في اللغة والتواصل والحجاج، كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة ابن زهر، أكادير).
- في اللسانيات العامة، ط1، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2010.
- اللسانيات في الثقافة العربية الحديثة: حفريات في النشأة والتكوين، مكتبة المدارس، الدار البيضاء، المغرب، 2006، ط2، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2013.
- اللسانيات العربية الحديثة: دراسة نقدية في المصادر والأسس النظرية والمنهجية، منشورات كلية الآداب، عين الشق- الدار البيضاء، المغرب، 1998.
- النحو التوليدي من النموذج المعيار إلى نموذج البرنامج الأدنى: مفاهيم وأمثلة، بالمشاركة، إربد، عالم الكتب الحديث، 2011.

له العديد من المطبوعات المرقونة بخزانة كلية الآداب، عين الشق- الدار البيضاء، المغرب.

اللسانيّات البنيويّة

منهجيات واتجاهات

اللسانيّات البنيويّة

منهجيّات واتجاهات

الدكتور مصطفى غلفان

دار الكتاب الجديد المتحدة

اللسانيّات البنيويّة: منهجيّات واتجاهات

تأليف: مصطفى غلفان

© دار الكتاب الجديد المتحدة 2013
جميع الحقوق محفوظة للناشر بالتعاقد مع المؤلف

الطبعة الأولى
حزيران/يونيو 2013

موضوع الكتاب لسانيّات
تصميم الغلاف دار الكتاب الجديد المتحدة
الحجم 17 × 24 سم
التجليد برش مع ردّه

ردمك ISBN 978-9959-29-556-9
(دار الكتب الوطنية/بنغازي ـ ليبيا)

رقم الإيداع المحلي 2010/373

دار الكتاب الجديد المتحدة
الصنائع، شارع جوستينيان، سنتر أريسكو، الطابق الخامس،
هاتف 04 03 75 1 961 + **خليوي** 89 39 93 3 961 +
05 03 75 1 961 + **فاكس** 07 03 75 1 961 +
ص.ب. 14/6703 بيروت ــ لبنان
بريد إلكتروني szrekany@inco.com.lb
الموقع الإلكتروني www.oeabooks.com

جميع الحقوق محفوظة للدار، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, or transmitted in any form or by any means, electronic or mechanical, including photocopyings, recording or by any information storage retrieval system, without the prior permission in writing of the publisher.

توزيع حصري في العالم ما عدا ليبيا دار المدار الإسلامي
الصنائع، شارع جوستينيان، سنتر أريسكو، الطابق الخامس
هاتف 04 03 75 1 961 +/بريد إلكتروني szrekany@inco.com.lb

توزيع داخل ليبيا دار أويا للطباعة والنشر والتوزيع والتنمية الثقافية
زاوية الدهماني، شارع أبي داود، بجانب سوق المهاري، طرابلس ــ ليبيا
هاتف وفاكس 013 07 34 21 218 + **نقّال** 463 45 21 91 218 +
بريد إلكتروني **oeabooks@yahoo.com**

الإهــداء

إلى زوجتي

اعترافاً بما قدّمَتْ لي من عون

إلى أولادي: لمياء وماجدة وحاتم

الدعم المعنويّ المستمرّ

مقدّمـــة

هيمنت اللسانيّات البنيويّة مدّةً تزيد على نصف قرن لتحتلّ بذلك مكانة متميزة في تاريخ الفكر اللغوي. وقد انتقلت المنهجية البنيويّة التي اعْتُمِدت في اللسانيّات إلى حقول إنسانية واجتماعية أخرى، فكان لها أيضاً الصدى نفسه والإقبال نفسه. ويدلّ هذا الوضع المتميز على فعالية المنهجية المتّبعة والقائمة على أسس محدّدة ومفاهيم إجرائية مضبوطة. ولم يخفت بريقُ اللسانيّات البنيويّة وتوهّجها المعرفي، إلا مع ظهور نظرية النحو التوليدي التحويلي في نهاية الخمسينيات من القرن الماضي وكان ذلك إيذاناً بحلول مرحلة لسانيّة جديدة لها ما لها وعليها ما عليها، سواء بالنسبة للسانيّات البنيويّة أم للسانيّات التوليدية.

وفي إطار التحوّلات المعرفية الكبرى التي تعيشها اللسانيّات اليوم، يمكن للمرء أن يتساءل عن جدوى مؤلّف يعرض من جديد للسانيّات البنيويّة في اتجاهاتها المتعدّدة. والواقع أن الانتقال من الأنموذج البنيوي إلى الأنموذج التوليدي لا يعني أن اللسانيّات البنيويّة بمنهجياتها المتعددة قد اختفت من الساحة المعرفية والعلمية في أميركا وأوروبا، أو أنها لم تعد قابلةً للتطبيق، أو هي اليوم غير صالحة لتحليل الألسن الطبيعية. لقد طوّرت اللسانيّاتُ البنيويّة نفسها في اتجاه إيجاد حلول ملائمة لبعض مظاهر النقص التي وُسِمَت بها. وتحاول العديد من مجموعات البحث المحسوبة على اللسانيّات البنيويّة في أوروبا وأميركا إعادة النظر في أسسها ومفاهيمها في إطار نوع من المساءلة الإبستيمولوجية لاحتواء كثير من الإشكاليات التي غابت عنها أو عِيبَت عليها في العقود السابقة. ومن هذا المنطلق، فإنّ المبادئَ الكبرى والمنطلقات التي تأسّست عليها اللسانيّات البنيويّة ما زالت قائمة، وما زالت الحاجة إليها كلما حصلت تحولات نظرية أو منهجية في اللسانيات. وما زالت أسسُ اللسانيّات البنيويّة قائمةً في العديد من المذاهب

التي تهتمّ بتحليل الخطاب أو النصّ وفي الدراسات السيميائية للنصّ الأدبي في أجناسه المختلفة، حيث الحاجة إلى مفاهيم التحليل اللساني البنيوي ملحة، بل لا مفرّ منها[1].

غير أن الأمر يختلفُ بالنسبة إلى الثقافة اللسانيّة العربية الحديثة. يلاحظ المتتبع أن الكثير من الكتابات في الموضوع يتحدّث عن اللسانيّات بصيغة عامة، كما لو أنها تحيل على تيار نظريّ أو منهجيّ وحيد ومتجانس. والحقيقة أنه من الصعب أن تضمّ المفردة الفرنسية *Linguistique* ونظيرتها الإنكليزية *Linguistics* شعاب وشتات جميع التصورات والاتجاهات التي تندرج عادةً تحت اسم «**اللسانيّات**». ولا يكاد الحديث عن اللسانيّات البنيويّة والكتابة عنها في الثقافة العربية يميِّز بوضوح بين ما هو من صميمِ المبادئ المستعملة في اللسانيّات عامَّة، وبين ما ينتمي إلى المنهج الوصفي وما ينتمي إلى اللسانيّات البنيويّة، أو على الأصحّ مختلف المنهجيات البنيويّة المتبعة في اللسانيّات. ولا تُحترم عندنا تاريخية المفاهيم وخصوصياتها النوعية بين هذا الاتجاه وذاك أو السياق المعرفي الذي ظهرت فيه أو الغاية التي استعملت لها، والتحولات الفكرية التي عرفتها عبر مساراتها المختلفة التي قد يحصلُ بينها تقاطع ما. ويُضاف إلى هذا، الاختصارُ المفرط التي تُقدَّم بها المنهجيات والاتجاهات اللسانيّة بالرّغم من غزارة المصادر والدراسات المتوافرة في الموضوع. وجديرٌ بالإشارة أننا تناولنا أبرز الاتجاهات اللسانيّة البنيويّة بصورة غير مسبوقة في الثقافة العربية، فجاء حديثنا عن مدرسة جنيف وحلقة براغ والغلوسيماتية ومارتينيه وعن اللسانيّات الأميركية ورائديها الكبيرين سابير وبلومفيلد مستفيضاً يمكنه أن يشفي غليلَ المهتمّ باللسانيّات البنيويّة. ومن جهة ثانية حرصنا على اطلاع القارئ العربيّ على التطورات الأخيرة بشأن بعض اللسانيين المؤسّسين أمثال سوسير حيث قدّمنا لمحةً موجزةً عن النقاش الذي يثيره فكر الرجل في الساحة اللسانيّة في أوروبا ولاسيما في فرنسا وسويسرا، وهو النقاش الذي لا نعثر له على أثر في اللسانيّات العربية الحديثة إلا

(1) أن إينو وآخرون: **السيميائية، الأصول، القواعد، التاريخ**، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان 2008 (ترجمة رشيد بن مالك، وتقديم عزّ الدين المناصرة). وفيه نجد تقديماً لمقوّمات الفكر اللساني البنيوي عند سوسير وحلقة براغ وهلمسليف.

في مؤلّف وحيد وهو **البحث عن فردينان دو سوسير المُتَرْجَم** أخيراً إلى العربية[2].

وسنحاول في هذا الكتاب الذي هو في واقع الأمر تكملة لمؤلّفنا السابق **في اللسانيّات العامة**[3] أن نقدّم بعض ملامح هذا التعدّد النظريّ والمنهجيّ التي تجسّده الدراساتُ اللسانيّة التي تؤطرها اللسانيّات البنيويّة *Linguistique structurale* أو ما ينعت أيضاً باللسانيّات الوصفية *Linguistique descriptive* دون إغفال الملامح المشتركة بين مختلف المذاهب والاتجاهات، وهي ملامح قد تكون بارزةً في هذا الاتجاه، وقد لا تكون كذلك في اتجاه آخر.

والاختلاف بين الاتجاهات اللسانيّة الوصفية بشأن عدد من المفاهيم والإجراءات على الأقل من الناحية التصورية والتأويلية والتطبيقية لا جدال فيه. ومن جهةٍ أخرى، يمكنُ القول بأن التطورات والاختلافات التي حصلت بين النظريات اللسانيّة الوصفية لا تثير فضولنا العلمي في الثقافة اللغوية العربية الراهنة، وكأن تاريخ نظرية أو ظهور منهجية من المنهجيات وتطوّرها أمر "عادي" أو غير مفيد بالنسبة إلى المهتمّ باللسانيّات وبأسسها الفكرية والمنهجية. وفي الثقافة العربية الحديثة فقرٌ معرفيّ واضح فيما يتعلّق بالتطورات التاريخية التي عرفتها اللسانيّات الوصفية وما يفرّق بين هذا الاتجاه اللسانيّ الوصفي وذاك، وما يؤالف بينهما، ودور الاختلافات في تطور النظريات اللسانيّة وانشطارها إلى اتجاهات. فالنظريات اللسانيّة لا تُصنع من فراغ.

وعسى أن نساهم بهذا الكتاب في لفت انتباه الدارسين اللسانيين العرب ومدرّسي اللسانيّات إلى أهمّية الأفكار والتصورات اللسانيّة البنيويّة التي يتعين معرفتها والإلمام بمصادرها، على الرغم ـ فيما يبدو لنا كما سبق الإشارة إلى ذلك ـ من كونها ـ بسبب ظهور النحو التوليدي على يد تشومسكي ـ قد بدأت تفقد "البريق المعرفي" الذي كان لها عندنا في سبعينيات وثمانينيات القرن العشرين.

(2) ميشال أريفيه. **البحث عن فردينان دو سوسير**، ترجمة محمد خير محمود البقاعي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2009.

(3) مصطفى غلفان. **في اللسانيات العامة**، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت 2010.

ونحن لا ندّعي في هذا الكتاب الإلمام بكل المنهجيات والاتجاهات التي عرفتها اللسانيّات البنيويّة، ولكننا سنحاول أن نقدّم ما يمكن أن يُعَدَّ الأساس والأهمّ في الموضوع الذي نحن بصدده. إننا ننظر إلى هذا المؤلَّفَ كمُعين على فهم أسس اللسانيّات البنيويّة من خلال مختلف المنهجيات التي طُبّقت في أبرز اتجاهاتها وأشهرها. وقد حرصنا ـ إلّا في الحالات القصوى أو لغاية مقصودة ـ أن لا نكرر ما هو مقدم في مؤلّفات عربية أخرى سبقتنا إلى عرض جوانب من هذا الموضوع لاسيما بعض مضامين الإطار النظري والمنهجي في اللسانيّات الوصفية في المستويات الأصواتية *phonétique* والصِّواتية *phonologique* والصِّرافية *morphologique* على وجه التحديد.

ونحن واعون بما يثيره المصطلح العلميّ من مشاكل تقنية وعملية. والواقع أنه ليس هناك مجال معرفيّ في الثقافة العربية الحديثة يعرفُ هذه الفوضى الاصطلاحية التي تعكسها كتاباتنا في اللسانيّات وما يتصل بها. ولذلك ارتأينا دون أيّ مركّبِ نقصٍ استعمال المصطلح اللساني العربي الأكثر تداولاً سواء أورد عند هذا الباحث أم ذاك. ونحن ندرك خطورةَ المشكل الاصطلاحي بالنسبة إلى القارئ العربي، ولكن تعذّر وجود الحل في القريب المنظور، يحتّم علينا ركوبَ هذا المسلك التوفيقي بعيداً عن أيّ قطرية أو محلية متزمّتة. ثم هل كان يتعين علينا أن ننتظر قيام ثَبْث اصطلاحيّ عام تُصدره هذه الجهة أو تلك لنشرع بعد ذلك في الكتابة عن اللسانيّات؟ لقد اخترنا جملة من المصطلحات التي نعرف منذ البداية أنها لن تكون موضوع اتفاق الجميع، وهذا ليس مهماً بالنسبة إلينا، إذ نعرف جيداً حدّة جنون السبق الاصطلاحي على حساب المضامين المعرفية، الذي يلازم عدداً من الأقلام العربية التي لم تستوعب بعد خطورة ما تقوم به، وما يترتّب عن "مصطلحاتها" من آثارٍ سلبية على الثقافة اللسانيّة العربية. لقد ساهم هذا الوضع في إبعاد القارئ العربي عن اللسانيّات بسبب فوضى المصطلح الذي بات يتعدّد بتعدد المؤلّفين بمن فيهم هواةُ اللسانيّات وطالبوها على الشبكة العنكبوتية. ولتفادي هذا النوع من التعامل اللامسؤول مع القارئ العربيّ وضعنا جرداً شاملاً بالمصطلحات اللسانيّة التي استعملناها، لم نخرج فيه عمّا هو متداول في سوق المصطلحات العربية إلا حين ينعدمُ المصطلح المطلوب.

وقد اتجه الاهتمام نحو المحتوى النظري والمنهجي للمنهجيات اللسانيّة، فاسحين المجال للنصوص الأصلية لتنطق بآراء أصحابها دون تكلّف في الشرح أو تعقيد في التوضيح، محاولين قدر الإمكان الابتعاد عن التجريد الذي لاحظنا أنه بات يشكّل عائقاً كبيراً أمام القارئ العربي، العادي والمتخصّص في متابعة الأدبيات اللسانيّة العربية، لاسيما مع التطورات الأخيرة التي عرفتها اللسانيّات؛ واقتفاء أثر بعض التيارات اللسانيّة التي ما فتئت توغل في الصورية والتجريد. ولهذه الاعتبارات التربوية العامة قمنا في الغالب الأهم بشرح المبادئ الأساس في اللسانيّات البنيويّة بلغةٍ مبسّطةٍ وواضحة. ونحن في هذا الصنيع نهتدي بما لاحظه دايفيد كريستل *David Crystal* حين قال" بأن اللسانيين *linguists* يميلون إلى نسيان الفجوة الضخمة التي توجد بين دراستهم للغة وبين وجهات نظر الرجل العادي، لأنهم يفترضون دائماً وجود معرفة سابقة بالموضوع فيستعملون مصطلحات فنية دون شرح كافٍ لها؛ أو يركّزون اهتمامهم على الشخص شبه المتخصّص، أو على جوانب محدّدة من الدراسة"(4). إن تقاليد الكتب التي تكون بمثابة المرشد *Handbook* في تقديم مادة علم ما أو معرفة معينة مرتبة ومُصنَّفة بشكل دقيق ومشروحة بلغة يفهمها الجميع، لم تأخذ بعد طريقها إلى الثقافة العربية على الأقل في مجال اللسانيّات. والغاية الأساس من تقديم هذا المؤلّف هو المساهمة في الخروج بالقارئ العربي إمّا من متاهة التجريد والتعتيم والتعقيد، وإمّا من التبسيط المخلّ، وهي للأسف، ملامح العديد من أدبياتنا اللسانيّة عن وعي أو بدونه. لذا يجب أن يُنظر إلى هذا الكتاب في إطاره التربويّ الأكاديميّ وليس كعمل يدَّعي التأهيل أو السَّبق أو التنظير أو شيئاً من هذا القبيل.

أودّ في النهاية أن أتوجّه بالشكر الجزيل إلى كل الزملاء الأساتذة والأصدقاء الذين ساعدوني على إخراج هذا الكتاب إلى حيز الوجود. أذكر على وجه التحديد الأستاذة أعوانت التي قرأت المخطوط بحرصٍ قلّ نظيره وقدمت ملاحظات هامّة، وهي الملاحظات التي أفادتني كثيراً. كما أشكر الأستاذ حافظ اسماعيلي علويّ الذي اطلع على جزء من المخطوط، والسيد سمير غلفان أبو

(4) دايفيد كريستل. **التعريف بعلم اللغة**، (ترجمة حلمي خليل)، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1993، ص28.

إلياس الذي قدَّم يد العون من الناحية التقنية، وكذلك أخي عبد الله غلفان الذي جلب لي من فرنسا ما كنت في حاجة إليه من مصادر ومراجع. كما أشكر مدير عام دار الكتاب الجديد المتحدة السيد سالم أحمد الزريقاني الذي جدّد ثقته بنشر هذا الكتاب.

مصطفى غلفان

الدار البيضاء 28 فبراير/شباط 2010

الباب الأول

الإطار النظريّ والمنهجيّ للسانيّات الوصفيّة/البنيويّة

تمهيد

ما اللسانيّات؟

تعود الأصول الأولى للمقاربة اللسانيّة البنيويّة إلى الأفكار والتصوّرات التي عبَّر عنها، بكيفية غير مباشرة كلٌّ من بودوان دو كورتناي (1845–1929) *Baudouin de Courtenay* وويليام ويتني (1827-1894) *William Dwight Whitney* وفردينان دو سوسير (1857-1913) *Ferdinand de Saussure* الذين يُعَدُّون بنسب متفاوتة الأهمية مجدِّدين ومؤسِّسين لفكر لسانيّ جديد، ظهرت بفضلهم ملامحُه النظرية والمنهجية، من خلال دروس ومحاضرات أُلقيت، أو مقالات نُشرت هنا وهناك. ويرجع الفضل العظيم إلى هؤلاء العلماء في الانتقال بالبحث اللغوي من المرحلة التاريخية إلى مرحلةٍ جديدةٍ هي المرحلة الوصفية بما سيترتّب عنها من مناهج جديدة. لقد سمحت أعمالهم وتعاليمهم بالكشف عن الطبيعة الحقيقية للغة البشرية وفق طرائق تحليل مغايرة كلّياً ومفاهيم تصورية مبتكرة، رسمت المنحى الجديد للسانيّات التي حاول هؤلاء تأسيسها بنوع من التفرد المنهجي والتحديد العقلاني، والواقعية في معالجة المشاكل الموروثة عن الحقب السالفة من الفكر اللغوي.

وبالرغم مِمَّا أتى به هؤلاء اللسانيون من جديد الفكر والتبصّر في قضايا اللغة البشرية وطرائق معالجتها وتحليلها، لم تنتقل اللسانيّات إلى واجهة العلوم الإنسانية وتصبح علماً طليعياً إلّا حين ارتبطت بصفة "البنيويّة" أو "الوصفية". ولم تبلغ اللسانيّات أيضاً ما بلغته من الموضوعية والدقّة العلمية، إلا بعد أن وضعت اللسانيّات البنيويّة منهجيتها المضبوطة تصورياً وإجرائياً وعملت على تثبيتها في أوروبا وأميركا. "فالمعالجة البنيويّة للغة هي وحدها التي أكسبت

اللسانيّات في النصف الأول من القرن العشرين سمتها الخاصة والنمطية المتميزة"[1]. وهكذا كانت اللسانيّات البنيويّة هي الشرارة التي ألهبت حقل البحث اللساني الحديث مبرزةً من جديد قيمة آراء الروّاد التي شكّلت الأسس المتينة للسانيّات. وقد طرحت اللسانيّات في صورتها الجديدة مجموعةً من الأسئلة منها:

- ما الوقائع اللغوية التي ينبغي اعتمادها؟
- كيف يمكن تقييم أهمّيتها؟
- بأيّ منهج يمكن تجنّب العشوائية في التحليل؟[2]

لم تقم اللسانيّات الحديثة بنفي التراث اللغوي المتراكم تاريخياً في الثقافة الغربية بقدر ما أبعدت عن دائرة اهتمامها جملة من القضايا العقيمة التي لا طائل من ورائها، فكان التخلّي عن العديد من القضايا الفكرية غير المجدية أو التي تقوم على أسسٍ غير قابلة للاختبار، فتمّ الابتعاد عن الخوض في موضوع نشأة اللغة وتفرعاتها المختلفة والمفاضلة بين الألسن الطبيعية والبحث في "اللغة الأم" أو "اللغة الأولى" على نحو ما فعل المقارنون في القرن التاسع عشر. ومقابل ذلك انصبّ الاهتمام حول القضايا الداخلية للغة وما تطرحه من مشاكل. "فاللغة في أشكالها الأساسية تعبير علامي (رمزي *symbolique*) عن مشاعر الإنسان الحدسية التي يمكن أن تصاغ في العديد من الصور بقطع النظر عن درجة التقدّم الماديّ للشعب الذي يستخدم تلك الأشكال أو تخلّفه"[3]. ومن النتائج المباشرة لهذا التفكير الجديد في اللسانيّات، اتساع المعطيات اللغوية المعتمدة في البحث اللغوي على عكس ما كان معمولاً به في المقاربتين المقارنة والتاريخية اللتين

(1) ميلكا إيفيتش. **اتجاهات البحث اللساني**، ص106.

(2) Maurice Leroy. *Les grands courants de la linguistique moderne*, Paris, Bruxelles, PUF, 1966, p. 93.

(3) إدوارد سابير. **اللغة، مقدمة في دراسة اللغة**، (ترجمة المنصف عاشور)، تونس، الدار العربية للكتاب، ط2، 1997، ط1، 1987/ 1921، ج2، ص11. [تشير السنة الميلادية المذكورة بعد الخط المائل إلى سنة الطبعة الأولى من الكتاب أو إلى سنة إصداره الأصلي عندما يكون مترجماً].

حصرتا اهتماماتهما اللغوية كما هو معلوم في الألسن الهندية ــ الأوروبية، أو على الأصحّ الألسن ذات الحضارات الكبرى، لاسيما ما كان منها أوروبياً. وبذلك ساهمت اللسانيّات الوصفية في أميركا على وجه التحديد في تقديم مادة لغوية غنية مستمدّة برمّتها من ألسن غير هندية ــ أوروبية. وهذا ما جعل أحد مؤرّخي اللسانيّات يذهب إلى القول بأن اللسانيّات العامة ستكون فقيرة دون مساهمة الأخصائيين في هذه الألسن"[4]. أما من الناحية النظرية والمنهجية، فقد كان لهذه المعطيات الجديدة دورٌ حاسمٌ في إيجاد رؤية لغوية مغايرة لما كان سائداً. و"بالتخلي عن المعايير النحوية التقليدية في العمل التحليلي، واجه اللسانيون المعاصرون ضروباً من الأنماط الحقيقية للأبنية اللسانيّة لم يحلموا بها"[5]. وأخيراً فَتَح تراكمُ المعطيات الجديدة البابَ أمام تخصّصات وفروع لسانيّة جديدة ليس هنا مجال الخوض فيها.

في ضوء هذه التحولات التي ظهرت خلال النصف الأخير من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين وما صاحبها من منهجيات وتساؤلات، صاغت اللسانيّات الناشئة مع سوسير ومن جاء بعده جملةً من الأسئلة المنهجية الجديدة التي تبتعدُ عن ملامسة العناصر الخارجية للظاهرة اللغوية وتفرعاتها مقابل أسئلة تتوخى دقّة التحليل وشموليته، والموضوعية في الاستنتاج والتماسك في الاستدلال.

- ما حقيقة اللسان؟
- ما طبيعة الحدث اللغوي؟
- هل صحيح أن اللسان لا يتمثل في التغيير الذي يصيبه؟
- كيف يظلّ اللسان هو ذاته حتى وهو يتغير؟
- كيف يشتغل اللسان؟ وما العلاقة بين الأصوات والمعنى؟[6]

(4) Bertil Malmberg. *Histoire de la linguistique. De Sumer à Saussure*, Paris, PUF, 1991, p.461.

(5) ميلكا إيفيتش. **اتجاهات البحث اللساني**، ص105.

(6) E. Benveniste. *Problèmes de linguistique générale*, tome 1, Paris, Gallimard, 1966, p.7.

فهذه الأسئلة وغيرها لم تطرح من قبل لا في إطار اللسانيّات المقارنة ولا في إطار اللسانيّات التاريخية. وللتذكير فإن تحديد المشكل يختصر حسب باشلار إحدى مزايا التفكير العلمي الحديث. يتعين أولاً معرفة وضع المشاكل بشكل دقيق. فالإحساس بالإشكالات هو في ذاته علامةٌ متميزة للفكر العلمي الحقيقي. ففي مجال العلم، لا شيء يبدو واضحاً في ذاته. لا شيء معطى[7]. وبالتالي تبدأ المعرفة بالتساؤل عن طبيعة الأشياء، ليس ذلك التساؤل الفلسفي العقيم عن الأصل والفرع للأشياء ولنشأتها، وإنما التساؤل عن كنه الموضوعات التي تبدو ملامحها ذات أبعاد إشكالية في نظر العَالِم وعلى غير الصورة التي تبدو عليه بالنسبة إلى الإنسان العادي أو ما يوصف بالحسّ المشترك. وحين يغيب السؤال لا يمكن أن تكون ثمة معرفة علمية. وفي مجال اللسانيّات، فإن ماهية الكيان اللغوي *Entité linguistique* كموضوع للسانيّات وما ينبغي أن يدرس منه، وما لا يمكن تناوله شكّل التساؤلات الحاسمة التي أشَّرَت إلى ظهور لسانيّات جديدة مع سوسير[8]. لقد كانت ضرورة تحديد طبيعة الوقائع اللغوية من منظور لساني المنطلقَ الحاسم وراء وضع سوسير لمجمل التعريفات التي أضحت تقليدية حول طبيعة العلامة اللغوية، ومختلف المحاور التي يمكن دراسة اللسان في ضوئها[9].

في هذا السياق لم يعد ممكناً الحديث عن وصف لسان معين دون تحديد طبيعة بعض المفاهيم مثل، الوصف اللساني، ومفهوم التحليل اللساني ومفهوم اللسان من حيث طبيعته وخصائصه المميّزة. وقد سعت الدراسات اللسانيّة منذ بداية القرن العشرين إلى تحديد مهامّها ودورها من خلال صياغة جملة من الأسئلة المنهجية الجديدة، ومنها على سبيل التمثيل لا الحصر:

- ما الذي يميز الوصف اللساني عن المقاربة النحوية واللغوية القديمة؟

(7) G. Bachelard. *Formation de l'esprit scientifique*, Paris, PUF, 1944, p.4.

(8) F. de Saussure. *Ecrits de linguistique générale,* Paris, Gallimard, 2002, p.17-19. (Texte établi et édité par Simon Bouquet et Rudolf Engler).

(9) Emile Benveniste. *Problèmes de linguistique générale*, tome 2, Paris, Gallimard, 1974, p.14.

- ما شروط علمية الوصف اللساني؟
- ما الذي يجعل من الوصف اللساني الحديث ذا مردودية من الناحية النظرية أو المنهجية؟

من جهة ثانية يتعيّن تحديد طبيعة الباحث اللساني نفسه.

- من هو اللساني؟ وما مهمّته؟ ما الفرق بينه وبين النَّحْوِيّ أو اللغويّ بالمعنى العام؟
- ماذا يمكنه أن يقدّم لنا من جديد في تعامله مع اللغة؟

يتطلب الوصف اللساني الحديث تصوراً نسقياً شاملاً وموضوعية تامة في التعامل مع قضايا لسان معين بواسطة ملاحظات يمكن التحقّق منها اختبارياً وإثباتها في إطار نظرية عامة تكون ملائمة للحقائق والمعطيات المتعلقة بدراسة هذا اللسان أو ذاك. وهو ما يقودنا إلى التساؤل عن طبيعة المعرفة العملية ذاتها: ما العلم؟ ما دلالته المنهجية؟ وبما أنّ المجال ليس مناسباً للحديث بتفصيل عن مفهوم العلم والعلمية وعن خصائص المقاربة العلمية وشروطها الموضوعية نظرياً ومنهجياً، نكتفي بإشارة سريعة إلى أبرز جوانب العلمية التي رافقت الممارسة اللسانيّة في صورتها البنيويّة/ الوصفية.

فالقول بأن اللسانيّات علم معناه تحديداً أنها تعالج موضوعاً خاصاً بها هو اللسان *langue* (المنطوق أو المكتوب)، وأنَّها تستعمل طرائق قابلة للاختبار بالقياس إلى المبادئ التَّصورية المُعلَنة وإلى النَّظرية الواصِفَة. إنَّ هدف اللسانيّات، وهي تُحلِّل المواد اللغوية وتعالجها، أَنْ تأخذ في الاعتبار ما يتضمَّنه التنوع اللَّامحدود للظَّواهر اللُّغوية من اطرادات *régularités*. وللقيام بمهامِّها وتحقيق أهدافها بكيفية علمية، ترتكز اللسانيّات في اشتغالها على ثلاثة مبادئ علمية:

- الشمولية، أي معالجة كل الموادّ المعروضة للدراسة على نحو شمولي.
- الانسجام وهو أن يكون التحليل غير متناقض في الأجزاء المكَوِّنة له.
- الاقتصاد ويتمثَّل في تحليل الظواهر المتشابهة أو المتساوية وردِّها إلى

أقل عدد ممكن من القوانين العامة. إن اللسانيّات كعلم اختباري يعني أنَّها تعالج موضوعاً مُحدَّداً قابلاً للمُراقبة[10].

وليست اللسانيّات فقط تأكيداً على الحاجة إلى الدِّقة والموضوعية التي هي ملامح مشتركة بين جميع المجالات العلمية، بل إنَّها منذ سوسير ومن جاء بعده تحوُّل جذريٌّ إزاء موضوع دراستها. فمع اللسانيّات الوصفيّة أصبح تحديد الموضوع في حاجة إلى مجهود تجريدي وتصوّري لكي تتمّ صياغته صورياً"[11]، وأصبح تناوله من وجهة لسانيّة جديدة يتطلَّب تحديد المناهج الملائمة لتحليله. ولا يُتَناول الموضوع في اللسانيّات بكيفية مباشرة، بل يخضع لعملية بناء تصوّرية. إن الموضوع ليس هو الواقع الأكثر ظهوراً. إن إدراك الموضوع مرتبط بالمنهج والأدوات المسْتَعمَلَة في تناوله. فالخطاب العلمي يخلق الحدود الخاصة بالمجال الَّذي يندرج فيه موضوعه، بحيث إنَّ الموضوع يُحَدَّد بشكل مضبوط وفق المنهج الذي ننظر من خلاله إلى هذا الموضوع. وفي هذا السِّياق نَفْهَم ما ذهب إليه سوسير حين قال: إنَّ وجهة النظر، (أي المنهج)، هي الَّتي تخلق الموضوع". وقد أبانت اللسانيّات مع سوسير على تَـمَيُّز خطابها العلمي من خلال قدرته النظرية والمنهجية العالية على مُساءَلة كلِّ الجوانب المتعلِّقة ببناء الموضوع في اللسانيّات. والممارسة العلمية للموضوع هي عملية تجريد. إنها انتقاء واختصار للظاهرة أو الظواهر المدروسة على أساس جوانبها الأكثر تمثيلية. إن التَّجريد بمعنى آخر هو الابتعاد التَّام عن الإدراك المباشر لموضوع الدِّراسة اللسانيّة الَّذي هو اللِّسان. وليس التَّجريد جمع التَّراكمات وتكثيفها أو الاختصار المبالغ فيه للمادَّة المدروسة، بل هو نوع من الانفصال عن الإحساس المباشر بالمادة. إن التَّناول العلميّ للموضوع يعني القدرة على تحويل الواقع الملموس إلى واقعٍ من صنفٍ آخر هو الواقع الموضوعي، الثَّابت لا المتغيِّر.

وليس معنى هذا أن التحليل اللغوي وفق درجة معينة من تجريد الموضوع،

---

(10) R. H. Robins. *Linguistique générale: Une introduction,* Paris, Armand Colin, 1974/1964, p.20-21.

(11) Emile Benveniste. *Problèmes de linguistique générale*, tome 1, Paris, Gallimard, 1966, p.7.

وعلى أسس منهجية، لم يكن معروفاً في اللغويات القديمة. ففي التقاليد اللغوية المتعلقة بالألسن الهنديّة-الأوروبية يُقسَّم التَّحليل إلى نوعين:

- تحليل نحوي *Analyse grammaticale*
- تحليل منطقي *Analyse logique*

يُحدِّد التَّحليل النَّحوي مجموع القواعد الَّتي تضبط طبيعة المفردات ووظيفتها أي الوحدات المكَوِّنة للجملة. أما التَّحليل المنطقي فيهتمُّ بدراسة طبيعة القضيّة *proposition* التي تتضمَّنها الجملة.

أمَّا في اللسانيّات البنيويّة فيقوم التَّحليل على جملة من الإجراءات الَّتي تكون عبارة عن مجموعة من العمليَّات المُنَسَّقَة انطلاقاً من تصوُّر مُحدَّد، تهدف إلى وصف موضوع مُحدَّد بحسب مستوى معيّن من مستويات التَّحليل اللُّغوي. ويميِّز في اللسانيّات البنيويّة بين نوعين من الإجراءات:

- إجراءات تحليليّة تهدف إلى تحليل الموضوع في اللسانيّات باعتباره بنية شاملة قصد الكشف عن شبكة العلاقات الَّتي تربط بين العناصر المكَوِّنة لهذه البنية بحسب مستوى التَّحليل المنظور إليه (صِواتَة ـ صِرافَة[12] ـ تركيب). ويكون الإجراء تحليلياً عندما ينطلق تنازلياً من الكل للوصول إلى العناصر المُكَوِّنة لهذا الكلِّ، أي من الجملة إلى الصوتة[13] (الفونيم *Phonème*).

(12) نستعمل مصطلح الصواتة والصرافة كمقابل للمصطلحين *phonologie* و*morphologie*. وقد استعملهما على وجه التحديد: إدريس السغروشني في: **مدخل للصِّواتة التوليدية**، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 1987.
عبد القادر الفاسي الفهري في كتاباته التوليدية. انظر: **معجم المصطلحات اللسانيّة (إنجليزي ـ فرنسي ـ عربي)**، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2009.

(13) نستعمل مصطلح "صُوتَة" والجمع "صُوتات" كمقابل للمصطلح *phonème/s*. تبعاً لأستاذنا التهامي الراجي الهاشمي الذي استعمل هذا المصطلح وغيره كما سيرد ذلك في فصول أخرى من هذا الكتاب، في دروسه بكلية الآداب بالرباط خلال الموسم الجامعي 1974-1975. واتبع هو نفسه هذه المصطلحات في سلسلة الدراسات اللغوية التي شرع في نشرها ابتداء من 1977 عند دار النشر المغربية بالدار البيضاء، لاسيما السلسلة رقم 2.

* إجراءات تركيبية وتهتمّ بدراسة العناصر الأجزاء من أصغر وحدة صعوداً إلى أعلاها، أي من الصوتة إلى الجملة.

وسنحاول في فصول هذا الكتاب الوقوف بشكل عام على مقوّمات هذه الإجراءات وكيفية اشتغالها في مختلف المنهجيات التي سادت اللسانيّات البنيويّة.

الفصل الأول

الإطار العام للسانيّات الحديثة

قامت اللسانيّات الوصفية كما هو معروف تاريخياً على أنقاض اللسانيّات المقارنة والتّاريخية الّتي سادت أوروبا خلال القرن التاسع عشر. وتهتمُّ اللسانيّات التّاريخية بدراسة مظاهر التّطور الطارئ على الألسن الطبيعيّة في مختلف مستوياتها الصّواتية والصّرافِية والتّركيبية والمعجميّة. أمّا اللسانيّات الوصفية" -كما يدلُّ على ذلك اسمها- فتصف اللِّسان وتفحص ظواهرَه ومظاهرَه على سبيل المثال: الأصوات أو التّركيب الخاصّ في فترة تاريخيّة معيَّنة"[1]. وترتبط اللسانيّات الوصفيّة "بوصف وتحليل اشْتِغال لسان مُحدَّد واستعماله من طرف مُتكلِّمين مُحدَّدين في لحظة مُحدَّدة. وهذه اللَّحظة يمكن أن تكون الحاضر أو أيَّ فترة من الماضي[2]. واللسانيّات الوصفيّة فرع من اللسانيّات العامَّة إلى جانب اللسانيّات التّاريخية واللسانيّات المقارنة، وهي (اللسانيّات الوصفيّة) غالباً ما تُعدُّ الجزء الأساس في اللسانيّات العامَّة"[3]. على أنَّ التمييز بين اللسانيّات الوصفيّة واللسانيّات التّاريخية في نظر بعض

(1) ماريو باي. **أسس علم اللغة**، (ترجمة أحمد مختار عمر)، عالم الكتب، القاهرة، ط8، 1998/ 1973، ص36. وهو ترجمة لكتاب:

Mario Pei (1901-1978). *Invitation to Linguistics*, 1965.

(2) G. C. Lepschy. *la linguistique structurale*, Paris, Payot, 1969/1966, p.18 et suivantes.

(3) R. H. Robins. *linguistique générale : une introduction*, Paris, Armand Colin, 1973/1964, p.18.

الدارسين"يفتقر إلى المنطق والتناظر، إذ لا شيء يمنع من وصف الماضي دراسة وصفية وتاريخية في الوقت ذاته"(4).

1.1. اللسانيّات العامة: دلالة المفهوم

يتطلب تحديد مفهوم اللسانيّات العامة العودة إلى الإطار المعرفيّ الذي ظهر فيه هذا المفهوم للوقوف على العوامل التي ساهمت في بلورته قبل أن ينتشر استعماله ويصبح مجالاً مُحدَّداً له إطاره التَّصوري والمنهجي. ولهذه الغاية اهتمّ بعضُ الدارسين بوضع *statut* اللسانيّات العامة (بالمعنى الإبستيمولوجي للكلمة) خلال الحقبة الواقعة ما بين 1870 و1930، التي تُعدّ الفترة الذهبية للبحث اللغوي والإطار العام الذي ستظهر فيه اللسانيّات البنيويّة. وقد تميزت هذه الفترة بوجود تصورين لغويين بارزين:

- اللسانيّات التاريخية مع النُّحاة الجدد ابتداء من 1875 في ليبزغ.
- اللسانيّات السكونية في أوروبا مع سوسير ومن جاء بعده (بالي/ سيشهاي) واللسانيّات الوصفية في أميركا مع بوعاز وسابير وبلومفيلد.

وبين هذين المسارين تبدو اللسانيّات العامة التي سيرتبط ظهورها بدروس سوسير موضوع العديد من التساؤلات المتعلّقة بطبيعة هذه التسمية ومحتواها من الناحية العملية.

- ما المقصود باللسانيّات العامة؟
- ماذا يندرج تحت هذه التسمية؟
- ما الكتابات التي تُحيل عليها أو تمثّل مصادرها؟

لاحظ بعض المؤرّخين أن "مفهوم اللسانيّات العامة" في الفترة التي أشرنا إليها كان غامضاً، لا يحيل على محتوى مجال فعلي محدّد تحديداً دقيقاً، مرتبط بتصور نظري ومنهجي مضبوط للسانيّات العامة، بقدر ما كان يُحيل على محتوى

(4) Yen Ren Chao. *Langage et systèmes symboliques*, Paris, Payot, 1968/1966, p.15.

ذي طبيعة برنامجية، بل إنّ بعضهم كان يشكّك في إمكانية وجود هذه اللسانيّات العامة نفسها، وأن يكون هناك من هو قادر على معالجتها معالجةً منهجيةً ونظرية مناسبة[5]. واللسانيّات العامة المقصودة هنا هي دراسة القوانين والمبادئ اللغوية العامة التي تتجاوز حدود الألسن الخاصة وتحكم اشتغال اللغة البشرية.

وجدير بالإشارة أن عبارة اللسانيّات العامة *linguistique générale* تنظر حرفياً في تسمية مماثلة باللغة الألمانية، هي عبارة *Allgemeine wissenschaft* الواردة في أشهر أعمال هرمان بول *Hermann Paul* سنة 1880 (**أسس تاريخ اللغات** *Prinzipien der sprachgeschiste*) الذي اعتبر فيه أن اللسانيّات العامة- وهي الجانب العام في اللسانيّات- تمثّل مشروع حقل علمي ينبغي أن يكون مستقلاً ومنفصلاً عن فلسفة اللغة وأن يكون أكثر المجالات اللسانيّة اختبارية[6]. لقد كانت عبارة "اللسانيّات العامة" في الأدبيات اللسانيّة الفرنسية والإنكليزية والألمانية خلال الفترة المشار إليها سابقاً تحيل على خمسة موضوعات رئيسية تتقاطعُ فيما بينها أحياناً وهي:

أ - تقديم اللسانيّات ونتائجها، على نحو دروس أو مُقَدِّمَات أو مداخل أو دروس تركيبية.

ب - مؤلّفات ذات طبيعة تبسيطية *vulgarisante* بدرجات متفاوتة حول اللغة.

جـ - موسوعات ذات طبيعة بيبليوغرافية تتعلّق بمجموع الألسن،

د - مناقشات منهجية (جلّها حول مفهوم القانون الصوتي)،

هـ - مونوغرافيات حول المقولات المستعملة في اللسانيّات مدعمة بأمثلة من ألسن خاصة (النوع، المماثلة الصامتية، التناوب الصوتي، التحولات الصوتية، القياس، التغيير اللغوي)[7].

---

(5) Sylvain Auroux. La notion de linguistique générale, in Histoire, Epistémologie et langage, 10-II, Presse Universitaires de Lille, 1988, p.40.

(6) Sylvain Auroux, *la notion de linguistique générale*, p.41.

(7) Ibid, p.44.

ويُلَاحَظُ أن سوسير الذي يُنْسَبُ إليه فضلُ تأسيس اللسانيّات العامة بوصفها علماً له موضوعه ومناهجه الخاصة به، لم يقدّم لإدارة جامعة جنيف أي تبرير أو توضيح لمحتوى المادة التي كان يُدَرِّسُها تحت اسم "اللسانيّات العامة" ما بين 1907 و1911، بل إنه حسب بعض الروايات كان يفضّل تسمية دروسه بفلسفة اللغة *philosophie du langage*[8].

وتبعاً لهذه المعطيات التاريخية الهامة يمكن أن نقول بأنّ ما يندرجُ عادةً تحت اسم "اللسانيّات العامة"، هو البحث في المسائل اللغوية التالية منفردة أو مجتمعة[9]:

- قضايا تعريف اللغة البشرية وتحديد طبيعتها النفسية والاجتماعية والسيميولوجية والنتائج النظرية المترتبة عن تحليلها من هذا المنظور أو ذاك.

- وصف البنيات اللغوية في مستويات التحليل، مثل الصِّواتَة والصِّرافَة والتركيب والدلالة والمعجم....

- المبادئ العامة والمفاهيم المتحكّمة في مستويات التحليل المعروفة ووحداتها المختلفة (صوتة *phonème* صُرْفَة *morphème* مُركَّب *syntagme* مُكَوِّن *constituant*... إلخ، سواء من حيث تحديد طبيعتها، أو دورها، أو القيود على توليفاتها، وعلاقتها بوحدات المستويات الأخرى.

- الاتجاهات العامة في البحث اللساني.

- البحث في النماذج اللسانيّة[10]، سواء طبيعتها، وكيفية وضعها، أم من

(8) F. de Saussure. *Ecrits en linguistique générale*, Paris, Gallimard, 2002, p.8.

(9) لتوضيح الإطار المعرفي العام الذي نتعامل من خلاله مع اللسانيات العامة بمختلف اتجاهاتها الوصفية والتوليدية والوظيفية نقدّم هذه الفقرة من كتابنا: **في اللسانيات العامة**.

(10) L. I. Revsin. *Les modèles linguistiques*, Paris, Dunod, 1968 (traduit du russe)/1967.

حيث القضايا النظرية والمنهجية المتعلّقة ببنائها، وعلاقة كل ذلك بالألسن المدروسة.

- البحث في المناهج *méthodes* أو المنهجيات *méthodologies* التي ينبغي اتباعها وطرق اختبارها عملياً في دراسة اللغة.

وقد تُقَدَّم اللسانيّات في صورة أعمّ وأوسع وأشمل، فتعرض بعض الكتابات في اللسانيّات العامة تصنيف الألسن الطبيعية وتوزيعها جغرافياً، وعدد المتكلمين بها، ومستويات اللغة فيها من أدبي ودارج ومنطوق ومكتوب.

ولم تكن هذه المحاور الأساس في البحث اللساني بقارة، بل عرفت حركية دائمة، بحيث ظهرت محاور بحث وتأمل جديدة واختفت أخرى أو أُدمجت في غيرها بحسب طبيعة الاهتمامات اللسانيّة التي تعبّر عنها مختلف التصورات اللسانيّة في فترة زمنية معينة، وفي علاقاتها المتنوعة بعلوم أخرى مجاورة. والمُلاحَظُ أنّ بعض القضايا التي كانت في بداية القرن العشرين جزءاً من اللسانيّات العامة، أصبحت اليوم فرعاً من فروعها، تتمتّع باستقلال منهجيّ ونظري، مُحَدِّدَة لنفسها ما يناسبها من مبادئ نظرية عامة وخصائص منهجية، مستقلة جزئياً أو كلّياً عن اللسانيّات، مثلما هو الوضع الآن بالنسبة إلى علم الاجتماع اللغوي، وعلم النفس اللغوي. وأصبحت الجغرافيا اللغوية وصناعة الأطالس اللغوية بدورهما جزءاً من دراسة مستقلة كلّياً هي علم اللهجات *Dialectologie*. وتبعاً لـما تقدَّم، يمكن التَّمييز بين نوعين من المبادئ في اللسانيّات العامة:

أولاً: مبادئ مرتبطة بالإطار المنهجي العام للسانيّات وتتعلق بـ:

- طبيعة البحث اللساني، ومجاله، وضبط موضوعه وهدف دراسته،
- علاقة النظرية العامة المقترحة بالألسن الطبيعية الخاصة،
- التمييز بين البعدين التزامني (السانكروني) والتعاقبي (الدياكروني) في التحليل اللساني،

* اللغة مستويات تراتبية يتعين عدم الخلط بينها.
* نسقية اللسان وما يترتّب عنها من مبادئ منهجية ومفاهيم إجرائية هامة مثل: البنية، والعلاقات والقيمة وما إلى ذلك من المفاهيم التي استعملت في إطار اللسانيّات البنيويّة وغيرها[11].

ثانياً: مبادئ مرتبطة بالإطار النظريّ أو المنهجيّ لتصور لساني معين، وهي في أصلها مفاهيم تصوّرية، أو أدوات إجرائية أبانت عن فعاليتها في التحليل اللساني، فأضحت مبادئ ثابتة تحدّد هذا الإطار النظري أو ذاك. ونذكر من هذه المبادئ، على سبيل التمثيل لا الحصر:

* الثنائيات اللسانيّة: لسان/ كلام ودال/ مدلول ودلالة/ قيمةٌ وغيرها من الثنائيات التي تمّ تداولها بشكل كبير في مختلف اتجاهات اللسانيّات البنيويّة في أوروبا على وجه الخصوص.

ثالثاً: مفاهيم نظرية وإجرائية عامة مثل:

* الصوتات *phonèmes* والتقابل *opposition* والسّمات المميزة *traits distinctifs*، وما شابه ذلك في التحليل الصّواتي *Analyse phonologique* عند حلقة براغ، وباقي الاتجاهات اللسانيّة البنيويّة في أوروبا وأميركا مع اختلافات تصوّرية وإجرائية متفاوتة الأهمية،
* التعبير *expression* والمضمون *contenu* في التحليل الغلوسيماتي على سبيل التمثيل لا الحصر،
* إجراء التقطيع، والتوزيع، والاستبدال، والتعويض، والعلاقات السياقية والعلاقات الجدولية، محور الاختيار في اللسانيّات البنيويّة، عامة واللسانيّات التوزيعية خاصة.

---

(11) انظر تفاصيل هذه المفاهيم والأسس في كتابنا: **في اللسانيات العامة**.

رابعاً: مفاهيم تصوّرية ومنهجية عامة تتعلق بنظرية محدّدة مثل:

- التمييز بين البنية السطحية *structure de surface* والبنية العميقة *structure profonde* التمييز بين القدرة *compétence* والإنجاز *performance*
- التحويلات *transformations*
- استقلالية التركيب وأولويته وغير ذلك من المفاهيم الأساس في اللسانيّات التوليدية.

خامساً: المبادئ الأساس في اللسانيّات الوظيفية مثل:

- وظيفة الألسن الطبيعية الأساسية هي التواصل.
- موضوع الدرس اللسانيّ هو وصف القدرة التواصلية للمتكلّم/السامع.
- النحو الوظيفي نظرية للتركيب والدلالة منظوراً إليهما من وجهة تداولية،
- يسعى الوصف اللغوي الطامح إلى الكفاية إلى تحقيق أنواع ثلاثة من الكفاية: الكفاية النفسية والكفاية التداولية والكفاية النمطية[12].

وبالإمكان الاستمرار في تقديم المبادئ الأساس المتعلّقة بهذا الاتجاه أو ذاك. ما يهمّنا في المقام الأول، هو المبادئ التي تشكّل القاسم المشترك بين مختلف التيارات اللسانيّة الحديثة، أي تلك المبادئ التي يمكن عدُّها منطلقات مؤسِّسة لعلمية اللسانيّات ذاتها، ومؤطّرة لاستقلاليتها المنهجية، ولم يكن بإمكان البحث اللساني، دونها، أن يصل إلى ما هو عليه اليوم، من ضبط ودقَّة، سواء في أوروبا على يد سوسير وأتباعه، أم في أميركا على يد سابير وبلومفيلد وهاريس وتشومسكي وغيرهم. وتبدو أهمّية هذه المبادئ الأساس في اللسانيّات أنَّ وضعها لم يكُن اعتباطياً، بل كانت جزءاً من بناء نظريّ مُحكم.

(12) أحمد المتوكل. **الوظائف التداولية**، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1985، ص10.

2.1. نشأة اللسانيّات الحديثة

جرت العادة أن ينسب ميلاد اللسانيّات إلى اللسانيّ السويسريّ فردينان دو سوسير لتأكيده القوي - في فترة سادت فيها الدراسات التاريخية- على أهمّية وصف اللسان وصفاً تزامنياً. ورغم ظهور جملة من الأفكار اللسانيّة الجديدة التي قدَّمها سوسير في دروسه الثلاثة بجامعة جنيف *Genève* في موضوع اللسانيّات العامة بين سنوات 1907 ـ 1911[13]، وتمّ نشرها سنة 1916، فإن بعض الدارسين يجعل من سنة 1928 سنة ميلاد اللسانيّات البنيويّة، وذلك في المؤتمر الدوليّ الأول للسانيين المنعقد بمدينة لاهاي La haye الذي قُدِّمت فيه جملة من التصورات اللسانيّة التي تدعو إلى منهجية غير مسبوقة في دراسة أصوات اللغة الطبيعية من قبل الثلاثي: تروبتسكوي وجاكبسون وكارسفسكي، وهو ما يعرف في تاريخ اللسانيّات الحديثة بالاقتراح 22 معلنين فيه ميلادَ الصِّواتة *phonologie* الجديدة انطلاقاً من المفاهيم اللسانيّة التي عبّر عنها سوسير في دروسه.

وشهدت نهايةُ العقد الثاني من القرن العشرين، بالإضافة إلى صدور **دروس في اللسانيّات العامة** لسوسير سنة 1916، وانعقاد مؤتمر لاهاي *La Haye* سنة 1928، مجموعةً من الأحداث العلمية والفكرية في مجال اللسانيّات، التي اعتبرت بحقّ، بمثابة بداية عهد جديد، لما أصبح يعرف باللسانيّات البنبوية، ونذكر من بين هذه الأحداث[14]:

- تأسيس **الجمعية الأميركية للسانيات** *Société Américaine de Linguistique* سنة 1924.
- صدور مجلة "**اللغة**" *Language* سنة 1925 بالولايات المتّحدة الأميركية ولسان حال الجمعية الأميركية للسانيّات. وكان اللسانيّ بلومفيلد واحداً من بين أبرز مؤسّسي هذه الجمعية ومجلّتها.

(13) Robert Godel. *Les sources manuscrites du Cours de linguistique générale*, Genève, Droz, 1969/1957, p.29.

(14) J. P. Corneille. *La linguistique structurale, sa portée et ses limites,* Paris, Larousse, 1977, p.9.

- تأسيس **حلقة براغ اللسانية** *Le Cercle Linguistique de Prague* في أكتوبر/ تشرين الأول 1926.
- نشر العدد الأول من مجلة حلقة براغ التي تحمل عنوان "**أعمال حلقة براغ اللسانية** *Les Travaux du Cercle Linguistique de Prague* سنة 1929.
- انعقاد عدد من المؤتمرات الدولية حول اللسانيّات وبعض فروعها مثل علم الأصواتية في العديد من الأقطار الأوروبية ابتداء من العام 1928. وقد حضر هذه اللقاءات عددٌ كبير من الأقطاب المؤسّسين للسانيّات البنيويّة أمثال: بلومفيلد *Léonard Bloomfield* وبوعاز *Franz Boas* وماتزيوس *Vilhèm Mathésius* وجاكبسون *Roman Jakobson* وتروبتسكوي *Nicolay Serguevitch Troubetskoy* وشارل بالي *Charles Bally* وأنطوان مِييه *Antoine Meillet* وغيرهم[15]. كما حضر هذه اللقاءات أيضاً ممثّلون عن المنظّمات الدولية الأصواتية المهتمة ومنها: "الجمعية الدولية الأصواتية" والجمعية الأميركية للسانيّات، ومعهد الأصواتية بباريس *Institut phonétique de Paris*. وجمعية الأميركانيين *Société des américanistes*. وشكّلت هذه اللقاءات العلمية دفعةً كبيرةً في لفت انتباه المحافل العلمية إلى الإنجازات العلمية التي حقّقتها اللسانيّات وفروعها (لاسيما الأصواتية *phonétique* والصّواتة *phonologie*) في دراسة اللغة البشرية)[16].

---

(15) توالت المؤتمرات واللقاءات العلمية المتعلقة باللسانيات، ونذكر أشهرها:
- الملتقى العالمي الأول لعلماء الفونولوجيا ببراغ، 1930.
- المؤتمر الثاني للسانيين جنيف، 1931.
- المؤتمرالأول للعلوم الصوتية بأمستردام، 1932.
- المؤتمر العالمي الثالث للسانيين بروما، 1933.
- المؤتمر العالمي الثاني للعلوم الصوتية بلندن، 1935.
- المؤتمر العالمي الرابع للسانيين، بكوبنهاغن، 1936.

(16) انظر دراسة Jean Claude Chevalier حول المؤتمرات الدولية في اللسانيات وفروعها في:
Les congrès internationaux et la linguistique, in *Histoire des idées linguistiques*, (sous la direction de Sylvain Auroux), Bruxelles, Mardaga, 2000, pp.517-528.

وقطعت اللسانيّات البنيويّة بصفة عامة كُلَّ أواصر الصلات الَّتي كانت تربطها بالدِّراسات السابقة عليها، سواء أتعلق الأمر بما يعرف بالفيلولوجيا المقارنة والتاريخية أم بالدرس النحوي التقليدي في أوروبا الذي تميز بالمعيارية.

وقد تطور النظر العلميّ في اللغة منذ نشر **دروس** سوسير تطوراً هائلاً لم يعرف تاريخ الفكر اللغوي نظيراً له فيما مضى،حتى أصبح معه شبه مستحيل، الوقوف على جزئيات هذا التَّطور وتفاصيله، نظراً من جهة أولى، إلى تعدُّد الاتجاهات والمذاهب اللسانيّة والمنهجيات التي ظهرت هنا وهناك، وأحياناً داخل البلد الواحد والمدرسة نفسها، ومن جهة ثانية، إلى ما شهده البحث اللساني من توسُّع ونموّ هائل في فروع اللسانيّات ومجالاتها، وتداخل مع علوم ومعارف أخرى، بعضها علميّ محض كالرياضيات، والمنطق، وبعضها الآخر من العلوم الإنسانية، مثل علم النفس وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا.

وليس بالإمكان إنكار المساهمات الفكرية الهامة التي أُنْجِزَت خارج حقل اللغة وكان لها أثر إيجابيّ في اللسانيّات البنيويّة الناشئة. وقد شكّلت بعض الأعمال الرائدة في الأنثروبولوجيا والنقد الأدبي مصدر دفع للسانيّات البنيويّة. فلا أحد يمكنه أن يتجاهل أو ينكر على سبيل التمثيل لا الحصر دور فلاديمير بروب Valadimir Propp في تحليل **مورفولوجيا الحكاية الشعبية** وأعمال ليفي ستروس C. Lévi Strauss الأنثروبولوجية في الدفع بالمنهجية البنيويّة إلى مستوى عالٍ من الضبط والدقّة مكّن اللسانيّات من احتلال صدارة العلوم الإنسانية.

3.1. تعدد الاتجاهات اللسانيّة البنيويّة

أمام هذه الصحوة العلمية الجديدة التي عرفتها أوروبا وأميركا في اللسانيّات منذ عشرينيات القرن الماضي إلى الآن، أصبح من الصعب بمكان، تحديد جميع الاتجاهات والمنهجيات اللسانيّة المتَّبعة، بل وتحديد سمات الدَّرس اللسانيّ البنيوي برمَّته لأسباب عديدة نذكر منها:

- تعدُّد النظريات اللسانيّة،
- تعدُّد اتجاهات البحث اللسانيّ وتداخلها داخل النظرية الواحدة،

- ظهور العديد من مناهج البحث في اللُّغة وطرائق تحليلها،
- كثرة المصطلحات وتنوعها من اتجاه إلى آخر بل داخل الاتجاه الواحد.

هذا التنوعُ والاختلاف المنهجيّ الذي عكسه المشهد اللسانيّ البنيوي، جعل بعضَ الدارسين يتحدث عن وجود وضع فكريّ في مجال البحث اللساني الحديث شبيه ببرج بابل(17). وممّا لا شكّ فيه أن التعدّد والتباين الفكري والمنهجي داخل اللسانيّات البنيويّة يدلُّ على عدة أمور نذكر منها على وجه التحديد:

- أهمّية دراسة اللغة وما يرتبط بها، بوصفها مدخلاً لفهم ظواهر إنسانية أخرى.
- التَّطور المذهل الذي عرفته اللسانيّات في أوروبا وأميركا وانتقالها من منهجية إلى أخرى بحثاً عن الضوابط العلمية المنشودة.
- حركية المنهجية البنيويّة التي انبثقت من اللسانيّات وعمَّت بسرعة فائقة مجالات أخرى من العلوم الإنسانية، مثل، علم الاجتماع وعلم النفس والتاريخ والأنثروبولوجيا والنقد الأدبي.....

وأيًّا كانت خلفيات تعدّد المنهجيات البنيويّة في اللسانيّات والازدهار الذي عرفته في الفكر الإنساني ما بين عشرينيات ونهاية سبعينيات القرن العشرين في أوروبا وأميركا، لدرجة أنَّها حجبت الاهتمام بتيارات فكرية هامة مثل الفلسفة الوجودية والماركسية وغيرهما، فإنَّ مختلف الاتجاهات اللسانيّة البنيويّة تتفق إجمالاً على جملة من الأسس النظرية والمنهجية التي تندرج عادةً في إطار ما سُميَّ باللسانيّات البنيويّة أو اللسانيّات الوصفية.

4.1. بين الوصفية والبنيويّة

شاع مصطلح "الوصفية" مرتبطاً باللسانيّات حتى أصبح من العسير التفريق

(17) J.- P. Corneille. *La linguistique structurale, sa portée et ses limites*, p.9.

بينهما. "فعندما يستخدم الناس كلمة "علم اللغة" من غير إضافة صفة كاشفة، فإنهم يعنون غالباً علم اللغة الوصفي أو التركيبي. وإن علم اللغة الوصفي ليشكّل، بل يجب أن يُشكِّل الأساس للدِّراسات اللغوية[18]. وقد يُستعمل أيضاً مصطلح البنيويّة للإشارة إلى الدِّراسات اللسانيّة التي تعتمد المنهجية الجديدة في اللسانيّات الأوروبية والأميركية. وقد يرد الوصفان البنيويّ والوصفيّ جنباً إلى جنْب، فيقال اللسانيّات البنيويّة الوصفية أو اللسانيّات الوصفية البنيويّة، فهل يتعلّق الأمر بتصور واحد أم بتصورين مختلفين، وما مظاهر الالتقاء والاختلاف بينهما؟

على منوال ما يحصل معرفياً بالنسبة إلى المفاهيم التي تشيع بكثرة وتستعمل بإفراط، نجد أن استعمال عبارة "اللسانيّات البنيويّة" في علاقتها باللسانيّات الوصفية قد صاحبه الغموضُ واللبس وفي أحسن الأحوال نوع من عدم الضبط في التحديد. لاحظ اللسانيّ الإيطالي ليبشي *G. C Lepschy*، وهو صاحب مؤلَّف يحمل عنوان "**اللسانيّات البنيوية**"، أنَّ هذه العبارة لا تخلو من إبهام، لأنَّ الأمر لا يتعلَّق بتسمية تقنية دقيقة، وإنَّما هي إشارة مبهمة[19]. ويذهب ليبشي إلى أنَّ اللسانيّات البنيويّة تدلُّ على تصورات لسانيّة ذات توجّهات نظرية ومنهجية مختلفة، ذَكَر منها:

أ - الأبحاث اللسانيّة الَّتي تطورت في القرن العشرين، وتَمَّ فيها إعداد بعض المبادئ اللسانيّة الأكثر تداولاً في البحث اللساني الحديث، مثل الثنائيات اللسانيّة المشهورة:

- لسان/ كلام *Langue / parole*،
- علاقات سياقية/ علاقات جدولية
relations syntagmatiques/relations paradigmatiques،
- تزامن/ تعاقب *synchronie / diachronie*،

علاوة على مفاهيم مثل الملاءمة *la pertinence*، ومفهوم النموذج *modèle*.

---

(18) ماريو باي. **أسس علم اللغة**، ص238.

(19) G. C. Lepschy. *la linguistique structurale*, p.38 et suivantes.

ب- الأبحاث اللسانيّة التي أكّدت على الطابع النسقي *systémique* والمجرَّد للسان، معتبرة أن الملفوظات *énoncés* الخاصة كتجليات خاصّة ومتغيِّرات للإرساليات *messages* التي يتكلَّف اللسانيّ بوصفها وصياغتها في شفرة *code* مُحَدَّدَة وفق قواعد مُحدَّدة".

ج - اللسانيّات المعروفة بالتوزيعية *distributionnalisme* في أميركا.

وقد أعطى ليبشي نفسُه عبارةَ "اللسانيّات البنيويّة" دلالةً عامَّةً وموسَّعةً، فأدرج ضمنها اللسانيّات التوليدية-التحويلية التي وضعها ن. تشومسكي، لأنها- في نظره -تؤكّد على طابع الوضوح والدِّقة في معالجة اللُّغة، وصياغة الفرضيات اللسانيّة صياغة صورية، وبحثها عن نماذج بنائية بالمعنى العام[20].

وعندما نُمْعِن النظر في سمات المقاربات اللسانيّة التي تندرج تحت "اللسانيّات البنيويّة" سنجدها، وبإقرار ليبشي نفسه، تضمُّ بين طياتها العديدَ من الأبحاث التي يصعب تصوّرها عادة ضمن المقاربة البنيويّة بمعناها الدقيق. فإذا اعتبرنا اللسانيّات البنيويّة هي كل دراسة تُؤَكِّدُ على الطابع النسقي والتجريدي للسان (بالمعنى الذي ذكرناه في ب)، صار من الممكن أن نعتبر بسهولة بالغةٍ أعمالَ النُّحاة الهنود، والعديد من أعمال النُّحاة في التقليد الإغريقي- اللاتيني جزءاً من "اللسانيّات البنيويّة". ولأنَّه أولُّ من قدَّم أكمل وصف للسان السنسكريتي[21]، فقد اعْتُبِرَ بانيني شيخ النُّحاة الهنود في القرن الثَّامن قبل الميلاد من روّاد المنهج البنيوي وأحد كبار اللسانيّات الوصفية قبل سوسير وبلومفيلد بعشرات القرون. وانطلاقاً من هذا الفهم العام للمقاربة البنيويّة لم يخطئ العديد من الدَّارسين العرب الَّذين عدُّوا النحو العربي نحواً بنيوياً وصفياً بامتياز[22]، وأن النُّحاة العرب أدركوا مقوّمات التحليل البنيوي الشكلي، "وهو صلب من أصلاب منهجهم النحوي، بل ربما كانت مباحثهم اللغوية في أول أمرها ـ قبل الخليل وصحبه، بل قبل أبي الأسود الدؤلي، أي قبل الإسلام ـ مباحث بنيويّة

(20) *Ibid*, p.39.

(21) H. A. Gleason. *Introduction à la linguistique*, p.169.

(22) عبده الراجحي. **النحو العربي والدرس الحديث**، دار النهضة العربية، بيروت، 1986.

شكلية خالصة"[23]. وتكون وجهة النظر البنيويّة، بهذا المعنى العام القائم حدساً على ربط العناصر بينها، هي نفسها أساس اللسانيّات التاريخية، إذ نجدها مثلاً في مفهوم العضوانية *organsisme* الشائع عند كثير من اللسانيين المقارنين والتاريخيين المتأثرين بأفكار داروين في العلوم الطبيعية أمثال شلايشر *Schleicher* وفي أعمال بعض اللسانيين المبشِّرين الحقيقيين بالمنهجية البنيويّة خلال نهاية القرن التاسع عشر أمثال همبولدت[24].

وتصبح عبارة "اللسانيّات البنيويّة" بهذا المعنى تحصيل حاصل، وتفقد دلالتها الاصطلاحية المرتبطة بتصوّر منهجي مضبوط وإجرائي في تحليل الظواهر الإنسانية على وجه أخص، إذ يمكن أن نستخلص من العبارات السابقة أنَّ كلَّ بحث لغويّ يسعى إلى تحديد جوانب معينة من بنية اللسان، واشتغاله حولها هو بحث بنيويّ. وبهذا المعنى أيضاً، فإنَّ ابتكار الخطّ في كلِّ الثقافات الإنسانية يتضمَّن هو الآخر "حدساً بنيوياً" متميزاً. ومثل هذا الفهم الهامِّ للممارسة البنيويّة هو ما دفع بعض الدارسين إلى القول بأنَّ المنهجية البنيويّة القائمة على النظر إلى الظواهر المدروسة وفق مبدإ ارتباط العناصر ليست وليدة اليوم. فالبنيويّة المعاصرة تذكّرنا ببنيويّة العصر الوسيط، لكنها تعارض الفردانية والعناية بالتفاصيل المعزولة الَّتي سادت منذ عصر النَّهضة، ووحدها صفة المحايثة *immanence* تميِّز [بنيويّة] القرن العشرين[25].

ويصبح الّلبس أكثر بروزاً في بعض الاستعمالات الاصطلاحيّة الجاهزة الَّتي روّجها بعضُ أقطاب اللسانيّات البنيويّة أنفسهم. فقد استعمل لسانيُّو حلقة براغ (تروبتسكوي، جاكبسون وماتزيوس وغيرهم) في أعمالهم اللسانيّة الأولى عبارة اللسانيّات التَّزامنية *la linguistique synchronique* أو الصِّواتة التَّزامنية *la phonologie synchronique* وهم يعنون بها اللسانيّات الوصفية واللسانيّات

---

(23) جلال شمس الدين. **الأنماط الشكلية لكلام العرب، نظرية وتطبيقاً، دراسة بنيوية**، ج1، ص21، الإسكندرية، توزيع مؤسسة الثقافة الجامعية، 1995.

(24) G. C. Lepschy. *La linguistique structurale*, p.39.

(25) Knud Togeby. *Structure immanente de la langue française*, Paris, Larousse, 1965/ 1951, p. 5.

البنيويّة[26]. هذا الاستعمال الاصطلاحي الَّذي يجمع بين اللسانيّات التَّزامنية واللسانيّات البنيويّة والوارد مبكِّراً في العديد من الأدبيات اللسانيّة الغربية، يؤكّده جاكبسون، وهو من أبرز الَّذين أعدّوا **أطروحات براغ**. وحين يستحضر جاكبسون في السَّبعينيات من القرن العشرين الأجواء الفكرية العامة التي صاحبت من النَّاحية التَّاريخية ظهور الأطروحات، يستعمل بوضوح ودونما تردُّد عبارة "اللسانيّات البنيويّة" مشيراً إلى المقاربة اللسانيّة الجديدة، وإلى المنظور اللسانيّ المغاير اللَّذين دعت إليهما حلقةُ براغ وعبَّرت عنهما في "أطروحاتها " تحت اسم اللسانيّات التَّزامنية[27].

ونجد التَّسمية ذاتها أي اللسانيّات التزامنية، كمرادف للِّسانيات البنيويّة والوصفية في عنوان كتاب أندريه مارتينيه الذي ضمَّ عدداً من الدراسات قام بها صاحبها في إطار اللسانيّات البنيويّة الوظيفية الَّتي نادت بها حلقة براغ وطوَّرها هو لاحقاً[28].

ويذهب تشومسكي إلى القول بأنه "ينبغي التميز بين نوعين من البنيويّة، واحد يجمع اللسانيّين البلومفيلديين *Post-bloomfieldienne* الذين يقدِّمون أنفسهم تحت هذا الاسم، والنَّوع الآخر من البنيويّة هو المنبثق من أعمال حلقة براغ (. . .). وأنا شخصياً تعلَّمت الكثير من هذه البنيويّة الأوروبية ومن رومان جاكبسون على الخصوص[29]" . لذا، فإنَّ ما قد يوجَّه إلى اللسانيّات البنيويّة من نقد، إنَّما يُوَجَّه بالأساس إلى اللسانيّات الأميريكية، وتحديداً اللسانيّات التوزيعية في الفترة الواقعة بين 1940و 1950 الَّتي هي لسانيّات بنيويّة خالصة بكلِّ المقاييس، وكذا إلى المتشبِّعين من اللسانيّين الأميركيين بعلم النفس السّلوكي على وجه الخصوص.

---

(26) انظر الفصل الثالث من الباب الثاني المتعلق بحلقة براغ وكذلك نص الأطروحات التي نشرت باسمها ابتداء من 1928.

(27) Roman Jakobson . *Essais de linguistique générale*, Paris, Editions de Minuit, 1973, p.10.

(28) André Martinet. *La linguistique synchronique, études et recherches* , Paris, PUF, 1974/1965.

وانظر الفصل الخامس من الباب الثاني الذي خصّصناه للسانيات مارتينيه الوظيفية.

(29) *Revue Hypothèses Change*, Paris, Seghers et Laffont, 1972, p.64.

وقد ارتبط ظهور اللسانيّات في أميركا بالجانب العملي في تحليل الألسن ولاسيَّما وصف الألسن الهنديّة- الأميركية. ولَمَّا قامت اللسانيّات البنيويّة بمناهجها وأدواتها الإجرائية، كان ضمن مبادئها الجديدة دعوة قوية إلى الاهتمام بالوصف التَّزامني للظَّواهر اللُّغوية والاقتصار عليه والتخلِّي عن التَّحليل المعياري والتَّاريخي لقضايا الألسن. وأصبحت الوصفيّة ملمحاً أساسياً وصِفةً بارزة لتمييز اللسانيّات الجديدة عن غيرها من ضروب التَّحليل اللُّغوي، فصارت اللسانيّات البنيويّة والوصفيّة تعنيان الشيء نفسه، رغم أنَّ الأبحاث اللسانيّة التي أُنْجِزَتْ خلال العقود الثلاثة الأولى من القرن العشرين، في إطار وصف الألسن المحليّة في أميركا، لم يكن لها علاقة مباشرة باللسانيّات البنيويّة بالمعنى الدقيق للكلمة التي لم تبدأ أولى إرهاصاتها في أميركا إلّا مع بوعاز وسابير وبلومفيلد. ويتأكد هذا التَّداخل بين البنيويّ والوصفي عند هاريس. ففي كتاب يحمل ضمن عنوانه تسمية "اللسانيّات البنيويّة" (**مناهج في اللسانيات البنيوية** *Methods in Structural linguistics*)[30] يتحدَّث هاريس عن اللسانيّات الوصفيّة *descriptive linguistics*، وهو ما يجعلنا نتساءل: هل يكون الهدف من البحث اللسانيّ هو الوصف الَّذي يقتضي بلوغه من منظور هاريس اعتماد منهجيّة بنيويّة تقوم أساساً على مفهوم توزيع الوحدات؟

وأيّاً كانت الدلالة الَّتي تعطى لعبارة "اللسانيّات البنيويّة"، فإنَّ ما يسِمُ الوصف اللسانيّ البنيوي هو التَّجريد والتَّعميم، في مقابل البحث عن الملموس والخاصِّ الذي كان جزء كبير من الأبحاث اللغوية التقليدية يضعه هدفاً نوعياً[31].

5.1. الوصفي والبنيوي والشكلي

عادة ما يندرج تحت اللسانيّات البنيويّة مجموعة من المقاربات التي لا تنفي اللسانيّات القديمة في ذاتها (المقارنة والتاريخية)، ولكنَّها تسعى إلى تجديد مناهجها بحثاً عن المردودية وبعيداً عن كلّ ما هو قبلي فلسفياً مِمَّا يكون خارجاً

---

(30) Zellig S. Harris. *Structural Linguistics*, Chicago, Phoenix Books, The University of Chicago Press, 6th impression, 1963/1951, p.1-24.

(31) C. G. Lepschy. *La linguistique structurale*, p.23.

عن الموضوع المدروس (الَّذي هو اللسان)، ملتزمة في ذلك بالضَّرورة الانطلاق من داخل الموضوع وممَّا تفرضه مشاكل التَّحليل اللسانيّ"[32].

واللسانيّات البنيويّة هي الصَّيحة النَّظرية والمنهجية الَّتي جمعت مدارس مختلفة في دراسة اللُّغة في القرن العشرين[33]. ويكون التَّحليل اللسانيّ (وغير اللساني) بنيوياً عندما يقوم على النَّظر إلى مُكوِّنات الظَّاهرة (اللُّغوية) المدروسة كبناء قائم على العلاقات بين العناصر المكوِّنة لهذا البناء. فالظَّواهر اللُّغوية أو اللِّسان في مستوياته المختلفة بنية *structure* تتألَّف من عناصر داخلية تندرجُ في شبكة من العلاقات التَّقابلية الَّتي تضبط مواقعها وآليات اشتغالها.

ويكون التحليل **وصفياً** *analyse descriptive* عندما يقتصر الباحث في معالجة الظَّواهر اللسانيّة المدروسة على الوصف فقط في حالة تزامنية محددة، أَو بتعبير بنيوي في سانكرونيةٍ *synchronie* معينة، دون اعتبار الجوانب التاريخية والمعطيات الخارجيّة التي تصاحب الظواهر المدروسة. وأخيراً يكون التحليل صورياً/ أو شكلياً *analyse formelle* عندما ينظر إلى مُكَوِّنات الظاهرة المدروسة في جانبها الشكلي العلائقي الصّرف وليس ككيانات أو عناصر معنوية أو دلالية[34].

لكن ما العلاقة بين ما هو بنيويّ وما هو وصفيّ وما هو صوريّ؟ إنَّ الدراسة (الوصفيّة) البنيويّة بصفة عامة هي دراسة وضعية *positive* من حيث اكتفاؤها بدراسة ما تكون عليه الظواهر المدروسة من أوضاع؛ ممَّا يقتضي القدرة على ملاحظة هذه الظواهر تجريبياً. ولا يهتمّ التحليل البنيوي إلَّا بما يُشَكِّل في ذاته بنيةً قائمة الذات ومستقلّة بنفسها. ومن شروط البنية أنَّها لا تقبل العناصر الأجنبية عنها. فالبنية محدَّدة في الزمان و المكان، ولا تسمح بأيّة إضافات أو

---

(32) *Ibid*, p.21.

(33) جون لينـز. **نظرية تشومسكي اللغوية**، (ترجمة حلمي خليل)، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1985/ 1970، ص65؛ وانظر تقديماً مفصّلاً للمنهجيّة البنيويّة في كتابنا: **في اللسانيّات العامة: تاريخها، طبيعتها موضوعاتها، مفاهيمها**.

(34) جلال شمس الدين. **الأنماط الشكلية لكلام العرب نظرية وتطبيقاً، دراسة بنيويّة**، ج1، ص13-14.

عناصر خارج عنها، أيّاً كانت طبيعتها. ويروم تحليل البنية في نهاية الأمر وصف العلاقات القائمة بين العناصر المكونة للبنية في حدود زمنية ومكانية محدّدة. وقد تختلفُ هذه العلاقات بين العناصر نفسها في بنية أخرى أو في زمكان آخر. والبنيويّة كما يقول رولان بارت "ليست مدرسة ولا حتى حركة (على الأقل حتى الآن)، لأنّ أغلب المؤلّفين الّذين ارتبطوا عادة بهذه الكلمة لا يشعرون أنَّهم مرتبطون فيما بينهم برابطة التعاليم أو المعركة، إنَّها مجرد معجم. إنها قبل أي شيء آخر نشاط إنساني، يتعدى مجال التحليل الذهني. فالإنسان البنيوي هو الإنسان الذي لا نحكم عليه ولا نعرفه بأفكاره، وإنما بطريقة تصوّره وإدراكه للأشياء؛ أي الطريقة التي يتمثل بها الأشياء والوقائع كبنية"[35].

وليس ضرورياً أن يكون ما هو بنيوي ووصفي صورياً، إذ يمكن أن يكون التحليل بنيوياً غير قائم على الجانب الشكلي الصرف من الظاهرة المدروسة، بل على الوظيفة أو الوظائف التي تقوم بها الوحدات داخل بنية محدّدة، وهذا ما وَسَمَ الاتجاهات اللسانيّة البنيويّة المعروفة بالوظيفية، مثل: حلقة براغ وتصورات مارتينيه وفورث وهاليداي. ومن الممكن أيضاً أن يعتمد على الإجراءات البنيويّة المستعملة نفسها أساساً في التحليل الوصفي التزامني، فيكون التحليل البنيوي تاريخياً، يُنْظَر فيه للتحولات أو التغيرات التي تعرفها الألسن الطبيعية من منظور نسقي، بحيث إن التطور الذي يصيب عنصراً من النسق اللسانيّ والتغيير الذي يطرأ عليه يقود حتماً إلى تغييرات تطال العناصر الأخرى الموجودة معه في النسق نفسه. ولعل في أعمال رومان جاكبسون وأندريه مارتينيه ما يدعم هذه المحاولات للتخفيف من صرامة التمييز الذي أقامه سوسير بين الوجهة التَّزامنية والوجهة التَّعاقبية.

6.1. اللسانيّات العامة من تعدُّد المذاهب إلى وحدة المبادئ

لا يعني الحديث عن "اللسانيّات العامة"، أن التصوّرات والمنهجيات المقترحة في إطارها تشكل موضوع إجماع أو اتفاق تام بين اللسانيين. لقد عرف

(35) Roland Barthes. *L'activité structuraliste*, in les nouvelles lettres, 1963.

البحث العلمي في مجال اللغة منذ بداية القرن العشرين- كما ذكرنا في البداية- تطوراً مذهلاً، يتعذّر معه الوقوف على جميع جزئيات هذا التطور وتفاصيله. إنَّ تعدّد التصورات اللسانيّة وتنوع الاهتمامات واختلاف المواقف تجاه الإشكالات اللغوية المطروحة يجعل من العسير في كثير من الحالات الحديث عن اللسانيّات البنيويّة بصيغة المفرد. فلسنا أمام تصوّر واحد متكامل ومتجانس، وإن كان الأمر يتعلّق بعلم واحد.

ونظراً لتعدّد الزوايا التي يمكن أن ينظر من خلالها إلى هذه التصوّرات ومنطلقاتها الفكرية والمنهجية، يصعب تصنيف الأعمال والأبحاث اللسانيّة المعاصرة في اتجاهات قارة وثابتة لها حدود تصورية ومنهجية منفصلة كلياً عن غيرها مما يوجد معها في الاتجاه نفسه، بَلْه أن تكون محطَّ إجماع الدارسين. إنّ هناك أكثر من رأي في تقسيم اللسانيّات، سواء من حيث مميزاتها العامة، أم طبيعة القضايا التي تتناولها، أم المنطلقات الفكرية والنظرية والمنهجية التي تقوم عليها.

يمكن على سبيل التمثيل أن تُقسَّم النظريات اللسانيّة باعتبار تصورها لوظيفة اللغة الطبيعية إلى مجموعتين:

- نظريات لسانيّة صورية
- نظريات لسانيّة وظيفية أو تداولية.

"تضمّ الأولى جميع النظريات اللسانيّة التي تعتبر الألسن الطبيعية أنساقاً مجردة يمكن وصفها بمعزل عن وظيفتها التواصلية. في حين أن المجموعة الثانية تشمل النظريات التي تعتمد كأحد مبادئها المنهجية، المبدأ الآتي: الألسن الطبيعية بنيات تحدّد خصائصها جزئياً على الأقل ظروف استعمالها في إطار وظيفتها الأساسية وظيفة التواصل"(36).

وإذا كان هذا التقسيم سليماً من حيث النظر إلى وظيفة اللغة، فإنه لا

(36) أحمد المتوكل. **الوظائف التداولية في اللغة العربية**، دارالثقافة. الدار البيضاء، 1985، ص8.

يكشف بوضوح التعدّد النظري الناتج عن الاختلاف في السمات النظرية والمنطلقات الفكرية والأدوات الإجرائية والمفاهيم الأساسية المؤطرة سواء للنظريات اللسانيّة الصورية أم النظريات اللسانيّة الوظيفية.

نقف داخل مجموعة النظريات اللسانيّة الصورية على اختلاف بيِّن بَيْن مختلف التيارات المنضوية تحتها، مثل الاختلاف الحاصل بين اللسانيّات البنيويّة الصورية عند اللساني الدانماركي لويس هلمسليف Louis Hjelmslev وهاريس Zellig.S. Harris، واللسانيّات التوليدية عند تشومسكي Noam Chomsky -وهي لسانيّات صورية بالمعنى الدقيق للكلمة- بل نقف على اختلافات تصورية ومنهجية هامة بين أتباع اللسانيّات البنيويّة الأوروبية أنفسهم. فليست الأسس التصورية والمنهجية للسانيّات البنيويّة عند هلمسليف هي نفسها في اللسانيّات البنيويّة عند رومان جاكبسون أو أندريه مارتينيه. وبين الاتجاهات اللسانيّة البنيويّة التي يُطلق عليها الوظيفية أو اللسانيّات الوظيفية *le fonctionnalisme*، اختلافات جوهرية في كثير من الأسس والمنطلقات. فليست وظيفية حلقة براغ هي وظيفية مارتينيه، ولا علاقة لوظيفية هذا الأخير بوظيفية هاليداي M.A.K. Halliday المعروفة بالنسقية أو وظيفية لندن.

وتتنوع أسباب الاختلاف بين الاتجاهات اللسانيّة التي تندرج عادة في إطار اللسانيّات البنيويّة ومن ضمنها:

- اختلاف الأسس التصورية في تحديد طبيعة الظواهر اللغوية ومن أهمّها تحديد طبيعة اللغة البشرية نفسها وخصائصها وعلاقتها بالفرد والمجتمع،
- الطرائق المتّبعة في تحليل الظواهر اللغوية،
- المصطلحات المستعملة للتعبير عن المفاهيم والظواهر اللغوية،
- نوعية النماذج اللسانيّة المتّبعة في التحليل اللساني[37].

(37) L.I. Revsin. *Les modèles linguistiques*, Paris, Dunod, 1968 (traduit du russe) V.O 1967.

ويقصد بالنموذج، الجهاز النظريّ الذي يسعى الباحث اللساني بواسطته إلى تحليل قضايا لسان ما أو اللغة البشرية عامة. وتُقسم النماذج التي يلجأ إليها الباحثون بحسب طبيعة الموضوع الَّذي تدرسه. ويميَّز داخل اللسانيّات الحديثة بمختلف مشاربها النظرية والمنهجية، سواء أكانت بنيويّة أم غير ذلك، بين ثلاثة أنواع من النماذج، وهي:

أ - نماذج موضوعها صيرورة *processus* الظواهر اللغوية الملموسة. وهي نماذج تحاكي النشاط اللغوي عند الأفراد. وأشهر هذه النماذج أعمال لسانيي حلقة براغ ونظرية النحو التوليدي التحويلي مع تشومسكي.

ب- نماذج موضوعها الطرائق/الإجراءات *procédés/procédures* التي تسمح للباحث بكشف بنيات الألسن الطبيعية. وتحاكي هذه النماذج نشاط البحث الذي يمارسه اللساني في معالجة الألسن الطبيعية ووصف بنياتها، ويطلق عليها نماذج البحث *modèles de recherches*. وأشهر هذه المحاولات وأكثرها تطوراً ما قام به اللسانيون الوصفيون الأميركيون، لاسيما تلامذة بلومفيلد وأبرزهم هاريس وهوكيت Charles F.Hockett وويلز R.Wells.

ج - نماذج تدرس الأوصاف اللسانيّة *descriptions linguistiques* التي يقترحها اللسانيون والنظريات التي تمَّ وضعها دون الاهتمام بطبيعة النشاط اللغويّ عند الفرد المتكلم. ويمثل هذا النوع من النماذج ما قامت به الغلوسيماتية مع هلمسليف التي تعتبر نظرية-النظرية أو ميتا-نظرية *méta -théorie*[38] وتهتمُّ بالشروط الصورية لتأسيس النظرية اللغوية.

ولتكملة التقسيمين السالفين، نشير إلى ما ورد عند اللساني الروسي يوري ستيبانوف Youri Stepanov[39] من تمييز بين المبادئ الأساسية المتحكّمة في منهجيات الوصف اللساني والأنساق التحليلية المرتبطة بها. وهذه المبادئ في نظره هي:

---

(38) *Ibid.*

(39) Youri Stepanov. «La description sémiologique en linguistique» *In Système et structures du langage*, Editions du Progrès, Moscou, 1981, p.87-132 .

- المبدأ البنيوي،
- المبدأ التوليدي،
- المبدأ السيميولوجي.

يقوم المبدأ الأول الذي تمّت صياغته بشكل دقيق خلال الأربعينيات والخمسينيات من القرن العشرين على أسبقية النسق *système* على حساب العناصر المكَوِّنة له، مما يجعل وصف اللسان نسقياً، يعتمد التوليف *combinaison* والاختلاف *différence* والتقابل *opposition* بين عناصر النسق.

أما المبدأ الثاني الذي ظهر في نهاية الخمسينيات من القرن العشرين مع تشومسكي، في إطار نظرية النحو التوليدي التحويلي(40)، فيستند إلى أسبقية العمليات الذهنية العميقة لتوليد البنيات اللغوية وذلك بإبراز نوعية العلاقة العضوية القائمة بين اللغة والفكر في إطار حركية الثنائية:

معنى ⟷ نص

اقترح ستيبانوف تحليلاً سمّاه بالوصف السيميولوجي (لا علاقة له بسيميولوجية الناقد الأدبي الفرنسي رولان بارت)، وذلك للحدّ من طغيان الصياغة الصورية *formalisation* التي اتسم بها المبدآن البنيويّ (عند هلمسليف وهاريس مثلاً) والتوليديّ (تشومسكي). ويصبح النموذج النظري والأدوات الشكلية في الوصف السيميولوجي لوازم مساعدة لكشف البنيات اللغوية وتفسيرها، لا غاية في ذاتها، كما هو الحال عند هلمسليف وزليغ هاريس وتشومسكي. إن تأويل الجملة من منظور الوصف السيميولوجي يعدّ إنجازاً لقدرة الفرد المتكلم في إطار التواصل الاجتماعي. ويقوم المبدأ السيميولوجي على دعامتين أساسيتين مستمدّتين من الفلسفة المادية التاريخية هما:

أ - اللغة حقيقة الفكر.

---

(40) انظر تفاصيل نظرية النحو التوليدي التحويلي في كتابنا: **اللسانيّات التوليدية: من النموذج ما قبل المعيار إلى البرنامج الأدنوي**، إربد، عالم الكتب الحديث، 2010.

ب- علاقة اللغة بالمجتمع هي علاقة مباشرة.

ويذهب بعض مؤرّخي اللسانيّات الحديثة إلى القول بأنّ الفكر اللساني الحديث يسير في اتجاهين متضادين:

- اتجاه بنيوي
- اتجاه مضموني.

بالنسبة إلى الاتجاه الأول، تُفْهَم كلُّ المُكَوِّنات اللغوية موضوعياً، وتُعالَجُ في إطار منهجيّ يقوم على العلاقات التي تجمع هذه المُكَوِّنات فيما بينها، بينما يقوم التصوّر الثاني على فرضية مفادها أن المضامين تشكل جوهر اللغة البشرية. ويعتبر دو سوسير مصدراً أساسياً للتصور الأول، بينما يُرَدُّ الاتجاه الثاني إلى اللسانيّ الألماني وليام فون همبولدت[41].

7.1. من الوحدة إلى التعدّد

تسمح التقسيمات السابقة بأن نُبدي بعض الملاحظات بشأن اتجاهات البحث اللساني الحديث وتصوراته المتعدّدة.

- لا يتعلّق الأمر بلسانيّات واحدة، وإنما بلسانيّات متعدّدة. فداخل المبدإ البنيوي أو اللسانيّات الوصفيّة مثلاً يمكن التمييز بين مدرستين لسانيتين:
  - مدرسة لسانيّة أوروبية،
  - مدرسة لسانيّة أميركية،

تنقسم كلّ منهما إلى اتجاهات فرعية متعددة، متباعدة أحياناً، ومتقاربة أحياناً أخرى. فاللسانيّات البنيويّة الأوروبية تشمل الاتجاهات الفرعية التالية:

أولاً: مجموعة جنيف وكان من أعلامها شارل بالي وألبرت سيشهاي *A. Sechehaye* وهنري فراي *Henri Frei*.

---

(41) جيرهارد هيلبيش. **تاريخ علم اللغة الحديث**، ص597.

ثانياً: حلقة براغ التي أُسِّست سنة 1926. واستمرت مبادئها العامة قائمةً في العديد من المجموعات العلمية التي حافظت على أسس المقاربة الوظيفية ومن هذه المجموعات نذكر:

- وظيفية أندريه مارتينيه (1908-1999) أو *Le fonctionnalisme de Martinet*
- وظيفية لندن *Le fonctionnalisme de Londres* مع جون فورث J.Firth وهاليداي. أو ما يعرف بالنسقية *Systémique*.
- المنظور الوظيفي للجملة *Functionnal Perspective of* sentence أو الوظيفية الجديدة وتتضمّن الأعمال التي قامت بها مجموعة من تلامذة ماتزيوس.

ثالثاً: الغلوسيماتية *La glossématique* وهي النظرية التي اقترحها لسانيّو حلقة كوبنهاغن اللسانيّة أمثال هلمسليف وبروندال ويولدال وغيرهم.

رابعاً: اللسانيون المستقلون أو المهمّشون كما يسمّونهم أحياناً ونذكر منهم:

- غوستاف غيوم (1883-1960) Gustave Guillame[42]
- إميل بنفينيست (1902-1976) Emile Benveniste
- لوسيان تنيير (1893-1954) Lucien Tesniere صاحب النظرية المعروفة بنظرية القيم[43] *Théorie de la valence* أو نحو التبعية *Grammaire de dépendance*
- بيرنارد بوتييه (1924-) Bernard Pottier

(42) انظر تطبيقات هذا المنهج عند: التهامي الراجي الهاشمي: مدخل لدراسة النفسي-الآلي للحديث، الدار البيضاء، دار النشر المغربية، 1983.

(43) Lucien Tesnière. *Eléments de syntaxe structurale,* Paris, Klincksiek, 1959.
ونجد تقديماً شاملاً يجمع بين أسس هذه النظرية وتطبيقها انطلاقاً من اللغة العربية في: سعيد حسن بحيري. **نظرية التبعية في التحليل النحوي**، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1988.

ويميز داخل اللسانيّات البنيويّة الأميركية، بالإضافة إلى أعمال إدوار سابير وليونارد بلومفيلد التي تعدُّ المصدر الأساس لكلِّ التصورات اللسانيّة الحديثة في أميركا[44] بين الاتجاهات التالية:

- تحليل السلاسل عند زليغ هاريس (1909-1992) *Analyse en chaîne*
- الخانية *Tagmémique* لـ كينيث بايك (1912-2000) K.Pike
- النحو المقولي *Grammaire catégorielle* لـ بار هِيلَل ـ Bar-Hillel
- نحو التبعية *Grammaire de dépendance* عند هايس Hayes
- النحو التنضيدي *Grammaire stratificationnelle* الذي وضعه لامب Sidney Lamb[45]

ويجري التقسيم نفسه على المدرسة التوليدية التحويلية التي ظهرت مع تشومسكي ابتداء من 1957، حيث يميز داخل هذه المدرسة بين عدة تصوّرات نذكر منها[46]:

- النحو التوليديّ لتشومسكي في نماذجه المتعدّدة وهي بالتتابع التاريخي:
  - النموذج ما قبل المعيار 1957،
  - النظرية المعيار 1965 *Théorie standard*
  - النظرية المعيار الموسّعة 1972 *Théorie standard étendue*
  - نظرية الربط والعمل 1981- *Théorie du liage et gouvernement*

---

(44) انظر فصول الباب الثالث من هذا الكتاب وقد خصّصناها للسانيّات الأميركية.

(45) جيفري سامبسون: المدارس اللغوية: التطور والصراع، ص171 وما بعدها.

(46) عبد القادر الفاسي الفهري. **اللسانيّات واللغة العربية**، ج1، ص63، توبقال، الدار البيضاء. 1985. عرضنا بتفصيل للنماذج التي ظهرت في إطار النظرية التوليدية في كتابنا: **اللسانيّات التوليدية: من النموذج ما قبل المعيار إلى البرنامج الأدنوي، مفاهيم وأمثلة**، (بمشاركة محمد الملاخ وحافظ اسماعيلي علوي).

- نظرية المبادئ والوسائط 1986 *Théorie des principes et des paramètres*
- البرنامج الأدنوي1995 *Programme minimaliste*.

- الدلالة التوليدية *Sémantique générative* وهي الأعمال اللسانيّة التي أُنجزت في إطار النحو التوليديّ ما بين 1967 و1972 تقريباً ويمثّل لها بأعمال ماكولي MaCawley، وروس John Ross ولايكوف Georges Lakoff وفيلمور Charles Fillmore وغيرهم.
- النحو العلاقي *Grammaire relationnelle*: عند برلموتر Perlmutter David
- النحو المُرَكَّبي المُعَمَّم *Generalised Structures Grammar*: وهو من وضع غازدار Gazdar
- النحو المعجمي الوظيفي *Lexical Functionnal Grammar*: الذي صاغته بريزنان Bresnan وكابلان Kaplan

وتضمّ اللسانيّات الوظيفية بدورها جملةً من التصوّرات المختلفة يمكن الرجوع إليها في مصادرها[47].

وبناءً على ما سبق، ليس من الحقيقة في شيء الحديث عن لسانيّات وصفيّة أو لسانيّات بنيويّة وحيدة أو لسانيّات توليدية وحيدة، أو لسانيّات وظيفية وحيدة، وإنَّما هناك بنيويات وتوليديات، ووظيفيات. وليس في وسعنا أنْ نقدّم كل التفاصيل المتعلّقة بتفرع اللسانيّات البنيويّة وتشعّبها في مدارس واتجاهات، بل سنكتفي بتقديم الخطوط العامة للمبادئ المشتركة التي تؤطر المنهجيات المتبعة في أبرز الاتجاهات اللسانيّة البنيويّة.

ينبغي الفصل في نظرنا بين اللسانيّات كعلم والمناهج أو المنهجيات اللسانيّة باعتبارها رؤى وتصوّرات تؤطر هذا العلم وتوجّهه في هذا المسار أو ذاك. فلا يجب أن تختزل اللسانيّات في المنهجية البنيويّة وحدها أو في المنهجية التوليدية التحويلية أو الوظيفية. وإنه لمن الخطإ أيضاً الاعتقاد أن المنهجية البنيويّة

(47) انظر: أعمال أحمد المتوكل والمصادر التي يقدّمها بشأن النظريات الوظيفية التداولية.

(أو على الأصح المنهجيات البنيويّة) هي اللسانيّات. صحيح أن بين اللسانيّات والمنهجية البنيويّة علاقات تصوّرية تاريخية لا يمكن إنكارها بالنظر لانبثاق هذه الأخيرة أساساً من تصورات سوسير اللسانيّة وآرائه. إلا أنَّ هذا لا يعني الخلط بين اللسانيّات والبنيويّة بصورة تلقائية واختزال الواحدة في الأخرى.

إنَّ تعدُّد الاتجاهات في اللسانيّات البنيويّة كما هو الشأن في معارف علمية أخرى أمر طبيعي وعادي. والتعدّد في الفكر اللغوي منذ أقدم العصور معطى تاريخي لا يمكن تجاهله. وهو في اللسانيّات شيء إيجابي. إنَّه يُحيل على تعدد الأنساق الواصفة الَّتي تقترحها النظرياتُ اللسانيّة، مع ما يترتّب عن ذلك عملياً من إمكانات إضافية من أجل وصف شامل وعميق لقضايا اللغة وظواهرها، واختبار حقيقي لكفاية المناهج المقترحة. و"ليس تنوع المناهج ناتجاً عن الموضوع وحده، إذ إن ذلك يتعارض مع الخاصية النظامية (النسقية) للغة ولا يُمَكِّن أيضاً من سياق تفسير مستقل. ويبدو لنا أن الأقرب إلى الإمكان والفائدة، أن يدرس الموضوع ذاته بمناهج مختلفة وبذلك تختبر مناسبة (كفاية) المناهج"[48].

وإذا ما تجاوزنا مسألة تقويم أسس المنهجيات التي تعتمدها مختلفُ التصورات اللسانيّة البنيويّة، أمكننا أن نستنبط من اللسانيّات ما يشكّل الأسس المشتركة بين أبرز اتجاهاتها اللسانيّة الحديثة، وهي أسس لا يثير وجودها النظري اليوم خلافاً بين الدارسين، وإنْ حصل الاختلاف نسبياً بشأن تأويلها، وكيفية توظيفها. يتعلق الأمر بما يمكن أن نسمّيه بالمبادئ المُؤَسِّسَة للمعرفة العلمية اللسانيّة والإطار الذي ظهرت فيه وتطورت، والتي بدونها، لا يتأتى الحديث عن اللسانيّات ذاتها كعلم له أصوله وقواعده.

---

(48) ج. هيلبيش. **تاريخ علم اللغة الحديث**، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، 2003/ 1974، (ترجمة سعيد حسن بحيري)، ص153.

الفصل الثاني

التصورات الكبرى في اللسانيّات الحديثة

وقفنا بإيجاز في الفصل السابق على السياق المعرفيّ العام الذي صاحب ظهور ما يعرف باللسانيّات العامة والقضايا النظرية والمنهجية التي تناولتها في أوروبا وأميركا. وسنتناول في هذا الفصل أبرز التصوّرات اللسانيّة التي تندرج في إطار اللسانيّات الحديثة.

ويمكن القول بأن هناك ثلاثة تصوّرات مركزية في التحليل اللساني الحديث، يخضع كل منها لجملة من المبادئ والأسس النظرية والمنهجية الخاصة به. وهذه التصورات هي:

- التصوّر البنيوي
- التصوّر التوليدي
- التصوّر التلفظي التداولي

1.2. التصوّر البنيوي

ابتدأ هذا التصوّر[1] كما هو معلوم مع اللساني السويسري فردينان دو سوسير من خلال دروسه **في اللسانيات العامة** المنشورة سنة 1916. وساهمت روافد أخرى بشكل فعّال في انبثاق المنهج البنيوي وتطوره وازدهاره. يتعلق الأمر

---

(1) انظر تقديماً عاماً للسياق المعرفي الذي ساهم في ظهور المنهجيّة البنيويّة والمرتكزات التي قامت عليها في كتابنا: **في اللسانيّات العامة**.

بأعمال كل من تروبتسكوي وجاكبسون في الصِّواتَة وكلود ليفي ستروس في مجال الأنثروبولوجيا، وغيرهم من الباحثين في مختلف العلوم الإنسانية الذين كان لهم دورٌ كبير في إثارة الانتباه لأفكار سوسير وتصوّراته الجديدة في تناول القضايا اللغوية. وسنعرض في إطار هذا الكتاب، لأبرز الاتجاهات اللسانيّة الأوروبية والأميركية التي تندرج عادة في إطار ما يعرف باللسانيّات البنيويّة.

2.2. التصوّر التوليدي

هذا التصوّر صاغه تشومسكي (1928-) في كتابه **البنيات التركيبية** *structures syntaxiques*، الصادر سنة 1957، وفيه طرح جملة من المنطلقات النظرية والمنهجية تتجاوز قصور اللسانيّات البنيويّة، لاسيما ما كان يعرف بالنموذج المركبي *modèle syntagmatique*. وقد أرسى تشومسكي بهذا التصور أسس فكر لسانيّ جديد يقوم على مبادئ نظرية ومنهجية مغايرة كلياً لِما كان سائداً في اللسانيّات البنيويّة الأميركية والأوروبية على السواء. وعلى الرغم من أن النحو التوليدي نظرية في وصف الألسن الطبيعية، يشارك اللسانيّات البنيويّة في مجموعة من المفاهيم التصورية الهامة (البنية، أسبقية المنظور التزامني، اللجوء إلى المفاهيم والمقولات الأساس في التحليل اللساني)، فإنه يختلف في جوانب عديدة من منطلقاته النظرية والمنهجية عن اللسانيّات البنيويّة. ولا يكفي فصل واحد أو فصلان من هذا المؤلّف المتمحور أساساً حول اللسانيّات البنيويّة بمعناها التقليدي للحديث عن اللسانيّات التوليدية التحويلية حديثاً شاملاً يعطيها مكانتها اللائقة بها في تاريخ الفكر اللغويّ عامة واللسانيّات الحديثة بصفة خاصة. وقد قمنا بتقديم مفصّل لنظرية تشومسكي في مؤلّف آخر[2].

3.2. التصوّر التلفظي ـ التداولي

لا يندرج هذا الاتجاه مباشرةً ضمن المنهجيات التي اقترحتها اللسانيّات البنيويّة، بل غالباً ما تُدرِّجُ المباحث اللسانيّة التي تُعرض في هذا التصوّر في

---

(2) مصطفى غلفان (بمشاركة محمد الملاخ وحافظ إسماعيلي علوي). **اللسانيّات التوليدية من النماذج ما قبل المعيار إلى البرنامج الأدنوي، مفاهيم وأمثلة.**

إطار الدراسات التداولية أو نظرية التلفّظ أو نظرية أفعال الكلام. وأياً كانت الأسباب وراء ذلك، فمن المؤكّد أن التصوّر التلفظي - التداولي لم ينج على الأقل في بداياته الأولى وتحديداً بعد النصف الثاني من القرن العشرين، من تأثير المبادئ اللسانيّة الكبرى والطرائق المستعملة في التحليل اللساني البنيوي، مثل: البنية والعلاقات ومستويات التحليل، والوحدات اللغوية المتداولة في اللسانيّات البنيويّة، مثل: صوتة/ صرفة/ مكون/ مركب/ جملة ... الخ. وكان هذا الاتجاه مجالاً لظهور كثير من الانتقادات التي وُجِّهَت إلى اللسانيّات البنيويّة، وإطاراً لتطوير بعض الأفكار التي لم يهتم بها مختلف أتباع المدرسة البنيويّة لاسيما ثنائية سوسير لسان/ كلام التي ترتّب عنها إهمالٌ واضحٌ لحضور الفرد المتكلم في النشاط اللغوي. وما فتئ هذا التصوّر منذ ستينيات القرن العشرين، يتطور بوتيرةٍ سريعةٍ باحثاً عن مكانة متميزة ضمن باقي التصوّرات اللسانيّة (بنيويّة وتوليدية) التي هيمنت بشكل مطلق على مسار البحث اللساني في القرن العشرين.

1.3.2. روافد فلسفية ولسانيّة

من الصعب تحديد بدايات الاتجاه التلفظي ـ التداولي، نظراً لتعدد الروافد والمصادر الفكرية التي ساهمت في بلورة كثير من مبادئه وأساسيات البحث فيه. والملاحظ أن روافد التصوّر التلفظي التداولي الفكرية، تسير في اتجاهين أحدهما لساني، والآخر فلسفي. أما الجانب اللساني فقد كان فيه لأفكار شارل بالي[3] دورٌ كبير في بلورة ما يُعرف بنظرية التلفظ *Théorie de l'énonciation* التي طوَّر بعض مبادئها لاحقاً كلّ من رومان جاكبسون وإميل بنفينيست[4] Emile Benveniste وكوليولي Antoine Culioli، وامتدت أهمّيتها لتشمل مجالات خارج-لغوية مثل تحليل الخطاب بمفهومه العام.

(3) انظر الفصل الثاني من الباب الثاني من هذا الكتاب وفيه عرض مفصّل لبعض آراء بالي وباقي أعضاء مجموعة جنيف اللسانيّة.

(4) Emile Benveniste. L'appareil formel de l'énonciation, in *Problèmes de linguistique générale*, tome 2, Paris, Gallimard, 1974, pp.79-88.

وتتوزّع المصادر الأخرى بين فلسفة اللغة والمنطق، والموقف من بعض القضايا العامة التي عرضتها النظريات اللسانيّة البنيويّة. ويمكن أن نذكر ضمن المصادر الأساسية في المنطق والرياضيات في علاقتهما باللغة والفكر، ومشكل المعنى والإحالة تحديداً، أعمال الفيلسوف والرياضي الألماني غاتلوب فريغه (1848 -1925) Frege[5] وكارناب (1891-1970) Rudolph Carnap[6] وراسل (1872-1970) Bertrand Russell وتارسكي (1902-1983) Alfred Tarsky المتعلّقة بالدلالة وبظواهر الإحالة والتضمنات والاقتضاءات وصورية الدلالة والتركيب.

وتشمل المصادر الفلسفية أعمال تشارلز ساندرس بيرس (1839-1914) Ch. S .Peirce صاحب نظرية متميزة عن طبيعة العلامات وتصنيفها، تفوق من عدة جوانب دقّة وعمق تصوّر سوسير في الموضوع ذاته. قسم تشارلز موريس (1901-1979) Charles Morris في نهاية الثلاثينيات من القرن العشرين مجال البحث السيميائي إلى مستويات ثلاثة:

- التركيب ويتكلف بدراسة العلاقة بين مُكوّنات الجملة،
- الدلالة ومهمّتها دراسة معاني الوحدات،
- التداول وموضوعه دراسة استعمال اللغة[7].

وساهمت مباحث فلسفية حديثة في تطور جوانب من الدرس اللساني في الاتجاه التداولي الوظيفي. يتعلّق الأمر بما عُرِف بفلسفة اللغة العادية أو الفلسفة التحليلية أو مدرسة أوكسفورد. ومن رواد هذا الاتجاه: لودفيغ فتغنشتاين

(5) G. Frege. *Sens et dénotation 1892 in Ecrits : logiques et philosophiques*, Seuil; Paris, 1971.

R. Carnap. *The Syntax of Semantics*.

(6) B. Russell. *On denoting*, Mind,1905.

انظر: برتراند راسل. **ما وراء المعنى والحقيقة**، (ترجمة محمد قدري عمارة وإلهامي جلال عمارة)، المجلس الأعلى للثقافة المشروع القومي للترجمة، القاهرة، 2005؛ وهو ترجمة لـ *An Inquiry to Meaning and Truth*

A. Tarsky. *Logic semantics mathematics*, Oxford University Press, 1956.

(7) Ch. Morris. *Foundations of theory of Signs*, University of Chicago Press, 1938.

J. Austin (1960-1911) وأوستين[8] Ludwig Wittegeinstein (1951-1889) على سبيل التمثيل لا الحصر.

لاحظ أصحاب الفلسفة التحليلية أنَّ جوهر المشاكل في الفلسفة الحديثة لا يتعلّق بغموض الفلسفة ذاتها أو بعض مفاهيمها أو التباس دلالتها كما يقال عادة. إنَّ المشكل الفلسفي ليس اللغة في ذاتها، وإنَّما استعمالها غير السليم. فليس للألسن معانٍ محدّدة، ولكن لها استعمالات متنوعة، وبالتالي من غير المجدي أن نبحث عن المعاني، بل ينبغي أنْ يقتصر البحث على الاستعمالات. إنَّ العديد من الأسئلة الفلسفية وإشكالياتها ومفارقاتها ناجم في المقام الأول عن عدم إدراك طبيعة استعمال اللغة. وعليه يقتضي التحليل الفلسفي السليم من منظور الفلسفة التحليلية، وصف الاستعمالات العادية للعبارات اللغوية بدل الاقتصار على مناقشتها مجردة عن تداولها العادي في ظروف ومقامات محددة. إنَّ الوقوفَ على حقيقة اللغة عند الإنسان، يستلزمُ معرفة وظيفتها ودورها في التواصل اللغوي اليومي العادي. ومن هنا، اتخذ فلاسفةُ اللغة العادية مقولة "**المعنى هو الاستعمال**" شعاراً لهم[9].

وانطلاقاً من هذه الرؤية الجديدة لقضايا الفلسفة وموضوعاتها وأهدافها، أصبحت التساؤلات عن المعنى تساؤلات عن الاستعمال اللغويّ في مقام محدّد. وباهتمام الفلسفة التحليلية بالطبيعة الدلالية للجمل من خلال وظيفتها، انتقل اهتمام الباحثين من دراسة البنية التركيبية والدلالية للغة وحدها إلى دراسة العلاقة بين البنية اللغوية ووظيفتها.

2.3.2. الأفعال الإنجازية

يمثل جون أوستين في عمله "**عندما يصبح القولُ فعلاً**" *Quand dire c'est faire* الشّحنة الأولى التي لفتت اهتمام اللسانيين وغير اللسانيين إلى دور أفعال

(8) J. Austin. *Quand dire c'est faire*, Paris, Seuil, 1970. (traduction *de How to do Things with Words* 1962).

(9) L. Wittegenstein. *Tractatus logico-philosophicus*, Paris, Gallimard, 1961/1921.
انظر: لودفيغ فتغنشتاين. **بحوث فلسفية**، (ترجمة الدكتور عزمي سلام ومراجعة عبد الغفّار مكاوي)، نشر جامعة الكويت، د.ت.

الكلام أو أفعال اللغة *Acte de langage* وقيمتها في التواصل اللغوي. وسمح هذا العمل الرائد بفتح آفاق جديدة أدّت إلى ظهور مباحث لغوية لم تكن معروفةً من قبل أبرزها ما أصبح يعرف بالبحث التداولي الذي عرف تطورات هامة انطلاقاً من تصوّرات أوستين.

تنطلق نظرية أفعال الكلام التي وضع أسسها الفيلسوف الإنكليزي أوستين من رفض ما أسماه بالوهم الوصفي المتمثل في كون المهمّة الأولى للغة هي وصف الواقع الخارجي أو التمثيلي، وأكّد على ضرورة البحث عن تصور بديل يقوم على النظر إلى اللغة في سياق الاستعمال من منطلق أن اللغة ليست وصفاً للعالم الخارجيّ أو تمثيلاً له، وبالتالي فهي ليست مجرد أداة تواصل أو رموزاً للتعبير عن الفكر. إنّ الوظيفة الأساس للغة تتمثّل في إنجاز عدد من الأفعال لتغيير العالم وصنع أحداثه *évènements* والتأثير فيه. لقد بيَّن أوستين أن دلالة الجملة في اللغة العادية ليست بالضرورة إخباراً أو تمثيلاً لوقائع العالم الخارجي. فما دُرِجَ على تسميته بالجمل الخبرية لا يقوم دائماً بوظيفة إحالية تحتمل الصدق أو الكذب.

لنلاحظ هذه الجمل[10] المقتطفة من نصّ مسرحيّ بعنوان "**المؤتمر**" لمحمد الكغاط:

(1) "جفّت العيون والآبار واستفحل المرض وأطبق الجهل وخيَّم الفقر بعد حصار دام سنين طويلة".

(2) الآن نستطيع أن نبدأ مؤتمرنا

- أرحّب بكم في دياركم بين أحبائكم وأهلكم
- أطلب ممن يتطوعُ منكم أن يرفع يده ليرفع عنا الحصار
- أشكر مضيفنا على كرمه الحاتميّ.

---

(10) إن الجملة بناء تصوري مجرد يعبّر عن أحداث أو يعكسها باستقلال عن أيّ إنتاج أو فعل تلفظ *acte d'énonciation* وعندما يتلفظ المتكلم بالجملة فإنها تصبح ملفوظاً *énoncé* وبالرجوع إلى عملية التلفظ *Enonciation* فإن الجملة الواحدة يمكنها أن تصير ملفوظين أو أكثر ينطقان بكيفية مختلفة وفق شروط محدّدة في مقام تواصلي محدد.

(3) أستطيع أن أقول: إنه أكبر من معجزة.

تصف الجمل في (1) واقعاً معيناً قد يكون حقيقياً أو متخيلاً، يتمثل في "جفاف العيون وانطباق الجهل وحصار دام طويلاً"، وهو ما يحتمل الصّدق أو الكذب بحسب الواقع المشار إليه، ولذلك تسمّى الجمل الواردة في (1) عبارات وصفيّة *Phrases constatives*. وتتميز بخصّيصتين أساسيتين:

- وصف واقع فعلي أو متخيل في العالم الخارجي،
- احتمالها الصدق أو الكذب بالنظر إلى الواقع أو الحدث الموصوف أو المتحدث عنه.

وإذا قارنا هذا المعطى بما جاء في الجمل الواردة في (2) فسنجد أن العبارات فيها لا تصف واقعاً محدّداً في العالم الخارجي، وبالتالي لا يمكن القول عنها إنها صادقة أو كاذبة. ما تتميز به العبارات في (2) هو أن مجرد تلفظ المتكلم بها يشكّل في ذاته فعلاً لغوياً معيناً، فهي تدلّ على قيام أفعال ملازمة للملفوظ تتمثل تباعاً في افتتاح المؤتمر والترحيب والطلب والشكر. وقد يكون هذا الفعل نداءً أو استفهاماً وأمثالهما من أمر ونهي ورجاء وغير ذلك مِمّا له قيمة الفعل العملي كجزء مكَوِّن لمعنى العبارات. إنّ مجرد التلفظ يجعل من هذه الملفوظات أفعالاً *actes* عملية تحدّد مسؤولية صاحبها ويترتّب عنها ما يترتّب من آثار فردية وجماعية. وطبيعي أن هذه العبارات وأمثالها لا تصف واقعاً أو حدثاً ما، ولا يمكن الحكم عليها بأنها صادقة أو كاذبة، وبالتالي فهي ليست وصفاً لما تقوله أو حُكْماً عليه، بل هي الفعلُ عينه. يسمّى هذا النوع من الجمل بالعبارات الإنجازية *phrases performatives*.

ولكي تكون العبارة إنجازية يجب توافر الشّروط المقالية والمقامية التالية مجتمعة وهي[11]:

(11) انظر مزيداً من التفاصيل والأمثلة في: أحمد المتوكل، **اللسانيّات الوظيفية: مدخل نظري**، الرباط، منشورات عكاظ، 1988، ص19 وما بعدها. (طبعة ثانية، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2010).

أ - أن فعلها الرئيس فعل إنجازيّ من قبيل: وعد -أوعد -سأل - استفهم - قال-أمر- نهى. إلخ..

ب- أن يكون فاعل الفعل هو المتكلم، أي المُتَلَفِّظ بالجملة كما يتضح من فواعل أشكر وأرحب وأطلب في الأمثلة السابقة. وقد يكون الفاعل جمعاً للتعظيم كما في "نسأل الله".

ج - أن يكون زمن الفعل هو الزمن الحاضر المبني للمعلوم: فزمن كل الأفعال في (2) يدلّ على الزمن الحاضر.

وعندما يختلّ واحد من هذه الشروط تسقط إنجازية العبارة. فلا تُعَدُّ العبارتان التاليتان:

- يَعِدُكَ أنه سيزورك غداً
- وَعَدْتُكَ أني سأزورك غداً

عبارتين إنجازيتين لعدم توافر أحد الشرطين لتحقيق إنجازية العبارة، والمتمثل في أن فاعل الفعل في (يَعِدُك) ليس هو المتلفظ بالجملة، وفي الجملة الثانية استعمل الفعل (وَعَدْتُك) في زمن غير زمن الحاضر..

أمّا الشروط المقامية فتتلخّص في ضرورة مراعاة ظروف استعمال العبارات الإنجازية سواء أتعلق الأمر بالخصائص الثقافية أم بالأعراف والعادات اللغوية المشتركة بين المتخاطبين. إن عبارة من قبيل:

- "زَوَّجْتُكَ ابنتي"

تكون عبارة إنجازية (إنجاز طلب الزواج) وفق الشروط المقامية التالية:

أ - أن يكون قائلها أب الفتاة المقصود تزويجها (أو وليّ أمرها).

ب- أن يكون المخاطَبُ الشخصَ الذي يريد أن يتزوّج الفتاة المعنية بالأمر.

ج - أن تكون الفتاةُ حاضرة.

د - أن يتمّ التلفظ بالعبارة أمام عدلين[12].

إن نجاح إنجازية العبارة السابقة أو فشلها متعلّق بتوافر هذه الشروط مجتمعة[13]، وإلا عُدَّ الزواج لاغياً شرعاً وغير جائز من الناحية المؤسسية. وواضح أنّ الشروط المقامية ترتبطُ بأعراف وعادات كل مجتمع لغويّ على حدة. فشروط إنجازية العبارة "زوَّجْتُكَ ابنتي" في المجتمعات الإسلامية غير واردة بالنسبة إلى المجتمعات الغربية مثلاً.

إلّا أن التأمل الدقيق في العبارات الوصفيّة يبين أنها تتضمّن بدورها قيمة إنجازية واضحة، رغم عدم توافر الشروط النحوية والمعجمية المطلوبة لها. ويكفي أن نُضيف الفعل الإنجازي "أقول" إلى "العبارات الوصفيّة" لتصبح بدورها "عبارات إنجازية".

نجد هذا التأويل في المثال (3) حيث تصبح العبارات الوصفيّة في (1) عبارات إنجازية إذا أضفنا إليها الفعل الإنجازي "أقول":

• أقول لما "جفّت العيون والآبار واستفحل المرض وأطبق الجهل الخ".

وتملك العبارات الوصفيّة ضمنياً ما أسماه أوستين بالقوة الإنجازية الأولية *force illocutionnaire*، إلّا أن هذه القيمة في العبارة الإنجازية الصريحة أكثر وضوحاً وتعييناً وقوةً. ووجود الفعل "**أقول**" أو أي فعل إنجازي آخر ملائم يُضفي على العبارة دلالةً إنجازيةً لا لبس فيها. وليست العبارات الوصفيّة سوى عبارات إنجازية فعلها الإنجازي غير ظاهر سطحياً. فالفرقُ بين العبارات الإنجازية الصريحة والعبارات الإنجازية الأولية هو وجود الفعل الإنجازي (آمر، أسأل، أطلب، أعد.الخ ..) في سطح الجمل الأولى وغيابه في الثانية، ممّا يجعل هذه العبارات في حاجة إلى تحديد لاستعمال السياق المناسب لها في

(12) أحمد المتوكل، **اللسانيّات الوظيفية: مدخل نظري**، ص19 هامش رقم 4 .

(13) هذه حالة عامة، لا نتحدث عن الخصوصيات الثقافية في المجتمعات العربية الحديثة التي تعكسها بعض مدوّنات الأسرة (الأحوال الشخصية) مثل عدم اشتراط حضور وَلِيّ الفتاة أو ما شابه ذلك.

الكشف عن قيمتها الخطابية. إن القوة الإنجازية لعبارة وصفيّة مثل:

- طال الحصار

تكون قابلة لأن توضح وتفسّر بواسطة عبارة إنجازية صريحة يكون فعلها الإنجازي ظاهراً، قد تكون نهياً أو استفهاماً أو أمراً أو وعداً أو ترهيباً أو تحذيراً أو أي شيء آخر حسب خصائص النبر والتنغيم والمقام.

2.3.3. أفعال الكلام

تَمَّ التخلي عن التمييز بين العبارات الوصفيّة والعبارات الإنجازية، بحكم أن عبارات اللغة كلها إنجازية، سوى أن بعضها يكون أولياً *énoncés performatifs primitifs* وبعضها يكون صريحاً *énoncés performatifs explicites* بحسب ظهور الفعل الإنجازي في سطح الجملة أو غيابه.

وهكذا تخلى أوستين عن التقسيم الثنائي السابق معوّضاً إياه بمفهوم أعمّ وأشمل هو "القيمة الخطابية" التي تصاحب كل عبارة لغوية. لقد كشف تحليل أوستين عمّا أصبح معروفاً في الأبحاث التداولية بالقوة الإنجازية *force illocutionnaire*. فالتلفظ بأيّ جملة أياً كان نوعها يُعدُّ في ذاته فعلاً *acte de langage* مُكَوَّناً من ثلاثة أفعال أساسية متزامنة هي:

- فعل التلفظ
- فعل الإنجاز (أو فعل الخطاب)
- فعل التأثير.

لنتأمل الجمل المأخوذة من النصّ المسرحي **حصار دمشق (منمنمات تاريخية)** لسعد الله ونّوس[14] :

(14) سعد الله ونّوس، **حصار دمشق: منمنمات تاريخية**، القاهرة، دار الهلال، مارس 1994، ص61-66.

(1) ما حالك؟ هل تبكي؟
- هل يستطيع المرء أن يفعل؟.
- الآن دعنا نعمل. يا ابنتي لا أحتاجُ شيئاً.

(2) دعي الطشتَ والماء
- هلّا خلعتَ نعليك يا سيّدي؟
- لا تخرجْ أيّها الشاب.

(3) ألا تصفه بالكافر أو اللعين ؟

(4) إياك أن تظنّ أننا نريد أن نُقعده عن الجهاد.
- أدام اللهُ عليك الراحةَ والعافية.

يقوم **فعل التلفظ** *acte locutionnaire* على إنتاج العبارات اللغوية. ويتكون بدوره من ثلاثة أفعال كلامية فرعية هي: فعل صوتيّ وفعل تركيبيّ وفعل دلاليّ. يتمثل الأول في كون المتكلم تلفظ بسلسلة من الوحدات الصوتية المنتمية إلى النسق الصوتي العربي: دَ عِي لْ طَّ شـ ت وَ لْ مـا ء. وحين يؤلّف المتكلم بين الكلمات ليركّب عبارة معينة، فهو يقوم بفعل تركيبي. فالعبارة: "لا تخرج أيها الشاب" تحترم قواعد العربية مقابل الجملة: "الشاب لا أيها تخرج ". ويكمن الفعل الدلالي في إعطاء المتكلم مفردات اللغة دلالات وإحالات محدّدة. فمعنى "شكر" في جملة "أشكر مضيفنا وحبيبنا" : "أثنى على حسن فعل أو سلوك الآخر". وتدلّ مفردة "مضيف" على "كل من يستقبل شخصاً في بيته ويكرمه". ويتطلب الفعل "شكر" دلالياً فاعلاً ومفعولاً به لهما سمات دلالية محددة [+ إنسان] وليس [+ حيوان]، فلا "أشكر الفيل" أو البقرة ولا يمكنهما أيضاً أن يفعلا ذلك. كما أنّ الضمائرَ والشخوص في عبارات النصّ المسرحي السابق لها إحالات محدّدة.

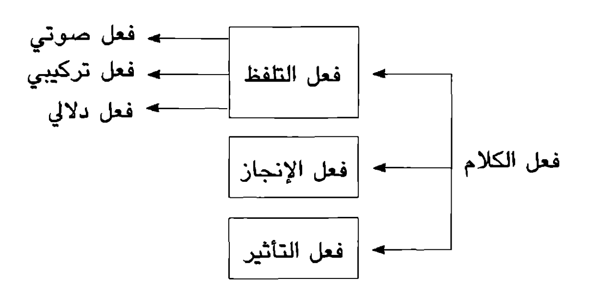
ويُعبِّر **فعل الإنجاز** *acte illocutionnaire* عن قصد المتكلم وغايته من التلفظ بجملة ما، كأن يُقْصَد به الإخبار أو السؤال أو الوعد والوعيد أو الإنذار أو

التمنّي. ما يميز العبارات من (1) إلى (4) لا يكمن في طبيعة الكلمات المكوِّنة لها أو في عملية التلفظ بها فقط، وإنما في النتائج التي ستترتّب عنها. فالتلفظ بهذه العبارات هو الإنجاز الفوري لبعض الأحداث وهي تباعاً:

- فعل السؤال (ما حالك؟)
- فعل الاستفهام (هل يستطيع؟)
- فعل الأمر (دعنا)
- فعل النهي (لا تخرج)
- فعل التحذير (إياك)

وهي كلّها أفعال تنجز مؤسّسياً بواسطة اللغة. فخاصيّة الفعل الإنجازي أنه يخلق نشاطاً أو يدعو إلى فعل يهدف إلى تغيير الواقع. ولا يكون فعل الإنجاز إلّا لغوياً.

أمّا **فعل التأثير** *acte perlocutionnaire* فهو الأثر الذي يتركه التلفظ بالجملة لدى السامع كأن يخاف أو يحزن أو يغضب أو ينزعج أو يطرب. ويكون فعل التأثير لغوياً أو سلوكاً غير لغوي. ونلخّص بنية فعل الكلام في الخطاطة التالية:



ولأفعال الكلام التي تنجز بواسطة الألسن الطبيعية خصائص نذكر منها[15]:

- إنه فعل دالّ ينجز فوراً الأشياء والأفعال الاجتماعية بواسطة الكلمات، وليس نتيجة تتوخى من الكلام.

---

(15) مسعود صحراوي، **التداولية عند علماء العرب**، بيروت، دار الطليعة، 2005، ص44.

- إنه فعل تأثيريّ أي يترك آثاراً معينة في الواقع لاسيما حين يكون فعلاً كلامياً ناجحاً.
- ارتباطه بالمؤسّسات الاجتماعية وفي مقدّمتها اللغة، ممّا يضمن له نوعاً من الشمولية.
- إنه فعل قصدي. فالمتكلم يقصد من وراء فعل الكلام ما يقصده بحسب غرضه من الكلام.
- إنه فعل يرتبط بالسياق والمقام ولا يمكن إدراكه خارجهما.

يسهل مثلاً تحديد معنى الجملة: "لا تخرج أيها الشاب" (إسناد عدم الخروج إلى الشاب). لكننا لا نعرف على وجه التحديد هل يسعى المتكلم إلى إبلاغنا وعدَه أو تهديدَه أو تأكيدَه أو إنذاره. ويتكفّل المقامُ وحده بتحديد نوعية القوة الإنجازية للعبارة باستقلالٍ تامّ عن معناها...

- إنه فعل ذو طبيعة عرفية.

من هذا المنطلق تتضمّنُ كل عبارة لغوية جانبين:

- محتوى قضوي *contenu propositionnel* وهو مجموع معاني المفردات مضموم بعضها إلى بعض في إطار علاقة دلالية عامة هي الإسناد بين أطراف العبارة.
- قوة إنجازية *force illocutionnaire* أو القوة الخطابية وهي كلّ ما يتعلّق بإنجاز العبارة فيكسبها قيمةً دلاليةً بارزة من أمر أو استفهام أو نهي أو نفي الخ، وتجسّد قصد المتكلم، وغرضه من تلفظه بخطاب معين في مقام معين. ويؤشر للقوة الإنجازية، إمّا بفعل من الأفعال الإنجازية وإمّا ببعض الأدوات مثل: (هل- ما- أ- هلّا - صيغة فعل الأمر - الخ) أو بوسائل نبرية أو تنغيمية أو بشروط مقامية. ففي جملة:

- هلّا خلعت نعليكَ يا سيّدي؟

يكوّن المحتوى القضوي "إسناد فعل خلع النعلين إلى السيد" (والإحالة على ابن خلدون") دلالة العبارة. أمّا قوتها الإنجازية فهي "الحضّ على فعل شيء" ومؤشّرها هو الأداة "هلّا". وقد تتضمّن الجملة محتوى قضوياً واحداً له أكثر من قوة إنجازية واحدة كما الشأن في الجملة:

- ألا تصفه باللعين أو الكافر؟

والقوتان الإنجازيتان الواردتان في هذه العبارة هما "السؤال" و"الإنكار".

والخلاصة أنّ فعل الكلام هو التصرف أو العمل الاجتماعي أو المؤسساتي الذي ينجزه الإنسان بالكلام ويراد به الإنجاز الذي يؤدّيه المتكلم بمجرد تلفظه بجمل معينة يتوخى منها التأثير في المخاطب بحمله على فعل شيء أو تركه أو دعوته. ومن أمثلته العديدة: الأمر والنهي والاستفهام والنداء والطلب والوعد والوعيد والإنذار والسؤال والتعيين والإحالة والتعزية والتهنئة إلخ

وقد تمّ تصنيف أفعال الكلام من حيث قوتها الإنجازية في خمسة أقسام عامة (متداخلة أحياناً) هي:

- الفعل القضائي *acte verdictif* وتدلّ عليه الأفعال المتعلّقة بإصدار الأحكام مثل: أُبرّئُ/ أتّهمُ/ أُصدرُ أمراً
- الفعل المراسي *acte excercitif* ويكون لإثبات كل أنواع السُّلُطات أو التأثير في الآخر: أعاقب/ أحكم / آمر/ أسامح/ أوصي/ أُعين/ أُعلن
- الفعل الوعدي *acte promissif* وذلك لتقدير أخبار أو قصد: أضمن/ أراهن/ أعد/ أدعو
- الفعل التصرفي: *acte comportatif* وهو فعل يُتَوَخّى منه ضبط السلوك والمواقف. أرحّب/ أعتذر/ أستسمح/ أتحدّاكم
- الفعل العرضي: *acte expositif* ويقصد به استمرار الحوار لتفسير اللبس: أعتبر/ أخبر/ أؤكّد/ أشهد أن.

يقوم نجاح أفعال الكلام على مفهومين أساسيين:

* المواضعة، *Conventionnalité*
* القصدية، *Intentionnalité*

تقتضي المواضعة التشارك في العادات اللغوية بين المتخاطبين، بينما تتجلى القصدية في الربط بين التراكيب اللغوية ومراعاة غرض المتكلم وقصده من الخطاب. ففي فعل الكلام تؤخذ المعاني الضّمنية والمقاصد التواصلية ومقام الاستعمال في الحسبان عند تأويل العبارات. فالصيغ اللغوية ليست دلالات ومضامين لغوية فحسب، وإنّما هي إضافة إلى ذلك، أفعال تروم من خلال الكلمات خلق إنجازات ومواقف فردية أو اجتماعية مؤسساتية والتأثير في المخاطَب بحمله على فعل شيء ما أو تركه أو الدعوة إليه.

وبصفة عامة تتوفر كل عبارة على قيمة خطابية إنجازية تتمثّل في القصد الذي ينوي المتكلم أن يعطيه لخطابه من خلال عملية الإنجاز. فالملفوظ *énoncé* إما وعد أو استفهام أو أمر أو طلب أو تهديد أو أي شيء آخر بحسب معطيات المقام ودلالة القصد وكيفية الإنجاز. إنّ دلالة الجمل ليست هي الدلالة الحرفية التي اعتاد الفلاسفةُ الوضعيون اعتبارها المعيارَ الأوحدَ لتحديد معنى الجمل والملفوظات.

تكملة لما ورد عند أوستين، طوّر سيرل J. Searle هذا الضرب من التحليل الفلسفي للغة من منظور جديد(16)، مميزاً بين أفعال الكلام المباشرة *actes directs* وأفعال اللغة غير المباشرة *actes indirects*.

لقد كان هَمُّ مدرسة الفلسفة التحليلية منصباً على وصفِ الطرائق التي تستعمل بها اللغة العادية. لذلك تمّ رفض التصوّر الذي يعتبِر المعنى شيئاً جزئياً أو مستقلاً عن المقام الذي تستعمل فيه العبارة الحاملة لهذا المعنى. إنّ اللغة مجموعة من الأفعال تضبطها جملةٌ من العلاقات والقواعد المتحكّمة في عملية

---

(16) J. Searle. *Les actes du langage;* Paris, Hermann, 1972/1969.
J. Searle. Sens et expressions; Paris, Minuit, 1982/1979, p.32.

التواصل بين الأفراد. إنَّ أفعال الكلام ذات طبيعة اجتماعية مثل مختلف باقي الأنساق لها قواعدها ومعاييرُ استعمالها، ولا يـمكن فهمها خارج المؤسسة الاجتماعية. إنّ التعاقد الاجتماعي اللغوي بين المتخاطبين وإدراكهما الواعي أو غير الواعي لدلالة اللغة ومعاني استعمالها هو الذي يُمَكِّن التواصل من أَخْذ مجراه الطبيعي، فيكون ناجحاً حينما يحقّقُ المقاصد التي يريد المتكلم أنْ يوصلها لسامعه، ولا يكون كذلك حين يفشل في ذلك.

يمثّل هذا النوع من الدراسات التلفظية التداولية في فرنسا ديكرو (1930- *Oswald Ducrot*)[17] من خلال كتاباته المتعددة، وأشهرها على الإطلاق كتابه *Dire et ne pas dire*. ويعتمد ديكرو في تحاليله على ما يعرف بالاقتضاء والتضمّن، ثم وسّع أبحاثه لتشمل أيضاً الظواهر اللغوية المتعلّقة بالاستدلال *inférence* والحِجَاج *argumentation*.

وفي السياق نفسه، وانطلاقاً من روافد فكرية مغايرة نسبياً، عرف البحث المتعلق باستعمال اللغة أي ما يُسمّى بالتداوليات *pragmatique* ازدهاراً كبيراً في أميركا منذ الخمسينيات من القرن العشرين على نحو ما نجد في أعمال غرايس 1913-1988 Grice Paul حول مسلمات الحوار وكارتونن Karttunen وتوماسون Thomason وإلستون Aleston في أميركا.

(17) *Oswald Ducrot:*
Dire et ne pas dire, Paris, Hermann, 1972.
La preuve et le dire, Tours, Mame, 1974.
Les échelles argumentatives, Paris, Ed. de Minuit, 1980.
Le dire et le dit, Paris, Ed. de Minuit, 1984.
Logique, structure et énonciation, Paris, Ed. Minuit, 1989.

الفصل الثالث

اللسانيّات البنيويّة
بعض مظاهر الائتلاف والاختلاف

يرتبط التحليل اللساني في العصر الحديث بالعديد من الاتجاهات اللسانيّة في أوروبا وأميركا "بحيث يتحدّث المرءُ على نحو أفضل عن لسانيّات بنيويّة"(1). ويميز داخل اللسانيّات البنيويّة بوجه عام بين بنيويتين مختلفتين ومتكاملتين في الوقت ذاته:

- بنيويّة أوروبية،
- بنيويّة أميركية.

ولا تشكّل المدرستان الأوروبية والأميركية اتجاهاً واحداً متجانساً، وإنما هما عبارة عن مجموعة من التصوّرات المتقاربة والمتباعدة في الوقت ذاته. وتختلف هاتان المدرستان البنيويتان من حيث مصدرهما. فبينما تعود اللسانيّات البنيويّة في أصولها الأولى إلى فكر سوسير، ترجع اللسانيّات البنيويّة الأميركية إلى بوعاز وسابير وبلومفيلد. ومن الطبيعيّ جدّاً أن يترتّب عن الاختلاف في المصدر اختلاف في الرؤية النظرية والمنهجية." فعلم اللغة عند الأوروبيين مجموعة من الحقائق والفرضيات العامة حول طبيعة اللغة، بينما علم اللغة الوصفي عند اللسانيين الأميركيين مجموعة من تقنيات الوصف"(2). ومن هذا

---

(1) ج. هيلبيش، **تاريخ علم اللغة الحديث**، ص91.

(2) جيفري سامبسون، **المدارس اللسانيّة: التطور والصراع**، (ترجمة أحمد نعيم الكراعين)، المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع، بيروت، 1993/ 1980، ص75.

المنطلق يتفق الاتجاهان على بعض المبادئ العامة التي تجمع اللسانيين البنيويين على اختلاف مشاربهم ويختلفان حول أخرى.

1.3. مظاهر الائتلاف

تقومُ اللسانيّات البنيويّة عموماً على جملة من الأسس والمبادئ المشتركة نجملها فيما يلي:

- اللسان بنية.
- تحليل اللسان إلى مستويات
- أولوية الوصف على التفسير
- أسبقية المستوى المنطوق على المستوى المكتوب.
- التمييز بين المنظور التزامني والمنظور التعاقبي وأسبقية الأول على الثاني.
- تطبيق المفاهيم الإجرائية نفسها في مستويات التحليل اللساني كافة ومن هذه المفاهيم:
  - التقطيع *Segmentation*
  - التوزيع *Distribution*
  - الوظيفة *Fonction*
  - الاستبدال *Commutation*
  - التعويض *Substitution*
  - العلاقات السياقية *relations syntagmatiques*
  - العلاقات الجدولية *relations paradigmatiques*

وتكشف مختلفُ الاتجاهات اللسانيّة البنيويّة عن تشابه ملحوظ في تحليل الظواهر اللغوية من حيث كيفية معالجتها والوسائل المستعملة في التحليل.

2.3. مجرد اختلافات اصطلاحية؟

تجدر الإشارة إلى أنّ اللسانيّات البنيويّة الأوروبية والأميركية، تختلف فيما بينها إلى درجة التقابل، سواء فيما يتعلّق بفهم طبيعة هذه المفاهيم، ودورها في التحليل اللساني أم كيفية اشتغالها، وأحياناً كثيرة في تسميتها. أمّا الاختلافات الاصطلاحية فحدّث ولا حرج. لقد تمّت ملاحظة "وجود خلاف في المصطلحات يصل إلى حد 75% بين عملين مكتوبين على يد عالمين لغويين وصفيين مشهورين، كثيراً ما كانا يتقابلان وجهاً لوجه وعلى الرغم من تناولها لنفس الظواهر والعمليات اللغوية"[3]. والأمثلة على ما ذهب إليه ماريو باي كثيرة جداً. فالروابط المركبية تسمّى علاقات *relations* عند هلمسليف وتجاوراً *contiguité* عند جاكبسون وتصادراً *contraste* عند مارتينيه. أمّا العلاقات النظامية *les relations syntagmatiques* فهي ترابطات *corrélations* عند هلمسليف وتجانسات عند جاكبسون وتعارضات *oppositions* عند مارتينيه[4]. ويقلل جاكبسون من قيمة التباين الحاصل بين مختلف التيارات اللسانيّة البنيويّة، معتبراً أنَّ الاختلافات التي قد تصل إلى درجة التناقض وتبدو غير قابلة للتوافق تظهر محدودة وسطحية بالنسبة إلى العلم اللسانيّ، وأن وحدة الاتجاهات الأساس في اللسانيّات البنيويّة شيء مثير للغاية إذا ما قارناها بالمبادئ غير المتجانسة التي كانت تَسِمُ لسانيّات القرن التاسع عشر والسَّنوات الأولى من القرن العشرين". يقول جاكبسون ملخّصاً هذا الوضع": يبدو من النظرة الأولى أنّ النظرية اللسانيّة في عصرنا الراهن تقدّمُ تنوعاً وتبايناً مذهلين في الاتجاهات المتعارضة. وكأي عصر من عصور التجريب الابتكاري، فإنّ المرحلة الراهنة من التفكير في اللغة ميزتها الخلافات الشديدة والمجادلات العنيفة، ومع ذلك فإن اختباراً دقيقاً وغير متحيز لكل هذه العقائد المتعصّبة، والمساجلات المتحمّسة يتكشف عن كل متراص ومتناغم يقف خلف التشعبات المدهشة في المصطلحات والشعارات والوسائل التقنية (. . .) بوسع المرء أن يقرّر أنّ أغلب هذه التناقضات المتضاربة والظاهرية تبدو مقتصرة على

---

(3) ماريو باي، **أسس علم اللغة**، ص256.

(4) رولان بارت، **مبادئ في علم الأدلة**، ترجمة محمد البكري، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط2، اللاذقية، 1987/ 1966، ص93.

السطح الخارجي من علمنا، بينما تبدي اللسانيّات في العقود الأخيرة انتظاماً مذهلاً في أسسها العميقة (...). وفي الحقيقة فإن معظم التعارض الحديث يقوم إلى حدّ ما على الاختلاف في المصطلحات وأسلوب الطرح، ويقوم إلى حدّ ما على تصنيف مختلف للمشكلات اللسانيّة التي اختارها العلماء وأشار إليها فريق من الباحثين الذين وجدوها ملحّة ومهمّة[5].

3.3. في البدء كان الاختلاف

إذا نظرنا إلى أصل التسمية وهي كلمة "بنية" وما اشتقّ منها مثل: بنيوي/ بنيويّة التي تشترك فيها اللسانيّات الأوروبية والأميركية، فمن المؤكد أن ثمة اختلافاً جوهرياً في دلالة مفهوم "بنية" و"بنيويّة" بين لسانيّي حلقة براغ والبنيويين الأميركيين الذين غالباً ما يسمّون البلومفيلديين أو الوصفيين". فالبنية في هذا الاتجاه الأخير ليست سوى مهارة تصنيفية يقوم بها اللساني الذي يتعامل مع ملفوظ ملموس، أي إنه أمام نصّ محدّد وليس أمام نسق ضمني. وتستخلص البنية في التصوّر اللساني الأميركي من الكلام الملموس عن طريق الاستقراء. لذا فإن البنية ليست أكثر من إراغة *manipulation* ممكنة لمعطيات تمّت معاينتها. ويذكّرنا هذا الموقف بالمقاربة الآلية والتصنيفية للشكلانيين الروس التي كان رفضها سمةً بارزة ودافعاً وراء ميلاد البنيويّة البراغية[6].

لكنّ اللسانيّات البنيويّة في أميركا ونظيرتها في أوروبا تشتركان في بعض الخصائص المنهجية العامة، من بينها اقتصار المعالجة اللغوية عندهما على تحليل البنية الداخلية للسان واستخدامهما مصطلحات مستمدّة من المنطق والرياضيات على نحو ما نجد عند هاريس في أميركا وهلمسليف في أوروبا. واهتمّت وظيفية حلقة براغ ولندن وخانية *tagmémique* بايك K. Pike بجملة من الأبعاد غير اللغوية أو خارج- لغوية، كالمقام التواصلي والسياق الثقافي للسان

---

(5) رومان جاكبسون، **الاتجاهات الأساسية في علم اللغة**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2002، ص16.

(6) Ladislav Matejka. *Le formalisme taxonomique*, in Revue ARC nº60, Aix en Provence 1975, Numéro spécial Jakobson, p.22.

المدروس. وَحافظت اللسانيّات البنيويّة الأوروبية في نسقها الاصطلاحي والمفاهيمي على العديد من المصطلحات اللغوية التي كانت متداولةً في التقليد اللغوي الأوروبي القديم.

ومن سمات اللسانيّات الأوروبية نزعتها الذهنية وهو ما يفسّر ورود كثير من المفاهيم الذهنية في أدبياتها اللسانيّة مثل: اللسان كنسق، والعلامة اللغوية المُكَوَّنة من الدال *signifiant* والمدلول *signifié*، والاهتمام بالشَّكل والمعنى على السواء. وتظهر هذه السمات بوضوح في أعمال حلقة براغ والغلوسيماتية (حلقة كوبنهاغن). ويهتمّ اللسانيون الأوروبيون بالقضايا اللغوية العامة مساوين بين التحليل الشكلي والتحليل الدلاليّ للبنيات اللغوية. فقد لجأت حلقة براغ إلى استعمال معايير دلالية قصد الكشف عن البنيات الصوتية للألسن، وحاولت الغلوسيماتية في كوبنهاغن مع هلمسليف صياغة جملة من المعايير الصورية للكشف عن البنيات الدلالية للسان وموازاتها بالمعايير الصورية الصوتية في إطار الفرضية القائمة على التشاكل *isomorphisme* بين صعيد التعبير وصعيد المضمون، سواء من حيث الأهمّية والقيمة، أم من حيث الوسائل الإجرائية المتبعة.

أمّا اللسانيّات البنيويّة الأميركية، فقد اعتبرت على لسان رائدها بلومفيلد "أن وضع الدلالة هو نقطة الضعف في الدراسات اللسانيّة"(7)، وأنه يستحيل دراسة مجال المعنى دراسةً علميةً لارتباط الدلالة وقضاياها بالعالم الخارجي. ويفسّر هذا الموقفُ التوجّهَ اللساني البنيوي الأميركي نحو العناية والتمسّك بكل ما يقوم على معايير صورية، وإبعاد الاعتبارات الدلالية في التحليل اللساني رغبة في تأسيس لسانيّات علمية موضوعية وصورية، لا تعتمد أي عوامل خارجية أو مفاهيم ذهنية وضمنية تمسّ الجانب الذهني عند الفرد المتكلّم ويصعب تحديدها اختبارياً مثل: التأويل، والفهم، والذات والشعور، والمعنى، وما إلى ذلك. واللسانيّات البنيويّة الأميركية، لاسيما التوزيعية منها، متأثرة في موقفها من المعنى بالمدرسة السلوكية في علم النفس، وبمنظور الوضعية المنطقية المعروفة بنزعتها التجريبية في الممارسة العلمية.

(7) L. Bloomfield. *Le langage*, Paris, Payot, 1970/1933.

أما اللسانيّات البنيويّة الأوروبية فتأثرت، بتصوّرات فكرية ذات منحى اجتماعيّ ونفسيّ وثقافيّ. لقد أكَّدَت الاتجاهات البنيويّة في أوروبا- عدا الغلوسيماتية - على دور الفرد المتكلم بأبعاده النفسية والثقافية والاجتماعية في النشاط اللغوي، وإبراز دور اللغة في تحقيق التواصل اللغوي بين المتكلمين بالربط بين البنية والوظيفية، ومكانة اللغة في نقل التجربة الفردية والجماعية للمتكلّمين. ويتضح هذا الموقف جلياً في أعمال مجموعة جنيف وحلقة براغ والمدارس الوظيفية المتفرعة عنها أو المتأثرة بها، مثل: وظيفية مارتينيه ووظيفية هاليداي. وجاء موقف اللسانيّات البنيويّة الأميركية من قضايا الفكر والمعرفة عموماً، ورفض قضايا التنظير العام والبحث في الظواهر الكلية *universaux* في معالجة الألسن على النقيض من موقف نظيرتها الأوروبية نتيجة ارتباط اللسانيّات الأميركية منذ انطلاقتها الأولى بالبحث اللسانيّ العملي القائم على وصف الوقائع اللغوية وصفاً مباشراً يضمن أقصى درجات الموضوعية".

ومعلوم أن اللسانيين الأميركيين قاموا أول الأمر بوصف مئات اللهجات المحلية التي كانت على وشك الانقراض والزوال في شمال أميركا. وخلق هذا التقليد لدى اللسانيين الأميركيين اهتماماً خاصاً بما له علاقة بالملاحظة المباشرة وبالوصف الموضوعي للوقائع اللغوية المتوافرة ميدانياً والقابلة للاختبار والمواجهة العملية. وترتّب عن هذا أنْ أولت اللسانيّات الأميركية أهميةً بالغةً لما هو تزامني في التحليل اللساني، فجاءت اللسانيّات الأميركية لسانيّات وصفيّة وتزامنية بامتياز.

أمّا اللسانيّات البنيويّة الأوروبية، وعلى الرغم من تأكيدها الشديد منذ "**دروس**" سوسير على مفهوم الوصف التزامني وانخراط بعض اتجاهاتها اللسانيّة مثل مجموعة جنيف والغلوسيماتية في هذا المنحى، فالمُلاحَظ هو نزوع أبرز الاتجاهات اللسانيّة الأوربية نحو العناية بالقضايا العامة للتغيير التاريخي الذي تعرفه الأنساق اللسانيّة على المستويات كافة، والاهتمام بالجوانب التعاقبية في الألسن ومعالجتها من منظور تطوريّ حركيّ يدعم المنظور التزامني ويكمِّله. ويبدو التكامل بين المنظور التزامني والتعاقبي جلياً في أعمال لسانيّي حلقة براغ أمثال، تروبتسكوي وجاكبسون وفي أبحاث مارتينيه الوظيفية. وقد شاع في أدبيات حلقة براغ اللسانيّة مفهوم التزامن الحركي *la synchronie dynamique* إشارة إلى التكامل

المنهجي بين التزامن والتعاقب في دراسة النسق اللساني دون أن يعني ذلك الخلط بين المنظورين.

ولا تخلو اللسانيّات الأميركية هي الأخرى، من الاستثناء، بحيث وجد من بين اللسانيين الأميركيين من يدعو إلى أفكار وتصوّرات لسانيّة تسير في اتجاه غير اتجاه آراء بلومفيلد التي كانت سائدة وقتئذ. وقد حفلت أعمال سابير E. Sapir وورف *Benjamin Lee Whorf*(8) اللسانيّة باهتمام واضح بدراسة المعنى اللغوي، في ارتباطه بقضايا وإشكالات معقّدة، مثل ربط اللغة بإطارها الاجتماعي والنفسي والثقافي، فكان موضوع الدرس اللساني عندهما أقرب إلى الدراسة الأنثروبولوجية منه إلى اللسانيّات الصورية على النحو الذي نعاينه في أعمال بلومفيلد وأتباعه.

وردَّدَ مثل هذه الأفكار الذهنية أيضاً اللساني بايك *Kenneth Pike* أحد أقطاب البنيويّة الأميركية، وصاحب النظرية المعروفة بالخانية *la tagmémique* وهي مقاربة وظيفية من عدة نواحٍ لأنّ صاحبها يَنْظُر إلى اللغة في بعدها الإنساني نفسياً واجتماعياً وثقافياً وهو ما غلب على الاتجاهات اللسانيّة الأوربية، مثل حلقة براغ، والوظيفية الجديدة (المنظور الوظيفي للجملة)، ووظيفية لندن أو النسقية *Systémique*، ووظيفية مارتينيه، التي تؤكّد على ضرورة ربط بنى اللغة بوظيفتها الفردية والاجتماعية.

ولا تحتفي اللسانيّات الأميركية كثيراً بالجانب النظريّ في التحليل اللساني. فهي ترفضُ المفاهيمَ النظرية التي لا ترتبط بالإجراءات العملية للتحليل اللساني المباشر القائم على الملاحظة المباشرة واستقراء الوقائع اللغوية، معتبرةً إياها مفاهيم ميتافيزيقية تنتمي إلى فلسفة اللغة وليس إلى البحث اللسانيّ بمعناه الدقيق. إن المهمّ بالنسبة إلى اللسانيّات الأميركية هو الاقتصار على ما له علاقة بالمعطيات اللغوية المستخرجة مباشرة من الألسن المدروسة. "ما يهمّ، شيء واحد فقط، إنها المعطيات المسجلة أو المقروءة أو المسموعة التي يمكن تنظيمها"(9).

(8) Benjamin Lee Whorf. *Linguistique et Anthropologie. Les Origines de la sémiologie*, Paris, Denoël-Gonthier, 1969.

(9) Emile Benveniste. *Problèmes de linguistique générale*, tome 2, Paris, Gallimard, 1974, p.19.

إنّ هدف التحليل اللساني هدفٌ عمليّ يتوخى وصف الألسن التي لا تتوفر على أنحاء. ويبدو موقف اللسانيّات الوصفيّة الأميركية الذي يرفض كل ما له علاقة بالمفاهيم النظرية وبالتنظير اللساني واضحاً من خلال نعت كثير من أقطاب اللسانيّات الأميركية تصوّرات سوسير اللسانيّة بأنها ذهنية *mentalisme* وتجاهلهم التام للمفاهيم الواردة في "**دروس في اللسانيات العامة**" ولاسيما ثنائياته الشهيرة: مثل لسان/كلام ودال/مدلول. ومعلوم أنَّ اللسانيّات البنيويّة في أوروبا تأسست منذ بدايتها الأولى على مثل هذه الثنائيات الذهنية. وقد وجد هاريس في كتاب تروبتسكوي "**مبادئ الصواتة**" مناسبة" لنقد المقاربة اللسانيّة البنيويّة في اتجاهها الوظيفي عند براغ، معتبراً إياها "غيبية" و"روحانية"، وأن نقطة الخلاف مع حلقة براغ تكمنُ في لجوئها العرضيّ إلى استعمال غيبي *mystique* لألفاظ فلسفية. إن مصطلحية حلقة براغ اللسانيّة تحمل في طياتها خطرين:

أولاً: إنها تعطي الانطباع أنه يوجد شيئان ممكنان للبحث الاستقصائي: الكلام وبنية اللسان، بينما ليس هذا الأخير سوى التقديم العلمي للأول.

ثانياً: إنّ استعمال كلمات مثل "وظيفة" و"نسق" ومفاهيم أخرى من النوع نفسه دون تحديدها بواسطة ألفاظ علاقية، وعمليات محدّدة يمكن أن تُضلّل اللساني"[10].

إنّ ما سعى إليه اللسانيون البنيويون في أميركا على وجه الخصوص- إلّا في حالات جد معدودة- هو الوصف الدقيق للمعطيات التي يتضمّنها ما عُرِف تحديداً بالمتن اللغوي *Corpus* وذلك بترتيب هذه المعطيات وتصنيفها في فئات. يشير مارتن يوس (1906-1985) Martin Joos إلى أنّ هدفَ البحث اللساني يجب أن يقتصر على التساؤل عن الكيف. أما التساؤل "لماذا"، الهادف إلى التفسير "(على نحو ما هو معمول به في النظرية التوليدية) فهو أمر لا طائل منه. يقول يوس موضّحاً موقفه: "إذا تم وضع الوقائع وضبطها، فمن العبث أن نطالب بالتفسير. نحن نسعى إلى الوصف بكل دقة، ولا نحاول أن نفسّر. فكل ما هو من قبيل

(10) J. P. Corneille. *La linguistique structurale, sa portées, ses limites*, Paris, Larousse, 1977, p.19.

التفسير في الوصف يعدّ ببساطة مضيعةً للوقت، ولا ينبغي أن يعتد به في إطار النظرية اللسانيّة العادية[11]. ويعتبر هذا الموقف المنهجي أن البحث في نحو لسان معين هو ببساطة وصف ممنهج للطريقة التي يتكلم بها الأفراد في مجتمع معين. إنّ اللساني عالم مهتمّ باللسان، ومهمته تحليل وقائع الكلام وترتيبها[12].

ومن هنا ترفضُ اللسانيّات البنيويّة في اتجاهاتها الأميركية، الطابعَ الافتراضي أو المنحى التفسيري في البحث اللساني. وقد نتج عن هذا التصوّر رفض يكاد يكون مطلقاً لكل نسق فرضي ـ استنباطي عام يتعلق بقضايا الألسن البشرية، أو القول بوجود كليات لغوية وهي السمات المشتركة بين جميع الألسن الطبيعية، لأن ذلك في نظر اللسانيين البنيويين الأميركيين يتجاوز حدودَ الوقائع اللغوية القابلة للملاحظة المباشرة والاختبار في الزمان والمكان. وتبدو اللسانيّات في المنظور البنيويّ الأميركيّ ممارسةً علميةً تجريبيةً بالأساس صالحة لأن تأخذ في الاعتبار الظواهر اللغوية قصد استخراج البنية اللغوية التي تتحكّم فيها انطلاقاً من الوقائع نفسها، وليس انطلاقاً من نسق نظري جاهز ومهيأ قبلياً؛ إنّ منطلقَ التحليل اللساني الوصفي البنيوي هو ملاحظة الوقائع اللغوية، مما يجبرنا على تنظيم هذه الوقائع بحسب الطريقة المهيأة بدل تنظيمها بحسب قوانينها الداخلية الخاصة بها[13].

ومقابل الموقف الرافض لما هو منظور فرضي تعميمي، عُرف معظم اللسانيين البنيويين الأوروبيين بمحاولاتهم الحثيثة لبناء نماذج لسانيّة ذات طابع تنظيري عام، بَيْنَما لم تلتفت اللسانيّات البنيويّة الأميركية إلى هذا الجانب المنهجي الهام في اللسانيّات والمتمثل في بناء نماذج لسانيّة عامة في دراسة الألسن الطبيعية إلّا مع ظهور النحو التوليدي على يد تشومسكي في نهاية الخمسينيات من القرن العشرين، وهو ما شكّل حقاً ثورةً في اللسانيّات البنيويّة الأميركية وتحولاً غير مسبوق.

---

(11) *Ibid*, p.21.

(12) *Ibid.*

(13) C. Bureau. *Syntaxe fonctionnelle*, Québec Presse Université de Laval, 1975.

4.3. بعض أسباب الاختلاف

واضح مما تقدّم أن الاختلافات بين المدارس اللسانيّة ليست دائماً اختلافات تعود في جزء منها إلى الفوارق الاصطلاحية"، كما يقول بذلك جاكبسون[14]"، بل هي في حالات كثيرة اختلافات تصورية عميقة ترتبط بالمنطلقات الفكرية والتصوّرية لكل مدرسة أو اتجاه على حدة. وتعود أسباب هذه الاختلافات بين اللسانيّات البنيويّة في أوروبا وأميركا إلى بعض المنطلقات نذكر منها[15]:

- المنطلق الفلسفي،
- تصور طبيعة اللغة،
- طريقة العمل أو المنهجية.

نقصد بالمنطلق الفلسفي ما يتعلّق بالمرجعية الفكرية العامة المعتمدة من قبل علماء هذه المدرسة أو تلك. واللسانيّات الأميركية منذ قيامها كاتجاه قائم الذات على يد بلومفيلد تأثرت بالنظرية السلوكية في علم النفس وبالوضعية المنطقية التي ترى أنّ التجربةَ أساسُ الإدراك أياً كانت طبيعةُ هذه التجربة. وظهر هذا التوجّه جلياً مع بلومفيلد الذي دعا إلى عدم الاهتمام بالمعطيات الدلالية في اللغة لتعذر الإمساك بها منهجياً وفق المبادئ الوضعية التي تأسست عليها اللسانيّات التوزيعية.

وقد كان للسانيين الأميركيين دوافعُ أخرى وراء البحث في اللغة، وهي دوافع عملية تختلف كلياً عما كان سائداً في أوروبا التي عرفت بإرثها الفكريّ الغنيّ في مجال دراسة اللغة الذي يمتدّ إلى عدة قرون خلت. ويَكْمُن الدافعُ الأساس للدرس اللساني الأميركي في وصف الألسن الهندية- الأميركية التي لم تكن معروفة، ولم تكن تمتلك أيّ تراث نحويّ مكتوب، بعكس ما حصل في أوروبا التي تعود أنحاؤها الأولى إلى العهد اليوناني في القرن الثالث قبل الميلاد.

(14) Roman Jakobson. *Essais de linguistique générale*, tome 2, Paris, Ed. de Minuit, 1973. p.11.

(15) انظر كتابنا: **في اللسانيّات العامة**، الفصل الأول.

وكانت الترجمة الآلية أيضاً من العوامل الأساس وراء المسار الاختباري الذي عرفته اللسانيّات البنيويّة الأميركية. ولعبت حركةُ تعليم الألسن الأجنبية منذ الحرب العالمية الأولى؛ والرغبة الأميركية في التوسّع والهيمنة السياسية والاقتصادية دوراً أساسياً في توجيه اللسانيّات الأميركية نحو الانكباب على الجانب العملي والتطبيقي في دراسة الألسن وتوفير الوسائل الملموسة لاكتساب الألسن الأجنبية بكيفية مرنة وفعالة في وقت وجيز.

وبين المدارس اللسانيّة البنيويّة الأوروبية نفسها اختلافات تصوّرية هامة. ففي الوقت الذي تهتمّ فيه حلقة براغ باللسان والكلام وبالوظيفة (بالمعنى السوسيري للكلمتين)، لا تهتمّ الغلوسيماتية إلّا بمفهوم اللسان الذي أُعدت صياغته صياغة صورية تخلى فيها هلمسليف عن كثير من الاعتبارات النفسية والاجتماعية التي تضمّنها مفهوم اللسان وتحديد خصائصه عند سوسير. أما اللسانيّات الوصفيّة الأميركية فلا تعتبر من المظاهر اللغوية موضوعاً للسانيّات إلّا الكلام المنجز فعلياً[16].

ومهما يكن من أمر، تبقى هذه الاختلافات هامة وبارزة، لدرجة أنه «باستطاعة المرء أن يفصل داخل اللسانيّات البنيويّة وبمنأى عن المحلية الجغرافية، اتجاهاً قائماً على ما هو بدهي رياضي يصل من النظرية إلى النصوص (هلمسليف/هاريس/سوميان Saumyan) عن اتجاه تجريبي اختباري ينطلق من السلوك العملي إلى تحديد المفاهيم [بلومفيلد وفرايز (1887-1967) Charles Fries]»[17].

(16) ج هيلبيش، **تاريخ علم اللغة الحديث**، ص139-140.
(17) المرجع السابق، ص140.

الفصل الرابع

تقنيات التحليل اللساني الوصفي:
- المتن اللغوي

1.4. اللسان موضوع الوصف

ما معنى أن يكون اللسانُ موضوعاً للدراسة العلمية؟ إنّ ذلك يعني أنه بالإمكان الاشتغال باللسان باعتباره موضوعاً اختبارياً هو على وجه التحديد اللسان المنطوق أو اللسان المكتوب القابل للإدراك والتصوّر بكل موضوعية. لكن أنَّى لنا أن ندرك موضوعاً غير قابل للمعاينة المباشرة، بل يدرك بواسطة الآثار الملموسة التي يخلّفها من أصوات وكلمات وجمل وملفوظات؟

يتشكّل اللسان بوصفه موضوعاً علمياً للسانيّات من جوانب أساسية يتعين التمييز بينها هي:

- "**جانب التقنين** ويشمل القواعد الضمنية العامة المتحكّمة في اللسان، وبدونها لا يمكن الحديث عن اللسان بالمعنى الدقيق.
- **جانب اجتماعي**: يتضمّن المواضعات *conventions* الاجتماعية والثقافية التي تحدّد طرائق استعمال اللسان وأوجهه المتعدّدة في إطار علاقات ثنائية واجتماعية متنوّعة.
- **جانب فردي**: يتعلّق بالطريقة الفردية التي توظف من خلالها الطاقة

اللغوية التي يملكها كل فرد متكلم، وما يرتبط بعملية التواصل من آليات ذهنية "[1].

يشكّل الجانب الأول موضوع اللسانيّات البنيويّة بمختلف اتجاهاتها وكذلك نظرية النحو التوليدي، بينما تهتمّ السوسيو-لسانيّة بالجوانب الاجتماعية من اللسان *Sociolinguistique*. ويتعلّق الجانب الثالث بدراسة علاقة اللغة *Langage* بالفكر *Pensée* أو قضايا الإدراك اللغوي وهي مسائل من صميم الدراسات السيكولسانيّة *Psycholinguistique*.

وقد نتج عن هذه الجوانب الثلاثة أَنَّ موضوع اللسانيّات *objet* ليس ثابتاً كما هو الحال في العلوم الفيزيائية أو الكيميائية، إذ يرتبطُ هذا الموضوع في الوقت ذاته بما هو فردي وجماعي، وما هو نفساني وما هو ثقافي، وذلك لاتصاله الوثيق بالإنسان الذي هو مركزُ اللغة ومحورها. ويرتبط موضوع اللسانيّات أيضاً بالنظرية التي يتمّ تحديده من خلالها وتحليله في ضوئها. ولا يقوم العلم كما هو معلوم لدى دارسي المناهج العلمية، إلّا إذا حدّد موضوعه أولاً، ثم المنهج ثانياً. يقال عادة إن "**الموضوع هو الذي يخلق المنهج**". أما في اللسانيّات فليس الأمر كذلك، حيث نحتاج إلى تحديد المنهج أولاً ثم الموضوع ثانياً. إنّ وجهة النظر هي التي تخلق الموضوع" بحسب تعبير دو سوسير *C'est le point de vue qui crée l'objet*[2] تحتاج اللسانيّات إذن وبعكس العلوم الأخرى إلى تعريف مُسْبَقٍ للموضوع الذي سَتَبْحَثُ فيه. ومن هذا المنطلق المنهجيّ بدأ دو سوسير بتحديد موضوع اللسانيّات، مميزاً بين مفهومين أساسيين هما مفهوما: المادة *matière* والموضوع *objet*[3].

جرت العادة أن تُعَرَّفَ اللسانيّات بأنها علم اللغة. غير أن اعتبار اللغة مادة للسانيّات لا يعني أنّ هذه المادة متجانسة كلياً أو أنها تشكّل موضوعاً مباشراً. إن

---

(1) Christian. Nique. *Hypothèses et argumentations en grammaire générative*, Paris, A. Colin, 1978, p.8 et suivantes.

(2) F. De Saussure. *Cours de linguistique générale,* Edition critique préparée par Tullio De Mauro, Paris, Payot, 1974, p.23.

(3) *Ibid*, p.23.

اللغة غير قابلة للاستيعاب مباشرة. فما يُسمّى عادةً باللغة هو في الواقع معطى مركّب من عدة مستويات على نحو ما نعرف في تقسيم الظاهرة اللغوية عند سوسير إلى لغة/لسان/كلام[4] وعند تشومسكي في ثنائيته قدرة/إنجاز[5]. وقد حدّد سوسير طبيعة كل مستوى على حدة، وبيَّن نوعية العلاقة التي تجمع بين هذه المستويات، منتهياً كما هو معروف إلى أن الموضوع الحقيقي والوحيد للسانيّات هو اللسان *Langue* في ذاته ومن أجل ذاته[6].

ومنذ هذا التحديد أصبح اللسان مصدراً للمعطيات اللغوية التي يشتغل بها اللسانيون الوصفيون في تحليلهم للظواهر اللغوية المتعلّقة بلسان محدّد[7].

2.4. المتن اللغوي

يبدأ الوصفُ اللساني في عرف اللسانيين الوصفيين بإعداد مادة لغوية تمثّل اللسان المراد وصفه، ويتطلب ذلك جمع النصوص والملفوظات المنطوقة (والمكتوبة) المستعملة بين أفراد ينتمون إلى المجموعة اللغوية نفسها، وهو ما يطلق عليه المتن اللغوي *corpus*. والمتن بهذا المعنى هو مجموعُ الملفوظات *énoncés* التي تنتج داخل مجموعة لغوية محدّدة في حالة *état* تزامن *synchronie* محدّدة يسجّلها اللساني الواصف ويجمعها بكل موضوعية ودقة وأمانة من خلال اتصاله المباشر بهذه المجموعة اللغوية أو ببعض من أفرادها، يقضي بينهم فترة زمنية، ويشاركهم في حياتهم اليومية كما لو كان واحداً منهم. وقد ورثت اللسانيّات الوصفيّة الأميركية بزعامة سابير وبلومفيلد هذه التقنية عن اللسانيين الأنثروبولوجيين [أمثال بوعاز Franz. Boas] الذين كانوا يعتمدون في دراستهم الأنثروبولوجية للمجتمعات الأصلية في شمال أميركا على معطيات وموادّ لغوية مستمدّة من الألسن الهندية الأميركية، يقومون في مرحلة أولى بجمعها ثم تصنيف أجزائها ووصف خصائصها في المستويات كافة.

(4) F. De Saussure. *Cours de linguistique générale*, p.29.

(5) N. Chomsky. *Aspects de la théorie syntaxique,* Paris, Seuil, 1972/1965, p.14.

(6) F. De Saussure. *Cours de linguistique générale* p.317.

(7) ليس معنى هذا أنّ الفكر اللغويّ القديم شرقاً وغرباً لم يكن يعتمد الألسن موضوعاً للوصف النحوي.

أما في اللسانيّات الأوروبية فإنّ وصف اللهجات الذي تزايد منذ عصر النهضة يشكل تقليداً مألوفاً سمح للغويين منذ عهد النهضة بجمع العديد من المعطيات اللغوية التي وفّرتها الأبحاث اللغوية في إطار المقاربات المقارنة والتاريخية خلال القرنين الثامن والتاسع عشر مستهدفة الكشف عن مظاهر القرابة بين الألسن الأوروبية. وكان النُّحاة الجدد يعتمدون نصوصاً لغوية مكتوبة تمثل حقباً تاريخيةً محدّدة من تاريخ لسان أو ألسن معينة لتتبع تطورها في مجال الأصوات والصرافة والمفردات والتركيب.

ويتمّ جمع المتن اللغوي بتدوين ما يسمعه الباحثُ من ملفوظات اللسان المزمع دراسته، إمّا بالكتابة على أوراق خاصة لِهذا الغرض، وإمّا بالتسجيل المباشر بواسطة الوسائل التقنية المتاحة من آلات التسجيل وغيرها. وكان اللسانيون الوصفيون الأميركيون في بداية اتصالهم بالألسن الهندية- الأميركية يستعينون بأشخاص يساعدونهم على جمع هذه المعطيات. ويطلق على الشخص المساعد الراوي[8] [المخبر] *informateur / Informant* أو مساعد البحث، يكون في غالب الأحيان متكلّماً سليقياً *locuteur natif* بهذا اللسان، يُحَدَّدُ دوره في تقديم التوضيحات والشروح المساعدة للباحث اللساني الذي غالباً ما يكون غير مُلِمّ كلياً باللسان الذي يسعى إلى وصفه[9].

ولم يكن هذا النهج في التعامل مع المادة اللغوية غائباً في الثقافة اللغوية العربية القديمة، ذلك "أن تاريخ دراسة اللغة العربية لَيَعْرِضُ علينا في بدايته محاولة جدية لإنشاء منهج وصفي في دراسة اللغة، يقوم على جمع اللغة ورواياتها، ثم ملاحظة المادة المجموعة واستقرائها، والخروج بعد ذلك بنتائج لها طبيعة الوصف اللغوي السليم"[10].

وبعكس الدراسات اللغوية القديمة التي كانت تعتمدُ نصوصاً مكتوبة تمثل

(8) يسمّيه تمام حسان «مساعد البحث»، انظر: **اللغة بين المعياريّة والوصفيّة**، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1975/ 1958، ص16.

(9) يكاد يكون له الدور نفسه الذي كان لرواة اللغة من الأعراب في بداية تدوين الثقافة اللغوية والأدبية العربية. ونظراً لما لكلمة «مخبر» من دلالة حافة نفضّل استعمال مصطلح «الرّاوي» للدلالة على الشخص المساعد.

(10) تمام حسان، **اللغة بين المعياريّة والوصفيّة**، ص22.

اللسان المدروس، فإنّ التحليل اللساني الذي أَرْسَتْه اللسانيّات الوصفيّة يعتمد في المقام الأول على المنطوق من اللسان ويتحاشى ما أمكن أيّ تعامل مع المادة المكتوبة رغبةً في بناء وصف يقوم على الملاحظة المباشرة من جهة، ولأن المستوى المكتوب من جهة ثانية، لا يمثّل اللسانَ المدروس في استعماله الواقعيّ، لأن نظام الكتابة مهما بلغت دقته يبقى مجرد وسيلة تقريبية لنقل اللسان المنطوق.

3.4. مواصفات المتن اللغوي

يخضع المتنُ اللغويّ في اللسانيّات الوصفيّة للمواصفات الثلاث التالية:

أولاً: التجانس *homogénéité* ويقتضي أن تكون النصوص أو الملفوظات المُجَمَّعَةُ متشابهةً في سماتها النوعية، وهو ما يعني أنها تنتمي مبدئياً إلى مستوى لغويّ واحد. ولتحقيق هذا الشرط، ينبغي العمل على تفادي الخلط بين ما ينتمي إلى الاستعمال اللغوي العادي وما هو استعمال لغويّ أدبيّ أو خاص بمجموعة لغوية محدّدة من المتكلمين، وعدم الجمع بين المستوى اللغوي المنطوق والمستوى اللغوي المكتوب. "إذا كان الوصف يتعلق بلغة الإعلامية، اختلفت النتيجة عما إذا كان المتن اللغوي المختار مجموعة من النصوص التقنية، أو المُصَنَّفات الرامية إلى تبسيط المعارف أو مجرد نصوص الصحافة اليومية"[(11)]. فلكلّ مستوى من مستويات استعمال اللسان نسقه وقواعده الخاصة به.

ثانياً: التمثيلية *représentativité* وتقتضي أن يمثل المتن اللغوي الـمُحَصَّل عليه اللسان المدروس أو ما هو مدروس منه في مستوى من مستويات التحليل اللغوي المعروفة. فالمتن اللغوي عَـيِّنَة *échantillon* عامة من اللسان المعروض على البحث، ممّا يحتّم عدم الاهتمام بالاستعمالات اللغوية الفردية والاستعمالات الخاصة (الجاهزة) *idiosyncratic*. ومعنى التمثيلية أيضاً أن يكون المتن اللغوي قادراً على توضيح وتبيان مجمل الخصائص

(11) روبير مارتان، **مدخل لفهم اللسانيّات**، (ترجمة عبد القادر المهيري ومراجعة الطيب البكوش)، المنظمة العربية للترجمة، بيروت 2007/ 2002، ص34.

والمميزات العامة لوحدات اللسان المدروس على نحو يسمح بعزلها عن غيرها من الوحدات وتصنيفها بربطها بباقي الوحدات الموجودة معها في النسق نفسه (الصواتي/الصرافي/التركيبي/إلخ) بحسب مستوى التحليل المدروس.

ثالثاً: التحديد الزماني والمكاني: ويتعلّقُ بضبط المتن اللغوي من حيث المعالم *repères* التي تحدّد زمانه ومكانه. ويفترض في المتن اللغوي/العَيِّنة أن يكون مجموعة مغلقة من العناصر، وغير قابل لأي إضافة أو نقص بعد أن يتمّ حصر المعطيات المُكَوِّنة له في زمان محدّد ورقعة جغرافية محدّدة تكون ذات خصائص لغوية وبشرية متشابهة نسبياً.

واعتماد المتن اللغوي مادة للوصف اللساني له عدة إيجابيات نذكر منها:

- كونه يُقَدِّم للباحث اللساني الواصف ملفوظات نموذجية من اللسان المدروس.
- كونه يشكّل قاعدة منهجية مقبولة لتقويم ورود *occurrence* بعض الوحدات الصوتية والصرفية والمُكَوِّنات وصولاً للجمل من حيث كونها نحوية *grammaticale* أو غير نحوية *agrammaticale* مقبولة *acceptable* أو غير مقبولة من قبل المتكلّم السليقي.
- كونه يسمح بوضع قيمة تواتر *fréquence* الاستعمالات في علاقتها المباشرة مع الوقائع اللغوية الواردة في الاستعمالات العادية للسان المدروس.

إلّا أن مواصفات المتن اللغوي في شكلها المجرد والعام ليست دائماً متاحةً بالنسبة إلى كل الألسن المدروسة، إذ يصعب في الغالب الأعمّ تحقيق متون لغوية تتوافر فيها مجملُ المواصفات المشار إليها دفعةً واحدة لأسباب سيأتي ذكرها.

4.4. ملاحظات منهجية حول إعداد المتن اللغوي

لَمَّا كان المتن اللغوي يشكّلُ منطلق الوصف اللساني، فقد عمل اللسانيون

على بلورة جملة من الملاحظات المنهجية تخصّ هذا المبدإ المركزي في اللسانيّات الوصفيّة. وتشملُ هذه الملاحظات الجانب المادي للمتن اللغوي وطريقة استغلاله، أي إن الأمر يتعلقُ إجمالاً بطبيعة تكوين المتن اللغوي والصعوبة العملية المرتبطة بذلك، وبالكيفية المثلى لاستغلاله في الوصف اللساني من حيث مردوديته وكونه وسيلة فعّالة في يد اللساني للقيام بمهمّته على الوجه المطلوب.

سبقت الإشارة إلى أنَّ المتن اللغوي عينة *échantillion* تمثل اللسان. وهو ما يعني أنّ المتن اللغويّ ليس هو اللسان المزمع دراسته، وإنما مجرد تمثيل له. ويترتّب عن هذا الوضع بروز بعض الأسئلة المنهجية والنظرية التي يمكن حصرها فيما يلي:

- كيف يَتِمُّ الانتقال من وصف المتن اللغوي إلى وصف اللسان ذاته؟ وبعبارة أوضح كيف يمكن تطبيق خصائص الجزء على الكل؟.
- كيف نحصل على متن لغويّ تمثيلي للسان المدروس، لاسيما إذا علمنا أنّ المتنَ اللغويّ يكون دائماً محدوداً، بينما جمل اللسان تكون دائماً غير محدودة؟[12].

إن المتن اللغوي مهما كانت شموليته لا يُمَكِّن بالضرورة من الحصول على الخصائص العامة المتعلقة باللسان المدروس. كما أنّ خصائص العناصر المُكوِّنة لهذا المتن لا تطابق حتماً خصائص عناصر اللسان المدروس، وهو ما يطرح مشكلاً محورياً يرتبط أساساً بنوعية العلاقة القائمة أو التي يمكن أن تقوم بين المتن اللغويّ واللسان المعروض للوصف. فأمام اللساني الواصف عَيِّنة وليس لساناً كاملاً. والفرق بين العينة واللسان واضحٌ كماً وكيفاً. فلا تضمّ العَيِّنة من خصائص اللسان، إلا جزءاً محدّداً، وذلك بحسب طبيعة هذه العَيِّنة ونوعيتها. وعليه فقد لا تطابق بعض السمات العامة المستخلصة من المتن اللغوي صِواتياً وصِرافياً وتركيباً، واقع اللسان أو لا تكون متواترة فيه على النحو الكافي. ومن

(12) H. A. Gleason. *Linguistique théorique: Une introduction*, Paris, A. Colin, 1969/ 1955, p.159.

جهة ثانية، يفترض تحقيق هذا الغرض، أي وصف خصائص اللسان العامة من خلال العَيِّنة، أن تكون هذه الأخيرة ممثلة للِّسان المدروس على نحو تام وشمولي، وهو ما يعزّ تحقيقه إنْ على المستوى النظري أو المستوى التطبيقي. ولا يتعلق الأمرُ هنا بعائق الكمّ، بل أيضاً بمدى الالتزام في تكوين المتن بتجميع ما هو دال من اللسان، وما يكون حاسماً في الوصف المزمع القيام به[13]. ويبقى السؤال المنهجي هو: كيف نحدّد انطلاقاً من العَيِّنة ما هو ملائم بالنسبة إلى وصف هذا اللسان وما ليس كذلك؟.

وقد لا تجد الخصائصُ المتعلقة ببعض عناصر اللسان الصوتية أو الصرفية أو التركيبية، رغم أهمّيتها القصوى وأولوية أخذها في الاعتبار في الوصف اللساني، مكاناً لها في أيّ متن لغوي مهما كان شاملاً جامعاً، ومهما أولينا عملية الجمع من عناية فائقة. كما إنَّ الزيادة المفرطة في المعطيات التي تتضمّنها العَيِّنة من حيث الكم قد تجعل التحليل اللساني صعباً ومعقّداً. إنَّ اعتماد المتن اللغوي بكيفية مطلقة بوصفه أساس التحليل في اللسانيّات الوصفيّة والبنيويّة يعني استحالة المطالبة بشموليته واتساعه.

ولسنا في حاجة إلى التذكير بما أخذه تشومسكي على اللسانيّات الوصفيّة الأميركية من اعتماد مطلق وكلّي على المتن اللغوي كموضوعٍ للتحليل اللساني. فمَهْمَا سلَّمْنا أنّ المتن اللغوي المُعْتَمَد شامل، فهو لن يغطي أبداً مجملَ ملفوظات اللسان المدروس. وتسمح حركية النشاط اللغوي عند الفرد المتكلم وصيرورته المتجدّدة بإضافة ملفوظات جديدة، سواء أكانت هذه الإضافة فعلية أم تصورية لأن كل متكلم بلسان ما يكون قادراً على أن ينجز/ يضيف/ يفهم/ يؤول ملفوظات لم يسبق له بالضرورة أن أنتجها أو سمعها[14]. فما يتميز به اللسان عند الفرد المتكلم بحسب صاحب النظرية التوليدية، هو الإبداع والتجدّد المستمرّ. ولا يضمّ اللسانُ الجملَ المحقّقة بالفعل فحسب، وإنَّما أيضاً كل الجمل الافتراضية، اللامتناهية العدد من الناحية النظرية والعملية، التي يكون باستطاعة المتكلم في كل وقت وحين أن ينتجها ويؤولها من جديد. إن ما يواجه

---

(13) H. A. Gleason. *Linguistique théorique : Une introduction*, p.158.

(14) Olivier Sautet. *La linguistique*, Paris, PUF, 2ème éd. 2002/1995, p.179-180.

المتن اللغوي من نقص يتمثل أساساً في استحالة القيام بالمقاربة الوصفيّة نفسها من الناحية العلمية عندما يتعلق الأمر بالوقوف على الجوانب العامة التي تمكنُ من تحليل بعض الظواهر اللغوية الجزئية[15].

ويضم المتن اللغويّ من الوقائع اللغوية المتنوعة والمختلفة ما يتعذّر معه تحقيق التجانس الكلّي إلّا في حال المتن المحدود، كأن يتعلق الأمر بدراسة لغة شاعر ما أو بالكتابات الروائية لأديب معين أو بنصوص محدّدة. أما المتون اللغوية الممثلة للألسن الطبيعية في واقعها الاستعمالي العادي، فمن العسير جداً أن تتّسمَ بالتجانس الذي تشترطه اللسانيّات الوصفيّة.

5.4. صعوبات وعوائق أخرى

لا تقدم المتون اللغوية تمثيلية مطابقة للألسن المدروسة، بقدر ما تُضفي عليها نوعاً من الاصطناعية التي يتعينُ على اللساني الواصف أن يتعامل معها بحذرٍ شديدٍ اعتماداً على معرفته اللسانيّة الخاصة وتجربته في مجال الوصف أو على خبرة الراوي اللغوية. وتنضاف إلى ما سبق ذكره عوامل أخرى تُسْهِمُ بدورها في التقليل من تمثيلية المتن اللغوي، ومنها[16]:

أ - الطابع الاصطناعي للمقام[17] الذي يتمّ فيه جمعُ المتن اللغوي أو تسجيله أو تدوينه، مِمَّا يجرد المتنَ من تماسكه الداخلي، فإذا هو عبارة عن أشتات من اللسان: عناصر صوتية منفردة ووحدات صرفية وبُنى تركيبية متفرقة، ليس بينها أي رابط فعلي، ومستقلة عن المقامات التي أخذت منها وعن شروط استعمالها. فكيف يتأتى للدارس اللساني والحال هذه استحضار هذه المقامات أو تذكرها ليتمكّن من ربط بنية الجملة بوظيفتها

(15) H. A. Gleason. *Linguistique théorique : Une introduction*, p.159.

(16) للوقوف على بعض العيوب التي وجّهت لمفهوم المتن اللغويّ في اللسانيّات الوصفيّة يمكن الرجوع إلى:

J. Lyons. *Linguistique générale*, Paris, Larousse, 1970/1968.

H. A. Gleason. *Linguistique théorique: Une introduction*, Paris, A. Colin, 1969/1955.

(17) *Ibid.*, p.158.

أو خلق نوع من التلاؤم بينهما بغية الوقوف على حقيقة النشاط اللغوي ودوره في خلق تواصل دالّ ومُعَبِّر؟ وبعبارة أوضح، هل بالإمكان تغييب المعطيات الدلالية في فهم بنى الملفوظات الصواتية والصرافية والتركيبية؟ تؤكّد اللسانيّات الوصفيّة نفسها أنه لا يمكن ضبط دلالة الخطاب أو الإرسالية اللغوية بطريقةٍ مقبولة إلّا عن طريق المقام التواصلي *situation* الذي يصدر فيه المتكلم عباراته والاستجابة السلوكية - *comportements réponses* التي تحدثها هذه العبارات عند المخاطَب"[18].

ب- يكون المتن اللغويّ دائماً محملاً بجوانب لغوية فردية متعلّقة بمساعد البحث (أو الراوي في الثقافة العربية) أو اللساني الواصف نفسه، وتتجلى في الخصوصيات اللسانيّة الفردية التي لا تفارقُ أيّ متكلم. وليس مساعد البحث/ الراوي نفسه أكثر من متكلّم سليقي باللسان المعروض للوصف. ولا تمثل هذه الملامح الفردية خصائص لغوية عامة يشترك فيها جميع المتكلمين بلسان محدّد. "فالمعارف اللسانيّة والعادات اللغوية تختلف من شخصٍ إلى شخص، ولكلّ فرد نغمة صوتية خاصة به، ومفردات نشيطة (أي المفردات التي نستعملها) ومفردات كامنة (أي التي نفهمها)، فبقدر المتكلمين هناك لهجات فردية"[19].

6.4. مشاكل مساعد البحث

تشترط تقنيةُ جمع المتن اللغوي في اللسانيّات الوصفيّة كما سبق القول حصول تجانس تامّ في المتن اللغوي المزمع دراسته، أي توفره على مستوى لغويّ واحد متجانس. لكن مسألة اعتماد مساعد البحث في جمع المتن اللغوي وإعداده تثير جملةً من المشاكل المنهجية التي قد تتعارض والمبادئ الأساس التي يقوم عليها تشكيلُ المتن اللغوي، ولاسيما شرط التجانس. فكيف يتمّ انتقاء مساعد البحث؟ وما الصعوبات المرتبطة بهذا الانتقاء أو ذاك؟

---

(18) L. Bloomfield. *Le langage*, p.132.

(19) روبير مارتان، **مدخل لفهم اللسانيّات**، ص34-35.

الواقع أن انتقاء الراوي من حيث مستواه اللغويّ والثقافي مسألة نسبية بالنظر إلى الجانب اللغويّ المزمع وصفه. "ففي حال اللغات المستعملة في مجتمعات متخلّفة لا معنى مطلقاً لإثارة مثل هذا السؤال، ولكن بالنسبة للغات مجتمعات متحضّرة، فهؤلاء الرواة يمكن أن ينتقوا من بين من يحسنون تمثيل المستوى اللغوي المراد تحليله وتقعيده. فإذا أراد أحدٌ أن يصفَ اللغة الفرنسية كلغة يتكلّمها أكثر الناس ثقافةً في فرنسا، فيجب أن ينتقى الراوي من بين الطبقات العالية الثقافة، مثل أساتذة الجامعة، والمحامين، والأطباء، وموظفي الحكومة. وإذا أريد وصف لغة الأحياء القذرة في باريس وتحليلها، فإنّ الأوباشَ والمومسات يمثلون هذه اللغة أحسن تمثيل. وإذا أُرِيدَ شيء بَيْنَ بَيْنَ أمكن الرجوع إلى طبقة الخبّازين، والجزّارين، والخدم. وفي كل هذه الحالات حين يتيسّر الحصول على راوٍ يمثل اللغة الحية يجد الباحث نفسه مزوداً بما يسمّى بالظروف البيئية"[20].

ومع هذا الوضوح في مهمّة الراوي/مساعد البحث، فإن عمله بمعية اللساني الواصف ليس دائماً مهمّة سهلة وبهذه الصورة المبسّطة. وليس أكيداً دائماً أن يضمن اللجوء إلى الراوي تحقيق شرط التجانس المطلوب. ثم إن ازدواجية الراوي أو اللساني نفسه، لها دورها في تحديد خصائص البنيات اللغوية المدروسة، لاسيما أن الراوي يكون عارفاً بأهداف ومساعي عمله، ممّا يدفعه إلى التدخل الفعلي عن وعي أو دونه، لمساعدة الباحث اللساني. وقد يتدخّل الراوي أو الباحث في ما يسجل أو يسمع أو يسأل عنه. "فإذا علم المتكلمون بتسجيلهم وتصويرهم فإنهم يخضعون كلامهم ولو عن غير وعي لمراقبة (عُليا لِسانيّة) يمكن أن تحرف معطياته، وإذا ما سجل كلامهم من دون علمهم فلا بدّ من الحصول على موافقتهم أو إزالة كل سمة من كلامهم قد تفضي إلى التعرف عليهم"[21]. وقد يقف الراوي، وأحياناً الباحث نفسه، مواقف متباينة من اللسان المدروس، سواء من خلال ما هو مُتَحَصِّلٌ لديه من أحكام مسبقة أم من خلال بعض الأحكام الطارئة أثناء جمع المتن وإعداده مثل، الانبهار أو الإعجاب أو

---

(20) ماريو باي، **أسس علم اللغة**، ص120-121.

(21) روبير مارتان، **مدخل لفهم اللسانيّات**، ص36.

النفور أو ما شابه ذلك. والملاحظ أيضاً أنّ الراوي غالباً ما يكون جامعاً لمفردات وتعبيرات تنتمي إلى مستويات لغوية متعدّدة أو مختلفة عن تلك التي يَسْعَى اللساني الواصف إلى دراستها. وقد يكون الراوي في العديد من الحالات متأثراً بألسن ولهجات محلية أخرى بحكم تجربته اللغوية، نتيجة اختلاطه باللسانيين ونباهته، وحذقه اللساني، وتكوينه ومعرفته وثقافته العامة وتميزه عن غيره. وهكذا يصبح اختيار مساعد البحث أمراً حاسماً سواء فيما يتعلق بإعداد المتن اللغوي، أم فيما يتعلق بالشروح والتفسيرات التي يساعد بها الراويُّ اللسانيَّ الواصف[22]. وفي جميع الحالات، فإن التعامل مع الراوي/مساعد البحث ينبغي أن يتمّ في إطار نوع من المراقبة الدائمة، فهو مثل أي متكلّم باللسان، يتردّد في نطق العديد من الأصوات والكلمات وقد يرتكبُ أخطاء لغوية مثل باقي المتكلمين[23].

وعلى الرغم من أن الكشف عن مختلف الاطرادات التي تعرفها المستويات اللغوية يرتبط باعتماد الدارس اللساني لمتن لغوي، فإنه قلَّما يتيسَّر لهذا الدارس الاشتغال على متن لغويّ متجانس. وحتى إذا تَوَفَّر له هذا الوضع، فإنَّ ذلك لا يقوده إلى تعميمات هامة ومفيدة إلّا في حالات قليلة. إن التعامل مع المتن اللغوي يجب أن يكون شاملاً وعاماً دون أن يقود ذلك إلى الخلط بين مستويات اللسان، من حيث تداخل المعطيات وتنوعها، وعدم تجانسها.

7.4. العلاقة بين المستوى المكتوب والمنطوق

يتضح ممّا سبق أن اعتماد المتن اللغوي منطلقاً للوصف اللساني يطرح، إشكالية العلاقة بين اللسان في مستوييه المكتوب والشفوي. وتبدو العلاقة بين المستوى المكتوب والمنطوق في كل متن لغويّ معقّدة جداً بحسب الوضع

(22) يمكن مقارنة المشاكل المرتبطة بدور مساعد البحث في إعداد المتن اللغويّ بما عرف في تاريخ النحو العربي بالرواة وموقفهم من اللسان العربي. وقد وقف اللسانيون والأنثروبولوجيون في أميركا أمثال، بلومفيلد، سابير، وورف، وبايك وغيرهم موقف إعجاب وانبهار من ألسن الهنود الحمر التي قاموا بوصفها.

(23) H. A. Gleason. *Introduction à la linguistique*, p.159.

الاستعمالي والاجتماعي للسان المدروس. والثابت مبدئياً أنّ المستوى المكتوب مستقلّ نسبياً عما هو منطوق. فالمكتوب لا يعكس المنطوقَ إلّا بكيفية جزئية. لكنّ حدود هذه الاستقلالية وملامحها تظل غير واضحة أو محدّدة في جميع مواقف استعمال اللسان، لاسيما إذا أخذنا اللسان في مستواه العام والعادي الذي ليس لا بالمستوى الأدبيّ الرفيع، ولا بالمستوى الشفويّ الخاص بهذه الشريحة الاجتماعية أو تلك[24]. ويظل ما هو منطوق من اللسان شبه ناقص بالقياس إلى المستوى المكتوب. غير أن فهم حقيقة المكتوب، يتطلبُ عملياً الرجوع بين الفينة والأخرى إلى المنطوق لكونه يفيد في تفسير كثيرٍ من جوانب المكتوب. وتقتضي دراسةُ خصائص المستوى المكتوب أساساً تحليلاً مُعَمَّقاً لما هو منطوق، لأن الاكتفاء باللسان المكتوب وحده قد يقود إلى جملة من الأخطاء حول واقع بنيات اللسان المدروس[25].

ولتفادي إثارة هذه القضايا الشائكة، لاسيما بالنسبة إلى بعض الألسن التي يُلمَسُ فيها فرق كبير بين المستوى المكتوب ونظيره المنطوق، قد يقتصر اللساني الواصف على اعتماد متن لغوي مكتوب في صيغة نصوص مكتوبة. ولا يطرح المتن اللغوي في هذه الحال أية عراقيل منهجية إضافية. فيكفي تحديد هوية صاحب النص من حيث مستواه الثقافي والفكري (فيلسوف / أديب/ مؤرّخ أو أية شخصية أخرى سياسية أو غير ذلك) ومن حيث زمانه (نصوص قديمة أو معاصرة) ونوعية النصوص (نصوص شعرية أو نثرية)، وكل التوضيحات الإضافية التي من شأنها أن تحدّد السمات النوعية للمتن اللغوي المعتمد. وقد يتطلب الاعتماد على

(24) هذه الملاحظات في حاجة إلى ما يَدْعمها انطلاقاً من الواقع السوسيو- لساني نفسه. وكثير من المفاهيم التي استعملناها هنا مثل الاستعمال العام والعادي ليس لها أي بعد نظري، وبالتالي ليس لها أي قيمة منهجيّة في غياب دراسات سوسيو-لسانيّة تتعلق باستعمال اللسان العربي في المستوى المكتوب والمستوى المنطوق. وحسبنا هنا أن نشير إلى صعوبة العلاقة بين المستوى المكتوب والمنطوق في اللسان. للوقوف على جانب من إشكاليات العلاقة بين هذين المستويين، يمكن الرجوع إلى:
محمد العبد، اللغة المنطوقة واللغة المكتوبة: بحث في النظرية، القاهرة، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، 1990.

(25) H. A. Gleason. *Introduction*, p.12.

كمّ هائل من الملفوظات والنصوص المكتوبة المُشَكِّلة للمتن اللغوي عملاً فيلولوجياً موازياً قصد تحديد مستويات اللسان ومُعالجتها في الزمان والمكان. وحين يكون المتن اللغويّ شفوياً، تعترض الباحث صعوبات ومشاكل من صنف آخر. "فالمتن الشفوي يَعُجُّ بأنواع مختلفة من "التشويش" كالتردّد والانقطاع والتداخل ما يمكن أن يجعل الكلام غير مفهوم، لذا سرعان ما يصبح نسخه ضرورياً، وهو أمر يقتضي قواعد دقيقة ويتطلب عملاً ضخماً"[26].

8.4. المتن ونحو اللسان: أية علاقة؟

يطرح المتنُ اللغويّ مشكلاً نظرياً ومنهجياً هاماً يتمثل في العلاقة الجدلية بينه وبين الأنحاء المستخلصة منه، إذ تختلف الأنحاء وتتنوع باختلاف طبيعة مكونات المعطيات التي تتضمّنها المتون اللغوية المعتمدة. "إن النحو الموضوع انطلاقاً من متن لغوي ما، لا قيمة له إلّا بالمدونة المعنية"[27]. وعليه، يختلف النحو المستخلص من متن لغوي يعتمد الرواية الشفاهية (كلام عادي ينقل مباشرة) عن متن لغويّ مُكَوَّن من دواوين وقصائد شعرية مكتوبة، وهما معاً يختلفان عن متن لغويّ قائم على مادة لغوية نثرية. وتخضع كفاية النحو من حيث شموليته ودقة قواعده وطبيعيتها بالدرجة الأولى لنوعية المتن اللغويّ المعتمد، وبالتالي يمكن الحكم بطرق مختلفة على الأنحاء بحسب المتون اللغوية التي تم اعتمادها قاعدة لصوغ هذه الأنحاء أي بالقياس إلى المتون اللغوية التي أنتجتها.

إنّ شرطَ التجانس والاهتمام باللسان المنطوق اللذين تؤكّد عليهما اللسانيّات البنيويّة، لا يمكنهما أن يحجبا عنا قيمةَ المتن اللغويّ في بعده الأدبي المكتوب. إن المستوى الأدبي للسان أغنى من مستواه العادي، سواء أكان مكتوباً أم منطوقاً، وذلك بحكم كون الأدب تجربة إنسانية. وليس الاستعمال الأدبي للسان سوى جانب واحد من جوانب عديدة لاستعمال اللسان لغايات أخرى غير التواصل اليومي العادي. إنّ اللغة الأدبية لغة ذات معايير فنية وجمالية تسمحُ

(26) روبير مارْتان، **مدخل لفهم اللسانيّات**، ص36.

(27) المرجع السابق، ص36.

بتمييز الأسلوب الذي يستعمله هذا المبدع أو ذاك. إلّا أن عيب التعامل مع اللسان في مستواه الأدبي فقط يكمنُ في الجنوح نحو محاولة تعميم خصائص المتن الأدبي على باقي مستويات الاستعمالات العادية[28].

ويقرّ اللسانيون الوصفيون أن تعاملهم مع اللسان المدروس غالباً ما يتمّ تحديده وفق معايير تتعلّق بما هو اجتماعي وثقافي وسياسي، ولا يخضع بصفة مطلقة للمعايير والمواصفات التي سبق الحديث عنها في إعداد المتن اللغويّ. فالأكيد أننا "نختار عادة لسان الأفراد المتعلّمين الذين يعيشون في عاصمة البلد ليمثل اللسان المدروس. إن النَّحْوَيْنِ الفرنسي والإنكليزي وكتب نطق اللغة الإنكليزية والفرنسية تصف ـ ما عدا في الحالات التي يشار فيها إلى عكس ذلك ـ لسان أناس متعلّمين من لندن والجنوب الشرقيّ، بالنسبة لإنكلترا، أو باريس بالنسبة لفرنسا، وهي نفس الأنواع التي تدرس باعتبارها ألسنة أجنبية في المدارس، رغم أنها في هذين البلدين لا تعكس إلّا الكيفية التي تتكلّم بها الأقلية"[29]. فأين مقياس التمثيلية عندما يتمّ الإقرار بمثل هذه الانتقائية اللافتة للنظر في التعامل مع المادة الممثلة للسان معين؟

وعلى الرغم مِمَّا يبدو من شروط موضوعية تتصلُ بطريقة جمع المتن اللغويّ وإعداده بكيفية ملائمة، فإن هذه العملية تتطلبُ من الباحث اللساني الواصف حسّاً لغوياً متميزاً ومهارات دقيقة وتدريبات مكثفة وحضور نوع من البديهة للوقوف بكل موضوعية وضبط على خصائص المتن اللغويّ المدروس، والقدرة على تذليل الصعوبات في ضوء ما يتوافر لديه من معطيات.

9.4. المتن اللغويّ في اللسانيّات العربية الحديثة: إشكالات من نوع آخر

كثيرةٌ هي الدراسات اللغوية الحديثة والقديمة التي تناولت مسألة تناول اللغويين العرب القُدامى للمادة اللغوية المعتمدة في التحليل النحوي واللغويّ[30]. ويسمح الاطلاع على هذه البحوث باستنتاج بعض الخصائص

(28) J. Lyons. *Linguistique générale, introduction à la linguistique théorique.*

(29) R. H. Robins. *Linguistique générale : Une introduction*, p.52.

(30) جلال الدين السّيوطي، **الاقتراح في أصول علم النحو**، تحقيق أحمد محمد قاسم، =

المنهجية العامة التي قادت اللغويين العرب في عمليتي جمع المعطيات المتعلقة باللغة واستنباط الأحكام ومنها:

- كثرة المصادر المعتمدة في التقعيد للعربية،
- اختلاف طبيعة هذه المصادر: القرآن الكريم/ الشعر العربي/ كلام العرب،
- حصر كلام العرب في مناطق معينة من بلاد العرب.
- حصر المتن الشعري والنثري في حدود زمنية محدّدة، بحيث يقف الاستشهاد بالشعر حتى عصر بشّار بن بُرْد، بينما استمرّ الاحتجاج بلغة البدو إلى حدود القرن الرابع الهجري.
- رد عدد من اللهجات أو اللغات كما كان يقال لنسق لغة واحدة هي لغة قريش.

وقد أثارت هذه الطريقة التي اتَّبعها اللغويون العرب والشروط والمقاييس التي وضعوها نقاشاً متعدّد الجوانب. ويمكن القول مبدئياً إنَّ في هذه الطريقة، كثيراً من شروط المنهج المضبوط.

وتكاد الشروط المتعلقة بإعداد المتن اللغويّ وجمعه في اللسانيّات الوصفيّة أن تكون هي نفسها التي قادت خُطَى اللغويين الأوائل في الثقافة اللغوية العربية، لولا تلك الاختلالات المنهجية التي تمّت ملاحظتها بشأن تحديد المادة اللغوية عند النّحاة العرب، وكان ذلك من ناحيتين:

= مطبعة السعادة، القاهرة، 1976.

جلال الدين السّيوطي، **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**، تحقيق علي محمد البجاوي وآخرين، مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة.

محمد عيد، **الرواية والاستشهاد باللغة**، **عالم الكتب**، القاهرة، ط2/ 1976.

عبد الحميد الشلقاني، **رواية اللغة**، دار المعارف، القاهرة، 1971.

علي أبوالمكارم، **تقويم الفكر النحوي**، دار الثقافة، بيروت، 1975.

ابراهيم عبادة، **عصور الاحتجاج**، دار المعارف، القاهرة، 1980.

عفيف دمشقية، **المنطلقات التأسيسية والفنية للنحو العربي**، معهد الإنماء العربي، بيروت، 1978.

- "فهُمْ أولاً يشملون بدراستهم مراحل متعاقبة من تاريخ اللغة العربية، تبدأ من حوالي مائة وخمسين عاماً قبل الإسلام، وتنتهي بانتهاء ما يسمّونه عصر الاحتجاج، أي إنهم يشملون ما يقرب من ثلاثة قرون من تاريخ لغة العرب. وتلك حقبة لا يمكن أن تظلّ اللغة فيها ثابتةً على حالها، وإنما المعقول أن تكون اللغة قد تطورت فيها من نواحي البنية والنطق (. . .).
- "ثم هم يعمدون ثانياً إلى لهجات متعدّدة من نفس اللغة فيخلطون بينها ويحاولون إيجاد نحو عام لها جميعاً"، والذين عنهم نقلت اللغة العربية، وبهم اقتدي، وعنهم أخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم قيس وتميم وأسد، فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه، وعليهم اتكل في الغريب، وفي الإعراب والتصريف، ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين. ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم"[31].

إنّ تحديد المتن اللغويّ بهذه الشروط يخرق شرطاً أساسياً من شروط المتن اللغويّ وهو وحدة الزمان والمكان ممّا يقود في النهاية إلى اختلال، بل انهيار الشرطين المتمثلين في التجانس اللغويّ وتمثيلية اللسان المدروس. ومن الواضح أن اللهجات العربية المشار إليها في النص السابق هي بالفعل ألسن قائمة الذات يختلف بعضها عن بعض، ويمثل كل منها متناً لغوياً قائماً بذاته، وبالتالي فالمادة اللغوية التي اعْتُمِدت في وصف العربية تفتقد إلى التجانس والتناسق المطلوبين.

ويعرف البحث اللساني العربي الحديث وضعاً معقّداً فيما يخص المعطيات اللغوية التي يشتغل عليها اللسانيون العرب بمختلف اتجاهاتهم، وتحديداً عندما يتعلقُ الأمر بالتعامل مع متن لغويّ يفترض فيه أنه يمثل اللسان العربي أو ظواهر لغوية منه، كما هو متداول في الأدبيات اللسانيّة الوصفيّة[32].

(31) تمام حسان، **اللغة بين المعياريّة والوصفيّة**، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1975/ 1958، ص26-27. . والنص الذي يذكر عمن أُخِذت اللغة العربية مأخوذ من كتاب **الاقتراح** للسيوطي. وجدير بالإشارة إلى أن مصطلح اللغة عند تمام حسان في هذا النص يقابل مفهوم اللسان عندنا.

(32) عالجنا هذا الموضوع بنوع من التفصيل في كتابنا: **اللسانيّات العربية الحديثة: دراسة في** =

10.4. أي عربية للمتن؟

عندما نتحدّث عن وصف أو معالجة "ظاهرة ما" في اللسان العربي، فإن الأسئلة المنهجية التي تتبادر إلى الذهن تكون من قبيل:

- عن أيّ عربية نتحدث؟
- ما المتن اللغويّ الذي يمثلها؟
- وهل تتوافر فيه شروطُ التجانس والتمثيلية والوحدة الزمانية والمكانية؟.

من الصعب جداً تقديم أجوبة ملائمة لهذه الأسئلة المشروعة منهجياً. ولتفادي هذا الإحراج يلجأُ بعض اللغويين العرب إلى الاشتغال بمتون لغوية تمثل نسبياً جزءاً من اللسان العربي مما يضمن للباحث مرونة منهجية تسمح له بالتقيد بشروط المتن اللغويّ كما حدّدتها اللسانيّات الوصفيّة. وهكذا يصبح القرآن الكريم أو ديوان شاعر معين أو روايات أديب ما متناً لغوياً قابلاً للمعالجة الوصفيّة. يقول أحد اللغويين الذين اختاروا هذا النهج في التعامل مع المتن اللغويّ من منظور وصفي: "وقد حاولنا الاستشهاد بالنصّ القرآنيّ ما أمكن، وأظن أن ذلك يمثل الوحدات الثلاث التي نادى بها المنهج الوصفي (وحدة الزمان والمكان والنص)"[33].

ولعل في ذكر بعض العناوين البارزة في هذا المجال ما يؤكّد هذا المنحى الذي أشرنا إليه[34]. ولا شكّ أن هذه الطريقة في التعامل مع المتن لها قيمتها،

= **المصادر والأسس النظرية والمنهجيّة**، منشورات كلية الآداب عين الشق، الدار البيضاء 1998، وكذلك: حافيظ إسماعيلي علوي، **اللسانيّات في الثقافة العربية المعاصرة، دراسة تحليلية نقدية في التلقي وإشكالاته**، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت 2009.

(33) محمد صلاح الدين مصطفى، **النحو الوصفي من خلال القرآن الكريم**، مؤسسة علي جراح الصباح، الكويت 1979، ص24.

(34) عبد السلام المسدّي والهادي الطرابلسي، **الشرط في القرآن**، الدار العربية للكتاب، تونس 1980.
حسام البهنساوي، **القواعد التحويلية في ديوان حاتم الطائي**، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د.ت.

فهي تُعفي الباحث من الصعوبات المنهجية الملازمة للمتن اللغويّ وتجعله يعتمد نصوصاً مكتوبة وأخرى منطوقة. ذلك أنَّ "الباحث عندما يعتمد متناً مغلقاً والتزم وصفه، فحقيقة الظواهر المرصودة فيه يؤدّيها المتن نفسه. ولهذا النوع من الأعمال مَزِيّة التحديد الواضح للمجال المدروس والبيان الأبين لحدود مساهمتها. وتكون هذه المساهمة هامةً بقدر ما يكون المتن متّسعاً. وهكذا توفر بعض البحوث اعتماداً على متون ضخمة أوصافاً ذات غنى رائع"[35].

واختار دارسون آخرون منحى آخر لتشكيل المتن اللغويّ الذي يمثل اللسان العربي، حيث اعتمدوا بعض المؤلّفات النحوية ذاتها. وتصبح المسألة معقّدة من الناحية العملية حين يتعلق الأمر بدراسة "**الأنماط الشكلية لكلام العرب**"[36]. فما المقصود بكلام العرب في العصر الحاضر؟ ومن يمثله؟ وما السبيل إلى الحصول عليه؟ يجيبنا صاحب هذه الدراسة معترفاً: "إنه سؤال صعب والإجابة عنه عسيرة، فليس لدينا كلام مسموع مسجّل، وإنما لدينا كلام مكتوب، لذلك فإن هذا البحث سوف يعالج الكلام المكتوب الذي انتقل إلينا بدلاً من الكلام المنطوق الذي هو الأصل في الأبحاث اللغوية، وسوف نجمع هذا الكلام ـ معظمه ـ من كتابين للنحو حتى يكون أكثر قرباً للاستعمال في هذا العصر وهما كتاب "القواعد الأساسية" للأستاذ يوسف الحمادي والأستاذ محمد الشناوي والأستاذ محمد شفيق عطا وكتاب "التطبيقات النحوية" للدكتور عبده الراجحي"[37].

يمكنُ أن نطرح بشأن هذا النوع من الاختيارات أسئلة عديدة. أي كلام العرب يقصد المؤلف؟ عرب اليوم أم عرب عصر الإسلام أم عرب الفترة العباسية أم ماذا؟ على أيّ أساس يتمّ اختيار الكتب السابقة الذكر لتمثيل كلام العرب؟ وما فائدة استخلاص وصف لسان من كتب النحو الحديثة؟ الخ.

من المعروف أن مفهوم "الكلام" في أدبيات اللسانيّات الوصفيّة يقابل

---

(35) روبير مارتان، **مدخل لفهم اللسانيّات**، ص36-37.

(36) جلال شمس الدين، **الأنماط الشكلية لكلام العرب نظرياً وتطبيقاً، دراسة بنيويّة**، توزيع مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، 1995.

(37) المرجع السابق، ص21-22.

مفهوم "اللسان"، وبالتالي فالكلام بهذا المعنى إنجاز فرديّ وتحقيق عمليّ لقواعد اللسان. والعبارة الواردة في عنوان الدراسة المشار إليها والمتعلقة بدراسة كلام العرب، تدلّ صراحةً على موقف صاحبها النظري. فهو يتبنى موقف اللسانيّات البنيويّة الأميركية التي لا تميز بين اللسان والكلام بعكس ما هو حاصل في اللسانيّات البنيويّة الأوروبية. فاللسانيّات الوصفيّة الأميركية لا تعتبر من المظاهر اللغوية موضوعاً للدراسات اللسانيّة إلّا الكلام المحقّق، أي الكلام المنجز فعلاً في شكل منطوقات أو ملفوظات *Utterances*[38]. وإذا كان لهذا الاختيار ما يبرّره بالنسبة إلى الألسن الهندية ـ الأوروبية التي لا تفرق كثيراً بين المستوى المكتوب والمستوى المنطوق، فإن الأمر بالنسبة إلى اللسان العربي في الوقت الحاضر مغاير تماماً للإنكليزية أو الألمانية أو الفرنسية.

لقد أشرنا إلى الإشكال المطروح في اللسانيّات البنيويّة الأوروبية حول العلاقة بين ما هو فردي مرتبط بالكلام، وما هو عام يتمثل في اللسان. هل يمكن الاشتغال على ما هو فرديّ وبالتالي اللامتجانس؟ ما مردوديته المنهجية في وصف لسان محدّد؟ يحيل "الكلام" عادةً على ما هو منطوق بالدرجة الأولى. فكيف يتمّ الانتقال من المنطوق إلى المكتوب؟ ما درجة تمثيلية الثاني للأول؟ لعل صاحب دراسة **الأنماط "الشكلية"** يدرك جدوى الأسئلة المطروحة ومشروعيتها النظرية، فيستشعر شيئاً من الحرج المنهجي الذي يتضمّنه السؤال الأخير، فيجيب بكل صدق وصراحة: " لا بدّ أن أشير إلى أن النطوق كانت من إنشائي، وهو ما يخالف صراحة قواعد المنهج الوصفي الذي يقرر أن يكون التقعيد والتحليل للكلام المسموع أو المسجَّل. ولكنني وقد أبحت لنفسي أن أكون راوية لنفسي قد فعلت ذلك سداً للنقص الجاد في المسجّل من الكلام"[39]. هكذا تحضر هنا كل الأسئلة الشائكة بشأن جمع المتن اللغويّ وإعداده وفق شروط اللسانيّات البنيويّة. ويتداخل في واقع البحث اللساني العربي، من خلال الدراسة السابقة النظريُّ والمنهجي والعملي في تحديد المتن اللغويّ، وهو ما لا يقود دائماً إلى الغاية المرجوة من المتن نفسه وهي التمثيلية والتجانس.

---

(38) ج هيلبيش، **تاريخ علم اللغة الحديث**، ص139-140.

(39) جلال شمس الدين، **الأنماط الشكلية لكلام العرب**، ص22.

الفصل الخامس

إجراءات التحليل اللساني الوصفي: الملاحظة والوصف

1.5. احتراسات أولية

بعد أن يُنهي اللساني الواصف جمع مادته اللغوية ويحدّد مستوى التحليل المطلوب وصفه: (أصواتية/صواتة ـ صرافة ـ تركيب)، يشرع في التعامل مع المتن. ونورد في هذا السياق تجربة رائد من رُوّاد الوصفيّة العرب وأحد اللسانيين المحدثين الذين تعاملوا مع متن لغوي لوصف لهجة عربية هي لهجة عدن وفق قواعد المنهج الوصفي البنيوي[1]. ويتعلّق الأمر ببعض الخطوات الهامة في التعامل مع الجانب الصوتي للمتن اللغويّ بمعية مساعد البحث.

- وضع الأسئلة المناسبة التي تمكّن مساعد البحث من تقديم الجواب المناسب والمفيد للباحث.
- تفادي استعمال المصطلحات والمفردات التقنية "التي لا يدرك مساعد البحث دلالتها أو على الأصحّ ما تحيل عليه ممّا هو مطلوب منه القيام به"[2].

---

(1) تمام حسان، **مناهج البحث في اللغة**، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1975/ 1955، ص68-69.

(2) المرجع السابق، ص69.

- تجنب أن يعرف مساعد البحث الغاية المطلوبة من وراء هذا السؤال أو ذاك حتى تجري الملاحظة في جوّ عادي بعيداً عن أي افتعال في النطق. وفي جميع الحالات يجب أن لا يكون مساعد البحث واعياً بما ينطقه.
- عدم وضع مساعد البحث أمام احتمالين فقط "كأن نقول أفي هذا الموضع حركة أم سكون؟ أو هل تقول كذا أم لا، أو ما معنى هذه الكلمة: كذا أم كذا؟ فهذا النوع من الأسئلة قد يحجب عنا حقيقة بعض الظواهر اللغوية التي لا تقدّم نفسها في شكل ثنائي تقابلي: إما كذا أو كذا.

وفي مجال الأصوات الذي يعتمدُ على التسجيل وتدوين الأصوات والكلمات والجمل، فإن الوسائل التقنية الحديثة (وسائل التسجيل من أسطوانات وأشرطة وغيرها) - لا علاقة لها بما كان متوافراً في النصف الأول من القرن العشرين - وهي اليوم تسمح بالمحافظة على المتون اللغوية المنطوقة (المُسَجَّلة) في وضعية جيّدة تقيها من التَّلَفِ الموقّت أو الدائم، ومن التأثر بالمعطيات الخارجية، كأن يصاب مساعد البحث بالتعب أو الإرهاق العضلي والنفسي، أو عدم التركيز، نتيجة الإجابات المتكررة التي يقدّمها. وأخيراً فإن التقنيات الحديثة تمكّن اللساني الواصف أيضاً من التعامل معها بهامش من الحرية[3].

2.5. من استعمال اللغة إلى البحث في الاستعمال

يقوم التأمل النظري في اللسانيّات الوصفيّة انطلاقاً من ملاحظة المعطيات اللغوية التي يجمعها الباحث. وهكذا يبني اللساني نسقاً من القواعد القادرة على وصف معالم هذه المعرفة اللغوية التي يتوفر عليها المتكلّمون التي تسمحُ لهم باستعمال لسانهم بشكل عاديّ. ويتمّ هذا البناء عن طريق الاستقراء.

أمّا المتكلمون العاديون بلسان مُعَيَّن فلا يعرفون أيّ شيء عن لسانهم[4]، وليس لهم أي تصوّر أو معرفة واضحة بالقواعد التي يستعملونها يومياً، ومن ثَمَّةَ فهم غير قادرين على صياغة القواعد اللغوية التي يطبِّقونها باستمرار. واللسانيون

---

(3) المرجع السابق، ص70.

(4) H. A. Gleason. *ouvrage cité*, p.7.

بدورهم لا يملكون القدرات على معرفة القواعد المستعملة إلّا بالمراقبة المتأنية لتجليات اللسان المادية والسلوكات المترتّبة عنها. وليس معنى هذا وجود تطابق بين موقف المتكلم والباحث اللساني إزاء اللسان، فلكل منهما طريقته الخاصة في التعامل مع المادة اللغوية التي يتضمّنها اللسان. "فالاستعمال اللغويّ وظيفة المتكلم، والبحث اللغويّ وظيفة الباحث، والاستعمال تطبيق لأسس معينة غير واضحة عند المتكلم، والبحث تفتيش عن هذه الأسس حتى تكون واضحةً عند الدارس، والاستعمال باعتباره تطبيقاً يتوخّى معايير معينة، ولكنّ البحث باعتباره تفتيشاً يستخدم الاستقراء، ليصل منه إلى وصف الحقائق التي يصل إليها الباحث"[5].

3.5. من الضِّمني إلى الظاهر

تبدو اللسانيّاتُ الوصفيّة بهذا المعنى علماً اختبارياً *Empirique* بامتياز، باعتبار الوصف اللساني ممارسةً قائمةً أساساً على المعاينة والملاحظة. والظواهر اللغوية التي تتمّ ملاحظتها هي مجموع الملفوظات والجمل التي ينتجها مستعملو لسان معين. والملفوظات في صورتها الأولى، البسيطة والعادية ربط بين إشارات صوتية ومحتوى معنوي يُراد بها التعبير عن وقائع معينة أو نقل معلومات متعلقة بالمتكلم أو بما يحيط به. إنّ الملفوظات التي نستطيع إنتاجها وفهمها غير متناهية في كل الألسن، ومن ثَمَّة هناك استحالة مطلقة - حسب منظور اللسانيّات الوصفيّة- للوقوف عليها. ويبقى الحلّ الأمثل للكشف عن طبيعة الظواهر اللغوية وآليات اشتغالها في الوصف اللساني عموماً هو الملاحظة المباشرة المعتمدة على عينة من اللسان المدروس أي المتن اللغويّ. لكن ماذا سنلاحظ؟ إن اللسان عبارة عن سلاسل صوتية (وقد تكون كتابية)، وليس تراكماً من الجمل أو الملفوظات. واللسان بالمعنى الدقيق للكلمة ليس قابلاً للإدراك والملاحظة المباشرة. وفي مقابل الجانب الماديّ للمتن، نجد أن نحو *grammaire* لسان معين هو بناء فكري أو على الأصح نظرية تُسَخَّر للكشف عن الكيفية التي يستغلّ بها اللسان عند الفرد المتكلم/ السامع. ومفهوم النحو في دلالته العامة هو محاكاة

---

(5) تمام حسان، **اللغة بين المعياريّة والوصفيّة**، ص4.

معرفة المتكلم بلسانه. ولهذا السبب، يرفضُ النحو التوليدي الملاحظةَ المباشرة التي تقود إلى النحو باعتبار هذا الأخير لا يصف القدرة اللغوية، لأنها ليست معطى قابلاً للملاحظة. وما يمكن أن يقوم به النحو من المنظور التوليدي هو تقديم نموذج مشابه لقدرة *compétence* الفرد المتكلم. ويترتّب عن الموقف التوليدي أن اللسانيّات ليست مجرد علم اختباري تجريبي يعتمدُ الملاحظة المباشرة للمعطيات اللغوية ولكنه أيضاً علم نظريّ يعتمد فرضيات عامة بشأن الموضوع الذي يشتغل عليه[6].

4.5. كفاية التحليل

يكون التحليل كافياً *Adéquat* من الناحية الوصفيّة عندما تتحقّق الشروطُ التالية:

أ - ملاحظة الوقائع المعروضة على البحث،

ب - وصف ما تمّ ملاحظته،

ج - تفسير الوقائع بشكل ملائم،

د - تصنيف الوقائع بكيفية منتظمة ومنسجمة[7].

وترتبط ملائمة الملاحظة وكفايتها باختيار المعطيات اختياراً تمثيلياً يَشْمل مجموع الوقائع المراد وصفها، يُكْسِبُ هذه المعطيات نفس الخصائص السائدة في الواقع الفعلي[8]. ويتمّ التوقف عن جمع المعطيات وملاحظتها عندما يبدو أنّ الاستمرار في ذلك لا يقدّم أي معلومات جديدة تخدمُ الموضوعَ المدروس كلّياً أو في بعض جوانبه.

ويعتمد الوصف اللساني ملاحظة معطيات المتن "ملاحظة موضوعية" بحيث يتجرد اللساني الواصف من أيّ أحكام مسبقة، إذ عليه أن يترك المجال

(6) Jacques Lerot. *Précis de linguistique générale*, Paris, Editions de Minuit, p.199.

(7) *Ibid.*

(8) Z. S. Harris. *Structural linguistics*, p.13.

للمعطيات لتفصح عن نفسها. ويهدف الوصف إلى نوع من تنظيم المعطيات، وذلك بتصنيف ما هو متشابه منها وترتيبها في فئات *classes*. ويتمّ العمل الوصفي بناء على مبدإ الاستقراء المعروف في العلوم التجريبية الذي يسمحُ باستخلاص القوانين [القواعد] انتقالاً من الجزء إلى الكل. والاستقراء المعتمد في دراسة المتن اللغويّ نوعان: "فمن اللسانيين الوصفيين من اعتمد الاستقراء الصرف، وفي هذه الحال يعتبر المتن مجال اختبار القاعدة المستنبطة، فلا يطلب مراقبة صحة القانون/ القاعدة خارج المتن، ومن اعتمد الاستقراء التعميمي *induction amplifiante* اعتبر المتن اللغويّ منطلقاً لاستنباط القواعد والأحكام التي تكون قابلة للتعميم والطرد (الاطراد)[9]". وتكمن أولى المشاكل المتعلّقة بالاستقراء في طبيعته الإجرائية ودوره في الوقوف على طبيعة المعطيات وتمثيليتها في وصف لسان ما. متى يكون الاستقراء تاماً؟ ومتى يكون ناقصاً؟ وما هو أثر كل ذلك في عملية استخراج القواعد؟ وليس هنا مقام استحضار نواقص مبدإ الاستقراء في الممارسة العلمية عموماً وفي اللسانيّات البنيويّة خاصة، ويمكن للقارئ العودة إلى دراسة إيمون باخ Emmon Bach في هذا الباب[10].

5.5. الوصف اللساني وأهدافه

يقتضي الحديث عن لسان ما مُعَيَّن، أن نفترض وجود أفراد يتكلمون. فما يواجهه اللساني الواصف هو وجود "كائنات متكلمة" تنتج تشكيلات لغوية، ممّا يتطلب التمييز بين ما هو إنتاج لغوي فِعلي وما ليس كذلك. ولا تهتمّ اللسانيّات البنيويّة ببحث المشاكل المتعلّقة بوجود اللسان، ولكن بجوانب من أشياء تنتمي إلى هذا اللسان ويعتبر وجودها معطى[11].

بعد إعداد المتن اللغويّ الذي قد يتسع ليشمل آلاف الجمل تأتي مرحلة

(9) رفيق بن حمودة، **الوصفيّة، مفهومها ونظامها في النظريات اللسانيّة**، دار محمد علي وكلية الآداب، سوسة، 2004، ص28.

(10) E. Bach. *Linguistique structurelle et philosophie des sciences*, in Diogène, Paris, Gallimard, 1966.

(11) J. C.Milner. *Introduction à une science du langage*, Paris, Seuil, 1989, p.41.

الاشتغال عليه، عادة ما يكتفي اللساني الواصف بأخذ نزر قليل من المتن فيبني عليه أحكامه واستنتاجاته. ويكون اللساني الواصف في هذه الخطوة محكوماً بجملةٍ من التساؤلات النظرية والمنهجية من قبيل:

- بماذا يبدأ؟
- كيف يبرّر عمله؟
- كيف ينتقي من المتن اللغويّ ما يلائمُ الموضوع الذي يبحث فيه؟
- على أيّ أساس يتمّ هذا الاختيار؟
- ما المنهج الملائم لدراسة هذا المتن؟[12].

ومعنى هذا أن طبيعة مكونات المتن اللغويّ والغاية من دراسته هما اللتان تفرضان على الباحث طرائق منهجية محدّدة.

ولَمّا لم يكن للألسن الهندية-الأميركية أيّ تراث لغوي أو ثقافي مكتوب، لم يكن من الممكن للسانيّات الأميركية في بداياتها الأولى القيام بأي عمل لساني خارج نطاق وصف المعطيات المُجَمَّعة وصفاً مباشراً. وكان على اللسانيين الأميركيين الانصراف مباشرةً نحو وصف المادة اللغوية المتوافرة لديهم كما هي "الآن وهنا". ولم يكن بالإمكان تصوّر قيام مقاربة من نوع آخر كمقاربة هذه الألسن تاريخياً، مثلاً وهي المقاربة التي كانت تتطلبُ نصوصاً مكتوبة تمثّل اللسان المدروس في حالات سابقة يفسّر على ضوئها ما يراد البحث فيه.

ويتطلب التحليل اللساني الوصفي معاينةً فعلية عامة للسلوك اللغويّ وهو ما يقتضي القيام بعزل الوقائع اللغوية الدالة التي يتضمّنها المتنُ اللغويّ، وتحديد ما يكون قابلاً للدراسة، وما ليس كذلك. وانطلاقاً من مصادرة بلومفيلد التي تفيد أن من الملفوظات داخل مجموعة لغوية ما يتشابه كلّياً أو جزئياً، على مستوى الصوت والدلالة[13]، وأن "الملفوظات تتألف من صيغ لغوية ذات معنى ثابت

---

(12) H. A. Gleason. *Introduction à la linguistique*, p.158.

(13) L. Bloomfield. *Le langage*, p.150.

وقابل للضبط"[14]، تحدّدت أهمّية اللسانيّات البنيويّة في مدى قدرتها على تقديم وصف قار نسبياً لصيغ الخطاب اللغوي.

6.5. الوصف في اللسانيّات

ليس الوصف في اللسانيّات البنيويّة سوى تنظيم المعطيات اللغوية المتوافرة وفق معايير تهدفُ في نهاية الأمر إلى إعادةِ ترتيب ما هو موجود فعلاً ضمن المعطيات المُحَصَّل عليها. وبعبارةٍ أخرى، يروم التحليل اللساني الوصفي اتباع مجموعة من الإجراءات العملية، من أجل معرفة الظواهر التي تمّت ملاحظتها معرفة مضبوطة ودقيقة، لردّ الجوانب اللغوية التي تبدو متغيرة ومتباينة إلى ما يماثلها من عناصر أولية ثابتة، واختزالها في فئات ومجموعات. وبذلك يكون هدفُ اللسانيّات الوصفيّة هو الكشف عن ثوابت *Constantes* الوقائع اللغوية مهما اختلفت مظاهرها وتعدّدت أشكالها[15].

إنّ هدفَ الوصف اللساني بالنسبة إلى اللسانيين البنيويين هو الوقوف على الاطرادات[16] الواردة في المتن اللغويّ، ممّا يقود إلى الوصف المنظّم والمنسّق دون اللجوء إلى ما له علاقة بدلالة الوحدات اللغوية. ويسعى اللساني الواصف إلى الكشف عن المظاهر العامة التي تبدو مكررة أو "معادة" ضمن الوقائع اللغوية التي يسمح بها المتنُ اللغويّ، ممّا يقود في النهاية إلى الاهتمام بالسمات المشتركة التي تجمع بينها [17]. إنّ هدف الوصف اللساني كما سبقت الإشارة إلى ذلك؛ هو الوصول إلى الاطرادات والمماثلة القائمة بين الظواهر اللغوية المدروسة. وتكون الأوصاف المقترحة أو المستخلصة -بعد المعاينة- أفضل وأجدى كلما كانت قادرةً على ردّ الظواهر اللغوية المتفرقة والمتباينة إلى ظواهر متماثلة قابلة لأن تنصهر في

---

(14) *Ibid*, p.151.

(15) Z. Harris: *La structure distributionnelle*, in Langages, N 20, Décembre, Paris, Larousse, 1970, p.29.

(16) Zellig S. Harris. *Structural linguistics*, p.5 et *La structure distributionnelle*, in Langages, N 20. Décembre, 1970, p.28-29.

(17) هذه الملامح المشتركة يسمّيها تمام حسان «النواحي المشتركة»، انظر: **اللغة بين المعياريّة والوصفيّة**، ص18.

نسق من الوقائع تحكمها الضوابط والقواعد نفسها. ولا يكون تحديد التماثل بين الظواهر دائماً قائماً على أسس مادية بادية للملاحظة والإدراك الملموس. ويبقى التحليل الملائم وصفياً هو القادر على تجاوز ملاحظة السمات الفردية الخاصة بالوقائع اللغوية ملاحظة مباشرة للوصول إلى الأنماط العامة.

وتأسيساً على ما سبق، يتمثلُ دور الوصف اللساني أساساً في ضبط الملامح المشتركة التي تجمع بين الوقائع اللغوية من خلال الاهتمام بالخصائص القابلة للتكرار والملازمة لوحدات اللسان المدروس وتحديدها بواسطة طرائق *procédés* قابلة للتصديق *vérifiables* وقابلة للإنتاج من جديد.

وللتمثيل على ما سبق ذكره، نُشير إلى أنّ نطق "الراء" في اللسان العربي يتخذ مظاهر صوتية متنوعة. فالخصائص المادية للراء في الوحدة "كثير" ليست هي الخصائص المادية التي يمكن ملاحظتها وإدراكها في راء الوحدات "ربيع" أو "ريع"، وهي أيضاً غير الخصائص المادية التي يمكن إدراكها في الوحدة "مدرسة". ومن الواضح أن مصاحبة "الراء" لغيرها من الأصوات يقودُ إلى التأثير المتبادل سلباً وإيجاباً. لكنّ "الراء" في جميع الحالات تحتفظُ بسماتها الأساس التي تميزها عن أقرب صوت لها نطقاً على الأقل وهو صوت "الغين"، على عكس اللسان الفرنسي مثلاً الذي لا يميز بين "الراء" و"الغين". وعلى الرغم من تعدّد المظاهر المادية لصوت "الراء" في اللسان العربي وإمكانية إدراكه سمعياً، فإن ذلك لا يسمح بالقول بأننا أمام عدة "راءات"، بل إنَّنا كما يقال أمام بدائل صوتية فقط.

7.5. التجريد

يكون الوصف اللساني كافياً عندما يتوفر فيه شرطان:

- حصول تطابق تام بين معرفة المتكلّم بلسانه والوصف/النحو المقترح لهذا اللسان.
- قابلية الوصف للرَّوْز (عملية تطبيق الرائز *test*)[18].

(18) J. Lerot. *Précis de linguistique générale*, p.18.

ولتحقيق ذلك، لا تتعامل اللسانيّات الوصفيّة مع المعطيات اللغوية التي يتمّ إعدادها باعتبارها وقائع مادية مباشرة، أي كمادة خام موجودة في العالم الخارجي، وإنما في إطار نوع من التجريد *abstraction* بتحديد الثوابت اللغوية، سواء أتعلق الأمر بالوقائع ذاتها أم بالمقولات العامة التي تندرج فيها هذه الوقائع. وينطلقُ اللساني الوصفي من معطيات يُخْضِعُها لعملية أولى هي التجريد الذي يُتَوَخَّى منه التحكّم من الناحية المنهجية في المعطيات التي يتضمّنها المتنُ اللغويّ. وترتبط عملية التجريد ذاتها بتصور الباحث وبالمنهج المعتمد في البحث والغاية منه. ففي اللسانيّات الوصفيّة، ينبغي أن يتوجّه التحليل نحو البحث في السمات، أي القدرة بكيفية أو بأخرى على تمييز ما يُشَكِّل خصائص وحدات لسان ما ومُكَوِّناته عن خصائص ما ليس لساناً من جهة، وتمييز خصائص لسان معين عن خصائص لسان آخر من جهة ثانية[19]. ولا يختلف التحليل اللساني الوصفي في هذا المستوى عن نظيره في العلوم التجريبية.

ويخضعُ وضع التجريد في التحليل اللساني لثلاثة مواقف منهجية أساسية هي:

أولاً: الثوابت اللغوية التي يتّم التوصّلُ إليها عن طريق التحليل ملازمة للمعطيات اللغوية ذاتها، أي إن المعطيات تملك وجوداً واقعياً ولها هُوِيّة مستقلة.

ثانياً: إن المتكلّمين بلسان ما يقومون بكيفية غير واعية بالعملية التجريدية نفسها التي يقوم بها اللساني المحلل/الواصف، نظراً لأن اكتسابهم للسان في مرحلة الطفولة يشكّل جزءاً من بنيتهم الذهنية.

ثالثاً: التجريد الذي يقوم به اللساني ليس في نهاية التحليل سوى جزء من المنهجية العامة التي يسيرُ وفقها، ويتبعها في كل تحليل علمي، أي إن التجريد يسمح للساني الواصف بتقديم مُوَحَّد صورياً للمعطيات اللغوية يجعلها قابلة للاطراد وللتنبؤ، وبالتالي لا علاقة لها إطلاقاً بالبنيات الذهنية للمتكلمين.

---

(19) J. C. Milner. *Introduction à une science du langage*, p.43.

وتستندُ هذه المواقف من التجريد ودوره وقيمته في النشاط العلمي عامة واللساني خاصة إلى ثلاثة مواقف فكرية لها مرجعية فلسفية تحكمُ المجالَ العلميّ بصفة عامة وليس مجال اللسانيّات فقط. وهذه المواقف هي:

- **الموقف الاسموي**: ويترتّب عنه أن الألسن تملك تنظيماً *Organisation* مستقلاً عن التحليل الذي نباشره. فالمعطيات تمتلك في ذاتها هويةً ملازمةً لها، وبالتالي يصبح هدفُ التحليل هو الكشف عن البنيات الملازمة لهذا التنظيم ممّا يجعل كل تصحيح أو تصويب عن طريق الأحكام نتيجة تطابق لهذا التنظيم الموجود قبلياً للسان أو عدم تطابقه.

- **الموقف التصوّري**: ويرى أن التحليل الذي يمارسه اللساني، يطابق بكيفية ما الآليات اللغوية الذهنية التي يتوفر عليها الفرد المتكلم، وبالتالي يتعين وصفُ الألسن بالألفاظ نفسها المستعملة في وصف إنتاج الكلام وفهمه من قبل الفرد المتكلم. ويجسّد الموقفَ التصوّري في اللسانيّات الحديثة سوسير الذي يعتبر اللسان بنيةً صوتيةً وصرفيةً ونحويةً موجودةً في أدمغة الأفراد المتكلمين، وعندما يتكلم الفرد فهو يسخّر الطاقات والإمكانات المتاحة له باختيار ما يحتاج إليه من وسائل لغوية للتعبير عن حاجاته.

- **الموقف الواقعي**: ويعتبر أن الوصف اللساني يجب أن يكون مطابقاً لإنتاج الكلام عند الفرد المتكلم وفهمه له. ولا يقرّ الموقف الواقعي بوجود أي فوضى أو عدم تنظيم خارج النسق اللساني، لأن العالم الخارجي لا يكون قابلاً للإدراك إلا باللغة وبواسطتها. إنّ المعطيات اللغوية لها واقع مستقلّ عن كل تصور أو استعمال[20].

(20) R. H. Robins. *La linguistique : Une introduction*, p.46 et suivantes.

ويلجأ اللسانيون الوصفيون تطبيقاً لعملية التجريد هذه، إلى مفهوم مستويات التحليل *Niveaux d'analyse* ومفاده أن اللسان بناء تراتبي من الوحدات الصوتية والصرفية والتركيبية والدلالية والمعجمية. ويتمّ تحديد كل مستوى بالنظر لتشابه الوحدات المُكَوِّنة له كلياً أو جزئياً، سواء من حيث طبيعتها الصورية، أم من حيث اشتغالها/وظيفتها أم نوعية العلاقات التي تربط بينها. وسنعرض لهذه المسألة في الفصل التالي.

الفصل السادس

مستويات التحليل
الصُّرْفات نموذجاً

يعتبرُ اللسان بصرف النظر عن مستواه الحضاريّ، وعن كونه مكتوباً أو منطوقاً ملفوظات تعبِّر عن مقاصد وأغراض متنوعة تلبّي رغبات المتكلمين اليومية الفردية والجماعية. واللّسان نسق إشارات تربط صوتاً بمعنى، وهو يشكل بالنسبة إلى الفرد المتكلم العادي نشاطاً عاماً وكلاً لا يتجزَّأ. فهو لا يميز في اللسان بين ما هو نطقي وما هو تركيبي وما هو دلالي. فالناس يكتبون ويفهمون الصيغ المكتوبة والمنطوقة للسانهم دون أن يكونوا بالضرورة على دراية بالنحو أو طرق النطق. إنهم ينتبهون إلى الأخطاء التي يقعُ فيها أجنبيّ عن لسانهم دون أن يتمكّنوا من تحديد القاعدة أو القواعد التي تمّ خرقها[1].

1.6. هرمية اللسان

خلافاً للفرد المتكلم، يرى اللساني في اللسان كتلةً ماديةً تعكس في شكلها الخارجي نوعاً من التعقيد والتركيب. ونظراً لكون الظواهر اللغوية على جانب كبير من التشابك والتداخل، فليس بإمكان اللساني التعامل مع الظواهر اللغوية دفعة واحدة كتيار مادي متدفّق، لذلك فهو مضطرّ للتعامل مع اللسان بنوع من التدرج والتمييز بين مُكوِّنات هذه الكتلة الفيزيائية للكشف عن جوانب البناء

(1) R. H. Robins. *Linguistique générale: Une introduction*, p.24.

والتعقيد فيها. ولمّا كان على اللساني أن يُبلْوِر أحكاماً موضوعية ومطابقة لما يلاحظه، فإنَّ عليه أن يهتمّ بكل الجوانب المُكوِّنة للسان. ومن هذا المنظور جاءت فكرةُ المستويات لمعالجة السلوك اللغويّ عند الأفراد المتكلمين على نحو مضبوط ودقيق. والمقصود بالمستوى بصفة عامة هو كون اللسان بنيةً تتكوَّن من عدة مستويات متميزة بعضها عن بعض ومتداخلة فيما بينها في الوقت نفسه. ويعَدُّ مفهوم المستوى أساسياً في تحديد باقي إجراءات التحليل والوصف المتبعين في اللسانيّات البنيويّة[2].

2.6. مفهوم مستويات التحليل

لا يخلو مفهوم "مستوى التحليل" من لبسٍ سواء في دلالته العامة أم في استعماله من قبل مختلف الاتجاهات اللسانيّة الحديثة. فهو يفيد عدة معانٍ نذكر منها:

- مجال مُحَدّد له وحداته الخاصة وقواعده. الأصواتية/ الصِّواتة/ الصِّرافَة/ التركيب.
- مستوى مُعَيَّن من التحليل. فبناء الجملة مثلاً يكشفُ عن تراتبية *hiérarchie* بين وحدات اللسان: الصُّرْفَة/ المُكوِّن/ المُرَكَّب/ المُكوِّن المباشر/ الجملة. وقد يُعْكَسُ هذا الترتيب.

ويعرّف تشومسكي المستوى اللغويّ بأنه "مجموعة من الآليات الوصفيّة الصالحة لبناء الأنحاء. إنه يشكّل منهجيةً معينة لتمثيل الملفوظات". ويُحدَّد كل مستوى بواسطة مجموعة من العناصر الدنيا والقواعد الخاصة[3]. ويختلف مفهوم مستوى التحليل عن مستوى اللسان أو مستوى اللغة الذي يدلّ على ارتباط مستوى معين من اللسان المكتوب أو المنطوق باستعمال هذا اللسان في وسط اجتماعي معين. وتختلفُ مستويات اللسان بحسب الشرائح الاجتماعية التي

---

(2) Emile Benveniste. Les niveaux d'analyse en linguistique, in *Problèmes de linguistique générale*, tome 1, Paris, Gallimard, 1966, p.119.

(3) N. Chomsky. *Structures syntaxiques*, Paris, Seuil, 1969/1957, p.13 .

تستعمل هذا المستوى أو ذاك. وقد يستعمل المتكلم الواحد مستويات مختلفة من اللسان الواحد[4].

ويكتسي مفهومُ مستوى التحليل أهمّيته وقيمته المنهجية انطلاقاً من كون التحليل اللساني البنيوي يقوم على فرضية عامة مفادها أن اللسان في بنيته الداخلية يتكوَّن من وحدات تتآلف وتتناسق فيما بينها على عدة مستويات. فاللسان بنية مغلقة مكوَّنة من وحدات ذات وجود ماديّ مستقلّ، (الصوتات/الصُّرفات، المُكَوِّنات/المُركَّبات الخ) من جهة، ومترابطة فيما بينها من جهة ثانية، إنها نسقٌ من المستويات لكل واحد منها وحداته وقواعده الخاصة به. (المستوى الأصواتي/الصواتي/الصرافي/التركيبي ...). ويرتبطُ تحديد مستويات التحليل وتنظيمها والعلاقات القائمة بينها بالبنية العامة التي تعطى للسانيّات بوصفها حقلاً علمياً مكوَّناً من مجالات فرعية لكل منها خصائصه ومفاهيمه المرتبطة به، ووحداته الخاصة وقواعده. إنّ اللسان بناء هرميّ يتدرج من الوحدات الصغرى إلى الوحدات الكبرى[5]، أي إن هذا البناء قاعدته الدنيا الأساس هي الأصوات وقمة رأسه الجملة أو العكس.

ويكون كل مستوى ـ من حيث المبدإ ـ مستقلاً عن غيره لأنه يتشكَّل من وحدات خاصة به، وحدات تتآلف فيما بينها، فتسمحُ بالحصول على وحدات المستوى الذي يليه مباشرة. فالجملة تتألف من مُركَّبات تتكون بدورها من مُكَوِّنات تتآلف بدورها من صُرْفات تتشكَّل هي بدورها من صوتات. وبعبارة أخرى، يحدّد كل مستوى خصائص مستوى الوحدات الذي يعلوه مباشرة. وعليه، تعتبر الصوتات في المستوى الصرفي أساس تحديد الصُّرْفات، التي تُعدُّ بدورها أساسية في تحديد وحدات المستوى التركيبي (المُرَكَّبات/المكوِّنات) وهكذا.

3.6. أيّ مستويات للتحليل؟

لدراسة اللسان دراسة دقيقة وواضحة، ينبغي التمييزُ بين المستويات بكيفية

(4) J. Dubois et autres: *Dictionnaire de linguistique et des sciences du langage*, Paris, Larousse, 1999/1994, p.324.

(5) محمد علي الخولي، **مدخل إلى علم اللغة**، عمان، دار الفلاح للنشر والتوزيع، ط2000/ 1993، ص19.

لا لبس فيها، ذلك أنّ كل مستوى يملك تسلسلاً خاصّاً بالوحدات المُكَوِّنة له، تضبطها قواعدُ خاصة بها. ويختلف هذا المنظور لمستويات اللسان من مدرسة لسانيّة إلى أخرى. ويمكن القول بصفة عامة بأن اللسانيين الأميركيين يميزون بين مجموعتين رئيسيتين من الوحدات اللغوية هي:

- الصوتات *phonèmes*
- الصُّرْفات *morphèmes*.

تمتلك الوحدات الأولى طبيعةً صوتيةً خالصة، أما الصُّرفات فهي ذات طبيعة دالية ودلالية، أي إنها شكل دالي (من الدال بالمعنى السوسيري للكلمة) ومضمون دلاليّ في الوقت ذاته. إن الصُّرْفَة متتالية من الصوتات. وعلى هذا الأساس، يُمَيَّزُ عادة بين المستويات التالية:

- مستوى صِواتي
- مستوى صِرافي
- مستوى تركيبي

وقد ينتقل الواصف اللساني بشكل تدرّجي من مستوى إلى آخر بطريقة تصاعدية أو تنازلية، إلى أن يتمّ تحديد جميع الوحدات اللغوية، إمّا صعوداً إلى المستوى الأعلى، وهو الجملة، وإمّا نزولاً إلى المستوى الأسفل، وهو الصوتة. ولهذه الاعتبارات العملية، يميز اللسانيون البنيويون في أميركا بين مستويين:

- مستوى صواتي
- مستوى تركيبي.

يضمّ المستوى الصِّواتي مجالين فرعين:

- الأصواتية *Phonetics*
- الفونيماتيك *phonematics* أو الفونميكس *Phonemics*

بينما نجد في اللسانيّات الوصفيّة الأوروبية تمييزاً بين الأصواتية *Phonétique* والصِّواتة *Phonologie*.

يدرس علمُ الأصواتية الأصوات *son* ويحلّلها من حيث كيفية إنتاجها وانتقالها واستقبالها. وهو ينقسم إلى عدة فروع أهمّها:

- "الأصواتية النطقية *Phonétique articulatoire* ومهمّته تحديد مخارج الأصوات وبيان الصفات الصوتية التي تُشكِّل الصوت، والوصف الموضوعي للأصوات من حيث كيفية إنتاجها وتصنيفها"[6].
- الأصواتية السمعية *phonétique acoustique* ويدرس الأصوات كما تستقبلها أذنُ السامع.
- الأصواتية التجريبية *phonétique expérimentale*.
- الأصواتية الفيزيولوجية *phonétique physiologique*.

أما الفونيميك *phonémique* فهو فرعٌ من الأصواتية العامة، ويقوم بوصف أصوات لسان معين وتصنيفها على أساس إحساس المتكلمين واعتبارهم عدداً من الأصوات صوتاً واحداً أو أصواتاً متعدّدة. على سبيل المثال ماذا يجعل الرجل الإنكليزي يقبل *p* في *pit* و *spit* و*sip* لصوت واحد على الرغم من اختلافهما في السمع؟ وما الذي يجعل الناطق نفسه يرفضُ التطابق بين الصوتين *p* في *pit* و*f* في *fit*؟[7].

نستطيع في اللسان العربي أن ندرك الفرق الصوتي بين الباء في "**عبد**" والباء في "**عبير** "والباء في "**بلد**" على الرغم من كونها لا تشكل في النهاية إلَّا صوتة

(6) ماريو باي، **أسس علم اللغة**، ص48 بشيء من التصرف.
لن نتناول المستويات بالتفصيل نظراً لوجود العديد من الأدبيات العربية التي تلخّص مضامين هذه المستويات ووحداتها. انظر في هذا الباب التقديم الجيد لمستويات التحليل اللساني في: أحمد محمد قدور: مبادئ اللسانيّات، دمشق، دار الفكر، 1996. ويظل كتاب تمام حسان، **مناهج البحث في اللغة**، 1955، مفيداً جداً بالنسبة إلى التطبيق على أصوات العربية.

(7) ماريو باي، **أسس علم اللغة**، ص48.

واحدة هي "الباء". كما يميز المتكلم العربي بسهولة بين "السين" و"الصاد" في "سفير"/ "صفير" بعكس ما هو حاصل في ألسن أخرى مثل الفرنسية أو الإنكليزية التي تفرق بين *b* و*p*. ولكنها لا تفرّق بين "السين" و"الصاد".

وتُلْحَقُ قضايا الصِّرافَة بالمستوى التركيبي الذي يدرس مختلف أوجه العلاقة بين الوحدات المكونة للجملة. ويكون الهدف في المستويين معاً تقسيم مُكَوِّنات الملفوظ إلى مُكَوِّنات صغرى بشكل متسلسل، انطلاقاً من المُرَكَّب وصولاً إلى الصوتة.

وقد استطاعت اللسانيّات البنيويّة أن توحِّد بنسبةٍ كبيرةٍ طرائق العمل في معالجة القضايا اللغوية المرتبطة بكل مستوى على حدة. فطريقة التحليل المتَّبعة في المستوى الصِّواتي هي نفسها المتَّبعة في المستوى الصِّرافي والمستوى التركيبي والمستوى المعجمي. ومن هذا المنطلق، يتحدثُ اللسانيون الوصفيون في أميركا عن البنيةِ المزدوجة(8) مقسّمين اللسانيّات الوصفيّة إلى مجالين بارزين هما: الأصواتية والتركيب *syntaxe*. ويربط بعض الدارسين مستويات التحليل اللساني بثلاثة مُكَوِّنات أساسية في اللسان البشري وهي:

- بنية التعبير
- بنية المضمون
- بنية المعجم وتشمل كل العلاقات النوعية بين التعبير والمضمون، أو بتعبير أوضح ربط الكلمات بتصوراتها(9).

وفي جميع الحالات، يهدف التحليل الوصفي إلى الكشف عن الوحدات المكونة للجملة عبر مستوياتها المختلفة من خلال تفكيك بنيتها إلى مستويات. إن جملة مثل:

- أكل الولدُ التفاحةَ

(8) H. A. Gleason. *Introduction à la linguistique*, p.10-11.
(9) *Ibid*, p.10.

يمكن تقسيمها كما يلي:

أ - مستوى المكونات الأساس أي الكُلْمات *monèmes* بحسب مصطلح اللسانيّ الفرنسي أندريه مارتينيه أو الصُّرْفات *morphèmes* باصطلاح الأميركيين(10).

- أكل /ال/ ولد /ال /تفاحة

ب- مستوى ثانٍ تُقَسَّمُ فيه الصُّرْفات إلى وحدات صوتية صغرى هي:

- أ/ك/ل ا/ل / و/ل/د/ مع أخذ الحركات في اللسان العربي في الاعتبار.

ومن الدارسين من يذهب إلى أنّ دراسة اللسان سواء أكان المنهج وصفياً أم تاريخياً تندرج في أربعة مستويات، وإن كانت الحدود بينها غير واضحة تماماً. وهذه المستويات هي:

- مستوى الصِّواتة *Phonology* ويدرس أصوات اللسان. ويشمل كلا النوعين المعروفين باسم علم الأصواتية العامة *Phonetics* وعلم الصوتات *Phonemics*.
- مستوى الصِّرافَة *Morphology* أو مستوى دراسة الصِّيغ اللغوية وبخاصة تلك التغيرات التي تعتري صيغ الكَلِمات فتحدث معنى جديداً مثل: اللواحق التصريفية *inflectionel endings* على سبيل التمثيل s التي تضاف إلى *cat* فتصيرها جمعاً *(cats)*، والسوابق *Prefixes* مثل *re* قبل *tell* لتعطيها معنى يخبر ثانية والتغيرات الداخلية *internal changes* مثل تغيير حرف العلة في *sing* إلى *sang* لإفادة معنى الماضي.
- مستوى التركيب *syntax*، الذي يختصّ بتنظيم الكَلِمات في جمل أو

(10) نستعمل مصطلح كُلْمَة (بضم الكاف وتسكين اللام) والجمع كُلْمات مقابل المصطلح الفرنسي *monème/s* على غرار صُوتة وصُرفة والجمع صُوتات وصُرفات. انظر هامش ص21 من هذا الكتاب.

مجموعة كلامية مثل نظام الجملة: ضرب موسى عيسى، التي تفيد عن طريق وضع الكلمات في نظام معين أن موسى هو الضارب وعيسى هو المضروب.

- مستوى المفردات *Vocabulary* الذي يختصّ بدراسة الكَلِمات، ومعرفة أصولها، وتطورها التاريخي، ومعناها الحاضر، وكيفية استعمالها. ويدخل تحت دراسة المفردات فرع يسمّى الاشتقاق *Etymology*. وهو يختصّ بدراسة تاريخ الكَلِمات، وفرع آخر يسمّى الدلالة *Semantics*، ويختصّ بدراسة معاني الكَلِمات. وهناك فرع يسمّى المعجم، وهو فنّ عمل المعجمات *Lexicography* اللغوية، ويستمدّ وجوده من علم دراسة تاريخ الكَلِمات وعلم الدلالة يضاف إلى ذلك اهتمامه ببيان نطق الكلمة ومكان النبر فيها وطريقة هجائها وكيفية استعمالها في العصر الحديث[11]. "ومن الممكن تصور مستوى آخر يتعلّق بالنبر والتنغيم وما يشابه ذلك من أدوات تطريزية.

وتُحَدَّد كُلُّ وحدة تنتمي إلى مستوى معين بكيفية توزيعية:

أولاً: بالقياس إلى الوحدات الموجودة معها في المستوى نفسه.

ثانياً: بالقياس إلى الوحدات المنتمية إلى المستوى الأعلى الذي تدخل في تكوينه كمُكَوِّن.

4.6. العلاقة بين مستويات التحليل

طرحت العلاقةُ بين مستويات التحليل اللساني جملةً من التساؤلات المنهجية حول طبيعة الحدود بين هذه المستويات وأوجه العلاقة بينها ومدى استفادة كل مستوى من المستوى الذي يليه أو يسبقه. هل نحتاج في وصف وحدات مستوى معين إلى مفاهيم مستوى آخر؟ هل نحتاج مثلاً في التحليل الصِّواتي إلى التركيب أو الدلالة وهل العكس صحيح، علماً بأنّ كل مستوى له أهدافه ومعايير تحليله الخاصة؟

(11) ماريو باي، **أسس علم اللغة**، ص43-44.

جاءت الأجوبة عن هذه الأسئلة مختلفة. فالنحو *grammaire* مثلاً في عُرف كثير من اللسانيين يتشكل من فرعين أساسيين هما:

- الصرافة-تركيب *morph-syntaxe*،
- والصِّواتَة.

ويتم التمييز بين وحداتهما باعتبارها مقولات مختلفة الطبيعة والوظيفة داخل مستوى التحليل في إطار المعالجة المزمع القيام بها. إن المستويين مستقلان على الرغم من وضعهما المتطابق كلّياً داخل النسق اللساني باعتبارهما، أي التَّركيب والصِّواتة، يُقدِّمان للسانيّ الواصف مُجْمل ما يحتاج إليه من المفاهيم والأدوات الإجرائية الضَّروريّة. وواضح أن هناك ارتباطاً قوياً بين المستويات، إذ تُحَدَّدُ وحدات كل مستوى بالنظر إلى وحدات المستوى الأعلى منه (الذي يعلوه). فالصوتات تلعب دوراً أساسياً في تحديد الصُّرْفات، وتلعب الصُّرْفات هي الأخرى دوراً جوهرياً في المستوى العلائقي بين وحدات للجملة. وقد يكون هذا الترابط غير مباشر.

5.6. الأنساق المركزية والفرعية

في سياق العلاقة بين مستويات التحليل اقترح هوكيت[12] تصوراً جديراً بالاهتمام. وينطلق هذا التصوّر من تعريف سلوكي للغة مضمونه أنها "نسق معقّد من العادات". ويمكن أن يقسَّم هذا النسق المعقّد، إلى خمسة أنساق فرعية، ثلاثة منها مركزية، والباقيان هامشيان. أما الأنساق المركزية فهي:

- النسق النحوي وهو عبارة عن ثبت من الصُّرْفات والتنسيق بينها.
- النسق الصِّواتي ويتضمّن جرداً من الصوتات ومن مجموع التوليفات الممكنة بينها.
- النسق الصِّراف-صِواتي *Morphonologique* وهو الشفرة *code* (القواعد) التي تربط بين النسقين النَّحْوي والصِّواتي.

(12) Ch. Hockett. *A Course in Modern Linguistics*, New York, Mc Millan, 1958, p.137-139.

وتسمّى هذه الأنساق مركزية لعدم وجود أي علاقة مباشرة بينها وبين العالم غير اللفظي الذي يجري فيه فعل الكلام.

ولا يمكن للمحلّل اللساني في نظر هوكيت أن يصل إلى معرفة تفاصيل الأنساق المركزية وإدراكها جيداً إلّا من خلال ملاحظة الكلام نفسه والسياقات التي يجري فيها. ويصدق الأمر نفسه على الطفل الذي يتعلم لساناً ما. فما يمكن أن يستنبطه أو يعرفه المحلل اللساني أو الطفل يتمّ حصراً عن طريق الملاحظة المباشرة بتجريد الكلام والمقامات القائمة كمجوعة من النماذج في دماغ الطفل وفي دماغ المحلل اللساني أيضاً وفي أوراق كراساته التي يدوّن فيها ما يعِنُّ له من ملاحظات.

أما النسقان الفرعيان الهامشيان فهما:

- النسق الدلالي الذي يربط مختلف الصُّرْفات فيما بينها، ويُحدِّد المواقع التي يمكن أن تقع فيها هذه الصُّرفات في علاقتها بمختلف الأشياء والمقامات التي تندرجُ فيها.
- النسقُ الصوتيّ ويتعلق الأمر بالكيفيات التي يُحَوِّلُ بها تلفظُ المتكلم متتالياتٍ من الصوتات إلى موجات صوتية، والطريقة التي يُفَكِّكُ بها السامع رموزَ المتتاليات التي يتوصّل بها كإشارة كلام.

ويختلف النسقان الفرعيان عن الأنساق الفرعية المركزية بكونهما يتداخلان مع العالم غير اللفظي ومع النسق المركزي الذي يرتبط به كلّ منهما .فالنسق الدلالي يتعدى إلى المجال الفيزيائي والاجتماعي القابل للملاحظة مباشرة، كما يتعدى إلى النسق النحوي للسان. ويتصل النسقُ الصوتي من جهة بالموجات الصوتية لإشارة الكلام القابلة للتحليل الفيزيائي، ولكنه يمسّ في الوقت ذاته النسق الصواتي للسان.

ويعود اقتصار التحليل اللساني على الأنساق المركزية إلى أن النسقين الدلالي والصوتي بمُكَوِّنيهما النطقي والسمعي ينتميان إلى علوم مؤاخية للسانيّات. ونذكر في هذا السياق أن تروبتسكوي لم يكن يعتبر الأصواتية من اللسانيّات، بل علماً مساعداً لها[13]. ولا مانع في نظر هوكيت من الاهتمام بالنسقين

(13) N. S. Troubetskoy. *Principes de phonologie*, Paris, Klincksiek, 1949/1939. p.11.

الهامشيين بالدرجة نفسها من الأهمّية. إنّ الاهتمام بهذا النوع من الأنساق أو ذاك هو مبدئياً مسألة اختيارية، تتعلّق بذوق المحلّل واهتماماته وقدراته. وينبه هوكيت إلى أن النسقين الهامشيين -بعكس الأنساق المركزية- يستعصيان على البحث العلمي، ولا نعرف عنهما في الوقت الحاضر إلّا النزر القليل. ولا يعدو هوكيت هنا أن يكرر تحديداً ما قاله أستاذه بلومفيلد بشأن وضع الدلالة في الدرس اللساني[14]، وتجدر الإشارة إلى مسألة منهجية تفرض نفسها في التعامل مع هذه الأنساق هامشيَّة كانت، أم مركزيةً، ويتعلّق الأمر بالتمييز بين الاستعمال الاستكشافي للنسقين الصوتي والدلالي وإمكانية إدماج نتائجهما في الأنساق المركزية، أي دراسة الصوت والمعنى بوصفهما جزءاً من الإجراء الاكتشافي الذي يهدف إلى وضع لائحة بالعناصر المطردة للأنساق الصرفية والتركيبية، وهذين النسقين باعتبارهما هدفين في ذاتهما. فلا مناص من استعمال المعايير الصوتية عندما نحاول أن ندرس نسقاً صِوَاتياً، وأَنْ نكتشف بكيفية أو بأخرى هل لملفوظين أو لأجزاء مُحدَّدة من ملفوظ ما الصوت نفسه أم يتعلق الأمر بصوت مختلف بالنسبة إلى الفرد المتكلم؟ ويطرح الأمر نفسه في النسق الدلالي، حيث نكون مجبرين على استعمال معايير دلالية عندما نحاول الوصول إلى النسق النحوي، لأنه يتعين علينا أن نبين بكيفية أو بأخرى إذا ما كان قولان ـ أو أجزاء منهما ـ مختلفين من حيث صورتهما الصوتية، يدلان على الشيء نفسه، أو أن لهما دلالة مختلفة. ولا يمكن اِدعاء الوصول إلى وصف دقيق ونهائي يخلو من أيّ نقص، فلا يمكن أن لا يخلو أيّ وصف من بعض العيوب. لِذا تبقى الأوصاف المحصل عليها حتى الآن تقريبية ليس إلّا. وتعود العديد من الهفوات في دراسة الأنساق المركزية إلى النسقين الهامشيين نظراً إلى جوانبهما المعقّدة المترتّبة عن المعايير المعتمدة في علمي الأصوات والدلالة. ويتطلب القيام بتحليل المستويين الصوتي والدلالي تحليلاً كافياً أن نتوفر أولاً على وصف دقيق للأنساق المركزية التي ترتبط بهما ارتباطاً وثيقاً. ومن غير المجدي أن نحاول تحليل النسق الصوتي بألفاظ نطقية أو سمعية دون أن يكون لدينا معرفة دقيقة وكاملة بالنسق الصواتي الذي يتعلق به. ولا فائدة تُرجى من محاولة تحليل نسق دلاليّ دون فهم النسق النحوي الذي يرتبط به أو يقيم معه علاقات فَهْماً تاماً.

---

(14) Leonard Bloomfield. *Le langage*, p.131.

فمثل هذه المحاولات لا تقود سوى إلى وضع يكون فيه دارسو النسقين الفرعيين الهامشيين مضطرين إلى وضع "ماهيات" ذهنية شبه لغوية مثل الأفكار والمفاهيم في الوقت الذي يتعين فيه اعتماد صُرْفات وصيغ نحوية أكثر بداهةً ووضوحاً ودقة تستخلص من الألسن اختبارياً.

تؤكد اللسانيّات البنيويّة الأميركية على أولوية التحليل الصوتي وأسبقيته على غيره من مستويات التحليل ولاسيما المستوى الصرافي نظراً لحاجاتنا إلى التحليل الصوتي في التعامل مع باقي المستويات. وتبدو أهمّية الصرافة *morphologie* بالغة في التحليل اللساني برمّته، فالحصول على تحليل توزيعي للوحدات الصرافية يتطلب بالضرورة تحليل الإمكانات التي يسمح بها التوزيع، أي رصد مجموع المواقع الممكنة في سلسلة الملفوظ، وهو ما يعني في النهاية ضرورة الانكباب على الظواهر التركيبية للصُّرْفات في إطار العلاقات التي تربط بينها في المحور السياقي.

6.6. تصوّرات بنيويّة أخرى

أما بالنسبة إلى اللسانيّات البنيويّة الأوروبية وتحديداً عند المدرسة الغلوسيماتية فنجد توازناً تاماً بين صعيد التعبير (الدال) وصعيد المضمون (المدلول) أي إنهما يتمتّعان بالقيمة نفسها ولهما الأهمية نفسها ويدرسان بالطريقة نفسها وهو ما يعرف بالتشاكل *isomorphisme* الذي يعدّ من المبادئ الجوهرية في التحليل البنيوي الغلوسيماتي(15). إلا أنّ الجانب المادي في الصوت *son* والمعنى *sens* يظلّ خارج ما تقوم به النظرية الغلوسيماتية من وصف لسانيّ محايث *Immanent* أي وصف قائم أساساً على العلاقات الداخلية بين عناصر النسق(16).

وحرصاً على دقة التحليل وتماسكه، أكد أتباع التحليل اللساني البنيوي في أميركا ما بين الأربعينيات والخمسينيات من القرن العشرين على ضرورة قيام

---

(15) Knud Togeby. *Structure immanente de la langue française*, Paris, Larousse, 1965/ 1951, p.5.

(16) انظر تفاصيل هذين المستويين عند الغلوسيماتية في الفصل الرابع من الباب الثاني من هذا الكتاب.

التحليل الصوتي حصرياً على ملاحظة الأصوات مباشرة، وأن يتمّ تحديد المقولات الصوتية ووصفها في استقلال تام عن أية إحالة على مستوى التركيب وعن اعتماد المقولات النحوية في وضع المقولات الصوتية أو وصفها[17].

ويذهب لسانيون آخرون إلى القول بأن التركيب يشكِّل وحده دعامة التحليل اللساني وجزءه المركزي. أما الصِّواتَة فدورها الربط بين البنيات التركيبية والمقولات النحوية والبنيات الصوتية المادية. ويبرِّر هؤلاء موقفَهم هذا استناداً إلى أهمّية التركيب باعتباره أهمّ تنظيم في الألسن الطبيعية. كما أنّ النسق التركيبيّ يتميز باستقرار نوعي وثبات البنيات النحوية في المستوى المنطوق والمستوى المكتوب، بينما نلاحظُ نوعاً من التباعد بينهما فيما يتعلق بالمعطيات الصوتية في هذين المستويين[18].

7.6. مستويات التحليل والعناصر اللغوية

تشكّل العناصرُ اللغوية التي يُجْرى عليها التحليل التركيبي من حيث علاقاتها المتنوعة بغيرها في مستوى من المستويات هَدَفَ التحليل اللساني الوصفي. ويندرجُ تحت اسم الوحدة اللغوية أو العنصر *élément /Item /unit* مجموعة غير متجانسة من الوحدات الفردية والمركّبة الثابتة والمتغيرة مثل العناصر الصوتية/ الصوتات وبعض الظواهر الصوتية غير القارة مثل النبر والتنغيم، والعناصر الصرفية (الصُّرفات)، والمُرَكَّبات وغيرها. ولمفهوم العنصر في اللسانيّات البنيويّة دلالة خاصة. فليس العنصر كما في العلوم الكيميائية هو المادة التي لا يمكن تحليلها إلى مواد أخرى. "إن العنصر في الكيمياء يمثّل البسيط في مقابل المُركَّب الذي يتكون من أكثر من عنصر. غير أنّ العنصر في الدراسات اللسانيّة ليس له هذه الدلالة. فالعنصر اللغويّ ليس دائماً بسيطاً، بل قد يكون بسيطاً على مستوى تحليلي ما، ولكنه يصير مركّباً على مستوى تحليلي آخر"[19].

---

(17) H. A. Gleason. *Introduction à la linguistique*, p.134.

(18) *Ibid*, p.166.

(19) جلال شمس الدين، **الأنماط الشكلية لكلام العرب: نظرية وتطبيقاً، دراسة بنيويّة**، ج1، ص68.

لتوضيح طبيعة العنصر اللساني نشير إلى أنّ الصوتة (الفونيم) التي تبدو عنصراً بسيطاً في مستوى التحليل الصّواتي تصير في مستوى آخر من التحليل عنصراً مركّباً من مجموعة من السمات المميزة *traits distinctifs* مثل الانفجار والاحتكاك والجهر والهمس. وتكون هذه السمات المميزة بدورها قابلةً لأن تحلّل إلى مجموعة من الموجات الصوتية وهكذا[20].

وإذا أخذنا صُرْفَة مثل "ضرب" أو "خرج" يمكن النظر إليها على أنها عنصر صِرافي بسيط من نوع ما، كما يمكن النظر إليها على أنها عنصر مركّب من عدة صوتات هي على التوالي: ضَ، رَ، بَ (مع أخذ الحركات في الاعتبار)، ترد في سياق معين يختلف بين صُرْفَة وأخرى (قارن بـ ضَرْبٌ أو ضُرِبَ).

إنّ تقسيمَ اللسان إلى مستويات تحليل له نتائج منهجية عامة في إطار التعامل المباشر مع الوقائع اللُّغويّة، فهو يسمح بضبط موْقع كلٍّ جانب من الدّراسة اللّسانية بالنظر إلى غيره من حيثُ حدوده وعلاقته بالجوانب الأخرى من التَّحليل. ويسمح ضبْط المُسْتوى بدوره بتحديد طبيعة الوحدات اللُّغويّة المُكَوِّنة لهذا المستوى أو ذاك. فوحدات المستوى الصواتي هي الصوتات والمقاطع ومجموعات النَّبْر وغير ذلك. ويصدق هذا على باقي المستويات.

8.6. عناصر المستوى الصرافي

يحتوي المستوى الصرافة ـ تركيب، الذي يجمع بين الصِّرافة والتركيب، جملة من العناصر التي يتعين تحديدُ دلالة استعمالها في اللسانيّات الوصفيّة كما يلي[21]:

- الصُّرْفَة، ولها أسماء عديدة تختلف من تصوّر لسانيّ إلى آخر. فهي المورفيم *Morphème* عند اللسانيين الأميركيين، أو الكُلْمَة *monème* في

(20) المرجع السابق، ص68.
(21) J. Dubois. *Nom et prénom,* Paris, Larousse, 1965, p.11.

اصطلاح الوظيفيين الفرنسيين. ويقال لها أيضاً المقطع *segment*[22]. فإذا قمنا بتقطيع *segmentation* الصُّرْفة (ضَرَبَ) من جديد، فإنها لا تعطينا وحدات دالة أي ذات معنى، بل صوتات *phonèmes*. وقد يقود تقطيع الصُّرْفَة إلى وحدات أخرى أصغر غير الصوتات، تملك هويةً صِرافيةً أو نحوية، ولكنها لا تملك أيّ استقلال في التركيب بمعزل عن توليفها مع غيرها، كما هو الحال بالنسبة لِمَا يسمّى باللواصق مثل السوابق والأواسط واللواحق (واو الجماعة/نون النسوة/ جمع المذكّر السالم). ويمكن أن نحصر العمليات التوليفية الأولية للصرفة باعتبارها وحدة مستقلة قادرة على تكوين عناصر أكبر منها في المُرَكَّب *syntagme* أو الجملة.

- المْـرُكَّب: *syntagme* يتكونُ هذا الجزء من تجاور موقع *juxtaposition* وحدات صرفية أصغر منه. ويُحدّد المركَّب باعتباره الوحدة الأساس المباشرة في الجملة كعنصر مُكَوِّن *constituant* وبالنسبة إلى الصُّرْفَة كعنصر مُكَوَّن *constitué*. إلّا أن الصُّرْفَة الواحدة مثل الضمائر المنفصلة (أنا/ نحن/ أنتم)، قد تشكل بسهولة مُرَكَّبا في بناء الجملة (أنتم/ مجتهدون). وتعد المُركَّبات الاسمية والفعلية مكوِّنات مباشرة للجملة.

- الجملة: *phrase / sentence* وهي الوحدة الكبرى في المستوى التركيبي ويطلق عليها القطعة الكبرى *macro segment* أو العلامة الكبرى. وهي وحدة في رتبة أعلى من المُرَكَّبِ. وقد تتشكّل الجملة من مُركَّب واحد (أُخْرُجْ) على الأقل من الناحية السطحية، أو بالتجاور الموقعي لعدة مُرَكَّبات ذات مقولات تركيبية مختلفة، بحسب ما تسمح به التوليفات الممكنة داخل لسان معين. وتلعب عناصر أخرى مثل، النَّبْر والتنغيم دوراً هاماً في تكوين الجملة.

ويكون هدفُ التحليل اللساني الوصفي البنيوي هو[23]:

---

(22) *Ibidem*.

(23) Z. S. Harris. *Structural Linguistics*, p5.

- ضبط الوحدات الأولية بالنسبة إلى كل مستوى من المستويات بالمعنى المشار إليه سابقاً.
- تحديد فئات الوحدات الأولية (صوتات/ صُرْفات/ مُكوِّنات/ مركَّبات/ جمل)
- ضبط التوليفات الممكنة بين عناصر هذه الفئات.

ولتحديد الوحدات الأولية على نحو يتطابق مع الاختيارات المنهجية التي رسمها اللسانيون البنيويون للبحث اللساني، يتمّ اللجوء إلى مفهوم التقطيع *segmentation* كتقنية اختبارية إجرائية. والتقطيع عملية مستقلة عن أيّ معيار دلاليّ وكذا عن أي معيار توزيعي،.. إذ لا يمكن الحديث عن علاقات توزيعية قبل تحديد الوحدات ذاتها، بحيث تصبح وحدات مُحَدَّدَة(24) *élément discret*. ويدعَّم إجراء التقطيع من خلال عملية تحديد (هوية) *identification* الوحدات الأولية المتماثلة فيما بينها- أي التي تظهر كمتغيرات للوحدة نفسها (البدائل الصوتِية *allophone* والبدائل الصُّرْفيّة *allomorphe*) والوحدات المختلفة التي لا يمكنها أن تظهر في الموقع نفسه، وهي وحدات متميزة كلّياً عن غيرها. ويلجأ اللسانيون البنيويون الأوروبيون إلى المفهوم نفسه لكنهم يختلفون في كيفية ضبطه عملياً. ويدعم اللسانيون المنتمون إلى حلقة براغ وهلمسليف إجراء التقطيع بتطبيق رائز الاستبدال *test de commutation* وهو تغيير عنصر بعنصر ينتج عنه اختلاف في معنى الكَلِمة كما سنشرح ذلك عند حديثنا عن حلقة براغ والغلوسيماتية.

9.6. الصُّرفة

يتعامل اللسانيُّ الواصف مع اللسان كتراتبية من المستويات، لكل مستوى كما ذكرنا وحداته الخاصة به والقواعد المتحكّمة فيها. ويحرص اللسانيون البنيويون على عدم تداخل المستويات إلّا عند الضرورة كما هو الشأن بالنسبة إلى

(24) Z. S. Harris. la structure distributionnelle, in *Langages*, n. 20, Décembre 1970, p.29 Didier-Larousse, Paris.

المستويين الصِّرافي والتركيبي اللذين غالباً ما تتداخل بعض قضاياهما فيما يعرف بالمستوى الصِّراف-تركيب *Morpho- syntaxe* الذي يشكّل مجالاً خصباً في التحليل اللساني. وقد شكّل المستوى الصرافي منطلقاً للتعامل مع الألسن الطبيعية سواء تلك التي لم تكن تتوفر على نحو *Grammaire* قديم أو التي تَمَّ وضع أنحاء جديدة لها من منظور اللسانيّات البنيويّة. ولهذه الاعتبارات العملية والمنهجية، لعب مفهوم الصُّرْفة دوراً أساسياً في التحليل اللسانيّ الأميركيّ باعتباره مفهوماً اتخذ طابعاً إجرائياً حين نُظِرَ إلى المستوى الصرافي بوصفه مستوى مركزياً في التحليل اللساني الوصفي. وحتى في المستوى الأصواتي، لجأ اللسانيون الوصفيون إلى الصُّرْفَة نظراً لدورها ومكانتها المزدوجة:

أولاً: في تحديد الوحدات الصوتية الوظيفية،

ثانياً: في تكوين جمل اللسان.

فما هي الصُّرفة؟

يصعبُ تعريفُ الصُّرْفَة تعريفاً عاماً يكون شاملاً وجامعاً. وتكمن الصعوبة في أننا نجد أنفسنا أمام مفاهيم أخرى تحتاج بدورها إلى تحديد مثل: التركيب والصرافة والوحدة الدالة. فعندما نعرف الصُّرفة بأنها أصغر وحدة ملائمة تركيبياً نحتاج أولاً إلى تعريف للتركيب فنقول: إن التَّرْكيب هو دراسة الصُّرْفات وتوليفها. وبعد ذلك نحتاج إلى تعريف معنى التوليف بين الوحدات، ومن ثمة يحتاج تعريف المفهوم الواحد إلى تعريف المفاهيم الأخرى. وبهذه الكيفية نجد أنفسنا ندور في حلقة مفرغة.

يرفضُ اللسانيون البنيويون ولاسيما التوزيعيون منهم تصنيف *classification* الوحدات على أساس مفهومي أو معنوي، مثلما هو الحال في الدراسات اللغوية القديمة، مفضّلين اعتماد مبدإ صوري يتمثّل في مفهوم التوزيع. ولذلك فهم يرفضون رفضاً مطلقاً التقسيم الموروث عن منطق أرسطو. وللتذكير، فإن أرسطو حدّد أجزاء الكلام في اللسان الإغريقي في أربعة: الاسم والفعل والأداة والرابط. وتعتبر هذه الأجزاء بمثابة مفاهيم غير قابلة لأن تحدّد قيمة صدقها، أي كونها كاذبة أو صادقة. وقد تسرّب هذا التقسيم لكل الأنحاء القديمة تقريباً.

ولَمَّا كانت الصُّرفات في الألسن الطبيعية كثيرة العدد، تَعذّر التعامل معها بشكل نسقي دقيق دون جمعها وحصرها في فئات *classes*. فداخل فئة الصُّرْفَة "اسم"، مثلاً يمكن أن نميز بين الأسماء، والضمائر، وأسماء الإشارة، والصفات، وما شابه ذلك، بحكم أن لكل نوع من هذه الأنواع توزيعاً خاصاً به أي مواقع يرد فيها هو ولا يرد فيها بالضرورة غيره.

ولتحديد الصرفة يتعين تحديد توزيعها. وتوزيع الصُّرْفة [أو أي وحدة أخرى من اللسان صوتة/مكوّن/مركَّب] هو مجموع السياقات، أي المواقع التي يمكن أن ترد فيها هذه الصُّرْفة، مقابل السياقات التي لا يمكن أن ترد فيها. والمهمّ هو تحديد السمات العامة وخصائص اشتغال الصرفات ذاتها. فالصرفة هي الوحدة الدنيا الدالة على معنى والتي لا يمكن تقطيعها دون إتلاف معناها(25). مثلاً لا يمكن تقطيع الوحدة "**لاعِبٌ**" إلى / **لا**/ و/عِبٌ/، لأنّ حصيلةَ التقطيع لا تشكل صرفة، بينما يمكن تقطيع الوحدة "**لاعبون**" إلى وحدات أخرى مثل:

- / **لاعب**/ و/ون/. ويمكن تعويض العنصر "**ون**" بـ "**ات**" فنحصل على وحدة أخرى هي:
- "**لاعبات**" مما يدلّ على أننا أمام صُرْفَتَين وليس صرفةً واحدة.

وفي وحدة لغوية من العربية مثل: "**جئتنا**" نكون بحسب التحليل البنيوي أمام ثلاث صرفات:

- "**جاء**" "ما يدلّ على فعل المجيء".
- "**التاء**" الدالة على المخاطب المفرد المذكّر أو المؤنّث،
- "**نا**" الدالة على الجمع المذكّر أو المؤنّث.

---

(25) H. A. Gleason, *Introduction à la linguistique*, p.46.

10.6. أنواع الصرفة

الصُّرفة أنواع:

- **صرفات حرة** *Free morpheme* وهي الصيغة القائمة بذاتها مثل:
  ضرب/ دخل/ هو/ ولد
- **صرفات مقيدة** *Bound morpheme* وهي التي لا ترد بمفردها ومستقلة عن الصرفة الحرة مثل: الضمائر المتصلة. و"بالنظر إلى الصرفات الحرة أو الصرفات المقيدة، نجد بعض اللسانيين المحدثين يفضّلون استعمال المصطلح مُشَكِّل *formant* للصرفة الحرة مخصّصين مصطلح (صُرفة) *morphème* للنوع المتصل فقط أو الذي يمكن أن يوصف بأنه يدلّ على فكرة إضافية"(26).

والصرفات المقيدة بدورها أنواع، نذكر منها:

- نوع يتعلّق بالأسماء مثل:
  - أداة التعريف ال/ التنوين: الـرجل/ رجلٌ،
  - الألف والنون للدلالة على التثنية: (كتابـان)،
  - التاء المربوطة للدلالة على التأنيث: (عصفورة)،
  - الواو والنون للدلالة على الجمع المذكّر: (معلمـون)،
  - الألف والتاء للدلالة على الجمع المؤنّث: (طالبـات).
- نوع خاص بالأفعال مثل:
  - تاء المتكلم/ أو تاء المخاطب أو المخاطبة،
  - ونا الدالة على الجماعة،
  - وحروف المضارعة،
  - ونون النسوة وتاء التأنيث وما شابه ذلك.

(26) ماريو باي، **أسس علم اللغة**، ص101.

* نوع خاص بالحروف وهي الضمائر النائبة عن الأسماء كما في:

- إننـي، / إنـك/ إنـه/ إلـيَّ.

وتقسم الصرفات المقيدة إلى نوعين رئيسيين:

1 - **صرفات إعرابية** *Inflecting morpheme* "وتتعلّق بما يطرأُ على الأفعال والأسماء والصفات حسب موقعها في الجملة مثل الإعراب بالحركات والحروف" والصرفات الإعرابية، بعضها متعلق بإعراب الأسماء حسب مواقعها في الجملة، مثل: الضمّة، والفتحة، والكسرة، وبعضها متعلّق بالأفعال، مثل: الرفع، والنصب، والجزم.

2 - **صرفات اشتقاقية** *Derivationnal morphemes* "ومن ذلك ما يطرأ على الفعل المجرد في اللسان العربي من إضافات وتغييرات لينتج عنه ما نسمّيه بالأفعال المزيدة مثل: قاتل من قتل وانفجر من فجَّر، وعلَّم من عَلِم، ومثل ذلك ما يطرأ على الجذر من تغيرات وزيادات لكي نُكَوِّن مَنه عدداً من الأسماء المشتقّة (ضارب ومضروب) مثل المصدر (ضَرْب) واسم المرة واسم الهيئة واسمي الزمن والمكان وصيغ المبالغة وغير ذلك"(27).

- **صرفات صِفْرية أو منعدمة** *Zero morphemes* وهي الصرفات الحرة المقَدَّرة في الفعل الماضي الغائب مثل:

  * أكل (هو) وفي فعل الأمر: ادخل (أنت).

وفي العربية يمكن أن تكون الحركات الإعرابية مثل الضمّة والفتحة والكسرة صرفات من نوع خاص لأنها تلعبُ فعلاً دوراً في تغيير دلالة بعض المتتاليات. كما يتبين من: ضربتُ وضربتَ وضربتِ(28).

---

(27) دايفيد كريستل، **التعريف بعلم اللغة**، ترجمة حلمي خليل، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1993، هامش ص146.

(28) للوقوف على اشتغال الصرفات المقيدة بجميع أنواعها في اللغة العربية يمكن الرجوع إلى: أشواق محمد النجار، **دلالة اللواصق التصريفية في اللغة العربية**، عمان، دار دجلة للنشر، 2007.

وفي الإغريقية نجد ما يعرف بالأجزاء التيمية *stem formants thématiques* */formative/* مثل o التي تكون وظيفتها تكوين بعض التيمات *thèmes*، كما هو الأمر في بعض الكلمات الإغريقية مثل o/ g/ . و*morph/o/logie* و*phil/o/sophie*. وتدلّ هذه الأجزاء التيمية على أن الكلمة يمكن أن ترد فاعلاً لجملة ما وأنه لا يمكن الاتصال بالجذر *radical* دون وجودها(29).

ويستنتج ممّا تقدّم أن مفهوم الكلمة كما هو متداول في الدرس اللغويّ القديم، لم يعد ملائماً للدلالة على مفهوم الصرفة بالمعنى اللسانيّ الحديث. فالكلمة ليست قابلةً لأن تكون أساساً للتحليل الصرفي أو التركيبي نظراً لدلالتها العامة، أولاً ولعدم دقّتها ثانياً.

(29) H. A. Gleason. *Introduction à la linguistique*; p.51.

الباب الثاني

اللسانيّات البنيويّة الأوروبيّة

الفصل الأول

بنيويّة سوسير

1.1. عودة سوسير

تدين اللسانيّات عامة في منطلقاتها الأولى واللسانيّات البنيويّة في العديد من اتجاهاتها ومشاربها الفكرية والمنهجية على وجه الخصوص إلى اللسانيّ السويسريّ فردينان دو سوسير (1857-1913) من خلال الدروس التي ألقاها في جامعة جنيف ما بين 1907-1911، خلفاً لمواطنه جوزيف فيرتايمر (1833-1908) Joseph Wertheimer. وقد كان لهذه **الدروس في اللسانيّات العامة** دور حاسم في المسار الذي قطعته اللسانيّات؛ حتى غدت نموذجاً له قيمته النظرية والمنهجية المتميزة في حقل العلوم الإنسانية.

وعرفت "دروس" سوسير منذ ظهورها سنة 1916 مساراً متميزاً ومكانة مرموقة قَلَّمَا حَظِيَ بِهَا عمل علمي آخر طوال القرن العشرين. ولا يختلف اثنان في أن سوسير كان ولايزال مَرْجِعاً لا مَحِيدَ عنه في مجمل الإشكالات التي طُرِحَتْ في القرن العشرين في جُلّ المجالات المرتبطة بقضايا اللغة. ولا تزال مضامينُ هذه الدروس والسياق التاريخي والفكري الذي ظهرت فيه وقيمتها النظرية والمنهجية في لسانيّات القرن العشرين موضوعَ العديد من الدراسات التي تشقّ طريقها إلى المطابع. ونلاحظ في الآونة الأخيرة عودة جديدة إلى سوسير[1]

---

(1) Jacques Guilhoumon. Compte rendu de F. de Saussure, Ecrits de linguistique générale, in *Mots*. Les Langages du politique, Nº 76/2004, Paris.

لفتت انتباه المتتبعين للسانيّات هذا الرجل الذي أدهش الناس حياً وشغلهم ميتاً. لقد عاد سوسير بعد قرنٍ من الزمن ليبعثرَ أوراق اللسانيّات واللسانيين من جديد[2]. ويكفي النظر إلى المنشورات والمقالات التي تصدر حتى اليوم[3]

(2) Simon Bouquet. *Après un siècle les manuscrits de Saussure reviennent bouleverser la linguistique*, Disponible sur: <http://www.revue-texto. net/Saussure/Sur_Saussure/Bouquet_Apres.html>. (Consultée le 25/02/2010).

(3) Françoise Gadet. *Saussure, une science de la langue*, Paris. PUF, 1987.

- Simon Bouquet. *Introduction à la lecture de Saussure*, Paris, Payot, 1997.
- Pierre-André Huglo. *Approche nominaliste de Saussure*, Paris, L'Harmattan, 2002.
- Simon Bouquet (dir.) *F. de Saussure:* Cahier de l'Herne nº76, Paris, Éditions de l'Herne, 2003.
- Claudine Normand. *Saussure,* Paris, Les Belles Lettres, 2004/2000.
- Sémir Badir. *Saussure: langue et représentation*, Paris, L'Harmattan, 2001.
- Arild Utaker. *La philosophie du langage: Une archéologie saussurienne*, Paris, PUF, 2002.
- Yong-Ho Choi. *Le problème du temps chez Ferdinand de Saussure*. Préface de M. Arrivé, Paris, L'Harmattan, 2002.
- Garelli Jacques. Perplexité de Saussure, in *Archives de Philosophie*, 2003/1, vol 66, p.89-117.
- Patrice Maniglier. *La vie énigmatique des signes. Saussure et la naissance du structuralisme*, Paris, Editions Léo Scheer, 2006.
- Pétroff André - Jean. *Saussure: la langue, l'ordre et le désordre*, Paris, L'Harmattan, 2004.
- Cahiers de F. de Saussure nº58/2005 Genève, Droz, 2006.
- Daniele Gambarara. *Un texte original, présentation des textes de F. de Saussure.* Cahiers-Ferdinand de Saussure nº58/2005. Genève, Droz, 2006, p.29-41.
- Cahiers de F. de Saussure nº59/2006, Genève, Droz, 2007.
- Emile Constantin. *Linguistique générale, Cours de M. le Professeur de Saussure, 1910-1911*, in *Cahiers Ferdinand de Saussure*, nº58/2005, p.83-290, texte établi par D. Gambarara et C. Mejía Quijano.
- Suenaga Akatane. *Saussure, un système de paradoxe, langue, parole, arbitraire et inconscient*, Limoges, Lambert-Lucas, 2005.
- Gandon Francis. *Le nom de l'absent: Epistémologie de la science saussurienne des signes*, Limoges, Lambert-Lucas, 2006.
- Arrivé, Michel. *À la recherche de Ferdinand de Saussure*, Paris, PUF, 2007.
- Arrivé Michel(Ed). *Du côté de chez Saussure*, Limoges, Lambert-Lucas, 2008.

بجميع الألسن، والندوات الدولية التي ما تزال تقام في كل بقاع العالم حول فكره[4].

من المعروف أنّ سوسير تعرَّض لانتقادات كانت أحياناً قاسية. لقد أُخِذ عنه عدم العناية ببعض القضايا المحورية في تحليل الظاهرة اللغوية (إقصاء سوسير لسانيّات الكلام) أو غموض التعبير عنها، (مثلاً اعتباطية العلامة). ومهما تكن مبرّرات هذه الانتقادات ودوافعها، فقد تحمّل سوسير تبعات ما لم يكتبه بنفسه في اللسانيّات العامة، ونعني دروسه المتداولة منذ 1916. وفي المقابل لم تنل الدراسات التي كتبها في إطار النحو المقارن ونشرها[5] وهو على قيد الحياة الأهمّية والقيمة اللتين كان ينتظرهما من لدن أساتذته الألمان. وفي الحالتين معاً لم يُدْرَك قَدْرُ الرجل ولا أهمّية أفكاره وما تضمّنته من بُعْد نَظَر إلّا بعد وفاته. ولم تكن التحولات النظرية والمنهجية التي عرفتها اللسانيّات وغيرها من المجالات اللغوية القريبة منها أو المتداخلة معها ممكنة دون المساهمة الإيجابية للمفاهيم والتصوّرات الواردة في "**دروس سوسير**".

فقبيل نهاية العقد الثالث من القرن العشرين، أقرَّ بلومفيلد بما يدين به

= - Claudia Mejia Quijano. *Le cours d'une vie. Portrait diachronique de Ferdinand de Saussure*, Cécile Défaut, 2008.

(4) - *Linguistique des valeurs : programmes de la linguistique néo-saussurienne*. Colloque international organisé par l'Institut Ferdinand de Saussure et l'Université de Namur, Belgique 16-18 Juin 2008.

- Colloque international. *Révolutions Saussuriennes*, Université de Genève, 19-22 Juin, 2007.

وقد نشر جزء من مداخلات هذه الندوة في:

Michel Arrivé. *Du côté de chez, Saussure*, Limoges, 2008.

Colloque international. *Saussure après un siècle*, à Archamps/Genève, 23-27 Juin 2001.

Saussure aujourd'hui sous la direction de Michel Arrivé et Claudine Normand, Numéro Spécial de la Revue Linx, 1995, Publications de l' Université Paris X, Nanterre.

(5) F. de Saussure. *Mémoire sur le système primitif des voyelles dans les langues indo-européennes*, Leipsig, en vente chez B.G. Teubner, 1879.

(مذكرة في النسق البدائي للصوائت في الألسن الهندية-الأوروبية)

لسابير وسوسير في التطور الذي حصل بشأن تحديد مجال اللسانيّات[6]. ولا تخفى أهمّية هذا التحديد ولا دوره في علمية اللسانيّات نفسها كما سيتضح لاحقاً، وهذا في اعتقادنا هو ما قصده بلومفيلد في إشارته إلى سوسير.

وتحدّث غريماس[7] في منتصف الخمسينيات من القرن الماضي عن سوسير ودوره الحاسم في تغيير العديد من التصوّرات الفكرية في الفلسفة وعلوم الإنسان خلال النصف الأول من القرن العشرين ولاسيما في اللسانيّات الفرنسية التي سجنت نفسها في تصورات المقارنين والتاريخيين ولم تلتفت إلى المنهجية اللسانيّة التي عبَّر عنها سوسير. وبَيَّن غريماس فعالية المنهجية اللسانيّة عند سوسير بفضل ما تضمّنته من ثنائيات تتجاوز حدود اللسانيّات لتعانق قضايا إبستيمولوجية علوم الإنسان. وبالفعل، فقد سمحت هذه الثنائيات بتحليل منهجيّ مغاير للقضايا الكبرى والأساس في معظم المجالات المعرفية الحديثة. ويمثل التقابل بين اللسانيّات التزامنية واللسانيّات التطورية عند سوسير حالة خاصة للحرج الذي كانت تعانيه علومُ الإنسان في فرنسا خلال النصف الأول من القرن العشرين وتمّ تجاوزه بفضل عمق المفاهيم السوسيرية.

وتجدرُ الإشارة إلى أن أبرز اللسانيين البنيويين يدينون في جوانب كثيرة من أفكارهم وتصوّراتهم لسوسير، "ويكفي أن نذكر عدداً من الأسماء، تروبتسكوي، مِييه، وهلمسليف وجاكبسون، وغيوم وبنفينيست ومارتينيه، وآخرين على سبيل المثال ـ لنلمح أهمّية الحدث السوسيري"[8]. وكثيراً ما أُعيدت صياغة مفاهيم سوسير وتصوراته في مجالات معرفية أخرى، فكانت لها نتائج مذهلة مثل ما حصل في السيميولوجيا. "فالسيميولوجيا تجد أحد مصادرها الأكثر أهمّية بلا شكّ بفرنسا وأوروبا في السيميولوجيا السوسيرية، فلم يكن لفكر بارت ولا لفكر

(6) L. Bloomfield. *Un ensemble de postulats pour la science du langage*, p.185 note 3, in André Jacob. *Genèse de la pensée linguistique*, Paris, A. Colin, 1973.
والتاريخ الأصلي لصدور مقالة بلومفيلد هو 1926.

(7) Algirdas-Julien Greimas. *L'actualité du Saussurisme*, dans *Le français moderne*, 1956, nº24, p.191-203 à l'occasion du 40e anniversaire de la publication du Cours de linguistique générale.

(8) ميشال أريفيه، **البحث عن فردينان دو سوسير**، ص34.

غريماس أن يكون ما هو عليه بدون **دروس في اللسانيّات العامة**"[9]. ويصدق الأمر نفسه بالنسبة إلى السيميائيات وفلسفة اللغة وباقي العلوم الإنسانية مثل علم النفس، وعلم الاجتماع، التي "تأثرت تأثراً يتفاوت في مباشرته وقوته بالفكر السوسيري. وينبغي هنا أن نذكر أسماء لاكان (1901-1981) *Lacan Jacques* وكلود ليفي ستروس (1908-2009) *Lévi Strauss* وميرلو بونتي (1908-1961) *Maurice Merlau Ponty* من بين آخرين"[10].

1.1.1. سوسير: وجه أم وجوه؟

لقد كان مؤلّف سوسير "**دروس في اللسانيّات العامة**" الذي نُشِرَ سنة 1916، موضوع العديد من الدراسات (لسانيّة وسيميائية وفلسفية وإبستيمولوجية)، خلصت إلى قراءات متنوعة ومختلفة لفكر سوسير وتصوّراته. وهي في مجملها تُجْمِعُ على خصب أفكار سوسير اللسانيّة؛ وعبقريته وحسّه العلميّ المتميز، وريادة تصوراته، ودوره الحاسم في تأسيس لسانيّات علمية جديدة بكل المواصفات والمقاييس.

واليوم وبعد نشر مخطوطات أخرى ونصوص جديدة تتعلق أيضاً بدروس سوسير في اللسانيّات العامة وغيرها من الموضوعات اللغوية يمكن التساؤل عن طبيعة الاختلافات الموجودة بين النشرة الأولى **لدروس** سوسير 1916، والنشرات الأخرى للدروس والتحقيقات نفسها التي واكبتها منذ سنة1957 تاريخ صدور **المصادر المخطوطة لدروس سوسير**:

- ما قيمتها التاريخية مقارنة بنشرة 1916؟
- ما وجه الجدّة في النصوص الجديدة والنشرات المتتالية لفكر سوسير؟
- هل تغير شيء ممّا نعرفه عن تصوّرات سوسير وآرائه؟
- ما تأثير النشرات والنصوص الجديدة في المنطلقات التصوّرية والمنهجية التي تأسّست عليها اللسانيّاتُ الحديثة؟

---

(9) المرجع السابق، ص34.
(10) المرجع السابق، ص34.

إنّ الحقيقة الأولى التي تتبدّى اليوم في التعامل مع فكر سوسير هي أن قراءة دروسه الواردة في النشرة الأولى 1916 ويطلق عليها النشرة الشائعة *La vulgate*[11]، لم تعد وَجْدَها مفيدةً ولا صادقةً منذ أن نشر روبير غوديل *Robert Godel* "**المصادر المخطوطة لدروس في اللسانيّات العامة لدو سوسير**"[12]، وما قدّمه إنغلر (1930-2003) *Rudolf Engler*[13] رائد الفيلولوجيا الخاصة بسوسير، من تحليل فيلولوجي دقيق ومتميز، قابل فيه الفقرات المحورية للنشرة الأولى بكراسات طلبة سوسير المعتمدة من قبل بالي وسيشهاي. ولا يستغني الباحث المهتمّ بلسانيّات سوسير عن نشرة طوليو دو مورو *Tullio De Mauro* التي تتبع فيها "**دروس**" سوسير كما نشرها بالي بالتعليق والشرح على نحو غير مسبوق، وما ضمّنها من مقارنات وقراءات موسّعة تتبعت بالتفصيل الدقيق أصول ومصادر المفاهيم والأفكار الواردة في **الدروس** وتحولاتها[14]. ونشر السيميائي هرمان باريت *Hermann Parret*[15] بعد ذلك، وتحديداً في سنة 1994، بعض النصوص الجديدة التي كانت جامعة هارفارد قد اقتنتها من أحد أعضاء عائلة سوسير بتدخل من جاكبسون. وتوالت هذه السلسلة من التحقيقات بنشرة كوماتسو سنة 1998 اعتماداً على كراسات تلميذين آخرين استمعا إلى دروس سوسير يدعى أحدهما ريدلنغر *Redlinger* (وهو بالمناسبة من ساعد بالي وسيشهاي في نشرة 1916) ويدعى الآخر قسطنطين.

---

(11) Louis-Jean Calvet. *Pour et contre Saussure*, Paris, Payot, 1975, p.13.

(12) Robert Godel. *Les sources manuscrites du cours de linguistique générale de F. de Saussure*, Genève, Droz, 1957/1969.

روبيرت غوديل. **المصادر المخطوطة لدروس في اللسانيّات العامة لفردينان دو سوسير**، جنيف 1957.

(13) F. de Saussure. *Cours de linguistique générale*, édité par Rudolf Engler, Wisseba-den, Otto Harrassowitz, 2 vol, 1968-1974.

(14) F. de Saussure. *Cours de linguistique générale*, édition critique préparée par Tullio De Mauro, Paris, Payot, 1972/1967.

صدرت بالإيطالية سنة 1966 ثم تُرجمت إلى اللغة الفرنسية ونُشرت مضافة إلى نشرة بالي، وهي أكثر النسخ رواجاً، وهي التي نحيل عليها في كتابنا هذا.

(15) Herman Parret. *Les manuscrits saussuriens de Harvard.* Cahiers Ferdinand de Saussure, 1993 [1994], n°47, p.179-234.

وعلى مرمى حجر من جامعة جنيف، تمَّ سنة 1996 اكتشاف مخطوطات جديدة بمنزل عائلة سوسير بجنيف، فتوّجت سلسلة النشرات الجديدة بما قدمه سيمون بوكيه *Simon Bouquet* وإنغلر اللذان أخرجا سنة 2002[16] ولأول مرة نصاً قائم الذات كتبه سوسير بنفسه، ويتعلق الأمر بمسودة شبه نهائية لكتاب بعنوان **"في الجوهر المزدوج للغة"** *De l'essence double du langage*، إضافةً إلى نصوصٍ أخرى كانت من قبل مجهولةً، وهي عبارة عن تأملات وملاحظات متفرقة.

وليس في ما صَدَرَ منذ النصف الثاني من القرن العشرين من نشرات جديدة قائمة على المعالجة الفيلولوجية الدقيقة أو المساءلة النقدية أو مجرد تساؤلات وقراءات متنوعة الأهداف والغايات لنصوص دروس سوسير، ما يدفع المرء إلى الاعتقاد بأنها تشكّل قطيعةً نهائيةً مع الفكر الذي تضمّنته نشرة 1916. ولم تكشف النشرات الجديدة وما تلتها من دراسات دقيقة حولها ـ وما أكثرها ـ عن شيء لم يكن معروفاً البتّة في فكر الرجل وتصوّراته اللغوية، أو عن وجه آخر لسوسير اللساني أو الأديب أو المؤرّخ أو السيميائيّ. . . أو أن تزيل التناقضات والمفارقات التي ظلت عالقة بفقرات **الدروس**، والصعوبات المصاحبة لقراءتها طوال قرن من الزمن، بل العكس تماماً هو ما حصل. نخرج من متاهة لندخل أخرى. صحيح أنه اتضحت جوانب معينة من فكر الرجل وانكشفت طبيعة تركيبة نصوص الدروس وترتيبها الحقيقي الخ. لكن مقابل هذا طُرِحَت أسئلة أخرى أكثر تعقيداً من ذي قبيل: كيف حصل ما حصل؟ ولماذا حصل ما حصل في هذا المستوى أو ذاك بشأن هذه المسألة أو تلك؟ والنتيجة اليوم أننا "كلما تمسّكنا بالبحث عن آثار نشاط سوسير واهتماماته، اكتنف الغموضُ شخصيته أكثر[17]".

لا أحد ينكر أن الدراسات الأخيرة ساهمت بنسبة عالية في إماطة اللثام عن بعض الغموض الذي تضمّنته فقرات ونصوص نشرة 1916، وتفسير جزء من

(16) F. de Saussure. *Ecrits de linguistique générale*, texte établi et édité par Simon Bouquet et Rudolf Engler, Paris, Gallimard, 2002.

- (كتابات في اللسانيّات العامة)

(17) Robert Godel. *Les sources manuscrites du cours de linguistique générale de F. de Saussure*, Genève, Droz, 1969/1957, p.35.

المفارقات والتناقضات التي حملتها بين سطورها بوعي أو من غير وعي سوسير أو ناشريه، وقد شمل هذا التوضيح صياغة الأفكار الجوهرية في اللسانيّات والمفاهيم المستعملة وتحديد فترات ظهورها تحديدا دقيقا. وقدمت الدراسات اللسانيّة الصادرة مؤخرا تحليلات مستفيضة ودقيقة لنصوص سوسير في شموليتها استطاعت من خلالها تفسير جوانب متعددة من الخلل والغموض والتناقض في كافة المستويات وذلك بطرح جملة من التساؤلات المنهجية المتعددة الأبعاد نفذت عبرها إلى جوهر الفكر السوسيري في بنيته العامة وفي السياق التاريخي والفكري الذي ظهر فيه. وأيا كان حجم الاختلافات ومستواها بالقياس إلى ما نعرفه عن سوسير النشرة الأولى، فمن المؤكد أن هذا الرصيد الهائل من الدراسات الجديدة سيكون له دون شك دور إيجابي في تغيير ملامح الصورة النمطية التي طُبِعَت في وعي الباحثين والمهتمين. ومن يدري فقد تُسْفِر التحليلات الجديدة مستقبلاً عن إعادة النظر في بعض مسلمات التفكير اللساني الحديث التي كانت دروس سوسير وراءها، ومراجعة بعض الأحكام الصادرة بشأن هذه المقولة أو تلك من اللسانيّات. ونعطي في الفقرات التالية نماذج من هذه التساؤلات التي أثارتها بعض الدراسات التي أعادت قراءة أفكار سوسير في ضوء النشرات الأخيرة **للدروس**. ونشير إلى أن اختيار هذه النماذج هو اختيار اعتباطي، هدفنا منه أن نوضح للقارئ بعض الجوانب الغامضة في فكر سوسير كما عُرِضَت في العقدين الأخيرين من خلال العديد من الكتابات اللسانيّة في فرنسا على وجه التحديد [18].

2.1.1. مع سوسير أو ضده؟

يعتبر لويس-جان كالفيه أحد الأوائل الذين أشاروا صراحة إلى أن ما قام به بالي وزميله سيشهاي في النشرة الأولى مجهود لا يستهان به في إخراج

---

(18) انظر على سبيل التمثيل لا الحصر كتاب ميشال أريفيه (مرجع سابق). ويحتاج موضوع المراجعات التي تعرض لها فكر سوسير في ضوء الإصدارات الأخيرة إلى دراسة مستقلة توضح مجمل الجوانب الخلافية وهو ما يخرج عن الإطار والهدف اللذين رسمناهما لهذا الكتاب. ونَعِدُ القارئ مستقبلاً بمؤلف نخصصه كاملاً لفكر سوسير في ضوء القراءات التي تعرض لها مؤخراً.

"**دروس في اللسانيّات العامة**" إلى حيِّز الوجود. وتزداد قيمةُ عمل بالي وزميله حين نعرف أن مادة الدروس الأساس استخرجت من الكراسات التي كتبها الطلبة الذين استمعوا إلى سوسير خلال ثلاثة مواسم جامعية وتحديداً ما بين 1907-1911. لكنّ نصوص **الدروس** إذا ما قورنت بالمصادر الأصلية كما نشرها غوديل وإنغلر أبانت عن اختلافات هامة في الشكل والمضمون، وهو ما جعل كالفيه يعتبر ما قام به بالي وزميله بمثابة اغتصاب لفكر سوسير ترتبت عنه جملةٌ من النتائج المنهجية التي تناقضُ حقيقة فكره. ويذهب كالفيه أبعد من ذلك معتبراً أن ما ورد في نشرة 1916 هو غير ما كان سوسير يفكر فيه في واقع الأمر(19)، مميزاً بين وجهين لسوسير:

- **سوسير-الرجل** في تفكيره الحقيقي والفعلي في العديد من الأبحاث اللغوية وغير اللغوية،
- **سوسير-الصورة** الذي نعرفه من خلال النصوص التي تقدّمها النشرة الأولى للدروس.

وبين الرجلين اختلافات غير قليلة وبالغة الأهمّية. لقد كان لسوسير اهتمامات أخرى حول الجناس التصحيفي *anagramme*(20) والأسطورة الخرافية *Nibelungen* لم يرد لها أي ذكر في نشرة 1916 لا من بعيد ولا من قريب" . ولم يكن اهتمام سوسير بتأسيس لسانيّات عامة غاية في ذاتها وهدفاً معلناً عنه ضمن أولويات فكرية محدّدة، بل جاء في إطار حاجة سوسير إلى مجال معرفيّ صلب ينجز في إطاره الأعمال اللغوية المتنوعة التي بدأها. لقد كانت اللسانيّات العامة في العمق بالنسبة إلى سوسير وسيلةً وضرورةً منهجية أكثر منها شيئاً آخر، ومن

---

(19) *Pour et contre Saussure*, p.23 et p.27.

(20) الجناس التصحيفي. «إيجاد كلمات هي في بعض الأحيان ذات منطوق قصير، مكتوبة تحت كلمات نص ظاهري» ميشال أريفيه. **البحث عن فردينان دو سوسير**، ص39؛ أو هو بتعبير أكثر إيجازاً الكلمات تحت الكلمات *les mots sous les mots* كما جاء في عنوان كتاب ستاروبنسكي *Starobinski* وهو أول من كتب بشكل متكامل عن موضوع الجناس التصحيفي عند سوسير. انظر:

Jean Starobinski. *Les mots sous les mots, les anagrammes de F. de Saussure, (essai)*, Paris, Gallimard, 1971.

ثمة كانت دروسه تمثل بحثاً جاداً عن هذه الوسيلة. ويتساءل المؤلّف: هل ابتدعنا مفهوم "اللسانيّات العامة" انطلاقاً من تفكير سوسير، بينما لم يكن بالنسبة إليه سوى ممرّ ضروريّ نحو شيء آخر هو اهتمامه الشديد بالجناس التصحيفي والشعر والأسطورة وولعه الكبير بها؟. لقد كان سوسير ـ بحسب كالفيه ـ في وضع يشبه وضع ذلك الطباخ الذي يرغب في طهو أكلات جديدة، ولكنه لم يكن يملك الفُرنَ المناسب للقيام بهذه المهمة، وكان كلّ همّه العثور على هذا الفرن. كانت اللسانيّات بالنسبة إلى سوسير هي الفرن الذي يحتاج إليه. وقد أفسد غياب "لسانيّات" كمجال محدّد ومضبوط متعة سوسير في رحلته التاريخية مع الأدب والأسطورة، مما ولّد لديه الشعور بعدم الارتياح. ومن ثمة جاءته فكرة أن يؤلف ـ ولكن دون حماسة بحسب تعبيره ـ كتاباً في موضوع اللسانيّات العامّة يمهد به الطريق[21]. وإذا افترضنا أن الصيرورة التي عرفتها **دروس في اللسانيّات العامة** كانت في تناقض تام مع اهتمامات وقناعات سوسير ـ الرجل، فهل يكون سوسير ـ الصورة مجرد إسقاط أيديولوجي يؤشّر إلى عدم نضج إبستيمولوجي لدى جيلين من اللسانيين"[22]؟.

2.1. وما زال البحث عن سوسير جارياً

تعدّ دراسة ميشال أريفيه القيّمة "**البحث عن فردينان دو سوسير**" نموذجاً ملموساً للنتائج التي يمكن أن تقدّمها مقارنة مختلف فقرات ونصوص نشرات دروس سوسير، وخاصة ما يتعلّق بالمنطلقات الفلسفية والأسس المنهجية التي قامت عليها اللسانيّات الحديثة ومفاهيمها المحورية التي تنسب بهذه الصيغة أو تلك إلى سوسير. لقد ساهمت محاولة إعادة قراءة نصوص سوسير في ضوء هذه النشرات الجديدة إلى حدّ ما في إزالة بعض اللبس والغموض اللذين لازما ما يزيد على نصف القرن أفكار سوسير، وبالتالي فإن عمل أريفيه وغيره من الدارسين المحققين يعدّ تحدّياً حقيقياً في تغيير بعض الملامح النوعية للصورة

(21) Louis Jean Calvet. *pour et contre Saussure*, p.54.
وبالفعل نجد في *Ecrits en linguistique générale* ص197-202 نصاً بعنوان «ملاحظات من أجل كتاب في اللسانيّات»: *Notes pour un livre sur la linguistique*.

(22) *Pour ou contre Saussure*, p.54.

النمطية التي رسمها بالي وزميله للسانيّات العامة ولمؤسّسها ورسّختها نشرة 1916. ويجب الإقرار بأن في مختلف النصوص السوسيرية قديمها وحديثها ما يمثل القاسمَ المشترك بين سوسير ـ الرجل وسوسير ـ الصورة. ولعل أبرز مثال في هذا الصدد هو تردّد سوسير في الانطلاق نحو سَبْر أغوار الظاهرة اللغوية وتدوين ما عَنَّ له من أفكار جديدة في مقاربتها من منظور اللسانيّات الوصفيّة. تردّدٌ كانت له آثار سلبية في بعض نصوص **الدروس** وزاد من حدة تناقض مواقفه إزاء بعض المسائل الجوهرية، ممّا جعل أريفيه يتحدث عن "التردّد المؤلم" في فكر سوسير[23]، والإفصاح عن رأيه بشأنها. وكان التردّد ناتجاً عن القلق الفكري الذي سكن الرجل حقبةً غير قصيرة من حياة كُتِبَ لها أن تكون أصلاً قصيرةً. ويبدو القلق واضحاً في أكثر من مكان. ولطالما حدّث سوسير أصدقاءه (رسالته إلى مِييه)[24] وتلامذته عمّا كان يشعر به من إحباط وعجزه عن القيام بأي شيء إيجابيّ في مجال اللسانيّات. والأكيد أنه أصبح لزاماً أن يأخذ الدارسون في الاعتبار ويستعينوا في تقديمهم وتحليلاتهم لأهمّ المفاهيم الواردة في "**دروس في اللسانيات العامة**" بنص كتابه "**في الجوهر المزدوج للغة**"[25] المنشور أخيراً.

وخلافاً لما يبدو في نشرة 1916، نجد سوسير ـ الرجل في **كتاباته** صاحب فكر لساني أكثر شموليةً وأكثر اهتماماً بالظاهرة اللغوية في جميع جوانبها وأن عنايته باللسان تشملُ الصورة والمعنى أو بتعبير آخر الشكل والمضمون. ويحرصُ سوسير على شرح أفكاره بإسهاب، مستعملاً صيغاً وعبارات أقلّ صرامةً مما هو معروف عنه. "فكر ثاقب، وشفّاف وأكثر إقناعاً"[26] بالنظر إلى الصياغة الواردة في "الدروس". إننا أمام رجل متردّد، قَلِق، يشك كثيراً في قيمة كُلِّ ما يراوده من أفكار وتصورات لسانيّة، فلا يعرف جيداً من أين يبدأ الحديث عنها. وتطالعنا منذ الصفحة الأولى من مُسَوَّدة كتابه" **في الجوهر المزدوج للغة**" أسئلة

(23) ميشال أريفيه، **البحث عن فردينان دو سوسير**، ص73 هامش رقم 18.

(24) قام بنفينيست بنشر هذه الرسالة والتعليق عليها. انظر:

Emile Benveniste. *Lettre de Ferdinand De Saussure à Antoine Meillet*, In Cahiers de F. de Saussure, N°21/1964, pp.93-123.

(25) ميشال أريفيه، **البحث عن فردينان دو سوسير**، ص65.

(26) F. de Saussure. *Ecrits de linguistique générale*, p.10.

التردّد والشكّ في إمكانية الانطلاق من أُسٍّ صلب ومتماسك يمكن الاطمئنان إليه كحقيقة وحيدة وثابتة في اللسانيّات. "يبدو مستحيلاً أن نعطي الأسبقية لهذه الحقيقة في اللسانيّات أو تلك، بكيفية تكون نقطة انطلاق مركزية. هناك خمس أو ست حقائق أساسية مرتبطة بينها لدرجة يمكن أن ننطلق من هذه الحقيقة أو تلك لنصل منطقياً إلى الباقي"[27]. إنّ "كتابات" سوسير سيل من أسئلة التردّد والحيرة في اختيار المنطلقات التي يمكن أن تُؤَسس عليها معرفة لسانيّة علمية. "لا شيء أصعب من البدء". "والسؤال الذي يمكن أن يطرح قبل أن نحاول البدء هو من أي نقطة انطلاق نتناول المادة الزالقة للسان. وإذا كان ما أقصده صحيحاً، فليس هناك نقطة انطلاق واحدة تكون هي نقطة البدء الواضحة"[28]. ويذهب به التردّد إلى التساؤل عن مشروعية العمل اللساني نفسه. "هل تستحقّ ظاهرةُ اللغة في ذاتها، سواء في تجلياتها المختلفة أم في قوانينها العامة التي لا يمكنها البتة أن تُسْتَنْتَج إلّا من أشكالها الخاصة أن تدرس أم لا؟"[29]. ما الكيان اللغويّ *entité linguistique* الذي يمكن الانطلاق منه؟ هل تكون الصورة في مقابل المعنى أو لنقل الصورة الصوتية *forme vocale* في مقابل الصورة المعنى؟ إن هذه الفكرة تُحِيلُنا في النهاية على مبدإ آخر يبدو في الظاهر بعيداً عمّا نحن بصدده، وهو أن في اللغة ما يسمح بالتمييز بين الظواهر الداخلية أو الوعي والظواهر الخارجية القابلة للإدراك مباشرة[30]. وهكذا يبدو المنطلق من الناحية التصوّرية والمنهجية شاقاً وعسيراً لصعوبة الإمساك بجميع جوانب الموضوع اللساني. لكنّ هذه التساؤلات الحارقة النابعة من شكّ عارم انتاب سوسير باستمرار لم تكن لتكبح جماح رغبة دائمة في تأسيس لسانيّات تحولت عنده إلى "معركة ضداً على غياب التأمل الإبستيمولوجي الذي يطبع اللسانيّات، وإلى معركة تجديد المفاهيم الأساس في هذا العلم"[31].

---

(27) *Ibid*, p.17.

(28) *Ibid*, p.281.

(29) F. de Saussure. *Ecrits de linguistique générale*, p.145.

(30) *Ibid*, p.17.

(31) Simon Bouquet, Préface de. *Ecrits de linguistique générale*, p.10.

ماذا كانت نتيجة ما قام به أريفيه في بحثه عن سوسير؟ لا نريد هنا أن نقدّم مضامينَ هذا البحث مختصرة ومجزأة، ليس فقط لأن موضوع كتابنا لا يسمح بعرض من هذا القبيل، بل لأنّ كثيراً من النبش الذي قام به أريفيه يتجاوز حدود اللسانيّات البنيويّة كما هي في "**دروس**" سوسير ليعانق مسائل في السيميولوجيا والجناس التصحيفي والدراسة السيميائية للأسطورة والخرافة وغير ذلك من الانشغالات اللغوية التي ميّزت أعمال سوسير. وسنشير في باقي فقرات هذا الفصل إلى بعض ملاحظات أريفيه بشأن تصورات سوسير المتداولة في نشرة 1916. ويمكن أن نختصر القضايا اللسانيّة التي طالتها قراءة أريفيه في ضوء النشرات الأخيرة للدروس ما يلي:

- أنظمة العلامة والسيميولوجيا.
- اللغة واللسان والكلام والخطاب، وما يتصل بهما.
- العلامة اللسانيّة: الدال والمدلول والعلاقة الاعتباطية بينهما، وخطية الدال.
- العلاقات السياقية والجدولية.
- التزامن والتعاقب ومفهوم الزمن عند سوسير.

3.1. دور سوسير في تأسيس اللسانيّات

بدأ سوسير تأسيس اللسانيّات من حيث ينبغي أن يَبدأ التأسيسُ النظري لأي علم. فكل ممارسة فكرية تُريدُ أن تَرْقَى إلى المستوى العلمي الجادِّ والمقبول المتمثل في وَضْعِ نظرية عامة حول طرائق تناول القضايا اللسانيّة، يجب أن تتقيد بجملةٍ من الشروط المنهجية العامة منها:

أ - التسليم بصحّة بعض المفاهيم الأولية والمُسَلَّمات الأساسية؛

ب - تحديد طبيعة مجال البحث الاستقصائي وحدوده؛

ج - دراسة هذا المجال من وجهة نظر معينة وبواسطة منهجية خاصة[32].

(32) J. P. Corneille: *La linguistique structurale*, Paris, Larousse, 1976, p.21.

لا تحتاج العديد من العلوم إلى تعريف مُسْبَقٍ للموضوع الذي سَتَبْحَثُ فيه. ولذلك يقال عادة إن الموضوع هو الذي يخلق المنهج". لكن الأمر مختلف بالنسبة إلى اللسانيّات التي نحتاج فيها إلى تحديد المنهج أولاً، ثم الموضوع ثانياً. "إن وجهة النظر هي التي تخلق الموضوع" بحسب تعبير سوسير *C'est le point de vue qui crée l'objet*[33]. ومن الصعب على اللسانيّات أن تبني منهجها دون هذه العملية الأساسية والجوهرية في الوقت ذاته" المتمثلة في تحديد الموضوع"[34]. "ومردّ هذه الصعوبة الطبيعة المركّبة لموضوع اللسانيّات". فكل من يقف أمام الموضوع المعقّد الذي هو اللغة ليجعل منه دراسته سيتناوله بالضرورة من هذا الجانب أو ذاك، لن يكون أبداً هو اللغة ككل، على افتراض أننا قمنا بالاختيار الجيد[35]. وبالمقارنة بمسألة طبيعة موضوع اللسانيّات كما هي واردة في "الدروس"، يبدو إلحاح سوسير على هذه القضية أقوى في **الجوهر المزدوج للغة** من خلال تناوله للعديد من جوانب الموضوع اللساني المعقّدة التي لا تفصح بسهولة وتلقائياً عن نفسها أثناء البحث. "إن موضوع اللسانيّات غير محدّد". ويشرح سوسير طبيعة الواقعة اللغوية/الحدث اللغويّ *le fait linguistique* بأنها ليست كياناً بسيطاً، كما قد يُظنّ لأول وهلة، فكل كيان يفترض أن نأخذ في الحسبان جانب العلامة والدلالة، وليس الصوت وحده، أي الشكل والمضمون.

وللخروج من العلاقة الدائرية التي يمثلها تلازم الموضوع ووجهة تناوله، يذهب سوسير إلى أنه من الأحرى أن نتحدّث عن "وجهة النظر" بدل الحديث عن الموضوع. ويشرح سوسير عبارة وجهة النظر "**في الجوهر المزدوج للغة**" شرحاً ضافياً على عكس إشارته الموجزة جداً في "**الدروس**"، فيجعلها تتحدّد بحسب طبيعة الوقائع اللغوية نفسها، لتكون إما وصفيّة تزامنية أو تعاقبية أو غير

(33) F. de Saussure. *Cours de linguistique générale*, Edition critique préparée par Tullio De Mauro, Payot, Paris, 1972, p.23.

(34) دو سوسير، **محاضرات في الألسنيّة العامة**، ترجمة يوسف غازي، ومجيد النصر، الجزائر، المؤسسة الجزائرية للطباعة، 1986، ص14. ونحن نلجأ إلى إحدى الترجمات العربية كلما كان النص الذي نودّ الاستشهاد به أو التنصيص عليه واضحاً من الناحية اللغوية ويمكن فهمه دون صعوبة.

(35) F. de Saussure. *Ecrits de linguistique générale*, p.22.

ذلك. وبالنظر إلى طبيعة هويّة وحدات اللسان في ذاته، أي من خلال علاقات الدلالة والعلامة أو بالنظر إلى علاقة العلامات بينها، تتمثل وجهة النظر في أحد الأمور التالية[36]:

- وجهة نظر غير مختلفة عن وجهة النظر الفورية،
- وجهة نظر غير مختلفة عن وجهة النظر السيميولوجية (أو عن العلامة ـ الفكرة)
- وجهة نظر غير مختلفة عن وجهة نظر الإرادة اللاتاريخية،
- وجهة نظر غير مختلفة عن وجهة النظر الصرفية أو النحوية،
- وجهة نظر غير مختلفة عن وجهة نظر المتآلفة.

وتنفرد اللسانيّات، دون غيرها من العلوم بهذا الوضع المعقّد نسبياً، إذ تجد نفسها أمام موضوع لا تتضح لأول وهلة معالمه وسماته النوعية، وهو ما صاغه سوسير في سؤاله. "هل تجد اللسانيّات أمامها كموضوع أولي ومباشر، موضوعاً معيناً يكون عبارةً عن مجموعة من الأشياء المحسوسة مثلما هو الحال في الفيزياء والكيمياء وعلم النبات وعلم الفلك؟"[37] الجواب بالتأكيد هو النفي.

يبدأ سوسير التأسيس للسانيّات بتحديد الموضوع الذي سيعالج من وجهة نظر معينة، مميزاً بين مفهومين أساسيين هما مفهوما: المادة *matière* والموضوع *objet*[38]. إنّ مادة اللسانيّات ليست مقتصرةً على لغة النصوص القديمة، ولغة الأدب الراقي المكتوب مع ما يترتّب على ذلك من إهمال واضح للهجات الحديث اليومي، وإقصاء متعمّد لها، ولباقي أشكال التعبير البشري. إن المادة *matière* التي ينبغي أن ينصبّ عليها البحث اللغويّ بحسب سوسير، تشمل جميع مظاهر الكلام البشري، سواء أتعلق الأمر بكلام الشعوب المتوحّشة، أم الأمم المتحضّرة، وسواء أتعلق الأمر بلغة العصور الكلاسيكية، أم بلغة عصور الانحطاط، مع الاهتمام ليس باللغة الصحيحة فقط، أو باللغة الجميلة، وإنما

---

(36) F. de Saussure. *Ecrits de linguistique générale,* p.21.

(37) *Ibid,* p.19.

(38) F. de Saussure. *Cours de linguistique générale,* p.23.

بكل أشكال التعبير الإنساني[39]. وبهذا التمييز يكون سوسير قد جعل اللسانيّات تعانق الواقع اللغويّ؛ من خلال العناية بلغة الحياة اليومية؛ مَهْمَا كانت قيمتها الحضارية والتعبيرية، ودرجة أدبيتها ومستوى انتشارها.

أما الموضوع فهو اللسان في ذاته ومن أجل ذاته، وهو بالتالي لا يشكّل إلا جزءاً "معيناً" من هذه المادة وليس كل المادة. ويحضر المبدأ، الذي يقوم عليه تصور اللسان موضوعاً للسانيّات العامة، في صيغ وعبارات وتسميات مُتشابِهة في جلّ مدارس اللسانيّات البنيويّة، بل وحتى تلك التي لا تتبنّى بالضرورة تصور سوسير للسان على نحو ما نجد عند تشومسكي حين جعل من القدرة اللغوية *Compétence linguistique* موضوعاً للسانيّات[40].

ومن جهةٍ ثانية حدّد سوسير طبيعةَ المهمّة الجديدة الملقاة على عاتق اللساني في تناول هذا "الموضوع". فليس للساني أن يتناول الموضوع كيفما اتفق، ولكنّ مهمته تتحدّد فيما يلي:

- وصف الألسن التي يمكن الوصول إليها؛ ووضع تاريخ لها. وهذا يقتضي وضع تاريخ للأسر اللغوية؛ ومحاولة بناء اللسان الأم *la langue mère* لكل فصيلة لغوية؛
- البحث عن القوى الموجودة *forces en jeux* بصفة دائمة وشاملة في كل لسان مع استنتاج القوانين التي يمكن أن نرد إليها بعض المظاهر الخاصة في تاريخ لسان معين.
- تحديد اللسانيّات وتعريفها بنفسها[41].

يَتَبَدَّى مما سَبَقَ، أنّ دور اللساني لم يعد يتمثل في دراسة اللسان بشكل اعتباطي أو تأملي أو انطباعي. فلم يكن وصف اللسان في الدراسات النحوية وفي اللغويات المقارنة والتاريخية هدفاً في ذاته إلّا في حالات نادرة، بل كان لأجل غايات أخرى؛ منها ما هو ديني، وما هو أدبي، وما هو فلسفي، وما هو تربويّ

(39) *Ibid*, p.20.

(40) N. Chomsky. *Aspects de la théorie syntaxique*, Paris, Seuil, 1971/1965, p.14.

(41) F. de Saussure. *Cours de linguistique générale*, p.20.

وما هو جماليّ، إلى غير ذلك من الغايات والأهداف التي حاول اللغويون القدماء الوصول إليها من خلال دراستهم للغة[42].

واعتبر بنفينيست[43] أنّ المهام الثلاث التي أسندها سوسير إلى اللسانيّات متداخلة وغير مستقلة بعضها عن بعض، وتبقى المهمّة الثالثة في نظر بنفينيست هي الأهمّ، لأنها تتضمّن المهمّتين الأخريين. فهل يمكن للسانيّات أن تقوم بدراسة الألسن تزامنياً وتعاقبياً، وأن تنجز المهمة المتعلّقة باستنتاج القوى الموجودة فيها أي القوانين العامة التي تحكمها، إذا لم يتم تحديد السمات النوعية للسان ذاته واستكناه ما يميزه عن غيره؟

1.3.1. المأزق المنهجي

من البديهي أَنَّ اللسانيّات لا تتناول الظواهر اللغوية مجتمعة من جوانبها التاريخية، والاجتماعية والنفسية والحضارية. إنها تدرس اللسان -باعتباره وسيلة للتواصل- على أساس أنه نسقٌ من المستويات الصواتية والصرافية والتركيبية والدلالية. ويبتعد سوسير بذلك عن التعريفات التي تجعل من الوظيفة الأساس للسان تمثيلاً لبنية الفكر على نحو ما نجد في الأنحاء الفلسفية وأعمال اللغويين المقارنين والدراسات اللغوية المتأثرة بعلم النفس.

ومن المعروف أنّ اللسانيّات العامّة بوصفها علماً يدرس اللغة والألسن، لها علاقات وثيقة بمجالات معرفية وعلمية تتخذ هي الأخرى من اللغة موضوعاً لدراستها. وبَيْنَ هذه العلوم واللسانيّات نوعٌ من التقاطع والالتقاء في تبادل المعلومات والمعطيات، واستفادة بعضها من بعض. فليست اللسانيّات هي الإثنوغرافيا *Ethnographie* مثلاً ولا هي علم ما قبل التاريخ *Préhistoire*، وإن كانا يهتمان أيضاً باللسان البشري. لكنّ اللسان في هذين العلمين ليس أكثر من وثيقة. واللسانيّات هي غير الأنثروبولوجيا التي تهتمّ بدراسة الجنس البشري. وكون اللسان حدثاً اجتماعياً بامتياز، لا يَعْني بالضرورة إدماج اللسانيّات في علم

(42) انظر كتابنا: **في اللسانيّات العامة**، وخاصة الفصل المتعلّق باللغويات التوفيقية.

(43) Emile Benveniste. Sémiologie de la langue, in *problèmes de linguistique générale*, tome 2, Paris, Gallimard, 1974, p.46.

الاجتماع. أمّا علاقة اللسانيّات بعلم النفس فهي أشدّ تداخلاً وأكثر تعقيداً. فاللسان في جوهره ذو طبيعة نفسية وكل ما في اللغة مرتبطٌ بشكل أو بآخر بالفكر. فهل تكون اللسانيّات هي علم النفس الاجتماعي؟ بالتأكيد لا. وليست اللسانيّات هي الفيلولوجيا رغم العلاقة الوثيقة بينهما وما يمكن أن يقدّمه كل مجال منهما للآخر من معلومات هامة. إن ما يعالجه اللساني من مظاهر لغوية متنوعة يهمّ في جزء كبير منه كل مهتمّ بمعالجة النصوص من فيلولوجيين ومؤرّخين وغيرهم[44].

إنّ تصورات سوسير الواردة في دروسه محاولةٌ جادة وغير مسبوقة لتأسيس لسانيّات علمية مستقلّة عن المعارف والعلوم التي كانت تتجاذب البحث اللساني في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. لقد كان البحث اللساني في هذه الفترة منقسماً بين رؤيتين:

- رؤية اجتماعية تعتبر اللسان ظاهرةً اجتماعيةً ويجب تحديده على هذا الأساس، وهو ما يجعل من اللسانيّات بحثاً اجتماعياً بالدرجة الأولى. تزعّم هذه الرؤية أنطوان مِييه (1866-1936) *Antoine Meillet* وجوزيف فندريس (1875-1960) *Joseph Vendreys*[45].

- رؤية نفسية تعتبر أن لا مجال لتحقيق علمية الدرس اللساني إذا لم نأخذ بالحسبان أنّ اللسان ظاهرة نفسية، وبالتالي فمباحث اللسانيّات مباحث نفسية تندرج في إطار علاقة اللغة بالفكر ويؤطرها علم النفس. وقد دافع عن هذه الرؤية فان جينيكن (1877-1945) *Van Ginneken*[46] وسيشهاي (1870-1946) *Albert Sechehaye*[47].

---

(44) F. de Saussure. *Cours de linguistique générale*, p.21 بتصرف.

(45) Joseph Vendreyes. *Le langage introduction à l'histoire*, Paris, Albin Michel, 1964/1923.

انظر الترجمة العربية تحت عنوان: **اللغة**، ترجمة عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1950.

(46) Van Ginneken. *Principes de linguistique psychologique, essai de synthèse*, Paris, 1906.

(47) Albert Sechehaye. *Programme et méthode de la linguistique*, 1908.

يرفض سوسير النظرتين معاً بالنظر إلى طبيعة المجال اللغويّ وموضوعه؛ لأنهما لا تسمحان بتحديد اللسانيّات بكيفية تتناسب وموضوعها. فكلا الموقفين يُدْرِجُ اللسانيّات إما ضمن علم الاجتماع، وإما ضمن علم النفس، بينما يؤكّد سوسير على مبدإ استقلالية اللسانيّات. ولهذه الغاية أعاد سوسير صياغة التصوّرين الاجتماعي والنفسي بتحديد اللسان نفسه موضوع اللسانيّات، فأدمج هذين التصوّرين في إطار رؤية اجتماعية نفسية أو على الأصح في إطار علم النفس العام *Psychologie générale* أو علم النفس الاجتماعي *Psychologie sociale*. وينتهي سوسير في ضوء هذين التصوّرين إلى أن اللسانيّات جزءٌ من العلوم الاجتماعية، وعلم الاجتماع على وجه الخصوص بوصفه علم قوانين حياة الكائنات الواعية في المجتمع. غير أنّ علم الاجتماع يجب أن يُفْهَمَ من وجهة علم النفس، وبالتالي فإن علم النفس هو الذي يحدّد موضع اللسانيّات دون أن تنصهر فيه.

يشكّل هذا الموقف المُوَفِّق بين علمي الاجتماع والنفس خلفية نظر سوسير للوقائع اللغوية على النحو الذي سنفصل فيه القول لاحقاً، لاسيما علاقة اللسان بالكلام، أي الجمع التصوّري بين ما ينتمي إلى الظاهرة الاجتماعية (اللسان) وما هو ظاهرة فردية (الكلام). ولا يكمنُ جديد سوسير في الجمع الإيجابي بين تصورين متناقضين فحسب، بل في التأكيد على أنّ اللسان موضوع اللسانيّات هو شيء آخر غير الجانب الاجتماعي أو النفسي الذي يَسِمُه، بل اللسان "الكيان المجرد *entité abstraite*". وتتمثل المجازفة التي سلكها سوسير بحثاً عن **استقلالية اللسانيّات** ودفاعاً عنها، في كونه راهن على اللسانيّات كجزء من علم لم يوضَع بعد. فلم تكن السيميولوجيا في "**دروس**" سوسير سوى مشروع فكري أو برنامج عمل أو "رؤية مستقبلية" بتعبير إميل بنفينيست[48]. وتتحدّد مهمّة السيميولوجيا في جملة من المسائل منها:

- التعرف إلى المظاهر المشتركة بين مجموع الأنساق السيميولوجية،
- تحديد السمة المميزة للأنساق السيميولوجية عن باقي الأنساق.

(48) Emile Benveniste. Sémiologie de la langue, in *Problèmes de linguistique générale*, tome 2, Paris, Gallimard, 1974, p.50.

ومقابل هذا المشترك بين اللسانيّات والسيميولوجيا، فإن مهمّة اللساني هي اكتشاف ما يجعل من اللسان نسقاً متميزاً عن باقي الظواهر السيميولوجية.

والواقع أنّ اقتراح السيميولوجيا كحقل معرفيّ أوسع تندرج فيه اللسانيّات، محاولة فريدة ومتميزة تنمّ عن عبقرية منهجية للخروج باللسانيّات من مأزق التأسيس، والابتعاد بها عن التصوّرين الاجتماعي والنفسي. ولم يكن الرهان على السيميولوجيا عند سوسير مجرد صدفة عابرة، بل"شكلت السيميولوجيا اهتماماً قديماً عنده قبل السنوات التي كان يلقي فيها "**دروسه**" في اللسانيّات العامة. (...) إنها حاضرة من قبل "**في الجوهر المزدوج للغة**"[49]. بل استعملها سوسير قبل فترة الدروس ما بين 1907-1911، وتحديداً في الدراسة التي كتبها لتأبين اللسانيّ الأميركيّ ويليام ويتني *W.D.Whiteny* سنة 1894[50].

إنّ ما قام به سوسير، من قراءات لأفكار معاصريه وسابقيه من اللغويين سواء في تصوره لعلاقة اللسانيّات بالعلوم الاجتماعية، أم بالسيميولوجيا، أم بالعلوم الأخرى التي تتقاطع واللسانيّات، أم في تحديده الجديد لطبيعة اللسان، أم في غير ذلك من التأملات النظرية والمنهجية التي تقدمها **الدروس**، إنما يكشف بوضوح حرص الرجل على تأسيس إطار نظريّ متكامل يخصّ اللسانيّات وحدها؛ يضمن استقلاليتها، ويضبط علاقتها بغيرها من المعارف المجاورة، مِمّا يُسْهم في تحديد وضعها العلمي بشكل طبيعي يماثل ما حصل في علوم أخرى. وتُجَسِّد **الدروس** في الأخير وعي سوسير الكامل بالأسس الإبستيمولوجية التي أراد أن يبني عليها صرح لسانيّات علمية جديدة.

ولا يتأتى استقلال اللسانيّات منهجياً إلا بخلق إطار نظريّ عام يبدأ بتحديد الموضوع كما رأينا في بداية هذا الفصل، ويسمح بالانتقال في الوقت ذاته إلى رسم الخصائص النوعية للسانيّات، بصفتها دراسة علمية لموضوع اشتغلتْ به علوم أخرى ادَّعَتْ هي أيضاً عبر التاريخ المعرفي صدارتها في الانكباب عليه وأحقّيتها به، مثلما هو حال الدراسات اللغوية القديمة، من نحو وبلاغة، وفيلولوجيا، وتحليل للنصوص وفلسفة اللغة.

---

(49) ميشال أريفيه، **البحث عن فردينان دو سوسير**، ص67.

(50) F. de Saussure. *Ecrits de linguistique générale*, p.230.

ولَمّا كانت اللغة موضوعاً مشتركاً تتجاذبه معارفُ أخرى، فإنها كموضوع للسانيّات؛ لا تقدّم نفسها تلقائياً وبشكل مباشر. إنها لا تتجلى كموضوع معرفي مضبوط إلا حين تكون نتيجة عمل تصوري ومنهجي يحدّد سماتها النوعية وهويتها الخاصة، وفق وجهة نظر معينة. إن وجهة النظر هي التي تخلق الموضوع وليس العكس(51). ومن ثمة، تبدو اللغة لأول وهلة كتلةً غامضةً ومتراكمةً لا رابط بينها(52)، وبالتالي فإن كل تعامل معها بكيفية مبسّطة لا يراعي طبيعتها النوعية كموضوع للسانيات، يقود حتماً إلى عدم التمييز الدقيق بين اللسانيّات، وغيرها من المعارف التي تتخذ هي الأخرى من اللغة موضوعاً أو مادة لها. ونجد الإلحاح نفسه حول المطلب الإبستيمولوجي لتحديد موضوع اللسانيّات وتعقيد الظاهرة اللغوية أيضاً في مؤَلَّف سوسير "**في الجوهر المزدوج للغة**"(53).

وللخروج من هذا المأزق المنهجي؛ يتعين الانطلاقُ من أرضية محدّدة، تكشفُ الطبيعة التصوّرية لموضوع اللسانيّات. يتعلق الأمرُ **باللسان** كمقياس تحدد في ضوئه باقي التظاهرات والوقائع اللغوية(54). ويبدو اللسان دون غيره ضمن هذه الوقائع غير المتجانسة، قابلاً لتصنيف مستقلّ يسمح بأن يُنْطَلَق منه كأرضية تصورية مناسبة(55). بهذه الكيفية، ولهذه الاعتبارات المنهجية والتصوّرية، أصبح تحديد موضوع اللسانيّات قاعدة أساسية في الفكر اللساني الحديث عامة والبنيوي خاصة. يقول مارتينيه (1908-1999) *A. Martinet*: "إنَّهم لا يتصورون أنَّه لا يُدْرَكُ من اللسان إلا جانب واحد، يتغير بحسب الكيفية التي يتناولون بها هذا الموضوع. إنهم لا يدركون أنّ الخطوةَ الأولى للفكر العلمي الذي يستحقّ هذه الصفة، هي بالضبط تحديد وجهة النظر التي تُتناول من خلالها الوقائع القابلة للملاحظة. ولكي نمارس اللسانيّات، لا يتعلق الأمر بفحص وقائع اللسان دون

(51) F. de Saussure. *Cours de linguistique générale*, p.23.

(52) *Ibid*, p.23.

(53) F. de Saussure. *Ecrits de linguistique générale*, p.17-21.

(54) F. de Saussure. *Cours de linguistique générale*, p.23

(55) *Ibid*, p.25.

منهج محدّد، أو بحسب منهج مستخلص بالصدفة يختلف من باحث إلى آخر، وإنما بتحديد مبدإ قائم الذات أولاً وقبل كل شيء، وزاوية تحديد رؤية لسانيّة خالصة، تسمح بضمان الوَحْدة الداخلية للسانيّات من جهة، وتضمن من جهة ثانية، الاستقلال النهائي لهذا العلم ضمن علوم الإنسان الأخرى"(56).

4.1. تقسيم الظاهرة اللغوية

يقسم سوسير الظاهرة اللغوية إلى ثلاثة مكونات:

- اللغة *Langage*
- اللسان *Langue*
- الكلام *Parole*

1.4.1. اللغة

اللغة(57) بمعناها العام ظاهرةٌ طبيعية تميِّزُ الإنسان عن غيره من الكائنات، وتجعله قادراً على التعامل مع بني جنسه في المجتمع عن طريق نسق من الإشارات الصوتية. وهي أيضاً ظاهرة شمولية؛ بمعنى أنَّها توجد عند الأفراد في كلِّ زمان ومكان، بصرف النَّظر عن الاختلاف العرقي أو الاعتبارات الحضارية الخاصَّة. وتخرج اللُّغة بهذا المعنى عن نطاق التَّقعيد أو الضبط. وتشكِّل هذه الظَّاهرة في جوهرها نوعاً من الاستعداد عند الإنسان لاستعمال نسق صوتي ذي طبيعة خاصَّة داخل المجتمع. وتظهر آثار اللُّغة بهذا المعنى وتَتَبَلْوَرُ *se cristaliser* في نطاق المستوى الثاني من الظاهرة اللغوية وهو اللسان. فما اللِّسان؟ وما علاقته باللُّغة؟ يجيب سوسير قائلاً: "يختلف اللِّسان عن اللُّغة بالنسبة إلينا، إنَّ اللِّسان ليس سوى جزء مُحدَّد من اللُّغة كظاهرة عامة. إنَّه نتاج جماعي للُّغة ومجموعة من الاصطلاحات اللَّازمة الَّتي يُكَيِّفُها المجتمع ليسمح للأفراد المتكلِّمين بممارسة

(56) A. Martinet. *Au sujet des fondements d'une théorie linguistique*, Paris, Republications Paulet, 1968, p.20.

(57) F. de Saussure. *Cours de linguistique générale*, p.25 et suivantes.

هذه الملكة"[58]. ويُعْتَبَر الِّلسان صورة من الُّلغة وجزءاً أساسياً منها. إنَّ نظرة إلى الُّلغة في كلِّيتها *totalité* تبين أنَّها متعدِّدة الأشكال *multiformes* وغير متجانسة *Hétérogène* تندرج ضمن عدة مجالات فيزيائية وفيزيولوجية ونفسية. إنَّها تنتمي إلى المجال الجماعي وتتعلَّق بالجانب الفردي، وهي غير قابلة لأنْ تُصنَّف في أيِّ نوع من الوقائع البشرية، لأنَّنا لا نستطيع الكشف عن وحْدتها[59]. وحيثُما يَتِمُّ النَّظر إلى الظَّاهرة الُّلغوية، فإنَّها تقدِّم هوية مزدوجة، فهي:

أولاً: فيزيولوجية ونفسية في الوقت ذاته؛

ثانياً: باعتبارها ظاهرة نفسية، فهي ظاهرة إدراكية وتصورية في الوقت ذاته؛

ثالثاً: اقتضاؤها مؤسسة اجتماعية راهنة وتاريخية في الوقت نفسه[60].

أمَّا اللِّسان فهو شيء منتظم، له قواعده في مختلف المستويات (صِواتة/ صِرافَة/ تركيب/ دلالة). واللِّسان وحده يتمتَّع بخاصِّية قابلية أنْ يكون موضوعاً *Objectivable*. ويقوم اللِّسان على أرضية الُّلغة مع وجود طرف آخر هو المجتمع الذي يلعب دوراً أساسياً في تكييف الملكة الُّلغوية مع اللِّسان في المحيط الاجتماعي الَّذي يوجد فيه الإنسان. وإذا كانت الُّلغة قُدْرةً، أو موهبة، أو استعداداً بيولوجياً، أو تكوينياً، فإنَّ اللسانَ شيء مكتسب وليس ظاهرة غريزية مثل المشي. إنَّ وظيفة الُّلغة ليست طبيعية كما يظهر من النَّشاط الُّلغوي عند الأفراد المتكلِّمين. فجهازنا الصوتي لم يوضع أصلاً للكلام مثل ما وُضِعَتِ الأرجل للمشي[61]. والطَّبيعي في الُّلغة بمعناها العام، هو قدرة الإنسان بفضل استعداده الأولي على تكوين لسان خاصٍّ بالمحيط الاجتماعي الذي يعيش فيه؛ أيْ القدرة على استخدام الملكة وتحويلها إلى نسق من العلامات *système de*

---

(58) F. de Saussure. *Cours de linguistique générale*, p.25

(59) *Ibid*, p.25

(60) Sémir Badir. *Saussure : langue et représentation*, Paris, L'Harmattan, 2001, p.16.

(61) يشير سوسير إلى موقف اللساني الأميركي ويتني *Whitney* من هذه المسألة. يرى ويتني أن استعمالنا للجهاز الصوتي تمَّ بمحض الصدفة لتسهيل الأمور على الإنسان ليس غير. (سوسير: *Cours de linguistique générale*، ص26).

signes المُعبِّرة عن أفكار متميزة[62] داخل المجتمع، حيث يضطر الإنسان لأسباب اجتماعية وغيرها، إلى نقل أفكاره لغيره وتبادل خبراته وتجاربه، أو لنقل بكُلِّ بساطة إنَّ اللِّسان أداةُ تواصل بين أفراد المجتمع.

وبالإضافة إلى التمييز بين اللُّغة واللِّسان، ميَّز سوسير بين اللِّسان والكلام وهو التَّمييز الَّذي يكتسي أهمّية منهجية قصوى، لأنَّه سمح بتحديد موضوع اللسانيّات تحديداً دقيقاً. إنَّ اللِّسان نسقٌ لغوي قائم بذاته، وخاصٌّ بكلِّ مجتمع على حدة، نقول "اللِّسان العربي" و"اللِّسان الفرنسي" و"اللِّسان الألماني" الخ. واللِّسان في نَظر سوسير مجموعة من العلامات الَّتي تتمُّ المواضعة حولها ليستعملها أفراد المجتمع قصد التَّعبير عن حاجاتهم اليومية العامَّة والخاصَّة. إن اللسان مؤسّسة اجتماعية، وهو نتاج ما هو جمعي *Collectif* ولا دخل فيه للفرد المتكلِّم الذي لا يَخْلُقُهُ ولا يُغَيِّرُهُ، وإنَّما يأخذه قسراً عن الجماعة الَّتي يعيش فيها. يقول سوسير: "ليس اللِّسان من وظائف الفرد المتكلِّم، بل هو أثر يسجِّله بكيفية سلبية"[63]. يتعلَّم الفرد لسان مجتمعه بطريقة سلبية ثم يتكلَّمه دون أنْ يكون له دخل في اختياره. إنه يُفْرَضُ عليه اجتماعياً، فهو يتلقاه دون تدخُّل كبير أو جهد يذكر.

يصف سوسير وضع اللِّسان داخل المجموعة اللغوية كما يلي:

- إنه كنز مستودع داخل عقول الأفراد الَّذين يتكلَّمون لساناً واحداً. ويظهر هذا الكنز باستعمال الأفراد له.
- إنَّه موجود عند أفراد المجموعة اللُّغوية الواحدة على نحو بصمات *empreintes* موضوعة في أذهانهم.
- إنَّه "موجود على شكل مجموعة من الصُّور الكلامية المختزنة عند جميع الأفراد"[64].

ولا يملك فرد متكلِّم دون غيره هذا "الكنز" وهذه "البصمات" و"الصور الكلاميّة"، وإنَّما هي ملك مستعملي اللسان قاطبة. إنَّ اللسان شبيه بقاموس

(62) F. de Saussure. *Cours de linguistique générale*, p.26

(63) *Ibid*, p.30, p.31 et p.38.

(64) *Ibid*, p.30.

يتقاسم الأفراد نُسَخاً متطابقة منه مع بقاء المضمون شيئاً مشتركاً بين جميع الذين يملكون نسخة من هذا القاموس، الذي يوجد في الوقت ذاته خارج إرادتهم.

وبخلاف اللسان، فإن الكلام نشاط لغوي فردي يتمثل في تنفيذ قواعد نسق لسان معين. وبعبارة أخرى، فإن أداء المتكلم للسان المشترك وإنجازه له، هو ما يسمّيه سوسير كلاماً. فالكلام قائم على إرادة الفرد المتكلم ومرتبط بذكائه؛ لأنه يقوم بتركيبات وتوليفات يستخدمها وفق ما يوفّره له اللسان من إمكانات التَّعبير عن الأفكار والأغراض الشخصية. ولا يوجد الكلام بالطريقة نفسها عند المتكلمين بلسان معيّن، وإنَّما يختلف من متكلّم لآخر، فلكل واحد منهم طريقته الخاصة في أداء قواعد اللسان المشترك. قد يشعر المرء وهو يتكلم بنوع من الحرية لأنَّ الأمر مرتبط بإرادة كل واحد منا ورغبته، فنحن نتكلَّم متى شئنا. ولا يتحكّم المجتمع في عملية الكلام الفردية، لأنه يَمْلِكُ فقط سلطة مراقبة مَا هو عام ومشترك من قواعد النسق اللغويّ بين الأفراد. إنّ اللسان ظاهرة اجتماعية قسرية وملزمة للجميع، وكل خروج عن النسق اللغويّ العام يُعَرِّضُ المتكلم لجملة من الصعوبات المتعلقة باندماجه داخل البنية الاجتماعية العامة ذاتها. فالجنون والاختلال العقلي وانفصام الشخصية والسيلان اللغويّ وغيرها بالنسبة إلى المجتمع وللطبيب المعالج، أمراض نفسية وعقلية تُدْرَكُ في المرحلة الأولى بواسطة آثارها اللغوية وبالأهمية نفسها التي تُدْرَكُ بها الأعراضُ المرضية الأخرى. وفي كل الثقافات يكون الإحساس بالانزياح والخروج عن النموذج اللغويّ المشترك (المألوف) بدايةً للتمييز بين العادي والمرضي *Pathologique* عند بعض أفراد المجتمع. ويُمْكِنُ أن نَنْظُرَ إلى الإبداع في فنون القول عموماً، باعتباره قُدرة لغويةً تثير الانتباه بحكم تأثيرها القوي وقدرتها على تجاوز مستوى اللسان المألوف والمُشْتَرَكِ بين عامة الناس.

ويُفْضِي التمييز بين اللسان والكلام، بحسب سوسير إلى جملة من السمات النوعية الخاصة بهذا المكون أو ذاك من الظاهرة اللغوية. والتمييز بين اللسان والكلام تمييزٌ بين الجماعي والفردي. فاللسان شيء جماعيّ والكلام شيء فرديّ، وهو كذلك تمييز بين ما هو جوهري وما هو ثانوي وعرضي: فاللسان جوهري والكلام ثانوي عرضي. إنَّ دراسة اللغة كظاهرة عامة تشمل في الوقت ذاته جانبين متميزين:

* أحدهما أساسي موضوعه اللسان *la langue* الذي هو اجتماعي في جوهره ومستقل عن الفرد.
* وثانيهما ثانوي موضوعه الجانب الفردي للسان هو الكلام *la parole*(65).

1.4.2. الجانب الاجتماعي للسان

ما طبيعة ما هو اجتماعي في اللسان عند سوسير؟ وعَلامَ تحيل العبارات والمفاهيم الواردة في **الدروس** المرتبطة بمجال علم الاجتماع؟ هل تنتمي إلى مرجعية نظرية محدّدة في علم الاجتماع؟ هل اطلع سوسير على النظرية الاجتماعية عند دوركهايم الذي كان معاصراً له؟

يؤكّد دوروزيفسكي (1899-1976) *W. Doroszewski* أنّ سوسير اطلع على نظريتي عصره في علم الاجتماع واللتين كانتا موضوع منافسة قوية بين إميل دوركهايم (1857-1917) *Emile Durkheim* وتارد *Gabriel Tarde* (1843-1904). ويشير دوروزيفسكي إلى "أنه يعرف من مصادر مؤكدة (لم يذكرها) أن سوسير كان يتابع باهتمام عميق الجدل الفلسفي الذي كان يدور بين دوركهايم وتارد" وأن تقسيمه الظاهرة اللغوية إلى لسان وكلام هو موقف وسط يأخذ من دوركهايم جانباً هو اللسان كحدث اجتماعي، ومن طارد جانباً آخر هو الكلام كأحداث فردية. "إن مجموع التعاليم السوسيرية تظهر كمحاولة غريبة قام بها لسانيّ عبقريّ للمصالحة بين نظرتي دوركهايم وتارد المتقابلتين"(66). أمّا فاشابوغ *Washabaugh* فينفي هذا الرأي موضحاً بأنّه لا شيء في **الدروس** يدلّ على أنّ سوسير اطّلع على تعاليم دوركهايم(67). ويؤيد المذهب نفسه كونراد كورنر *Konrad Koerner* مشدِّداً القول على أنّ سوسير لم يقرأ مقدِّمة دوركهايم

---

(65) F. de Saussure. *Cours de linguistique générale*, p.14.

(66) W. Doroszewski. Quelques remarques sur la sociologie et de la linguistique: Emile Durkheim et F. de Saussure, in Jean Claude Parienté: *Essais sur le langage*, Paris, Minuit, 1969/1933, p.108.

(67) William Washabaugh. «Saussure; Durkheim and socilogical theory», in *Archivum Linguisticum*, Numéro special, 5/1974, p.25-34.

للطبعة الثانية من كتابه **قواعد المنهج الاجتماعي** (1894 *Les règles de la méthode sociologique*) الَّتي شرح فيها تصوّره لطبيعة الحدث الاجتماعي *fait social*، وأنه لم يشر لا من بعيد ولا من قريب إلى مفهوم القسر *coercition* (أي إن الظاهرة الاجتماعية قسرية بطبيعتها) وهو المفهوم الذي عرض له صديقه مِيِيه في العديد من أبحاثه بتأثير من دوركهايم. ويترتّب عن هذا المفهوم بالنسبة إلى الظاهرة اللغوية من منظور دوركهايم الاستعمال القسري الجماعي للسان *contrainte de l'usage collectif* الذي يمنع الفرد المتكلِّم من تغيير اللسان. ويفضّل سوسير استعمال عبارة "الطابع الإلزامي للسان *le caractère impératif*، بينما كان سوسير في أَمَسِّ الحاجة إلى هذه المفاهيم المحورية في علم الاجتماع لتبرير الاختلافات الحاصلة بين طرفي الظاهرة اللغوية : لسان/كلام، بل لا يبدو أي أثر للتصور الاجتماعي الدوركهايمي في التشبيهات التي حدّد فيها سوسير هوية اللسان بوصفه شفرة *code* وليس كظاهرة اجتماعية كما كان منتظراً(68).

ويأتي هذ الجدل على خلفية علاقة سوسير بعلم اجتماع عصره ليؤكّد من خلال قراءة في مضامين **دروس** سوسير مقارنةً بنصوص بعض معاصريه، ولاسيما تلميذه وصديقه أنطوان مِيِيه ـ تلك الملاحظات التي أطلقها بشكل تلقائي بعض الدارسين ودونما استناد إلى نصوص محدّدة بشأن "سطحية طبيعة اللسان الاجتماعية" في تصور سوسير. لقد أشار لويس جان كالفيه إلى أن سوسير لم يكن يعرف إلّا القليل عن علم النفس وعلم الاجتماع، علم النفس كما كان يستشفّ من مقالات جان بورغيه *Jean Bourget*، ومن علم الاجتماع الدوركهايمي الذي كان صديقه مِيِيه على اطلاع جيد به. ولا يظهر أن سوسير قرأ كارل ماركس الذي كانت كتبه مثل "**رأس المال**" متاحة في ذلك العصر. كما لا يمكنه طبعاً أنْ يكون قد عرف سيغموند فرويد المعاصر له وكان مثله يُعِدُّ نظريته(69). وقد انعكس موقف سوسير من الظواهر الاجتماعية على المنهجية البنيويّة المتَّبعة في اللسانيّات بحيث تم استبعاد ما يمتّ إلى الجوانب الاجتماعية

(68) Konrad Koerner. Meillet, Saussure et la linguistique générale, dans *Histoire Epistémologie et Langage*, vol 10/II, Presses Universitaires de Lille, 1988, p. 69.

(69) Louis Jean Calvet. *Pour ou contre Saussure*, p.63.

عن التحليل، والاكتفاء بالجانب الصوري. فاللسان نسق من العلامات القائمة ليس على الهوية المادية أو الاجتماعية، وإنما على القيمة التي تكتسبها في إطار علاقات الاختلاف الخالص بقيم علامات أخرى.

1.4.3. بين اللسان والكلام

وعلى الرغم مِمّا يبدو في ثنائية سوسير من استقلال شكلي بين اللسان والكلام، فإن العلاقة بينهما علاقة تلازم. فاللسان ضروريّ ليكون الكلام، والكلام بدوره لازم ليكون اللسان. وكما أنّ اللسان ضروريّ لكي يحدث الكلام آثاره ويكون ملموساً، فإن الكلام ضروري لانتظام اللسان[70]. ولم يكتف سوسير بالإشارة إلى الارتباط المتبادل بين اللسان والكلام، بل أضاف إلى ذلك شيئاً بالغ الأهمّية يتمثل في أن الكلام أسبق تاريخياً من اللسان وضروريّ لتفسير ما يطرأ على اللسان من تغيرات وتطورات. فكل ما هو تطور ودينامية في اللسان يحصل بفضل الكلام. وفي كل الألسنة، نجد أن كثيراً من التعبيرات اللغوية الجديدة، والاصطلاحات الفردية يكون مصدرها النشاط اللغويّ الفردي، ثم تتبناها المجموعة اللغوية[71]. ومعنى هذا في تصور سوسير "أن أي تجديد لغوي هو قبل كل شيء تجديد فردي". وينتهي سوسير إلى نتيجة حاسمة، تتلخّص في أن "الكلام هو الذي يطور اللسان وينميه"[72].

وبالنظر إلى طبيعة الفروق والخصائص المميزة لِلّسان والكلام، فمن الممكن في تصوّر سوسير أن نضع لكل من اللسان والكلام علماً خاصاً به. فمن المحتمل وجود علمين متميزين: علم خاصّ باللسان وعلم خاصّ بالكلام يُطلِق عليهما سوسير "لسانيّات اللسان" *linguistique de la langue* "ولسانيّات الكلام"[73] "*linguistique de la parole*".

ويتضح أن نصوص "**الدروس**" توحي بتراتبية بين اللسانيتين أصبحت مُسَلَّمة

(70) F. de Saussure. *Cours de linguistique générale*, p.37.

(71) *Ibid*, p.37.

(72) *Ibid*, p.37.

(73) *Ibid*, p.36.

في اللسانيّات البنيويّة تتمثل في العناية بلسانيّات اللسان وليس بلسانيّات الكلام. ويبدو أن نشرة بالي وزميله كانت وراء ترسيخ هذه المُسَلَّمة، وبالتالي كانت مبرّراً للعديد من الانتقادات التي وجّهت لسوسير ولاسيما من قبل أنصار اللسانيّات الخطابية والنَّصِّيّة التي تأخذ على اللسانيّات البنيويّة وعلى تعاليم سوسير على وجه التحديد استبعاد النشاط الكلامي من دائرة الاهتمام. وينبه أريفيه إلى ضرورة تلافي الخطإ "المتمثل في القول بأن سوسير أبعد من حقل اللسانيّات كل ما يستخدمه المتكلم من راموز اللغة *code*. إنه خطأ يتكرر"[74].

عَلامَ يبني أريفيه هذا التنبيه في مسعاه إلى تبرئة ذمّة سوسير من خطإ ألصق به وعلى الرغم من أنه لم يرتكبه؟ يحمّل أريفيه مسؤولية الخطإ لناشريْ **الدروس**. إن صفة "ثانوي" التي ألصقت بالكلام ـ في تمييزه عن اللسان الأساس والأولي ـ هي من زيادة الناشرين لم يسمعها من سوسير أي من مستمعيه"[75]. أكثر من هذا، فإن "**الدروس**" لم تتضمّن أية إشارة إلى ما سمعه أحدُ تلامذة سوسير وهو قسطنطين وسجله، وهو يخلو من أي شكل من أشكال التمييز الصارم بين نوعي اللسانيّات، لسانيّات اللسان ولسانيّات الكلام، وبالتالي فإنّ هذه التحفظات التي قدّمت بشأن لسانيّات الكلام مصدرها الناشرون. لنتمعّن في هذا النصّ الذي أورده أريفيه من دفاتر قسطنطين" : "قلنا إن دراسة اللغة هي ما نتابعه، وهذا لا يعني أنه لا ينبغي في لسانيّات اللسان أن نلقي نظرة على لسانيّات الكلام. (ربما يكون ذلك مفيداً، لكنه افتراض من مجال مجاور)"[76]. لا جدال في أن هذا الإقرار قد يغير كثيراً من الأحكام بشأن المقولات الأساس في اللسانيّات البنيويّة" . فلم يعد هناك تحفّظ أو حتى تراتبية بين فرعي اللسانيّات. ثمة ببساطة التمييز بين مجالين متجاورين، والقرار باعتماد أحدهما دون الآخر. وليس هناك ذكر للأسباب الموجبة للاقتصار على مجال دون آخر. هل من المغامرة في شيء ألا نرى في ذلك إلا تأثيراً للراهنية الإبستيمولوجية؟[77]" .

(74) ميشال أريفيه، **البحث عن فردينان دو سوسير**، ص73.

(75) المرجع السابق، ص74 هامش رقم 17.

(76) المرجع السابق، ص74. ونشير إلى أن مصطلح اللغة في هذا النص المقتبس يقابل عندنا مصطلح اللسان.

(77) المرجع السابق، ص74.

هكذا إذن تصبح نصوص **الدروس** في نشرتها الأولى مصدر انزلاق خطير حدد مصير اللسانيّات لمدة غير قصيرة. لكن ما مَرَدُّ هذا اللبس؟ "يجيب أريفيه إنه مفهوم الكلام الذي أسيء فهمه من قبل الناشرين"[78]. وفي ارتباط وثيق بالتراتبية الوهمية بين فرعي اللسانيّات تُخْتَمُ الدروس بالعبارة الشهيرة: **إن الموضوع الوحيد والحقيقي للسانيات هو اللسان في ذاته، ومن أجل ذاته**[79]. ولهذه العبارة قيمة إبستيمولوجية بالغةُ الأهمّية، لأنها حدَّدَتْ بالضبط الإطار النظري والمنهجي الخاص بمجال اللسانيّات؛ ومكّنتها من الاستقلال بنفسها عن غيرها من العلوم والدراسات اللغوية. إن اللسانيّات التي أقام سوسير صرحها، تتخذ من اللسان موضوعاً وحيداً. ويُجمع عدد من المهتمّين باللسانيّات السوسيرية أن العبارة السابقة - التي أصبحت شعاراً للسانيّات هي من وضع الناشرين، و"ليس في المصادر المخطوطة ما يسمح بتأكيد أن هذه العبارة قالها سوسير بهذه الصيغة أو بصيغة أخرى تقاربها"[80]، بل إنّ سيمون بوكيه - وهو اليوم واحد من أبرز محقّقي نصوص سوسير - يؤكّد أن "الجملة الأخيرة منحولة تماماً"[81]. ويبدو أن الصيغة القريبة جداً للعبارة التي ختمت بها "دروس" سوسير وردت في الأصل عند فرانز بوب[82]. إنه مثال ضمن أمثلة عديدة تُجسّد بعض مظاهر الاختلال في نصوص "**الدروس**".

وأياً كان مصدر العبارة المذكورة، فإنها تردّدت على ألسنة وأقلام كل اللسانيين بعد سوسير راسمة بخط بارز حدود البحث اللساني، وموجّهة مراميه. وقد كان من النتائج المباشرة لهذا التحديد، عدم عناية اللسانيّات البنيويّة في أوروبا بالمكوّنات

---

(78) المرجع السابق، ص74 هامش رقم 20.

(79) F. de Saussure. *Cours de linguistique générale*, p.317.

(80) ميشال أريفيه، **البحث عن فردينان دو سوسير**، مرجع سابق، ص37.

(81) Simon Bouquet. *Après un siècle, les manuscrits de Saussure reviennent bouleverser la linguistique Texto!* Juin 2005 [en ligne]. Disponible sur: http://www.revue-texto. net/ Saussure/ Sur_ Saussure/Bouquet_ Apres.html. (Consultée le 25/01/2010...).

(82) Franz Bopp. *Grammaire comparée des langues indo-européennes comprenant, le sanscrit, le zend l'arménien, le grec, le latin, le lithuanien, l'ancien slave, le gothique et I'allemand*, p.3, Paris, Impr. impériale et impr. nationale, 1866-1874 Nouvelle. Edition. 1885-1889, 5 vol. trad. fr. par Michel Bréal.

الخارجية للألسن مثل، الوقائع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. وتولد عن هذا الحصر الذي قام به الناشران أن "المنهجية البنيويّة تعدّ بمثابة رفض للسانيّات الخارجية وإرادة تجريد اللسان من الممارسة الاجتماعية التي تتجلى في محاولة اتخاذها موضوعاً خارجاً عن المجتمع"[83]. ويذهب بوكيه أبعد من غيره في استخلاص آثار حصيلة انزلاقات نصوص **الدروس** على اللسانيّات. قائلاً: "لقد اعتقدنا بعد أن قرأنا الجملة الأخيرة من **الدروس** وهي منحولة تماماً، أن سوسير ينظر إلى اللسانيّات بوصفها علم اللغة المأخوذ لذاته ومن أجل ذاته، وبعبارة أخرى بوصفها قواعد مجردة من الماديات، في حين أنّ الأمر معكوسٌ تماماً. كل الجانب الاجتماعي والبينشخصي ذاتي (أي حقل الخطاب، وهو مصطلح جوهري عند سوسير حظر عليه من قبل من نسمّيهم الناشرين) لا يمكن فصله كما يقول سوسير عن لسانيّات اللغة. إنه برنامج واسع يقلب الفكرة الشائعة عند عدد لا بأس به من اللسانيّين المعاصرين حول لسانيّات معزولة في برجها العاجي"[84].

5.1. حدودُ الموضوع في اللسانيّات البنيويّة

على الرغم من تمييز سوسير المنهجي بين "لسانيّات اللسان" و"لسانيّات الكلام"، لم يعرف عنه أنه تحدّث عن **لسانيّات الكلام**. وإذا كان سوسير يؤكّد فعلاً على إمكانية قيام علم لسانيات خاص بالكلام، فلماذا لم يهتمّ به، على الرغم من العلاقة المتلازمة بين الكلام واللسان، على الأقل من الناحية النظرية؟ لماذا تم إقصاء الكلام رغم الأهمّية التي يكتسبها في النشاط اللغويّ عند الإنسان؟ لقد قدّمت بعض الدراسات التي صدرت منذ مطلع القرن الجديد بعض عناصر الإجابة. وقد بسطنا بإيجاز شديد رأي بعض الأخصائيين حول هذه المسألة التي لم تبح بعد بكامل أسرارها لكل المهتمّين بسوسير.

ومن الواضح جداً؛ أن لا أحد يشكّ في أهمّية دراسة الكلام؛ ودوره الجوهري في النشاط اللغويّ عند الأفراد المتكلمين. ودراسة الكلام هي أولاً

---

(83) Louis-Jean Calvet. *Pour et contre Saussure*, p.61.

(84) Simon Bouquet. *Après un siècle, les manuscrits de Saussure reviennent bouleverser la linguistique*, *Texto!* juin 2005.

دراسة تساعدنا على الفهم العميق لآليات تنفيذ للسان وكيفية اشتغاله بشكل عادي وطبيعي. إلا أنّ دور الكلام وقيمته؛ ينبغي أن لا يظلا محصورين في تبعيته للسان وخضوعه المطلق له، على الرغم من الروابط المتينة نظرياً وعملياً بين هذين الجانبين الأساسيّين في النشاط اللغويّ البشري. إن إهمال الكلام وإقصاءه من حَيِّز الدراسة اللسانيّة هو في الواقع إهمال لجوانب هامة وضرورية في كل عملية تواصل عند الإنسان.

ويرى شارل بالي (1865-1947) *Charles Bally* أنّ سوسير بالغ في إعطاء صبغة ذهنية للسان بجعله نتيجة الحكمة الجمعية. ويلحّ هو على فكرة اللغة العاطفية *langage affectif* كما يسمّيها، وفي رأيه أنَّ هناك صراعاً دائماً بين كلام الأفراد وبين النسق اللغويّ الذي لا يمكن أنْ يُرضيَ الجميع. فاللغة المنظمة العادية الثقافية تكفي الرغبة في نقل الأفكار وفهمها، لكنّ الكلام من ناحيةٍ أخرى، يقف في خدمة الحياة العملية، فأما ما يعبّر الكلام عنه فهو الإحساس والرغبة والعمل. وإنتاج الكلام عاطفيّ، في الغالب ذاتي. وفي هذه الحرب الحصارية بين الكلام واللسان ينجح الكلام دائماً في إدخال بعض جنوده القلعة المحاصرة، هذه الجنود هي الكلمات أو الصيغ المتحدثة بالعاطفة[85]. فاللسان وحده يكفي إلى حدّ معين لنقل الأفكار والتجارب المعيشة من قبل المتكلّمين، لكنّ الكلام من ناحية ثانية، يستعمل في الحالات الخاصة لدى كل فرد على حدة للتعبير عن مواقف ليست بالضرورة جمعية أو مشتركة داخل الثقافة الاجتماعية الواحدة، بسبب ما يمكن أن يشعر به من أحاسيس وما يعبِّر عنه من رغبات في لحظات العمل أو الانفعال. إنّ إنتاج الكلام عملية تعبيرية بامتياز.

ومع تقدّم البحث اللساني في القرن العشرين تغيرت نظرةُ اللسانيين إلى الكلام ولم يعد ينظر إليه على أنه مجال غير متجانس وخاص بما هو فرديّ لا يمكن التحكّمُ فيه أو التنبؤ به. لم يعد الكلام "ذلك العنصر المرتبط بالفاعل النفسي المتحرك على الدوام، الخاص بكل فرد وغير القابل للإدراك"[86]. إنّ آليات الكلام أصبحت

---

(85) تمام حسان، **مناهج البحث في اللغة**، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1974/ 1957، ص37؛ وكذلك كتاب شارل بالي: *Le langage et la vie*, p.23-24.

(86) *Langue Française*, Paris, Didier-Larousse, N 9 - Février 1972, p.12.

خاضعة للتقعيد ـ ولو بدرجة أقلّ من اللسان ـ لاسيما ما يتعلّق ببعض القواعد النوعية المندرجة في ما أصبح يعرف بعملية التلفظ *Enonciation*[(87)].

ومعلوم أنّ بعض رواد نظرية التلفظ حاولوا الكشف عن مظاهر تدخل الفرد المتكلم الدائم والمستمرّ في إنتاج الكلام أو الخطاب على نحو ما نجد في أعمال بالي وجاكبسون (1886-1982) *Jakobson* وبنفينيست (1902-1976) *Benveniste* وفاينرايخ (1926-1967) *Weinreich* وكوليولي (1924-) *Culioli* وغيرهم. ويسعى تحليل آليات الكلام عند المتكلّم إلى الكشف المزدوج عن المتكلم والسامع على نحو ما تكشف عنه دراسات جاكبسون عن الواصلات *Shifters* وبنفينيست حول الضمائر[(88)]. وتمثل أعمالُ هؤلاء اللسانيين مرحلةً لسانيّةً جديدةً تجاوزت حدود البحث في آليات اللسان الضمنية إلى البحث في آليات الكلام وما يصاحبه من إنجازات لغوية. ويعكس هذا الانتقال تحولاً هاماً في الدرس اللساني الحديث نحو المزيد من توسيع حدود موضوعه. وقد ساهمت مدرسة جنيف ولاسيما بالي وسيشهاي في التأكيد على أهمية الكلام في النشاط اللغويّ كما سيتبين للقارئ في الفصل القادم.

وكان لثنائية لسان-كلام، تأثير قويّ في اللسانيّات البنيويّة الأوروبية. فهي أساس التقسيم والتمييز الذي وضعه تروبتسكوي (1890-1938) بين الأصواتية والصِّوَاتة. وطوَّر اللساني الدانماركي لويس هلمسليف (1899-1965) أيضاً تصوّراً أكثر تجريداً ودقةً انطلاقاً من ثنائية لسان/كلام[(89)]. ومعلوم أن تشومسكي وضع في إطار النحو التوليدي ثنائية قدرة-إنجاز وهي قريبة جداً من ثنائية سوسير من عدة جوانب.

---

(87) انظر مزيداً من التوضيحات المتعلقة بهذا التصوّر في الفصل الثاني من الباب الأول من هذا الكتاب.

(88) E. Benveniste. Nature des pronoms, in *Problèmes de Linguistique générale, tome* 1.
يتعلق مفهوم *Shifters* الذي وضعه جاكبسون بكل العناصر اللغوية التي لا تملك في ذاتها دلالة محدّدة مثل الضمائر أنا/أنت/نحن/الخ التي تحيل على كل متكلّم ومخاطب. انظر:
R. Jakobson. *Essais de linguistique générale*, tome 1, Paris, Minuit, 1963.

(89) حول آراء وتصورات هلمسليف انظر الفصل الرابع من الباب الثاني.

ويتفق اللسانيون البنيويون على القول بأن موضوع اللسانيّات الوحيد هو اللسان وليس شيئاً آخر. والاختلافات الحاصلة تتعلق، إما بطبيعة اللسان، وإما بتغيير المصطلحية المتعلقة بتسمية اللسان مثل شفرة *Code*/ خطاطة *Schéma* أو المعيار *norme* مثلما هو الشأن عند هلمسليف وتسمية كلام بخطاب *discours* عند العديد من اللسانيين أمثال غوستاف غيوم (1883-1960) Gustave Guillaume وإميل بنفينيست (1902-1976).

ولا نجد في اللسانيّات الوصفيّة الأميركية أثراً واضحاً لأفكار سوسير وتصوّراته حول ثنائية لسان/ كلام ولمكوّنات العلامة اللّغوية من دال ومدلول. وتعتبر التوزيعية أن موضوع الوصف اللساني الأساس هو الملفوظ *énoncé* المُنْجَز فعلاً وليس شيئاً آخر. وكان الجانبُ النفسي البارز في تصوّر إشكالية العلامة اللغوية وفي غيرها من التصوّرات عند سوسير سبباً رئيساً جعل اللسانيين في أميركا ينعتون سوسير بالذهني *mentaliste* في إشارة إلى تصوّره لقضايا اللغة من وجهة نفسية تقوم على تحديد الوحدات اللسانيّة انطلاقاً من دلالاتها، وهو ما يفترض نوعاً من التوازي بين تنظيم اللسان وتنظيم الفكر[90].

إن ما قام به سوسير تطوير نوعي لأفكار فرانس بوب (1791-1867) Franz Bopp وشلايشر (1821-1868) A. Schleicher فيما يتعلق باستقلالية اللسانيّات وعلميتها من حيث تحديد الموضوع والمنهج والغاية من الدراسة. ومع اللسانيّات التي دشّنها سوسير، أصبح ينظر إلى اللسان على أنه "موضوع" معرفة مستقلة قابلة للدراسة المنتظمة، كوقائع معقّدة بعكس ما يبدو عليه اللسان في وجوده المادي الملموس. وأصبح هدف التحليل الوقوف على العلاقات والوظائف التي تجمع بين الوحدات المكوّنة للسان في مختلف المستويات، بعيداً عن العوامل الخارجية، أيّاً كان نوعها، وليس بحسب الطبيعة المادية أو الخصائص التاريخية الفردية والمتغيرة.

(90) M. Fillipi. *Introduction à la linguistique et aux sciences des langages*, Ellipses, Paris, 1995, p.91.

6.1. نظرية العلامة اللغوية

هيمن على الدراسات اللغوية والفلسفية القديمة حول العلامة اللغوية تصورٌ منطقي-فلسفي، يُعدّ أرسطو رائده، وتمّ تَبَنّيه من قبل فلاسفة القرون الوسطى وما بعدها. ومفاد هذا التصوّر، أنّ اللسان لا يتعدى كونه ثبتاً من الأسماء *Nomenclature* التي تقابل عدداً مماثلاً من الأشياء في العالم الخارجي. ويعرف هذا التصوّر بالاسموية *Nominalisme*.

يرفض سوسير التصوّر الاسموي للسان لعدة أسباب منها:

- تفترض الاسموية وجود أفكار قبلية جاهزة سابقة في الوجود على الكلمات، أي إن الفكر يوجد باستقلال عن اللسان. لو كان هذا الأمر صحيحاً، لَمَا اختلفت الألسن في استعمال الألوان والأزمنة والصفات وتحديد المجالات المتعلقة برؤية العالم الخارجي وإدراكه لغوياً.
- إنّ اللسان لا يتكون من أسماء فقط، ففي كل لسان، ثمة مقولات تركيبية أخرى لا تقلّ أهميةً عن الأسماء، ولها نفس الدور والوظيفة، مثل: الفعل والصفة والحرف وباقي الأدوات.
- يختلف إدراكُ الأشياء الموجودة في العالم الخارجي وتصورها لغوياً من لسان إلى لسان، بحسب ما يتيحه كل لسان لمستعمليه من إمكانات لغوية، تسمح بإدراك العالم الخارجي والوعي به، ولا يمكن تصور الأشياء تصوراً كلياً أي كمفاهيم عامة وكلّية تصدق بالنسبة إلى جميع الألسن الطبيعية، بل من خلال كل لسان على حدة[91].
- يفهم من الاسموية أن تعلم الألسن الأجنبية (أو ترجمتها)، يمكن أن يختزل في مقابلة ما لدينا من أسماء في اللسان الأصل بأسماء من اللسان الهدف الذي نريد تعلمه (أو ترجمته). ومعلوم أن اكتساب الألسن الأجنبية وتعلمها ليس بهذه الصورة المبسطة.

---

(91) ومعلوم أن علاقة اللسان بالواقع والتصوّرات الثقافية الخاصة ستكشف عنها بكل وضوح ودقة أبحاث أنثروبو-لسانيّة في النصف الأول من القرن العشرين على يد كل من سابير Sapir وورف Whorf. (انظر كتابنا: **في اللسانيّات العامة**).

ينتهي سوسير إلى أن اللسان ليس على هذا المنوال المبسّط الذي تقدّمه لنا النظرية الاسموية. فليس اللسان مجرد ألفاظ تقابل أشياء موجودة في العالم الخارجي، ولكنه نسق (بنية) مُرَكّب صوتياً وصرفياً وتركيبياً ودلالياً. واللسان أيضاً مجموعة من القِيَم، حيث إنّ العنصر الواحد لا قيمة له إلّا في إطار العلاقات التي تربطه بغيره من العناصر الموجودة معه في النسق نفسه. فكيف يعرِّف سوسير علامات اللسان؟

1.6.1. تعريف العلامة اللغوية

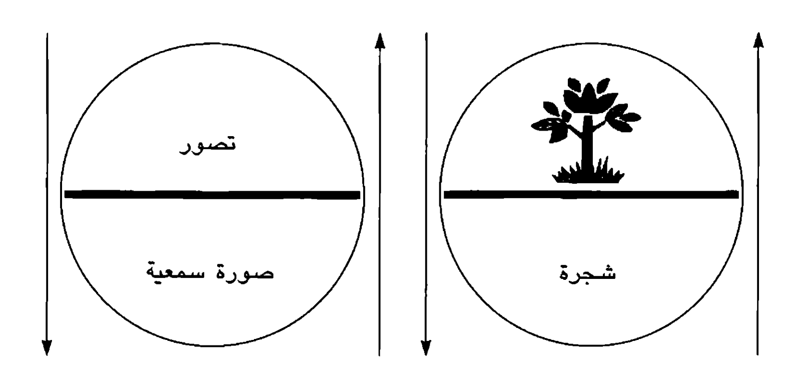
يرى سوسير أنّ العلامةَ اللغوية *signe linguistique*[92] لا تربطُ بين لفظ وشيء كما يذهب إلى ذلك الاسمويون، ولكنها تربط بين مفهوم *concept* وصورة سمعية *Image acoustique*. بهذا المعنى لا تربط العلامة اللغوية اللفظَ بالشيء الموجود في العالم الخارجي ربطاً مباشراً، أي إنها لا تربط الشيءَ المسمّى بالاسم، بل تسند إلى الشيء الموجود في العالم الخارجي صورةً مفهوميةً *image conceptuelle* تقابلها صورة سمعية. وليست الصورة السمعية هي الصورة الصوتية المادية الفيزيائية فحسب، ولكنها الانطباع الذي تثيره هذه الصورة في أنفسنا[93]. إنّ العلامة اللغوية كيان نفسي ذو وجهين. يستدعي تصورُ الشيء ذهنياً بالضرورة الصورة السمعية، والعكس صحيح، إنهما مثل وجهي الورقة لا يمكن عزل الوجه عن القفا كما يتضح ذلك من الرسم التالي[94]:

---

(92) انظر تحليل سوسير في:
F. de Saussure. *Cours de linguistique générale*, p.34 et p.97.

(93) *F. de Saussure. Cours de linguistique générale*, p.99.

(94) يُشير أريفيه إلى أن السهمين المتعاكسين اللذين يحيطان بالشكل الذي يمثل العلامة في الترسيمة غير موجودين في الأصل، وهما من إضافة الناشرين. ما يوجد بحسب أريفيه هو في بعض الأحيان سهم وحيد داخل الشكل الذي يمثل العلامة، وهو يعبّر عن الحاجز الذي يفصل القسمين. (انظر: **البحث عن فردينان دو سوسير**، ص80 هامش رقم 29).



ومجمل القول، إنّ العلامة اللغوية في نظر سوسير ليست كياناً بسيطاً، مثلما يوحي بذلك التصوّر الاسموي، ولكنها مركّبة من مفهوم *Concept* وصورة سمعية *Image* acoustique. ويقترح سوسير استبدال المفاهيم القديمة (صورة سمعية/ تصور/ مفهوم) بأخرى أكثر وضوحاً ودقةً للتعبير عن طبيعة العلامة. وهكذا أصبح مصطلحا الصورة السمعية والمفهوم تباعاً الدال *signifiant* والمدلول *signifié*. فالدال هو المتتالية الصوتية المنطوقة/ شَجَرَتُنْ/. أمّا المدلول فهو مجموعُ السمات المعنوية التي يُثيرها فينا الدال/ شجرتن/ ومدلوله على سبيل التمثيل هو: نبات طبيعي + لون أخضر + جذع + له فروع+ له أوراق... إلخ.

ويلاحظ أنّ سوسير أبعد في تحديد العلامة اللغوية مفهوم المدلول عليه (المرجع) *Référent* وهو الشيء الموجود فعلاً في العالم الخارجي. ويعتبر استبعاد الشيء "النتيجة المباشرة لرفض تصوّر اللسان بوصفه ثبتاً مصطلحياً أي قائمة من المصطلحات التي تتوافق مع أشياء مساوية لها"[95].

غير أنّ سوسير حافظ في تعريف العلامة اللغوية، على كثيرٍ من الاعتبارات النفسية والاجتماعية في فهم الطبيعة النوعية للظواهر اللغوية، وهي ولا شك من رواسب النزعة النفسية والاجتماعية التي سادت ثقافة القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

(95) ميشال أريفيه، **البحث عن فردينان دو سوسير**، ص78.

1 . 6 . 2. اعتباطية العلامة

ليست العلامة اللغوية كياناً بسيطاً ولكنها شيء مركّب من مكوِّنين: دال ومدلول. أما العلاقة القائمة بينهما فهي اعتباطية *Arbitraire*. يعرّف سوسير اعتباطية العلامة قائلاً: "إنّ الرابط الذي يجمعُ بين الدال والمدلول اعتباطي أو بعبارة، بما أننا نعني بكلمة علامة الكيان الناتج عن الجمع بين الدال والمدلول - يمكننا أن نقول بصورة أبسط: إن العلامة اللغوية اعتباطية"(96). ومعنى هذا أن الدال ليس مرتبطاً بأية علاقة مهما كان نوعها بالمدلول، أي ليس هناك ما يُجبرنا على مقابلة الدال وهو المجموعة الصوتية بهذا المدلول.

وتتجلى الاعتباطية في عدة مستويات وليس في العلاقة بين الدال والمدلول فقط، فهي قائمة أيضاً بين الدال والمدلول عليه؛ وبين المدلول والمدلول عليه. وتبقى العلاقة بين الدال والمدلول وحدها التي تهمّ الباحث اللساني. لنأخذ العلامة اللغوية "كتاب". فالدال وهو المتتالية الصوتية المُشَكِّلة للعلامة يكون إما منطوقاً مثل *kitaabun*، وإما مكتوباً (حرفياً). أما المدلول فمجموعُ الملامح الدلالية التي يثيرها فينا الدال /كتابن/منطوقاً أو مكتوباً، كأن نقول إن مدلوله هو: مؤلف + عنوان + عدد من الصفحات + صفحات مطبوعة + محتوى فكري. فلا علاقة إذن بين الوحدات الصوتية/ك/ +/ِ/ +/ت/ +/َ/ /َ/ +/ب/ +/ُ/ / +/ن/ والوحدات المدلولية أو التصوّرية. فالكاف في العلامة "كتاب" لا تقابل السّمة المعنوية "مؤلف"، و"التاء" لا تقابل السّمة "له عنوان" و"الباء" لم توضع للدلالة على السّمة المدلولية/التصوّرية "عدد من الصفحات" وهكذا....

أمّا الاعتباطية بين الدال والمدلول عليه (أي الشيء الموجود في العالم الخارجي)، فتتجلى في غياب أيّ رابط بين ما هو صوتي وما هو مجسّد مادي فعلي. وليس بين مكوِّنات الدال والمدلول عليه في العالم الخارجي أي علاقة محاكاة تجعلنا نسمّي هذا الشيء بهذا الاسم. والدليل هو اختلافُ الألسن في تسمية الشيء الواحد.

والاعتباطية قائمة أيضاً بين المدلول والمدلول عليه. فتسمية الأشياء، وهي

---

(96) F. de Saussure. *Cours de linguistique générale*, p.100.

عملية ذهنية محضة تقوم على تصوّر الأشياء الموجودة في العالم الخارجي. ولا يحصل هذا التصوّر بالطريقة نفسها عند جميع البشر، وإنما يختلف من لسان إلى آخر. إن تعدّد التصوّرات راجع إلى اختلاف التصوّرات الثقافية لأشياء العالم الخارجي. نحن لا ندرك الأشياء إلّا من خلال اللسان الذي نتكلمه. وبعبارة أخرى، ليست الخصائص المدلولية خصائص كلّية مشتركة بين جميع البشر، وإنما هي سمات خاصة تنفردُ بها كلّ مجموعة لغوية على حدة. وتتمّ التصوّرات الإدراكية للواقع حتماً عبر اللسان الخاص بكل فرد متكلم، مِمَّا يجعلها ذات صفات نسبية، لأنها ليست قائمةً في المدلولات كمعطى موضوعي عن الأشياء التي نتصوّرها.

ومجمل القول إن اعتباطية العلامة اللغوية تجعل تسمية الأشياء وإدراك التصوّرات المحسوسة والمجردة نتيجة المُواضعة بين المتكلمين باللسان الواحد. ومن الواضح أن ما يسمّى في اللسان العربي "كرسي"، يمكن أن يسمّى شيئاً آخر، في باقي الألسن، بل يمكن تغيير دلالة الأسماء برمّتها متى حَصَل الاصطلاح وتحقّق العرف.

ولا ينبغي أن نهتمّ كثيراً بالأمثلة المضادة التي تشير إلى وجود بعض العلامات اللغوية التي توحي بانعدام الاعتباطية مثل ظاهرة الأونوماتوبيا [أو المُحاكاة الصوتية] *onomatopéia* وصيغ التعجّب *interjection*، بحيث يتبادر إلى الذهن أنّ دال بعض العلامات اللغوية يوحي بنوع من المُحاكاة الصوتية للأشياء الموجودة في الطبيعة. ومن هذه الكَلِمات في العربية: الخرير والفحيح وما شابه ذلك من كلمات أخرى. لكنّ هذه الكلمات، على افتراض أن فيها مُحاكاة لأصوات الطبيعة، ليست عناصر عضوية في النسق اللغويّ، علاوة على أنها لا تمثل إلّا عناصر قليلة جداً بالقياس إلى ما يفترض أن يكون بشكل عام(97). وتنقسمُ العلامات المُحاكية صوتياً للطبيعة إلى صنفين لكل منها وضع خاص في النسق اللغويّ. "إن كلمات مثل "سوط" و"جرس" قد تستحوذُ على السمع بجهورية إيحائية، ولكن يكفي الرجوع إلى أشكالها اللاتينية (*fouet* مشتقة من *fagus* أي "زان" و*glas* مشتقة من *classicum*) حتى نتبين أنه ليس لها

(97) F. de Saussure. *Cours de linguistique générale*, p.101-102.

هذه الصفة الأصلية، وأن صفة الأصوات الراهنة لهذه الكلمات أو بالأحرى تلك التي تمنحها إياها إنما هي نتيجة مصادفة للتطور الصوتي[98]. "أما النوع الثاني من الكلمات الأكثر إيغالاً في المُحاكاة الصوتية فنجدها في العلامات مثل: صه وطق وطق وواه ومثل *tic-tac* و*glou-glou* في الفرنسية. فهذه العلامات ليست قليلة العدد فحسب، بل إنّ اختيارها اعتباطيّ إلى حدّ ما لكونها لا تتعدى التقليد التقريبي والنصف اتفاقي لبعض الضجيج"... وأمّا صيغ التعجب" القريبة جداً من الكلمات المُحاكية للصوت فتتيح المجال لإبداء ملاحظات مماثلة لما سبق ذكره. وتكفي المقارنة بين لسانين لنتبيَّن كم هي مختلفة هذه الكلمات[99].

وليس القول باعتباطية العلامة اللغوية بقول جديد في تاريخ الفكر اللغويّ عموماً. لقد عرف الفكر اليوناني على سبيل التمثيل لا الحصر نقاشاً واسعاً وجدلاً بين عدد من الفلاسفة حول هذه الإشكالية حيث انقسموا إلى تيارين:

- تيار يقول بطبيعة العلاقة بين الكلمات والأشياء، وهو ما يعني أن دلالة الكلمات مستمدّة من طبيعة الأشياء ذاتها، أي إن ثمة تطابقاً تاماً بين الصّيغة والمعنى.
- تيار يذهب إلى أن العلاقة بين الكلمات والأشياء علاقة اعتباطية، بحيث لا يوجد في طبيعة الأشياء ما يُجبرنا على تسميتها بهذه الأسماء أو تلك، وليس هناك ما يدعو لمقابلة هذه الصيغة اللغوية بهذا المعنى أو ذاك. فالعلاقة بين الكلمات والأشياء ليست سوى نتيجة اصطلاح بين الأفراد المستعملين لهذه الكلمات.

وتجدر الإشارة إلى أن القول باعتباطية العلامة اللغوية لا يعني الفوضى والحرية المطلقة في اختيار دلالة الألفاظ. وليس معنى الاعتباطية بين الدال والمدلول أيضاً أنّ الفرد المتكلم له كامل الحرية في اختيار الدلالات التي يريد

---

(98) فردينان دو سوسير، **محاضرات في الألسنيّة العامة**، ترجمة يوسف غازي ومجيد نصر، ص 91.

(99) F. de Saussure. *Cours de linguistique générale*, p.92.

أن يعطيها لهذه العلامة أو تلك. إنّ المتكلم في حالة تزامنية *état synchronique* معيَّنة للسان لا يختار دلالة العلامات التي يستعملها، ولا يمكنه أن يغيِّر منها أو يحيد عنها، فاللسان ظاهرةٌ اجتماعية بامتياز، وهذا يعني أنّ اللسان بعلاماته ودلالات هذه العلامات يوجد خارج الأفراد.

أثار مبدأ الاعتباطية ردود أفعال كثيرة ومختلفة بين القبول والرفض. وقد أشار بنفينيست إلى أهمّية هذا المبدإ، لأنه يجعل اللغة البشرية تكتسب قيمتها السيميولوجية بالنظر إلى الأنساق الأخرى. ولأن هذا المبدأ يسمحُ بالربط بين اللسانيّات والسيميولوجيا، سيكون موضوع السيميولوجيا بصفة عامة مجموع الأنساق القائمة على اعتباطية العلامة[100].

وقد قوبل تصور سوسير لاعتباطية العلامة كما هو وارد على الأقل في "**الدروس**" بمجموعة من الملاحظات المتفاوتة الأهمية، أهمّها تلك التي قدّمها اللساني الفرنسي إميل بنفينيست حول "**طبيعة العلامة اللغوية**"[101]. لاحظ بنفينيست أن فكرة الاعتباطية التي جاء بها سوسير "حقيقة بديهية، لكنها مع ذلك تبدو عنده غير واضحة الصياغة تماماً. ويشير بنفينيست إلى الغموض والتناقض اللذين يطبعان البرهنة والاستدلال على اعتباطية العلامة. ويرى بنفينيست أن سوسير حين أراد أن يبرهن على أنّ الرابط بين الدال والمدلول رابط اعتباطي، أقحم من جديد المدلول عليه وجعله طرفاً رئيساً في العلامة اللغوية، بعد أن كان قد أبعده كما نعرف في تحديده لها باعتبارها دالاً ومدلولاً فقط.

إنّ سوسير، بحسب بنفينيست، حين يقارن بين الكلمة الفرنسية /böf/ ونظيرتها الألمانية *oks* (ثور)، يقرر أنهما مختلفتان على مستوى الدال، على الرغم من أنهما تحيلان على الشيء نفسه. يقول بنفينيست: "من الواضح أن الاستدلال خاطئ بسبب اللجوء اللاواعي والاختلاسي إلى مصطلح ثالث لم يفهم جيداً في تعريفه الأولي. هذا المصطلح الثالث هو الواقع نفسه"[102]. واعتبر بنفينيست أن

(100) Emile Benveniste. Sémiologie de la langue, in *Problèmes de linguistique générale*, tome 2., p.49.

(101) Emile Benveniste. Nature du signe linguistique, in *Problèmes de linguistique générale*, tome 1., p.49-55.

(102) Emile Benveniste. *Problèmes de linguistique générale*, tome 1, p.50.

المقارنة بين علامتين من لسانين مختلفين ليس لها ما يبررها، لأنّ المدلول عليه المستحضر في هذه المقارنة، هو الواقع (الشيء) كمكوِّن للعلامة اللغوية لا دخل له هنا. و"عندما يتحدّث عن الفرق بين b-ö-f وo-k-s فإنه يرجع رغماً عنه إلى حقيقة أن هذين المصطلحين ينطبقان على الواقع، إذن هذا هو الشيء الذي استبعد بسرعة في بادئ الأمر من تعريف العلامة، ثم أدرج في ذلك التعريف عبر التفاف، وجعل التناقض يستقر به باستمرار"[103].

وينتهي بنفينيست إلى أنّ الاعتباطي في المسألة، هو أن هذه العلامة وليست الأخرى هي التي تنطبقُ على هذا الشيء من الواقع، وليس على غيره[104]. ومن ثمة، فإن الرابط بين الصورة السمعية (الدال) والتصوّر (المدلول) ليس اعتباطياً كما يقول بذلك سوسير، بل هو رابط ضروريّ *lien nécessaire*[105]. إن التصوّر "ثور" سيكون في شعوري مطابقاً للمتتالية الصوتية (الدال) /ثور/أو مماثلاً لها بالضرورة.

وقد نتج عن غموض النصّ الأصلي ردودُ فعل مختلفة حول مبدإ الاعتباطية. فهل يتعلق الأمرُ بغموض في فكر سوسير نفسه أم بغموض في صياغة النص الذي قدّمه ناشرا **الدروس** وعجزهما عن نقل تصور سوسير بكل أمانة؟ يشاطر أريفيه بنفينيست في نقده مستعملاً الأدلة والحجج نفسها معتبراً بدوره "أن خطأ سوسير (...) واضح كل الوضوح. ويتمثل في أنه لا يلحظ أنه يدرج في سياق برهانه عناصر ليست في القول. فهو يعرّف بادئ ذي بدء المدلول بوصفه فكرةً عامةً "للعِجْل"، ثم يتصرف بعد ذلك وكأن ذلك المدلول كان الشيء المسمّى عجلاً أو على الأقل الصورة الحسّية لعجل ما ... والحالة أنهما مختلفان كل الاختلاف"[106]. ويحدّد أريفيه تناقض سوسير في هذا الباب في كونه "انزلق من المدلول إلى المرجع، وهو بسبب هذا عاد إلى الوقوع، ربما دون أن يشعر في المفهوم الذي استبعده قبلياً من اللغة بوصفها ثَبتاً اصطلاحياً"[107].

---

(103) Emile Benveniste. *Problèmes de linguistique générale*, tome 1, p.50.

(104) *Ibid*, p.52.

(105) *Ibid*, p.49.

(106) ميشال أريفيه، **البحث عن فردينان دو سوسير**، ص88.

(107) المرجع السابق، ص89. [اللغة في النص المقتبس هي اللسان في اصطلاحنا].

لكن أريفيه سينصفُ سوسير مقراً أنه "لا مفرّ من المرور عبر بوابة المدلول عليه في مسائل علم الدلالة. ينبغي الاعتراف أننا يمكن إن كان هناك خطأ، أن نجد له عذراً لأنه حتى ولو كانت العلامة مكوَّنة من الدالّ والمدلول حصرياً، فإنه ينبغي بطريقة من الطرق أن يكون للمدلول علاقة ما بالمرجع (المدلول عليه). إن علم الدلالة الأكثر ثباتاً لا يمكنه البتة التوصّل إلى أن يزيل نهائياً واقعة أن المرجع ينبغي أن تتمثل فيه سمات تتفق مع سمات المدلول الذي هو مسؤول عنه"[108]. أكثر من هذا، يذهب أريفيه إلى أن صواب فكرة بنفينيست لا يمنع من القول بأن البرهنة التي لجأ إليها "ضعيفة"، لأنّ صاحبها " لا يذكر شيئاً في صالح ضرورة العلاقة بين وجهي العلامة. وليس له من ميزة إلّا أنه يكرر بطريقة موغلة في السوسيرية الحديث عن علاقة افتراضية متبادلة، تلك التي تصورها الاستعارة المشهورة لوجهي الورقة بين الدال والمدلول"[109].

وصواب ملاحظة بنفينيست لا ينفي العلاقة الاعتباطية بين الدال والمدلول، لأن ما هو ضروريّ أو على الأصح ما أصبح ضرورياً بين مكوِّنَي العلامة، ليس طبيعياً في الشيء أو ضرورياً من تلقاء نفسه نتيجة تشابه أو تطابق من أي نوع كان بين الدال والمدلول. ففي البدء كانت الاعتباطية، هي المنطلق، لتصبح العلاقة نتيجة العرف والاصطلاح ثانياً وأخيراً ضرورية.

وعلى الرغم مِمَّا قيل بشأن نظرية العلامة ومبدإ الاعتباطية عند سوسير، فإن الأخذ بمفاهيم الدال والمدلول كوجهين للعلامة اللغوية شَكَّل في ذاته فرقاً واضحاً بين اللسانيّات البنيويّة بجميع فروعها والتقاليد اللغوية القديمة القائمة على الفلسفة والمنطق، وهو ما جعل مفاهيم مثل "الصورة السمعية" و"التصوّر" و"المدلول عليه" تفقد وزنها الفلسفي الميتافيزيفي[110] الذي تَمَيَّزت به عبر تاريخها الطويل، وتحولت مفاهيم "العلامة" و"الدال" و"المدلول" ومبدإ "الاعتباطية" إلى مفاهيم إجرائية لا لبس فيها على الأقلّ من الناحية اللسانيّة الصرف.

---

(108) المرجع السابق، ص90.

(109) المرجع السابق، ص93.

(110) A. Rey. *Les théories du signe et du sens*, Paris, Klincksiek, 1973, Tome 2, p.53.

1 . 6 . 3. خطية الدال *linéarité*

المبدأ الثاني الذي يحكم العلامة اللغوية بعد مبدإ الاعتباطية هو صفةُ الدال الخطية، تلك الصفة التي لم ينتبه إليها اللسانيون سابقاً رغم دورها المحوريّ في انتظام اللسان. ولما كان الدال ذا طبيعة سمعية، فإنه يمتدّ في الزمن فحسب، بكونه أولاً يمثل اتساعاً وثانياً لإمكانية قياسه في بُعْد واحد هو الخط"(111). وبما أن عناصر الدال السمعية تظهر الواحد بعد الآخر مشكلة بذلك سلسلة" فسيترتب عن هذا المبدإ "أنه لا يمكن أن نتلفظ بعنصرين في وقت واحد"، وهي ملاحظة تبدو عاديةً وبديهيةً، لكنها، تكتسي أهمّيةً بالغةً في تمييز دوال النسق اللغويّ عن دوال النسق البصري.

1.7. مفهوم البنية

ليس مفهوم "البنية" الذي تقوم عليه اللسانيّات البنيويّة بجديد في الفكر الإنسانيّ الحديث. ففي الدراسات اللغوية وحدها، انتبه إليها لغويو القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، لاسيما همبولدت (1767-1835) W. Von-Humboldt والمتأثرون بالعلوم الطبيعية أمثال، شليغل Schlegel وشلايشر وفرانس بوب(112). فقد تحدّث الأول مثلاً عن البنية النحوية(113) مرات عديدة. واستعمل شلايشر عبارة "البنية اللغوية" *structure linguistique*. ومع مطلع القرن العشرين استعمل اللساني الفرنسي فندريس (1875-1960) Joseph Vendryes عبارة البنية النحوية، استعمالاً غير تقني عدة مرات في كتابة "**اللغة**" (ص361-408). وتذكر بعض المصادر أنّ مفهوم البنية كان مألوفاً لدى تلامذة سوسير في باريس أمثال أنطوان مِييه (1866-1936) Antoine Meillet وذلك قبل نشر **دروس** سوسير سنة 1916. لقد استعمل مِييه -مُحِيلاً على سوسير- هذا المفهوم بكيفية صريحة عدة

(111) فردينان دو سوسير، **محاضرات في الألسنيّة العامة**، مرجع سابق، ص92.

(112) Franz Bopp. *Grammaire comparée des langues indo-européennes comprenant le sanscrit le zend, l'arménien, le grec, le latin, le lithuanien, l'ancien slave, le gothique et I'allemand*, Paris, Imprimerie impériale et imprimerie nationale, 1866- 1874, nouvelle édition 1885- 1889, 5 volumes. traduction française par Michel Bréal, p.3.

(113) A. F. Schlegel. *Essai sur la langue et la philosophie des indiens*, traduit de l'allemand par M. A. Mazure, Parent- Deabarbes Editeurs, Paris, 1837/1808, p.34.

مرات، وكذلك فعل موريس غرامون (1866-1946) M. Grammont[114].
ويؤكّد جورج مونان أن مِييه تحدَّث عن فكرة البنية وطبقها في كثير من أبحاثه المعاصرة لسوسير[115]. لكن سوسير يعدّ أبرز الذين أكدوا على فكرة البنية أو النسق *Système* كما كان يسمّيها هو. وتكمن أهمّية سوسير في كونه بحث في البنية بشكل واع وجعل منها مفهوماً نظرياً له أبعاد منهجية فسّر على ضوئها كثيراً من قضايا اللغة.

يعرف ليونز (1932-) J. Lyons البنية بأنها نسقٌ من العلاقات أو مجموعة من الأنساق يرتبط بعضها ببعض، وحيث إن العناصر من أصوات وكلمات، ليس لها أية قيمة باستقلالها عن علاقات التكافؤ والتقابل التي تربط بعضها ببعض[116].

ويتصل مبدأ البنية في مجال اللسان، بمبدإ الاعتباطية الذي سبقت الإشارة إليه في فقرة سابقة. ويلاحظ أن الوحدات اللغوية بدءاً بالوحدات الصوتية والصرفية والمكوِّنات التركيبية، تبين بوضوح اشتغال البنية في إطار داخلي ينتج دائماً ما ينتمي إلى النسق اللغويّ الذي تنتمي إليه الصوتات والصُّرْفات التي يتمّ التوليف بينها. فالصوتات مضافة بعضها إلى بعض في حدود ما يسمح به النسق الصواتي، تعطي وحدات لغوية أكبر هي الصُّرفات التي بدورها إذا أضيف بعضها إلى بعض تعطي مركّبات وهكذا. وبديهي أن عدد الصوتات والصُّرفات في الألسن الطبيعية محدود، لكنّ الجمل والخطابات التي يمكن الحصول عليها لا يمكن حصرها.

إن البنية مجموعةٌ من العناصر المترابطة فيما بينها، ولا قيمة للعنصر الواحد إلّا في إطار العلاقات التي تجمعه بباقي العناصر الموجودة معه في السياق نفسه. وتحافظ عناصر اللسان على خصائصها المادية وتظل هي نفسها بالنسبة إلى الفرد المتكلم، لكنّ وجودها مع عناصر أخرى داخل السياق هو الذي يُسْنِدُ إليها قيمتها. إن ارتباط العناصر فيما بينها على هذا الشكل، يجعل من اللسان كما يقول سوسير

---

(114) E. Benveniste: Structure en linguistique, in *Sens et usage du terme structure dans les sciences sociales et humaines* édité par Roger Bastide, Mouton, la Hague, Paris, 2ème Edition 1972/1962, p.33.

(115) G. Mounin. *La sémantique*, Seghers, Paris, 1974, p.78.

(116) J. Lyons. *La linguistique générale. Une introduction*, p.41.

صـــورة ولـــيـــس مـــادة[117] "*La langue est une forme et non une substance*". إن الوحدات اللغوية (الكلمات) لا قيمة لها إنْ هي أُخِذت بمعزل عن الوحدات الأخرى الموجودة معها. ولكي يصبح لها قيمة فعلية، لا بدّ لها من سياق توجد فيه مع غيرها على أساس الاختلاف، أو التكافؤ أو غيرها من أنواع التقابلات.

ما يهمّ اللساني البنيوي، ليس المادة التي تتكون منها الوحدات، سواء أتعلق الأمر بالمادة الصوتية، أم المادة الصرفية أم الدلالية، بل ما يهمّه هو الصورة *Forme*. والمقصود بالصورة في أدبيات اللسانيّات البنيويّة هو العلاقات التي تجمع العناصر. يقول سوسير متحدّثاً عن لعبة الشطرنج: إذا استبدلت قطعاً خشبية بقطع من العاج أو الذهب أو أي مادة أخرى، فإن هذا التغيير لا يمسّ النسق في شيء؛ ولكن عندما أُنْقِص أو أزيد عدد هذه القطع، فإن هذا التغيير يمس نحو اللعب[118] *Grammaire du jeu*. وعلى هذا الأساس، فكل تغيير يطرأ على العلاقة التي تجمع بين العناصر اللغوية ينتجُ عنه بالضرورة تغيير عميق يصيب جميع باقي عناصر البنية.

تشبه العناصر اللغوية الوحدات الاقتصادية من عُمْلَة وبضاعة وما شابه ذلك. فالقطعة النقدية الواحدة لا تملك في ذاتها قيمة مطلقة، ولا يمكن أن يُتَصَوَّر لها أي وجود إبرائي ونفعي إلّا إذا أمكن مقابلتها برصيدها الفعلي ذهباً أو فضّة، أو يوم عمل، أو قطعة من الخبز، أي كل ما يمكن أن تساويه في حياة مستعمل هذه القطع النقدية. وتحدّد قيمة هذه القطعة النقدية في الوقت نفسه بالنظر إلى ما يوجد معها من قطع نقدية أخرى في إطار نسق مالي واقتصادي محدّد. ويرى سوسير بأن لفظ "قِيمة" يعبِّر أفضل من أي لفظ آخر[119] "عن العلاقات النسبية بين العناصر اللغوية. ومن المنظور نفسه، فإن قيمة العنصر الواحد داخل النسق الذي

(117) F. de Saussure. *Cours de linguistique générale*, p.157.

(118) *Ibid*, p.43.

(119) *Ibid*, p.28.

يشير دو سوسير في مسودة كتابه "في الجوهر المزدوج للغة" أنه "لا يقيم أي اختلاف بين ألفاظ مثل، قيمة *valeur* ومعنى *sens* ودلالة *signification* ووظيفة *fonction* أو استعمال *emploi*، بل حتى بفكرة *idée* كمضمون *contenu* صيغة. إن هذه الألفاظ مترادفة". (*Ecrits de linguistique générale* , p.28).

يوجد فيه مع غيره من العناصر هي غير دلالته الخاصة به، أي الدلالة التي يملكها موضوعياً، مما يعني ضرورة التمييز بين الدلالة *Signification* والقيمة. إن دلالة العنصر اللغويّ هي مدخله المعجمي، أي معناه المحايد المسجّل في المعجم. وهو معنى *sens* موضوعي يوجد باستقلال عن أي سياق لغويّ واستعمال فعلي لهذا العنصر في علاقته مع عناصر أخرى. أما القيمة، فهي الدلالة التي يكتسبها هذا العنصر أو ذاك في سياق معين من خلال طبيعة ونوعية العلاقات التي تجمعه بغيره من العناصر. إنّ قِيْمةَ عنصر معين تنتج في النهاية من الموقع الذي يحتلّه في إطار علاقات الاختلاف أو قيم الاختلاف مع غيره. وبتعبير آخر، فإن الدلالة قِيْمة مطلقة والقيمة دلالة نسبية. يشير سوسير إلى "أن صيغة ما (كلمة/علامة) لا تدل على شيء ولكنها تساوي شيئاً ما مِمّا يفترض وجود قيم أخرى"(...). إن وجود صوت معيَّن ليس له أية قِيْمة إلّا بالتقابل مع وجود أصوات أخرى. إنه التطبيق الأولي الذي لا يقبل الجدل لمبدإ التقابلات أو القِيَم المتبادلة أو المقادير السالبة والنسبية التي تخلق حالة لسان ما"[120].

إن ما يهمّ اللساني البنيوي أيضاً ليس هو مادة العنصر، ذلك أن العناصر داخل النسق لا تملك هوية قائمة الذات وخاصة بها، إلّا إذا أمكن للأفراد المتكلمين أن يسندوا إليها كلّ المعاني التي تدلّ عليها. ولا يتمّ الوصول إلى هذا الغرض إلا إذا اكتسبت العناصرُ المعنية قِيَمها في إطار مجموعة الصفات والسمات التي تتقابل بها اختلافاً أو تكافؤاً مع صفات وسمات باقي وحدات النسق. إن مفهوم القِيْمة يسمح للتحليل اللساني البنيوي بفهم أعمق للكيفية التي تنتظم بها العناصر اللغوية لتؤدي دورها في إنتاج المعنى، وبالتالي في تحقيق عملية التواصل بين المتخاطبين.

ويرتبطُ مفهوم القيمة بمعناه السابق بمفهوم آخر لا يقلّ عنه أهميةً هو مفهوم العلاقات، ذلك أن "كل شيء في حالة *état* لسان ما يكون قائماً على العلاقات"[121]. فالعلاقات بين العناصر المنتمية إلى النسق الواحد تُعَدُّ أساس تحديد طبيعة الارتباط القائم بين هذه العناصر، لأنها تعطي كل عنصر من عناصر

(120) F. de Saussure. *Ecrits de linguistique générale*, p.28.

(121) F. de Saussure. *Cours de linguistique générale*, p.170.

النسق قِيْمته في إطار العلاقة، أو العلاقات التي تجمعه أو تفرقه عن غيره ممّا يوجد معه أفقياً وعمودياً.

وتتقابل عناصر نسق معين متكافئةً ومختلفةً نسبياً أو كلّياً، انطلاقاً من نوعين متميزين من العلاقات يُنتج كلّ منهما نسقاً خاصاً من القيم النسبية. ففي الاتجاه الأفقي وهو اتجاه العلاقات السياقية *Relations Syntagmatiques*، يعطي ترابط العناصر اللغوية فيما بينها داخل بناء معين صُرفات محدّدة في مستوى الأصوات، ويعطي تراكيب ومكوِّنات وجملاً في مستوى التركيب. إن العناصر اللغوية وحدات صوتية/ صُرفات/ وغيرها تنتظم الواحدة تلوى الأخرى، دون أن يحدث بينها أيّ التقاء أو اتصال في نقطة معينة من السلسلة (كَلِمة/ مُكَوِّن/ جملة)، لأنّ كل وحدة تأخذ مكاناً خاصاً بها بالقياس إلى الوحدة التي تجاورها موقعياً، أي تلك التي تسبقها أو تلحقها. والعلاقة السياقية علاقة تقارب تجمع بين عنصرين أو أكثر، ممّا يَسِمّها طابع الحضور والتَّزَامُنية (*In Parasentia*). فبناء الصرفات وتكوين الجمل بكيفية تراتبية يتمّ تباعاً عن طريق التوليف الممكن بين الوحدات الصوتية بالنسبة إلى الصُّرفات، وبين هذه الصرفات بالنسبة إلى التراكيب والجمل. ولا توجد العناصر اللغوية في المستويين الصِّواتي والصِّرافي بكيفية اعتباطية، ولكنها تخضع لمجموعة من القواعد التي تتحكّمُ في تجاورها الموقعي *Juxtaposition*. إنّ قواعد التركيب في الألسن الطبيعية قواعد تضبط العلاقات القائمة على التجاور الموقعي.

وتتوفر وحدات اللسان وهي خارج كلّ استعمال وتحديداً في مستوى ذهن المتكلم على بعض الخصائص المشتركة[122]. فنحن لا نستعمل بحسب سوسير هذا اللفظ أو ذاك داخل سياق معين بطريقةٍ اعتباطية، وإنما نختاره ضمن كوكبة من العناصر التي تشترك معه في سمات معينة، وتختلفُ معه في أخرى. إنها العلاقات الجدولية *Relations Paradigmatiques* (ويطلق عليها أيضاً العلاقات الاستبدالية، أو محور الاختيار *Axe du choix*). فالعلامة الواحدة تستدعي في عُقولنا علاقات مع علامات أخرى لها كلّياً أو جزئياً سمات صوتية أو صرفية أو تركيبية أو دلالية متشابهة، متقاربة أو متباعدة من هذه الناحية أو تلك. وقد

(122) F. de Saussure. *Cours de linguistique générale*, p.171.

لا تتوفر هذه الخصائص المشتركة في بعض العلامات أحياناً، مما يجعل المتكلم أمام اختيار بين مجموعة من الوحدات اللغوية التي يستحضرها بصفة واعية أو غير واعية في الجدول نفسه *Paradigme*. إنّ الفعل "رأى" يثير في ذهننا مجموعةً من الأفعال الأخرى ذات خصائص صرفية ودلالية مماثلة أو متقاربة أو متباعدة مثل: شاهد، أبصر، لمح، حدج، حدق، نظر، ضرب، خرج...

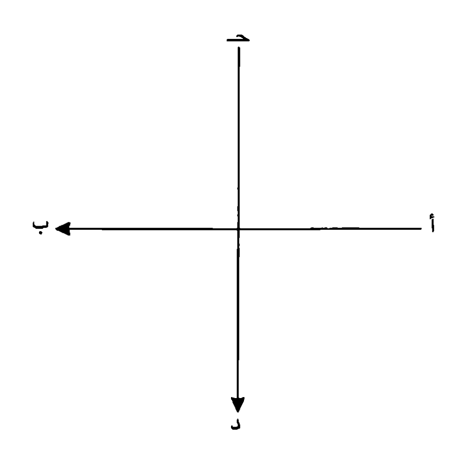
وإذا كانت العلاقات السياقية ذات طابع حضوري، فإنّ العلاقات الجدولية ذات طابع ضمني وتقديري. إنها لا توجد إلّا في ذهن المتكلم *In Absentia*. ولم يحدّد سوسير بالضبط الكيفية التي يتمّ بها تداعي العناصر اللغوية فيما بينها في ذهن المتكلّم، ممّا جعل مفهوم التداعي/الترابط *Association* عنده يأخذ دلالةً قريبةً جداً من الدلالة التي كان يعطيها له في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين علماء النفس. ويظهر هذا التقارب بين التصوّرين من خلال حرية اشتغال عملية "التداعي" نفسها عند سوسير وهو ما يتجلى من استعماله مصطلح *Rapports associatifs*. وقد تخلّى اللسانيون البنيويون منذ هلمسليف عن مصطلح "التداعي" نظراً لما يوحي به من خلط بين المنظور النفسي والمنظور اللساني، مفضّلين استعمال مصطلح العلاقات الجدولية *Rapports paradigmatiques*.

8.1. بين التزامني والتعاقبي

يتعلقُ ثالث المبادئ الأساسية في التحليل اللساني البنيوي الذي أرساه سوسير في دروسه بالتمييز بين المنظور التزامني *Synchronique* والمنظور التعاقبي *Diachronique*. ينطلق سوسير في تمييزه من ملاحظة بسيطة مفادها أن اللسانيّات تعرف في دراسة اللسان عنصراً جديداً لا يهتمّ به كثير من العلوم الأخرى مثل علم الفلك وعلم الجيولوجيا، هو عنصر الزمان *Temps*. فليس ثمة نسقٌ آخر غير النسق اللغويّ يأخذ في الحسبان هذا العنصر. وعلى غرار اللسانيّات ينبغي للعلوم التي تشتغل على موضوعات ذات قيم خالصة مثل علم الاقتصاد وضع المحاور *axes* التي تقع عليها الوقائع المدروسة (في علم الاقتصاد يميز بين الاقتصاد السياسي والتاريخ الاقتصادي).

وبالنظر إلى وجود عنصر الزمان في التحليل اللساني، وباعتبار اللسان نسقاً من قيم غير قابلة للتحديد خارج حالة ما، فإنّ دراسته بهذا المعنى تدورُ حول محورين:

- محور المتزامنات *axes des simultanéités* (أ- ب) ويتعلّق بدراسة العلاقات القائمة بين الأشياء المتزامنة أي الموجودة في الزمان نفسه (الحالة نفسها) وهي الدراسة التزامنية.
- محور المتتابعات (حـ - د) *Successivités* وفيه ينظر إلى الوقائع اللغوية، من حيث إنها نقط تقع في تتابع زمني وهو موضوع الدراسة التعاقبية. ويمكن التمثيل للمحورين السابقين كما يلي(123):



في المحور الأول (أ- ب)، يتمّ تناولُ اللسان في حالة *Etat* زمنية معينة ويتعلّق الأمر بالدراسة التزامنية. أمّا الدراسة التعاقبية، موضوع المحور الثاني (حـ - د)، فتتناول اللسان في مراحل تطوره، وذلك بدراسة ما يطرأ عليه من تغيير جراء تفاعله مع الزمن.

ولكلّ نظرة قواعدها الخاصة بها. فقواعد الدراسة التزامنية مطّردة وثابتة، وهي أيضاً عامة وإلزامية للمتكلمين بلسان معين. أما قواعد الدراسة التعاقبية فهي اصطلاحية تطبق على اللسان بعد أن يتركه مستعملوه. وقد أكّد سوسير وبعده رواد

(123) F. de Saussure. *Cours de linguistique générale*, p.115.

اللسانيّات البنيويّة على الأهمّية البالغة للسانيّات التزامنية *La linguistique synchronique*، لأن الدراسات التاريخية في عصره بالغت في دراسة اللسان من الناحية التعاقبية مهملةً الجانب التزامني، الذي يمثل بالنسبة إلى الفرد المتكلم باللسان الحقيقة المباشرة الأولى(124). لقد افتتنت الدراسات اللغوية بالتاريخية على نحو مبالغ فيه جداً مثلما فعل النّحاةُ الجُدُد ومن حذا حذوهم، والذين تحول عندهم كل شيء في اللسان إلى تاريخ(125).

وعلى الرغم من أن المحورين من الناحية المبدئية مستقلان، فهما مرتبطان في الوقت ذاته لأنّ أحدهما لا يلغي الآخر، بل يمكنهما أن يتقاطعا لأنّ اللسان بحسب سوسير "نسق موضوع وتاريخ في الآن نفسه، إنه يشكل بصورة دائمة مؤسسة راهنة ونتاجاً للماضي"(126). ويستشفّ من بعض العبارات الواردة في "**دروس**" سوسير نزوعاً واضحاً نحو أولوية الدراسة التزامنية وأسبقيتها على الدراسة التعاقبية. " فالجانب التزامني يفوقُ الآخر [يقصد الجانب التعاقبي]"(127)، لأنّ ما هو تزامني يمثل" الواقع الحقيقي الوحيد". لكن بعض الأحكام في حقّ المقاربة التعاقبية من حيث صعوبتها المنهجية والتحكّم فيها يخلق نوعاً من التردّد بل الإحجام عن ركوب مخاطر الدراسة التعاقبية، "فعلى اللساني الذي ينزع إلى فهم هذه الحالة أن يتجاوز كلّ ما أنتجه وأن يهمل التزامن [التعاقب] فهو لا يقوى على الولوج إلى ضمير الأفراد الناطقين إلّا بحذف الماضي وإلغائه. نزيد على ذلك أَن تدخُّلَ التاريخ لا يمكن أن يجعل حكمه خاطئاً"(128). ومن الناحية العلمية تبدو المقارنة بين المنظورين غير متكافئة أيضاً. "فالعكوف على الألسنيّة [اللسانيّات] السكونية هو أكثر صعوبةً من دراسة التاريخ. إن وقائع التطور هي أكثر إحساساً، فهي التي **تخامرُ الخيال** بشكل أكبر والعلاقات التي نلاحظها فيها، إنما تنعقد بين عبارات متعاقبة **تدرك من غير**

(124) F. de Saussure. *Cours de linguistique générale*, p.118.

(125) *Ibid*, p.118.

(126) *Ibid*, p.24.

(127) فردينان دو سوسير. **محاضرات في الألسنيّة العامة**، ترجمة يوسف غازي ومجيد النصر، ص112.

(128) المرجع السابق، ص103.

جهد ولا عناء. إنه لمن **السهل** ـ وغالباً لمن الطرافة ـ أن نتابع سلسلة تحولات، غير أن الألسنيّة [اللسانيّات] التي تسير في قيم وعلاقات معاصرة تمثّل صعوباتٍ حقيقيةً أكثر من ذلك بكثير"[129]. إنها ولا شكّ أحكام قيمة من سوسير. ويبدو أن هذا الموقف من اللسانيّات التعاقبية هو محاولةٌ منه لتحرير البحث اللساني من العوامل الخارجة عن الطبيعة الداخلية للموضوع اللساني نفسه. والعامل الخارجي هنا هو التاريخ بمختلف مكوِّناته ومعطياته الاجتماعية والنفسية والثقافية. إن التاريخ عدوّ اللسان كما يقال. إنّ التمييز بين التزامني والتعاقبي يهدفُ في نهاية الأمر إلى خلق بحث لساني مستقلّ كلّياً عن العوامل النفسية والاجتماعية التي يمكن أن تؤثّر في اللسان وصيرورته الفردية والجماعية. إنه دَعْمٌ لمقولة سبق الحديث عنها في تحديد موضوع اللسانيّات. إنه اللسان في ذاته ومن أجل ذاته. ألم يقل سوسير وهو يتحدّث عن العناصر الداخلية والخارجية للسان: "يفترض تعريفنا للسان إبعاد كل ما هو غريب عن كيانه ومنظومته وبكلمة واحدة كل ما نشير إليه باللسانيّات الخارجية"[130].

(129) المرجع السابق، ص123.
(130) المرجع السابق، ص35.

الفصل الثاني

مدرسة جنيف

1.2. في ظلّ سوسير

تضمّ مجموعةُ جنيف جملة من زملاء سوسير وطلبته في جامعة جنيف وأشهرهم على الإطلاق تشارل بالي (1865-1947) وألبرت سيشهاي Albert Sechehaye[1]. وقد تحمل هذه المجموعة تسمية "**مدرسة جنيف للسانيّات العامة**" كما جاءت عند سيشهاي. وينتمي إلى المجموعة نفسها عددٌ من اللسانيين السويسريين الذين برزت أسماؤهم في هذه الفترة مثل هنري فراي 1899-1980 Henri Frei[2] وفارتربورغ W. Warterbourg. والتحق بهذه المدرسة لسانيون آخرون نذروا حياتهم العلمية لإخراج نصوص سوسير في اللسانيّات العامة. وقد

---

(1) أهمّ مؤلفات سيشهاي هي:

- *Programme et méthodes de la linguistique théorique. Psychologie du langage*, Paris, Champion, 1908.

- *Éléments de grammaire historique du français*, Genève, Eggimann, 1909.

- «La méthode constructive en syntaxe», in *Revue des langues romanes.* Montpellier, t. LIX, 1916.

- *Essai sur la structure logique de la phrase*, Paris, Champion, 1926.

- «L'école genevoise de linguistique générale», in *Indogermanische Forschungen*, volume. 44, 1927.

- «Les trois linguistiques saussuriennes», in *Vox Romanica,* t. V., Zürich, 1940.

(2) له كتاب **نحو الأخطاء: مدخل للسانيّات الوظيفية**، صدر في جنيف سنة 1929.

La grammaire des fautes : Introduction à la linguistique fonctionnelle.

أشرنا في الفصل السابق إلى بعض الأسماء أمثال روبير غوديل وإنغلر وأماكير وغيرهم. ويحتفظ تاريخُ اللسانيّات الحديثة لأعضاء مجموعة جنيف ولاسيما بالي وسيشهاي بأنهما أخرجا إلى الوجود سنة 1916تعاليم دو سوسير من خلال نشرهما للدروس التي ألقاها في جامعة جنيف ما بين 1907-1911، وهي الدروس التي شكّلت ثورةً حقيقيةً في دراسة اللغة والقضايا المرتبطة بها، وانتقلت بالدراسات اللغوية الحديثة من منهجية تاريخية إلى منهجية وصفيّة. ولم يكن العمل الذي قام به هذان الرجلان بالأمر الهيّن، إذ مهما كان الغموض الذي يكتنف نصوص سوسير، ومهما كانت التساؤلات حول صلاحية هذه النصوص، وهل هي فعلاً لسوسير، أم أنها تأويل وفهم خاص من الناشريْن بالي وسيشهاي لما أملاه أستاذ جنيف على طلبته، فإنهما تمكّنا من تبليغ تصوّرات أستاذهم وزميلهم، ممّا سمح للسانيّات بدخول عهد جديد نعرف جميعاً ملامحه وسماته النظرية والمنهجية، لعل أولها وأبرزها ظهور المنهجية البنيويّة التي انبثقت ونمت في حضن لسانيّات سوسير وأثرت في لسانيي أوروبا وأميركا.

ويكمن "القاسم المشترك بين اللسانيين المنتمين إلى هذه المدرسة في رغبتهم الدائمة في توضيح "**دروس**" دو سوسير وإفهامها، وهي الدروس التي كانوا يدافعون عنها باعتبارها مقبولةً ولا تحتاج لأي نقاش"[3]. وقد اهتمّت المجموعةُ في بداية الأمر بشرح المفاهيم السوسيرية الكبرى، وبتوضيح ما كان غامضاً منها، أو ما احتاج إلى الشرح والتبيان. وغلب على المجموعة في بادئ الأمر فكر سوسير كما تلقوه في "**دروس في اللسانيّات العامة**" وتصوّره للعمل اللسانيّ والمتمثل في جملة من الثنائيات المشهورة مثل: لسان/كلام، و(دال ـ مدلول) ومفهوم العلامة اللغوية، ومفهوم الاعتباطية، والتمييز بين التزامن والتعاقب، والعلاقات السياقية والجدولية وغيرها من المفاهيم الأساس في تناول قضايا اللغة من منظور اللسانيّات التي أرسى سوسير دعائمها. ويلاحظ المتتبع أن كتابات أفراد المجموعة كانت تتميزُ بالحماسة الشديدة لآراء سوسير وتصوراته والدفاع القويّ عنها. وكانت معظم بحوثهم تنشر في مجلة لسانيّة متخصّصة أُطْلِقَ

(3) Maurice Leroy. *Les grands courants de la linguistique moderne,* Bruxelles et Paris, PUF, 1966/1963, p.79.

عليها اسم "**كراسات دو سوسير** *Les Cahiers de F.de Saussure*"، وهي إشادةٌ صريحةٌ بأستاذ جنيف واعتراف بدوره في تأسيس لسانيّات علمية جديدة. وما تزال جامعة جنيف حتى يومنا هذا تصدر هذه الكراسات[4].

ومقاربة أعضاء جنيف لقضايا اللغة مقاربة وظيفية تهتمّ بالغاية المتوخّاة من النشاط اللغويّ عند الأفراد المتكلمين. لقد وردت عبارة "اللسانيّات الوظيفية" عنواناً فرعياً في كتاب فراي H. Frei "**نحو الأخطاء**" في الفترة نفسها التي ظهرت فيها حلقةُ براغ ذات النزعة الوظيفية. وتهدفُ اللسانيّات الوظيفية عند فراي إلى تفسير الوقائع اللغوية التي تعدّ انحرافاً (أخطاء نحوية) عن النسق في ضوء الوظائف التي تقوم اللغة بتلبيتها (حاجات، رغبات غريزية... الخ). والأسلوبية التعبيرية عند بالي تعبيرية وظيفية أيضاً، لأنها تبحثُ في الآليات والوسائل اللغوية والخارج- لغوية التي تجعل التقابل بين الفكر والتعبير ممكناً وبالضبط كيف تتآلفُ عناصر غير متجانسة لتشتغل في الكلام كفعل إرادي فردي[5].

2.2. الإرث السوسيري

عاش أعضاء مدرسة جنيف مدّةً غير قصيرة من حياتهم العلمية في ظل تصوّرات مواطنهم سوسير، وعلى هامش أفكاره. وكان بالإمكان أن يطور العديد منهم الدراسات والمباحث التي كان قد شرع فيها. فنحن نعلم أن كتابات بالي التي أكسبته سمعةً رائدةً في الأسلوبية ظهرت ما بين 1905-1909 أي على حياة سوسير. ونشر سيشهاي سنة 1908 دراسته المتميزة، "**برنامج اللسانيات النظرية ومنهجياتها: علم نفس اللغة**" وهي الدراسة التي سجل سوسير بشأنها، وفي بضعة السطور ارتساماته النقدية كما يتبين من **كتابات في اللسانيّات العامة**[6]،

---

(4) صدر العدد الأول من هذه الكراسات سنة 1941 وما زال صدورها مستمراً. وكان آخر عدد صدر حتى دفع هذا الكتاب إلى المطبعة هو العدد 60/ الذي صدر سنة 2007. وتصدر هذه الدفاتر مرة في السنة عن مطابع دار النشر Droz في جنيف.

(5) انظر كذلك دراسة بالي: **آلية التعبيرية اللغوية**، «Le mécanisme de l'expressivité linguistique» ضمن كتابه *Le langage et la vie* الصادر سنة 1913 وهو مجموعة من المقالات والدراسات.

(6) F. de Saussure. *Ecrits de linguistique générale*, p.258-261.

ويذكر جاكبسون أنه استفاد من دراسة سيشهاي أكثر ممّا استفاد من دروس سوسير. "إن العرض الذي قدّمه تلميذ سوسير ألبرت سيشهاي في كتابه **برنامج اللسانيّات النظرية ومنهجياتها: علم نفس اللغة** هو الذي وجّهني نحو الكيانات الأساسية في هذا التخصص (يقصد اللسانيّات)"[7].

وظهرت في السنوات الأخيرة بعضُ الدراسات التي حاول أصحابها ردّ الاعتبار لأعضاء المجموعة بتبيان أصالة آرائهم اللسانيّة باستقلال عن تصورات سوسير. وكان بالي[8] وسيشهاي[9] موضوعَ عدة دراسات حاولت أن تضعَ حداً لحقبة الظلّ والتعتيم التي طالت تصوراتهما الأصيلة في اللسانيّات والأسلوبية. وقد أَشَّرت هذه الدراسات على بداية حقبة جديدة كشفت عن صورة أخرى غير صورة التبعية التي لازمت بالي وسيشهاي، والمتمثلة في كونهما مجرد ناشرين تكلّفا بتحقيق نصوص دروس سوسير وتوثيقها وتقديم الشروح المساعدة على فهمها. إن جلّ مؤرّخي اللسانيّات والدراسات الأسلوبية هضموا حقّ بالي في كثير من المسائل اللسانيّة الهامة ولم يُنَـزِّلوه المرتبة التي يستحقّها في تاريخ اللسانيّات الحديثة، لعل أبسطها وليس أقلها، دوره الرائد وأسبقيته على العديد من الأسماء مثل، باختين وبنفينيست في وضع اللبنات الأولى للمسار الذي سيعرفه لاحقاً الاهتمام بدور الفرد المتكلم ونشاطه في عملية إنتاج الكلام سواء من خلال أسلوبيته التعبيرية أم من خلال نظرية التلفظ *énonciation*. ولعل في عودة كثير من اللسانيين اليوم في إطار "نظرية التلفظ" إلى آراء بالي، ما يبين أهمّية أفكار هذا اللسانيّ الكبير.

وتشهد دراسات بالي وسيشهاي على أصالة هذين اللسانيين، ودورهما في تأسيس لسانيّات علمية لا يقلّ أهمّيةً على ما قام به سوسير وبلومفيلد. ويمكن

---

(7) Roman Jakobson. «Structuralisme et téléologique», in *Revue ARC* nº60, spécial Jakobson, Aix en Provence, 1975, p.50.

(8) Sylvie Durrer. *Introduction à la linguistique de Charles Bally*, Lausanne, Delachaux et Niestlé, 1998.

Claire Forel. *La linguistique sociologique de Charles Bally*, Genève, Droz, 2007.

(9) Anne-Marguerite Fryba-Reber. *Albert Sechehaye et la syntaxe imaginative. Contribution à l'histoire de la linguistique saussurienne,* Genève, Droz, 1994. (Publications du Cercle Ferdinand de Saussure).

القول بأن في آرائهما تفكيراً عميقاً وتصوّرات جادة شملت بعض القضايا التي عالجها سوسير أيضاً. ولعلّ أبرز مثال في هذا المجال هو الأسلوبية التعبيرية التي اقترحها بالي متجاوزاً العتبةَ التي وقف عندها سوسير وهو يبعد لسانيّات الكلام من دائرة اهتمام اللساني كما **يظهر من دروس في اللسانيّات العامة** 1916. وتمثل آراء بالي في موضوع عمليات التلفظ التي تضمّنها كتابه **لسانيّات عامة ولسانيّات فرنسية** (1932) قفزةً نوعيةً بالنظر إلى لسانيّات سوسير التي تقف عند حدود دراسة نسق اللسان المجرد بعيداً عن الفعل اللغوي الفردي الذي يتجلّى في الانتقال باللسان من حالته كشيء موجود بالقوة إلى حالة الشيء الموجود بالفعل وهو الكلام.

3.2. شارل بالي: القطيعة داخل الاستمرار

تميّز بالي ضمن مجموعة جنيف(10) بتأكيده من جديد على جملةٍ من المبادئ اللسانيّة العامة الواردة في دروس سوسير وأبرزها:

- أهمية الطابع الوصفي للدراسة اللغوية،
- الطابع النسقي للسان وما يترتّب عن ذلك من قِيَم وعلاقات.

بيد أن تبعية بالي لسوسير لم تمنعه من الخوض في بعض التصوّرات اللسانيّة التي انفرد بها، ولعلّ أكثرها وضوحاً إشاراته القوية إلى أهمّية ودور العوامل النفسية الفردية المصاحبة للنشاط اللغوي، لاسيما ما يتعلق بدور المُكَوّن الانفعالي في اللغة. ولم يتردّد بالي في إبراز الجوانب التي اختلف فيها مع سوسير نتيجة تمييزه الصارم بين اللسان والكلام. واعتبر بالي أنّ سوسير أهمل العناصر الانفعالية والعاطفية المتغلغلة في الظاهرة اللغوية، ولم يلتفت إليها على الرغم مِمّا تكتسيه من أهمّية كبرى، لوجودها المستمرّ في حياتنا اللغوية والعملية.

---

(10) لمزيد من الاطلاع يمكن الرجوع إلى أعمال بالي التالية:

- *Traité de stylistique française*, Paris, Klincksieck 1909 2e éd.
- *Le langage et la vie*, Genève, Droz, 3ème éd. 1952/1913.
- *Linguistique générale et linguistique française*, 4ème éd. Berne, A. Francke, 1965/1932.

ويذهب بالي إلى أن الكلام يكون في صراع دائم مع اللسان، وكأنّ الأمر يتعلّق بحرب بين الاثنين. فالكلام يحاصرُ قلعة اللسان الذي يشكّل نسقاً مغلقاً لينتهي الصراع بينهما بأن يدخل الكلام بعض عناصره داخل القلعة، في إشارة لطيفة منه إلى فكرة العلاقة بين اللسان والكلام عند سوسير ومساهمة الأفعال اللغوية الفردية في كل تجديد لغوي أياً كان حجمه وقيمته. ومن هنا كان التمييز لسان/كلام عند سوسير منطلقاً لأعمال بالي في مجال الأسلوبية وعلى وجه التحديد ما يعرف بالأسلوبية التعبيرية *stylistique expressive* ولنظرية التلفظ.

وقد دافع بالي في كتاباته اللسانيّة عن جملةٍ من المحاور الأساسية في دراسة اللغة يمكن اختصارها فيما يلي:

- أهمّية الجانب التعبيري والانفعالي في اللغة،
- دور كلام الفرد وقدرته على تغيير النسق اللغويّ،
- دور اللغة في المجتمع وحياة الفرد والعلاقة المتبادلة بين الجوانب النفسية والاجتماعية عند مستعمل اللغة.

هذه القضايا تعكسها الدراساتُ التي تجمعها كتابات بالي في الأسلوبية ما بين 1905-1909 ودراساته المجموعة في كتابه **اللغة والحياة** *le angage et vie* الصادر سنة 1913.

- علاقة اللغة بالفكر.
- أهمّية عمليات التلفظ *Enonciation* في النشاط اللغويّ.

وهي الموضوعات التي تناولها القسمُ الأول من كتابه الشهير: **لسانيّات عامة ولسانيّات فرنسية** *Linguistique générale et linguistique française*.

1.3.2. شارل بالي من خلال كتابه لسانيّات عامة ولسانيّات فرنسية

يعدّ هذا المؤلَّفُ خلاصة عامة لأفكار بالي اللسانيّة التي تناول فيها جوانب متصلة بدور الفرد المتكلم في النشاط اللغويّ المحمل بالتفاعلات النفسية الفردية والجماعية في ارتباط وثيق بالمقام التواصلي. ويعرض بالي في بداية الكتاب

المشار إليه مجمل الآراء والتصوّرات اللغوية التي سادت عصره موضحاً موقفه منها. وتتعلقُ هذه التصوّرات بطبيعة اللغة ودورها في حياة الأفراد والجماعات في صيرورتها الثابتة والمتغيرة (التطور اللغويّ)، والعلاقة بين الألسن والكيفية الملائمة لدراسة الخصائص المميزة للسان في أبعاده المتعدّدة. ويعتبر بالي مناقشةَ هذه الأمور ضروريةً وحاسمةً في الفكر اللساني، ذلك أن التفكير العام حول الألسن مثقلٌ بالعديد من الأخطاء التي يدعمها ليس فقط جهلنا وعدم معرفتنا بكنه الأشياء، وإنما في العديد من الحالات إراداتنا اللاواعية أو المفكّر فيها.

ومن الأفكار التي تعدّ عوائقَ موضوعية في فهم الطبيعة الحقيقية للنشاط اللغويّ وتحول دون تفسير وقائعه تفسيراً موضوعياً ومقبولاً أمران اثنان[11]:

- البعد الرمزي (الطبيعة الرمزية) الذي ينسب إلى اللغة في حياة الفرد والمجتمع والأمة.
- العلاقة الوثيقة بين الفرد ولغته.

صحيح أن اللسان الأم جزءٌ من حياتنا اليومية، يفرضُ شروطه على حياة الفرد المتكلم والمجتمع والأمة، يعيش فينا ونعيش فيه، يحيا بنا ونحيا به، يخضعُ لرغباتنا وميولنا. وإذا استحضرنا هذه المعطيات الملازمة لعلاقة الفرد باللغة، نتساءل كيف لا يمكن أن تتسرّب العديد من المغالطات والأحكام الجاهزة والقبلية إلى تعاملنا مع اللغة بعيداً عن كلّ ملاحظة موضوعية ونزيهة؟ ومن المؤكّد أن لا أحد ينكرُ أو يشكّ في الارتباط الوثيق بين الفكر الجمعي *pensée collective* واللسان ومظاهره المتعددة والمعقّدة. إلّا أن التعامل الذاتي مع اللغة يقودُ إلى تشبثنا بالعديد من الأحكام الجاهزة. فما حقيقة هذه العلاقة؟

(11) *Charles Bally. linguistique générale et linguistique française*, p.13.
- نتبع بالي في استعمال المصطلحين لغة Langage/لسان Langue بالمعنى السوسيري لهما. فاللغة هي الملكة العامة والقدرة الطبيعية على اللغو. أما اللسان فهو النسق المجرد والمشترك بين أفراد الجماعة اللغوية التي تستعمل هذا اللسان.

2.3.2. اللسان والمجتمع: أية علاقة؟

ما ينبغي توضيحه في هذا الموضوع بالذات والتأكيد عليه بالنسبة إلى شارل بالي هو أن علاقة اللسان بالفكر ليست علاقةً مباشرةً وتلقائية؛ فهو يرفض أن يكون اللسان تعبيراً مباشراً يعكس حضارة وفن وآداب المجتمع الذي يستعمله. إن هذا التصوّر غير سليم البتة. فإذا حللنا الأعمال الأدبية والروائع الفنية الكبرى وجدناها انعكاساً فنياً لما هو فرديّ وذاتي قبل أن تكون شيئاً آخر. وليس العمل الأدبي الرفيع بالضرورة تعبيراً عن الإرادة الجماعية أو الدعاية المجانية للمجتمع أو خطاباً مباشراً باسمه. والبحث عن استنتاج أي علاقة مباشرة بين اللسان والمجتمع ينمّ عن تصوّر متسرع وناقص لطبيعة هذه العلاقة ومكوِّناتها والعوامل الفاعلة فيها وطريقة اشتغالها، علاوة على أنه تصور لا يقوم على إدراك موضوعي وواقعي لهذه العلاقة. يُلاحظ بالي أنَّه غالباً ما يُعتقد أن التطور الذي يصيب اللسان ويمسّ بنياته يكون موازياً لتطور المجتمع ومتزامناً معه"[12]، وأن كل التحولات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والفكرية التي تطرأ على حياة المجتمع يجب أن تجدَ لها تلقائياً ومباشرةً ما يقابلها في البنيات اللغوية التي يتعين أن تحمل آثار التحولات التي يعرفها المجتمعُ في مختلف مستوياته. وينبني هذا الفهم على تصوّر عام يفترض وجود نوع من التوازي *parallélisme* بين اللسان والمجتمع. لكنّ هذا التصوّر لا يستند إلى حُجَج واقعية تدعمه. فهل ثمة فعلاً توازٍ بينهما؟ وإذا افترضنا وجود هذا التوازي، فما طبيعته؟

يبدو اللسان لأول وهلة مفتوحاً على كل التأثيرات الخارجية والتفاعلات التي يحيا في حضنها، وهي عديدة ومتنوعة مثل العلاقات التجارية وصور الغزو في أشكاله المختلفة، من الاستعمار الفعلي إلى الغزو الثقافيّ الماديّ والمعنويّ. ورغم الإقرار بواقع تداخل اللسان بمختلف العوامل المحيطة بالمجتمع والفاعلة فيه؛ فإنّ المتكلمين بهذا اللسان يتجاهلون المؤثّرات الفاعلة، ويستعملون لسانهم كما لو أنّ مؤشرات التفاعل الخارجية والتداخل غير موجودة على أرض الواقع. ويذكرنا موقف بالي بأطروحة مماثلة عند سوسير مفادها أنّ الجماهير المستعملة

(12) Charles Bally. *linguistique générale et linguistique française*, p.14.

للسان لا تدرك حقيقةَ التطور ولا تكون واعيةً به؛ وأنها لا تحفل كثيراً بالتغييرات التي تمسّ جوانب عديدة من اللسان المتكَلَّم به[13].

وينتهي بالي إلى التأكيد على أن هناك ما يشبه المفارقة في موضوع علاقة اللسان بالمجتمع، وتتمثل في كون اللسان أكثر المؤسسات تقليدية واستمرارية، بل هو المؤسسة الاجتماعية الأشد محافظةً من غيرها، لا يطاله التطور والتغيير إلّا بدرجة ضعيفة وبإيقاع بطيء جداً يكاد لا يدرك إدراكاً ملموساً أو مباشراً. وما قد يعرفه المجتمع من طفرات وتحولات سياسية واجتماعية وفكرية وتغيرات في القيم الأخلاقية والطقوس والعادات الاجتماعية لا يعرفُ طريقه إلى اللسان بنفس القوة والدرجة التي تكون عليها التحولات. صحيح أنّ اللسان قد يحمل آثاراً محدّدة ومتفاوتة الأهمّية لتطور الوعي الجمعي *conscience collective*. لكنّ الإقرار بهذا المعطى يطرحُ جملة من الأسئلة الشائكة من قبيل:

- ما طبيعةُ الوعي الجمعي؟
- من يحدّده؟
- وما معاييرُ تحديده؟ كيف يتمّ ذلك؟

واضح أنّ هذه القضايا وما يرتبطُ بها مباشرة أو بطريقة غير مباشرة (مثل رصد مظاهر العلاقة بين اللسان والمجتمع، وهل يعكس اللسان وعياً جمعياً عاماً أم وعياً بعينه أي فردياً) تكاد لا تخلو من ذاتية مفرطة. وممّا لا شكّ فيه، أن المفهوم المنطلق وهو مفهوم الذهنية الجَمْعِية *mentalité collective* يستعصي على كل تحديد موضوعي، ولا يخلو النظر إليه من أحكام قِيمَةٍ يسهل الوقوف عليها[14].

---

(13) F. de Saussure. *Cours de linguistique générale*, p.120 et suivantes.

(14) نشير إلى أن مفهوم الوعي الجمعي مفهوم محوري في علم الاجتماع الدوركهايمي. وقد استثمر سوسير هذا المفهوم في تحديده للسان كوعي مشترك داخل المجتمع. ويبدو أن بالي يتردّد في قبول هذا المفهوم إن لم نقل إنه يرفضه رغم أهمّيته في فهم العديد من المؤسسات الاجتماعية ومن بينها المؤسسة اللغوية. ومقابل ذلك نلحظ لدى بالي تأويلاً حدسياً انسيابياً لقضايا الفكر واللغة عند الفرد المتكلم تذكرنا كثيراً بتصورات الفيلسوف هنري برغسون *Henri Bergson 1859-1941*.

2.3.3. المتكلم وتطور اللغة

قد يبدو لأول وهلة أنّ الفكر أقوى من تَشَكُّل اللسان. لكن حين نُمعنُ النظر جيداً في هذه المسألة ونتأمل بعمق طبيعةَ الفكر واللسان، يظهر العكس أكثر واقعية. إن اللسان الذي نكتسبه منذ صغر سننا ونخضع له طوال حياتنا هو الذي يفرضُ على الفكر صيغاً لغوية محدّدة نخضع لها هي الأخرى طوال حياتنا. ولا يبدو أن جُمْهور الناس على استعداد كامل لقبول مثل هذا الافتراض، ومع ذلك، فهي الحقيقة ـ في نظر بالي ـ ولو في جزء يسير منها. لا أحد يشكّ في أن الفكر يؤثّر في اللسان ويُوَجِّهُهُ بكيفية ما، لكنّ اللسان بدوره يؤطّر الفكر بحسب بنياته وقياسه الخاصة به. فنحن غالباً ما نحاول أن نُكَـيِّف كلامنا مع حاجاتنا ورغباتنا الذاتية، ولكن لا نستطيع أن نفكر باستقلال عن لساننا؛ بل نكون مضطرين إلى إدراج أفكارنا وتصوراتنا فيما يفرضه علينا الاستعمال حتماً ضمن ما هو متاح لدينا من صيغ وبنيات لغوية. إن التغيرات التي يعرفها اللسانُ خلال حقبة معينة تكون في جزء كبير منها ناتجةً عن توجّه جديد للعقول وللذهنيات، ونزوع نحو قيّم فكرية واجتماعية وأخلاقية جديدة. ويمكن للنسق اللغويّ أن يَنْمو بمفرده وباستقلال عن هذه القِيَم، وبالتالي يكون قادراً على أن يُكَيِّفَ الفكر الجَمْعِي في صورة جديدة. لكن كيف يمكن أن نأخذ في الاعتبار هذين المسارين المتناقضين: تطور اللغة وتطور الوعي؟ لماذا تتطور اللغة؟ وكيف تتطور؟ وفي أي سياق؟ ولأي غاية يتمّ التطور؟ إنها أهمّ الأسئلة التي حاول بالي أن يستحضرها لتوضيح موقفه من إشكالية العلاقة بين التطور اللغويّ وتطور الوعي الجمعي.

2.3.4. البنية المنطقية ووضوح اللسان

من الأحكام المسبّقة والجاهزة التي يسهل الأخذُ بها، إما لأنها تبدو جذابة وإما لأنها تُجَامل الحسّ الفردي والجماعي لمتكلمي لسان ما، القول بأن اللسان يتميزُ بالوضوح والصفاء الفكريين أو أن بنيته بنية منطقية. وليس هناك ما هو أسهل من أن نغدق على لسان ما من صفات المنطق والوضوح والدقة، وما إلى ذلك من خصائص تأخذ في غالب الأحيان منحى غير لغوي. وتنتقل هذه الأحكام من اللسان إلى الشعب أو الأمة التي تتكلم هذا اللسان. والغريب في هذا الموضوع بالتحديد أن هذه الأحكام الجاهزة تطلقُ على جميع الألسن وتكون صالحةً لها

كلها بدون استثناء، فكل مجتمع لغوي، وكل شعب يجدُ لسانه أجدر من غيره بهذه الصفات، وأحقّه بها، ويؤمن إيماناً راسخاً بأن لسانه دون غيره من ألسنة الكون الأخرى هو وحده الذي يجمع صفات المنطق والوضوح والدقة. وواضح مرة أخرى وكما هو الحال بالنسبة إلى الأحكام السابقة، أننا أمام أحكام تحتاج إلى ما يدعمها لغوياً، أي استناداً إلى البنيات اللغوية نفسها لتحديد المعنى المقصود بلفظ "منطقي" أو "واضح" وتحديد مفهوم الدقة المشار إليها في هذه الألسن، وأن لا يكون ذلك الحكم انطلاقاً من مقولات قِيَمِيّة ليس لها مضمون لغوي موضوعي يدعمها، ويكشف عن الجوانب المشار إليها. وهكذا يصبح وضوح اللسان الفرنسي *Clarté du français* أيضاً الطريقة التي يفكّرُ بها الفرنسيون. وليس في بنيات اللسان الفرنسي نفسه ما يكشف أنه لسان واضح قياساً إلى لسان آخر مثل اللسان الإنكليزي أو الألماني. وليس بين أيدينا ما يدّلنا على طبيعة الوضوح الذي يُتَحدَّثُ عنه. متى يكون لسان ما واضحاً؟ ومتى لا يكون لسان آخر غير واضح؟[15]. والربط بين المنطق الذي يتحكّم في البنيات اللغوية والوضوح أيضاً من المسائل التي لا نتوفر فيها على ما يؤكّدها أو ينفيها، أو ما يبين طبيعةَ هذه المفاهيم والعبارات ذاتها (البنية المنطقية والوضوح والدقة) التي تُتَّخَذُ موضوعاً للحديث عن الألسن بهذه الكيفية المجردة.

وينتهي بالي في تحليله لهذه القضايا وما يرتبطُ بها من أحكام عامة إلى أننا أمام وجهات نظر متعدّدة؛ لا يرقى بعضها إلى المستوى اللغويّ المطلوب، وبعضها الآخر يظل ذاتياً ومرتبطاً بأحكام قيمية مسبقة وجاهزة. وتطرح مثل هذه القضايا أو على الأصح ما يترتّب عنها من أحكام عامة، على الباحث اللساني جملة من الصعوبات التي تعرقلُ عملية التفكير الموضوعي الدقيق والمتأني في قضايا اللغة. وتقتضي مقاربة هذه الأحكام العامة الجاهزة منهجيةً عامةً واضحةً تقوم على رؤية شمولية ومتكاملة تعيدُ النظر في المكتسبات المحصل عليها في ضوء مستجدات اللسانيّات. وتتمثل الخطوة الأولى في هذا المسار الجديد في نظر بالي[16] في اعتماد المنهجية اللسانيّة التي دعا إليها سوسير واختصرها في نهاية

(15) Charles Bally. *linguistique générale et linguistique française*, p.16.

(16) *Ibid*, p.17.

دروسه في قولته الشهيرة: "إن الموضوع الوحيد والحقيقي للسانيّات هو اللسان في ذاته ومن أجل ذاته"(17)، وبالتالي فإنّ المعرفة السليمة بقضايا اللغة يجب أن تهدف بالدرجة الأولى إلى استخراج آليات اشتغال الألسن نفسها، وليس شيئاً آخر.

ولعلّ بالي في تحليل هذه المواقف التي سادت الدرس اللساني خلال الفترة التي صدر فيها كتابه **لسانيات عامة ولسانيات فرنسية** (1932)، إنما كان يردّ على جملةٍ من التصوّرات العامة المبنية على عَدَد من الأحكام الخاطئة التي كان يروّج لها في مجال البحث اللغويّ قبل أن يصبح مع سوسير علماً قائم الذات ومبنياً على أسس منهجية واضحة. فإلى حدود القرن التاسع عشر بحسب بالي، لم يدرس اللسان من أجل ذاته وفي وظيفته الحقيقية التي هي التواصل والتعبير عن الحاجات الفكرية والانفعالية. لقد كانت الدراسات اللغوية في الحقب الماضية فناً قبل أن تكون علماً. وسواء تعلّق الأمر بالنحو أم بالبلاغة أم "بصناعة الكتابة"، فقد انحصر الاهتمامُ باللسان في حدود التساؤل عما يمكن أخذه من هذا اللسان لتكوين فكر منطقيّ أو لتصحيح الأسلوب وصفائه أو من أجل امتلاك ثقافة أدبية عامة. فهذه الموضوعات وإن كان لها قيمتها؛ فهي غير قادرة على كشف الطبيعة الحقيقية للسان"(18).

يشكلُ اللسان والفكر عند الفرد المتكلم جسماً واحداً. ويمتزجُ اللسان بحياتنا الفردية والمجتمعية. إنه أداة لنقل أفكارنا وآمالنا ورغباتنا، حبنا وتطلعاتنا. إنه رمز لشخصيتنا الفردية والاجتماعية في علاقاتنا بذواتنا وبالآخرين، وهو أيضاً صورة للمجتمع الذي نعيش فيه. ولعل هذا الالتصاق الوثيق بيننا وبين اللسان هو ما يجعلنا نشعر أنه كلّ متماسك ومتجانس، وعبارة عن بناء متراصّ متكامل، أي إنه بناء جاهز قبلياً.

وثمة بعض المفاهيم المحورية التي دارت حولها "لسانيّات بالي" وترتبت عنها جملةٌ من المبادئ المنهجية المتعلقة بدراسة اللسان في البعدين التزامني والتعاقبي وفي مستوياته المتعدّدة. ونذكر من هذه المفاهيم:

---

(17) F. de Saussure: *Cours de linguistique générale*, p.317.

(18) Charles Bally. *linguistique générale et linguistique française*, p.13.

- دراسة اللسان في حالة محدّدة بالمعنى الذي يعطيه سوسير لمفهوم الحالة *état*. فالحالة تجريد منهجيّ لكنه تجريد ضروريّ، لأن الذين يتكلمون لساناً محدّداً لا يكون لديهم في الغالب الأعمّ وعي بالتطور الذي يعرفه لسانهم.
- مفهوم النسق الذي نبَّه إليه سوسير وأكّد عليه غير مرة في دروسه[19].

4.2. نحو لسانيّات الكلام: الأسلوبية التعبيرية

يُولي بالي اهتماماً متميزاً للفرد المتكلم ودوره في النشاط اللغويّ، هذا المتكلم الذي يجب أن يكون هدف الدراسة اللسانيّة ذاتها، إن هي أرادت أن تكون قريبةً من لسان الواقع. لكن ما طبيعة هذا اللسان القريب من الواقع؟ إن الصيغة اللغوية والصيغة-النوع *Forme-type* التي ينبغي أن يُهْتَمّ بها، يجب أن تكون جزءاً من اللسان المتكَلَّم به كما هو في الاستعمال اليومي، حياً يعجّ بالحياة، واضحاً وتلقائياً. إن التقاليد اللغوية التي أرساها أتباعُ المنهج التاريخي وتعتمد في مقاربة اللسان على التنقيب في النصوص وحدها، تفسّر بشكل مُقْنِع إبعاد المحافل الفكرية عموماً واللسانيين خصوصاً عن الالتفات إلى اللسان الحيّ. إن النشاط اللغويّ وحده يكشفُ عن الطبيعة الحقيقية والفعلية للسان. ذلك "أن في توازن اللسان وفي كامل اشتغاله، وفي الكلام يمكن أن نكتشفَ التضامن الموجود بين النسق الصواتي وباقي اللسان"[20].

وتتجلى أهمّ مساهمة لبالي في الدرس اللساني في ريادته للدراسات الأسلوبية الحديثة بصفته قدَّم، من الناحية التاريخية، أولى المحاولات العلمية الخاصة بدراسة خصائص الأسلوب على أسس مستمدّة من النظرية اللسانيّة الجديدة عند سوسير. وتهتمّ الأسلوبية التعبيرية *stylistique expressive* عند بالي برصد الإنجاز اللغويّ والتعبير الانفعالي عند الفرد المتكلم. وتدور أسلوبيته حول العناصر الانفعالية والعاطفية في اللسان، فما يتميزُ به اللسان هو الحضور القويّ

---

(19) *Ibid*, p.17.

(20) *Ibid*, p.21.

والمكثف للبعد العاطفيّ والانفعاليّ مقابل غياب البعد التمثيلي. والحالات التي يستعمل فيها اللسان للتعبير عما هو تمثيلي (فكري محض) هي حالات نادرة، لاسيما عند الفرد المتكلم العادي الذي غالباً ما يستعمل اللسان للتعبير الانفعاليّ بالدرجة الأولى. ويلجأ المتكلم العادي إلى هذه الأساليب اللغوية للإفصاح عن انطباعاته ورغباته وإرادته. فالأسلوب إنجاز فرديّ يختلف من متكلم إلى آخر. وعندما يصل المتكلم إلى غاياته يكون الهدف من العملية اللغوية قد تحقّق. وتشكّل الأساليب الفردية نوعاً من التمرّد داخل الاستعمال الفردي للكلام يحاول من خلاله الفرد المتكلم أن يغير النسق الذي يمثله اللسانُ المشترك.

ولتطوير ثنائية لسان/كلام وإخراجها من النفق المسدود الذي وصلت إليه مع سوسير أدخل بالي مفهوم التحيين *Actualisation*(21) المرتبط بظاهرة النقل *transposition* أي تحوُّل مقولة نحوية إلى أخرى وهو الانتقال من النسق الضّمني [اللسان] إلى النسق الملموس المتجلي في الكلام كنشاط فردي. ولا يقتصرُ أسلوب الفرد المتكلم العادي في التعبير الانفعالي عن حاجاته، بل يصدق الأمر أيضاً على الأسلوب الأدبيّ الرفيع وهو أسلوب يحملُ بصماتِ الأديب والمبدع كفرد متكلم واعٍ وعياً تاماً بالاستعمال الفنّي للسانه مِمّا يجعله يضيف إلى كلامه غاية جمالية. إن الإبداع اللغويّ استعمال فرديّ غريب للسان المشترك، والأساليب الأدبية ليست سوى مجموع الأساليب الفردية.

يميِّز بالي بين العناصر الفكرية التي تمثّل الفكر الخالص *pensée pure* والعناصر الانفعالية *éléments affectifs* في النشاط اللغويّ. ويقوم التوازن بين الفكر والتعبير عنه على فرضية عامة مفادها أن الوقائع النفسية والوقائع اللغوية ذات طبيعة واحدة. فالتعبير مجال تصبح فيه علاقة الفكر باللسان متجلية، لتصبح التعبيرية *expressivité* في اللسان هي العلاقة التي تجمع الكلام بالفكر. هذا التصوّر

---

(21) *Ibid*, p.120.

والتحيين عملية يتمّ بواسطتها الانتقال من اللسان إلى الكلام، وتحيين مفهوم ما يعني تحديده بتمثيل فعلي للفرد المتكلم. ويصبح المفهوم بفضل التحيين مموقعاً في الزمان والمكان كما يصبح مُكَمَّماً *quantifié* أي يتوفر على سور *quantificateur* يحدّد كميته.

Dubois et al. *Dictionnaire de linguistique et des sciences du langage*, p.15, Paris, Larousse/Bordas/Hor, 1999/1972.

لعلاقة الفكر بالكلام يجعل أسلوبية بالي التعبيرية محمّلةً بنفسانية فردية وجماعية، تعودُ في أصولها الأولى إلى أعمال فونت (1932-1920) Wilhèm Wundt مؤسّس علم النفس التجريبي، وهرمان بول (1921-1846) Hermann Paul الذي سعى إلى تفسير العوامل المتحكّمة في التطور اللغويّ استناداً إلى اعتبارات نفسية عند الفرد المتكلم. وتقوم نفسانية بالي [وسيشهاي] على ملاحظة ما يجري في ذهن المتكلّم في اللحظة التي يعبِّر فيها عمَّا يفكّر فيه. ويؤكّد بالي أن أسلوبيته تنتمي إلى مجال اللسانيّات وليس إلى مجال علم النفس، أي إنه يهتمّ بالجانب التعبيري من الناحية اللغوية أكثر من الاهتمام بالجانب النفسي[22].

ومثلما هو الحال عند سوسير، فإن مفهومي النَّسَق والقِيْمة يلعبان دوراً أساسياً في أسلوبية بالي التعبيرية[23].

5.2. نفسانية مدرسة جنيف

ما يُميِّز المُقاربة اللسانيّة عند بالي ـ وكذا باقي أعضاء مجموعة جنيف لاسيما سيشهاي ـ هو التأكيد القويّ على الطابع النفسي الذي تقومُ عليه العمليات اللغوية في تداخل تام مع المنطق، "أي إن تصوّر النشاط اللغويّ عند الفرد والقضايا اللغوية المرتبطة بهذا النشاط تبنى بالأساس في عملية التلفظ *Enonciation* على التداخل بين عوامل ثلاثة: ما هو لغويّ، وما هو نفسيّ، وما هو منطقي". وتتشابك العواملُ السيكولوجية للفكر مع نسيجها المنطقي، لدرجة أنه لا يمكن القيام بعزلها في التحليل المنطقي"[24]. وتكون الصيغة اللغوية بدورها غير قابلة للعزل عن المكوِّنين الآخرين (النفسي والمنطقي). ويتضح هذا التداخل بشكل جلي عند بالي في تعريفه للجملة[25].

ومن الأفكار الجديدة التي تعدّ بمثابة استثمار لبعض المفاهيم البلاغية والمنطقية الموروثة عن التقاليد الفلسفية اليونانية تحليل بالي الجملة إلى مكوِّنَيْن أساسيين هما:

---

(22) Charles Bally. *Précis de stylistique*, Paris, Klincksieck, 1951/1909, p.2 et p.16.

(23) Charles Bally. *Précis de stylistique*, p.vii, et p.256.

(24) C. Bally. *Linguistique générale et linguistique française*, p.35.

(25) *Ibid*, p.17-20.

- المَقُول *Dictum*
- الجِهة *Modus*

ويدعو بالي من خلال هذا التمييز إلى ضرورة أخذ المعطيات النفسية التي تحملها الجملة في الحسبان، وهي معطيات لا يمكن تجاهلها، نظراً لدور الفرد المتكلم وأهمّيته في إنجاز عملية التلفظ التي تحقّق الجملة نفسها. فتدخل المتكلم في كل جملة ينتجها، وفي كل لحظة كلامية أمر لا محيد عنه في تحليل الجملة. إنّ الفعل اللغويّ *acte langagier* لا يمكن ردّه لتمثيل خالص وبسيط للفكر أو للبنية المنطقية الصرف، بل هو فعل يتطلب مُشاركة فعَّالة للفرد المتكلم. فالنشاط اللغويّ يحمل دائماً طابعاً شخصياً تعبيرياً أو على الأصحّ انفعالياً يُحيل على فاعل الملفوظ. ولا وجود لجملة لا تتضمّن قيمة جهيّة *modale*. وتحتوي كل عملية تلفظ ـ من هذا المنطلق ـ عمليتين متميزتين ومتكاملتين:

أولاً: تبليغ فكر معين.

ثانياً: الصيغة اللغوية التي تحمل حُكْماً فكرياً أو انفعالياً تجاه الفكر المُعَبَّر عنه.

لذا ينبغي البحث في كل جملة عن هذين المكَوِّنَين الأساسيين في عملية التلفظ اللذين هما المقول والجهة. وتربط كل جملة بين جزءين:

- جزء متعلّق بالحدث الذي يكَوِّن التمثيل ويسمّيه بالي المَقُول *dictum* على غرار ما هو مصطلح عليه في المنطق. فالمَقُول هو المحتوى القضوي الذي يحمل القضية المراد التعبير عنها، أي القضية في جوهرها الأولي التي يريد المتكلم التعبير عنها. ولهذه القضية بنية منطقية هي: الموضوع والمحمول بالنسبة إلى الألسن الهندية - الأوروبية (أو المسند والمسند إليه بالنسبة إلى العربية).
- جزء آخر هو حجرُ الزاوية في الجملة، وبدونه لا تكون ثَمَّة جملة، ويتمثل في التعبير عن النشاط الفكريّ الذي يلازم ما يعبِّر عنه الفرد المتكلم أو يرتبط بما يقوم به من عمليات تشكّل روح الجملة. ويتضمّنُ هذا الفعل معنى الإثبات *assertion* وفاعله مثلاً: أكد. ويشكّل الفعل

وفاعله ما يسمّى بالجِهة *modalité /modus*. والجِهة عملية نفسية تتعلّق بالفرد المتكلم وتكون موجّهة نحو الملفوظ أو القضية *proposition* وهي بمثابة موقف المتكلم من الفكر التي يريد أن يعبِّر عنه. ولا يمكن أن نسند قيمةَ الجملة إلى أيّ عملية تلفظ ما لم نجد فيها تعبيراً عن هذه الجهة التي تجسّد النشاط الفعلي للمتكلم ودوره في الجملة. ويتضمّن الفعل الجهيّ لُوَينات مختلفة للتعبير عن الحكم والإحساس والإرادة. وللجِهة بنية تشبه بنية المَقُول. وكما نجد الموضوع والمحمول في المَقُول نجد الموضوع الجهيّ والمحمول الجهيّ.

ولفهم طبيعة هاتين العمليتين وحضورهما في الجملة، ينبغي أولاً أن نبدأ بتحديد طبيعة الفكر نفسه. ما الفكر؟ وما معنى أن نفكّر؟ إنّ الفكر ليس مجرد تمثيل *représentation* بسيط في غياب مُشارَكة إيجابية للفرد المتكلم[26]. فتبليغ الفكر يتطلب صيغة منطقية تقوم بتمييز التمثيل الذي تتلقاه عن طريق الحواس أو الذاكرة أو الخيال عن العملية النفسية التي يقومُ بها الفكر للتعبير عن هذا التمثيل. إنّ الفكر ردّ فعل محدّد إزاء تمثيل معيَّن، وذلك بمعاينته أو تقديره أو الرغبة فيه[27]. ومعنى "الفكر" أيضاً هو أحدُ الأمور التالية:

- أن نحكم على شيء ما بأنه كذا، أو ليس كذا،
- أن نُقدِّر أن هذا الشيء مرغوب أو غير مرغوب فيه،
- أن نتمنى أن يكون هذا الشيء كذا أو لا يكون على هذا الوجه.

ومن أمثلة هذه المواقف الثلاثة أننا قد "نظنّ أن السماء تمطر" أو "لا نظنّ ذلك" أو "نشكّ في ذلك"، أو أننا" نُسَرّ أن السماء تمطر" أو "نقلق لذلك"؛ وأخيراً قد "نتمنى أن تمطر السماء" أو "لا نتمنى ذلك".

في الحالة الأولى نصدر حكماً *jugement* بشأن حدث معين.

(26) Charles Bally. *linguistique générale et linguistique française*, p.36.

(27) *Ibid*, p.35.

في الحالة الثانية نصدر حكم قيمة،

وفي الحالة الثالثة نعبِّر عن رغبة.

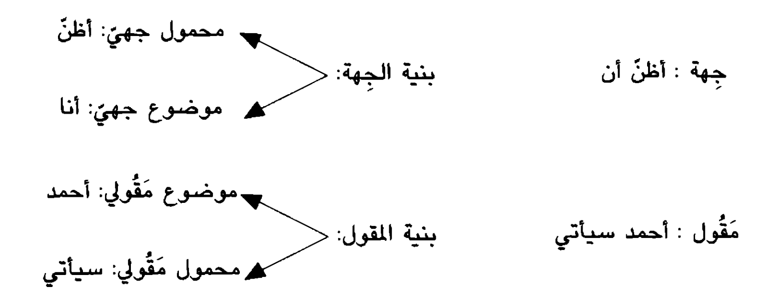
في جملة مثل:

- أعتقدُ أنّ المتهم بريء

يقوم الفرد المتكلم "أنا" بعملية فكرية فعلية خاصة به (أعتقد) إزاء تمثيل محدّد (براءة متَّهم)، بحيث إن الفعل النفسي يُحَيِّنُ *actualiser* التمثيل، ويشكل فعلُ الاعتقاد في هذه الجملة الجهةَ التي هي جوهرُ التمثيل ونواته، وبالتالي موضوع الجملة *thème*. أما المَقُول فهو التعليق *Rhème* على هذا الموضوع(28).

وترد الجِهة في الجملة صريحة أو ضمنية. فمن أمثلة الجِهة الصريحة جملة:

- أظنّ أن أحمد سيأتي، التي يمكن تحليلها كما يلي:



ومن أمثلة الجِهة الضمنية الجملة:

- اخرج

وهي تتضمّن جِهة تدلّ على الأمر (أنا آمرك).

وقد يحتاج المتكلم لبعض الأدوات اللغوية للتعبير عن موقفه من القضية المعبَّر عنها مثل:

(28) *Ibid*, p.38.

- أفعال الجِهة (يظهر/ يبدو/ يمكن/ . . .)
- الظروف أو التعبيرات الجهيّة أو مساعدات الهيئة (*Auxillaire de mode*): ربما/ لاشك/ أكيد[29].

وليست ثنائية مَقُول/ جِهة إحياء لثنائيات أخرى مثل: شكل/ مضمون أو تعبير/ فكر التي كانت متداولة في الفكر الفلسفي القديم وفي علم النفس نهاية القرن التاسع عشر على وجه التحديد.

ويشتركُ بالي في الاهتمام بهذه القضايا اللغوية القائمة على العلاقة الوثيقة بين الفكر واللغة مع باقي أعضاء مجموعة جنيف لاسيما سيشهاي.

6.2. سيشهاي: تأسيس اللسانيّات بين حرية الفرد وقيد اللسان

على الرغم من صلة بالي وسيشهاي الوثيقة بسوسير فهما يتميزان عنه في بعض المنطلقات التصوّرية التي يبنيان عليها أفكارهما وتترتب عنها جملة من المواقف. وحتى في بعض الأمور التي اشتهر بها سوسير مثل ثنائية لسان/ كلام وما ترتب عنها من نتائج نظرية ومنهجية هامة، كان لبالي وسيشهاي رأيٌ آخر. وقد مرّ بنا تقديم موجز لأهمّ تصورات بالي وتحديداً مسألة علاقة اللسان بالكلام. أما سيشهاي فكانت له اهتمامات وانشغالات لسانيّة أخرى غريبة عن السوسيرية نفسها"[30]. فقد عُرف بدراسته **(برنامج اللسانيّات النظرية ومنهجياتها)** الصادرة سنة 1908 والتي سعى فيها إلى بناء نحو الفكر *grammaire de la pensée* على أُسُسٍ نفسية.

ومقارنة بسوسير، الذي دعا إلى تأسيس لسانيّات علمية على أساس دراسة المتجانس الذي يتجلى في اللسان ولا شيء غير المتجانس فيه، يشترك بالي وسيشهاي معاً في ما يمكن أن نسمّيه بالتفجير الواعي لثنائية لسان/ كلام، تفجير تمخّض عنه ظهور نظرية غير مسبوقة في اللسانيّات البنيويّة تقوم على مفهوم

---

(29) *Ibid*, p.45.

(30) André Meunier. «Sechehaye et Bally»: Le sujet et la vie, p.145, in *DRLAV* n°30/ 1984, Paris, Centre de Recherches de l'Université de Paris 8.

الفاعل المتلفظ *le sujet énonciateur*. فلا يلبث الفرد المتكلم المختفي الذي يئنّ تحت ضغط لسان الجماعة بكيفية سلبية عند سوسير أن يقفز مع بالي وسيشهاي إلى الواجهة. وقد ظهر الجزءُ الأول من هذا التفجير مع عملي سيشهاي **برنامج اللسانيات النظرية ومنهجياتها** (1908) **ومحاولة في البنية المنطقية للجملة** 1926[31]. أما الجزء الثاني منه فقد ظهر مع بالي في كتابه **لسانيّات عامة ولسانيّات فرنسية** 1932 الذي وقفنا على المنطلقات التي حَكَمَت تصوّراته الكبرى. ومعلوم أنّ هذا المشروع الهام الذي وضع لَبِناته الأولى بالي وسيشهاي سيعطي نتائجه النظرية في أعمال بنفينيست وجاكبسون وكوليولي في إطار ما يعرف بنظرية التلفظ أو العمليات التلفظية *Les opérations enonciatives*.

ولفهم طبيعة الخلاف بين سوسير وبالي وسيشهاي ينبغي الرجوع إلى السياق الفكريّ العام الذي نوقشت فيه مسألة تأسيس اللسانيّات وقيامها كعلم مستقلّ عن غيره من المعارف اللغوية أو التي تهتمّ باللسان، علم يشارك باقي العلوم في مقوماتها التصوّرية والمنهجية كما حدّدتها فلسفة العلوم في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. ولَمَّا كانت اللسانيّات تطمحُ إلى الاستقلال والعلمية فقد كان لزاماً على اللسانيين طرح طبيعة موضوعها أولاً ثم علاقاتها بغيرها من العلوم الإنسانية والاجتماعية ثانياً، ولاسيما العلاقة التي تجمعها بعلمين يتقاسمان معها اللغة، علمين أطلا في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين على الأوساط الفكرية ولقيا ترحاب الدارسين وحظيا باحترام العلماء، وهما علم الاجتماع وعلم النفس. ويتعلقُ الإشكال المحوري الذي دار حوله النقاش بطبيعة الحدث اللغوي. هل الوقائع اللغوية ذات طبيعة بيولوجية نفسية أم ذات طبيعة اجتماعية؟ وبالتالي هل تكون اللسانيّات جزءاً من علم الاجتماع أم من علم النفس؟. سلك الاختيار الأول الفرنسي مِييه وتبعه عدد غير قليل من اللسانيين أمثال فندريس. أما الاتجاه الثاني فسار فيه اللسانيّ الهولندي فان جينيكن[32] (1877-1945) *Van Ginneken* وتبعه سيشهاي وبالي إلى حدّ ما. وقد عرضنا سابقاً لموقف سوسير من هذه المسألة في

---

(31) *Programme et méthodes de la linguistique théorique. Psychologie du langage*, Paris, Champion, 1908.

Essai sur la structure logique de la phrase, Paris, Champion, 1926/1950.

(32) Van Ginneken. *Principes de linguistique psychologique, essai de synthèse*, 1907. =

الفصل السابق، وهو الموقف المتمثل في أن الوقائع اللغوية وقائع اجتماعية بامتياز. فاللسان بالنسبة إلى سوسير جزء من الوعي الجمْعي بالمفهوم الدوركهايمي للكلمة. وقد سبقت الإشارة إلى رفض بالي ضمنياً لمفهوم الوعي الجمعي. ولا يختلف موقف سيشهاي عن موقف مواطنه سوسير إلّا في جانب واحد يستحقّ التسجيل لأهمّيته. فسيشهاي يسعى إلى أن يؤسس علماً لسانيّاً جديداً ينتقل باللسانيّات من علم بالوقائع البيولوجية كما هو الحال عند (شلايشر) وعلم بالوقائع الاجتماعية الذي نادى به كل من مِييه وفندريس إلى علم بالقوانين. وسيشهاي في هذا يتفق كلياً مع سوسير في كون الوقائع اللغوية ذات طبيعة نفسية اجتماعية، لكنه يختلفُ معه في كون هذا العلم بالقوانين يجب أن يتمّ في إطار فكريّ عام يحترم مبدأ حرية الفرد. فالمصادرة الأساس - حسب سيشهاي - في كل فكر وكل علم، وفي مجال نسبي كلياً حيث يصطدم ذكاؤنا، يجب أن نحافظ على حقّ مبدإ تأكيد اعتقاد ما أو رفضه. ولهذا فإن الفكر وكل ما يضمن اشتغاله ينبغي أن يتمّ في مستوى ما نسمّيه الحرية تحت مراقبة وعينا الفردي[33]. ولعل هذا المطلب الميتافيزيقي للحرية هو الذي جعل سيشهاي يبتعد عن سوسير[34] الذي ربط اللسان عند الفرد المتكلم بسلطة المجتمع حيث لا يتدخّل الفردُ في اللسان وإنما يتقبَّله سلباً. إنّ اللسان من منظور سيشهاي ينفلت من إرادة الفرد على الرغم من أنه في وعيه. فإذا كان اللسان من عمل المجتمع، فإن الفكر يعني آليات اللسان، أي إننا نخلق اللسانَ ونبدعه حتى يكون في خدمة الفرد المتكلم الذي عليه أن يخضعَ لقوانين لسانه، دون أن يكون مستعملاً بسيطاً لهذا الكنز الموجود فيه. وبين الفرد المتكلم ولسانه حسب سيشهاي نوع من التوتّر. فمن جهة يمثل المجتمعُ الذي يخلق اللسانَ ويراقبه، القيدَ والإكراه المجتمعي الذي يحاصر الفرد المتكلم، ومن جهة

= للاطلاع على تصورات هذا الرجل المعاصر لسوسير والقريب فكرياً من أعضاء مجموعة جنيف يمكن الاطلاع على دراسة:

Marcin Sobieszczanski. Contribution du R.P. Jacq Van Ginneken à la linguistique moderne, in *Histoire, Epistémologie langage*, 12/1, Lille. Presses Universitaires de Lille. 1990.

(33) Albert Sechehaye. *La pensée et la langue ou comment concevoir le rapport organique de l'individuel et du social dans le langage*, p 73, in J. C. Pariente. *Essais sur le langage*, p.69-96, Paris, Minuit, 1969/1933.

(34) A. Meunier, op. cit, p.146.

ثانية، فإن المتكلم بصفته كائناً حياً، يحاور لسانه ويسعى باستمرار إلى تجاوزه. وليس مفهوم اللسان بالنسبة إلى سيشهاي معطى تاماً وجاهزاً عند الفرد، ولكنه يُبْنى تدريجاً ومرحلياً (اكتساب اللسان عند الطفل عبر مراحل) مما يبين نوعاً من التحول لدى المتكلم في علاقته باللسان. إنّ اللسان ليس مركزاً قاراً في ذاته، ولكنه متعلّق بالفعل الكلامي عند الفرد المتكلم، انطلاقاً من مفهوم القِيْمة *valeur* عند سوسير نفسه. صحيح أنه لا قِيْمة لأية علامة (كلمة) في ذاتها، وإنما تحدّد قِيْمتها بالقياس إلى ما يوجد معها من علامات في النسق نفسه. والسؤال الذي يطرحه سيشهاي هو: هل الكلمة الواحدة في لسان معين، لها قيمة في إطار العلاقات التي تقيمها مع الكلمات التي أعرفها أنا الفرد المتكلم وأستعملها على وجه التحديد، أم أن قيمتها تتحدّدُ في إطار العلاقات التي تربط هذه الكلمة بباقي كلمات النسق في اللسان بصفة عامة؟[35]. يُشير سيشهاي إلى أنّ الفردَ المتكلم هو الذي يحدّد قِيَم الكلمات انطلاقاً من سجلّ *répertoire* الكلمات الذي يملكه ويتصرف فيه. إنه فهم وتأويل مغاير للطبيعة الاجتماعية لمفهوم اللسان انطلاقاً من مفهوم القِيْمة الذي وضعه سوسير. فالمفردة الواحدة في لساني لا تُعَدُّ كلمة من اللسان العربي إلّا إذا استعملتها بكيفية تجعلني أفهمُ تحت المراقبة الدائمة الاستعمالَ المُلاحَظ حولي، ولا تقوم علاقات التداعي أو الترابط بين هذه الكلمة وكلمات أخرى لتأخذ قيمتها ـ حسب تعريف سوسير ـ إلّا من خلالي كمتكلّم أو عند أيّ متكلم آخر باللسان العربي[36]. يرفضُ سيشهاي المقاربة السوسيولوجية للسان التي تدفعنا إلى الاعتقاد بوجود لسان في ذاته *une langue en soi* خارج الأفراد المتكلمين، يكون فاعله *sujet* غير قابل للتصور. والقول بأن اللسان أو أيّ مؤسّسة اجتماعية توجد في المجموعة البشرية، يعني أنّ هذا اللسان يوجد في كل واحد من الأعضاء المفكّرين والفاعلين بالقياس إلى هذه المجموعة ككل (...) فالمواجهة *le dualisme* بين الفرديّ والاجتماعي توجد في ذواتنا نحن[37].

---

(35) Albert Sechehaye. *La pensée et la langue ou le comment concevoir le rapport organique de l'individuel et du social dans le langage*, p.79.

(36) *La pensée et la langue ou le comment concevoir le rapport organique de l'individuel et du social dans le langage*, p.80.

(37) *Ibid*, p.79.

وليس هذا الاختلاف بين سوسير وسيشهاي بيسير. فالقول باللسان المشترك والمجرد الموجود خارج الأفراد ـ أو فوقهم ـ لا وجود له عند سيشهاي. إن اللسان جملةً وتفصيلاً وبطبيعته، ليس نتاجاً أعدَّته قوى سِرّية مختبئة في الطبيعة الإنسانية، ولكنه عمل ذكاء فرديّ، إنه اختراع بنفس أهمية سَكَينِنَا وأدواتنا وكل ما اخترعه الإنسان لتلبية حاجاته[38]. ويعتبر سيشهاي أنّ اللسانَ في المنظور الاجتماعي عند سوسير وغيره من رجالات هذه الفترة يـَحُدُّ من حرية الفرد المتكلم. فاللسان بالنسبة إلى الفرد المتكلم أشبه ما يكون "بسجن يكون فيه الفكرُ مقيداً، وعليه أن يتخلى عن قسط من حريته أو عن حريته كاملة"[39]. و"اللسان أيضاً كمين يقع فيه الفكر"[40]، وبالجملة ينبغي العملُ على تفادي هذه القوة التي يفرضها اللسانُ على الأفراد وهي قوة تشبه قوة القدر"[41]، وبالتالي لا شيء يلزمنا بتبنّي الموقف الذي ينظر إلى اللسان في ذاته وخارج الأفراد. إن خصائص اللسان بهذا المعنى لا تختلفُ كثيراً عن باقي المؤسّسات مثل، العادات والمعتقدات والتنظيم السياسي. "فاللسان كمجموعة من العادات اللغوية المتواضع عليها والسائدة في مجتمع مُعَين هو نتاج حياة هذا المجتمع ووظيفته، وهو الذي يضمنُ الاتصال النفسّي الضروريّ للأفراد باعتبارهم كائنات مفكرة في الحياة الاجتماعية"[42]. ويوجد اللسان كباقي المؤسسات الاجتماعية بوصفه شيئاً خارج الفرد المتكلم وينفلت من قبضته، وعليه أن يخضعَ له ويقبله حتى لا يقع تحت طائلة كسر عُرَى الروابط الاجتماعية التي تجمعه بباقي عناصر المجتمع[43].

ومقابل تأكيد سوسير على الدور الاجتماعيّ للسان، يركّز سيشهاي على الجانب النفسي عند الفرد عندما يتكلم اللسان ويفهمه، محاولاً الوقوف على الكيفية التي يتدخلُ بها هذا الفرد. فالعملية اللغوية التي يقومُ بها المتكلم ليس لها خصائص النشاط النفسي العادي ولكنها فعل "ذكاء مُبْدِع ومُنَظِّم".

(38) *Ibid*, p.74.
(39) *Ibid*, p.81
(40) *Ibid*, p.88.
(41) *Ibid*, p.78.
(42) *Ibid*, p.77.
(43) *Ibid*, p.77-78.

فالكلام ليس مجرد فعل لا إرادي *réflexe*، لأنّ التعبير عن الفكر ليس عملية اعتيادية بسيطة ولكنه استعمال إيجابيّ للسان، وهو ما يعني أنّ فهم ما يُسْمَعُ يتطلب التعرف إلى عدد من العمليات النفسية المعقّدة القائمة على الحدس والتأويل والاختيار. "فاللسان مجموع طرائق التعبير التي يلاحظها الدماغ ويؤولها ويسجلها"(44).

7.2. لسانيّات الكلام المنظّم

إنّ تأكيد سيشهاي على أهمّية فعل الكلام الفردي ودوره في حركية النشاط اللغويّ، بل وأسبقيته، موجود عند سوسير وإن بصورة أقلّ حماسةً لدور فكر الفرد ولمساهمات علم النفس الفردي. ويكمن جديد إعادة قراءة سيشهاي لثنائية سوسير لسان/كلام ـ في نظرنا ـ في ما تمّ استخلاصه من نتائج نظرية، حيث يميز سيشهاي بين ثلاثة أنواع من اللسانيّات:

- **لسانيات سُكونية** *linguistique statique* تدرس وقائع اللسان في ذاته منظوراً إليها من زاوية ساكنة، ولا تختلفُ في شيءٍ عن لسانيّات اللسان عند سوسير *Linguistique de la langue*.
- **لسانيّات تطورية** *linguistique évolutive* وهي التي تدرس مظاهر التغيير الطارئة على الألسن.
- **لسانيّات الكلام المُنَظَّم** *linguistique de la parole organisée* وتهتمّ بما هو قبل نحوي *Pré-grammatical* أي دراسة التعبير الحرّ والتلقائي السابق لكل تنظيم متواضع عليه *conventionnel*(45) في اللسان. ويقع موضوع هذه اللسانيّات بين اللسان النَّسَق بوصفه بصمات موضوعة في الدماغ كما يصفه سوسير والكلام الفوضى الذي هو مجال الفرد المتكلم، الحرّ في إنجازاته. فكل إبداع في اللسان يرجعُ في نهاية الأمر إلى اختيار يقوم به

(44) *Ibid*, p.75.

(45) Albert Sechehaye: *Essai sur la structure logique de la phrase*, p.219, Paris, Champion, 1926/1950.

الفرد"[46]. ويشكّل الكلام بهذا المعنى مجالاً لدراسة المظاهر التي تجسّد الأفعال الكلامية الطارئة والعرضية التي يكون فيها اللسانُ في خدمة الفكر. وتقوم لسانيّات الكلام المنظّم على رصد الكلام في طور الإنتاج، أي الكيفية التي يستعمل بها الأفراد المتكلمون المواد المتاحة لهم في اللسان لإدخال بعض التنوّعات التي تُوَلِّدُ النسق[47]. وتجسّد لغة الأطفال نموذجاً لموضوع لسانيّات الكلام المُنَظّم حيث تعكس هذه اللغة بوضوح مراحل نشأة الجملة وتكوُّنها من الناحية (الفكرية) النفسية.

وتتداخلُ هذه اللسانيّات الثلاث في إطار أوسع يتعلّق بدراسة الكلام كفعل إرادي تلقائي وحرّ يكون في خدمة الحياة المندمجة في الوسط الإنساني، أي جميع الظروف والملابسات التي تفسّر لنا ظهور اللغة ما قبل النحوية، حيث يمكن أن نتعرف إلى ردود فعل المتكلم الانفعالية وإشاراته التعبيرية، ويتعلق الأمر بما أسماه سيشهاي بعلم "التعبير التطبيقي" ما قبل نحوي. ومعلوم أن سوسير لم يتجاوز تقسيم اللسانيّات إلى لسانيّات اللسان ولسانيّات الكلام، كما أنه لم يتمكّن من استخلاص كل النتائج المنهجية المتعلّقة بالتقابل بين اللسان والكلام، مكتفياً بالإشارة إلى الحركية المتبادلة بين الوقائع اللغوية ذاتها، فاللسان موجود من أجل الكلام ولكنه يوجد منه أيضاً. واللسان ينبثقُ من الكلام ويجعله ممكناً، لكن لا شيء يجبرنا بأن نجعل الواحد قبل الآخر أو الواحد فوق الآخر"[48]. غير أنّ الأمر يختلف بالنسبة إلى سيشهاي. ففي مستوى هذا التجريد للظاهرة اللغوية هناك مبدأ التبعية والتصنيف، فهو "يضع الكلام في شكله ما قبل النحويّ سابقاً على اللسان، والأمر كذلك في جميع الواجهات (. . . .). إن علم الكلام رابط ضروريّ بين معرفة حالات اللسان الراهنة ومعرفة التطورات، كما تشير إلى ذلك الخُطَاطة التالية[49]:

(46) Albert Sechehaye. *La pensée et la langue ou comment concevoir le rapport organique de l'individuel et du social dans le langage*, p.74.

(47) Maurice Leroy. *Les grands courants de la linguistique moderne*, Paris, Bruxelles, PUF, 1966, p.112.

(48) Albert Sechehaye: *Essai sur la structure logique de la phrase*, p.219.

(49) *Ibid*, p.219-220.

ما قبل نحوي } < كلام منظّم < تطور.

خاتمة

لم تكن لمجموعة جنيف منهجية لسانية متماسكة وموحّدة مثلما هو الأمر عند حلقة براغ والغلوسيماتية، بل كانت أعمال لسانييها عبارة عن نوع من الاختبار المتردّد والمتفرق لأفكار سوسير الواردة في "**الدروس**". لكن يجب الإقرار من جهةٍ ثانية بأن بالي وسيشهاي تجاوزا كثيراً من المسائل التي وقف عندها سوسير، خصوصاً مسألة لسانيّات الكلام التي اقتحماها بشجاعة نظرية قلّ نظيرها وحماسة شديدة فاتحَيْن آفاق جديدة في معالجة قضايا اللغة. ويذكر جاكبسون أنه استفاد من سيشهاي في تصوّره حول نسقية اللسان من الناحية الصواتية[50]. وقد اعتبر مالمبرغ أن بداية أعمال سيشهاي العلمية تقودُ مباشرةً نحو مرحلة اللسانيّات التي ستشكل ميلاد البنيويّة [51].

ومما لا شكّ فيه أن ريادة بالي للأسلوبية التعبيرية يعدّ في ذاته إثراءً وتكملةً إيجابية لسوسير. غير أنّ إغراق التحليل اللساني في نفسانية غير واضحة المعالم تتأرجح بين تصوّرات فونت (1832-1920) *Wilhem Wundt* بالنسبة إلى بالي وعلم نفس فان جنينيكن *Van Ginneken* بالنسبة إلى سيشهاي، كان وراء عدم حماسة كثير من اللسانيّين الذين أبدوا تحفّظهم (المنهجي) على البرنامج الذي عبَّر عنه بالي في دراساته الأسلوبية. وكان التحفظ أكبر إزاء برنامج لسانيّات سيشهاي القائم على نفسانية منطقية غير واضحة قد تأتي على المجهود الفكري الحثيث الذي قامت به مجموعة من لسانيي بداية القرن العشرين أمثال ويتني وسوسير ومِييه لتأسيس لسانيّات علمية مستقلة عن غيرها من علوم الإنسان. وقد أشار سوسير[52] نفسه إلى مأزق الفكر اللسانيّ عند سيشهاي الذي "لم يأخذ في الاعتبار الحدث النحويّ في ذاته، وما يميزه عن أيّ فعل نفسيّ أو فعل منطقي

(50) Roman Jakobson. «Structuralisme et téléologique», p.51 in *Revue ARC* nº60, spécial Jakobson, Aix en Provence, 1975.

(51) Bertil Malmberg. *Histoire de la linguistique. De Sumer à Saussure*, Paris, PUF, 1991, p.465.

(52) F. de Saussure. *Ecrits de linguistique générale*, p.258-261.

آخر..). وبقدر ما يحاول سيشهاي جاهداً أن يحطّم ما يبدو له حاجزاً غير شرعي بين الصُوَر المُفَكَّر فيها والفكر، بقدر ما يبدو لنا أنه يبتعد عن هدفه الخاص، الذي هو تحديد مجال التعبير، وأنه يتصور قوانينه ليس في ما هو مشترك بين التعبير ونفسيتنا *psychisme* بصفة عامة، وإنما بعكس ذلك في ما هو نوعي خاص وبكيفية منفردة في الظاهرة اللغوية[53].

هذا الموقف الملتبس بين ما هو نفسانيّ وما هو اجتماعيّ وما هو لغويّ عند لسانيي جنيف، دفع غريماس[54] إلى القول بأن التقابل الذي وضعه علم النفس التقليدي بين الفكر واللغة في غياب نظرية حول سيكولوجية اللغة جعله يسعى إلى تأويل الظواهر النفسية مهما كان الثمن في إطار العلاقات المتبادلة بين هاتين المادتين: اللغة والفكر، وهو ما يفسّر الفشل النسبي لمدرسة جنيف التي كانت تصل دائماً في تطبيقاتها لنظرية سوسير إلى تأويل نفساني.

(53) F. de Saussure. *Ecrits de linguistique générale*, p.261.

(54) Algirdas Julien Greimas. «L'actualité du Saussurime», dans *Le français moderne*, 1956, n°24, p.191-203 à l'occasion du 40e anniversaire de la publication du Cours de linguistique générale.

الفصل الثالث

حلقة براغ اللسانيّة

1.3. التأسيس

يرتبطُ اسم حلقة براغ اللسانيّة باللسانيّات البنيويّة عموماً وبالدراسات الصِّواتِية بخاصة وهو المجال الذي دفعت به إلى مستوى عالٍ من الضبط المنهجي والدِّقّة في التحليل، فقدّمت فيه مجموعة من الاقتراحات والمفاهيم التي شكّلت بالفعل ميلاد علم جديد في الدراسات اللسانيّة وهو الصِّواتَة *phonologie* التي برع فيها بعض روّاد حلقة براغ لاسيما تروبتسكوي (1890-1938) وجاكبسون (1887-1982). وتأتي مساهمة الحلقة في تطوير اللسانيّات البنيويّة بصفة عامة بتأكيدها الصريح على المفاهيم الجوهرية في لسانيّات سوسير وتبنيها لها، مثل التمييز بين لسان/كلام ومفهوم البنية والتقابل والعلاقات السياقية والجدولية، والربط بين التزامن والتعاقب. ونجحت الحلقةُ أيضاً في ربط اللسانيّات بمجالات أخرى لاسيما الأدبية والفنية مثل، الشّعرية والنقد الأدبي والعروض والمسرح، والفنون التشكيلية. وقد كان انفتاح هذه المجالات على اللسانيّات دافعاً أساسياً وراء انتشار المنهجية البنيويّة واقتحامها بنجاح كبير سائر الميادين الأدبية والفنية وحقول العلوم الإنسانية.

أُسِّسَتْ حلقةُ براغ في أكتوبر/تشرين الأول سنة 1926 من قبل فيلهم ماتزيوس (1882-1945) Wilhem Mathesius في رحاب جامعة براغ. وكان مؤسّس الحلقة واحداً من كبار مفكّري تشيكوسلوفاكيا خلال النصف الأول من القرن العشرين. وقد سطع اسم ماتزيوس في حقل اللسانيّات، وساهم في تسليط

الضوء على أفكاره المُجَدِّدَة في اللغة والأدب. وقد أثار الانتباه بتأسيسه حلقة براغ اللسانيّة ذات المنحى الوصفي الجديد في البحث اللساني آنذاك، لأنه كان أحد ممثّلي مدرسة النُّحاة الجدد في جامعة براغ. وكان لماتزيوس آراء لسانيّة وتصوّرات لغوية عامة اقتربت في العديد منها من تصوّرات سوسير لاسيما ثنائيتا لسان/كلام وتزامن/تعاقب. وقد وصف ماتزيوس بعمق وشمولية ومن منظور جديد وظائف اللغة، وهو الوصف الذي نهلت منه حلقةُ براغ في أطروحاتها التي كانت صدى للكثير من أفكاره اللسانيّة.

ضمَّت حلقةُ براغ مجموعةً من المفكّرين التشيكيين والروس والألمان، لسانيين وغير لسانيين. ومن أشهر هذه الأسماء: رينيه ويليك (1903-1995) René Wellek وجان موكاروفسكي (1891-1975) Jan Murakovsky وتوماشفسكي Tomaschevsky ويوري تينيانوف (1894-1943) Iyouri Tynianov (عضو سابق بمجموعة موسكو وأحد الشكلانيين) وفينوغرادوف Vinogradov. ومن الأسماء التي انضمّت أيضاً إلى الحلقة نذكر: هافرانيك B. Havranek وترنكا B. Trnka وفلاديمير شكاليكا، Vladimir Skalicka، وجوزيف فاشيك Joseph Vachek.

عرف رونيه ويليك بأبحاثه الرائدة في مجال نظرية الأدب، بينما اشتهر جان موكاروفسكي في مجال النقد الأدبي والشعرية وعلم الجمال. "وقد تركز تطبيق موكارفسكي الأول لتعريف سوسير للعلامة على التعرف على ماهية العمل الفنّي (مثلاً العرض المسرحي في كلّيته) باعتباره وحدةً سيميوطقيةً حيث يكون العمل نفسه شيئاً "*thing*" أو مجموعة من العناصر المادية هي الدال أو وسيلة نقل العلامة، وحيث يكون المدلول هو الموضوع الجماليّ الكامن في الوعي الجمعي عند الجمهور، ويصبح نصّ العرض - من هذا المدخل - علامة كبرى أو ماكرو-علامة *macro-sign* يتشكل معناها من تأثيرها الكلّي. ويتميز هذا المدخل بتأكيده على تبعية جميع العناصر المكوِّنة لكلِّ نصٍّ متوحد"[1].

(1) كير إيلام، **العلامات في المسرح**، ضمن **مدخل إلى السيميوطيقا**، ج2، ترجمة سيزا قاسم، ص78-79. وتعطي هذه الدراسة صورة عامة جداً عن مساهمة حلقة براغ في دراسة الفنون الأدبية من وجهة بنيويّة. وانظر كذلك في المرجع نفسه مقال جان موكاروفسكي، **الفن باعتباره حقيقة سيميوطقية**، ص123 وما بعدها.

وانتمى إلى الحلقة أيضاً مجموعة من اللسانيين العالميين والمشتغلين بها من خارج تشيكوسلوفاكيا، إما بصفتهم أعضاء وإما بصفتهم مُشاركين، ونذكر من بينهم على الخصوص:

- الإنكليزي دانيال جونز (1881-1967) Daniel Jones
- الفيلسوف اللساني وعالم النفس الألماني كارل بوهلر (1879-1963) Karl Bühler ومجموعة من اللسانيين الفرنسيين نذكر منهم:
- جوزيف فندريس (1875-1960) Joseph Vendreyes صاحب كتاب **اللغة** الصادر سنة 1923.
- لوسيان تنيير (1893-1954) Lucien Tesnière
- إميل بنفنيست (1902-1976) Emile Benveniste
- أندريه مارتينيه (1908-1999) André Martinet وغيرهم.

وعرفت الحلقة نشاطاً ملحوظاً مع انضمام العلماء الروس تروبتسكوي ورومان جاكبسون وسيرج كارسفسكي (1884-1955) Serge Karcevsky.

ظهرت تسميةُ حلقة براغ اللسانيّة رسمياً على الصعيد العالميّ في المؤتمر الأول للعلوم الصوتية المنعقد بأمستردام سنة 1928، لتصبح بعد ذلك مشهورة ومتداولة في مجال اللسانيّات والآداب(2). وقد تقدّم جاكبسون إلى هذا المؤتمر ببيان جماعي وقعه أيضاً تروبتسكوي وكارسفسكي عنوانه: "ما المناهج الملائمة لعرض متكامل وعملي لصواتة لسان؟". وبعد المؤتمر، ناقش باقي أعضاء الحلقة هذا البيان، وأُدْخِلت عليه بعض التعديلات ليتم تبنيه أرضيةً منهجية للحلقة قُدِّمَت للمؤتمر الأول للفيلولوجيين السلافيين المنعقد ببراغ سنة 1929 تحت اسم أطروحات حلقة براغ *Les thèses de Prague*. وقد نشرت **الأطروحات**(3) في العدد

(2) J. Fontaine. *Le cercle linguistique de Prague*, Tours, Mame, 1974, p.21.

(3) نشرت أطروحات حلقة براغ مكتوبة باللغة الفرنسية، وهي النصّ الذي اعتمدناه في تقديم نظرة موجزة عن تصورات براغ حول النسق والوظيفة وغيرهما من القضايا اللسانيّة: ويمكن الاطلاع على الأطروحات على الموقع الإليكتروني التالي: http://www.cercledeprague.org وغيره.

الأول من مجلة "**أعمال حلقة براغ اللسانية** [ص5-29] لسان حال الحلقة. وتقدم الأطروحات في مجملها ـ وعددها تسع أطروحات ـ البرنامج العام للحلقة ومنطلقاتها التصوّرية والمنهجية، ووجهة نظرها في مختلف المجالات المتعلقة بتحليل اللغة على المستوى الصواتي والصرافي والنحوي والشعري بصفة عامة مع إشارة خاصة إلى الألسن السلافية.

ومن الصعب أن نعرض في هذا المقام كلّ الأفكار والآراء التي جاءت في **الأطروحات** المشار إليها، لأنّ العديد من تصوّرات أعضاء حلقة براغ اللسانيّة يتجاوز حدود اللسانيّات العامة بجميع فروعها واللسانيّات البنيويّة خاصة لتعانق تاريخ الألسن واللهجات ومختلف الفنون الأدبية شعراً ونثراً، بل لتشمل قضايا هامة في الفنّ والجمال، مع عناية خاصة بالألسن السلافية ولهجاتها المحلية نطقاً وكتابة واستعمالاً في الآداب والفنون الشعبية والفلكلور وكلّ ما يتصل بالثقافات المحلية والقومية عند سكان هذه المنطقة من أوروبا الغنية بتراثها الفكري. ولَـمَّا كان الأمر كذلك، فإن بعض المهتمّين بتاريخ اللسانيّات عموماً وبحلقة براغ اللسانيّة على الوجه الأخص[4] يتناولون أساساً **الأطروحات** الثلاث الأولى التي تُعدُّ بالإضافة إلى كتابات تروبتسكوي[5] وجاكبسون المصدر الأساس لمجمل الأفكار التي انبثقت عن هذا التجمّع الفكري والعلمي الهام، الذي شكَّل وقتئذ قوةً مركزيةً فاعلة في الأدبيات البنيويّة عموماً والدراسات الصواتية على الأخص.

وتعدّ آراء تروبتسكوي الواردة في كتابه **مبادئ الصّواتة** *Principes de phonologie* المنشور سنة 1939، بعد وفاة صاحبه، بالإضافة إلى آراء جاكبسون المتعدّدة والمتنوّعة الاختصاصات أهمّ المصادر المعتمدة في مجال الصواتة البنيويّة *La phonologie structurale* عموماً وصّواتَة براغ بصفة خاصة. ولعل السمة البارزة التي تطبع تصوّرات الحلقة هي انطلاقها من أهمّ التصوّرات الواردة في "**دروس**" سوسير والدفع بها نحو مزيد من الضبط والدقّة. وكان لأعضاء الحلقة قدرة متميزة ـ لاسيما تروبتسكوي وجاكبسون ـ على إضفاء نوع من التوازن المنهجي بين

(4) J. Fontaine. *Le cercle linguistique de Prague*, p.21

(5) Nicolai Serguevitch Troubestkoy. «La phonologie actuelle», In *Journal de Psychologie*, Paris, 1933, p.227-246, repris in J. Claude Pariente. *Essais sur le langage*, Paris, Editions de Minuit, 1969, p.141-164.

أطراف الثنائيات اللسانيّة التي صيغت بكيفية صارمة عند سوسير، وتحديداً ما يتعلق بالفرق بين "التزامن" و"التعاقب" والاهتمام بدور الفرد المتكلم في تحليل البنيات اللغوية وغير ذلك ممّا نعرض له في الفقرات التالية من هذا الفصل.

2.3. البنية والنَّسَق

3.2.1. النَّسَق

أكد البيان الذي قدّمه أعضاءُ حلقة براغ إلى المؤتمر العالمي الأول للسانيّات سنة 1928 على أهمّية آراء فردينان دو سوسير والبولندي بودوان دو كورتناي (1845-1929) *Baudoin De Courtenay* بوصفهما رائدين من روّاد اللسانيّات البنيويّة الناشئة. ونجد في **الأطروحات** آراء سوسير لاسيما مفاهيمه المتعلقة باللسان مقابل الكلام وبالنَّسَق *système* والعلاقات والتمييز بين المنظور التزامني والمنظور التعاقبي حاضرة بقوة.

في الأطروحة الأولى التي تحمل عنوان: "**الاهتمام باللسانيّات التزامنية (السانكرونية) في علاقاتها المتعدّدة بمنهجية المقارنة البنيويّة والمقارنة التكوينية**" ظهر بشكل واضح مفهوم "البنية" بارتباط مع مفهوم "النَّسَق" عند سوسير. وجديد حلقة براغ في موضوع النَّسَق ليس هو تأكيدها على هذا المفهوم المركزي في لسانيّات سوسير فحسب، وإنما تعميمه ليشمل دراسة اللسان في بُعْدَيْه المقارن والتعاقبي وليس التزامني فقط بحسب تعاليم سوسير. ومثلما كان سائداً في اللسانيّات الوصفيّة، فإنّ البحثَ في تاريخ الوقائع اللغوية ينبغي أن يكون نَسَقيًّا *systémique*. فليس ما يصيب أصوات اللسان وصرفه وتركيبه ودلالة مفرداته من تطور، من قبيل الصدفة، وإنما هو تطوّر نسبي في إطار العلاقات النَّسَقية التي تجمع العنصر الواحد بغيره من العناصر وليس بمعزل عنها، فالظواهر اللسانيّة لا تتطور بمعزل عن بعضها. إنّ التطور يصيب عناصر النَّسق بِرُمَّتها تزامنياً وتعاقبياً. فما هو تزامني لا يلغي ما هو تعاقبي، لكلّ منهما سماته الخاصة به، لكنهما يتفاعلان بكيفية جدلية، بحيث يستلزمُ كلّ منهما الآخر ويخضع له. إنهما يظهران في علاقة جدلية"[6].

---

(6) Jaqueline Fontaine: *Le cercle linguistique de Prague*, Tours, Mame, 1972.

وقد دعت حلقة براغ إلى تطبيق مبدإ "النَّسَق" في مجال مقارنة الألسن التي لم تتجاوز عند روّاد اللسانيّات المقارنة واللسانيّات التاريخية في القرن التاسع عشر حدود تَكوُّن الأصول المشتركة للألسن الهندية-الأوروبية. وقد أعطت حلقة براغ بذلك للتطور والمقارنة أبعاداً جديدة، حيث دعت إلى ضبط مختلف علاقات القرابة بين الأنساق اللسانيّة مهما بدت متباعدةً في قرابتها. وانتقل القانون كمبدإ للتحليل التاريخي يجمع بين الوقائع الناتجة اعتباطاً واطراداً كما هو الحال عند النّحاة التاريخيين، إلى قانون أساسي يضبط تطور النسق ذاته. فأفضل وسيلة لمعرفة ماهية لسان معين وطبيعته هو التحليل التزامني للوقائع الراهنة التي تُقدِّم مواد كاملة يمكن الاشتغال عليها. وتصور اللسان كنسق وظيفي قابل للتطبيق أيضاً في دراسات الحالات الماضية للألسن، سواء أتعلق الأمر بإعادة البناء أم بمعاينة التطور. فلا يمكننا أن نفصل فصلاً صارماً بين المنهج التزامني والمنهج التعاقبي، وأن نضعَ الحواجزَ التي لا يمكن تجاوزها كما تفعل مدرسة جنيف". (وردت الإشارة حرفياً إلى هذه المدرسة في نص الأطروحة).

3.2.2. التزامن الحركي

إذا تصورنا، تزامنياً عناصر نَسَق اللسان من منظور وظائف هذه العناصر، لا يمكن أن نُدْرِكَ حقيقة التغيرات التي يخضعُ لها اللسان دون أن نأخذ في الاعتبار عناصر النَّسَق الذي ستمسه هذه التغييرات. وليس من المنطقي في شيء أن نفترض أن تغييرات النَّسَق لا تحصل إلّا صدفة وبكيفية غير متجانسة. إن التحولات اللغوية التي تطرأ عبر الزمن غالباً ما تصيبُ استقرار النسق اللساني وإعادة بنائه. وبالنظر إلى ما سبق، فإن الدراسة التعاقبية لا تلغي أبداً مفهومي النسق والوظيفة، بل بالعكس من ذلك، تكون المُعالجة التاريخية منقوصة إذا لم تأخذ في الاعتبار هذين المفهومين (النَّسَق والوظيفة). ومن جهة ثانية، فإن الوصف التزامني لا يمكنه أيضاً أن يُقْصي مفهوم التطور *évolution*، وحتى في الحالة التي تُتَصَوَّر فيها دراسة هذا التطور دراسة تزامنيةً، يوجد ثمة وعيان متداخلان: .وعي بأنّ المرحلة الراهنة دخلت مرحلةَ الشروع في الزوال، ووعي بمرحلة التكوُّن. فالعناصر الأسلوبية التي يُنْظَر إليها على أنها قديمة

ومهجورة *archaique*، والتمييز بين الأشكال المُنتِجة والأشكال غير المُنتِجة هي وقائع من حالة تعاقبية لا يمكن بأي حال من الأحوال إقصاؤها من اللسانيّات التزامنية.

والتطورات اللغوية الجديرة بالدراسة والتحليل هي التي تهمّ النَّسَق الواحد أو أنساق عدة ألسنة. وبإمكان الألسن واللهجات أن تُنَمِّيَ تغييرات مشتركة، سواء أكانت هذه الألسن ذات أصل واحد، أم لم تكن كذلك. ولم تعد الفكرة التي راودت اللغويين المقارنين والتاريخيين للوصول إلى اللغة ـ الأولى موضوع اهتمام اللسانيين البنيويين، بل أصبح المطلوب دراسة تطور الأنساق المتعدّدة والمتباينة ومحاولة الوصول إلى وجوه الشبه في تغيير البنيات داخل عدة أنساق متنوعة قد تنتمي إلى ألسنٍ مختلفة.

وإذا كانت الدراسة المقارنة (للألسن السلافية) قد اقتصرت على المشاكل التكوينية وحدها بحثاً عن التراث المشترك، فيجب أن تُسْتَعمل الآن بكيفية أوسع تسمح باكتشاف قوانين بنية الأنساق اللسانيّة وتطورها. إنّ المواد القَيِّمة لهذا النوع من المُقارنة لا توجد في الألسن غير المتقاربة أو المتقاربة من بعيد، وغير متشابهة البنيات فحسب، وإنما أيضاً في ألسن الأسرة اللغوية الواحدة.

إنّ مقارنة تطور الألسن تُقَوِّض تدريجاً الفكرة المتعلّقة بالطابع العرضي والاستطرادي لبعض وقائع التطور التي تبدو متفرّقةً في تاريخ هذه الألسن، وبالتالي تستطيع الدراسة المقارنة أن تكشف عن قوانين الترابط بين مختلف الوقائع اللغوية المتباينة. ويساعد المنهج المقارن على تنميط خاص به من خلال تجميع سلسلة من الوقائع المترابطة بينها في نسق مُوَحَّد. ومن شأن الدراسة المقارنة، وهي تُقدِّم للسانيّات العامة معطيات لغوية ذات قِيْمة عالية من جهة، وتُغْني تاريخ مختلف الألسن من جهة ثانية، أن تتخلى نهائياً عن المنهج العقيم والوهمي الذي يسودُ في تاريخ الوقائع المعزولة. فالمقاربة الجديدة في دراسة التطور تكشفُ النـزعات الأساسية لنموّ هذا اللسان أو ذاك، وتسمح باستعمال مبدأ تسلسل الأحداث (زمنياً *Chronologie*) النسبي استعمالاً موفّقاً. ويعدّ هذا المبدأ أوثق وأضمن من المؤشّرات الدالة على تسلسل الأحداث تسلسلاً غير

مباشر، والتي تُسْتَمَدُّ من آثار معزولة كالوثائق المكتوبة. وقد ساهم ماتزيوس[7] بمعرفته واطلاعه الواسع والدقيق على العديد من الألسن الأوروبية الحديثة المتنوعة الأصول (إنكليزية وألمانية، روسية والعديد من الألسن السلافية)، شأنه في ذلك شأن العديد من أعضاء حلقة براغ لاسيما تروبتسكوي وجاكبسون، في وضع اللبنات الأولى لقيام لسانيّات تقابلية *linguistique contrastive* جديدة؛ وتطوير البحث في الأنماط اللسانيّة، والقيام بمقارنة ألسن متباعدة القرابة. وفي أطروحات براغ بعض من آراء ماتزيوس في هذا المجال من المقارنات، ومنها أنّ كل لسان له ملامحه الخاصة التي تحدّد شخصيته ومواصفاته العامة والخاصة التي تجعله فريداً ضمن باقي الألسن، دون أن يمنعه هذا الوضعُ من مشاركة ألسنٍ أخرى بعيدة عنه بعض السمات، ومخالفته لها في أخرى، ودون أن يفقد هويّته وسماته العامة والخاصة به وحده دون غيره من الألسن الطبيعية. وأطلق ماتزيوس على هذه المباحث اللسانيّة اسم *Linguistique de caractérologie*. (لسانيّات الطبائع). وكان من النتائج المباشرة لهذا المنحى مساهمته المبكّرة والفعّالة في تعزيز مبادئ البحث اللساني الحديث حول الأنماط *Typologie* مِمّا أعطى أبعاد جديدة لأفكار سوسير التي تبنتها حلقةُ براغ.

وعلى اللسانيّات التاريخية أن تساير التطورات المنهجية التي تعرفها العلوم التطورية بصفة عامة. ويُلاحَظ في هذه العلوم، واللسانيّات واحدة من بينها، أن التصوّر الذي ينظر إلى الوقائع اللغوية التاريخية على أنها تُنْتَجُ اعتباطياً وصدفة، ويتمّ تحقيقها باطراد مطلق، بدأ يفسح المجال لتصوّر جديد بديل يتأسس على مبدإ التسلسل الزمني للأحداث بحسب قوانين تضبط الوقائع التطورية (*nomogénése*). وكان لمفهوم التزامن الحركي *la synchronie dynamique*، أي إن حالة التزامن تحملُ في طياتها التغيرات التي يعرفها لسان مُعين وما قد تؤول إليه من تطورات متفاوتة النسبة، وكان ماتزيوس أول من نبَّه إليه، أثر كبير في أطروحة براغ في موضوع التقابل بين التزامن والتعاقب، وقولها بعدم سكون حالة

(7) Marek Nekula *Vilém Mathesius* Publié dans: J. Verschueren, J. O. Östman, J. Blommaert & Ch. Bulcaen (eds.). *Handbook of Pragmatics.* Amsterdam: John Benjamins Publishing Company, 1999.

التزامن وجمودها، بعكس ما ذهب إليه سوسير. إنّ ترابطَ الظواهر التزامنية بوصفها مجموعةً من الوقائع غير المتجانسة هو الذي يجعل بعضها يؤثّر في بعض، ممّا يضمن للتزامن رغم ما يبدو عليه من استقرار وثبات نوعاً من الحركية. ويعبر جاكبسون عن هذه الفكرة بالتوازن بين التزامني والتعاقبي. وقد ورث العديد من الوظيفيين أمثال جاكبسون وأندريه مارتينيه آثار هذه الحركية في أبحاثهم اللسانية لاسيما في مجال الدراسة الصواتية.

وقد أكّد جاكبسون أكثر من غيره من علماء حلقة براغ على أهمّية وجهة النظر التاريخية في دراسة أصوات اللسان وتحديداً في الصواتة التعاقبية. ولا ينبغي في تصوّره أن ينحصر الوصف التاريخي في دراسة التغيرات المنعزلة، وإنما يجب اعتبارها بالنظر إلى الوظيفة التي تقوم بها داخل النسق الذي تقع فيه هذه التغييرات. فلا يُفهم أيّ حدث (واقعة) في اللسان، دون اعتبار النسق الذي ينتمي إليه هذا الحدث" ، وإن أي تغيير يمسّ عنصراً معيناً داخل النسق يصيبُ بالضرورة العناصرَ الأخرى الموجودة معه في النسق. وما يصدق على الوصف التزامني يصدق على الوصف التعاقبي[8]. لقد حان الوقتُ في نظر جاكبسون للتخلي عن التمييز الصارم الذي وضعه سوسير بين المنظور التزامني والمنظور التعاقبي داعياً إلى دراسة ما هو تاريخي في إطار يأخذ في الاعتبار الوقائع الوصفيّة والتغييرات داخل النَّسَق. يجب معالجة التحولات الصوتية من خلال وظائفها في النَّسَق الذي وقعت فيه. ومعنى هذا، أنّ جاكبسون يرفض الصواتة التاريخية التي لا تعير اهتماماً للنَّسَق الذي تقع فيه التغييرات. وهو هنا يشير على وجه التحديد إلى تصوّر النّحاة الجُدُد الذين كانوا يرون أن النَّسَق اللغويّ، مجموعة آلية، وليس صورة أو وحدة صورية، أي شبكة من العلاقات والقِيَم[9].

وسعى جاكبسون إلى وضع منهج شامل ومتكامل للصِّواتَة التاريخية، اعتبر فيه أن أَيَّ ظاهرة صوتية يجب أن تعالج أنه كبناء يرتبط ببنيات صوتية أخرى أكثر

(8) جاكبسون، «الصواتة التاريخية» مقال منشور في نهاية كتاب تروبتسكوي: **مبادئ الصواتة**، ص315 من الطبعة الفرنسية المشار إليها في هامش سابق.

(9) انظر كتابنا: **في اللسانيّات العامة**، الفصل الحادي عشر، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2010.

تعقيداً. فأول مبدإ في الصواتة التاريخية هو دراسة التطورات بالنظر إلى النَّسَق الذي حدثت فيه، وأن كل تغيير يطرأ على الأصوات اللغوية، لا يمكن توضيحه إلّا داخل نَسَق صوتي محدّد. وحين دراسة تطور الصوتاتِ من الوجهة التاريخية، يتحتّم علينا أن نبحث في أوجه العلاقات المتبادلة بين هذه الصوتاتِ وباقي وحدات النَّسَق، قبل التغيير الحاصل وبعده، اعتماداً على المعطيات المتوافرة لدينا حول الحالات اللغوية قبل التغيير وبعده.

3.3. الوظيفة

عُرِفت حلقةُ براغ بالوظيفية لأنها أكدت بشكل بارز منذ بدايتها على وظيفة اللغة الأساس التي هي التواصل ضمن وظائف أخرى ممكنة بحسب السياق والمقام والبنيات اللغوية المستعملة. تاريخياً لم يكن الاهتمام بوظيفة اللغة والتأكيد عليها والدعوة إلى إدماجها في التحليل اللساني، من ابتكار حلقة براغ، بل هو تيار عام تخلّل العقد الأول والثاني من القرن العشرين، وُجِدَ في أوروبا كما في أميركا، وسعى فيه أصحابه إلى ما أسماه جاكبسون" تحقيق نموذج لوسائل اللغة وغاياتها" انطلاقاً من مبدإ متعارف عليه ومقبول كلّياً وهو أنّ اللغة وسيلةُ تواصل وفكر"[10].

جاء تأكيد حلقة براغ على دور الوظيفة وأهمّيتها في التواصل اللغويّ من جهة وفي التحليل اللساني في المستويات اللغوية كافة، من جهة ثانية في الأطروحة الثالثة التي تمحورت حول الوظائف اللغوية وفيها تمَّ التأكيد على أنّ طبيعة الوظائف اللغوية هي التي تحدّد بنية لسان مُعَيَّن صِواتِياً وصِرافياً وتركيبياً ودلالياً. لكنّ حلقةَ براغ تنطلق في الواقع منذ الأطروحة الأولى التي حملت عنوان "الإشكالات المنهجية المترتبة عن اعتبار اللسان نَسَقاً" من مفهوم جديد للسان بوصفه نَسَقاً وظيفياً وليس كنَسَق ثابت كما يظهر من تصوّر سوسير .فاللسان بوصفه نتاج النشاط الإنساني، يتقاسم وهذا النشاط طابع الغائية الذي يتميز بها. وعندما نحلل اللسان كوسيلة تعبير أو وسيلة تواصل، فإن قصد المتكلّم هو

(10) Roman Jakobson. *Essais de linguistique générale*, Tome 2, p.314.

التفسير الذي يبدو سهلاً وطبيعياً. ويتعين أيضاً أن نراعي في كل تحليل لساني الوظيفة التي يقومُ بها اللسان في هذا المستوى أو ذاك والغاية التي يسعى إليها المتكلم. ويُعدُّ اللسان من الوجهة الوظيفية وسيلةً من وسائل التعبير المناسبة لغاية ما تتمثل أساساً في التواصل، ومن ثمة فإنّ التحليل اللساني يجب أن يعمل على إبراز الجوانب المرتبطة بوظيفة التواصل، أي ما يجعل من الألسن البشرية أداةً للتواصل الفعلي:

- ما موضوع تواصلنا؟
- في أي إطار يتمّ هذا التواصل؟
- مع من نتواصل؟
- كيف نتواصل؟
- ما الوسائل المستعملة في هذا التواصل؟

تلك بعضُ الأسئلة التي يتعين إيجاد الأجوبة الملائمة عنها من خلال تحديد المظاهر اللغوية المترتبة عنها في الألسن البشرية.

لقد عمل أعضاء حلقة براغ على صياغة تصور عام قادر على ضبط مجمل الوظائف التي يقوم بها اللسان البشري؛ أي الاستعمالات الممكنة للسان وسبل تحقيقها عبر ما يطرأ عليه من تغييرات في البنية الصوتية والتركيبية والدلالية والأسلوبية والمعجمية. إنّ دراسة اللسان تتطلّب اعتبار تنوّع الوظائف اللغوية وطرائق تحقيقها في حالة معينة. وعندما لا نستحضر هذا المطلب، فإن دراسة لسان مُعين، سواء أكانت تزامنية أم تعاقبية، تجدُ نفسها بالضرورة مُنْحَرِفة عن هدفها الحقيقي، ذلك أن وظائف اللغة ووسائل تحقيقها تُحْدِث تغييرات هامة في البنيات الصوتية والنحوية والتكوين المعجمي للسان معين.

1.3.3. مُكوِّنات اللغة

لتوضيح السمات النوعية للعلاقة بين مُكوِّنات اللسان والوظائف المَنُوطة بها داخل التواصل اللغويّ، أقامت حلقة براغ، جملة من التقسيمات منها:

- التمييز بين المُكَوِّن الفكري والمُكَوِّن الانفعالي في اللسان (وهو تمييز يقترب كثيراً ممّا أشرنا إليه عند بالي).
- التمييز بين وظيفة اللسان الفردية ووظيفته الاجتماعية
- التمييز بين الوظيفة التواصلية والوظيفة الشعرية *Fonction poétique*،

ولكلّ وظيفة سماتها الخاصة بها من حيث عناصر التواصل ومكوناته اللغوية، وتجلياتها اللغوية والنفسية التي تترتب عنها، ومن ثمة تتطلب كل وظيفة عناصر لغوية مُحدَّدَة ومضبوطة لتحقيقها.

وللكشف عن وظائف اللغة، ميَّزت حلقةُ براغ بين نوعين مركزيّين من التجليات الأساسية في النشاط اللغويّ:

- اللغة الداخلية *langage interne*
- اللغة المُتَجَلِّية *langage manifesté*

وليست هذه الأخيرة بالنسبة إلى الأفراد المتكلمين سوى حالةٍ خاصة للغة العادية لأنهم يستعملون الصيغ اللغوية وهم يفكّرون أكثر ممّا هم يتكلمون. ومن الخطإ أن نُعَمِّمَ في كل الحالات التواصلية أهمّية الجانب الصوتي الخارجي للسان، ونبالغ في هذه الأهمّية. ينبغي أن نأخذ أيضاً في الحسبان ما يتوفَّر عليه اللسان من وقائع لغوية كامنة. فالمؤشّرات الهامة التي تحدّد سمات اللسان هي التجليات اللغوية الفكرية أو الانفعالية. ويتداخل هذان المؤشّران أو يهيمن أحدهما على الآخر بحسب السياق والمقام. فاللغة الفكرية المُتَجَلية لها وجهة اجتماعية تتمثل في العلاقة بالآخر. وعندما تُثير في السامع بعضَ الأحاسيس أو نوعاً من تفريغ الانفعال، يكون للغة الانفعالية *langage émotionnel* هي الأخرى وجهة اجتماعية.

ويتمّ ضبطُ دور اللغة الاجتماعي، بتمييز وظيفة اللغة بحسب العلاقة القائمة بينها وبين الواقع الخارج-لغوي. فقد يكون للغة إمَّا وظيفة التواصل، وهو ما يعني التَّأكيد بقدر كبير على المدلول المراد التَّعبير عنه، وإمَّا وظيفة شعرية فتكون العناية مُوجَّهة نحو الدال نفسه. وينبغي التمييزُ داخل وظيفة التواصل بين اتجاهين تسير فيهما اللغة:

* اتجاه تكون فيه اللغة "لغة المقام" بكلِّ مقوّماته ومُكوِّناته، بمعنى أنها تعتمد على عناصر خارج لغوية كمُكَمِّلات لها (اللغة العملية).
* اتِّجاه تكون فيه اللغة مغلقةً على نفسها كلياً، مع نزوع نحو تحقيق أقصى ما يمكن من الدقَّة في استعمال الكلمات والجُمَلِ والأَحكام. يتعلق الأمر بما يسمَّى باللغة النظرية أو لغة الصياغة.

يتمحورُ الكلام في وظيفة التواصل حول اللغة العملية الواقعية التي تعتمد عبارات لغوية مرتبطة بالمقام في كلّيته (الإشارة بأعضاء الجسد، المعلومات القديمة إلخ)، في حين تتمحور "الوظيفة الشعرية" حول الصياغة الفنية والبلاغية للتراكيب والجمل والكلمات. وبعبارةٍ أخرى، تتمركزُ لغة التواصل حول المَدْلُول، والأشياء المادية الموجودة في العالم الخارجي، بينما ينصبّ الاهتمام في اللغة الشعرية حول الخصائص والمقوِّمات الفنية للدَّال باستعمال كُلِّ الوسائل البلاغية والبيانية المتاحة.

ومن المستحسن أن ندرس أشكال اللغة التي تـهيمنُ فيها وظيفة واحدة، والأشكال التي تتقاطعُ فيها وظائف متعدّدة. ويتمثل المشكل الرئيس في هذا النوع من الدراسات في تحديد تراتبية مختلف الوظائف بالنسبة إلى لسان معين في حالة محدّدة. فلغة كل وظيفة لها نَسَقها الخاص من المواضعات التي تتمّ بين المتكلمين بلسان محدّد. ويتعين عدم الربط بين هذه اللغات الوظيفية بثنائية سوسير المعروفة لسان/كلام، فنقول بأن اللغة الفكرية تطابق مفهوم اللسان عند سوسير، وأن مفهوم اللغة الانفعالية يقابل عنده مفهوم الكلام.

تعتبر حلقة براغ في دراسة اللسان تياراً وظيفياً لأنها تنظر إليه كأداةٍ لتحقيق أهداف محدّدة. وكل لسان له حتماً وظائف يقوم بها بشكل عادي. فنحن نستعمل اللسان من أجل تحقيق وظيفة محورية هي التواصل. إنّ وصف اللسان من منظور حلقة براغ الوظيفي، يعني في المقام الأول استخراج العوامل التي يستخدمها اللسانُ لتحقيق الوظائف وإبرازها، وتوضيح آثارها في البنية اللغوية في مختلف مستوياتها. وتتعارض حلقة براغ في هذا المنحى مع العديد من الاتجاهات اللسانيّة البنيويّة ذات الطابع الصوري مثل أعمال هلمسليف في أوروبا وأعمال

بلومفيلد و- هاريس في أميركا. ولهذا الغرض، يتمّ التأكيد عند براغ على دور المتكلم والسامع في كل عملية كلام بوصفهما أساس النشاط اللغويّ. فالخطاب اللغويّ يقومُ على قصد المتكلم. وتكْمُن أهمّية الممارسة اللسانيّة نظرياً ومنهجياً، بل مردوديتها، في مدى قدرتها وفعاليتها في إبراز العناصر التي تجعل اللغة أداة تواصل وتعبير عن التجارب والخبرات الفردية والجماعية. وهذا ملمح يميز منهجية التحليل عند لسانيي حلقة براغ عن غيرها من المنهجيات البنيويّة.

4.3. وظائف اللغة

يُسْتَعْمَلُ مفهوم "**الوظيفة**" إذن للدلالة على الغاية التي يسعى المتكلم إلى بلوغها من وراء نشاطه اللغويّ. وبعبارةٍ أوضح، فإن وظيفة اللغة هي الهدفُ الذي تستعمل من أجله اللغة في مقام تواصلي معين. والواقع أنّ تعدّد القضايا الفكرية المتعلقة بوظيفة اللغة أو وظائفها واختلافات الباحثين في موضوعها ليس وليد العصر الحديث. ما وظيفة اللغة الأساس؟ هل هي التواصل أم التعبير عن الفكر أم ماذا؟ إنه سؤال قديم جديد(11).

لقد أصبحت إشكاليةُ وظائف اللغة في العصر الحديث من أبرز القضايا التي تناولها المفكّرون على تنوّع مشاربهم التصوّرية وتعدّد معارفهم. والاختلافات القائمة حول تحديد وظائف اللغة ناتجة عن اختلاف في البعد النظري والفكري الذي ينظر من خلاله إلى طبيعة اللغة البشرية، ووظيفتها، كل هذا في علاقته بهدف الدراسة اللسانيّة. هل تحدّد الوظيفة بنية اللسان أم أن بنية اللسان هي التي تحدّد الوظيفة؟(12)

لكي لا ندخل في تفاصيل طبيعة الاختلافات التصوّرية بشأن الوظائف وأولوية بعضها، والخلاف بين اللسانيّات الصورية واللسانيّات الوظيفية، ينبغي أن نميِّز في الدرس اللساني بين وظيفة أساسية للغة ووظيفة ثانوية. تتمثل الوظيفةُ

---

(11) انظر تقديماً للمباحث الوظيفية في الفكر اللغويّ العربي القديم في أحمد المتوكل. **اللسانيّات الوظيفية مدخل نظري**، الرباط، منشورات عكاظ، 1988.

(12) انظر كتابنا: **في اللسانيّات العامة: تاريخها، طبيعتها، موضوعها، مفاهيمها**، الفصل الثالث.

الأولى في كون اللغة "وسيلة تواصل" وهو ما يهمّ اللساني بالدرجة الأولى. أمّا الوظائف الثانوية فهي مجمل ما يسنده الباحثون في مجالات معرفية أخرى من وظائف للغة، كالقول بأنها وسيلة إبداع أو نقل الأفكار أو تعبير عن الفكر. وإلى هذا الرأي يذهب بالي، حينما أكّد أن "اللغة التي نتكلمها جميعاً ليست في خدمة العقل الخالص ولا في خدمة الفنّ. إنَّها لا تهدف إلى مثال منطقي أو مثال أدبي. إن وظيفتها الأساس ليست بناء القياسات المنطقية أو الخضوع للأوزان والتفعيلات الشعرية. إنها ببساطة في خدمة الحياة الاجتماعية، لا حياة الأفراد، وإنما حياة المجتمع"[13].

يؤكّد اللسانيون الوظيفيون، في حلقة براغ، على دراسة اللغة باعتبارها وسيلة تواصل كما سبقت الإشارة إلى ذلك، وأن اللسان يستعمل في النشاط الإنسانيّ لتحقيق وظائف متعدّدة ومتنوعة، ومن ثمة فإن الأساس في التحليل اللساني الوظيفي هو الكشف عن الخصائص والمميزات التي تجعل عملية التواصل أمراً ممكناً، والآثار اللسانيّة المترتّبة عن تحقيق هذه الوظائف بكيفية من الكيفيات.

5.3. وظائف جاكبسون

لعلّ أشهر نموذج للوظائف في اللسانيّات البنيويّة تم فيه تحديد وظائف اللغة بشكلٍ واضح ومضبوط هو النموذج الذي وضعه رومان جاكبسون، وهو تطوير لما ورد عند الفيلسوف الألماني بوهلر Karl Bühler (عضو في حلقة براغ أيضاً). ميَّز بوهلر بين ثلاث وظائف أساسية[14]:

- الوظيفة التمثيلية (*darstellung*)
- الوظيفة التعبيرية (*Ausdruck*)
- الوظيفة الندائية (*Spreechact*)

(13) Charles Bally. *Le langage et la vie*, p.14.

(14) N. S. Troubetskoy. *Principes de phonologie*, p.16 et suivantes.

وقد أضاف إليها جاكبسون ما تضمّنته أطروحةُ حلقة براغ الثالثة حول وظائف اللغة بالإضافة إلى بعض الأفكار التي أفرزتها في منتصف القرن العشرين نظرية التواصل *théorie de la communication* عند شانون (Claude Shanon) وويفر (Weaver) (1916-2001).

انطلاقاً من البنية العامة لعملية التواصل بين المتكلّم والسامع؛ حدّد جاكبسون المكوِّنات الستة التي تقوم عليها بنيةُ التخاطب وهي:

1- المُرسِل [المتكلم] *Destinateur*

2- المُستقبِل [السامع] *Destinataire*

3- الإرسالية [الخطاب] *Message*

4- الاتصال *Contact*

5- المرجع *Référent*

6- الشفرة *code*

يبعث المُرْسِل إرسالية [خطاباً] للمستقبِل يكون لها مرجع واقعيّ تندرجُ فيه، ويشمل مجموع الأشياء التي يتمّ الحديث عنها. ولكي يدرك المستقبِل هذه الإرسالية يجب أن يكون هناك اتصال بينه وبين المرسل. ويتمّ الاتصال عبر قناة فيزيائية (منطوقة أو مكتوبة) بواسطة شفرة مشتركة بين المُرْسِل والمستقبِل هي اللغة. ويقدم نموذج جاكبسون للوظائف على الشكل التالي:

المرجع
الخطاب

المرسل ———————————— المستقبل

الاتصال
الشفرة

يرى جاكبسون أن كل مُكَوِّن من هذه المكوِّنات يمدّنا بوظيفة محدّدة. وعلى

هذا الأساس، نستطيع الحصول على ستٍّ وظائف رئيسية متنوعة الأهمّية بحسب المُكَوِّن اللغويّ الذي يتمّ الاهتمام به أثناء التواصل ويتمحور حوله الكلام بين المتخاطبين. وقد تؤدّي الإرسالية نفسها عدة وظائف في الوقت ذاته. إن الوظيفة تختلف بحسب طبيعة موضوع التواصل من خلال المؤشّرات اللغوية التي يمكنها أن تحقّق هذه الوظائف أو تساعد على إبرازها. وكيفما كانت الوظيفة المُراد تحقيقها والطرائق المستعملة، فإن فعل التواصل باعتباره محور النشاط اللغويّ حاصل بكل تأكيد. والوظائف الست هي:

- **الوظيفة التعبيرية** *Fonction expressive* يكون محورها الفرد المُرسِل من خلال ما ينتجه من عبارات تدلّ على حالته النفسية ومشاعره الانفعالية. إن جملة مثل:

  - "أنا سعيد جداً ومسرور لكوني فُزْت بالسباق بعد أن تدرّبت كثيراً" .

  تعبِّر بوضوح عن الحالة النفسية والانفعالية لصاحبها. ولنا أن نتصوّر أيضاً السياق الذي قيلت فيه كأن يكون نهاية مسابقة رياضية وطنية في العدو أو سباق الدراجات أو ما شابه ذلك.

- **الوظيفة التأثيرية** *Fonction conative* وتتمحور حول المستقبِل وتشمل أساليب النداء والأمر والطلب، وكل ما يراد به التأثير فيه لحمله على فعل شيء أو تركه أو تصوره. وينظر في هذه الوظيفة للغة على أنها أداة تُحَقِّقُ جملة من المآرب على المستويات الفردية والاجتماعية والسياسية والفكرية والاقتصادية. وفي الخطاب الإشهاري المسموع والمرئي أمثلة لهذه الوظيفة .

- **الوظيفة المرجعية** *Fonction référentielle* وتتمحور حول الأشياء المادية الموجودة في العالم الخارجي التي يتحدّث عنها الخطابُ كما يظهر من الملفوظات التالية:

  - البذلة جيدة
  - السماء صافية
  - الجو ممطر
  - اللعبة غالية الثمن.

- **الوظيفة اللاغية** *Fonction Phatique* وتقوم بدور المحافظة على التواصل والاتصال بين قطبي فعل الخطاب واستمرارها كما نسمع عادة خلال اللقاءات والاتصال الهاتفي بين شخصين كما في الجملة التالية:

- هل تسمعني؟ نعم بالتأكيد، - ولكنك تقول (. . .). أنا أعرف جيداً ما تقول. . . . اسمع . . . - هل فهمت ما أقول إلخ.).

ولا تخضعُ دلالة الجمل في هذه الوظيفة لأيّ منطقٍ واضح أو تسلسل في تقديم الأفكار المُعبَّر عنها. ويلاحظ لجوء المتكلم إلى عبارات جاهزة يستعملها دون انتظار جواب حقيقيّ من المُسْتقبِل. وفي عبارات التحية كثير من التراكيب التي تتضمّن أسئلة وأجوبة غالباً ما تكون جاهزةً للاستعمال في هذه المناسبة، دون انتظار أجوبة دقيقة أو حقيقية فعلاً أو الدخول في تفاصيل الأمور التي نسأل عنها في هذا المقام.

- **الوظيفة الواصفة** *Fonction métalinguistique*، وتتمركز حول الشّفرة أي اللغة ذاتها كما هو الحال عندما يتعلّق الأمرُ بالتعريفات اللغوية أو المعجمية وتحديد المفاهيم وهذا حاصل في كل العلوم والمعارف، حيث تتكلم اللغة عن نفسها أو تَصِفُ نفسها بنفسها. وتعد لغة واصفة *métalangage* اللغة المستعملة من قبل النّحاة العرب القدامى وغيرهم من العلماء في مجالات معرفية أخرى. يعرف النحو العربي المبتدأ بأنه: "اسم مرفوع يقع في أول الكلام". وتنقل لنا اللغة العربية في هذه الجملة مضامين تختلف عن المضامين التي نتحدث عنها عادة في حياتنا اليومية. واللغة الواصفة بهذا المعنى لغة تقنية. إلا أنه ينبغي عدم خلطها باللغة التقنية الخالصة المستعملة في مجال معرفي محدّد مثل لغة الهندسة الكيميائية والوراثية، ولغة البرمجة ولغة الإعلاميات.

- **الوظيفة الشاعرية** *Fonction poétique* وتتمحور حول الإرسالية نفسها وينظر من خلال هذه الوظيفة إلى الخصائص الجمالية والفنية للنصّ.

- يمكن تصوير هذه الوظائف على النحو التالي[15]:

(15) *Roman Jakobson. «Linguistique et poétique», in Essais de linguistique générale,* vol2 , Paris, Editions Minuit, 1963, p.213-218.

إحالية

تعبيرية ــــــــــــــــــــــــــــ تأثيرية

شاعرية
لاغية
واصفة

رغم ما يقدّمه نموذجُ جاكبسون من إيجابيات في مجال تحديد وظائف اللغة مقارنة بغيره، فإنه يطرح مع ذلك جُمْلةً من التساؤلات الهامة. إنَّ هذا النموذج يعتبر التواصل عملية بسيطة تشبه في بنيتها العامة نظام نظرية التواصل *Théorie de la communication* الذي وضعه شانون وويفر في نهاية الأربعينيات والذي كان له أثر كبير في تصور اللسانيين وغيرهم. وإلى الرأي نفسه، يذهب أمبرتو إيكو مؤكداً "أن الخُطاطة المقترحة هي خطاطة مبسّطة جداً. فهي لا تجيب عن قضايا من نوع: هل تشكل الإرسالية البثّ الصوتي ذاته أم مدلول هذا البث؟ هل تتشكل الإرسالية من كلمات مكتوبة أم تتشكل من كلمات يمكن قراءتها بصوت مرتفع وينظر إليها باعتبارها بثاً صوتياً لا آثاراً للكتابة"[16]؟.

ولم يتمكّن نموذج جاكبسون من وضع المعايير الصورية لتحديد الوظائف التي تحدث عنها، مكتفياً بدلاً من ذلك بتقديم جملة من المعايير التقنية والدلالية العامة التي لا يمكن ضبطها وتعميمها في جميع الحالات[17]. وسواء تم النظر إلى اللغة على أنها وسيلة تواصل أم وسيلة تعبير عن الفكر أم أي وظيفة أخرى من الوظائف التي اقترحتها حلقة براغ وطوَّرها جاكبسون، فإن الكيفية التي تقدم بها هذه الوظائف، تُوحي وكأنه بوسعنا أن نتصوّر وجوداً مستقلاً للغة عن استعمالاتها المتعدّدة من قبل الإنسان نفسه.

---

(16) أمبرتو إيكو، **العلامة، تحليل المفهوم وتاريخه**، (ترجمة سعيد بنكراد ومراجعة سعيد الغانمي)، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، 2007/ 1973، ص48.

(17) Georges Mounin. *In revue ARC*, «Jakobson» numéro 60, Aix en Provence, 1975.

6.3. أهمّية الجانب السمعي

سبقت الإشارة في أطروحة براغ الثالثة المتعلّقة بالوظائف إلى تأكيد الحلقة على أهمّية الجانب الصوتي الخارجي السمعي *acoustique* في اللغة. إن ما يقصد المتكلم إيصاله إلى السامع هو الصورة السمعية. وغائية الظواهر الصواتية هي ما يجعل التحليل السمعي *analyse acoustique* في صدارة المُعالجة الصوتية، بالنظر إلى أهمّية دراسة الجانب الخارجي لهذه الظواهر الذي يجب أن يكون في الواجهة باعتباره هدفاً محورياً بالنسبة إلى الفرد المتكلم الذي يدركُ الصورةَ السمعية قبل أن يدرك الصورة الحركية. ومن هنا تبرز ضرورة التمييز بين الصوت *son* كواقعة فيزيقية موضوعية والصوت بوصفه عنصراً من النَّسَق الوظيفي (أي ما يطلق عليه الصوتة *phonème*).

إنّ تسجيل العوامل السمعية-الحركية الموضوعية للصورة السمعية الصوتية الذاتية بواسطة الآلات تعدّ مؤشّرات للتقابلات الموضوعية والقِيَم اللغوية. لكن هذه الوقائع الموضوعية ليس لها سوى علاقة غير مباشرة باللسانيّات، وبالتالي لا يمكن أن نحدّدها بواسطة القِيَم اللغوية، ومن جهة ثانية، ليست الصور السمعية-الحركية الذاتية عناصر من نسق اللسان إلّا بالنظر إلى كونها تقوم في هذا النَّسَق بوظيفة اختلافية للمعاني. فالمحتوى الحسّي للعناصر الصّواتية أقل أهمّية بكثير من علاقاتها المتبادلة داخل النَّسَق. إنّ هدف التحليل اللساني هو الوظيفة التي يقوم بها الصوت ودوره في تنوّع المعنى وتعدّده. وهو المبدأ البنيوي الهام الذي يقوم عليه النَّسَق الصّواتي في الألسن الطبيعية.

7.3. المهام الأساسية للصواتة التزامنية

من الأمور الإيجابية التي تنسب إلى حلقة براغ أنها حدّدت على نحو واضح مجال الصّواتة البنيويّة *phonologie structurale* وقضاياها الكبرى. ورسمت الأطروحة الثانية الخطوط العامة للمهام التي ينبغي أن تقوم بها هذه الصّواتة والأهداف التي يتعين الوصول إليها فيما يلي[18]:

(18) نعتمد في هذه الفقرة على أطروحات حلقة براغ.

أ - تحديد سمات النَّسَق الصِّواتي بوضع قائمة الصور السمعية الحركية الأكثر بساطة والدالة في لسان محدّد، أي وضع جرد شامل بالصوتات مع ضرورة تحديد العلاقات القائمة بينها، وذلك برسم خُطاطة لبنية اللسان المعني. ومن المهمّ أن نحدّد الارتباطات *Corrélations* الصِّواتِية بوصفها نوعاً خاصاً من الاختلافات الدالة. ويتكوَّن الارتباط الصِّواتي من سلسلة أزواج الصوتات المتقابلة التي تميز الواحدة عن الأخرى. ومن أمثلة هذه الارتباطات: الشِّدّة في مقابل الرخاوة والجهر في مقابل الهمس والقصر في مقابل الطول (بالنسبة إلى حروف العلّة) .... الخ

ب- تحديد توليفات *Combinaisons* الصوتات المحقّقة فعلاً في لسان مُعَيَّن، ومقارنتها بالتوليفات الممكنة نظرياً وكذلك ضبط التنوع في رتبة تجميعها وامتداداتها.

جـ - إحصاء درجة استعمال الصوتات وتحديد كثافة تحقيقها. ويتعين كذلك دراسة الحمولة الوظيفية لمختلف الصوتات وتوليفاتها في لسان محدّد.

د - الصِّرافَة لتحديد الاختلافات الصِّواتية أو ما يمكن تسميته بالصرف-صِواتي *morphophonologie*. فالوحدة الصرف-صِواتية *morphonème* هي الصورة المركبة لصوتتَين أو أكثر تكون قابلة لأن تعوض تبادلياً وفق شروط البنية الصِرافية داخل الصوتة نفسها.

وفيما يخصّ دراسة الكَلِمة وفئات الكلمات ثم التأكيد على وضع ما يلي:

أ - نظرية التسمية اللغوية *dénomination linguistique* التي تعتبر الكلمة نتيجة نشاط التعيين، ويتمثلُ هذا النشاط في تفكيك الواقع إلى عناصر لغوية مدركة وملموسة.

ب- نظرية الطرائق التركيبية *procédés syntaxiques* التي تجعل من الإسناد *prédication* الحدث المحوري. وقد تمّ التخلي في هذا الباب عن التمييز الذي وضعه سوسير بين المحور السياقي والمحور الترابطي *syntagmatique/ associatif*. وستشكل هذه الأطروحة لاحقاً منطلقاً للاتجاه المعروف بالوجهة الوظيفية للجملة التي سيعمل أصحابه على تطوير آراء ماتزيوس

حول بنية الجملة يخالف كلياً المنظور التقليدي في تقسيم الجملة إلى موضوع ومحمول أو مُسْند ومُسْند إليه.

ج - النظرية الصُّرافية وتهتمّ بتحديد صيغ الكلمات والمُرَكَّبات *syntagmes* وفق المنظور السابق (طرائق التركيب). وتقوم النظرية الصُّرافية بدراسة الكلمات والمُرَكّبات لا من حيث بنيتها الصُّرافية فحسب، وإنما أيضاً من خلال علاقاتها بالدلالات النحوية والمعجمية.

8.3. بين الأَصواتية والصِّواتة

ينطلقُ تروبتسكوي من تمييز اللسان من الكلام عند سوسير مردّداً "أن اللسان نَسَق لا يوجد إلّا في شعور الأعضاء المنتمين إلى مجموعة لغوية معينة". ويؤكّد تروبتسكوي بدوره على علاقة التلازم بين اللسان والكلام. "فاللسان لا يمكنه أن يوجد دون عمليات الكلام الحسّية بحيث، تستلزمُ عملية اللسان وعملية الكلام إحداهما الأخرى. إنَّهما مرتبطتان بكيفية غير قابلة للانفصال"[(19)].

وتبنَّت حلقةُ براغ كذلك نظرية العلامة اللغوية كما صاغها سوسير. وقد استنبط منها تروبتسكوي أقصى ما يمكن من المبادئ الصوتية مستثمراً إياها بطريقةٍ منهجية دقيقة وعملية، في انسجام تامّ مع أهداف حلقة براغ الوظيفية في التحليل الصواتي عموماً. يذهب تروبتسكوي، انطلاقاً من ثنائية العلامة كما حدّدها سوسير، إلى أنّ الدال والمدلول يدرسهما علمان مختلفان، يختصّ علم الدلالة بالمدلول. أما الدال فليس شيئاً بسيطاً كما يوحي بذلك تصور سوسير، بل يمكن تقسيمه إلى مستويين:

- الدال على مستوى اللسان،
- الدال على مستوى الكلام.

---

(19) N. S. Troubetskoy. *Principes de phonologie,* p.1.

ووفق هذا التقسيم، يمكن النظر إلى الدال من زاويتين مختلفتين:

- زاوية اللسان
- زاوية الكلام.

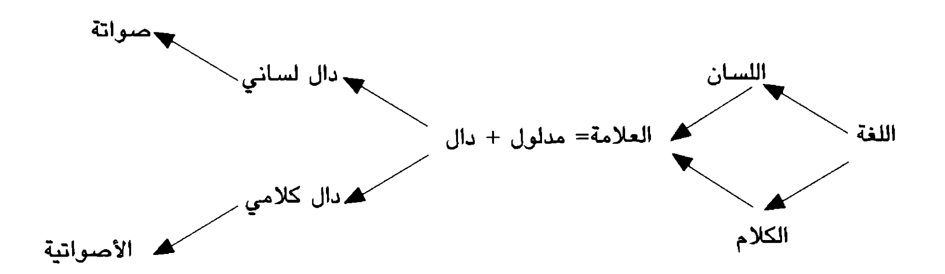
فالدال في عملية اللسان ليس هو الدال في عملية الكلام، فكلّ منهما لَهُ طبيعته الخاصة به. إنّ دال الكلام تدفُّق حسّي قابل للإدراك عن طريق السمع، لأنه ظاهرة فيزيائية، بينما يتمثل الدال في مستوى اللسان، في كونه يُصبح مضموناً [أو فكرة] مجردة تقومُ بخلق التنوّع في معنى الكلمات. وبعبارةٍ أخرى ينبغي التمييز بين الصوت *son* كمعطى فيزيائيّ وموضوعي، أي بوصفه تمثيلاً سمعياً، والصوت كوحدة وظيفية لها دور تلعبه من خلال العلاقات التي تجمعها بغيرها من الصوتات داخل نسق محدّد. لذا يتحتّم وضع علمين متميزين لدراسة الدال، يتناول أحدهما الدال في مستوى الكلام ويتناوله الثاني في مستوى اللسان. ولَمَّا كانت المادة الصوتية مختلفة بين المستويين، فمن اللازم تصوّر منهجين مختلفين لدراستها. إن علم دال الكلام الذي له ارتباط بالظواهر الفيزيائية الحقيقية، يستعمل مناهج العلوم الطبيعية (التجريبية). أمّا الدال في مستوى اللسان فيستعمل مناهج العلوم السيكولوجية والاجتماعية. يسمّي تروبتسكوي العلم الأول الأصواتية *phonétique* ويسمّي الثاني الصِواتَة *phonologie*. وتتحدّد مهمةُ الأصواتية في تحديد طبيعة المادة الصوتية المُكَوِّنة للأصوات وكيفية التلفظ بها، باعتبار الصوت ظاهرة طبيعية معزولة. إنّ الأصواتية علم يهتمّ بدراسة الوجه المادي لأصوات الألسن البشرية[20]، وهو ليس من اللسانيّات، ولكنه من الأدوات المساعدة للصِّواتَةِ أي دراسة الدال على مستوى اللسان.

وتدرس الصِّواتة الخصائصَ الصوتية التي تتضمّنها الصوتات وهي خصائص تقوم بتمييز الكلمات بعضها من بعض. لا تختلفُ الكلمة في اللسان الواحد عن أختها إلّا بوجود "شيء ما". ولا يوجد في كل لسان طبيعي إلّا عدد قليل من هذه "الأشياء" التي تغير معاني الكلمات. ولذلك تهتمّ الصِّواتَة بالارتباط القائم بين الاختلافات الصوتية والاختلافات الدلالية. فما يهمّ عالم الأصواتية

(20) *Ibid*, p 11.

phonéticien من خصائص سمعية ونطقية لا يهمّ عالم الصِّواتة *phonologue*، لأنها خصائصُ لا دور لها في تغيير معنى الوحدات اللغوية. ولا يهتمّ عالم الصِّواتَة بالصوت إلا من حيث إنه يؤدّي وظيفة معينة في اللسان، ممّا يجعل الصِّواتة بمثابة علم وظائف الوجه الصوتي للسان(21). ولكلّ منهما قواعده وطرائقه الخاصة به في تحليل الظواهر الصوتية، كل من زاويته المحدّدة.

ولا يعني هذا التمييز المبدئي أن هذين العلمين منفصلان. "وعلى الرغم من استقلالهما من حيث المبدإ، فإنّ ثمة اتصالاً حتمياً بين الأصواتية والصِّواتة(22). وليس هناك ما يمنع من أن يستفيد كل علم منهما من النتائج المحصل عليها في العلم الآخر. والفرق بينهما فرق منهجيّ بالأساس. تستفيد الصِّواتة في المستوى العملي أيما فائدة من نتائج الأصواتية. فمصطلحات الأصواتية مثل: مهموس/ مجهور/ مفخّم/ مرقّق/ رخو/ شديد، يمكن أن تُسْتَغَلّ أيضاً في الصِّواتَة. ويمكن توضيح علاقة اللسان بالكلام من جهة، وبين الأصواتية والصِّواتَة، من جهة ثانية عند تروبتسكوي في الرسم التالي:



9.3. الصوتة (الفونيم)

من الأسس المتينة التي قامت عليها الصِّواتة البنيويّة عند حلقة براغ مفهوم الصوتة *phonème* الذي يرجع الفضل في صياغته نظرياً وعملياً إلى عالِم الصِّواتَة تروبتسكوي. والتمييز بين الأصواتية والصِّواتَة كما أشرنا إلى ذلك في فقرة سابقة،

(21) *Ibid*, p.14.

(22) *Ibid*, p.15.

مردُّه إلى الوظائف/الأدوار التي يمكن أن تقوم بها الصوتات في تغيير معاني الكلمات. لقد سبقت الإشارة إلى أن الصِّواتَة تهتمّ بالسِّمات الصوتِية التي تميز الكلمات بعضها عن بعض. وقد ذَكرْنا أنّ الكَلمة الواحدة تختلفُ عن أختها بوجود "شيء ما"، وأنَّ اللِّسان يتوفَّر على عدد مَحْدود من هذه "الأشياء" التي تقوم بتغيير معاني الكَلمات. ما نقصده بهذه الأشياء هو الصوتات الَّتي تُشكِّل قوام النسق الصِّواتي الخاصِّ بكل لسان على حدة.

ويمكن أن نميز بين عدة تصوّرات حديثة في تعريف الصوتة وهي:

- التصوّر المادي؛
- التصوّر العقلاني؛
- التصوّر التجريدي؛
- التصوّر الوظيفي؛

من أشهر التعريفات المادية للصوتة تعريف دانيال جونز D. Jones الذي يرى "أنها عائلة من الأصوات المرتبطة فيما بينها في الصفات والتي تستعمل بطريقة تمنع وقوع أحد الأعضاء في كَلمة من الكَلمات في نفس السياق الذي يقع فيه أيّ عضو آخر من ذات العائلة"[23]. "فالفتحات في العربية مثلاً أعضاء الصوتة الواحدة هي الفتحة بسبب اشتراكها في أكثر الصِّفات، ولكن أية فتحة منها لا تقع في موقع الآخر. فالفتحة المفخَّمة في "طاب" لا تقع في محلّ الفتحة المرقّقة في "تاب" أو العكس"[24].

ما يؤخذ على تعريف جونز هو الارتباط التامّ بين الصوتة والكتابة الصوتية المادية لهذه الوحدة. وهو تعريف لا يهتمّ بدراسة السِّمات الوظيفية لأصوات لسان معين، أي لا يهتمّ بالدور الوظيفي الذي تقومُ به الصوتات في اللسان.

---

(23) أحمد مختار عمر، **دراسة الصوت اللغوي**، القاهرة، عالم الكتب، ط3/ 1985، ص149.

(24) كمال محمد بشر، **علم اللغة العام: الأصوات العربية**، مكتبة الشباب، القاهرة، د.ت، ص157.

أما التعريف العقلاني الذي يقترب كثيراً من تعريف تروبتسكوي ويمهّد له الطريق، فهو تعريف بودوان دو كورتناي Baudeoin de Courtenay الذي يعتبر الصوتة "صورة ذهنية". وقد كان لبودوان دو كورتناي تأثير قويّ وإيجابيّ على حلقة براغ عامة، وعلى تروبتسكوي خاصة.

ودو كورتناي واحد من أشهر لسانيي بولندا خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وكانت له آراء وتصوّرات لغوية عامة ذات أهمّية بالغة تجاوز تأثيرها أعضاء حلقة براغ. بل كان لها تأثير واضح في مؤسّس اللسانيّات سوسير. وقد أشار سوسير نفسه في **كتاباته**[25] إلى أهمّية هذا الرجل في قيام لسانيّات علمية. وقد توصّل دو كورتناي إلى العديد من الأفكار اللسانيّة التي وصل إليها سوسير، مثل ثنائية لسان/كلام، ومفهوم الصوتة والتمييز بين التزامن والتعاقب. ويذكر تروبتسكوي[26] أنّ بودوان دو كورتناي ميَّز في علم الأصوات بين علمين صوتيين وصفيين، بحسب دراسة الأصوات الملموسة كظواهر فيزيائية أو كإشارات صوتية تستعمل لغايات التفاهم بين الأفراد داخل مجموعة لغوية محدّدة. يتعلّق الأمر في الحالة الأولى بعلم الأصواتية العضوية، وبعلم الأصواتة النفسية في الحالة الثانية. يدرس العلم الأول الأصوات المنطوقة، بينما يدرس الثاني الأصوات التي ينوي المتكلّمُ النطق بها.

وعمل دو كورتناي على تمييز الصوت الواقعي من الصوت المجرد الذي يملك وظيفة تمييزية وهو الصوتة. وكان لرأيه في موضوع الصوتة دور كبير في ما صاغته حلقةُ براغ بهذا الشأن بصفة عامة وما وصل إليه تروبتسكوي من صياغة دقيقة وضبط لهذا المفهوم المحوري في الصِّواتة. فالصوتة في نظر دو كورتناي وحدةٌ صوتية نفسية حية، وعندما يتعلّق الأمر بالكلام أو بالسمع، وهي وقائع مادية عابرة، فإن مفهوم "الصوت" *son* يكفينا للتعبير عن هذه الوحدة الصائتة أو النطقية التي تثير انطباعاً سمعياً وصوتياً وحيداً. أما إذا أردنا أن نتموقع على مستوى اللسان وهو مستوى غير المنقطع نفسياً كعلم للتمثيل، فإن مفهوم

(25) F. de Saussure. *Ecrits de linguistique générale*, p.147.

(26) N. S. Troubetskoy. *Principes de phonologie*, p.5.

"صوت" لا يكفي، لذا ينبغي أن نبحثَ عن لفظ آخر للتعبير عن المقابل النفسي للصوت. إن هذا اللفظ هو "الصوتة".

وقد عمل تلميذ دوكورتناي فلاديميروفيتش شربا (1880-1944) Valadimirovic Scerba على تدقيق مفاهيم دوكورتناي وضبطها مؤكّداً بدوره على مفهوم الصوتة ووظيفته التمييزية [27]. ونجد التعريف العقلاني أيضاً عند سابير[28] الذي يعتبِر الصوتة صوتاً نموذجياً يسعى المتكلم إلى تحقيقه. إنه صورة عقلية للصوت. "لنفرض أنّ متكلماً عربياً قد استحضر في ذهنه صورة الصوتة المسماة "نونا". قد ينجح هذا المتكلم في تحقيق هذه الصورة وإبرازها بصورة مادية حينما ينطق "النون" في "نحن" (فهي أسنانية ـ لثوية) ولكنه في أماكن أخرى لا ينجح في هذا، وينطق صوراً أخرى تقرب من هذه النون، وذلك كالنونات في "ينفع" و"انكسر"[29].

وينسب التعريف التجريدي إلى توادل Twadell الذي يؤكّد أنه لا وجود لشيء اسمه الصوتة لا من الناحية العضوية ولا من الناحية العقلية، وإنما الصوتات وحدات مجردة تحليلية مصطنعة.

ولا شكّ أن اختلافَ هذه التعريفات يعود إلى المنطلقات التي ينظر منها كل فريق إلى التحليل الصِّواتي وتحديداً إلى دور الصوتة فيه، ولكنها تقود في نهاية التحليل إلى نتيجةٍ واحدة.

يرفضُ تروبتسكوي كل التعريفات التي أعطيت للصوتة، لأنها تربطها وتحدّدها استناداً إلى بعض المفاهيم الغامضة مثل "الشعور" و"الفكر"[30]، وهو ما لا يساعد كثيراً في الوصول إلى الواقع الموضوعي للصوتة، باعتبارها في نظره

---

(27) P. Léon, H. Schoght. *La phonologie, les écoles et les théories*, Paris, Klincksieck, 1977, p.15-16.

وفي هذا الكتاب بعض الفقرات مما كتبه دو كورتناي.

(28) Edward Sapir. *La réalité psychologique des phonèmes*, Journal de Psychologie. 1933/Repris in *Essais sur le langage*, Paris, Editions de Minuit., 1969.

(29) كمال محمد بشر، **علم اللغة العام: الأصوات العربية**، ص159.

(30) ينبغي أن نشير إلى أنه سبق لتروبتسكوي نفسه كما يذكر في مبادئه، ص41-42، أن تبنّى الموقف العقلاني في تعريف الصوتة.

وحدات صوتية وظيفية، بالدرجة الأولى وليست وحدات نفسية. فلا يمكن تحديد الصوتة بكيفية مقبولة بالاستناد إلى طبيعتها النفسية أو بعلاقاتها مع بدائلها الصوتية؛ وإنما فقط بوظيفتها في اللسان[31]. وأهمّ ما يأخذه تروبتسكوي على التعريفات السابقة، أنها أهملت شيئين أساسيين في طبيعة الصوتة وهما: الوظيفة والتقابل *Opposition*، "ذلك أن الصوتة هي أولاً شيء وظيفي، ويجب أن تحدّد بالقياس إلى وظيفتها"[32]، وهي أيضاً "كل وحدة في تقابل صِواتي غير قابلة لأن تنقسم إلى تقابلات صِواتية أصغر[33]. ومعنى هذا أن الصوتة أصغر وحدة تعمل على تحديد المعنى وتغيره داخل الكلمة الواحدة". فما يميز/ قال/ عن/ نال/ هو وجود الوحدة الصوتية / ق/. ومن الواضح أن تعريف تروبتسكوي يجنح نحو اعتبار الصوتة وحدة لها وظيفة محدّدة تتمثل في التمييز بين الصُّرفات. "إن الصوتة عنصر يساعد على تحديد التقابلات الدلالية بين كَلِمات لسان مُعين". فالصوتة عند تروبتسكوي وحلقة براغ وسيلة لتحديد (هُويّة) الأصوات وبدائلها (متغيراتها) *Variantes*، بينما تنظر التعريفات الأخرى إلى الصوتة نظرة مادية، أي باعتبارها صوتاً ملموساً، ودون مراعاة للدَّور الذي تؤديه وتنفرد به. فكيف نميِّز صوتة ما عن بدائلها *variantes* أو لُوَيْناتها؟ متى يمكن القول بأن صوتَيْن ما يعتبران إنجازاً لصوتَيْن مختلفتين أو لصوتةٍ واحدة؟

وضع تروبتسكوي لهذه المسألة أربع قواعد أساسية:

- القاعدة الأولى:

"إذا ظهر صوتان من اللسان نفسه في الجوار الصوتي نفسه، وإذا كان بالإمكان تعويض أحدهما بالآخر دون أن ينتج عن ذلك اختلاف في الدلالة الفكرية للكَلمة، فإن هذين الصوتَين ليسا سوى بديلين لصوتة واحدة"[34]. ومثال هذه القاعدة صوت القاف في كلمة "قال" في اللهجة المغربية التي تنطق: / قال/ و/ آل/ و/ گال/ بحسب الأفراد.

---

(31) N. S. Troubetskoy. *Principes de phonologie*, p.44.
(32) *Ibid*, p.43.
(33) *Ibid*, p.33.
(34) *Ibid*, p.47.

- **القاعدة الثانية:**

"إذا ظهر صوتان في الموقع الصوتي نفسه، ولا يمكن تعويض أحدهما بالآخر دون تغيير دلالة الكَلمات أو دون أن تصبح الكَلمة غير متعرف عليها، فإن هذين الصوتَين إنجازان لصوتَين مختلفتين"[35].

ومثال ذلك الاختلاف بين "سال" و"صال" وبين "جال" و"خال".

- **القاعدة الثالثة:**

إذا كان صوتان في لسان مُعين متقاربين سمعياً ونطقاً، ولا يمكنهما أن يقعا أبداً في الجوار الصوتي نفسه، فإنهما يعتبران بديلين توليفيين *combinatoires* للصوتة نفسها. ومثال هذه القاعدة ما يلاحظ بشأن صوت الباء. "فالباء صوت شفويّ انفجاري مجهور، وليس للباء نظير مهموس في اللغة العربية (...) ولكن قد يحدث أن يهمس الباء العربيّ في بعض مواقعه كالباء في نحو "**كتاب**" (بسكون الباء). وفي هذه الحالة يصحب الإهماس عدم انفجار كامل. ولعلّ هذا أحد الأسباب التي من أجلها نَصَّ العرب على وجوب تحريك الباء بصُوَّيْت إذا كانت ساكنة حتى يتحقّق الانفجار التام"[36]. ولَمَّا كانت الباء المجهورة والباء المهموسة تشتركان في المخرج نفسه (شفوي) ولا تظهران أبداً في الموضع الصوتي نفسه فهما بذلك بديلان توليفيان لصوتة واحدة هي الباء.

ويقدّم تروبتسكوي مثالاً من اللسان الكوري لتبيان هذه القاعدة. ففي هذا اللسان لا يظهر r وs في نهاية الكلمة، وبما أن l (أسناني ـ لثوي ـ جانبي) صوت مائل *liquide* وأقرب إلى r منه إلى s، يمكن اعتبار l وr في الكورية بديلين مختلفين لصوتة واحدة[37].

---

(35) N. S. Troubestkoy. *Principes de phonologie*, p.49.

(36) كمال محمد بشر، **علم اللغة العام، الأصوات العربية**، مرجع سابق، ص101.

(37) N. S. Troubestkoy. *Principes de phonologie*, p.51.

- القاعدة الرابعة:

لا يمكن اعتبار صوتَين تنطبق عليهما القاعدة الثالثة بديلين للصوتة نفسها إذا كان من الممكن أن يوجد أحدهما تالياً للآخر. وبعبارةٍ أخرى إذا كانا طرفي مجموعة صوتِية، وحيث واحد من الصوتَيْن يظهر أيضاً منعزلاً[38]. ومثال هذه القاعدة أن (r) تقع في الإنكليزية قبل العلل، في حين أن (ə) لا تقع في هذا الموقع، على الرغم من هذا الموقع المنعي، فإنهما لا يمكن اعتبارهما تنوعات تكاملية (بديلين توليفيين)، لأنه في كلمة مثل *profession* ال (r) و(ə) يقعان متتابعين ولأنه توجد كلمات أخرى حيث تقع (ə) موقع منفصل في البيئة نفسها (الجوار) كما في *perfection*[39].

تبعاً لهذا تمتلكُ كل صوتة سمات وظيفية خاصة بها، تسمح لها بأن تقوم بوظيفة معينة داخل سياق الكلمة. إنها تميز بين معاني الكلمات، وهي الملامح التي سمّتها حلقة براغ بالسمات المميزة (*traits distinctifs*). إن مفهوم المُلاءَمة[40] *la pertinence* يسمحُ بالتمييز بين ما هو أساسي وما هو ثانوي. فما يكون ملائماً هو كل ما يؤدّي إلى تغيير في وظيفة الوحدات من خلال تغيير معنى الإرسالية اللغوية، ومن ثمة يكون لها دور في عملية التواصل.

10.3. التقابلات الصِّواتِيّة

يضيف تروبتسكوي إلى مبدإ "الوظيفة" [أو "السمات التمييزية"] مبدأً ثانياً هو مبدأ التقابل[41] *Opposition* الذي يترتّب عن المبدإ الأول". وينطلق تروبتسكوي في

---

(38) *Ibid*, p.52.

(39) أحمد مختار عمر، **الصوت اللغوي**، مرجع سابق، ص184. والمثال مترجم عن مبادئ الصِّواتة لتروبتسكوي، ص52 من الطبعة الفرنسية.

(40) هذا المفهوم من المفاهيم الأساس في اللسانيّات الوظيفية لاسيما عند حلقة براغ واللسانيين الذين تأثروا بتصوراتها أمثال مارتينيه. ويقابل هذا مفهوم *pertinence* بمصطلحات عربية عديدة منها «الإفادة» عند عبد القادر المهيري في ترجمته لكتاب روبرت مارتان. **مدخل لفهم اللسانيّات**، والمغايرة (أنطوان رزق الله: **مبادئ ألسنيّة عامة** لمارتينيه).

(41) N. S. Troubestkoy. *Principes de phonologie*, p.69 et suivantes.

هذا الشأن "من قولة سوسير المشهورة: "ليس في اللسان إلّا الاختلاف"[42].
وتستلزم فكرة الاختلاف فكرة التقابل. إن شيئين لا يمكنهما أن يختلفا إلّا في حدود أن كلاً منهما يقابل الآخر. وينتج عن كل تقابل بين وحدتين مختلفتين تغيير في معاني الكلمات داخل لسان مُعين، يسمّى **تقابلاً صِواتياً** *Opposition Phonologique* أو **تقابلاً صِواتياً تمييزياً** *opposition phonologique distinctive*[43].

إنّ التقابل بين الصوتتَين /ر/و/غ/ في /راب/و/غاب/ تقابل "صِواتي مُمَيِّز، لأنه يسمحُ بالحصول على صُرْفَتَين مختلفتين لهما معنيان متميزان. ويتمّ التقابل على أساس قابلية الإبدال *permutable* حيث نستبدل الراء بالغين فنحصل على وحدة جديدة (معنى جديد)[44].

وليست الطبيعة المادية للصوتات مهمّةً في ذاتها، وإنما المهمّ هو التقابلات القائمة بينها. "إنّ الدور الأساس في الصِّواتة لا يأتي من الصوتاتِ في ذاتها، ولكن من التقابلات التمييزية. ويعني التقابل وجود سمة *trait* واحدة على الأقل ـ وقد تكون أكثر من ذلك ـ تميز صوتة عن غيرها من الصوتاتِ، وهذا لا يعني عدم وجود سمات أخرى مشتركة بين الوحدات المتقابلة. وتعد السِّمات المشتركة أساس التَّقابل.

ولو نظرنا إلى الجدول الصوتي للسان مُعين لوجدنا أن الصوتاتِ التي تشكّل نسقه الصِّواتي، لابدّ وأن تتضمّن تقابلات صِواتية من نوع محدد بينها، وجود لصوتتَيْن تتفقان في المخرج والصفة اتفاقاً تاماً وكلّياً. لنلاحظُ أن صوت "باء" في العربية صوت مجهور، يحدّد بتقابله مع صوت الفاء لأنه صوت مهموس. بيد أن سمة الشفوية المتوفرة في الباء لا تدخل ضمن السِّمات المميّزة للباء، لأنّ العربية لا تتوفر على الصوت /P/ ولا على الصوت /V/ كما هو الشأن في الفرنسية التي نجد فيها كما هو معلوم تقابلاً بين /b/-/p/ وبين /V/-/F/.

وأصل فكرة التقابل عند تروبتسكوي متضمّن في مفهوم النسق عند سوسير،

(42) F. de Saussure. *Cours de linguistique générale*, p.166.

(43) N. S. Troubestkoy. *Principes de phonologie*, p.33.

(44) هذه العملية الاختبارية سيسمّيها هلمسليف لاحقاً الاستبدال *commutation*.

حيث إن عناصر النَّسَق ترتبطُ فيما بينها ارتباطاً عضوياً، ولا قيمة لأيٍّ عنصر بمعزل عن باقي عناصر النَّسَق. وبما أن الصوتة هي أيضاً وحدة داخل نَسَق من التقابلات، فينبغي أن تحدّد بواسطة علاقات التقابل مع باقي وحدات النَّسَق. إن التقابل بصفة عامة، يعني الفرق بين صوتَيْن، كأن تكون إحداهما مجهورة والأخرى مهموسة (د/ت)، أو بين (د/ز) وهما مجهورتان، ولكنهما تتقابلان في كون الأولى لها سمة الشدّة [+شديد] والثانية لها سمة الرخاوة [+ رخو] وهكذا دواليك. وبعبارة أخرى، يقتضي التقابل "التضاد"، إذ لا تجتمع سمات صوتَيْن معاً على السلب ولا على الإيجاب، وإنَّما ينبغي أن تكون سِمات الواحدة سلبية في حالة إيجاب سمات الأخرى والعكس، شريطة أن تنتميا معاً إلى مَخْرج واحد.

وفي مجال الصِّواتة حدَّد تروبتسكوي مجموعةً من التقابلات التي أثبتت فعاليتها في التحليل الصِّواتي البنيوي، باعتبارها بحسب تروبتسكوي تساعد على تحديد الصوتات بكيفية نسقية، وهو هدفُ الدراسات الصِّواتيّة البنيويّة. ونذكر من هذه التقابلات(45):

- التقابلات الثنائية *Oppositions bilatérales* حيث تشترك بعض الأزواج الصوتية في أكبر عدد ممكن من السِّمات مقارنة بغيرها من الأزواج الصوتية. فالتقابل الموجود بين /ك/ و/ح/ يكشف اشتراكهما في "السمات التالية: + **فموي**، + **طبقي**، + **مهموس**. وكلما ازدادت السمات الجامعة بينهما كلما كانت العلاقة بينهما أكثر متانة".
- التقابلات المتعدّدة الجوانب *Oppositions multilatérales* تهمّ صوتَيْن

(45) N. S. Troubetskoy. *Essai d'une théorie des oppositions phonologiques,* publié en 1936 republié dans: André Jacob. *Genèse de la pensée linguistique,* pp.198-207, Paris, A. Colin, 1973. Voir. *R.* Fages: *Comprendre le structuralisme*; Toulouse, Privat, 1968.

اعتمدنا بالنسبة إلى اللغة العربية، الأمثلة التي قدّمها:

إدريس السغروشني، **مدخل للصواتة التوليدية**، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 1987.

أحمد مومن، **اللسانيّات: النشأة والتطور**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2002، ص144-145.

وتقوم على أساس سمات مشتركة ضئيلة." فالزوجان /و/ - /ي/ أو /a/-/i/ لا يشتركان في شيء سوى كونهما من الصوائت *voyelles*.

* التقابلات المتناسبة *Oppositions* proportionnelles. وذلك إذا كانت السمة المميزة نفسها موجودة في صوتات أخرى. فسِمة "الجهر" سِمَة مُميِّزة ليس فحسب بين /p/-/b/، بل بين أزواج أخرى مثل: /t/-/d/ و/k/-/g/. ونجد في العربية أن " التقابل بين /ت/ و/د/ هو الذي يوجد بين /ز/و/س/ و/ع/و/ح/"[46].

* التقابلات المنعزلة *Oppositions isolées* وهي التي لا تخضعُ لنموذج مشترك. "والتقابل بين /ر/ و/ل/ تقابل منعزل، إذ لا يوجد في اللغة ما يمكن أن يشترك معهما في هذا التقابل"[47].

* التقابلات السالبة *Oppositions privatives* وتقوم بتمييز وحدة عن أخرى حيث تكون إحدى الوحدات موسومة (مُعلَّمَة) *marqué* والأخرى لا موسومة *Non marqué*. أي إن إحدى الصوتتَين تتضمّن سمةً صوتيةً غير موجودة في الوحدة الأخرى ومثال ذلك التقابل الحاصل بين:

س/ز ود/ت وث/ذ

* التقابلات المتكافئة *Oppositions équipolantes*، وهي القائمة على سمة مميزة توجد في عنصر ولا توجد في العنصر الآخر، ولكن هذه السِّمة لا تعطي أي امتياز للوحدة المستبدلة كالتقابل الصوتي بين /p/ و/t/ و/k/ وبين /م/ و/ع/ وبين /ب/ و/خ/.

* التقابلات الثابتة *Oppositions Constantes*

* التقابلات القابلة للحذف *Oppositions supprimables*.

(46) إدريس السغروشني، **مدخل للصواتة التوليدية**، ص26.
(47) المرجع السابق، ص27.

- التقابلات المتدرِّجة *oppositions graduelles* " وهي التي يتدرَّجُ أعضاؤها في نفس السمة كما هي الحال في الفرنسية بالنسبة للصوائت التالية i وé وè التي تتدرَّج في الانفراج. أما في العربية، فنجد بين الضمّة والكسرة تقابلاً سالباً فقط، إذ ليس هناك عضو ثالث يندرِج معهما في الأساس المشترك "[48].

أما التقابلات التي ليس لها أيّ وظيفة تمييزية ـ لا يترتّب عنها تغيير في المعنى ـ فتعتبر بدائل توليفية *Variantes* combinatoires، كما هو الشأن في بعض التقابلات الصوتية بين السين والصاد والزاي في هذا المثال من اللسان العربي: السراط/ الزراط/ الصراط بحسب بعض القراءات القرآنية. أو بين /ق/ و/آ/ و/گ/ في الكلمات قال وآل وگال في اللهجة المغربية. وغير هذا من الأمثلة الموجودة في كل نسق صِواتي خاص بكل لسان على حدة.

11.3. رومان جاكبسون

لا يكتملُ الحديث عن حلقة براغ دون الإشارة إلى جاكبسون الذي يعدّ واحداً من أبرز وجوه الحلقة وأقواها تأثيراً فيها وفي اللسانيّات البنيويّة ولسانيّات القرن العشرين. "فجاكبسون إلى جانب تروبتسكوي من جهة وسوسير من جهة ثانية مسؤول عن هذا التطور الذي سيغير لسانيّات نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين إلى لسانيّات عصرية ذات توجّهات بنيويّة[49]. "وقد درَّس في العديد من مراكز البحث العلمي والجامعات الدولية في كلّ من روسيا والنمسا وتشيكوسلوفاكيا والدانمارك والنرويج والسويد وفرنسا ليستقرّ نهائياً منذ 1941 في الولايات المتحدة، ويصبح منذ 1957 أستاذاً في معهد MIT الشهير. ولجاكبسون مساهمات[50] رائدة في مختلف فروع اللسانيّات وما يتصل بها. وقد كان متشبّعاً

---

(48) إدريس السغروشني، **مدخل للصواتة التوليدية**، ص27.

(49) Bertil Malmberg. *Histoire de la linguistique. De Sumer à Saussure*, Paris, PUF, 1991, p.333.

(50) انظر: فاطمة الطبال بركات، **النظرية الألسنيّة عند رومان جاكبسون، دراسة ونصوص**، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت 1993. =

بالعديد من معارف عصره في الأدب والفلسفة وفي العديد من العلوم الإنسانية والعلوم الدقيقة، فاجتمع فيه العالم اللسانيّ والفيلسوف والناقد الأدبي والفنان، مِمَّا مكَّن اللسانيّات البنيويّة من الانفتاح على العديد من العلوم الصرف والعلوم الإنسانية وباقي الحقول الأدبية والفنية. وكان له أيضاً اطلاع واسع على ثقافات أجنبية متنوّعة جعلته قارئاً مطلعاً ومتتبعاً دقيقاً لما يصدر بالعديد من الألسن. وقد أَقام خلال مساره العلمي الطويل اتصالات شخصية وتعاوناً علمياً مع العديد من رجالات القرن العشرين البارزين. ويكفي أن نشير إلى أنه التقى لمدة غير قصيرة عدداً من اللسانيين نذكر منهم: مارتينيه وهلمسليف وتشومسكي وموريس هاليه على سبيل التمثيل لا الحصر إضافةً إلى كلود ليفي ستروس وجاك لاكان. وقد قال بشأنه تشومسكي: "شخصياً تعلّمت الكثير من هذه البنيويّة الأوروبية ومن جاكبسون على وجه الخصوص، فقد كان أستاذي وهو صديق كبير أيضاً، ولست في حاجة إلى أن أذكر كيف أنّ مساهماته تظلّ أساسية"[51]. وشكّل جاكبسون حلقة وصل تمكّن من خلالها مفكّرو أوروبا وأميركا من التعرف إلى الثقافة التي تزخرُ بها أوروبا الشرقية الغنية بروادها في مجال الأدب بشعره ونثره وبالتحليل الأدبي (الشكلانيون الروس) والشعرية والفلكلور. وقد تأثر جاكبسون بالفلسفة الظاهراتية من خلال اطلاعه على أدبياتها ابتداء من سنة 1915 بجامعة

=

- Roman Jakobson

Selected Writings, I: Phonological studies La Haye, Mouton, 1962.

Selected Writings, II: Word and Language, La Haye, Mouton, 1971.

Selected Writings, III: The Poetry of Grammar and the Grammar of Poetry, La Haye, Mouton, 1967.

Essais de linguistique générale, Paris, Minuit, 2 vol, 1963-1973.

Langage enfantin et aphasie, Paris, Editions de Minuit, 1969.

Questions de poétique, Paris, Aux Editions du Seuil, 1973.

Six Leçons sur le son et le sens, Paris, Editions de Minuit, 1976.

Une vie dans le langage, Paris, Editions de Minuit, 1985.

(51) Entretien avec N. Chomsky in Hypothèses Changes, Paris, Seghers et Lafont,1972. (حوار مع تشومسكي).

موسكو[52] وعلاقته ببعض أتباعها [(برنتانو Brentano (1838-1917) تلميذ هوسرل Edmund Husserl (1859-1938) وأنطون مارتي (1847-1914) Anton Marty] ممّا جعل البعض يسمّي بنيويته بالبنيويّة الظاهراتية *Structuralisme phénoménologique*[53] وهي الفلسفة التي أمدّته بالعديد من الأفكار حول الطّابع الداخلي المحايث والجَوّاني للأشياء والتي دَعَّمَت تصوراته البنيويّة.

يمكن تقسيم حياة جاكبسون العلمية إلى المراحل الأساس التالية:

- "مرحلة موسكو وهي مرحلة اليقظة الوثابة،
- مرحلة براغ وهي فترة التأسيس، وتتميز بأن جاكبسون أعدّ فيها برنامجاً منهجياً بدأ باختباره في مجالات عدّة ومحدّدة،
- المرحلة الأميركية وهي مرحلة توطيد الاكتشافات وتوسيعها ضمن إطار مناهج مقنَّنة"[54].

ويتميز جاكبسون في علاقاته العلمية بالعلماء السابقين أو المعاصرين له بقدرته الفائقة على استعادة آرائهم على نحو مثير للغاية، فهو لم ينطلق قط مما يمكن أن يعتبر فراغاً تصورياً، بل كانت تصورات الآخرين ومواقفهم من القضايا المدروسة دائماً منبع إلهام ودافعاً نحو أفكار وتحليلات، بل ونظريات جديدة. يظهر هذا الأمر جلياً في الثنائيات التي اشتهر بها جاكبسون مثل الانتقاء *sélection* والتوليف *combinaison* والمحور السياقي *axe syntagmatique* والمحور الجدولي *axe paradigmatique* والتي هي في الواقع احتواء مدروس ودقيق لتصوّرات سابقيه. فبرنامج حلقة براغ الذي يعود في جوانب كثيرة منه إلى جاكبسون إنما هو تطوير وتفعيل لآراء بودوان دو كورتناي وسوسير. ومحور نظريات جاكبسون في الصِّواتة حول العلاقات والصوتة والسمات الثنائية تطوير لمفاهيم وتصوّرات كانت معروفة بدرجة متفاوتة عند سابقيه أو معاصريه من اللسانيين. فالفكرة المحورية في

---

(52) Roman Jakobson. «Structuralisme et téléologie», in *Revue ARC* n. 60 spécial Jakobson, Aix en Provence, 1975, p.50.

(53) Elmar Holenstein. *Roman Jakobson*, Seghers, Paris, 1974, p7.

(54) فاطمة الطبال بركة، **النظرية الألسنيّة عند رومان جاكبسون**، ص22.

اللسانيّات البنيويّة التي تتمثل في مفهوم "العلاقات"، عند سوسير، توسَّع فيها جاكبسون ليتحدّث عن العلاقة بشكل عام بين الصورة والمضمون، وفي كل ما هو سيميائي أو يتضمّن وظيفة سيمائية، ليكتسب مفهوم العلاقة أبعاداً جديدة تجاوزت حدود اللغة واللسانيّات، وتجد لها مكاناً مركزياً أيضاً في الأدب والشّعرية والفنون التشكيلية. "إن الشّعرية الجديدة تهتمّ بالشكل والعلاقات وها هو جاكبسون يقول مع بْراك *Braque*" أنا لا أومن بالأشياء بحد ذاتها، بل أومن بالعلاقات القائمة بينها. وقد تنبَّه جاكبسون خلال دراساته الشعرية إلى أهمّية العلاقة بين الدال والمدلول وبين الإشارة والمعنى، فقد أدهشه التكعيبيون في اعتماد كل شيء عندهم على علاقة الأجزاء بالكل، بين اللون والصورة، وإذا به يشدّد بدوره على العلاقات القائمة في القصيدة. ينبغي أن نقرأ قصيدةً كما نشاهد لوحةً، أي أن نفهمها ككلّ، بحيث نحدّد جيداً علاقات كل عنصر بالآخر. إن مفهوم العلاقة، من العلاقة بين البالغ في الكبر والبالغ في الصغر، إلى العلاقة بين مختلف مجالات الثقافة إلى علاقة العناصر المكوِّنة للعمل الفنّي، هذا المفهوم هو في أساس الفكر اللغويّ الجاكوبسوني"[(55)].

وكذلك سيفعل مع تصوّرات تروبتسكوي زميله وصديق دربه منذ البداية. فالتقابلات التي صاغها هذا الأخير في "**مبادئ الصِّواتة**" على أساس مفهوم العلاقة، وجعلها تقابلات ثنائية وثلاثية ورباعية، ستصبح مع جاكبسون في نهاية التحليل تقابلات ثنائية لا أقلّ ولا أكثر. ولم يقف بها عند حدود العلاقات الصوتية، بل طبقها في التحليل الصِّرافي مميزاً بين الصُّرْفة الموسومة والصُّرْفة غير الموسومة. وقد عمَّم جاكبسون بعض الثنائيات الشهيرة في اللسانيّات مثل تزامن/

---

(55) المرجع السابق، ص29.

ويشير جاكبسون إلى أن ما أثار انتباهه حين تعرف إلى دروس سوسير سنة 1920 أثناء وجوده ببراغ هو تأكيد سوسير على مفهوم العلاقة وهو ما كان يتطابق وقتئذ على نحو تام مع وجهات النظر التي عبر عنها تشكيليون تكعيبيون أمثال بْراك وبيكاسو الذين كانوا يقولون بأن المهمّ ليس هو الأشياء في ذاتها، وإنما في العلاقة بين هذه الأشياء. انظر:

Roman Jakobson. «Structuralisme et téléologie», in *Revue ARC* nº60 spécial Jakobson, Aix en Provence, 1975, p.50.

تعاقب وعلاقات سياقية/ علاقات جدولية والانتقاء/ التوليف، فانتقل بها من تحليل الظواهر اللغوية إلى تحليل الظواهر الأدبية والشعرية وبنجاح قلّ نظيره.

وكانت الصوتة أحد المفاهيم الصِّواتية التي أعاد جاكبسون النظر فيها مراراً فجاءت تصوّراته في هذا الباب عبارةً عن مُراجعات مستمرة تنشد دائماً مزيداً من الدقّة والعمق والشمولية بحثاً عمّا هو عام وكلّي *universel* في الظواهر الصوتية. ولم يكن مفهوم الصوتة مفهوماً محورياً -كما رأينا سابقاً- عند حلقة براغ وتروبتسكوي، فقط، وإنما كانت له مكانته ودوره وقيمته الكبرى في أعمال كل رواد المدرسة البنيويّة، بدءاً بسابير وبلومفيلد وغيرهما. وقد عمل جاكبسون على تجاوز مفهوم الصوتة كما هو وارد عند هؤلاء جميعاً. ويُعَلِّلُ جاكبسون دوافع إعادة تحديد الصوتة على أسس جديدة، قائلاً: "إن تطور البحث الفونولوجي، الذي أدى إلى تقسيم الصوتات تقسيماً متدرّجاً إلى نوعيات متمايزة دفعني في سنة 1932 إلى إعادة تحديد الصوتة بكونها "مجموعةَ نوعيات صوتية متزامنة اسْتُعْمِلَت في لسان معين للتمييز بين الكلمات ذات المعنى المتميز، وإلى النظر في جدول هذه السمات المتضادة كأساس كل نظام صِواتي. فمفهوم النوعيات التباينية أو التمييزية، وأنا استعملت في الإنكليزية عبارة سمات تمييزية *Distinctive Features* التي استعملها في سنة 1933 كل من سابير وبلومفيلد، كان مخصّصاً ليقوم بدور المفهوم الملائم الأخير الذي كانت تنعم به الصوتة من قبل"[56].

ولا ينسى جاكبسون أن يبين متواضعاً كعادته وبلباقة، أسبقية الآخرين في القضايا الصوتية التي يعالجها مبيناً دائماً وجود بعض التلميحات الإيجابية أو الإشارات لأفكاره لدى غيره. وهذا ما حصل مع سوسير وتحليله الصوتة إلى سمات مميزة. "فمع أنّ فردينان دو سوسير فهم العلاقة الداخلية بين خطي اللغة ـ محور "التزامن" ومحور "التتابع"، ورغم أنه وصفها، فإن إشارته التنبّئية إلى وجود عناصر تباينية تتكون منها الصوتة لم يتمّ توسيعها، ذلك لأنه كان يشارك

(56) رومان جاكبسون، **المفهوم الألسني للسمات التمايزية: ذكرى وتأملات**، ص227؛ فاطمة الطبال بركة، **النظرية الألسنيّة عند رومان جاكبسون، دراسة ونصوص**، مرجع سابق، وقد استبدلت مصطلح الفونيم/ الفونيمات الوارد في النص العربي المقتبس بمصطلح الصوتة/ الصوتات حفاظاً على الانسجام.

عصره الاعتقاد التقليدي بالتتابع الخطّي للدال، وقد أعاقت هذه الدائرة المغلقة لمدة طويلة كل تحليل إلى سمات تمايزية [تمييزية][57].

ويُناقضُ التحليل القائم على السّمات التمييزية للصوتات عند جاكبسون صراحةً مفهوم الصوتة عند حلقة براغ عموماً وعند تروبتسكوي بصفة خاصة. فالصوتة بحسب هذا المفهوم هي "الوحدة الصِّواتِية التي لا يمكن تجزئتها إلى وحدات صِواتِية أصغر وأبسط، وهي فكرة ما تزال حيةً في أيامنا هذه. فالمساهمة الأساسية لتروبتسكوي في نظرية الأنظمة الصوتية لم تكن بعيدةً عن تحويل الصوائت إلى عدد صغير من التقابلات الثنائية. ولقد تم شيئاً فشيئاً البرهان على أن كلاً من هذه التقابلات كان يُستعمل في بعض النماذج الموجودة من "التناغم الصوتي، وهذا ما يظهر بنية التفرع الثنائي لكلّ الصفات الصوتية ويبين مدى استقلالها العملياتي بوضوح تام"[58].

أمّا تحديد الصوتة في اللسانيّات البنيويّة الأميركية على أساس معيار التوزيع أي مجموع المواقع التي يمكنها أن تحتلّها والذي يعود الفضل في صياغته إلى سابير، فإنّ جاكبسون يبين عدم جدواه. "فالمحاولات التي تهدف إلى تعريف إحدى الفئات الصِّواتية على أساس القواعد التوزيعية فقط تقود حتماً إلى الطريق المسدود. فنحن لا نستطيع مثلاً أن نضع التحديد الصِّواتي الأساسي للانسداديات المجهورة في اللغة البولونية على أساس أنها تُحَدُّ بأوضاع غير نهائية، كما لا نستطيع [في القطار] أن نحدّد العربة ـ المطعم بكونها العربة التي لا تراها أبداً بين عربتي بضائع. فلكي نقول إنّ العربات ـ المطعم والانسداديات المجهورة لا تظهر في وضع معين، يجب علينا أن نعرف بادئ الأمر كيف نتعرف على العربات ـ المطعم، وكيف نميزها عن عربات البضاعة، وعربات المسافرين، وعربات النوم أو كيف نميز الانسداديات المجهورة عن الانسداديات غير المجهورة"[59].

(57) المرجع السابق، ص227.
(58) المرجع السابق، ص226.
(59) المرجع السابق، ص231.

ويعدّ رومان جاكبسون أبرز من عمّق البحث في الصوتة بعد تروبتسكوي في إطار النظرية المعروفة بـ"المثنوية" *Le Binarisme* التي تعتبر الصوتات في الألسن الطبيعية عبارة عن سمات صوتية ثنائية. فكل صوتة تمتلك سمات نطقية وسمعية يسمّيها جاكبسون سِمات مُميِّزة تحددها وتميزها عن غيرها من الوحدات(60) وتعتبر هذه السمات كلية *universelles* أي موجودة في كلّ الألسن. يردّ جاكبسون هذه السمات إلى اثني عشر تقابلاً ثنائياً يأخذ منه كل لسان ما يناسب نسقه الصِّواتي اعتماداً على نوعين من السمات النطقية والسمعية:

- سمات رَنّانة (جهورية) *Traits de sonorité*
- سمات نغمية (نبرية) *Traits de tonalité*.

يعتمدُ النوع الأول من السمات على القوة والطاقة التي تكون وراء إنتاج الصوت، بينما تعتمدُ السمات الثانية على خصائص موسيقية مثل، طول الصوت ورقّته. وتتشكّل كل صوتة من وحدات جزئية فيزيولوجية وفيزيائية تتعلق بنطق الصوتة ككل، مثل: الجهر، والهمس والاحتكاكية، والتفخيم، والرقة، والانفجارية. في العربية نجد سمة /+جهر/ تميز صوت الدال عن صوت التاء الذي يملك سمة /+همس/.

ومنذ أن وضع جاكبسون مبدأ المثنوية لم يعد تحديد أصوات اللسان يتمّ على أساس السمات الفيزيقية التي يمكن أن تتحقّق بالنسبة إلى بعض الأصوات ولا تتحقّق بالنسبة إلى أخرى. وبهذا يكون جاكبسون قد تجاوز بشكل واضح التصوّرات الصِّواتية الواردة عند حلقة براغ الواردة في كتاب "**مبادئ الصواتة**"(61) لتروبتسكوي 1939 الذي كان ينظر إلى التقابلات الصِّواتية في إطار ارتباط *corrélation* متعدّد الجوانب.

---

(60) Roman Jakobson. *Essais de linguistique générale*, tome 1, Paris, Editions Minuit, 1963, p.127 et suivantes.

(61) Holenstein Elmar. *Jakobson*, Paris, Seghers, 1974, p.16.

الفصل الرابع

الغلوسيماتيّة

1.4. في التكوين والتسمية

تأسست الغلوسيماتيّة، *la glossématique* سنة 1931، وهي الحلقة اللسانيّة التي اتخذت من كوبنهاغن مقراً لها. وكانت في بداية الأمر تتكون من مجموعتين:

- مجموعة تهتمّ بالدراسات النحوية
- مجموعة تهتمّ بالدراسات الصوتية.

كان لويس ترول هلمسليف (1965-1899) Louis Trolle Hjelmslev مشرفاً على المجموعة الصوتية؛ وقد أطلق عليها الفونيماتية *Phonématique*، بينما أشرف فيغو بروندال (1942-1887) Viggo Brøndall على المجموعة النحوية. وانضمّ إلى الحلقة أيضاً يولدال (1957-1908) H. J. Uldall وتوجيبي (1918-1974) Knud Togeby وغيرهما. وأنشأت الحلقة دورية تحمل عنوان *Acta linguistica* صدر منها العدد الأول سنة 1939. وقد جاء في افتتاحية هذا العدد أنّ هدفَ الدورية نَشْرُ الأبحاث اللسانيّة من منظور بنيوي أي تلك التي تنظر إلى اللسان في كلّيته ووحدته، وتناقش القضايا الجوهرية في اللسانيّات البنيويّة وتواكب تطورها. كما اعتبرت الدورية نفسها مجالاً علمياً لتعاون لسانيي العالم الذين يشتركون في مبادئ البحث اللساني البنيوي[1]. وهو ما يبَرِّر العنوان

---

(1) Editorial de Acta Linguistica 1/1939 in *Essais linguistiques*, p.1.

الفرعي للدورية: المجلة الدولية للسانيّات البنيويّة *Revue internationale de la linguistique structurale*.

عرّفت حلقة كوبنهاغن بأولى تصوّراتها اللسانيّة ابتداء من 1936 خلال المؤتمر الدولي للعلوم الصوتية المنعقد بلندن، الذي قدّم فيه هلمسليف بحثاً بعنوان «Outline of glossematics» كشف فيه عن نظرية لسانيّة جديدة أطلق عليها الغلوسيماتيّة، تتعلّق بدراسة الصوتات، وحدّد فيه البرامجَ والأهدافَ التي وضعتها الحلقة لمعالجة القضايا اللغوية. ومنذ هذا البحث، أصبح مصطلح الغلوسيماتيّة ملازماً لحلقة كوبنهاغن اللسانيّة بصفة عامة، ولرائدها هلمسليف بصفة خاصة[2]. وتمّ اختيار اسم الغلوسيماتيّة *glossématique* من *glossem* (ومعناها لغة في اللاتينية) لتمييز المقاربة اللسانيّة الجديدة عمّا كان أعضاء الحلقة يسمّونه "اللسانيّات التقليدية" linguistique classique وتبيان مدى اختلافها عن اللسانيّات السابقة واستقلالها عن مبدإ المادة *substance* الخارج ـ لغوية[3]، ويقصدون بها اللسانيّات المقارنة التاريخية التي "أوصلت اللسانيّات إلى الطريق المسدود"، وكانت في نظرهم "متعالية عن موضوعها الحقيقيّ، من جهة نظراً لعنايتها بقضايا خارجة عن اللغة نفسها، ومن جهة ثانية لِما لاحظوه من استعمال اعتباطيّ وغير دقيق للفظ اللسانيّات[4]. والغلوسيماتيّة نظرية اختبارية *empirique* واستنباطية *déductive* في الوقت نفسه تقابل النحو *grammaire* والصّواتة[5].

ويعدُّ هلمسليف أبرز من يمثّل الغلوسيماتيّة، لأنها في مبادئها الكبرى كانت من تصوّره وأبحاثه الخاصة. وقد قال عنه اللساني الفرنسي البارز غريماس (1917-1992) في تقديم الترجمة الفرنسية لكتاب هلمسليف "**اللغة**": إنه المتمّم الحقيقيّ لسوسير وربما الوحيد، الذي عرف كيف يجعل تصوّرات سوسير

(2) Knud Togeby. *Structure immanente de la langue française*, Paris, Larousse, 1964/1951, p.9.

(3) L. Hjelmslev. *Le langage*, Paris, Minuit, 1971, p.24.

(4) L. Hjelmslev. *Prolégomènes à une théorie du langage*, Paris, Minuit, 1971/1943, p.102.

(5) L. Hjelmslev. *Essais linguistiques*, Paris, Minuit, 1968, p.142.

واضحة ويعطيها صياغة نهائية[6]"، و"أن موته في سنة 1965 "يسجّل نهاية مرحلة ثورية في اللسانيّات"[7].

2.4. من اللسانيّات المتعالية إلى اللسانيّات المحايثة

تنطلقُ الغلوسيماتيّة من تصوّرات سوسير وآرائه الواردة في" **دروس في اللسانيات العامة**". مولية إياها عنايةً خاصة، لأنه "المُنظِّر الوحيد الذي يستحقّ بدون جَدَل أن يذكر كرائد للسانيّات العلمية[8]". وقال عنه هلمسليف في مكان آخر: "يعدّ فردينان دو سوسير لاعتبارات عديدة مؤسّساً لعلم اللغة *science du langage* الحديث، وقد كان الأول الذي أعلن عن مقاربة بنيويّة أي وصف علمي للسان"(...)" وأن آراءه ليست أقلّ من ثورة في اللسانيّات"[9].

وتبدو آراء الغلوسيماتيّة في صورتها العامة استمراراً لآراء سوسير وتطويراً نوعياً لها، وهي الآراء التي ضبطتها الحلقة (لاسيما أعمال هلمسليف) من الناحية المفهومية والاصطلاحية، وأعادت صياغتها صياغةً جديدةً أكسبتها بعداً عميقاً في الصورية والتجريد، ساعد كثيراً على تدقيقها وأزال عنها بعضاً من اللبس الذي صاحبها. وقد استخلص هلمسليف من آراء سوسير أكثر ما يمكن من النتائج التصوّرية والمنهجية وذهب بها إلى أبعد حدّ. وتمكَّنت الحلقة إجمالاً من إبعاد كثير من التشبيهات المجازية والحمولات المعرفية التي استمدّتها المفاهيم اللسانيّة السوسيرية من علمي النفس والاجتماع، لاسيما ثنائية لسان/كلام ومفهوم الاعتباطية ومفهوم البنية والنَّسَق (العلاقات). ولا غرو في ذلك فقد كان قطبا حلقة كوبنهاغن بروندال وهلمسليف على معرفة دقيقة بالدراسات المنطقية والمباحث الفلسفية. وإن نظرة سريعة على أعمال هلمسليف تُبيِّن بوضوح حرص الرجل على اقتفاء أثر علماء المنطق والرياضيات من حيث صرامة اللغة ودقّة

(6) L. Hjelmslev. *Langage: Préface de J. A. Greimas*, p.12.

(7) *Ibid*, p.7.

(8) *Ibid*, p.14.

(9) L. Hjelmslev. *Essais linguistiques*, p.34-35.

المصطلح والاستعانة بالرموز الرياضية (هل ورث هذا من أبيه أستاذ الرياضيات الجامعي وعميد جامعة كوبنهاغن؟). كان هلمسليف "متأثراً بالدراسات المنطقية الحديثة، ومتشبّعاً بمنطق حلقة فيينا عامة *le cercle de Vienne* (أو ما يعرف بالوضعية المنطقية) ومنطق كارناب *Carnap* خاصة"[10]. وقد أشار هلمسليف عدّة مرات إلى أعمال كبار علماء المنطق في النصف الأول من القرن العشرين، لاسيما كارناب الذي تتطابق الأعمال التي يقوم بها في المنطق وما يقوم به هلمسليف في اللسانيّات. يقول هذا الأخير: "إنّ تعريف كارناب للبنية *structure* يتطابق كلياً مع وجهات النظر التي دافعت عنها، أي إنها حدث صوري وعلاقي خالص"[11]. أما بروندال وهو أحد منظّري حلقة كوبنهاغن، فقد كان أكثر اهتماماً وتأثراً بالمنطق والفلسفة من مواطنه هلمسليف حتى قيل عنه بأنه "كان لسانيّاً مبطناً بفيلسوف *Un linguiste doublé d'un philosophe*"[12]. وكان بروندال على معرفة دقيقة بالفلسفة القديمة والوَسِيطية، فحاول "أن يبحث في الكيفية التي تتمثل بها الألسنُ الطبيعية مُجْمَل المقولات المنطقية التي صاغتها الفلسفة منذ أرسطو إلى علماء المنطق المعاصرين، وأن يكشف الوسائل التي يقدّمها المنطق لمعالجة قضايا الدلالة"[13]. ولم يكن بروندال يبحث عن تأسيس لسانيّات إجرائية من الناحية المنهجية بقدر ما كان يحاول أن يستخرج المظاهر الفلسفية التي تتضمّنها العناصرُ اللغوية. "لذلك اعتمدَ المقولات والعلاقات المنطقية ليحلّل من خلالها معنى الكلمات ومُرادفاتها، وليجعل من المعنى محور اهتماماته الفلسفية واللسانيّة في إطار علاقة اللغة بالفكر أو اللغة بالوعي. كما استمدّ بروندال مفهوم القصدية *intentionnalité* من الفيلسوف الظاهراتي هوسرل في تكوين المعنى ودورها في الوجود الإنساني مقارنة بالدور الذي تلعبه المقاصد في اشتغال اللغة. وجعل بروندال من القصدية أساساً في البناء التصوّري الذي قارب

---

(10) Georges Mounin. «La linguistique au 20ème siècle», Paris, PUF, 1972, p.126.

(11) *Essais linguistiques*, p.40.

(12) Svend Erik Larsen. Viggo Brøndall linguiste, *philosophe, sémioticien*, p.7 in Langages, volume 22, numéro 86, 1987, Paris, A. Colin.

(13) Maurice Leroy. *Les grands courants de la linguistique moderne*, Paris, PUF, 1966/1963, p.91.

به تحليل نصوص اللغة وتحديد أجزاء الكلام ومفهوم الجُمْلة ودلالة الكلمات(14).

دعا هلمسليف في جلّ كتاباته إلى مقاربة لسانيّة جديدة تهدفُ إلى بناء لسانيّات جديدة تقوم على أسس نظرية ومنهجية ذات مواصفات ومقاييس تطابق نظيراتها في مجال العلوم الدقيقة. وسعت الغلوسيماتيّة إلى بعث روح جديدة في الدراسات اللسانيّة التي كان أعضاء الحلقة يصفونها باللسانيّات التقليدية. فالمقاربات اللسانيّة التي سبقت الغلوسيماتيّة استهدفت أشياء أخرى غير "دراسة اللسان في حد ذاته ومن أجل ذاته". إنّ تحديد طبيعة اللسان ومعرفة بنيته الداخلية لم يكونا قط موضوع اهتمام اللسانيّات المقارنة والتاريخية التي كان هدفها بالأساس البحث في القرابة التكَوُّنية والتسلسل التاريخيّ للألسن المدروسة(15). إن الدراسات اللغوية قبل سوسير لم تكن تدرسُ اللسان بذاته ولذاته، وإنما تناولته كوسيلة لغايات معرفية وثقافية عامة، في علاقاته المختلفة بالإنسان في أبعاده المتعدّدة، من تاريخ، وعلم نفس، وعلم اجتماع، وأنثروبولوجيا، وهي كلّها علومٌ بعيدة عن اللسانيّات، بينما يتطلب الأمر في نظر الغلوسيماتيّة أن نضع حداً نهائياً لهذا التداخل غير الواضح المعالم بين العلوم والمعارف المهتمة باللسان، ونجعل من اللسانيّات علماً قائم الذات، موضوعه اللسان في ذاته ومن أجل ذاته وبالعودة إلى بنيته الداخلية، وهو ما أسماه هلمسليف باللسانيّات المحايثة *linguistique immanente* وتقابل اللسانيّات التقليدية السائدة التي وصفها باللسانيّات المتعالية *linguistique transcendantale* عن موضوعها [اللسان *la langue*]، لأنها تكتفي بدراسة جوانب خارجة عن اللسان وعن بنيته الداخلية. إنّ اللسانيّات التقليدية لا تهتمّ باللغة [*le langage*] إلّا لتفتح الباب أمام مجالات معرفية أخرى، تسمح لها بإدراج قضايا اللغة المتنوعة ضمن اهتماماتها، "فعبر تاريخها الطويل، كانت اللغة أحياناً موضوع المنطق، وأحياناً موضوع التاريخ، وأحيانا أخرى موضوع الفيزيولوجيا والفيزياء وعلمي النفس والاجتماع"(16)، لتصبح الغاية من

(14) Svend Erik Larsen. Viggo Brøndall linguiste, *philosophe, sémioticien*, p.9-10 in *Langages*, volume 22, numéro 86, 1987, Paris, A. Colin.

(15) *Prolégomènes à une théorie du langage*, p.11.

(16) *Le langage*, p.25.

البحث اللساني فهم المجتمع الإنساني وإعادة تكوين العلاقات ما قبل التاريخية بين الشعوب والأمم[17]. ورغم تعدّد هذه المنظورات للغة وتنوّعها، وقيمة الدراسات فيها، وما يمكن أن تمدّنا به من حقائق ومعلومات هامة عن الإنسان والإنسانية في أبعادهما المختلفة، فإنّ الجانب الأهمّ الذي تم إهماله وإقصاؤه من دائرة البحث والتنقيب هو اللسان ذاته. وكان الأجدى باللسانيّات المتعالية أن تفعل نظير اللسانيّات المُحايَثة، فتتخذ اللسان كبنية لقائمة الذات موضوعاً لدراستها. لذا ينبغي أن تتسم النظرية اللسانيّة المنتظر بناؤها بالقدرة على وضع علم لساني لا يُتَصَوَّرُ فيه اللسان بوصفه تجميعاً من العناصر المنطقية والتاريخية والفيزيائية والفيزيولوجية، وإنما علم يَنْظُر إلى اللسان في ذاته، قبل أي شيء آخر، أي كبنية مستقلة، وككلّ له طبيعة خاصة وسمات نوعية. وبهذه الطريقة وحدها يمكن أن نؤسّس للسانيّات كعلم مستقلّ تأسيساً متيناً[18].

3.4. الأسس النظرية للغلوسيماتية:

4 . 3 . 1. النظرية اللسانيّة

حدّد هلمسليف المفاهيمَ الأساس التي أقام عليها صرح نظريته المتسمة بدرجة عالية من التجريد والصُّورية. ولنقدّم جزءاً من الأسس والمفاهيم التي نعتبرها ضروريةً لفهم تصورات هذا اللساني المتميز والوقوف على ملامح نظريته اللسانيّة التي لا تضاهيها من حيث القيمة النظرية والمنهجية إلّا نظرية النحو التوليدي التحويلي التي وضعها تشومسكي منذ 1957. وأهمّ ما يميز النظرية الغلوسيماتية في تعاملها مع اللسان اعتمادها الواضح على جملة من المبادئ النظرية العامة التي تَمَّ، بَعْدَ الاستدلال عليها، الانطلاق منها والسير على هديها. ومن هذه الأسس نذكر:

- اعتماد المنهج التحليلي الاستنباطي،
- اللسان صورة وليس مادة،

(17) *Essais linguistiques*, pp.45-46, et *Prolégomènes*, p.10-11.

(18) *Le langage*, p.25.

- الاهتمام بالمضمون كوجه ثانٍ للعلامة اللغوية،
- اللسان نوع خاص من النسق السيميائي العام *sémiotique générale*. أي نَسَق يتكوَّن من عدة صُعُد *plans*، في كلّ منها اختلاف بين الصورة والمادة[19].

ونلاحظ أنّ بعض هذه الأسس كان مُتَداولاً ومعروفاً بشكل أو بآخر من قِبَل اللسانيين الوصفيين في أوروبا وأميركا، كالقول بأن: "اللسان صورة وليس مادة" وهي فكرة بارزة ومحورية في **دروس** سوسير[20]. ومقابل هذا المشترك مع اتجاهات لسانيّة أخرى، تتجاوز بعض المُنْطلقات الأخرى عند الغلوسيماتيّة إطار ما ورد في اللسانيّات البنيويّة الأميركية. لقد حصرت اللسانيّات الأميركية اهتماماتها المنهجية وتحليلها الوصفي والبنيوي للألسن في الجانب الشكلي فقط، دون أن تنظر في أيّ شيء يمسّ المضمون أو ما يتصل به. وتنفردُ الغلوسيماتيّة ضمن المنهجيات البنيويّة باهتمامها الخاص والمتميِّز بالبعد الاستنباطي والنَّسَقي العام للنظرية اللسانيّة، في وقت تميَّزت فيه اللسانيّات البنيويّة مع بلومفيلد ومن جاء بعده بمنظور تجريبيّ قائم على الملاحظة والاستقراء.

يتضحُ من هذه المبادئ أن الغلوسيماتيّة جاءت برؤية نظرية ومنهجية جديدة للبحث اللساني تقوم على الاستفادة من معطيات الإبستيمولوجيا العامة في سائر العلوم الدقيقة، ومن نتائجها لبناء نظرية لسانيّة علمية قوية بأسسها التصوّرية العامة وترسانتها المفاهيمية، تمدّ الباحث بمبادئ منهجية وأدوات إجرائية مساعدة على تحديد البنية اللسانيّة بشكل شامل ومضبوط. "فليس بالإمكان أن نبني أية نظرية علمية دون مشاركة فعَّالة للإبستيمولوجيا"[21]. وبهذا يتبنَّى هلمسليف موقفاً

---

(19) *Essais linguistiques*, p.45-46.

نستعمل مصطلح صعيد/صُعُد كمقابل للمصطلح الهلمسليفي *plan/plans*. ويعود هذا المقابل في الأصل إلى محمد البكري في ترجمته: **مبادئ علم الأدلة**، لرولان بارت. دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية 1987.

(20) F. de Saussure. *Cours de linguistique générale*, p.157.

(21) *Prolégomènes à une théorie du langage*, p.25.

مغايراً تماماً لموقف أندريه مارتينيه الذي سيأتي الحديث عنه في الفصل التالي، لكنه في مقابل ذلك، وباعتماد المنهجية الاختبارية التي تنطلقُ من البديهيات ونَسَق المفاهيم الصورية والمجردة يقتربُ هلمسليف دون غيره من البنيويين الأوروبيين من اللسانيين البنيويين الأميركيين في إطار ما يعرف بنسق المصادرات *postulats* الذي وضعه بلومفيلد[22] في دراسة اللغة (1926)، وبالقواعد الجبرية الدقيقة التي صاغها هاريس في تحليل البنيات اللسانيّة[23].

وتضعنا الغلوسيماتيّة أمام منهجية علمية تستفيد من نتائج العلم وفلسفته ومن مباحث الإبستيمولوجيا. فوصف اللسان والألسن الطبيعية وصفاً صحيحاً يجب أن يقوم في نظر هلمسليف على مبدإ الاختبارية *empirisme* بوصفه مبدأً مشتركاً بين العلوم التجريبية. ويتطلبُ هذا المبدأ الشروط الثلاثة التالية:

* أن يكون الوصف غيرَ متناقض في تحليلاته،
* أن يكون الوصف شاملاً ومُسْتَوْعِباً كلّ الظواهر التي يكون بصدد دراستها،
* أن يكون الوصف سهلاً ما أمكن في معالجة الظواهر التي يصفها[24].

وينبغي أن يُحْتَرم الترتيبُ الذي تردُ فيه هذه الشروط. "فمطلب عدم التناقض يسبق الوصف الشامل، والوصف الشامل يسبق مبدأ البساطة"[25].

وحاولت حلقة كوبنهاغن أن تضبط المبدأ العام للعناصر الثابتة *constante* في اللسان، متَّبعةً في ذلك المنهج الاستنباطي الذي يعتمدُ التحليل من الكلّ إلى الجزء، بعكس ما كان سائداً لدى جُلّ اللسانيّين قبل الغلوسيماتيّة.

---

(22) L. Bloomfield. *Un ensemble de postulats pour la science du langage,* traduction. française de A set of postulat for a langage science, in A. Jacob. *Genèse de la pensée linguistique*. Paris, A. Colin, 1973/1926.

(23) Z. S. Harris. *Structures mathématiques du langage*, Paris, Dunod, 1971, traduction française de *Mathematical Structures of Language*, 1968.

(24) *Prolégomènes*, p.18.

(25) *Ibid*, p.19.

"فاللسانيّات التقليدية ذات طبيعة تركيبية *synthétique* بدلاً من أن تكون تحليلية *analytique*، اعتمدت منهجية استقرائية تبدأ بالأصوات وتنتهي بالكلمات"[26].

ويتّضحُ هذا ليس في اللسانيّات المُقارنة والتاريخية فقط، وإنما أيضاً في اللسانيّات البنيويّة الأميركية. والمنهجية الاستقرائية غير مرغوب فيها، لأنها تقود إلى بناء تجريد خاصّ بالموضوع المدروس، أي كل لسان على حدة، مع ما تتضمّنه هذه الطريقة من مُجازفة لارتباطها الوثيق بالواقع المدروس، تجعلها تسقط في واقعية ساذجة تحول دون تقديم مقاربة تعميمية حقيقية تشمل عدة ألسن وتهتمّ بما فيها من لا متغيرات *Invariant* وهو ما تسعى إليه المنهجية الاستنباطية[27]. ويأخذ هلمسليف من جهة ثانية، على المدارس اللسانيّة البنيويّة التي تتبع المنهجية الاستقرائية ـ ومن بينها التوزيعية ـ طابع الواقعية المفرطة التي يضفيها التحليل على التصوّرات والمفاهيم المستخلصة توزيعياً. إنّ مفاهيم مثل "المبني للمجهول" و"الإضافة" و"التام" وغيرها من المفاهيم المستعملة بكثرة في الأنحاء التقليدية قد لاقت الفشلَ الذريعَ لافتقادها الطابع التعميمي. كما أن الطريقة الاستقرائية عند التوزيعية لا تقود إلى الكشف عمّا هو ثابت في اللسان بل تكتفي منه بما هو عرضي.

وتكاد دراسة اللسان من منظور الغلوسيماتيّة أن تكون موازية للدراسة في العلوم الصورية الأخرى مثل الجبر والهندسة باعتبارها علوماً استنباطية لا علاقة لها مباشرة بالموضوع المدروس. فلا يختلفُ استعمال المنهج الأكسيوماتي (منهج المُسلَّمات) في الغلوسيماتيّة، من حيث المبدأ، عن استعماله في باقي العلوم[28]. فكل صيرورة *processus* يقابلها نسق *système* يسمح بتحليلها ووصفها بواسطة عدد محدود من المقدّمات *prémisses*. وتتألف كل صيرورة من عدد محدود من العناصر

---

(26) L. Hjelmslev. *Prolégomènes à une théorie du langage*, p.20.

(27) يستعمل هلمسليف عبارة «المنهج الاستنباطي» بمعنى مغاير لما هي عليه في المنطق ومنهجيّة العلوم. الاستنباط بالنسبة إليه هو الانطلاق من الموضوع ككل وأن نطبِّق عليه تحليلاً وفق مبادئ عامة.

(28) Hans Christian Sorensen. «Fondements épistémologiques de la glossématique», *in Langages*, nº6 Juin 1967, Paris, Larousse. 1967, p.7

التي تظهر من جديد في توليفات *combinaisons* جديدة وبصفة دائمة[29].

وينبغي أن تكون النظرية التي يتعين بناؤها عامةً ومستقلة عن التجربة (الواقع). وتكون النظرية عامة حين تكون قادرةً على تحديد جميع مكوِّنات الموضوع، وتقديم أدوات تسمح بالتعرف ليس على موضوع بعينه أو موضوعات محدودة من التجربة فقط، وإنما على جميع الموضوعات الممكنة[30]. وعلى النظرية أن تصف بكيفية غير متناقضة وشمولية، لا نصاً واحداً أو أنْ تكتفي بهذا النصّ أو ذاك من العربية أو الفرنسية أو الإنكليزية أو أيّ لسان آخر فحسب، وإنما عليها أن تصف جميع النصوص الموجودة في هذه الألسن، ليس هذا فقط، بل عليها أن تتكلف بوصف كل النصوص الممكنة والقابلة للتصور، وحتى تلك التي يمكنها أن تظهر في المستقبل. وبعبارةٍ أخرى تكونُ النظرية اللسانيّة مقبولةً حين تَصْلُحُ لتصف وتتنبأ بأي نصّ ممكن أو محتمل في كل لسان، بحيث تكون قابلةً للتطبيق على نصوص أي لسان، فعلياً كان أم محتملاً. وعلاوة على البعد التعميمي الذي تُحيل عليه هذه الرؤية في التعامل مع موضوع الدراسة اللسانيّة، فإن فكرة النصوص اللامتناهية *texte infini* تذكّرنا بفكرة الإبداع عند تشومسكي، الذي يحدّد مهمّة النحو في القدرة على وصف وتفسير عدد غير محدود من الجمل النحوية (ولا شيء غير الجمل النحوية) التي يستطيع المتكلم أن ينتجها و/أو يؤولها[31]. والتطبيقات المشار إليها هنا لا علاقة لها بالتطبيق العملي المباشر للنظرية في إطار لسان مخصوص أي ما يعرف بإجراء الوصف الخاص بنسق لساني محدّد.

إنّ الشروط التي وضعها هلمسليف هدفاً لنظرية اللغة *théorie du langage* كفيلة بأن تقدّم لنا دراسة موضوعية للسان البشريّ تبتعد عن التخمين والتأمل الفلسفي والحدس الذي لا يزيد دراسة الظواهر اللغوية إلّا تعقيداً وغموضاً. ولَمَّا

---

(29) L. Hjelmslev. *Prolégomènes à une théorie du langage*, p.16.

(30) *Ibid*, p.26.

(31) N. Chomsky. *Structures syntaxiques*, Paris, Seuil, 1969/1957 et N. Chomsky: *Aspects de la théorie syntaxique,* Paris, Seuil, 1971/1965.

لمزيد من التفاصيل حول مسألة الإبداع في النحو التوليدي انظر كتابنا. **اللسانيّات التوليديّة من النموذج ما قبل المعيار إلى البرنامج الأدنوي**، بمشاركة محمد الملاخ وحافيظ اسماعيلي علوي.

كان هلمسليف يسعى إلى الوصف اللسانيّ الخالص، فإنه اهتمّ بالبناء الصوري والمنطقي للإجراءات المتبعة في تحليل البنيات اللغوية مبعداً كل الاعتبارات النفسية والاجتماعية الواردة في صياغة أفكار سوسير. "فلا يجب أن تفترض النظرية أي شيء خارج عن موضوعها، بل يجب أن تقود إلى نتائج مطابقة لمعطيات التجربة أو التي يفترض أنها كذلك"(32). وقد نجح هلمسليف إلى حدّ كبير في مقاربته الصورية هذه، إذ تمثل الغلوسيماتيّة في تاريخ الفكر اللساني الحديث، محطةً هامةً شكّلت بداية متميزة نحو علمية حقيقية للسانيّات.

إنّ الغاية التي تسعى إليها الغلوسيماتيّة ليست سهلةَ التحقيق ولكنها ليست مستحيلة. وليس من الممكن الوصول إلى هذه المقاربة الجديدة في اللسانيّات إلا إذا تركنا جانباً الآراء والمفاهيم الموروثة عن الدراسات اللسانيّة التقليدية التي تمّ فيها وضع هذه المفاهيم بكيفية قبلية.

4.3.2. موضوع النظرية اللسانيّة

للظاهرة اللغوية في البحث اللساني جوانب مختلفة الطبيعة، يبدو بعضها ثابتاً، وبعضها الآخر متغيراً. ويرتبطُ الجانب المتغير بمستوى الكلام [بالمعنى السوسيري] الذي لا يسند إليه هلمسليف أيّ دور في التحليل اللساني. فالكلام له علاقة وطيدة باللسان، إنه تابع له ولا يملك أيّة قيمة منهجية في ذاته إلّا في حدود علاقته باللسان وخدمته له(33). لكنّ مفهوم اللسان كما اقترحه سوسير في دروسه يكتنفه الغموض واللبس وهو ما أشارت إليه العديد من أدبيات اللسانيّات البنيويّة(34). وقد عمل هلمسليف بدوره على إعادة النظر في هذا المفهوم المحوري في اللسانيّات البنيويّة في إطار قراءة جديدة لمستويات الظاهرة اللغوية عند سوسير، وتقسيمه إياها كما هو معروف إلى لغة ولسان وكلام(35).

---

(32) L. Hjelmslev. *Prolégomènes à une théorie du langage*, p.19.

(33) *Ibid.*, p.15.

(34) انظر دراسة هلمسليف: *langue et parole* ضمن كتابه: *Essais linguistiques*
انظر تقديماً مفصّلاً لهذا التقسيم في كتابنا: **في اللسانيات العامة.**

(35) *Cours de linguistique générale*, p.30-31.

يُعَرِّف هلمسليف اللغةَ *langage* قائلاً: "نستعمل لفظ "لغة" بالمعنى التقني الذي يأخذه عادةً في الأدبيات العلمية الفرنسية، وهو المعنى الذي دقَّقَه وقَنَّنَه سوسير. إنّ اللغة هي الكلّ *la totalité* المُؤَلَّفُ من اللسان والكلام. وعندما نتكلّم عن اللغة، نتكلم عن اللغة البشرية عامة، وفي الوقت نفسه عن كل لسان في علاقته بالكلام الذي يجسّده"(36).

والعلاقة بين اللغة واللسان علاقة العام بالخاص. فاللغة عامة واللسان خاص. إن اللسان نوعٌ خاضع للجنس الذي هو اللغة. "وتقترح الغلوسيماتيّة الكشف عما هو مشترك بين الألسن أياً كانت اختلافاتها، وكيفية تحديد الخصائص العامة للجنس (اللغة)، أي ما يجعل اللغة كلّية عبر تجلياتها الأكثر تنوعاً، ليتمّ بعد ذلك تحليل الألسن الخاصة أملاً أن تسهم هذه الدراسات في إكمال معرفتنا باللغة. إنّ موضوع بحث الغلوسيماتيّة واستقصاءها يتجاوز إذن تحليل الألسن التي يطلق عليها الألسن الطبيعية. إن اللسان وليس الكلام، هو الموضوع النوعي للسانيّات"(37). ويلتقي هلمسليف في موقفه هذا مع ما جاء به تشومسكي في إطار البحث في ما يُعرف بالكليات اللغوية وهي السمات المشتركة بين الألسن الطبيعية مهما اختلفت مظاهرها السطحية.

إنّ كل نظرية لسانيّة قائمة على مقدّمات ومفاهيم صورية دقيقة تهدف إلى تحديد البنية النوعية للسان، يجب أن تنطلق من البحث في ما هو ثبات *constance*. فموضوع النظرية اللسانيّة هو المعطى اللغويّ الثابت. والثبات موجود داخل اللسان لا خارجه. ويعني مفهوم الثبات "أن اللسان يظلّ مساوياً لنفسه ومماثلاً له عبر التجلّيات الأكثر تنوعاً واختلافاً. وعندما يوصف هذا الثابت، فإنه يصبح قابلاً لأن يُسْقَطَ على الواقع المتحرك أياً كانت طبيعته المادية والفيزيولوجية والنفسية والمنطقية والوجودية، بشكل يجعل هذا الواقع ينتظمُ حول قطب مركزيّ هو "اللسان" لا باعتباره تراكماً من العناصر اللغوية غير المتجانسة، وإنما ككلّ منتظم تكون فيه البنية اللغوية هي المبدأ السائد"(38).

---

(36) *Essais de linguistique*, p.29.

(37) J.P. Corneille. *La linguistique structurale, sa portée et ses limites*, Paris, Larousse, 1976, p.17.

(38) *Prolégomènes*, p.15.

ينبغي عدمُ الاهتمام بالأصوات بوصفها كيانات لها خصائص مادية متغيرة من لسان إلى آخر. ويصدق الأمر نفسه بالنسبة إلى المعنى، الذي لا يمكن الاهتمام به باعتباره مادة تصورية ومفهومية عامة، لأنها ليست سوى سديم لا شكل له. إن ما يتعين أن تصفه اللسانيّات هو النموذج العلاقي في كل لسان على صعيدي التعبير (الدال) والمضمون (المدلول). فلا فائدة من البحث عن الملامح الثابتة والمميزة للسان في ما هو مادي فيه مثل الأصوات والكتابة والمعنى، لأنها ليست سوى مظاهر متغيرة وغير قارة. إنّ حقيقة اللسان تظهرُ في صورته *forme*، وهي مجموع العلاقات المختلفة التي تجمع بين الوحدات المُكَوِّنة للسان، وتشكّل كلاً غير قابل للتجزيء. إن النظرية المطلوبة في دراسة اللسان- من منظور الغلوسيماتيّة- هي تلك التي تستطيع أن تصل بنا إلى إبراز الملامح المشتركة بين الألسن. لا يتعلق الأمر في التحليل اللساني البنيوي بوصف المظاهر الخارجية أو المادية للسان. فليس موضوع اللسانيّات تراكماً بسيطاً من الأوصاف الفيزيائية والفيزيولوجية والسمعية لأصوات الكلام، أو بحوثاً في معاني الكلمات والتأويلات النفسية لهذه الأصوات أو الكلمات. وجوهر الألسن لا يكمن في أصواتها أو معانيها كما هي مُعطاة واقعياً، وإنما في العلاقات التي تقدّمها هذه الأصوات والمعاني داخل سلسلة الملفوظ. "ليس المهم، هو الأصوات أو الحروف أو الدلالات كما هي، وإنما علاقاتها المتبادلة داخل سلسلة الخطاب وفي مصفوفة نحوية. إن هذه العلاقات تشكّل النسقَ الذي يحدّد سمات اللسان بالنظر إلى ألسن أخرى[39]".

4.3.3. العلاقة بين النظرية والتجربة (الواقع)

يُعَرَّف التحليل صورياً بأنه وصف موضوع مُعين من خلال وظائفه المتعدّدة[40]. "لكن ما علاقة النظرية بالموضوع الذي تدرسه؟ هل تحدّد النظرية موضوعها أم أن الموضوع هو الذي يحدّد النظرية ويؤثّر فيها؟"[41].

---

(39) *Essais linguistiques*, p.34.

(40) *Ibid*, p.44.

(41) *Ibid*, p.23.

للإجابة عن هذه الأسئلة، يتعين البدء بتوضيح بعض الجوانب المتعلقة بالنظرية نفسها. فما هي النظرية؟ إنها في المفهوم التقليدي "نسق من الفرضيات"، وفي هذه الحالة فإنّ علاقة التأثير تكون أحاديةَ الجانب بين النظرية وموضوعها، بحيث إن الموضوع هو الذي يحدّد النظرية ويؤثّر فيها وليس العكس؛ وتكون الفرضية بعد مواجهتها بالموضوع المدروس صحيحة أو خاطئة. يتجاوز هلمسليف[42] هذه النظرة الضيقة للنظرية. فلا شيء في النظرية يدلّ على أنها ستكون خاضعةً للتجربة أو ستكون لها بعض التطبيقات التجريبية. إن النظرية في ذاتها، نَسَق استنباطيّ خالص. "وتسمح النظرية وحدها بحساب الإمكانات التي تنتج عن المقدّمات التي تنطلق منها"[43]. ويَعْرِف المُنَظِّرُ بتجربته الخاصة أن بعض المقدّمات التي تحتويها النظرية تستجيب لعدد من الشروط الضرورية لتكون قابلة للتطبيق على معطيات التجربة. وبقدر ما تكون هذه المقدّمات أكثر تعميماً بقدر ما يكون تطبيقها على أكبر قدر من التجربة أمراً وارداً. وبذلك تحدّد النظرية موضوعها بحرية تامة واضعةً مقدّماتها بإجراء اعتباطي وملائم. إن النظرية حساب تكون فيه المقدّمات أقل ما يمكن عدداً. ويسمح الحساب بتحديد الإمكانات الممكنة، دون أن تهتمّ النظرية بتحقّقها أي بجانبها التطبيقي في الواقع.

ولتحديد نوعية الارتباط بين النظرية والتجربة، فإن العلاقة بينهما تكون في حالة ما اعتباطية *arbitraire* وتكون في حالة أخرى كافية *adéquate*[44]، أي ملائمة لهدفها أو أهدافها. تكون النظرية اعتباطية حين لا يمكن لمعطيات التجربة أن تثبتها أو تدحضها. وتكون العلاقة كافيةً حين تكون النظرية خاضعةً لفحص أكبر قدر ممكن من المعطيات التي تسمحُ باستعمال أوسع للنظرية. وبذلك نصل إلى الإجابة عن السؤال السابق المتمثل في: هل الموضوع هو الذي يحدّد النظرية أم العكس. والإجابة هنا مزدوجة، بمعنى أن العلاقة بين النظرية وموضوعها علاقة واقعية ولا واقعية في الوقت ذاته[45]. تكون النظرية لا واقعية *aréaliste* بالنظر إلى طابعها الاعتباطي، وتكون واقعية بالنظر إلى طابعها المناسب

(42) L. Hjelmslev. *Essais linguistiques*, p.24.

(43) *Ibid,* p.24.

(44) *Ibid,* p.24.

(45) *Ibid,* p.25.

للهدف الذي تضعه. وفي الحالتين معاً، لا يمكن أن تثبت المعطيات التجريبية نظرية ما أو تدحضها، ولكنها تستطيع فقط أن تبين قابليتها للتطبيق. *applicabilité*. "فلا يمكن أن تُثْبَتَ النظريةُ أو تُدْحَضَ باللجوء إلى النصوص والألسن المتعلقة بها. ولا تقبل النظرية إلّا مراقبة واحدة: عدم التناقض وشمولية الحساب"[46]. وتتمّ المفاضلة بين النظريات التي تتضمّن مبدأ الاختبار على أساس مبدإ البساطة: فإذا أتاح الحساب وضْعَ عدة إجراءات ممكنة تقود جميعها إلى وصف غير متناقض وشامل لنصّ لسان معين، وَجَب أن نختار من بين هذه الإجراءات تلك التي تُؤَمن لنا الوصف الأبسط[47].

4.4. ثنائية لسان/استعمال[48]

موضوع اللسانيّات هو اللسان، وهي الفكرة التي ختم بها سوسير "**دروسه في اللسانيّات العامة**" حين قال قولته الشهيرة: "إن الموضوع الوحيد والحقيقي للسانيّات هو اللسان في ذاته ومن أجل ذاته"[49]. ويبدو مفهومُ اللسان عند سوسير في إطار ثنائية لسان-كلام غير واضح وضوحاً تاماً، مِمَّا يَجْعَله لا يصلح ليكون مفهوماً عملياً في النظرية اللسانيّة التي يُتَوَخّى بناؤها. "إن التمييز (بين لسان وكلام) لم يتم بوضوح تام في أجزاء الكتاب (يقصد **دروس في اللسانيات العامة** لسوسير) حيث لفْظ اللسان *langue* له بالفعل أكثر من معنى"[50]، ويحيل على خصائص متفاوتة القيمة تتداخل فيما بينها. إنّ مفهوم اللسان في علاقته بالكلام *parole* عند سوسير ليس متجانساً، بل يكشف في نظر هلمسليف[51] عن تداخل ثلاثة مستويات هي:

أ - اللسان الخُطاطة

(46) *Ibid,* p.29.

(47) *Ibid,* p.29.

(48) *Essais linguistiques*, p.80.

(49) *Cours de linguistique générale*, p.317.

(50) *Essais linguistiques*, p.38.

(51) *Ibid,* p.86 et suivantes.

ب - اللسان الاستعمال

جـ - اللسان المعيار.

* **مستوى الخُطاطة** *schéma* أو المنوال *pattern* أو الهيكل *charpente*(52) ويقصد به اللسان باعتباره مبنى صرفاً يمكن تحديده كصورة خالصة باستقلال عن جوانبه المادية وعن الأفراد المتكلمين به في مجتمع لغويّ معين، أي كل ما يتعلّق بالمظاهر الملموسة في اللسان من أصوات وحروف كتابة وما شابه ذلك. فاللسان في هذا المستوى نسقٌ من القواعد المجردة التي يسيرُ عليها في مستوياته المختلفة بصرف النظر عن أي استعمال. ويكاد مفهوم اللسان الخُطاطة عند هلمسليف يقابل تعبيرات سوسير لوصف وجود اللسان عند المتكلمين مثل، "الصورة السمعية" و"الصور الكلامية" و"البصمات المختزنة"(53).

* **مستوى المعيار** *Norme* ويحدّده استعمال الأفراد المتكلمين اللسان في صورته الخالصة أو الخُطاطة. إن المتكلمين لساناً معيناً يعطون لسانهم باعتباره خُطاطة خالصةً صورةً مادية، تُدْرَكُ تجريبياً من خلال استعمالهم، وبعبارة أخرى فإن المتكلمين يُخْرِجون اللسان من صورة خالصة إلى صورة مادية يمكن ملاحظتها عبر ما يتركه اتباع قواعد اللسان من آثار مادية ملموسة.

* **مستوى الاستعمال** *Usage* وهو عبارة عن مجموعة بسيطة من العادات اللغوية التي يتبناها المجتمع المتكلم في استعمال قواعد لسانه.

4.4.1. أمثلة توضيحية

ولتقريب هذا التمييز الهام، نأخذ مثالاً من اللسان العربيّ نوضح به هذه المفاهيم المتعلقة بمستويات اللسان عند هلمسليف. ولكي نتجنّب الإطالة

---

(52) لاحظ رولان بارت تردد هلمسليف في انتقاء المصطلح المناسب للسان في هذا المستوى وتأرجحه بين مصطلح النَّسَق والهيكل. انظر: رولان بارت، **مبادئ في علم الأدلة**، ط2، ترجمة محمد البكري، دار الحوار، اللاذقية، 1987، ص38.

(53) F. de Saussure: *Cours de linguistique générale*, p.30-31 et 38.

والتفاصيل نكتفي بتطبيق المفاهيم الثلاثة السابقة على صوت الراء في العربية[54].

- **الراء الخُطاطة:**

ينتمي صوت /الراء/ إلى الصوامت *consonne* وليس إلى الصوائت *voyelles*. ويمكن تحديد سمات صَوت الراء في النَّسق الصِّواتي العربي بالنظر إلى ما يلي:

أولاً: إمكانية وجوده في كل المواقع (الأماكن) داخل الكلمة. فهو يأتي في أول الكلمة ووسطها ونهايتها. يقول ابن جنّي في **سر صناعة الإعراب**[55]: "الراء حرف مجهور مُكرَّر يكون أصلاً لا بدلاً ولا زائداً. وإذا كان أصلاً وقع فاءً وعيناً ولاماً".

ثانياً: إمكانية مجاورة الراء لكل الصوامت والصوائت.

ثالثاً: ضبط كل أنواع التقابلات الصِّواتية بين الراء وغيرها من أَصْوات العربية.

بهذه الكيفية نكون قد حدّدنا "الراء" في النسق الصِّواتي العربي الفصيح، كنَسَق خالص أو مبنى مجرد، بتحديد الصُّوَر التي يمكن أن يجيء عليها في العربية عن طريق التقابلات بين الراء وغيره من الأصوات كالعين والغين مثلاً.

- **الراء المعيار:**

يتمّ تحديد الراء المعيار في النسق الصوتي بتحديد المخارج والصفات، وهو تحديد يعطي للراء معياراً ثابتاً في حالة تزامنية معينة للعربية الفصحى. "فالراء" المعيار في العربية صوت لثوي متوسّط لا رخو ولا شديد.

(54) استقينا هذه الأمثلة من:

Essais linguistiques, p.80-82.

ومن رولان بارت في مقالته الشهيرة «Eléments de sémiologie» in *Communications*, nº4/1964; Paris, Seuil. وقد حاولنا الاعتماد على اللسان العربي لتبسيط المثال وتوضيحه.

(55) ابن جنّي، **سر صناعة الإعراب**.

يحدّد كل لسان معايير الأصوات التي يتوفر عليها في حالة محدّدة، دون أن يهتمّ بما يطرأ على هذه المعايير من تغييرات طفيفة، مادام كل صوت يظل محافظاً على ما يميزه عن غيره من الأصوات الموجودة معه في النَّسَق الصوتي نفسه. وحين نقول بأن الراء صوت لثوي متوسط لا رخو ولا شديد، فإننا لا نعني أكثر من أن الصفات المذكورة هي وحدها التي تشكّل المعيار الذي تعطيه العربية لصوت الراء.

- الراء الاستعمال:

لا يتقيد كل الناطقين بالعربية بالمعيار الذي حدّدناه للراء في الفقرة السابقة. ويُمْنَحُ الفردُ المتكلم حريةً نسبيةً في نطق الأصوات، لكن دون إفراط في استغلال هذه الحرية مادام الأمر لا يعيق التواصل مع متكلمين آخرين باللسان نفسه. ويسمحُ هذا الترخيص لبعض الناطقين بالعربية بأن لا ينطقوا الراء بتطابق مع المعيار المحدّد تطابقاً تاماً، إذ لا يحصل هذا التطابق في أي لسان ولا يمكن لأي فرد متكلم أن ينجزه بكيفية مثالية. قد تكون ثمة بعض العادات النطقية التي تبتعد قليلاً أو كثيراً عن المعيار شريطة ألّا يكون فيها ما يُخلّ بالمبنى الخالص لصوت الراء. والمثال البارز في العربية هو نُطْق بعض المغاربة (في مدينة فاس وضواحيها) صوت الراء، حيث يلاحظ اقترابه الشديد من صوت الغين، ومع ذلك يبقى صوت الراء متميزاً أي محافظاً على هويّته الخاصة به في علاقته بوحدات صوتية أخرى، إذ لا يؤدّي هذا النطق إلى تغيير تام في معنى الكلمات التي توجد فيها الراء والغين. لنقارن بين الكلمات التالية: رش/غش أو راب/غاب.

ويملك الكلام بدوره خصائص ينفردُ بها مقابل خصائص اللسان التي سبق ذكرها، وهي كما حدّدها سوسير[56]:

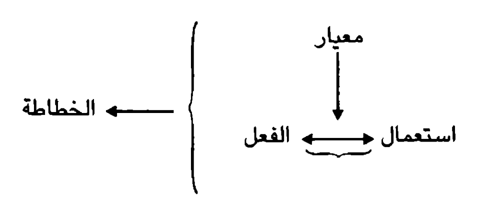
- الكلام تنفيذ حرّ وليس مؤسسة.
- الكلام فردي وليس جماعياً.
- الكلام عملية دينامية وليست جامدة.

---

(56) *Essais linguistique*, p.87.

ولا ينبغي النظر إلى خصائص الكلام منفردة أو مستقلة عَمَّا سبق الحديث عنه من جوانب تمثل اللسان، فهي متداخلة يكمل بعضها بعضاً، بل إن من الخصائص ما هو مشترك بين اللسان والكلام. فكلّ تنفيذ ليس بالضرورة عمليةً فردية، أو بالضرورة عملية حرة. وما هو فردي ليس بالضرورة تنفيذاً، أو بالضرورة حراً، وما هو حرّ ليس بالضرورة فردياً. وهكذا تظهرُ هذه الخصائص مجتمعةً ضروريةً لتعريف الكلام، وإن غياب أي واحدة منها، أو حذفها، يعني إبطال التعريف. والنتيجة أن مفهوم الكلام في نظر هلمسليف ليس مفهوماً بسيطاً كما عند سوسير في **دروس في اللسانيّات العامة**. فالكلام بدوره مفهوم مركّب مثله مثل مفهوم اللسان[57]. ويلتقي تعريف الكلام بهذا الشكل مع الاستعمال. أما المعيار فهو بناء اصطناعي يضعه الباحثُ أو اللسانيّ الواصف.

وتدخل هذه المستويات الثلاثة وهي اللسان الخُطاطة واللسان المعيار واللسان الاستعمال، بالإضافة إلى الكلام وهو الفعل التنفيذي، في شبكة من العلاقات المتبادلة والمتداخلة غير القارة. يفترض المعيارُ الاستعمالَ والفعلَ (أي الكلام) وليس العكس. ويسبق الاستعمالُ والفعلُ منطقياً وعملياً كلَّ معياريّة، لأنّ المعيار ينشأ نتيجة الاستعمال والكلام وليس العكس. وبمصطلحات الغلوسيماتيّة، توجد بين الاستعمال والفعل علاقة ترابط، فكلّ منهما يفترضُ الآخر، والعلاقة بين المعيار والاستعمال والفعل من جهة والخُطاطة من جهة أخرى علاقة تحديد، أي يفترض الفعلُ والاستعمالُ والمعيارُ الخُطاطةَ وليس العكس. فاللسان الخُطاطة وحده ثابت والباقي متغير[58]. ويمكن رسم هذه العلاقات الترابطية كما يلي[59]:



---

(57) *Ibid*, p.87.

(58) رولان بارت، **مبادئ في علم الأدلة**، ص38.

(59) *Essais linguistique*, p.86.

والخُلاصة التي توصّل إليها هلمسليف هي أن التمييز الأفضل من الناحية التصوّرية والمنهجية ليس هو لسان في مقابل كلام كما عند سوسير، وإنما هو التمييز بين "خُطاطة" و"استعمال"، الذي من شأنه أن يُزيل كثيراً من اللبس عن ثنائية سوسير ويدقّقها[60]. ولم يكن هلمسليف في هذا التمييز الجديد الذي تمّ وضعه محايداً. "إنه يشكلن بكيفية جذرية مفهوم اللسان تحت اسم خُطاطة، ويمحو الكلامَ الملموس ليعوضه بمفهوم يتسم باجتماعية أكثر هو الاستعمال. وتسمح هذه الحركة أي شكلنة (صياغة صورية) اللسان وجمعنة (جعله اجتماعياً) الكلام بوضع كل ما هو إيجابي وماهوي إلى جانب الكلام، وكل ما هو خلافي إلى جانب اللسان. ومزية كل ذلك (....) تتمثل في رفع أحد التناقضات الناتجة عن التفريق السوسيري بين اللسان والكلام"[61].

4.4.2. خصائص اللسان

حدّد هلمسليف خصائصَ اللسان كموضوع اللسانيات من الوجهة الغلوسيماتيّة في ما يلي:

أ - اللسان مضمون وتعبير.

ب - اللسان صيرورة (النص) ونَسَق.

ج - الاستبدال يربط المضمون بالتعبير.

د - وجود علاقات محدّدة داخل الصيرورة والنسق.

هـ - لا تطابق حرفياً بين التعبير والمضمون. ويمكن للعلامات أن تُجَزّأ إلى مُكوِّنات صغرى تسمّى صوتات أو تاكسيمات التعبير *taxèmes de l'expression*[62].

ولا تقف نظرية اللغة عند حدود التعرف إلى خصائص الموضوع المدروس

(60) *Ibid*, p.89.

(61) رولانْ بارت، **مبادئ في علم الأدلة**، ص39.

(62) *Essais linguistiques*, p.43.

أو فهمه، بل يجب أن تكون قادرة على ضبط الإجراءات الكفيلة بتبيان الكيفية التي تسمحُ بالتعرف إلى كلّ النصوص الممكنة ذات الطبيعة المتماثلة[63]. ولم يعد الأمر يتعلّق بموضوع واحد مُحدّد في الزمان والمكان، وإنما بكل الموضوعات المتشابهة، الموجودة فعلاً أو القابلة للتحقّق. فلا ينبغي أن ينحصر موضوع التحليل في نص مُحدّد ينتمي إلى لسان معين، وإنما لأي نص محتمل بصرف النظر عن اللسان المدروس. "إن الموضوع المادي للدرس اللساني العلمي هو النص *texte* في كلّيته المطلقة الذي يشكل فئة *classe* قابلة للتحليل إلى مكوِّنات تعتبر بدورها فئة فرعية قابلة للتحليل وهكذا، إلى أن نستنفد جميع إمكانات التحليل المُتاحة[64].

ومن المؤكّد أن الاشتغال على "كلّ" النصوص في لسان معين أمر غير ممكن من الناحية العملية، وأي عمل من هذا القبيل سيكون من غير جدوى من الناحية النظرية والمنهجية، لأنّ النظرية يجب أن تكون صالحةً لكلّ النصوص، سواء تلك المُنجَزة فعلاً أم التي لم تُنْجَز بعد أم التي قد لا تنجز أبداً[65]، وهو ما يعني أن على اللسانيّ أن يكون قادراً على التنبؤ بكل الإمكانات النصية القابلة للتصور. إنّ النظرية المعتمدة في تحليل الموضوع ينبغي أن تكون قابلة التطبيق أيضاً على نصوص من الألسن التي لم يتم بعدُ التعرف إليها.

ويلاحظُ هلمسليف أن البحث في الاتجاه الصوري يصطدمُ بالموقف الإنسي *humaniste* الذي يقرّ بالوجود الفعلي للثوابت، وبمشروعية دراستها، لكنه يعتبر أن الظواهر اللغوية بعكس الظواهر الموجودة في الطبيعة، تتسم بالفردية والخصوصية. وبما أنها ليست مثل الظواهر الطبيعية فهي لا تخضع للمناهج المضبوطة وتكون غير قابلة للتعميم[66]. يرفض هلمسليف المقاربة الإنسية للغة، لأنها حين تكتفي بالوصف تقدّم خطاباً عاماً للظواهر المدروسة تقترب فيه من التحليل الشعري الذي يعتمد الإنشاء، في الوقت الذي كان ينبغي أن تقترب من

(63) *Essais linguistiques*, p.26.
(64) *Ibid*, p.21.
(65) *Ibid*, p.28.
(66) *Ibid*, p.16.

العلم وتتبنّى لغته ومنهجه لتفسير ما تدرسه بكيفية نَسَقية وشاملة. ولأنها كانت بدون نظرية لسانيّة علمية صورية ودقيقة، "فإن اللسانيّات التي وضعها الفيلولوجيون ذات طابع إنسيّ حدّدت لها غايات متعالية، وترفض كل نسقية. وقد ظَلَّت هذه اللسانيّات غير دقيقة وذاتية ومطبوعة بالجمالية والميتافيزيقا، لأنها لم توضح مقدّماتها *prémisses*، ولم تبحث عن مبدإ متجانس للتحليل"[67].

لقد أوصلت المقارباتُ اللغويةُ التقليديةُ اللسانيّاتِ إلى الطريق المسدود. إن أزمة اللسانيّات اليوم ـ في بداية القرن العشرين ـ أشبه ما تكون بأزمة الأسس التي عرفتها العلومُ الدقيقة (فيزياء ورياضيات). إلّا أنّ الأزمة لها وجه إيجابي، فهي تساعد على التجديد والانطلاق في ضوء أسس جديدة. فالنتيجة الإيجابية المباشرة لهذه الأزمة ـ في نظر هلمسليف ـ أنها مكّنت اللسانيّات أن تنتظم في علم مستقل[68]. وكَوْنُ علم ما يطبق وجهات نظر جديدة لا يعني أنه يرفض جملة وتفصيلاً النتائج السابقة عليه. يقول هلمسليف موضحاً موقفه من الإرث اللساني. "ننسى الماضي وننطلق من صفحات بيضاء *table rase*، حيثما لم يقدم أي شيء إيجابي قابل للاستعمال. إننا نعتمد إلى حدّ ما على المواد التي راكمها البحثُ اللساني السابق، وهي الموادّ التي إذا تمّت إعادة تأويلها ستشكل أساس نظرية اللغة. فنحن ننخرط بوضوح في هذا الماضي بالنسبة لبعض القضايا التي نعرف أنه تم فيها التوصل قبلنا إلى نتائج إيجابية"[69]. ويشير هلمسليف بوضوح في هذا القول إلى الأعمال اللسانيّة ذات المرجعية السوسيرية وما تفرّع منها من تصورات، لا سيما تلك التي عبَّرت عنها حلقةُ براغ.

إنّ المنحى الإبستيمولوجي حاضر بقوة في صلب النظرية الغلوسيماتيّة التي تسعى إلى أن تقطع كلّ صلاتها بالتقاليد اللغوية القديمة أو المعاصرة لها، سواء تلك التي لا تتبنى مواقفها، أَم التي لا تقدّم للبحث اللساني أي معطى إيجابي لبناء النظرية اللسانيّة المرجوة. وتسعى الغلوسيماتيّة إلى تحقيق برنامجها القائم على هدف مزدوج:

(67) *Ibid*, p.17.
(68) *Le langage*, p.24.
(69) *Prolégomènes*, p.14.

- البحث في خصائص البنية اللغوية،
- البحث في خصائص النظرية اللسانيّة التي ستتكلف بدراستها صورياً.

5.4. مبدأ التحليل

التحليل من منظور الغلوسيماتيّة" هو وصف موضوع (شيء) *objet* بواسطة الارتباطات المتجانسة بموضوعات أخرى بكيفية متبادلة"[70]. والتحليل تعامل مع النصّ لوصفه وصفاً يحترم مبدأ الاختبارية الذي سبقت الإشارة إليه، والمتمثل في أن يكون التحليل غير متناقض وشاملاً وبسيطاً. ويجب أن يفضي التحليل إلى ما هو شامل، فلا نحتاج إلى اقتراح منهجية تكميلية أو تحليل جديد كلما بدت لنا عناصر جديدة. وليس المطلوب هو التحليل القائم على التصوّر الواقعي الذي يقتصرُ على تحليل شيء معين إلى أجزاء جديدة تُقَطَّعُ بدورها إلى أجزاء جديدة وهكذا. فالتحليل هو الانتقال الاستنباطي من فئة إلى مُكَوِّن ومن مُكَوِّن إلى مُكَوِّن آخر[71]. واختيار التحليل يكون بحسب كفايته أي مطابقته لمبدإ الاختبار.

ولا يقومُ التحليل الإيجابي الذي نحتاج إليه على التقطيع المباشر وتقسيم الموضوع إلى أجزاء، بل ينبغي أن يراعي مبدأ البنية القائم في كل الألسن الطبيعية. ولأنه مبدأ مشترك بين جميع الألسن فإن تنفيذه يختلفُ من لسان إلى لسان. فاللسان موضوع الوصف ليس أشياء متراكمة، بل هو شبكة من العلاقات بين أجزاء يتمّ الكشف عنها. ويجب أن يكون التحليل مطابقاً للارتباطات المتبادلة الموجودة بين هذه العلاقات، ممّا يسمح باعتبار تلك الارتباطات بكيفية مقبولة "بوصفها ارتباطات متبادلة بين أجزاء الموضوع، والكشف عن التراتبية التي تتضمّنها العلاقات فيما بينها[72]. وكل تحليل للألسن يتجاهل مبدأ البنية ولا يأخذه في الحسبان يمكن أن يعدّ تحليلاً قبلياً"[73]. وعندما نصف بنية ما، فإننا

---

(70) *Ibid*, p.44.

(71) *Ibid*, p.35.

(72) *Ibid*, p.36.

(73) *Essais linguistiques*, p.79.

نكتشف الآلية التي تجعلنا قادرين على ردّ الارتباطات التي تتضمّنها إلى وظائف. ولذا يُعَدُّ التحليل الغلوسيماتي وظيفياً، إذ وراء الارتباطات المختلفة بين مُكَوِّنات البنية تكمن الوظائف. ينبغي أن تراعي المنهجيةُ المُتَّبعةُ هذا المبدأ وتحترمه. ولا يكون التحليل ثابتاً مستقراً على حال واحدة لا يحيد عنها، وإنما يتغير باختلاف النصوص المدروسة، وينبغي أن يكون التحليل عاماً وغير متعلّق بلسان محدّد. وبالنظر إلى أهمّية التحليل يجب أن تتضمّن نظرية اللغة ما يسمح لها بالتفكير في مبدإ التحليل نفسه لتحديد طبيعته والمفاهيم التي تندرج في إطاره بالنسبة إلى جميع الألسن الطبيعية.

ويميِّز هلمسليف بين نوعين من المفاهيم: مفاهيم صورية ومفاهيم إجرائية. وينبغي أن تقوم النظرية على نسق من التعريفات والمفاهيم المحدّدة على نحو لا لبس فيه، وأن تبتعد عن كل ما هو ميتافيزيقي يتضمّن مقدّمات ضمنية وغير واضحة. وكما تكون المفاهيم الأساس في النظرية واضحة ومحدّدة ينبغي أن تكون المفاهيم الفرعية التي تُحيل عليها هي الأخرى محدّدة وهكذا. ولا يتعلّق الأمر باعتماد مفاهيم تقوم على طبيعة الأشياء أو ضبط مصداقِيّاتها، وإنما تثبت بالقياس على المفاهيم التي تعدّ مركزية في النظرية. أما المفاهيم الإجرائية وهي التي ترتبط بإجراء الوصف، فتكون سابقة على عملية الوصف ذاته. وتكون المفاهيم الإجرائية موقّتةً إذ يمكن أن تتحول إلى مفاهيم صورية، لكن هذا لا يسمح بإدراجها ضمن نَسَق المفاهيم الصورية التي سبقت الإشارة إليه.

وإذا تمّ التفكير في المفاهيم داخل نظرية اللغة بهذه الطريقة، فقد يصبح ممكناً تحرير النظرية من المُصادرات *postulats*، وهي المبادئ التي لا تحتاج إلى برهنة. ويسعى كلّ علم إلى التقليل من المصادرات واختزالها إلى درجة الصفر. ولن يتأتى هذا إلا بتزويد النظرية بمفاهيم صورية تحدّد بشكل واضح[74].

6.4. إجراء الوصف

ينطلق إجراء الوصف *la procédure de description* عند الغلوسيماتيّة من **النص** *le texte* باعتباره لامنته *infini* بهدف وصف بنيته. وينبغي في البداية أن يميِّز

(74) *Prolégomènes*, pp.33-34.

بين وجهين: **سلسلة المضمون وسلسلة التعبير**. وتُعَدّ هذه العملية أهمّ شيء في تحليل النص أياً كانت طبيعته، سواء تعلق الأمر بالألسن الطبيعية أم بالألسن الاصطناعية[75]. ويتضمّن إجراء الوصف عمليتين:

أ - **التقسيم** *Division* (أو السياقية *La syntagmatique* في اللسانيّات البنيويّة) حيث يتمّ تقسيم النصّ إلى أجزائه تدريجاً من الوحدات الكبرى إلى أصغر وحدة غير قابلة للاختزال *Irréductibles*.

ب - **التصنيف** *Classification* أو النَّسَقية *la systématique*، حيث تُفَيَّءُ [من الفئة] العناصر غير القابلة للاختزال وفق وظائفها في عناصر سياقية تحكمها علاقات، وفي فئات تتدرج من الصغير إلى الأصغر إلى أن يتمّ تحديد جميع العناصر"[76].

يطلق اسم **فئة** (*classe*) على الموضوع الخاضع للتحليل. وتضمّ مُكوّنات (*composantes*) هذه الفئة الأشياءَ التي تمّ تسجيلها في تحليل واحد بوصفها عناصر يخضع بعضها لبعض داخل الفئة المتجانسة نفسها. "إن تحديد المُكَوِّن يفترضُ تحديد الفئة الذي يفترض تحديدُه تحديدَ التحليل، بينما لا يفترض في تحديد التحليل سوى حدود أو مفاهيم هي ذاتها غير مُحدّدة في نَسَق التعريفات الخاص بالنظرية مثل الوصف والموضوع (*objet*) والارتباط *corrélation* والتجانس بوصفها مفاهيم بديهية وغير قابلة للتحديد. نطلق على فئة الفئات *classe de classes*، اسم **التراتبية** *La hiérarchie*. ويميِّز في التحليل بين تراتبيتين:

- **الصَّيْرورة** *processus*
- **النَّسَق** *système*.

(75) *Ibid*, p.191.

من نتائج عدم التمييز بين سلسلة المضمون وسلسلة التعبير كما هو الحال في التحليل التقليدي أنّ المحلل اللساني بحسب هلمسليف لا يدري في المستوى الصرافي مثلاً هل يتعلق الأمر بوحدات التعبير أم بوحدات المضمون أم بهما معاً.

(76) Knud Togeby. *Structure immanente de la langue française*, p.6.

يستلزم تعيين الفئة والمُكَوِّن بحسب التراتبية التي يوجدان فيها. ويطلق على الفئات في مستوى الصيرورة: **السلاسل** *chaînes* وعلى المُكَوِّنات **الأجزاء** *parties*. أما في مستوى النَّسَق فتسمّى الفئات **مصفوفات** (جمع مصفوفة) *paradigmes* ويُطلق على المُكَوِّنات **الأطراف** *membres*. ويسمّى تحليل الصيرورة **تقسيماً** *division* وتحليل النَّسَق **تمفصلاً** *articulation*.

تتمثل المهمّة الأولى للتحليل اللسانيّ البنيويّ في تقسيم الصيرورة، التي هي النصّ على أساس مبدإ المواقع *positions*[77] فالنص *texte* سلسلة تتكوَّن أجزاؤها من سلاسل هي على التوالي: الجملة والكلمات والمقاطع والصوتات. ويكون التقسيم شاملاً حين نستمرّ فيه إلى أصغر الأجزاء غير القابلة للاختزال، أي إن النصّ يُقْسَم إلى أجزاء تُقسَّم بدورها إلى أجزاء أخرى تقسم هي الأخرى إلى أجزاء وهكذا. ولا يتعلّق الأمر بتقسيم مباشر أو تلقائي، لأن الإجراء الأسوأ في وصف لسان مُعين هو الذي يقتصر على ما تقدّمه العلامات المستعملة في اللسان من جوانب سطحية وخارجية. وقد يتضمّن التحليل الواحد تحليلين أو أكثر. وفي هذه الحالة يُوَسَّع الوصف ليشمل تقسيماً مركّباً يسمح بالكشف عن مجموعة جديدة من الارتباطات، ممّا يحتّم قيام تقسيمات جديدة على أسس تحليل آخر، بحيث نتحدّث عن **مُرَكَّب من التحليلات** *complexe d'analyse* **ومُركَّب من التقسيمات** *complexe de division*، أي إننا أمام تحليل مُركّب وتقسيم مُركّب.

يتعين إذن الوصول إلى وضع القواعد المتحكّمة في النصوص الموجودة فعلاً أو التي قد توجد مستقبلاً، المنتمية ليس إلى هذا اللسان أو ذاك، بل إلى كل الألسنة الممكنة، سواء أكانت هذه الألسنة موجودة فعلاً أم لا.

لنتمعن في المجموعتين:

---

(77) *Prolégomènes*, p.192.

ناب	نال
قاب	قال
عاب	حاب
صال	جال
خاب	شاب
راب (الحليب)	غاب
بال (يبول)	سال

الرسم 1

في السطر الأول استبدلنا الباء في "**ناب**" باللام لنحصل على وحدة جديدة "**نال**"، وفي المثال الثاني استبدلنا الباء باللام فحصلنا على "**قال**". وهكذا فالوحدات المتَحصَّل عليها في العمود الثاني هي نتيجة تطبيق **مبدإ الاستبدال**. ويتمثل مبدأ الاستبدال في إحداث تغيير في وحدات **صعيد التعبير**، ثم النظر فيما يترتّب عن ذلك في وحدات **صعيد المضمون**. والاستبدال مصطلح وضعه هلمسليف، ولكن الإجراء نفسه من الناحية العملية كان معروفاً لدى صِواتيي حلقة براغ اللسانيّة. والاستبدال يعطينا في مستوى الصيرورة السلسلتين: **ناب ونال** ومثلهما: **قاب وقال** وهلمّ جراً. وتشكّل الوحدات مثل: النون والقاف والعين والصاد والخاء والراء والباء في العمود الأول مصفوفة أولى، بينما تشكّل النون والقاف والحاء والجيم والشين والغين والسين في العمود الثاني مصفوفةً ثانية. والوظيفة المتحكّمة في مستوى الصيرورة هي **الوظيفة** التي تُعبِّر عن علاقة و+ و بين السلاسل بالمعنى المنطقي (الوصل المنطقي) (**شاب**= ش+ ا+ ب أو ش وا وب)، بينما يُعبَّر عن الوظيفة في النَّسَق بالفصل المنطقي الذي تُعبِّر عنه علاقة أو + أو (ن أو ق أو ص ← **نال** أو **قال** أو **صال**). نجد في النص (الصيرورة) علاقة و–و وهو الوصل (أو الوجود) بين الموظِّفين [مفرده مُوَظِّف] *le(s) fonctif(s)* اللذين يندرجان في السلسلة الواحدة، بينما يوجد في النَّسَق علاقة أو.أو أي الفصل (أو التناوب) بين مُوَظِّفي النَّسَق. يمكننا أن نتصور بالنسبة إلى **ن** و**ق** في المثال السابق أن الأمر يتعلق بنفس **المقدارات** *grandeurs* في الصيرورة وفي النَّسَق. وإذا اعتبرنا **ن** جزءاً مأخوذاً من الكلمة/السلسلة **نال** فهي تندرج في الصيرورة، ومن ثمة فهي وصل، بينما إذا اعتبرناها طرفاً *membre* وأُخِذَت من المصفوفة فهي تنتمي إلى النَّسَق ومن ثمة فهي فصل.

ن
ق

وبعبارة أخرى إن "**ن**" من منظور الصيرورة **جزء** ومن منظور النَّسَق **طرف**.

وتُشَكِّل العلاماتُ داخل النص سلسلةً، وتُكَوِّن عناصرُ كل علامة أيضاً سلسلةً [خ +َ + ر +َ + ج +َ]. فالوظيفة هي العلاقة التي تجعل علامات [أو عناصر] السلسلة نفسها، مرتبطة فيما بينها بشكل معين[78]. فإذا أخذنا العلامة "**نال**" في اللسان العربي يمكن أن نشكل منها علامات أخرى، وذلك بتعويض كل عنصر فيها بعنصر آخر كما فعلنا في وحدات المجموعتين سابقاً (الرسم 1). ومن الممكن أن نقوم بهذه العملية سواء بالنسبة إلى وحدات التعبير أم بالنسبة إلى وحدات المضمون. وإذا اقتصرنا على وحدات التعبير لأنها الأسهل، يمكن أن نعوض كل العناصر المكونة لـ "**نال**" فنحصل على علامات جديدة: **سال، قال، خال، بال، جال، حال، الخ**.

وتُقَدَّمُ العلامة كسلسلة أفقية من اليمين إلى اليسار، تحت كل عنصر منها يمكن أن نضع في عمود **عناصر** أخرى يمكن أن يُعَوِّض *se substituer* بعضها بعضاً:

- **نال**
- **أخذ**
- **كتب**

إن **نال** و**أخذ** و**كتب** التي تكوِّن هذا العمود تشكّل مصفوفة، وهي فئة من العناصر التي يمكنها أن توضع في المكان نفسه من السلسلة، وتكون بينها [العناصر] **وظيفة ارتباط** *corrélation* وهي العلاقة التي تجمع بين أعضاء مصفوفة ما.

(78) *Le langage*, p.30.

وجدير بالملاحظة أنه لا يمكن أن نضع أيّ عنصر كان في أي مصفوفة كانت. ولا يهمّ الآن أن هذه الكيفية تسمح لنا بأن ننتج علامات غير مستعملة مثل: **ظال، يال، ثال**، فهذه العلامات ممكنة (مبدئياً)، بمعنى أنّ القواعد التي تحكم العلاقة بين العناصر في العربية تسمح بهذا النوع من التشكيل. ويمكن أن ننتج تجميعاً يكون مخالفاً لهذه القواعد. لا يمكن أن نُكَوِّن علامات مثل، ***طضس/ *طضز/ *طضش** فهذه العناصر (ط/ ض/ ز/ س/ ش) كل منها على حدة صالحة، ولكن حين ترتبط فيما بينها بكيفية مَا تكون غير صحيحة، وبالتالي تصبح العلامة مستحيلة. يمكن إذن أن نُكَوِّنَ مصفوفة بالعناصر التي يُسْمَح بوضعها في مواقع معينة فقط من السلسلة، وليس في أخرى. نُسمّي هذه المصفوفة **مقولةً** *catégorie*. فالألف والواو والياء تنتمي إلى مقولة، بينما الدال والكاف والجيم تنتمي إلى مقولة أخرى (الأسماء مقولة والأفعال مقولة أخرى وهكذا)(79).

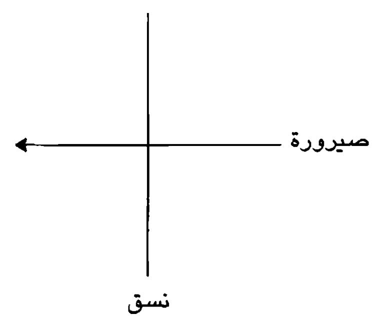
إنّ هاتين الوجهتين المختلفتين (الصيرورة والنَّسَق) تسمحان بالتعرف إلى موضوعين مختلفين، لأنّ التحديد الوظيفي يتغير من الواحدة إلى الأخرى. ويتغير التأويل بالنسبة إلى الوحدة نفسها ن، فهي إمّا وصل وإمّا فصل بحسب المنظور الذي نختاره. ويلجأ هلمسليف إلى مصطلحية صورية لا لبس فيها للتعبير عن هذه العلاقات، وهي كالتالي:

- **علاقة** *relation* لتسمية الوظيفة وَ. . وَ تعبيراً عن علاقة بين أجزاء السلسلة *partie*.
- **ارتباط** *corrélation* لتسمية الوظيفة أَوْ.. أَوْ، وهي علاقة بين أطراف مصفوفة *membres*.

وانطلاقاً من هاتين الوظيفتين يمكن أن نعرف الصيرورة **كتراتبية علاقية** *hiérarchie relationnelle* وأن نعرف النَّسَق **كتراتبية ارتباطية** *hiérarchie corrélationnelle*. ويقابل هذا التقسيم ما يعرف في اللسانيّات البنيويّة الأخرى

(79) *Le langage*, p.57.

بالسياقية *la syntagmatique* **والجدولية** *la paradigmatique*. وبتعبير أوضح، إن الصيرورة هي النَّصّ والنَّسَق هو اللسان(80). ويمكن رسم العلاقة بين الصيرورة والنَّسَق كما يلي(81):



وتكتسبُ الصيرورة والنسق الذي يضمّها وظيفة متبادلة هي إما علاقة، وإما ارتباط بحسب منظور الصيرورة أو منظور النسق. ويبين التحليل المعمّق لهذه الوظيفة أن علاقة الارتباط هي علاقة تحديد يكون النَّسَق فيها هو الثابت. إن الصيرورة تقتضي النَّسَق. وليس مهماً أن تظهر الصيرورة كشيء قابل للملاحظة، لأنها تُدْرَك مباشرة، بل المهمّ هو وجوب ربطها بالنَّسَق الذي يتعين الكشف عنه من خلالها. ويتمّ التعرف إلى النسق بكيفية غير مباشرة، إلّا إذا تعلق الأمر بتقديم مباشر انطلاقاً من إجراء أولي. وقد تدفع هذه الملاحظة إلى الاعتقاد بإمكانية وجود صيرورة دون نَسَق وليس العكس. والأمر غير ذلك، فوجود النَّسَق شرط لازم لوجود الصيرورة التي لا توجد إلّا في ظلّ النَّسَق التحتي *sous- jacent* الذي يحكمها ويضبط تكوينها. غير أنّ الأمر يختلف بالنسبة إلى النَّسَق الذي لا يفترض وجودُه وجودَ الصيرورة. فلا يمكن عملياً أن نتصور نصّاً دون لسان، أي صيرورة دون نسق، وبالمقابل يمكن تصور لسان ما دون نص، إذ يمكن للنسق أن يوجد في غياب الصيرورة، وهذا يعني أن النسق قابل للتصور أو ممكن الوجود دون تحقّق الصيرورة التي تقابله.

---

(80) *Prolégomènes*, p.55.

يعيب هلمسليف على النّحاة القدامى أنهم لم يهتمّوا بالنص في علاقته بالنسق وكأن هذا النسق سقط مباشرة من السماء. (المرجع السابق، ص192).

(81) *Prolégomènes*, p.191.

7.4. ثنائيةُ التعبير والمضمون

يعتبر هلمسليف التميز المزدوج الذي أقامه سوسير بين الصورة والمادة من جهة وبين المضمون والتعبير من جهة ثانية محورَ المسألة المنهجية في البحث اللساني الحديث، بحيث ينبغي لأيّة لسانيّات مُحتملة أن تحدّد موقفها بالنظر إلى هذين التمييزين الأساسيين(82). ويسمح التمييزان باستخلاص جملة من المسلمات *axiomes* والتعريفات التي تتأسس عليها اللسانيّات نفسها. ويترتّب عن التمييزين السابقين تحديد اللسان بالمعنى السوسيري "كصورة خاصة منتظمة بين مادتين، مادة المضمون ومادة التعبير، وبالتالي كصورة خاصة للمضمون والتعبير(83). ويعدّ التمييز بين المضمون والتعبير في نظر هلمسليف أعلى من التمييز بين الصورة والمادة عند سوسير وبالتالي فهو الملتقى الأول الذي يمكن أن يطعّم بالتمييز بين الصورة والمادة، لأنّ العكس غير ممكن، فلا معنى للقول بوجود مضمون المادة أو مضمون الصورة (84).

ينطلقُ هلمسليف من فرضية مفادها أنّ ثمة علاقة تناظر بين مادة المضمون وصورته وبين صورة التعبير ومادته. ويسمح التناظر بين هذه المقدارات الأربعة بالانطلاق من أي نقطة نختارها، وأن نقدّم الملاحظات نفسها، ونصل إلى القوانين التي تحكمها. وبهذا يكون هلمسليف قد أعاد تأويل هاتين الثنائيتين اللتين وردتا مستقلتين عند سوسير، ليعيد بناء مقولتي "مضمون/تعبير" و"صورة/مادة" على نحو تنظيم تراتبي مُحْكَم بهدف استكناه مختلف العلاقات التي يمكنها أن تتولد عن العناصر الأربعة المكّونة للمقولتين السالفتين(85).

في إطار هذه الصياغة الجديدة لتصورات سوسير استبدل هلمسليف مصطلحي الدال والمدلول كطرفي العلامة اللغوية عند سوسير بمصطلحين أكثر تجريداً وصورية هما: التعبير *expression* والمضمون *contenu*. فالتعبير هو مجموع الأصوات التي تقوم بتجسيد المحتوى الدلالي المعبَّر عنه. أما المضمون فهو

(82) *Essais linguistiques*, p.44.

(83) *Ibid*, p.44.

(84) *Ibid*, p.52.

(85) *Ibid*, p.47.

التصوّر أو المحتوى الدلالي الذي يتمّ نقله بواسطة التعبير. وجديد تصور هلمسليف للعلامة اللغوية، هو أن **صعيد المضمون** *plan du contenu* و**صعيد التعبير** *plan de l'expression* ليسا بسيطين كما يوحي بذلك تصوّر سوسير وهو يعرض للدال والمدلول. ويرجع التمييز بين صعيدي التعبير والمضمون إلى التمييز بين المادتين المُكَوِّنتين لهما، إذ يتشكّل صعيد التعبير وصعيد المضمون بدورهما من مادة *substance* وصورة *forme*(86).

ويلاحظ في هذا الصدد، أنّ ما يطلق عليه سوسير *matière* [مادة] ويقصد به الحقيقة الدلالية والصوتية المطلقة الموجودة باستقلال تام عن كل استعمال لسانيّ خاص، يسمّيه هلمسليف متصلاً *continuum* بالنسبة إلى المضمون والتعبير. ويشكل الفكر بكل جوانبه متصل المضمون، وهو "يحيل على ما يشبه الشيء في ذاته الذي لا يعرف إلّا من خلال التنظيمات التي نعطيها للمضمون"(87)، بينما يشكل متصل التعبير الطاقة التصويتية الممكنة.

وبهذا يصبح لدينا أربعة مقدارات *grandeurs* أو طبقات *strata* هي:

- **مادة التعبير**
- **صورة التعبير**
- **مادة المضمون**
- **صورة المضمون.**

تتشكّل مادة التعبير *substance de l'expression* من الطاقة التي تتوفر عليها الألسن الطبيعية والمتعلّقة بعملية التصويت (إصدار الأصوات) *phonation*. وتتميز هذه الطاقة بالكلية (*universelle*). إنّ المادة الصوتية الخام (المُتصلة في صعيد التعبير) تمثل قاسماً مشتركاً بين جميع الألسن، باعتبارها متاحة لكل الأفراد الناطقين، بصرف النظر عن السمات المميزة للصوتات الموجودة في

(86) *Ibid*, p.69.

(87) أمبرتو إيكو، **العلامة، تحليل المفهوم وتاريخه**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2007/ 1973، ص148.

النَّسَق الصواتي الخاص بهذا اللسان أو ذاك[88]. ويستغل كلّ لسان على حدة هذه الطاقة الكلية بكيفية تتناسب والنسق الصِّواتي الخاص به. تقوم الألسن الطبيعية بتقطيع *Découpage* المادة الصوتية المتصلة لتستخلص منها ما تحتاج إليه وما يناسبها. وبفضل حركيتها الهائلة، فإنّ الإمكانات التي تستعملها الألسن كبيرة بشكل لا متناه، ولكنّ الحدث المميز هو أن كل لسان يضع حُدوداً خاصة به داخل إمكانات التصويت اللامتناهية هذه[89]، وليس من الضروري أن تجد جميع الأصوات التي يكون في استطاعة متكلم أن ينطقها عفوياً أو إرادياً صورة تعبير مناسبة لها (علاقات) في النَّسَق الصِّواتي للسان هذا المتكلم. يستطيع المتكلم العربي أن ينطق **الگا** = G والڤا = V وغيرهما من الأصوات، دون أن يُعتبر هذان الصوتان جزءاً من النسق الصِّواتي في اللسان العربي. ويستطيع بعض المتكلّمين السليقيين بألسن مثل الفرنسية والإنكليزية نطق أصوات القاف والخاء والحاء دون أن تكون هذه الأصوات وحدات مميزة في النَّسَق الصِّواتي للألسن التي ينتمي إليها هؤلاء المتكلمون. وليس لها أي قيمة تمييزية أو هي غير ملائمة بتعبير مارتينيه، لأنّ النسق العربي أو الفرنسي أو الإنكليزي ليس في حاجة إليها. ويمتلك كلّ لسان خاص مخارج صوتية خاصة به، تختلفُ عن غيرها في ألسن أخرى. فمن الألسن ما يعتمد مخارج أمامية، ومنها ما يعتمد مخارج خلفية، بينما تعتمد ألسن أخرى مخارج وسيطية، وهو ما يُفَسر وجود وحدات صوتية معينة في هذا اللسان وغيابها في لسان آخر. ولهذا السبب أيضاً، يختلف عدد الصوامت والصوائت من لسان إلى آخر. ولا داعي هنا إلى أن ننبه إلى خطإ الأحكام القِيَمية والآراء الشائعة في هذا الصدد، كالقول بأن متكلمي لسان ما لا يستطيعون نطق أصوات معينة موجودة في لسان آخر أو أن هذا اللسان يتوفر على أصوات صعبة التحقّق، أو يعسر نطقها على غير أهلها. فالاختلافات الصوتية بين الألسن تعود إلى الصورة (أي العلاقات) التي تأخذها المادة الصوتية وليس إلى شيء آخر[90].

(88) *Essais linguistiques*, p.57-58 *et Prolégomènes*, p.73-74.

(89) *Prolégomènes*, p.74.

(90) *Ibid*, p.99.

بيد أن مادة التعبير في نظر هلمسليف لا قيمة لها ولا تملك أي مردودية في تحديد الوحدات إلّا بوجود صورة التعبير *forme de l'expression* والمقصود بها "الشكل الذي تأخذه المادة في علاقتها بوحدات النسق الأخرى. وبتعبير آخر، تجسّد الصورةُ المادةَ وتُظْهِرُها في شكل معين. ومن أمثلة وحدات التعبير الأصوات والحروف وأبجدية الكتابة وطريقة برايل *Braille*، وهي تُحيل على وحدات التعبير أياً كانت طبيعتها المادية أو الوسائل التي تجسّدها. يسمّي هلمسليف **وحدات التعبير** *cénèmes* وهي وحدات فارغة من أي مضمون دلالي يقابلها. ولَمَّا كان التحليل اللساني البنيوي يرمي إلى تحليل الوحدات اللغوية، صوتات وعلامات في إطار العلاقات التي تجمع بين عناصر النَّسَق الواحد، كان لزاماً أن يبدأ وصف اللسان، بتوضيح مختلف العلاقات بين العناصر المُكَوِّنة للنَّسَق دون اهتمام بالطبيعة المادية الملازمة لهذه الوحدات.

وتتألفُ الصورة في التحليل الغلوسيماتي من مجموع العلاقات القائمة بين الوحدات اللغوية داخل سلسلة الكلام. وعلى هذا الأساس، لم يعد تحديد الصوتات يتمّ بالطريقة التقليدية التي تعتمد تحديد المخارج والصفات النوعية لكل صوتة على حدة وبمعزل تام عن غيرها. فالتحديد المضبوط يجب أن يمارسَ بواسطة العلاقات. يمكن مثلاً، النظر إلى أصوات اللسان العربي الفصيح لا بوصفها وحدات متفرقة على أساس المخارج والصفات الخاصة، وإنما باعتبار العلاقات المتبادلة بين صفاتها، مثل الجهر والهمس والشدّة والرخاوة التي يمكنها أن تجمع أو تفرّق بين الميم والباء والنون والفاء. أصواتياً الميم [م] صوت صامت /شفويّ/مجهور. أما صِواتياً /م/ فهو وحدة صوتية تحدّد بالقياس إلى الصوتات الأخرى مثل: /ب/ و/ن/ و/ف/[91] في إطار علاقات التآلف أو الاختلاف أو التساوي التي يمكن أن تربطها بغيرها في إطار النسق الصِّواتي الخاص بها. وقد كان من آثار هذا التصوّر الصوري الدقيق لوحدات التعبير أنّ هلمسليف رفض تصور حلقة براغ للصوتة على أساس سماتها الصوتية. فليس المهمّ أن تحدّد وحدات التعبير كعناصر مادية، وإنما المهمّ في التحليل اللساني البنيوي هو التحليل العلاقي. ويسير هلمسليف بهذا المنحى التجريدي في خطى

(91) يشير الرّسم [ ] إلى الكتابة الصوتية أي الخصائص المادية الملموسة، بينما يشير الرسم/ / إلى الكتابة الصِّواتية (الفونولوجية).

سوسير الذي قال بوجود صوتة مجردة مستقلّة عن تجلّياتها الملموسة في الكلام، وهي الفرضية التي لم تفهم لا من طرف معاصريه ولا من طرف حلقة براغ أيضاً[92].

نجد التقسيم نفسه بالنسبة إلى صعيد المضمون. فالمضمون مادة وصورة. مادة المضمون بالنسبة إلى العلامة اللغوية هي المعطى التصوّري الموجود في العالم الخارجي الذي يتقاسمه الأفراد المتكلمون ألسناً مختلفة بغضّ النظر عن طبيعتها. إن المادة موجودة موضوعياً، ويمكن أن يدركها جميع البشر ويتعرفوا إليها. إلا أن إدراك عالم المفهومات والتصوّرات لا يكون حرفياً أو مباشراً أو عاماً. فليس كلّ ما هو موجود في العالم الخارجي قابلاً للتصور في لسان معين. وحتى إذا افترضنا أنه كذلك، فليس كل ما يدرك في التجربة يمكن التعبير عنه لغوياً. إنّ اللسان ليس نسخاً *calque* مباشراً ومطابقاً للواقع مطابقة تامة.

أما صورة المضمون *forme du contenu* فهي التقطيع الخاص الذي يقوم به هذا اللسان أو ذاك إزاء المعطى الواقعي الخام. ويقوم كلّ لسان بتقطيع الواقع-التجربة بالكيفية التي تتناسب ونَسَقه الدلالي الذي تنتظم فيه صورة الوحدات في مستوى المضمون، أي في إطار العلاقات التي تجمع بين العناصر اللغوية الدالة على التصوّر نفسه. فلا يحدّد مدلول العلامة "بارد" بمعزل عن باقي الوحدات التي توجد معها في النَّسَق نفسه، أي في إطار العلاقات التي تجمعها بغيرها من الوحدات في المستوى السياقي والمستوى الجدولي *Paradigmatique*. ومن ثَمَّ يمكن تحديد مدلول"بارد" في العربية الفصحى بالنظر إلى وحدات أخرى مثل: "ساخن"و دافئ"، بينما يحدّد مدلول "بارد" في اللسان المغربي الدارج بالنظر إلى علامات أخرى، مثل: "دافي"و "سْخُونْ" و"طايْبْ"(حامي في لهجات مغربية أخرى).

ولم يختلف هلمسليف عن سوسير في القول بأن العلاقة بين التعبير والمضمون علاقة اعتباطية في جميع المستويات سواء تعلق الأمر بالمادة أم بالصورة. "إن هناك **تعاضداً** *solidarité* بين **الوظيفة السيميائية** *fonction sémiotique*

(92) Bertil Malmberg. *Les nouvelles tendances de la linguistique*, Paris, PUF, 1972/ 1962, p. 238.

لهذين المقدارين، وبالتالي لا وجود لهذه الوظيفة دون وجود التعبير والمضمون معاً وفي الوقت ذاته. ويتمّ تحديد الصعيد الواحد استناداً إلى الصعيد الآخر بوصفهما عنصرين لوظيفة سيميائية واحدة. فالتعبيرُ دون مضمونٍ مجردُ هراء وكلام لا قيمة له، والمضمونُ دون تعبير، ليس سوى شكل سديم لا يمكن التعرف إليه أو إدراكه. فالتعبير هو القالب الذي يجمع شتات المحتوى الدلالي، ويعمل على ترجمته إلى واقع لغوي مانحاً إياه صورة نهائية مناسبة. ولا يكون ثمة تعبير إلّا إذا كان تعبيراً عن مضمون معين. ويصدق الأمر نفسه، بالنسبة إلى المضمون الذي لا يكون كذلك إلّا إذا كانت له صورة تعبير محدّدة.

وتتجاوز الغلوسيماتيّةُ ـ بدعوتها إلى الاهتمام بالمضمون ـ اللسانيّاتِ البنيويّةَ الأميركية وباقي البنيويات الأوروبية. فالمضمون بحسب الغلوسيماتيّة لَهُ قِيْمته ومكانته مثل القِيْمة والدور اللذين يسندان عادة إلى التعبير. وعلى التحليل اللساني أن يأخذ في الحسبان **التشاكل** *isomorphisme* الحاصل بين التعبير والمضمون. والمقصود بالتشاكل أن يُعَدَّ التعبير والمضمون على قدم المساواة، وأن تطبق عليهما المبادئ والأدوات الإجرائية نفسها[93]. وقد سعت الغلوسيماتيّة إلى تجاوز المفارقة القائمة على التمييز بين الاهتمام الكلّي بالمعنى، أو التجاهل التام له. فالاهتمام بالمعنى دون الصورة هو موضوع العلوم الإنسانية لاسيما علم النفس وعلم الاجتماع والأنثربولوجيا، بينما الصورة هي الموضوع المفضّل للسانيّات. وينبغي أن تصبح المهمة الرئيسة للسانيّات هي بناء علم تعبير وعلم مضمون على أساس قواعد داخلية (محايثة) ووظيفية دون قبول المعطيات الصوتية أو الفينومينولوجية في الأصواتية أو المعطيات الدلالية والفينومينولوجية في علم المضمون"[94]، وبعبارة أخرى بناء علم تعبير لا يكون هو الأَصْواتية وعلم مضمون لا يكون هو الدلالة *sémantique*.

وقد قاد التشاكل إلى إبداء بعض التحفظ إزاء وجهة النظر الغلوسيماتيّة. فأندريه مارتينيه يذهب إلى "أن التوازي بين صعيد التعبير وصعيد المضمون

(93) *Prolégomènes*, p.79.

(94) *Ibid*, p.101.

يتجاهل غائية اللسان، فنحن نتكلم لنفهم وليكون التعبير في خدمة المضمون. ومن المؤكّد أن بينهما ارتباطاً وثيقاً، ولكنه ارتباط في اتجاه محدّد أي في اتجاه المعنى بالدرجة الأولى[95]. وقد عبَّر رومان جاكبسون عن الموقف نفسه مشيراً إلى أنه كان يجادل الغلوسيماتيين في موقفهم المتمثل في إبعاد المادة الصوتية للغة من التحليل اللساني. وكان جاكبسون يلحّ على ضرورة معالجة العلاقة بين الصورة والمادة معالجة دقيقة[96].

ولا يمنع التلازم بين التعبير والمضمون من ملاحظة الاستقلالية القائمة بينهما. فقد نتوسّل بواسطة تعبيرات متعدّدة لنقل مضمون واحد والعكس صحيح، أي أن يدلّ التعبير الواحد على مضامين مختلفة بحسب ما يسمح به نسقُ التعبير ونسق المضمون في كلّ لسان على حدة.. ويكفي أن ننظر إلى الأمثلة المتعلّقة باختلاف الألسن حول تصوّر الأشياء أو المفهومات الموجودة في العالم الخارجي أو التخيلي وتسميتها مثل: الألوان وأسماء الثلج والقرابة الأسرية والعلاقة الزمنية. تقوم الألسن الطبيعية ببناء التصوّرات المتعلقة بالظواهر المذكورة وفق منظورات خاصة بها وتحديداً بالكيفية التي تعبِّر بها عن هذه التصوّرات، ممّا يرتبط بالنسق الدلالي لكل لسان على حدة. إذا أخذنا الأمثلة التالية:

- لا أعرف (عربية فصحى)
- ما نعرف (مغربية)
- معرفش (مصرية)
- Je ne sais pas (Français) (فرنسية)
- I do not know (english) (الإنكليزية)
- entiedà (finnois) (الفنلندية)
- naiuvara (esquimaux) (لغة الإسكيمو)

(95) A. Martinet. *La linguistique synchronique*, Paris, PUF, 1974/1965, p.28.

(96) Roman Jakobson. *Dialogues avec Roman Jakobson*, Paris, Flammarion, 1980, p.40.

سنجد أنّ القاسم المشترك بين هذه الملفوظات هو المعنى (نفي + معرفة + شيء = الجهل بالشيء) أو الفكر المعبِّر عنه. وإذا نظرنا إلى هذا المعنى وجدناه كتلة لا شكل لها، فهو مقدار غير محلَّل تحدّده وظائف خارجية، أي إنه يأخذ أشكالاً مختلفة بحسب صورة التعبير في اللسان الذي يعبِّر عنه بكيفية تناسب نَسَقه التركيبي والصِّرافي[97]. وقد يبدو المعنى *sens* مشتركاً بين جميع الألسن وبالتالي ينتمي إلى ما هو متشابه بينها. لكنّ هذا الأمر لا يعدو أن يكون وهماً. فالمعنى في ذاته لا شكل له ولا يخضعُ في ذاته لأيّ تكوين، ولكنه يكون فقط قابلاً لتكوين معين، ذلك أنّ المعنى لا وجود له إلّا إذا أخذ صورةً خاصة في كل لسان على حدة، وبالتالي ليس هناك تكوين كلّي *universelle*، وإنما هناك مبدأ كلي *un principe universel* لتكوين المعنى. وإذا كان ثمة من حدود للتكوين فهي تتعلّق بتكوين المعنى الخاص لا بالمعنى كما هو، لأنّ المعنى غير قابل للمعرفة إلا عبر تكوين ما. فالمادة تخضع حصرياً للصورة، ولا يمكن أن نسند إليها (المادة) أي وجود مستقل[98]، وبالتالي فإنّ وصف المادة يفترض وصف الصورة. لذا يستحيل أن نأخذ المعنى سواء تعلق الأمر بالمضمون أم بالتعبير منطلقاً للوصف اللساني.

لنلاحظ في الأمثلة السابقة الاختلاف بين هذه الألسنة فيما يتعلّق بموقع الضمائر "je" و"I" مقارنة مع الضمير في العربية الفصحى ولهجاتها، وموقع أدوات النفي "لا ـ ما "م + فعل+ ش" وne- pas الخ وكذلك البنية الصرفية للأفعال في كل لسان على حدة. ويستخلص من هذا المثال أنّ المعنى ينتظم بطريقة تختلف من لسانٍ إلى آخر. صحيح أن المعنى الواحد قاسم مشترك بين هذه الألسن، ولكن صورة المضمون، تتغير من لسان إلى آخر بحسب ما تسمح به العلاقات بين وحدات المضمون في هذا اللسان أو ذاك.

ومن شأن التمييز بين صعيد التعبير وصعيد المضمون بمكوِّناتهما المادية والصورية أن يتجاوز نهائياً التفريعات المعروفة في الدراسات اللغوية التقليدية

(97) *Essais linguistiques*, p.69 et *Prolégomènes*, p.74-75.

(98) *Essais linguistiques*, p.99.

وحتى في بعض الاتجاهات اللسانيّة البنيويّة ولاسيما الأميركية التي تقسِّم دراسة نحو *grammaire* الألسن الطبيعية إلى أَصْواتية وصِواتة وصِرافة وتركيب ومعجم(99).

ويأخذ بعضُ اللسانيين على هلمسليف أنه أقصى كلياً كل إحالة على ما يشكّل مادة التعبير ومادة المضمون. لأن المادة تتعلقُ حصرياً بالصورة وتخضع لها ولا يمكن أن نسند إليها وجوداً مستقلاً"(100)، خارج هذه الصورة التي تأخذها. فلا وجود للمعنى أو للمادة إلّا من خلال الوظائف وهو ما يعني الاكتفاء بالصورة، أي العلاقات وحدها أساساً في التحليل اللساني البنيوي.

8.4. العلامة اللغوية ووجوهها

ينخرط هلمسليف انخراطاً تاماً في تصوّر سوسير الذي يذهب إلى أن اللسان نَسَق من العلامات التي هي - كما مرّ بنا - كيان مركّب من دال ومدلول(101). ولبلورة تصوره في هذا الموضوع، يبدأ هلمسليف بنقد التصوّرات السابقة. فالتعريف التقليدي الذي يذهب إلى القول بأن اللسان نسق من العلامات، غير كافٍ بحسب هلمسليف، لأنه تعريف لا يصمد طويلاً أمام الملاحظة المُعَمَّقة لطبيعة العلامات اللغوية. وهو أيضاً تعريف قاصر لأنه يقتصر في النظر إلى العلامات اللغوية، على علاقاتها بالأشياء الموجودة في إطار ما هو خارج - لغوي *extra- linguistique*. وأخيراً لا يهتمّ التعريف بالوظائف الداخلية للعلامات(102). فالتعريف التقليدي يجعل العلامة "تعبيراً عن مضمون خارج عن العلامة نفسها"(103)، وحين يُعَرِّف سوسير نفسه العلامة بأنها دال ومدلول، فهو وإن كان يجمع بين التعبير والمضمون، يُحيل على مرجعية نفسية (ذهنية) واضحة تتجلى في تحديد طرفي العلامة. فالدال انطباع سمعي أو أثر سمعي (الصورة

(99) *Prolégomènes*, p.78.
(100) *Ibid*, p.68.
(101) *Ibid*, p.60.
(102) *Ibid*, p.64.
(103) *Ibid*, p.65.

السمعية)، والمدلول تصوّر ذهني أو هو صورة ذهنية[104]. ولتحديد العلامات اللغوية تحديدا حقيقياً ينبغي اعتبارها تعبيراً ومضموناً في الوقت ذاته. إن العلامة تعبير عن وظيفة معينة، إنها قبل كل شيء تعبير عن شيء آخر. فالعلامة اللغوية تتضمّن مادة التعبير ومادة المضمون. ونستطيع بهذا المعنى فقط أن نقول إنّ العلامة علامة عن شيء ما"[105]. ويقوم تحديد العلامة تحديداً محايثاً على وظائفها الداخلية (الارتباطات القائمة بين صعيد التعبير وصعيد المضمون) ووظائفها الخارجية التي تتجلى في العلاقات الرابطة بين العلامة وباقي العلامات الموجودة معها سياقياً واستبدالياً. ويفضّل هلمسليف استعمال مصطلح العلامة للدلالة على الجمع بين التعبير والمضمون، وليس للدلالة على التعبير وحده أو المضمون وحده كما في التعريفات القديمة.

وتتمثل السمات العامة للعلامات اللغوية في اشتغالها ووظيفتها ودلالتها. فالكلمات هي العلامات التي يمكن لأجزاء منها أن تكون هي الأخرى علامات أي وحدات تعبير ترتبط بها وحدات مضمون. وهكذا يمكن تقسيم العلامة اللغوية "**يلعبون**" إلى علامات أخرى أصغر لها دلالة معينة هي:

- "ي" التي تدلّ على زمن الحال،
- الجذر "لعب " الذي يدلّ على حدث اللعب
- اللاحقة"ون" التي تدلّ على الجمع المذكّر.

ويمكن تقسيم الوحدة *indécomposables* بالطريقة نفسها تباعاً إلى وحدات صغرى تحمل في طياتها دلالة معينة تختلف عن دلالة باقي الوحدات الموجودة معها وهي:

in/dé/com/pos/able/s

وينتهي هذا التحليل إلى أن الكلمة بالمفهوم التقليدي ليست علامة لغوية

(104) F. de Saussure. *Cours de linguistique générale*, p.97-99.

(105) *Prolégomènes*, p.76-79.

نهائية غير القابلة للتحليل من جديد، بل يمكن تحليلها من جديد إلى علامات أخرى تملك بدورها دلالات محدّدة. فالجذور ومختلف اللواصق في العربية وغيرها من لواحق وسوابق وأواسط وعلامات الإعراب والحالات الإعرابية التي تعدّ جزءاً أساسياً من الكلمة في التحليل اللغويّ القديم كلّها دلالات تعبِّر عن شيء ما، لا تقل أهمّية عن الدلالة المعجمية العادية[106]. ويكمن الاختلاف بين الدلالتين في أن دلالة العلامة الواحدة معجمية ودلالة اللواصق وغيرها سياقية أو نحوية أو صرفية[107]. ودلالة العلامة ليست دلالة مطلقة وإنما هي دلالة نسبية تحدّد بالقياس على غيرها من العلامات الموجودة معها في المصفوفة نفسها *paradigme*.

فالوحدات مثل: /ي/ و/ون/ أو s في الفرنسية الدالة على الجمع أو غير هذا، مما هو موجود في الألسن الطبيعية، علامات لغوية قائمة الذات. ويتميز اللسان بهذا الجانب الاقتصادي المتمثل في كونه عبارة عن تبث *inventaire* من العلامات واللاعلامات *non signes* يستجيب لحاجات التواصل اليومي التي هي غاية كل لسان. وللقيام بهذه الغاية على أحسن وجه، ينبغي أن يكون اللسان قادراً على إنتاج علامات جديدة أو جذور جديدة وتلك غايته النهائية.

يستطيع التحليل اللساني السليم علمياً كشف غِنَى اللسان وطبيعته اللامتناهية بكيفية سهلة المناولة وعمليّة، تعليماً واستعمالاً. إلّا أن تحقيق عدد لامنته من العلامات، لا يتمّ إلا إذا كانت العلامات مُكوَّنة من لاعلامات يكون عددها محدوداً جداً. وهذه اللاعلامات عبارة عن عدد محدود من المقادير في كل لسان، تؤخذ كأجزاء علامات داخل نَسَق العلامات. ويقترح هلمسليف تجزيء العلامة اللغوية على صعيد التعبير وصعيد المضمون إلى وحدات دنيا يسمّيها **الوجوه** *figures*[108]. وهي تسمية صُورية وليس لها دلالة. وبالرغم من أن عدد العلامات في كل لسان مرتفع، إلّا أنه بالإمكان اختصارها في عدد قليل جداً من الوجوه. فكل علامة هي ذات وجه دال ووجه مدلولي. وليس لوجوه التعبير أي

(106) *Ibid*, p.61.

(107) *Ibid*, p.63.

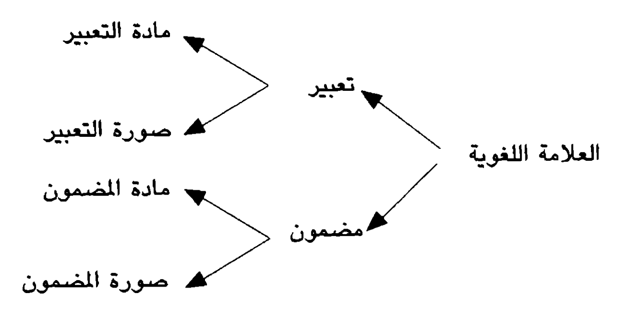
(108) *Ibid*, p.63.

دلالة أو معنى في ذاتها، كما لا يمكن تقسيم هذا الوجه الدال إلى وحدات دنيا. وعلى عكس **وجوه التعبير** *figures d'expression*، فإن **وجوه المضمون** *les figures du contenu* تمتلك وجهاً مدلولياً دون أن يكون لها وجه تعبير.

ومثلما يقسم التعبير إلى وجوه، يُقسَّم المضمون أيضاً إلى وجوه. يمكن مثلاً تحليل الوحدة "رجل" على صعيد المضمون إلى وحدات دنيا هي: **كائن + حي + بالغ + ذكر**. وإذا أخذنا الوجه "[**جنس ذكر**] فهو وحدة غير قابلة للتحليل من جديد إلى وحدات أخرى أصغر. ودلالة هذا الوجه [أو ما يسمّى في التحليل الدلالي بالسيمات *sème*] لا تحيل على الجنس الذكر أو الأنثى الموجود في عالم الواقع بارتباط مع معطى مادي مُحدّد ومُرْتبط بجنس الإنسان أو الحيوان. إن الوجه "**ذكر**" يحيل على مفهوم صوري مجرد مثلما نجد ذلك في ما تعبِّر عنه الألسنُ الطبيعية من مقولات لغوية للدلالة على التذكير والتأنيث والمحايد وغير ذلك. ويمكن تفكيك مفردة مثل "**حِجر**" إلى وحدتين صغيرتين: **فرس + أنثى** وهي وحدات يمكن استبدالها لتصلح بالتالي لتكوين مفردات جديدة مثل: **ثور + أنثى= بقرة**، و: **فرس + ذكر = حصان**، وهكذا. وينبغي أن يكون تحليل وحدات المضمون عاماً تختزل معه هذه الوجوه إلى أقلّ عدد ممكن، وهو ما يعني رَدُّ الكم الهائل من العلامات المتغيرة *variantes* في اللسان إلى عدد محدود من الوحدات اللامتغيرة *invariantes*. وما يصدق على المضمون يصدق على التعبير. والهدف هو تحديد الأشكال الدنيا (وهي الغلوسيمات *glossèmes*) التي يكشف عنها التحليل بصفتها لامتغيرات غير قابلة للاختزال في صعيد التعبير وصعيد المضمون.

إنّ كل لسان في نهاية التحليل ـ على الأقل من الناحية الصورية- عبارة عن عدد محدود من وجوه التعبير ووجوه المضمون (وهي المقولات الدلالية) بما في ذلك دلالة المقولات النحوية مثل: **عدد - نوع - مذكّر - حالة - شخص - زمن**. وعن طريق التوليف بين هذه الوجوه على صعيد التعبير وصعيد المضمون نحصل على عدد غير متناهٍ من العلامات اللغوية. وعندما نقول العلامات نقصد الصوتات والمقاطع والصُّرفات والكلمات والجمل وحتى الفقرات. إنها سمة

اللسان الطبيعي التي توفر له خاصية الاقتصاد[109]. إنّ وجوه العلامة اللغوية على صعيد التعبير وصعيد المضمون تجعل الدراسة المقبولة هي الدراسة القائمة على الجوانب العلاقية في لسان ما. إن اللسان نسقٌ من الثوابت ينبغي تحديدها علاقياً في التعبير والمضمون. يطلق هلمسليف على لامتغيرات صعيد التعبير *cénèmes* (وحدات فارغة)، بينما يسمّي لامتغيرات صعيد المضمون *plérèmes*. (وحدات المضمون). أمّا المتغيرات الصوتية والدلالية ذات الطبيعة المادية فليست من موضوع الغلوسيماتيّة. إن الأصواتية والدلالة ليستا من الغلوسيماتيّة، ولكنهما علمان مساعدان لها. ويلخّص الرسم التالي مجمل العناصر التي سبق تقديمها بشأن العلامة ووجوهها على صعيد التعبير وصعيد المضمون:



ما يهمّ الدارس اللساني من منظور الغلوسيماتيّة هو الصورة على صعيدي التعبير والمضمون وليس شيئاً آخر. إنّ الموضوع المباشر للغلوسيماتية هو النص الذي يستخلص من تحليل علاقات النَّسَق اللساني. "فمهمة اللسانيّات الأساس هي بناء علم للتعبير وعلم للمضمون على أسس داخلية ووظيفية، دون اعتماد المعطيات الصوتية أو الظّواهراتيّة في علم التعبير أو المعطيات الوجودية أو الظّواهريّة في علم المضمون"[110] كما يوضح ذلك الشكل التالي[111]:

(109) *Prolégomènes*, p.63.

(110) *Ibid*, p.101.

(111) J. Apresjan. *Eléments sur idées et les méthodes de la linguistique structurale contemporaine*, Paris, Dunod, 1973/1966, p.58.

مستوى التعبير		مستوى المضمون	
مادة	صورة	صورة	مادة
الأصواتية	كينيماتيك	بليريماتيك	علم الدلالة

الغلوسيماتية

ويتضح ممّا سبق أن المعنى عند هلمسليف وتحديداً إدراك الواقع والعالم الخارجي الملموس أو المتخيل غير قابل للإدراك إذ تتعذّر معرفته، ومن ثمة يصبح خارج نطاق نظرية اللغة (الغلوسيماتيّة) ليصير موضوع دراسات أخرى مثل الفيزياء أو الفلسفة أو الأنثروبولوجيا الاجتماعية أو الثقافية. وتقتصر الغلوسيماتيّة على تحليل المدلولات دون الاكتراث بالمعنى المُدْرَك استناداً إلى ما هو صوري أو قابل لأن يقوم على علاقات صورية خالصة. ويكشف هذا الموقفُ غير المسبوق في الدرس اللساني الحديث هوسَ التعلّق بالأشياء المجردة عند هلمسليف وما له ارتباط بالعلاقات المجردة. لكنّ هذا الموقف كانت له نتائج إيجابية بالنسبة إلى الدرس الدلالي والسيميائي. "فقد كان وراء إعطاء نقطة الانطلاقة لكل المشروع السيميائي الذي يعني بتحليل المدلولات تحليلاً لا يهتمّ بالمعنى، ولكنه يعقد عناية خاصة فقط بالمظاهر الشكلية المتنوعة القابلة قطعاً للإحاطة والتي تسهم في إنتاج المعنى"[112].

والجدير بالذكر أن الغلوسيماتيّة كانت سَبّاقة إلى الاهتمام بالدراسة البنيويّة المتعلقة بالمضمون (المدلول) في اللسان باعتباره وجهاً ثانياً يتساوى والتعبير (الدال)، وله نفس القيمة والأهمّية. وإذا كانت اللسانيّات البنيويّة عامة قد دأبت على الاهتمام بدراسة الدال وحده، دون أن تنظر إلى المضمون، فإن الغلوسيماتيّة أكدت على أهمّية المضمون وأعطته نفس القِيْمة المنهجية والنظرية

(112) آن إينو وآخرون، **السيميائية، الأصول، القواعد، التاريخ**، ترجمة رشيد بن مالك، وتقديم عزّ الدين المناصرة، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان 2008، ص130.

التي أعطتها للتعبير (أي الدال) انطلاقاً من كون علامات اللسان البشري تعبيراً ومضموناً ولا يتصور أحدهما دون الآخر.

9.4. مبدأ الوظيفة

تُصنَّف النظرية الغلوسيماتيّة ضمن اللسانيّات البنيويّة الوظيفية. غير أن هلمسليف يستعمل مفهوم الوظيفة بمعنى مغاير للمعنى الذي تعطيه إياه حلقة براغ أو مارتينيه. فهو معنى يقع بين المعنى المنطقي الرياضي والمعنى الاشتقاقي العادي. ويعني هلمسليف بالوظيفة كل علاقة (لا مادية، مجردة، وصورية) تربط بين عنصرين (مقدارين) أو أكثر، ولا يمكن أن يحدّد الواحد دون الآخر. ويستند تحديد الوظيفة إلى مجموع العلاقات بين علامات مختلفة تنتمي إلى السياق نفسه أو إلى المحور التركيبي نفسه. فكل علامة تحدّد بكيفية نسبية، أي انطلاقاً فقط من مكانها وموقعها داخل السياق. وحينما نأخذ العلامة بمعزل عن سياقها، فإنها في ذاتها لا تملك أي دلالة[113]. إن وصف موضوع ما في منظور الغلوسيماتيّة لا يعني إلّا شيئاً واحداً، هو أن نأخذ في الاعتبار العلاقات التي يندرج فيها أو تندرج فيه. تُسمّى هذه العلاقات أو الارتباطات التي يسجلها وصف علمي ما وظيفةً. ويمكن أن نصف موضوعاً ما بطريقتين[114]:

أ - تقسيم الموضوع إلى أجزاء لها وظائف متبادلة وهي عملية تحليلية.

ب - إدماج الموضوع في موضوع أكبر تكون أجزاؤه في علاقة متبادلة. ويتعلق الأمر هنا بتركيب الموضوع.

بالنسبة إلى وصف اللسان يتعلّق الأمر:

أ - بتحليله إلى أجزاء لها وظيفة متبادلة، وهذا ما يتمّ في اللسانيّات في إطار ما يسمّى بالنحو *grammaire*. ويَتَصَوَّرُ النحوُ اللسانَ الخاص أو على الأصح حالةَ لسانٍ خاصة ومنعزلة، ويصفها وصفاً تحليلياً آخذاً في الحسبان الوظائف الموجودة بين أجزائه.

---

(113) *Prolégomènes*, p.62.

(114) *Le langage*, p.29.

ب- إدماج اللسان في كلية أكبر أي تصوره كجزء من مجموعة من الألسن، توصف هي الأخرى بتحليلها مع الأخذ في الاعتبار ما يوجد بين أجزائها من وظائف[115].

والتحليل اللساني الغلوسيماتي على صعيد التعبير أو على صعيد المضمون تحليل نسقي وظيفي مُكوَّن من ثلاثة أصناف من العلاقات أو الوظائف بين الوحدات سواء بين مُكوِّنات الصيرورة (النص) أم داخل النَّسَق (اللسان). وتقسم الوظائف بحسب ثبات أو تغيُّر العناصر المندرجة في العلاقة. وهذه العلاقات هي[116]:

أ - **علاقة ترابط** *interdépendance* بين عنصرين (أو الارتباط الثنائي الجانب)، وتربط بين مُوَظِّفين *fonctifs* ثابتين لا يمكن تصوّر وجود الواحد منهما دون وجود الآخر. وبعبارةٍ أخرى الثابت *constant* مُوَظِّف[117] يكون حضوره ضرورياً لحضور مُوَظِّف آخر له به علاقة.

ب- **علاقة ارتباط أحادي الجانب** *dépendance unilatérale* (أو **التحديد** *déterminante*) تربط بين عنصرين يكون أحدهما ثابتاً والآخر متغيراً، بحيث يقتضي وجود أحدهما الآخر ولا ينعكس. فالمتغير *invariant* مُوظِّف لا يكون حضوره شرطاً لازماً لمُوظف ثابت له به علاقة وظيفة.

ج - **علاقة ارتباط حرّ** *dépendance libre* وقد يطلق عليها أيضاً علاقة التبعية *constellation* وتربط بين عنصرين متغيرين لا يقتضي وجود الواحد منهما وجود الآخر.

نحصل على علاقة الترابط حين تقوم العلاقة على وحدتين معاً وليس على واحدة منهما دون أخرى. نجد هذا النوع من العلاقة بين الوحدات في التراكيب العربية التالية:

---

(115) *Ibid*, p.29-30.

(116) *Essais linguistiques*, p.79 et *Prolégomènes*, p.38.

(117) استعمل هذا المصطلح محمد البكري في ترجمته لـ **مبادئ علم الأدلة**، لرولان بارت.

- تفترض العلاقة النحوية بين المبتدإ والخبر وجود المبتدإ ووجود الخبر معاً. ولا يمكن أن نتصوّر مبتدأً بدون خبر أو أن نتصور خبراً بدون مبتدإ .
- العلاقة بين مكوِّنات تركيب الإضافة؛ فالمضاف يفترض وجوباً مضافاً إليه والمضاف إليه يقتضي وجود المضاف.
- لا أفعال بدون فواعل والعكس صحيح أيضاً.
- لا موضوع بدون محمول (المسند والمسند إليه) والعكس صحيح.

ومن هذه العلاقات أيضاً علاقة الصوامت بالصوائت، إذ لا صوامت بدون صوائت والعكس صحيح.

أما علاقة الارتباط الأحاديّ الجانب أو التحديد؛ فيمثل لها بالحالات التي يقترن فيها وجود وحدة معينة بوجود وحدة أخرى. في مستوى الأصوات، نجد علاقة الارتباط بين الحركة والسكون. تقتضي الأُولى الثانيَ وليس العكس. ويتطلب حرف الجرّ بالضرورة اسماً مجروراً، لكنّ العكس ليس ضرورياً، لأن الاسم المجرور لا يتطلب بالضرورة حرف جر. (الإضافة). ويحتاج المفعول به بالضرورة إلى الفعل، لكنّ العكس ليس صحيحاً في حالة لزوم الفعل.

ومن أمثلة الارتباط الحر العلاقة بين الشخص والنوع في الفعل المضارع. فقد أُعَبِّر عن الشخص المتكلم دون أن أكون مضطراً للتعبير عن جنسه مفرداً وجمعاً وتثنية.

- أَخرج (للمفرد المذكّر والمؤنّث)
- نخرج (للمتكلم المثنى والجمع المذكر والمؤنث وحتى لأنا الدال على التعظيم).

فهذه الأنواع الثلاثة من العلاقات يمكنها أن توجد في الصيرورة وفي النسق. ومن الأفضل أن يكون لكل تراتبية علاقاتها الخاصة بها، ولكل تراتبية ألفاظها الخاصة بها للتعبير عن هذه العلاقات. فالارتباط في الصيرورة يسمّى **تعاضداً**

solidarité، وفي النَّسَق **تكاملية** *complémentarité*. ويسمّى الارتباط في مستوى الصيرورة **انتقاءً** *sélection* وفي مستوى النَّسَق **تخصيصاً** *spécification*. ويسمّى الارتباط الحرّ في الصيرورة **توليفاً** *combinaison* وفي النَّسَق **استقلالاً** *autonomie*.

10.4. السيميائيات الغلوسيماتيّة

لا تقلّ أهمّية مساهمة هلمسليف في السيميائيات الحديثة عن مساهمته في اللسانيّات البنيويّة. ويكفي أن نشير إلى أن أعمال كل من بارت وغريماس لم تكن لتصل إلى ما وصلت إليه إلّا بفضل أعمال هلمسليف على وجه الخصوص. وقد جاء اهتمام الغلوسيماتيّة بالسيميائيات في إطار علاقة اللسانيّات بغيرها من العلوم التي تدرس الأنساق التعبيرية، سواء أكانت هذه الأنساق بنيات صورية أم بنيات دلالية أم بنية علامات كما هو الأمر في المنطق والرياضيات. إنّ اللسانيّات مدعوة للانفتاح على التاريخ والأدب والفنّ والموسيقى والمنطق والرياضيات بوصفها مجالات تتمحور حول ما هو "لغوي"، أو إنها تحدّد موضوع دراستها بمفاهيم وحدود لسانيّة بحسب ما تقتضيه نظرية اللغة. فهذه المجالات تندرج في إطار علم السيميائيات العام. يقول هلمسليف: "يبدو لي النظر إلى الفروع المعرفية المختلفة من زاوية مشتركة ضرورياً ومثمراً، وهذا بالنسبة إلى دراسة الأدب والفنّ والموسيقى والتاريخ العام وأيضاً المنطق والرياضيات، حتى تتركز دراسة هذه العلوم انطلاقاً من وجهة نظر مشتركة تتمحور حول إشكالية تتحدّد لغوياً"[118].

والملاحظ أن هلمسليف من خلال عنايته بمسألة العلاقة بين اللسانيّات وغيرها من العلوم في إطار السيميائيات يُعيد إلى الأذهان الرؤية العميقة عند سوسير وهو يؤسس لعلم السيميولوجيا، مُعْلِناً أنه "يمكن أن نتصوّر علماً يدرس حياة العلامات داخل الحياة الاجتماعية، ويشكل جزءاً من علم النفس الاجتماعي وبالتالي من علم النفس العام"[119]. ومن هنا جاء الاهتمام في العصر الحديث بأنساق العلامات غير اللغوية المتمثلة في اللباس والعادات والفنّ والآداب والتعبيرات الشعبية. وقد دفعت حلقة براغ بدورها في اتجاه تقوية

---

(118) *Prolégomènes*, p.137.

(119) F. de Saussure: *Cours de linguistique générale*, p.33.

الاهتمام بالمباحث السيميولوجية، لاسيما ما يتعلّق بالمسرح واللباس والفلكلور والموسيقى والفنون التشكيلية. ونحن نعرف المآل التاريخي والمسار الهائل الذي عرفه تاريخ الدراسات السيميولوجية في علاقاتها بالمنهجية البنيويّة المتَّبعة في اللسانيّات، واتساعها لتصبح من أبرز المجالات المعرفية ازدهاراً في حقل العلوم الإنسانية. وكان هلمسليف يهدف إلى إشراك المعارف غير اللغوية التي تتضمّن بنيات صورية عامة قريبة من اللسان بشكل أو بآخر لإعادة النظر في أسسها ومفاهيمها وبنائها من جديد في ضوء النتائج المحصل عليها في اللسانيّات داعياً إلى التعاون بين علماء هذه المعارف لخلق موسوعة عامة تهتم ببنيات العلامات. وعاب هلمسليف على علماء الرياضيات ودارسي الأنساق الصورية الأخرى التي تهتمّ بالبنيات العامة، أنهم لم يلتفتوا إلى المباحث اللسانيّة ولا يتابعون نتائج الأبحاث المُتَحَصَّل عليها في اللسانيّات، وأنهم لم يُولُوا اهتماماً لمفهوم العلامة عند سوسير باعتبارها مكوَّنة من تعبير ومضمون. ذلك أن مفهوم العلامة كما هو مُستعمل في الدراسات المنطقية والفلسفية وما يتصل بها، أقلّ دقةً من نظيره عند سوسير[120].

ولتحقيق هذا الهدف العام، وحتى يمكن لهذه العلوم أن تتقيد بالأدوات والتصوّرات المقترحة في اللسانيّات، لا بدّ أيضاً من التخلي عن بعض المفاهيم المؤسسة للسيميولوجيا الحديثة، وإعادة النظر في مفاهيمها وتصوراتها، وإبعاد مجمل الرواسب المستمدّة من مرجعية علم النفس وعلم الاجتماع التي طغت بشكل لافت للنظر على فكر سوسير. وفي خضمّ هذا المشروع الطموح إلى وحدة العلوم، يُطْرَحُ علينا سؤالان يتعين الإجابة عنهما:

- ما موقع اللسان في خِضَمِّ البنيات السيميائية؟
- ما الحدود الفاصلة بين ما هو سيميائي وما ليس كذلك؟

أما إميل بنفنيست وإن أيَّد هذا المشروع الكبير الداعي إلى ضرورة جمع الفروع المعرفية داخل نَسَق سيميوطيقي شامل، فقد أبدى تحفظاً بالغ الأهمّية إزاء

(120) *Prolégomènes*, p.137.

هذا البرنامج الواسع عند هلمسليف الذي يظلّ حُلماً، ما لم يتمّ تطوير أسس نظرية للمقارنة بين هذه الأنساق"[121].

إنّ اللسان سيميائية يمكن أن تُتَرْجَم إليها باقي السيميائيات سواء تعلَّق الأمر بالألسن الطبيعية أم بغيرها من البنيات السيميائية القابلة للتصور. لكن ينبغي تمييز اللسان عن باقي الأنساق السيميائية الأخرى. "فوحدها الألسن الطبيعية يمكنها أن تعبِّر عن أي شيء يكون له معنى، ووحدها الألسن يمكنها أن تنطلق مما ليس فيه تعبير ليصير مُعَبَّراً عنه. وبالقياس إلى باقي الأنساق السيميائية، يتميز اللسان البشري باستقلالية بنياته عن القيم المراد التعبير عنها، سواء تعلق الأمر بالقيَّم المنطقية أو الاجتماعية أو الأخلاقية، وسواء أكانت دقيقة أم عامة، واضحة أم غامضة. ولهذه الأسباب تتضح أهمّية اللسان بوصفه محوراً لهذه السيميائيات العامة. ومن مكوِّنات هذه السيمائيات الأنساق الرمزية التي تدرس في المنطق هي بدورها كسيميائية بالمعنى العام، لكونها تخضع لنَفْس المبدإ البنيوي. فالرموز الرياضية مثلاً تعدّ نَسَقاً من وجوه التعبير دون اعتبار لمضمونها، يتعين وصف قواعد تحويلها، كما لو أن الأمر يتعلق بالقواعد المُتَحكّمة في لَعِب معين أو لُعْبة ما، وذلك بكيفية مُستقلة عن كل التأويلات الممكنة. ومن هذا المنطلق يعتبر علماء المنطق أن كل سيميائية هي مجرد نسق تعبير لا دخل فيه للمضمون. إن اللسانيّات تنظر إلى العلامات بوصفها تعبيراً عن دلالات، أي إن العلامة هي ذات دلالة، أياً كان المصطلح الذي يُعْطى للدلالة. ويسمح مفهوم القيمة *valeur* عند سوسير بالتعرف إلى جانب الصورة *forme* في كل علامة. ومعلوم أن نظرية العلامة عند هلمسليف تقوم على التفاعل بين صورة التعبير وصورة المضمون من خلال مبدإ الاستبدال الذي يربط بينهما. وكلّ تغيير على الصعيد الواحد يؤدّي إلى تغيير على الصعيد الآخر، بمعنى أن تغيير وحدة ما على صعيد التعبير يؤدّي إلى تغيير على صعيد المضمون.

يميز هلمسليف بين ثلاثة أنواع من السيميائيات[122]:

---

(121) Emile Benveniste. «Sémiologie de la langue», in *Problèmes de linguistique générale*, tome 2 p.57 note 1.

(122) *Prolégomènes*, p.144.

- سيميائيات تقريرية *sémiotique dénotative*
- سيميائيات إيحائية *sémiotique connotative*
- سيميائية واصفة *méta-sémiotique*

فكلّ سيميائية لا يكون أحد صعيديها *plan* سيميائية تتضمّن هي نفسها صعيد التعبير وصعيد المضمون تسمّى سيميائيات تقريرية. وحين يشكل صعيد التعبير سيميائية قائمة بذاتها نكون إزاء سيميائية إيحائية. وتتجسّد السيميائيات الإيحائية في نصوص متنوعة ومختلفة لا يمكن حصرها حصراً نهائياً ووضعها في جنس واحد محدّد[123]. "إن رواية مكتوبة في العصر الحديث ولكن وقائعها تعود إلى العصور الإغريقية القديمة يمكن أن تحمل إيحاءات قديمة من خلال كتابة يكون معجمها وتركيبها وإيقاعها متميزاً عن الترجمات الهومرية. إن لسان هومر بصعيديه المضموني والتعبيري يوحي إذن بمضمون الواقع القديم[124]. ويندرج ضمن الإيحاء في اللسان بعض مظاهر النَّبْر والتنغيم التي تختلف من فرد إلى آخر وتحمل معلومات عن مسقط رأس المتكلم ومستواه الثقافيّ وطبقته الاجتماعية ومهنته وأذواقه المختلفة. وهناك حالة ثالثة يكون فيها صعيد المضمون سيميائية كاملة، وهي ما يعرف بـ السيميائية الواصفة. ومثال هذه السيميائية اللغات الواصفة التي يكون موضوعها لغة أخرى تسعى إلى وصفها[125].

11.4. قيمة الغلوسيماتيّة

ماذا يمكن أن نقول عن نظرية هلمسليف التي قمنا بتقديم عام لأهمّ ما جاء فيها؟ ما مكانة الغلوسيماتيّة في إطار النظريات اللسانيّة البنيويّة وغيرها؟ تعدّدت أحكام الدارسين حول أعمال هلمسليف. يرى بعضهم بأن الغلوسيماتيّة لم تكن ذات أثر كبير في تطوير الدراسات اللسانيّة الراهنة[126]. ويقول ماريو باي "إن

---

(123) *Ibid*, p.145.

(124) آن إينو وآخرون، **السيميائية**، مرجع سابق، ص124.

(125) المرجع السابق، ص124.

(126) G. Mounin. *La linguistique au XXème siècle*, p.124.

النـزول بعلم اللغة الوصفي إلى مستوى القضايا والنظريات الرياضية الذي بدأه هلمسليف فيما سمّي بالتحليل شبه الرياضي للغة *glossématics* لا يحقّق أي منفعة لا لعلم اللغة ولا للرياضة[127]. بينما يرى البعض الآخر أن الغلوسيماتبة قد حقّقت قفزةً نوعيةً في الدراسة العلمية للظواهر اللغوية[128]، وأنها تجاوزت عصرها حين قدّمت بعض الأفكار الجديدة التي نذكر منها على سبيل التمثيل لا الحصر:

- طابع الإبداع الذي يميِّز إنتاج اللسان البشري وفهمه،
- تبنِّي المنهجية الاستنباطية،
- الدعوة إلى البحث في القضايا اللغوية العامة التي تخصّ جميع الألسن البشرية وليس لساناً محدّداً وهو ما يعرف بالكليات اللغوية *Universaux linguistiques*.
- التأكيد على الجانب المنهجي في بناء النظرية اللسانيّة.
- الاهتمام بالمضمون فيالتحليل اللساني.

ومعلوم أن هذه القضايا المنهجية لم تبرز في اللسانيّات الراهنة إلّا مع نظرية النحو التوليدي التي سينادي بها تشومسكي[129]. وثمة شيء بارز يطبع عمل الغلوسيماتيّة هو أنَّ مؤسّسها ورائدها كان شارحاً لآراء سوسير من منظور جديد في إطار قراءة جديدة قوامها الصورية والتجريد والدقّة في وضع المصطلحات لتوضيح اللبس الذي تحمله مفاهيم سوسير. إن العديد من آراء هلمسليف هي تطوير لنظريات سوسير وتصوراته التي استطاع هلمسليف أن يعيد صياغتها واستبدالها بمصطلحات جديدة أكثر صورية وتجريداً. وللتذكير، حافظت الغلوسيماتيّة على أهمّ ما جاء به سوسير خصوصاً ما يتعلق بالفكرة الجوهرية

---

(127) ماريو باي، **أسس علم اللغة**، ط8، عالم الكتب، القاهرة، 1998، ص257.

(128) Bertil Malmberg:*Les nouvelles tendances en linguistique*, p.229.

(129) انظر كتابنا: **اللسانيّات التوليدية: من النموذج ما قبل المعيار إلى البرنامج الأدنوي، مفاهيم وأمثلة.**

"**اللسان صورة وليس مادة** "*la langue est forme et non une substance*[130] والتي حاول هلمسليف أن يبرهن على صحتها معتمداً مبدأ الوظيفة/العلاقات التي تجمع بين العناصر اللغوية. إنّ أثر سوسير واضح في أعمال هلمسليف الذي غالباً ما قدّم أعماله اللسانيّة باعتبارها مكمِّلة لآراء سوسير وموضحة لها في صورة أدقّ وأشمل.

ومهما كانت حقيقة الأحكام والمواقف النقدية إزاء الغلوسيماتيّة، سواء في الرفع من قيمتها أم الحطّ منها، فإن هلمسليف كان بالغ الدقّة في تعريفاته، دقّة عالم المنطق كما يظهر ذلك جلياً في كل كتاباته. لقد لاحظ مارتينيه الصعوبة التي تتضمّنها نصوصُ هلمسليف اللسانيّة. "فمع هلمسليف يجب أن نعرف كيف نداعب التجريد لنتمكن من التمثل الفوري للعديد من التعريفات الصورية، ويتعين بالخصوص عدم نسيانها مخافة التوقّف نهائياً عن القراءة في الصفحة الموالية أو بعد عشر فقرات "[131]. وأشار رومان جاكبسون الذي كان يحضر بين الفينة والأخرى جلسات حلقة كوبنهاغن إلى القيمة العلمية للجانب المنهجي الدقيق عند الغلوسيماتيّة قائلاً: "ينبغي أن أقول إنّ النقاش في جلسات كوبنهاغن حول المنهجية، علّمني أن ألتزم دقّة كبيرة في تعريفاتي حتى لا تختلط بكيفية غير مبررة القيم المادية المطلقة بما يتعلق بها من المصطلحات النسبية الخالصة كما يتطلب ذلك أي علم دقيق[132]. وكان هلمسليف نفسه واعياً بالطابع الصوري والتجريدي الذي صاحب نظريتة والصعوبات المترتبة عن هذا الطابع الذي تتسم به أعماله حين قال: "التجريد فدية كل تحليل علمي *l'abstraction est la rançon de toute analyse scientifique*"[133]. ويبدو أن أسلوب هلمسليف وترسانته الاصطلاحية التي كان يغيرها باستمرار، غالباً ما أَرْبَكا الدارسين، فازدادت المفاهيم الغلوسيماتيّة غموضاً وإبهاماً. وبالفعل فإن كثرة مصطلحاته وتنوعها وتجريدها وطبيعتها النظرية المحضة يجعل كل متابعة لها أو مناقشتها أمراً

(130) F. de Saussure: *Cours de linguistique générale*, p.157.

(131) A. Martinet. *Au Sujet des fondements de la théorie linguistique de Louis Hjelmslev*, p.42.

(132) Roman Jakobson et Pomorska. *Dialogues*, Paris, Flammarion, 1980, p.40.

(133) L. Hjelmslev. *Essais linguistiques*, p.56.

صعباً[134]. لقد انطلق هلمسليف من اعتبار اللسان صورة وليس مادة، فقاده تصوره إلى البحث في مختلف العلاقات القائمة بين وحدات النَّسَق في مختلف المستويات، إلى اعتماد منهجية دقيقة صارمة تستند أولاً إلى فحص مبادئ التحليل اللساني من حيث هو تحليل، وتحديد الأسس الصورية التي يتعين على النظرية اللسانيّة الاتصاف بها، من حيث بناؤها العام وطبيعة تركيبها وتماسك أجزائها وانسجام استدلالاتها. وبهذا الصنيع، "كان هلمسليف أقرب إلى المناطقة (كارناب) منه إلى اللسانيين"[135]. إن الغلوسيماتيّة تجسّد عنايةً خاصةً بالشروط التصوّرية والإجرائية الضرورية لتأسيس نظرية علمية في دراسة اللغة أكثر منها نظرية تعنى بتحليل المعطيات اللغوية، وهذا ما يجعلها منهجية فريدة من نوعها في اللسانيّات البنيويّة. إنها بحث عن صورة لنظرية مجردة في التحليل اللساني في إطار بنيوي شكلي.

---

(134) Jean Piaget. *Le structuralisme*, Paris, PUF, 1968.

(135) Louis- Jean Calvet. *Pour et contre Saussure*, Paris, Payot, 1975, p.31.

الفصل الخامس

وظيفية مارتينيه

1.5. مارتينيه وسوسير:

يظل تيار حلقة براغ قائماً بعد وفاة تروبتسكوي سنة 1938، وهجرة جاكبسون وانشغاله بالتعليم والبحث الجامعي في أوروبا أولاً واستقراره النهائي بأميركا وتشتّت أعضاء الحلقة غداة غزو النازية لتشيكوسلوفاكيا واضطهادها للمفكّرين والعلماء الذين كانوا يقيمون بها. وقد ظهرت المبادئ اللسانيّة التي نادت بها حلقة براغ في حُلّة جديدة في أعمال مارتينيه[1] رائد المدرسة المعروفة

(1) تلقى أندريه مارتينيه André Martinet (1908-1999) تعليمه الأولي والثانوي في باريس ثم التحق بالسوربون ليهيئ شهادة التبريز في اللغة الإنكليزية. وكان يحضر دروس موسيه وفندريس حول اللغة الجرمانية ما بين 1928-1929 في المدرسة التطبيقية للدراسات العليا وكذا بالسوربون، ولازم أنطوان مِييه فحضر دروسه وهيأ تحت إشرافه أطروحته لنيل دكتوراه الدولة التي ناقشها سنة 1937 بعد وفاة مِييه. وقد ربط مارتينيه ما بين 1932-1938 علاقات وثيقة بحلقة براغ وخاصة بتروبتسكوي. وسمحت له إقامته بين الفينة والأخرى بالدانمارك أن يتعرف على هلمسليف ويواكب بلورة النظرية الغلوسيماتيّة. وهاجر بعد الحرب العالمية الثانية إلى أميركا ليمكث بها بين 1946-1955 فكان له اتصال وثيق بأتباع بلومفيلد وسابير. وقد وُكلت إليه رئاسة شعبة اللسانيّات في جامعة كولومبيا في نيويورك، وانضمّ إلى حلقة نيويورك اللسانيّة التي ضمّت العديد من اللسانيين البراغيين أمثال جاكبسون. وكان مارتينيه أحد المشرفين مباشرة على مجلة *Word* لسان حال هذه الحلقة. وعاد سنة 1955 إلى فرنسا حيث تولى إدارة معهد اللسانيّات ومدير الدراسات بالمدرسة التطبيقية للدراسات العليا في باريس. نقلاً عن:

Georges Mounin. *La linguistique au 20ème siècle*, Paris, PUF, 1975/1972.

بالوظيفية الفرنسية[2]، وإليه يرجع الفضل في التعريف بتصورات تروبتسكوي في مجال الصواتة. وقد شجّع مارتينيه زميله جان كانتينو (1899-1956)[3] *Jean-Cantineau* على ترجمة كتاب "**مبادئ الصّواتة**" لتروبتسكوي من اللغة الألمانية إلى الفرنسية. وقد بدأ مارتينيه حياته العلمية مهتماً بالألسن الهندية-الأوروبية والصّواتة ليوسّع بعد ذلك دائرة اهتماماته بقضايا اللسانيّات العامة. ويعدّ مارتينيه أبرز من طوّر أفكار حلقة براغ وتصوراتها (لاسيما آراء تروبتسكوي) بتطبيقها على اللسان الفرنسي. كما اقترح بعض المبادئ والقضايا في اللسانيّات العامة من منظور وظيفي. لهذا "يبدو من الإنصاف أن نجعله أو نعدّه زعيم

(2) للاطلاع الكامل على تصورات مارتينيه الوظيفية يمكن الرجوع إلى أعماله التالية:

Economie des changements phonétiques. Traité de phonologie diachronique, Berne, A. Francke, 1964/1955.

Eléments de linguistique générale, Paris, A. Colin, 1974/1960.

- **مبادئ ألسنيّة عامة**، دار الحداثة، بيروت، 1990 (ترجمة ريمون رزق الله).

La linguistique synchronique; études et recherches; Paris, PUF; 1974/1965.

Langue et Fonction, Paris, Gonthier, 1971, traduction française de: A Functional View of Language, 1962.

Le Français sans fard; Paris, PUF, 1969.

Grammaire fonctionnelle du français, Paris, Credif, 1979.

Syntaxe générale, Paris, A. Colin, 1985.

Fonction et dynamique des langues, Paris, A. Colin, 1989.

- **وظيفة الألسن وديناميتها**، دار المنتخب العربي، بيروت 1996 (ترجمة نادر سراج).

Mémoires d'un linguiste, Paris, Quai Voltaire, 1993.

éd.) *Le langage*, Paris, Gallimard, Encycl. de La Pléiade, 1968.

éd.) Linguistique: Guide alphabétique, Paris, Denoël- Gonthier, 1969.

ونشير إلى أن العديد من كليات الآداب في المغرب العربي ولبنان تضمّ باحثين درسوا اللسانيّات على يد هذا اللساني أو أتباعه في جامعة باريس 5 (رينيه ديكارت).

(3) جان كانتيو: لساني فرنسي اهتمّ باللغات السامية وخصوصاً اللغة العربية. شغل منصب كرسي اللغة العربية بمدرسة الألسن الشرقية من 1947 إلى 1956 من مؤلفاته *Cours de phonétique arabe*, Paris, Klincksiek. كما نشر العديد من الدراسات حول اللهجات العربية الحديثة في سوريا والجزائر وليبيا وغيرها. انظر:

Jean Cantineau. *Etudes de linguistique arabe.* Mémorial Jean Cantineau, Paris. Klincksieck, 1960 Comporte le cours de phonétique arabe (réimpressin de l'édition originale de 1941), suivi de notions générales de phonétique et de phonologie.

المؤيدين المعاصرين للخطّ الرئيسي لأفكار مدرسة براغ"[4]. وللتذكير فقد كان مارتينيه عضواً مشاركاً في حلقة براغ منذ بداياتها الأولى إلى جانب لسانيين فرنسيين آخرين. ويؤكّد مارتينيه نفسه على أن "اللسانيّات الوظيفية (...) تأخذ مكانها في خط الصّواتَة البراغية"[5]، لاسيما أعمال تروبتسكوي.

لاحظنا في الفصلين السابقين العلاقة الوثيقة التي تربط حلقة براغ وحلقة كوبنهاغن (الغلوسيماتيّة) برائد اللسانيّات سوسير، سواء أكان الارتباط واضحاً ومباشراً أم غير مباشر. ولم يسلم مارتينيه بدوره من تأثير سوسير. إنه يعتبر نفسه تلميذاً أميناً له[6]. وقد قال مارتينيه مرة: "لو عاش سوسير طويلاً لتوصّل إلى ما توصلتُ إليه من نتائج[7]".

ويمكننا أن نقول بنوع من الاطمئنان بأن المبادئ اللسانيّة الأساس عند مارتينيه هي أفكار سوسيرية مع تأثير واضح للمنحى الوظيفي الذي عبَّرت عنه حلقة براغ، لاسيما آراء تروبتسكوي على وجه التحديد. يقول أحد أتباع مارتينيه "الوظيفية منهجية نابعة من تصوّرات سوسير، اغتنت بالتجربة الصّواتية لمدرسة براغ"[8]. وتمثل اللسانيّات الوظيفية التي وضعها مارتينيه، ولاسيما الجانب التركيبي منها، مكانةً هامةً في تاريخ الفكر اللساني المعاصر بصفته وَجَّه وصف العديد من الألسن الطبيعية غير الفرنسية. ويقف التركيب الوظيفي في مواجهة التوزيعية الأميركية والتوليدية التحويلية على السواء[9].

---

(4) جيفري سامبسون، **المدارس اللغوية، التطور والصراع**، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1993، ص117.

(5) مارتينيه، **وظيفة الألسن وديناميتها**، ص96.

(6) *Langue et fonction*, p.35.

(7) *Séminaire d'André Martinet à la faculté des lettres de Rabat* en 1977.

استمعت شخصياً وأنا طالب بكلية الآداب بالرباط/جامعة محمد الخامس إلى المحاضرة التي ألقاها مارتينيه. وكنت وقتئذ أهيّئ بحث الإجازة في الأدب تحت إشراف الأستاذ الدكتور تمام حسان في موضوع المدارس اللسانيّة البنيويّة، وقد كلّفني الأستاذ المشرف كتابة تقرير حول ما قاله مارتينيه في هذه المحاضرة.

(8) G. Serbrat: *Cas et fonction*, Paris, PUF, p.167.

(9) *Ibid.*

وبالفعل لم يشكّك أحد في العلاقة الفكرية التي تربط مارتينيه بهذه التصوّرات لاسيما علاقاته المنهجية بمؤسّس اللسانيّات. ويمكن أن نشير إلى بعض الأفكار المحورية في اللسانيّات العامة عند سوسير التي أعاد مارتينيه التأكيد عليها، وهي على سبيل المثال لا الحصر:

أولاً: اعتبار اللسان ظاهرةً اجتماعية، وهي كما نعرف فكرة محورية في تصوّر سوسير للسان. هذا المنظور الاجتماعي للسان دفع مارتينيه ليؤكّد على الوظيفة الأساس للسان التي هي التواصل[10]. إن البحث اللساني الملائم هو الذي ينظر إلى الملفوظ بوصفه حدثاً لغوياً يحمل في ذاته دلالة محدّدة وتامة. "فوحدها العناصر التي تحمل المعلومات ترتبط باللسانيّات"[11].

ثانياً: التمييز بين اللسان والكلام: إنّ اللسان هو النسقُ نفسه، وهو معطى مجرد فوق الأشخاص، بينما الكلام تحقيق للسان، مؤكّداً بدوره على علاقة التلازم التي تجمعهما كما فعل سوسير من قبل. وإذا كان الكلام ظاهرة فردية فإنّ اللسان ظاهرة اجتماعية، وكلاهما ضروريّ للآخر. "يجعلنا هذا التمييز ـ المفيد جداً بين اللسان والكلام ـ نعتقد بأن للكلام تنظيماً *Organisation* مستقلاً عن اللسان نستطيع معه تصوّر وجود لسانيّات الكلام إلى جانب لسانيّات اللسان، في حين يجسّد هذا الأخير فقط تنظيم اللسان الذي نتعرف عليه من خلال دراسته. وللوصول إلى ذلك، ينبغي إلغاء كل ما في هذا الأخير (الكلام) من رنّة صوت خاصّة غير لسانيّة، أي لا تدخل في العادات الجماعية المكتسبة خلال تعلم اللسان"[12]. وقد أدرك أندريه مارتينيه الإشكال الذي تثيره علاقةُ اللسان بالكلام، وما يترتّب عنها

---

(10) *Eléments de linguistique générale*, p.9.

(11) **مبادئ ألسنيّة عامة**، مرجع سابق، ص38.

(12) المرجع السابق، ص31، ونشير إلى أننا غيرنا بعض المصطلحات مثل "لغة" و"ألسنيّة" الواردة في الترجمة لهذه الفقرة بـ"لسان" و"لسانيّات"، حتى يحصل نوع من الانسجام مع باقي المصطلحات التي استعملناها منذ البداية ممّا يسهل عملية القراءة والمتابعة بالنسبة إلى القارئ العربي.

من لبس وغموض في فهم أفكار سوسير وتوظيف مغلوط لها. يقول مارتينيه في هذا الصدد: "يمكن أن يُفْهَم من التمييز الضروريّ جداً بين اللسان والكلام أنّ الكلام يملك تنظيماً مستقلاً عن نسق اللسان، ممّا يجعلنا نتصور وجود علم خاص بالكلام مقابل علم خاص باللسان. غير أنه يجب الاقتناع بأن الكلام لا يعمل سوى على تحقيق نظام (نسق) اللسان؛ إذ لا يمكن الوصول إلى معرفة اللسان إلّا بالكلام والسلوك الذي يحدّده عند المتكلمين"[13]. وفي مكان آخر، أعطى مارتينيه التقابل الذي أقامه سوسير بين لسان وكلام تأويلاً آخر يتلاءم مع اهتماماته كعالم صِواتة ومناولته للمادة الصوتية باعتماد المعطيات الملموسة وليس شيئاً آخر. يقول مارتينيه: "أستبعد شخصياً التقابل السوسيري بين لسان/كلام. إننا نواجه ظاهرة مدركة، هي الكلام إضافة إلى سلوك الكائنات الحية التي تتبادل الكلام وهذا عنصر مدرك يجدرُ بنا الانطلاق بدءاً منه، والاستبطان ليس مسلكاً جديراً بالاحترام في البحث العلمي (....) ليس ثمة اللسان والكلام. ثمة الكلام، ومن ثم العناصر التي لها في الكلام ملاءمة للسان موضوع البحث"[14]. وقد يصطلح مارتينيه أحياناً على تسمية اللسان بشفرة *code* والكلام بخطاب *discours*[15].

ثالثاً: اعتبار اللسان نسقاً من العناصر ينبغي دراسة طبيعتها ووظيفتها وعلاقتها المتبادلة، لأن النَّسَق"بنية" يترابط فيها الكل.

رابعاً: التمييز الأساسي بين الوصف التزامني والوصف التعاقبي. إلّا أن مارتينيه وعلى منوال حلقة براغ (لاسيما جاكبسون) حاول أن يتجنّب كل قطيعة صارمة بين المنهجين اللذين يعتبرهما مختلفين، ولكنهما في الوقت ذاته متكاملان. و"يبدو لَهُ منطقياً، أنه يتعين الابتداء بدراسة الأداة ـ اللسان ـ في وظيفتها قبل أن نبحث كيف ولماذا تتغيرُ هذه الأداة خلال الزمن. وينبغي أن نتذكّر بأن الألسن تتطور دون أن تتوقّف عن عملها. وقد يكون

(13) *Eléments de linguistique générale*, p.25.

(14) مارتينيه، **وظيفة الألسن وديناميتها**، مرجع سابق.

(15) *Eléments de linguistique générale*, p.25.

اللسان الذي ندرس وظيفته في حالة تطور، وفي هذه الحالة، نتساءل: هل من الممكن أن نفرق بين دراسة الوظيفة ودراسة التطور؟[16].

خامساً: إنّ الوصف اللساني كما يراه مارتينيه، لا يكون مقبولاً من الناحية العلمية إلّا إذا كان منسجم الأطراف، ومتناولاً من وجهة نظر معينة محدّدة. يقول: "لا يمكن أبداً إدراك إلا جانباً واحداً (من اللسان)، يتغير بحسب الكيفية التي يتناول بها هذا الموضوع (. . . .). والخطوة الأولى للفكر العلمي الذي يستحقّ هذه الصفة، هي بالضبط تحديد وجهة النظر التي تُتَناول من خلالها الوقائع القابلة للملاحظة. ولكي نمارس اللسانيّات، لا يتعلق الأمر بفحص وقائع اللسان دون منهج محدّد أو بحسب منهج مستخلص بالصدفة، مختلف من باحث إلى آخر، وإنما بتحديد مبدإ قائم الذات أولاً وقبل كل شيء، وزاوية تحديد رؤية لسانيّة خالصة تسمح وحدها بضمان الوحدة الداخلية للسانيّات من جهة، وتضمن من جهة ثانية، الاستقلال النهائيّ لهذا العلم ضمن علوم الإنسان الأخرى"[17]. ونظراً لكون اللغة ظاهرة معقّدة المستويات ومتفاوتة الأهمّية بالنسبة إلى الواصف اللساني، فإن الأساس في الوصف، هو اعتبار اللسان أداةً للتواصل يُتَناول من وجهة الوظيفة التي يقوم بها، وكذا وظيفة كل عنصر في بنية الجملة.

2.5. لسانيّات واقعية

لا تشكّل وظيفية مارتينيه نموذجاً عاماً مُحَدداً وجاهزاً لوصف الألسن على غرار ما هو موجود في النماذج التوليدية، بل هي مقاربة واقعية إلى حدّ كبير تهتمّ أساساً بالوقائع اللغوية كما هي دون تجاوزها. وتندرج اللسانيّات الوظيفية في إطار اللسانيّات الاختبارية التي تنبذ بقوة كل ما يتعلّق بما هو نظري عام". ينبغي أن لا تخدعنا مفردة لسانيّات عمومية/ كلية *linguistique universelle*[18]. ولكن

(16) *Ibid*, p.28-29.

وانظر الفقرة المخصّصة في هذا الفصل للوصف التعاقبي عند مارتينيه.

(17) *Au sujet des fondements d'une théorie linguistique*, Paris, Republications Paulet, 1968, p.20.

(18) مارتينيه، **وظيفة الألسن وديناميتها**، ص30.

هناك "لسانيّات لسان ما" فحسب. فما هو مشترك بين الألسن أمر مستحيل[19]. ويتحصّن مارتينيه وراء دعوة قوية لاعتماد معاينة الوقائع اللغوية معاينةً مباشرةً خاصة بكل لسان على حدة. فليس هناك "**اللِّسانُ**" *La langue* ولكنْ هناك "لسانٌ ما"، وبين المفهومين فرق لا يمكن تجاوزه. فالوقائع اللغوية المطلوبة للتحليل اللسانيّ وقائع تتعلقُ بلسان خاص بالدرجة الأولى، وليس باللغة البشرية كما في نظرية النحو التوليدي التحويلي وعند بعض أقطاب اللسانيّات البنيويّة الذين يشاركون مارتينيه في أسس اللسانيّات البنيويّة والوظيفية في خطوطها العامة أمثال جاكبسون وبدرجة أقلّ هلمسليف.

تقوم اللسانيّات الوظيفية عند مارتينيه على جملةٍ من المبادئ العامة نجملها فيما يلي[20]:

- الوصفيّة الواقعية،
- رفض البُعْد النظريّ العام،
- رفض الشكلانية تحليلاً وصياغة،
- اعتماد الوظيفة مقياساً للتحليل اللساني،
- التأكيد على دينامية اللسان.

وتحضر هذه المبادئ بشكل ملحوظ في مجموع كتابات مارتينيه يقودها مبدأ محوري هو "مبدأ الوظيفة". فكلّ لسان يسعى دائماً إلى إشباع حاجاتنا التواصلية والتعبيرية مهما تنوّعت وتعدّدت ومهما اختلفت عبر الأزمان. لا يتوقف اللسان، حتى وهو يتغير، عن الاشتغال وتلبية مطالب التواصل بإكراهاته المختلفة وسياقاته المتعدّدة. إنه باختصار شديد دينامية متجدّدة على الدوام لا تتوانى في اتخاذ التواصل والتفاهم بين المتكلمين هدفاً أوّلاً وأخيراً. وتتجسّد الدينامية اللغوية في الجانب التاريخي والتطوري للسان. والتحليل اللساني المناسب هو القادر على

(19) *Grammaire fonctionnelle du Français*, p.3.

(20) مارتينيه، **وظيفة الألسن وديناميتها**، ص25 بتصرف.

رصد الدينامية التي تحقّق التواصل على نحو ملائم بين المتكلمين. وعلى كل دراسة ترغب في الإمساك بهذه الدينامية أن تعانق الوقائع اللغوية، وتقتفي آثارها في البنيات اللغوية التي تنقل بنسبة مختلفة ملامح متفاوتة من تجربة المتكلمين، وهو ما يمكن القيام به انطلاقاً من ثلاثة مفاهيم محورية في اللسانيّات الوظيفية عند مارتينيه، وهي:

- البنية
- الوظيفة
- الاقتصاد.

وقد قادته هذه الواقعية إلى رفض كل ما هو تنظيريّ مؤسس على منطلقات فلسفية تربط اللسانيّات بوضعية فكرية معينة، وتفرض عليها إطاراً كلّياً يتجاهل دينامية الوقائع اللغوية وخصوصية الألسن، ويزجّ باللسانيّات في غياهب الفرضيات والمبادئ العامة والبحث عن كلّيات ليس لها ما يدعمها أو يؤكد وجودها في الواقع اللغويّ. ويعني هذا الأمر في نظر مارتينيه ضرورة الابتعاد عن المبادئ الفلسفية التي توجّه العمل اللسانيّ والتخلّص منها، "لقد حان الوقت لكي يعي اللسانيون باستقلالية مجالهم وأن يتخلّوا عن مركّب النقص الذي يدفعهم إلى ربط كل خطوة من خطواتهم بأي مبدإ فلسفي كبير، وهو ما لا يمكن أبداً من تغطية مكوِّنات الواقع"[21]. وليس للسانيّات أن تتقيد بعلوم أخرى ذات ملاءمة مغايرة وشروط مختلفة عَمَّا هو ملائم في اللسانيّات. وليس من الضروري أن نُولي الإطار النظري أهمّية، وننشغل به ونتغاضى عن أهمّية الوقائع اللغوية ودورها. "لقد رَوَّجْنا في أوساط الأَلْسُنيين للرؤية القائلة إنه لا معاينة للوقائع مشروعة إلّا من ضمن إطار نظري معين مسبقاً، لدرجة أن كل باحث يحترم نفسه قَدَّرَ أنه ينبغي عليه، وقبل كل شيء أن يشكّل الإطار الخاص به، الأمر الذي يعبئ كل جهده ولا يدع له سوى قليل من الوقت كي يخصه للمعاينة نفسها[22]".

(21) المرجع السابق.
(22) المرجع السابق، ص29.

ومن هنا يتخلى مارتينيه طواعيةً عن أي إعداد نظري أو بنائه يتجاوز ما هو ضروري لملاحظة الوقائع اللغوية وتصنيفها بشكل ملائم[23].

أمام هذا التعارض بين التصوّر الفرضيّ والاختباري *empirique* الذي تعيشه اللسانيّات المعاصرة، يطرح مارتينيه سؤالاً منهجيًّا على جانب كبير من الأهمّية يحدّد تصوره الواقعي للتحليل اللساني: "هل باستطاعتنا أن نؤسس اللسانيّات على معاينة المُعطيات للكلام وللسلوك البشري المترابطة الممكنة معاينتها، أم ينبغي أن نقدم منطلقاً فرضية ستصبح بالضرورة ذات قِيْمة نفسية، وذلك بالنسبة إلى ما نشير إليه على أنه اللسان؟"[24]. وحتى ملاحظة الوقائع اللغوية يجب أن تكون ملاحظة وظيفية بمعنى أنها تستهدفُ الوقائع التي يكون لها دور في تلبية حاجات المتكلمين التواصلية في المقام الأول. إنّ موضوع اللسانيّات بحسب مارتينيه ليس تتابع الأصوات التي يمكن تسجيلها بواسطة آلات التسجيل أو الأفكار التي تتمّ في ذهن المتكلم، ولكنّ الموضوع في اللسانيّات هو السلوك اللغويّ عند المتكلم في مقام معين ورد فعل السامع أو السامعين إزاء خطابه[25]. ولا يختلف مارتينيه هنا عن التوزيعيين الأميركيين، بل إننا نجد تقارباً كبيراً بين ما نقلناه عن مارتينيه وما ذكره بلومفيلد في كتابه **اللغة** كما سنرى ذلك في حينه[26]. بالنسبة إلى مارتينيه لا مجال للحديث عن النظرية دون فهم معمّق لاشتغال الآلة أولاً. "إن هذه الاعتبارات العامة هي التي دفعتنا في نطاق اللسانيّات الوظيفية إلى إقصاء الفرضية حيث هي ضرورية"[27]. ولا يمكن بحسب مارتينيه "الحديث عن الفرضيات إلّا في إطار اللسانيّات التاريخية"[28]، لأن هذه الأخيرة وحدها تتيحُ جمع معطيات لغوية وتسمح بمعاينة شاملة كافية لاستخلاص التعميمات؛ ووضع الفرضيات حول تطور ظواهر لغوية مُعَيَّنة؛ أو بالنسبة إلى نسق لسان خاص. ولم يُخْفِ مارتينيه يوماً واقعيته في التحليل اللساني الوظيفي وحماسته

---

(23) *Grammaire fonctionnelle du français*, p.3.

(24) مارتينيه، **وظيفة الألسن وديناميتها**، ص29.

(25) *Grammaire fonctionnelle du français*, p.3.

(26) انظر الفصل الأول من الباب الثالث من هذا الكتاب.

(27) مارتينيه، **وظيفة الألسن وديناميتها**، ص30.

(28) المرجع السابق، ص30.

مخالفاً بذلك أقرب الوظيفيين إليه مثل جاكبسون، مشيراً إلى أنه ينبغي تفادي استعمال مفاهيم مثل الغائية *téléologique* وهي المفهوم الذي استعمله بكثرة جاكبسون، والابتعادَ عن تصوّرات نظرية مماثلة، في إشارة واضحة إلى رفض مارتينيه، مفهوم السِّمات المميزة عند جاكبسون المعروفة بالمثنوية *binarisme*[29] ورفضه المطلق لمفهوم الكلّيات اللغوية *Universaux* إذ "ليس ثمة على حد تعبيره كليات خارج ما هو متضمّن في تعريفنا للسان"[30]. وتكون الألسن مختلفة ليس فقط لأن الأصوات التي تقابل هذه التجربة/الواقع أو تلك مختلفة، وإنما لكون العوالم الخارجية التي تتلقى تسميات مختلفة ليست هي نفسها بالنسبة إلى المتكلم أو يمكن تصوّرها لغوياً بكيفية مختلفة. "ومن الأفضل بحسب مارتينيه، أن نتقيد بالوقائع اللغوية وأن نحترمها بأن نرجع مباشرة إلى الواقع"[31]. ويكرر مارتينيه القول مؤكداً: "نحن لا نعمل إلا بوقائع قابلة للملاحظة يكون تمحيصها دائماً ممكناً، وهو ما يطابق المثل العلمي"[32]. فاللسانيّات الوظيفية تنطلق من الوقائع اللغوية لاستخراج النسق الداخلي للسان، و"ليس المهمّ أن نضع على الظواهر وَسْماً مُحَدَّداً، ولكنّ المهمّ أن نلاحظ ونؤول الصيرورات تأويلاً جيداً"[33]، وكلما كان التحليل اللساني بعيداً عن الفرضيات كان ذلك أفضل. إن ما سبق ذكره لا ينفي كون المفاهيم الوظيفية مثل الصوتة والكُلْمات بأنواعها وخطوات التحليل مثل مبدإ الاستبدال قابلة للتطبيق في أي لسان، ويختلف تحقيقها بحسب خصوصية كل لسان على حدة ونوعيته. فالمنظور الوظيفي منظور تعميمي دون أن يكون كلياً[34].

وفي مجال الصواتة، تعتمدُ اللسانيّات الوظيفية عملية الاستبدال بوصفها أساس المُعاينة اللغوية"[35]، لأنها "تتيح لنا مقاربة الوقائع اللغوية دون حاجة

---

(29) *Economie des changements phonétiques*, p.73-74.

(30) مارتينيه، **وظيفة الألسن وديناميتها**، ص242.

(31) *Economie des changements phonétiques*, p.18 et p.14.

(32) *Ibid*, p.14.

(33) *Ibid*, p.18.

(34) Colette Feuillard. «Le fonctionnalisme d'André Martinet», in *Linguistique* 2001/1-37, Paris PUF, p.6.

(35) مارتينيه، **وظيفة الألسن وديناميتها**، ص32.

إلى الفرضية والاستبطان"[36]، مستبعدة أيضاً أي اعتماد على الحدس اللغويّ، لأنّ اللجوء إليه ليس معمولاً به من الناحية العلمية[37]. ومن الممكن "أن نقيم على أساس الاستبدال تراتبية للوقائع اللغوية" يقول مارتينيه: "فالبرهان الذي يحمله الاستبدال (...) لا يستدعي حدس اللساني، بل بالأحرى معاينة سلوك المتكلّمين"[38]. ومعلوم أن مبدأ الاستبدال يقضي تعويض عنصر بآخر من المستوى نفسه يترتّب عنه تغيير في المعنى.

وترتب عن هذا النزوع القوي نحو ما هو واقعيّ ملموس رفضُ مارتينيه التوجهَ القائم في اللسانيّات نحو البحث في الكلّيات اللغوية وصياغة القواعد العامة، التي اعتبرها " مغامرة لا أحد يدري إلى أين ستصل باللسانيّات"، لكنّ المؤكد بالنسبة إليه هو أن منطلقها غير مؤسَّس علميًّا، لأن الانتقال من معاينة الواقع اللغويّ إلى التعميم لا يستقيم، لأنه انتقال تعسّفي ومفاجئ. إن الإجراءات الوصفيّة من الناحية المنهجية لا تسمح بذلك. "إننا لسانيون، ونحن نملك الوسائل لمعاينة اللسان. سنقوم إذاً بمعاينة الألسن وجمع الوقائع، وعلى كل، فاستناداً إلى هذه الأسس الاختبارية لحد ما، نخاطر في أن نخلص إلى عمومية وقائع معينة لأننا ببساطة وقفنا عليها في لسانين أو ثلاثة ألسن، وهذا خطر معتبر جداً. إنها واحدة من مآسي اللسانيّات المعاصرة حيث لم نعد نقتصر على الألسن الواسعة الانتشار[39]".

وفي غياب الوقائع يصبح البحثُ اللساني شيئاً آخر. إنّ اللسانيّات الوظيفية تهتمّ أساساً بالوقائع اللغوية الخاصة بلسان محدّد بذاته ولذاته" وصولاً إلى النسق. يقول مارتينيه: "ونحن منذ أولينا الألسن الكبرى اهتمامنا بوجه عام، توسّلنا الاستقراء منهجاً". ولا يرفض مارتينيه المنهج الاستنباطي في الممارسة العلمية، "فإذا أردنا أن نغطي مجموع الوقائع اللغوية لَمَا أُتيح لنا أن نتوسل إلى ذلك بالاستقراء، يفترض بنا في لحظة معينة أن نتوسل الاستنباط[40]". وأمام

(36) المرجع السابق، ص32.

(37) *La linguistique synchronique*, p.64.

(38) مارتينيه، **وظيفة الألسن وديناميتها**، ص32.

(39) المرجع السابق، ص32.

(40) المرجع السابق، ص33.

هذا العجز يمكن الاستعانة بالاستنباط، ولكن ليس الاستنباط القائم كلياً على الفرضيات بل "ينبغي أن نؤسس استنباطاً على أساس تجريبي، على أساس المعاينة"[41]، وتأسيساً على ما سبق، فليس موضوع اللسانيّات في لسانيّات مارتينيه هو الألسن الطبيعية في كلّيتها وشموليتها ولكنه "لسان محدّد" وهو الذي يمدّنا بوقائع لغوية. أما "اللسان بصيغة العام فهو غير موجود، على الإطلاق، هناك اللغة الإنسانية وهذه الأخيرة تمثل الألسن بصيغة الجمع"[42].

أدرك مارتينيه جيداً مغزى الانتقادات الواسعة التي وُجِّهت إلى أعماله الوظيفية التي تتعامل مع القضايا اللغوية بواقعية مفرطة تصل أحياناً إلى مستوى الواقعية الساذجة التي لا تختلفُ عن الحسّ المشترك. وقد رفض مارتينيه في تحليلاته استعمال ما هو شكلي أو اللجوء إليه، سواء من الناحية التصوّرية أم الإجرائية، وهو ما ميَّزه عن باقي اللسانيِّين المعاصرين، بنيويين كانوا أم توليديين تحويليين. وتجد الواقعية التي يدعو إليها مارتينيه سندها في الوظيفة الأساس للسان المتمثلة في التواصل. فالواقعي "*réaliste*" و"الواقعية" *réalisme* عنده" تقابل في اللسانيّات البنيويّة "الشكلاني *Formaliste*، وليس المثالي *idéaliste* كما قد يتبادرُ إلى الذهن لأول وهلة. فاللسانيّ الذي يرى أن للصوتة وجوداً نفسياً هو واقعيّ مثله مثل الباحث الذي يسند للصوتة واقعاً عصب-عضلياً *neuro-musculaire*، أمّا الشكلاني فهو الذي يرى في الصوتة أو أي وحدة لسانيّة أخرى، شبكة من العلاقات. بالنسبة إليه فإن الوحدة /p/ في *papier* (ورقة) تحدّدها التوليفات *Combinaisons* التي يمكن أن توجد فيها داخل سلسلة الملفوظ، أما الوقائع الصوتية العضلية أو النفسية المقابلة فهي لا تهمُّ الشكلانيين، بينما الأمر يختلف في الواقعية ما قبل البنيويّة التي تختار بالصدفة عناصر من الواقع. وترتب اللسانيّات البنيويّة الواقعية الوقائع القابلة للملاحظة حسب تراتبية قائمة على أساس الوظائف التواصلية لهذه الوقائع[43]".

يلتزم مارتينيه في اختياره المنحى الوصفي الواقعي، بالمبادئ التي جاءت

(41) المرجع السابق، ص34.
(42) المرجع السابق، ص34.
(43) *Economie des changements phonétiques*, p. 31, note 25.

بها اللسانيّات في صورتها الجديدة. "فالثورة الكبرى للسانيّات تمثّلت تحديداً في التشديد على الوصف[44]". ويحدّد مارتينيه هدف الوصف اللساني في كونه توضيح ما يجعل من اللسان الواحد مختلفاً عن باقي الألسن، لأن الفكر والإدراك وأعضاء النطق وأنماط الكلام تظهر هي نفسها بالنسبة إلى جميع البشر. إن ما يجعل اللسان الواحد مختلفاً عن غيره هو كيفية اشتغال عناصره ومساهمتها في التواصل. "إن أولى مهام اللسانيّات هي دراسة هذه الألسن التي هي قبل كل شيء أدوات تواصل. فعلينا أولاً دراستها في عملها وتحديد الطريقة التي يعالج بها كل لسان التجربة البشرية في مدلولاتها التي تستخدم من خلالها الإمكانات التي توفّرها أعضاء الكلام[45]".

ويبدو جلياً في كتابات مارتينيه، أن وجهة نظره الوظيفية هي التي حدّدت منهجيته البنيوية والعكس صحيح. فالوظيفة عنده مرتبطة بتحديد ماهية اللسان نفسه، وهي معيار الواقع اللغويّ، الذي يتعين على اللساني وصفه. وكل عنصر يحدّد بالقياس إلى ملاءمته التواصلية التي تضمن أن الملفوظات اللغوية تحلل بالعودة إلى الطريقة التي تؤدّي بواسطتها إلى سيرورة التواصل. إن اختيار وجهة النظر الوظيفية يستمدّ من الاعتقاد الراسخ بأن كل بحث علمي يتأسس على إثبات ملاءمة ما. والملاءمة التواصلية هي التي تسمح بشكل أفضل بفهم دينامية لسان مُحَدَّد. وستصبح كل السمات اللغوية إذاً قبل سواها مُبْرَزَة ومُصنّفة استناداً إلى الدور الذي تلعبه في إيصال الخبر[46]. "ويدلُّ التواصل في أبسط معانيه على نقل المعلومات، وهو ما يفترض أن العناصر اللغوية تساهم في نقل خبر محدّد أو لنقل تجربة معينة. إنّ التواصل اختيار *choix* ضمن الإمكانات التي تسمح بها العناصر اللغوية وهي تتقابل فيما بينها. وليس هذا الاختيار دائماً اختياراً واعياً، ولكنه مرتبط بقيمة الإرسالية ومُكوّناتها من صوتات وكُلْمات. ويصدق هذا الاختيار بالنسبة إلى المتكلم والسامع على السواء. "فمن الواضح أن كل

(44) مارتينيه، **وظيفة الألسن وديناميتها**، ص32.

(45) *Langue et fonction*, p.8 et p.15.

(46) مارتينيه، **وظيفة الألسن وديناميتها**، ص96-97.

الاختيارات التي يقوم بها المتكلم في كل نقطة من الكلام ليست مجانية. إنّ طبيعةَ التجربة المقصود إيصالها هي التي تؤدّي به بالتأكيد إلى اختيار /*bon*/ (جيد) بدل /*Movéz*/ (سيّئ) أو /*bier*/ (جَعَة) بدل /*limonad*/ (مشروب غازي)، (....) والقول بأن السامع يفهم اللسان الفرنسيّ يعني من خلال التجربة معرفة الاختيارات التي كان على المتكلّم أن يقوم بها. ورؤية اختيار في /*bon*/ يختلف عن/*ün*/ و/*bier*/. وليس بمستبعد أن يكون اختيار /*bon*/ بدل /*movez*/ قد أثَّر في تصرفه"[47].

فالملاءمة *Pertinence* والتقابل والاختيار مفاهيم مترابطة يقتضي بعضها بعضاً، وكل وحدة لغوية تفترض اختياراً بين عناصر تتقابل فيما بينها وهو ما يجعل هذه الوحدة أو تلك ملائمة من وجهة التواصل[48]. تدرس الأصواتية الأصوات اللغوية دون أن تهتمّ باللسان الذي تنتمي إليه هذه الأصوات، بينما تدرسها الصِّواتة باعتبار وظيفتها في هذا اللسان، "ولن تكون الصِّواتَة" سوى الأصواتية من وجهة وظيفية بنيويّة"[49]. فالوظيفة بهذا المعنى إذن هي قاعدة كل تعامل حقيقي ومفيد مع الوقائع اللغوية التي يسعى اللساني إلى وصفها.

إلّا أن مفهوم الوظيفة وحده لا يكفي في الوصف اللساني، وإنما يرتبط بمفاهيم أخرى لا تقلّ عنه أهمّية. إن المنهجية الوظيفية مرتبطة بدراسة البنية، حيث تتحدّد كل وحدة من وحدات النسق بواسطة العلاقات التقابلية. وتختلف هذه العلاقات المتبادلة بين الوحدات المُكوِّنة للبنية من لسان إلى لسان، وتعني في الوقت نفسه تحكم الكل في الأجزاء، بحيث لا يمكن تحديد وظيفة العنصر الواحد إلا بالنظر إلى الوظيفة أو الوظائف التي تقوم بها العناصر الأخرى داخل البنية، وبالتالي يتضح عند مارتينيه الارتباط بين البنية والوظيفة، لأن "وجهة النظر البنيويّة تقتضي وجهة نظر وظيفية"[50].

---

(47) مبادئ ألسنيّة عامة، ص32-33.

(48) Colette Feuillard. «Le fonctionnalisme d'André Martinet», p.7.

(49) *La linguistique synchronique*, p.42.

(50) Enrico Arcaini. *Principes de linguistique appliquée*, p.149.

3.5. اللسان أداة للتواصل

يظهر التصوّر الوظيفي بوضوح في تحديد اللسان عند مارتينيه: "إنه أداة للتواصل تحلّل بواسطتها التجربة الإنسانية وبشكل مختلف بحسب كل جماعة، إلى وحدات ذات محتوى دلالي وتعبير صوتي وهي الكُلْمات *monèmes*. ويحلّل التعبير الصوتي بدوره إلى وحدات مُمَيِّزة ومتتابعة هي الصوتات تكون غير محدودة العدد في كل لسان وتختلف طبيعتها وعلاقتها المتبادلة بين لسان وآخر"[51]. وقد أثار هذا التحديد جدلاً واسعاً نظراً لما تضمّنه من مفاهيم محورية في منهجية مارتينيه الوظيفية. ومن هذه المفاهيم: الوظيفة والصوتة والكُلْمَة والتمفصل المزدوج علاوة على بعض التعبيرات التي صاحبت هذه المفاهيم التي اعْتُبِرت مُشْكِلةً حتى بالنسبة إلى مارتينيه نفسه مثل: "اللسان أداة" ومفهوم "التواصل" ومفهوم "التجربة الإنسانية". وغير ذلك". ورفعاً لكل لبس، حاول مارتينيه شرح الأبعاد التصوّرية للمفاهيم المرتبطة بتحديد اللسان البشري.

- **التواصل**: والمقصود به التواصل بواسطة اللسان، وليس شيئاً آخر، نظراً لأن "ثمة وسائط اتصال أخرى هي الحافلات الكهربائية والأوتوبيسات والقطارات. وعلينا بالطبع أن نحدّد بدقّة أن "اتصال" هنا تتضمّن الاتصال الإبلاغي"[52]. ويتطلب التواصل اللغويّ أناساً نتواصل معهم. و"عندما نقول "التواصل" فنحن لا نحيل بالضرورة على عبارات إثباتية. والحاجة إلى الاتصال بالآخرين يمكن أن تتخذ شكل أمر، وغالباً ما تكون حاجات التواصل الأكثر إلحاحاً هي نفسها التي تنتقل بواسطة الأوامر، ويمكن للحاجة للاستعلام أن تتخذ شكل سؤال أيضاً، ذلك أن نقل تجربة ما يعني إعلام الغير بشيء موجود في داخلنا"[53]. وواضح أن ثمة وظائف أخرى للتواصل، "غير تلك التي تُؤَمِّن التفاهم المتبادل، فهو يصلح بالدرجة الأولى كركيزة للفكر إلى حد نتساءل معه إذا ما كان النشاط الذهني الذي ينقصه إطار اللسان يستحقّ تسمية فكر، (...)

(51) *Eléments de linguistique générale*, p.20.

(52) مارتينيه، **وظيفة الألسن وديناميتها**، ص36.

(53) المرجع السابق، ص59.

من جهة ثانية يستخدم الإنسان لسانه للتعبير عن ذاته أي لتحليل ما يشعر به دون الانشغال بإفراط بردَّات فعل سامع محتمل، ويجد فيه في نفس الوقت وسيلة لإثبات ذاته لذاته دون أن يرغب في الإفضاء بشيء، يمكننا أيضاً التحدث عن وظيفة جمالية يصعب تحليلها إذ ترتبط بدقة بوظائف التواصل والتعبير"[54]. وطبيعيّ أن الإلحاح على وظيفة التواصل لا يعني أبداً التقليل من أهمّية الوظائف الأخرى أو إهمالها.

لكنّ الوظيفة الأولية والرئيسة للسان هي وظيفة التواصل والتفاهم المتبادل بين أفراد الجماعة اللغوية الواحدة، وهذا هو ما يهمّ اللساني بالدرجة الأولى. وغنيّ عن الإشارة أن التواصل يقتضي مقاماً يندرج فيه ويأخذ منه قِيَماً أخرى:

- مع من نتواصل؟ ما مستواه المعرفي؟ ما انتماؤه الاجتماعي؟ ما علاقتنا به؟
- حول ماذا نتواصل؟ أي ما موضوع التواصل؟
- بماذا نتواصل؟ أي ما المستوى اللغويّ المستعمل في التواصل؟

فهذه الأسئلة وغيرها باتت تعتبر تقليديةً في هذا الباب، وهي حاسمة في تحديد طبيعة التواصل، لأنها تحمل العديد من المعلومات التي لا تقل أهمّيةً عما يحمله الخطاب اللساني نفسه.

- **اللسان أداة**: استعمال لفظ الأداة هنا" مجازي، أما والحال هذه، فالأداة تعني لمعظم الناس مطرقة أو منشاراً، ولا يمكن أن يسمّى اللسان أداة. إنه أكثر تعقيداً بكثير من ذلك"[55].

- **التجربة الإنسانية**: هي كل ما يشعر به المرء ويدركه (...) وهذه التجربة في ذاتها لا تهمّ اللساني لأنها تختلف من لسان إلى لسان، إلا بمقدار ما يمكن أن يستخرج منها بواسطة اللسان ويتمكن اللساني من الوقوف عليها[56]. ويقتضي

(54) **مبادئ ألسنيّة عامة**، ص14 .

(55) المرجع السابق، ص36.

(56) المرجع السابق، ص38. يناقش مارتينيه كلمة *expérience* مشيراً إلى الفرق الدلالي بينها وبين نظيرتها في اللغة الإنكليزية حيث تقابل لفظ «الخبرة». وأما مفهوم تجربة =

نقل التجربة لغوياً تحليلها وفق خصوصية كل لسان[57]. ويسجل بعض الدارسين التناقض البيِّن الذي يسقط فيه مارتينيه. فهو من جهة يدعو إلى الاهتمام باللسان في واقعيته وواقعه اليومي لنقل التجارب الإنسانية، لكنه من جهة ثانية يُقصي كل إحالة أو تعامل مع المجتمع الذي يتكلم هذا اللسان. فمفهوم المجتمع عنده مؤمثل *idéalisé* يستشفّ منه أنه مجتمع يخلو من الصراعات ومن علاقات القوى بين أطرافه. إنّ المجتمع في تصوّر مارتينيه وبكل بساطة وسذاجة هو المقابل للفرد أو هو مجموع الأفراد الذين يشكلونه[58].

4.5. التمفصل المزدوج

يكشف تعريف اللسان السابق أنّ بنية اللسان التي هي هدف الوصف اللساني تنبني على مستويين:

- مستوى الوحدات الدالة على معنى وهي الكُلْمات
- مستوى الوحدات المميزة التي لا معنى لها وهي الصوتات

وقد عالج مارتينيه اللسان تزامنياً وتعاقبياً في المستوى الصِّواتي والتركيبي من منظور وظيفي بنيوي يرتكزُ على مفهوم محوري في اللسانيّات الوظيفية هو مفهوم التمفصل المزدوج *Double articulation* الذي يعدّه مارتينيه ملمحاً مميزاً للألسن الطبيعية عن غيرها من الأنساق التواصلية. فما يعرف عادة باللغات، مثل

= في اللسان الفرنسي لا تستقصي أبداً وكلياً القيمة التي أسبغها عليها هنا، والأحرى أن مصطلح «خِبْرة» الإنكليزي هو الذي يوافق ما أرغب تحديداً في قوله. **وظيفة الألسن وديناميتها**، ص36.

(57) للوقوف على كل الجوانب المتعلقة بهذا التعريف نشير إلى أن مارتينيه خصّص عدة صفحات من كتابه **وظيفة الألسن وديناميتها** (ص 35-46) لشرح تعريف اللسان الوارد في كتابه **مبادئ ألسنيّة عامة**، ونذكر به من جديد لأهمّيته: "اللسان أداة للتواصل تحلل بواسطتها التجربة الإنسانية بشكل مختلف بحسب كل جماعة، إلى وحدات لها محتوى دلالي وتعبير صوتي وهي الكُلْمات. ويدخل تحليل التعبير الصوتي بدوره إلى وحدات مميزة ومتتابعة هي الصوتات تكون غير محدودة العدد في كل لسان، وتختلف طبيعتها وعلاقتها المتبادلة بين لسان وآخر". *Eléments de linguistique générale*, p.20.

(58) Louis - Jean Calvet. *Pour et contre Saussure*, Paris, Payot, 1975, p.63.

لغة الطيور، ولغة العيون ولغة الورود ولغة قانون السير والمورْس Morse، وما إلى ذلك لا يشترك مع الألسن الطبيعية في خاصية التمفصل المزدوج[59].

ويقسم مارتينيه مستويات التحليل اللساني إلى مستويين:

- مستوى التمفصل الأول *première articulation* وهو مستوى تحليل الملفوظ [أو الجملة] إلى وحدات دالة متتابعة *unités significatives successives* وهي أصغر وحدات لها معنى في ذاتها يسمّيها مارتينيه الكُلْمَة[60]، أو "أصغر مقطع من الخطاب يُسْنَدُ له معنى"[61].

ويماثل مفهوم الكُلْمَة عند مارتينيه وأتباعه مفهوم الصُّرْفَة في اللسانيّات البنيويّة الأميركية.

- مستوى التمفصل الثاني *deuxième articulation* وفيه تقسَّم الوحدات الدالة (الكُلْمات وحدات المستوى السابق)، إلى وحدات صغرى لا معنى لها في ذاتها، يُطْلِقُ عليها مارتينيه الصوتات *Phonèmes*.

بعبارة أخرى، يتمّ التمفصل الأول على مستوى التعبير والمضمون، فوحداته ذات معنى وصورة صوتية، وبفضله يمكن الحصول على عدد لا محدود من الملفوظات، انطلاقاً من ثبت محدود بآلاف الكُلْمات المختلفة. ويعكس التمفصل الأول الوظيفة الخارجية الأولى للسان التي هي التواصل والمتمثلة في كون الكُلْمَة تمثل المفاهيم المتعدّدة المكوّنة للتجربة (الواقع) المراد نقلها. أما التمفصل الثاني فلا يهمّ إلا مستوى التعبير. وانطلاقاً من عشرات الصوتات يمكن بناء آلاف الكُلْمَات مما يجعل قائمة الصوتات محدودة العدد، في حين أن قائمة الكُلْمَات مفتوحة. وبهذا المعنى، يمكن القول إن النسق الصواتي في أي لسان اقتصادي جداً، لأنه يسمح بإنتاج آلاف الكُلْمات التي تتآلف بينها لتكوين عدد لا محدود من الملفوظات. ويعكس التمفصل الثاني الوظيفة الخارجية الثانية للسان

---

(59) *La linguistique synchronique*, p.9.

(60) يذكر أندريه مارتينيه أنه استعار مصطلح مونيم (كُلْمة/كُلْمات) من اللساني السويسري هنري فراي Henri Frei (1899-1980)، (وظيفة الألسن وديناميتها، ص223).

(61) *La linguistique synchronique*, p.15.

المتمثلة في ما يسمّيه مارتينيه الميل نحو اقتصاد الجهد، وهو قانون عام يحكم الأنشطة الإنسانية.

إن جملة مثل:

- أكل الولد التفاحة

تقسم وفق مبدإ التمفصل المزدوج إلى مستويين:

* مستوى أول، تحلّل فيه هذه الجملة إلى الوحدات الدالة المتتابعة التي تتشكل منها وهي وحدات تمتلك دلالة محدَّدة هي على التوالي:

* أكل /ال/ ولد /ال /تفاحة

ويشكّل هذا المستوى موضوع التركيب.

* مستوى ثان وفيه تقسم الوحدات التي تمّ تحديدها في المستوى الأول، (وحدات لها معنى محدّد) إلى وحدات متتابعة صغرى لا تملك أي معنى في ذاتها وهي:

/أ/ ، / َ / ، /ك/ ، / َ / ، /ل/ ، / َ / ، /لْ/ ، /و/ ، / َ / ، /ل/ ، / َ / ، /د/ ، / ُ /

كما يتضح في الكتابة الصواتية: /akala/ /alwaladu/

(مع الإشارة إلى أنّ الحركات في اللسان العربيّ صوتات).

وتعتبر دراسة سمات وحدات المستوى الثاني موضوع الصِّواتة. وقد يلاحظ بعضهم أنّ مارتينيه أهمل في مستوى التمفصل الثاني بعض المظاهر الصوتية الهامة في كل لسان والمتعلقة بالظواهر التطريزية *prosodie* مثل النَّبر *accent* والتنغيم *intonation* التي لم تتم الإشارة إليها في هذه البنية المزدوجة، لا لأنها عناصر ثانوية أو لها دور تكميلي في التواصل اللغويّ، بل لأنّ العناصر التطريزية تحتاج إلى عماد يحملها وتظهر من خلاله، وبالتالي فهي متعلقة بالصوتات والكُلْمات، وليست مستقلة عنها.

قد يبدو أنّ التمفصل المزدوج لا يُعير اهتماماً لتقسيم دراسة اللسان إلى مستويات (صِواتَة/ صِرافَة/ تركيب/ دلالة) كما تفعل اللسانيّات البنيويّة الأميركية. إن

تحليل الوحدات الدالة ودراستها وظيفياً يقتضي القيام بعملية أساسية هي تحديد الكُلْمات، أي "تحليل الملفوظ أو أجزاء الملفوظ إلى وحداته الدالة الدنيا المتتابعة[(62)]"، وبالتالي تعيين دال ومدلول الوحدات اللغوية. لكنّ مفهوم التمفصل المزدوج عند مارتينيه ليس في العُمق سوى استمرار للتحليل التجزيئي الذي يُمارَس على الوقائع اللغوية باعتماد رؤية "تراتبية" متدرِّجة تبدأ بضبط الأصوات وتنتهي بالوحدات الصرفية على نحو ما كان سائداً في اللسانيّات البنيويّة الأميركية تحت مصطلحات مختلفة *phonemics/morphology*، بحيث انطلاقاً من صوتات يتمُّ التَّوليف بينها، نحصل على صُرْفات بسيطة أو مركَّبة. وتعكسُ الطَّريقة المتَّبعة في التَّمفصل المزدوج رؤية المحلِّل اللسانيّ الخارجيّة القائمة على ملاحظة الأشياء كما هي في الواقع، وليس وجهة نظر المتكلِّم الَّذي يُعَدُّ المحتوى الدلالي المراد تبليغه والتَّعبير عنه أساسياً بالنِّسبة إليه. ويتمُّ تحليل الملفوظ من المنظور الوظيفي وفق عمليتين محدَّدتين:

- تهدف الأولى إلى تحديد الكُلْمات المكوِّنة لمستوى التَّمفصل الأول، ويتعلَّق الأمر بتعيين الدَّال وما يقابله من مدلول بالنِّسبة إلى كل كُلْمَة.
- وتتعلَّق العمليّة الثَّانية بما يُعرف بالتَّحليل التَّركيبي المتمثِّل في تحليل العلاقات القائمة بين الكُلْمات أيْ أصغر وحدة لها دالٌّ ومدلولٌ وبواسطتها (أيْ العلاقات) يَتَشَكَّل الملفوظ"[(63)]. إنَّ الجملة:

- يذهب الطِّفل إلى المدرسة،

يمكن تقطيعها بصورة تقريبيّة إلى ما يلي:

(62) *Eléments de linguistique générale*, p.20.

(63) Conrad Bureau. *La syntaxe fonctionnelle du français*, Laval, Presses de l'Université de Laval, 1974, p.18.

الدال		المدلول
ي ذهب		- حدث الذهاب - زمن الحاضر/ المستقبل - النوع: مفرد/ مذكّر/ غائب
ال		أداة تعريف وتحديد
طفل		كائن إنساني
إلى		حرف يدلّ على غاية مكانية
مدرسة		مكان التعلم

إلّا أنَّ هذا التَّقطيع البسيط الَّذي يبدو لأول وهلة أنَّه لا يختلف إلّا قليلاً عن التَّقطيع القديم المألوف اتِّباعه في الأنحاء التَّقليدية، يكشف عن أشياء جديدة عندما يتعلَّق الأمر بتحليل جملة أخرى مثل:

- ذهبنا إلى العمل فرجعوا هم إلى البيت.

وهو ما نوضحه في الفقرات التالية.

5.5. الوحدات الدالة

يتبين من منظور التحليل الوظيفي، ـ بناء على ما يُفضي إليه التمفصل المزدوج أنّ كل عنصر له دال له مدلول، وبتعبير آخر، "كل اختلاف في الشكل يقابله اختلاف في المدلول (المضمون)"[64]. إنّ الفعلين "ذهبنا"و"رجعوا" "ليسا كَلِمَة واحدة مثلما نجد في التحليل اللغويّ القديم، وإنما هما عنصران مُرَكَّبان يتكون كل منهما من كُلْمَتَين: **ذهبـ + نا رجعـ + و**.

يعتبر التحليل الوظيفي الوحدات اللغوية مثل: "**نا**" و"**الواو** " المتصلة بالفعل وحدتين قائمتي الذات لأنهما تحملان في ذاتهما دلالة، هي الدلالة على المتكلم الجمع، المذكر والمؤنث، الحاضر والغائب... إلخ. ويصدق التحليل نفسه على وحدة مثل: " **اللاعبون**" التي يمكن تقطيعها إلى ثلاث كُلْمات هي:

(64) **وظيفة الألسن وديناميتها**، ص103.

ال + لاعب + ون،

بحيث يملك كلّ مقطع دال [كُلْمَة] مدلولاً خاصاً به كما يتضحُ ذلك بسهولة من التقطيع التالي:

- **ال** = للتعريف والتحديد
- **لاعب** = شخص يقوم بحركات أو نشاط وفق قواعد وكيفيات محدّدة،
- **ون** = للدلالة على الجمع المذكّر.

وتظهر إجرائية هذا التقسيم بوضوح عندما نستبدل بعض هذه الوحدات بوحدات غيرها:

(قارن بـ: لاعِبات ← ϕ + لاعب + ات)

- الممرضات ← ال + ممرض+ ات [تعريف + مساعدات في تقديم خدمات طبية جمع مؤنث] [قارن بـ: ممرضون ← ϕ + ممرض + ون]

وهكذا "يتناسب مع كل اختلاف في المعنى بالضرورة اختلاف في الشكل في أي مكان من الإرسالية"(65). ويجعلنا تطبيق مبدإ التمفصل المزدوج، في شقه الأول، أمام قطعات صوتية متَميِّزة ومحدّدة *discret* لكل منها دلالة مستقلة بنفسها ويمكنها أن توجد مع وحدات لغوية أخرى في سياق تركيبات وجمل أخرى.

إلّا أن هذا التقطيع لا يعني أن كل وحدة دالة تعتبر كُلْمَةً. فكثيراً ما يكشف التحليل وفق المبدإ نفسه، وباتباع الإجراء نفسه أي فرز الوحدات الدالة وما يقابلها من مدلولات، أنَّنا نحتاج إلى عدة وحدات دالة لتشكيل كُلْمة واحدة فقط كما يظهر من تقطيع الوحدة "يذهبون" و"يخرجون":

يـ + ذهبـ + ـون

يـ + خرج + ـون

(65) **مبادئ ألسنيّة عامة**، ص42.

"فالياء" و"الواو" و"النون" في المركبين "**يخرجون**" و"**يذهبون**" دالان ليس لهما أي دلالة مستقلة، وإنما يكمل بعضهما البعض للدلالة تباعاً على جمع المذكّر الغائب. ويمكن تقسيم كلمة مثل "**سينجحون**" إلى "**السين**" التي تفيد المستقبل و"**الياء**" التي تفيد صيغة المضارع و"**نجح**" التي تفيد الفعل و"**الواو**" التي تفيد الضمير المتصل "**هم**" و"**النون**" التي تفيد المضارع المرفوع الخ[66].

ولتوضيح الطبيعة الدلالية الملازمة لكل عنصر من هذه العناصر ـ الياء والواو والنون ـ يمكن أن نعوضها منفردة أو مجتمعة بعناصر مشابهة لها كما يتضح من التقطيع التالي:

تـَ ذْهَبَـ ان
يـ ذهبـ ان
ت ذْهَبْـ ن
يَـ ذَهَبُ ∅
تَـ ذهبُ ∅
أَ ذهبُ ∅
ن ذهب ∅

في هذه الحالات، يتحدّث مارتينيه على غرار ما هو معمول في اللسانيّات البنيويّة الأميركية عن الدال المتقطع *signifiant discontinu*[67]، أي إن المدلول الواحد يظهر في موقعين مختلفين أو أكثر من سلسلة الملفوظ دون أن يحمل معلومة أخرى جديدة[68]. ومقابل الدال المتقطع نجد الكُلْمة المُدْمَجة *amalgamé*، وهي عبارة عن مدلولين مختلفين أُدْمِجَا في دال واحد فصارا معاً جزءاً واحداً[69]. لننظر في تحليل الكُلْمَتَين التاليتين من اللسان العربي: "مِمَّنْ" و"عَمَّنْ" اللتين يمكن تقطيعهما كما يلي:

(66) عبد الحميد عبد الواحد، **الكلمة في اللسانيّات الحديثة**، صفاقس، تونس، التوزيع قرطاج للنشر والتوزيع، 2007، ص33.

(67) **مبادئ ألسنية عامة**، ص120.

(68) Georges Mounin. *Clés pour la linguistique*, Paris, Seghers, 1972/1968, p.143.

(69) *La linguistique synchronique*, p.11.

مِمَّن ← مِنْ + مَنْ
عَمَّن ← عَنْ + مَنْ

ونجد في اللسان الفرنسي مثلاً: Au و Du اللتين يمكن تحليلهما كالتالي:

Au → à + les
Du → de + le

ومعلوم أنّ الأنحاء القديمة تعتبر وحدة مثل: "تذهبون" وغيرها مثل (التائبون/ جالسون/ استنفدهم) كَلِمَة واحدة. وقد تخلى التحليل اللساني الوظيفي عن مفهوم الكَلِمَة بمعناها التقليدي مفضّلاً مصطلح الكُلْمَة بالمعنى الذي سبق توضيحه. "فحينما نشتغل بواسطة الكُلْمات (....) لا حاجة البتة للرجوع إلى "الكَلِمة" إلّا عندما تكون مرجعاً للشكل الكتابي للملفوظات التي تتحدّد فيها "الكَلِمَة "على أنها القطعة الموجودة بين بياضين، وبين بياض وفاصلة عُليا أو بالعكس"[70]. ويتفق مارتينيه في هذا الموقف مع اللسانيين البنيويين الأمريكيين الذين يرفضون بدورهم اعتماد مفهوم الكَلِمَة الوارد في التحليل اللغويّ القديم معوضين إياه بمفهوم أكثر ضبطاً وأكثر قابلية للتحليل الصوري هو مفهوم الصُّرْفَة".

وفائدة التحليل اللساني غير القائم على مفهوم الكَلِمَة، أنه يبين حقيقة البنية الصرفية والتركيبية للوحدات اللغوية المدروسة، في حين يعتمد التحليل القائم على الكَلِمَة على جملة من المفاهيم المتداخلة، بعضها شكلي، وبعضها دلالي، وبعضها خَطِّي. ومن ثمة تغطي الكَلِمَة وقائع لغوية ذات طبيعة مختلفة. فما اعتبر كَلِمَة واحدة في التحليل اللغويّ القديم مثل: "**اللاعبون**" يعتبر في التحليل اللساني البنيوي مُرَكَّباً أو مُكَوِّناً من عدة عناصر. والمُرَكَّب *syntagme* توليف بين وحدتين دالتين أو أكثر، يمكن فصلهما وتحليلهما إلى دوال تقابلها مدلولات، كما في المركب: "**تذهبون**" الذي يمكن أن يقطع إلى الدوال التالية:

ت + ذهب + ون

(70) **وظيفة الألسن وديناميتها**، ص223.

يملك كل منها مدلولاً محدّداً. وينبغي تمييز هذا المركب في التحليل الوظيفي عن المُؤْتَلِف *synthème*[71] وهو تركيب من عدة وحدات دالة لا يمكن الفصل بينها شكلياً"[72]. مثل: (*lentement* (ببطء) و*grand'mere* (الجَدَّة). ففي اللسان الفرنسي لا يمكن أن يفصل بين العناصر المُكَوِّنة للمركبات من قبيل: *armoire à glace* (دولاب ذو مرآة)، إذ لا نقول: *armoire à noyer à glace* (دولاب (من) خشب العرعار ذو مرآة). وربما اقتربت التراكيب المزجية في اللسان العربي من هذا المفهوم. قارن بين: الشاعر الجاهلي امرؤ القيس، و*امرؤ الشاعر الجاهلي القيس (جملة غير مقبولة). ويتصرف المُؤْتَلِف مثل باقي الكُلْمات، وعلاقاتها بباقي مُكَوِّنات الملفوظ لا تختلف عن باقي العلاقات التي تقيمها الكُلْمات.

6.5. أصناف الكُلْمات وفئاتها

تكملة لما سبق بشأن الكُلْمات والمُرَكَّبات والمُؤْتَلِفات التي تشكل ثلاثة مُكوِّنات كبرى نشير إلى أن الكُلْمات تُقسَّم إلى مجموعتين[73]:

---

(71) يقترب هذا التصوّر للعناصر المُكوِّنة للوحدات اللغوية من تصور النُحاة العرب الذين قسموا المركبات إلى ثلاثة أنواع:
- **المُرَكَّب الإسنادي** ويتحقّق بركنين أساسيين هما المُسْند والمُسْند إليه وهو كل مُرَكَّب أصله جملة ثم أصبحت بعد ذلك تطلق على علم مثل: جاد المولى/ جاد الحقّ وهي جملة فعلية تحجّرت مع مرور الزمن، وتحولت إلى اسم علم.
- **المُرَكَّب الإضافي** وهو مركب اسمي أساساً أضيفت فيه كلمة إلى أخرى.
- **المُرَكَّب المزجي**: وهو كل تركيب امتزجت فيه كَلمتان فصارتا كلمة واحدة مثل امرئ القيس، بعلبك، حضرموت. فداخل المُرَكَّبات المزجية، يمكننا أن نُمَيِّز بين المُرَكَّبات المزجية المُعْرَبَة التي يكون إعرابها على أساس الكلمة الثانية. والمركبات المزجية المبنية، ومنها أسماء الأعلام مثل سيبويه ونفطويه.

(72) *Eléments de linguistique générale*, p.133.

(73) نشير إلى أن الأمثلة المقدّمة هنا من العربية ليس لها أي بُعد نظري، فنحن لم نقم بأي تطبيق حقيقي دقيق ومضبوط للسان العربي من منظور اللسانيّات الوظيفية، بل يتعلق الأمر بأمثلة تُقرِّب التحليل المقترح من القارئ العربي من باب الاستئناس ليس إلا، لاسيما وأن اللسانيّات الوظيفية تقوم على معاينة فعلية للوقائع اللغوية المدروسة. فلكل لسان تحليله التركيبي الخاص به، وليس ثمة مقولات تركيبية جاهزة مثل الأفعال =

- كُلْمات مُعْجَمِية *monèmes lexicaux*
- كُلْمات نحوية *monèmes grammaticaux*.

1.6.5. الكُلْمات المُعْجَمِية

الكُلْمات المُعْجَمِية هي المُعْجَمات *Lexèmes* (مفردها مُعْجَمَةٌ) التي تنتمي إلى صنف لا محدود من الوحدات يكون معدَّلُ تواترها ضعيفاً في النص. أما الكُلْمات النحوية فتنتمي إلى صنف الوحدات المحدودة في اللسان ويكون معدَّلُ تواترها مرتفعاً. والمقصود بالصنف *inventaire* فئة *classe* الوحدات القابلة للظهور في موقع معيَّن من سلسلة الملفوظ[74] مُشَكِّلَة مصفوفة من الوحدات. والمُعْجَمات أنواع:

- مُعْجَمات دالة على شخوص مادية أو معنوية، مثل: ولد/ طفل/ حرب/ فكر،
- مُعْجَمات دالة على حركات وأفعال أشخاص، مثل: دخل/ خرج/ كتب،
- مُعْجَمات دالة على صفات أو خصائص، مثل: أحمر/ كبير/ صغير/ قويّ،

وتشكّل هذه المُعْجمات لائحةً لامحدودة من الوحدات.

أما الضمائر مثل: هو/ هي/ نحن، وأحرف المضارعة (أ/ نـ/ يـ/ ت) وما شابهها فهي محدودة العدد في كل لسان.

تظلّ المُعْجَمات مثل: ذهب، ولد، مدرسة، وهي وحدات من واقع تجربة المتكلم مجردةً وجامدةً ما لم تدخل في ملفوظ ملموس. ولكي يحصل التواصل ويتمّ نقل التجربة، تحتاج المعجمات إلى عناصر أخرى تزرع فيها الحياة وتنقلها

= والأسماء والصفات، بل إن التحليل الوظيفيّ للملفوظ في التواصل ومن خلال العلاقات القائمة بين وحداته هو الفيصل في تحديد الفئات. ما يكون "فعلاً" في تحليل ملفوظ معين قد لا يظل كذلك في ملفوظ آخر، وما يكون كُلْمَة وظيفية في هذا التركيب قد يصبح غير ذلك في تركيب آخر وهذا داخل اللسان نفسه. بالنسبة إلى اللسانيّات الوظيفية في تطبيقها على اللغة العربية يمكن الرجوع إلى أمينة فنان: **اللسانيّات الوظيفية مباحث صِواتية وتركيبية**، منشورات كلية الآداب، مكناس، 2005. (المغرب).

(74) *Guide alphabétique de linguistique*, p.133.

من القوة إلى الفعل عن طريق دخولها في علاقات مع كُلْمات أخرى تحدّدها وهو دور الكُلْمات النحوية، مثل: أدوات التعريف وأسماء الإشارة وغيرها كما نفسّر ذلك لاحقاً. وتنقسم الكُلْمات المعجمية بدورها إلى ما يلي:

- **كُلْمات مستقلة**: *monèmes indépendants* وهي الَّتي تحمل في ذاتها ما يؤشر إلى وظيفتها؛ وتوجد في كلِّ المواقع الممكنة داخل سلسلة الملفوظ. ويمكن للكُلْمَة أو المُرَكَّب المستقل أن يغير موقعه في الملفوظ دون أن يُعدِّل لا في علاقات الملفوظ أو في علاقاته بباقي الوحدات"[75].

  مثل: غداً ــ اليوم ــ أمس. نقول: جئت أمس. وأمس جئت.

  وكلما تَعدَّدت مُكوِّنات الملفوظ وكثُرت، كانت الكُلْمات المستقلة أكثر حريةً في احتلال مواقع عديدة داخل الملفوظ.

- **كُلْمات وظيفية**: *monèmes fonctionels* وهي المرتبطة بكُلْمات أخرى تبين وظائفها مثل حروف الجرّ والروابط. وهي لا تكون تابعةً لغيرها، ولكنها تُساهِمُ في بناء تراكيب خاضعة (حرف الجرّ والمجرور يتعلقان بغيرهما).

- **كُلْمات خاضعة**: *monèmes dépendants* وهي التي لا ترتبطُ بأية علاقة مُحدَّدة مع باقي وحدات الملفوظ، وتأخذ وظائف متعدّدة بحسب الموقع الذي تحتله أو بواسطة عنصر إضافي مثل: شجرة ـ طاولة ـ كرسي. . . الخ.

5.6.2. الكُلْمات النحوية

ليست الكُلْمات النحوية مجموعةً متجانسةً من العناصر اللغوية، بل هي أنواع مختلفة سمتها المشتركة أنها لا ترد داخل سلسلة الملفوظ منفردة، بل تكون دائماً خاضعة لغيرها، لأنّ وجودها مرتبط بما تتصل به. ومن هذا القبيل الكُلْمات الَّتي تدلُّ على سبيل التمثيل لا الحصر على:

(75) Conrad Bureau. *La syntaxe fonctionnelle du français*, p.26.

- التذكير والتأنيث، والتعريف والتنكير، وعلامات الإفراد والتثنية والجمع، وما يتصل بالفعل من علامات للدلالة على الشخص والزمن (أحرف المضارعة في اللسان العربي) والهيئة والجهة. ويطلق على هذا النوع من الكُلْمات النحوية: الأنماط *les modalités*، وهي أنواع:

- أنماط اسمية تتعلّق بالاسم وتتصل به (أداة التعريف/التنكير، علامات الإفراد والتثنية والجمع).
- أنماط فعلية تتعلّق بالفعل مثل الزمن والجهة والهيئة. . . إلخ.
- أنماط وصفيّة تتعلّق بالصفة. (**كثيراً/ قليلاً/ جداً**).

- ملاحظة: بالنسبة إلى المُرَكَّب *marchons* "نسير" الذي يقسمه مارتينيه إلى *march* و*ons* يُطْلق على الوحدة *march* مُعْجَمَة، بينما يُطْلَق على الوحدات مثل اللاحقة *ons* صُرْفة (morphème) وهي الوحدات التي تمتلك معنى نحوياً (هنا الجمع المتكلم).

وبالنظر إلى الفروق الدقيقة بين مختلف أنواع الأنماط، نشير إجمالاً إلى أن الكُلْمات النحوية التي لا تُعدُّ أنماطاً هي:

- الضمائر وتشكِّل مصفوفة (من الوحدات) لها وظيفة تركيبية.
- مؤشّرات الوظيفة (حروف الجرّ والروابط).
- أدوات العطف يكون دورها العمل على تعدّد القطعات *segments* التي لها العلاقة نفسها مع باقي العناصر.

وتتصرف المُعْجَمات داخل الملفوظ بكيفيات مختلفة وتدخل في توليفات متنوعة، وقد تتغير من نوع إلى آخر. وهو ما يفسّر أن فئة المُعْجَمات في المنظور الوظيفي ليست موضوعة قبلياً ونهائياً كما في الأنحاء التقليدية. فبعض الكُلْمات التي تندرجُ في فئة معينة يمكن أن تصبح جزءاً من مُعْجَمات أخرى. فالكُلْمات مثل: "كل" و"غير" و"بعض" و"آخر" و"ضد" و"لا" تصبح

مُعْجَمات اسمية *lexèmes nominales* حين تقبل بعض أنماط التعريف، مثل: الكل، الغير/البعض/الآخر/الضد/اللاءات (جمع لا) على سبيل التمثيل. والمُعْجَمة *march* في اللسان الفرنسي يمكن أن تصبح مُعْجَمة فعلية *lexème verbale* أو اسمية بحسب الأنماط التي قد تتصل بها، فهي مُعْجمة فعلية حين تتصل بها صُرفات مثل، *ions* أو *ons* كما في: *marchons/marchions*، وهي مُعْجَمة اسمية حين تتصل بأحد الأنماط مثل أداة التعريف *la* أو *une* أو أحد الضمائر مثل: *ta /sa /cette* كما في *cette /sa /une /la marche*). فما يحدِّد فئة مُعَيَّنة من الوحدات ليس وظيفتها، وإنما درجة استقلالها داخل الملفوظ ونوع علاقتها بهذه الوحدة أو تلك"[76].

وإذا أردنا الحصول على تحديد دقيق للكُلْمات يراعي خُصوصيّةَ الألسن الطبيعية وليس ألسنة أوروبية بعينها، فمن الأفضل أن يُعاد النظرُ في العديد من التقسيمات المفهومية الموروثة عن التقليد اللغويّ الغربي لأجزاء الكلام واعتماد معيار الوظيفة وما يتصل بها في تركيب الألسن[77]، فكل لسان ينظّم وحداته بكيفية خاصة به.

7.5. التحليل الوظيفيّ للجملة

1.7.5. مقوّمات التركيب الوظيفيّ

يقوم التركيب في التحليل الوظيفي عند مارتينيه على جملة من المبادئ العامة التي تمّ تقديم بعضها في الفقرات السابقة ونجملها من جديد فيما يلي:

- مبدأ التمفصل المزدوج
- مبدأ استقلالية التركيب
- مبدأ الوظيفة

---

(76) Conrad Bureau. *La syntaxe fonctionnelle du français*, p.23.

(77) مبادئ ألسنيّة عامة، ص164.

يرتبط التَّمفصل المزدوج الذي قدّمناه سابقاً بمستوى التَّحليل المستهدف. فالوحدات اللُّغوية في مستوى التَّمفصل الأول تختلف عن وحدات التَّمفصل الثاني، وتحليلها في مستوى التَّمفصل الأول ليس هو تحليلها في مستوى التَّمفصل الثاني، وعلى الرغم من أن المبادئ الإجرائية المتحكِّمة فيهما هي نفسها، ويتعلق الأمر بالوظيفة إجمالاً وبرائز الاستبدال خاصة. فتحليل الجملة من منظور وظيفيّة مارتينيه جزء من تحليل الكُلْمات ونتيجة طبيعية له، أيْ إنَّ مستوى التَّمفصل الأول يُعتَبر مجالاً لتحليل الجملة من النَّاحية الصَّرفية والتَّركيبية[78].

والتركيب الوظيفي *syntaxe fonctionnelle* هو الكيفية التي تنتظم بها وحدات الملفوظ فيما بينها لتحليل التَّجربة الَّتي يقوم اللِّسان بنقلها أو يُعبِّر عنها. وهو دائماً تركيب خاص بكل لسان على حدة. وليس التركيب في عرف الوظيفيين "من ابتكار النُّحاة أو اللسانيّين، إذ تكشف لنا ملاحظة أيّ لسان وجود شيء ما هو التركيب، أيْ" مجموعة من طرائق قليلة العدد، تسمح بتبيان العلاقات بين الوحدات الدالة التي تطابق وقائع من التجربة"[79]. ولا تخرج هذه الطرائق التي تستعملها الوحدات الدالة لتبيان علاقاتها بباقي مُكَوِّنات الملفوظ عما يلي:

- طبيعة محتوى الكُلْمات
- اتصالها بكُلْمات خاصة
- موقِعها.

وينطلقُ مارتينيه من موقع الكُلْمة ووظيفتها في الملفوظ. فهو يحدِّد أولاً

(78) لاطلاع مبسّط وواضح على تطبيق التحليل الوظيفي على الجملة في اللسان العربي، يمكن الرجوع إلى:
- أمينة فنان، «الجملة في النموذج الوظيفي» ضمن أعمال ندوة **اللسانيّات واللغة العربية بين النظرية والتطبيق**، منشورات كلية الآداب مكناس، 1992.
- «المكونات التكميلية للجملة الفعلية: التوسعات»، ضمن أعمال ندوة: **مكانة الأنحاء التقليدية في اللسانيّات الحديثة**، منشورات كلية الآداب مكناس 1997 سلسلة الندوات رقم 10.
أمينة فنان، **اللسانيّات الوظيفية: مباحث صواتية وتركيبية**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكناس، 2005.

(79) Conrad Bureau. *La syntaxe fonctionnelle*, p.25.

وظيفة الوحدات الدالة على معنى بحسب علاقاتها مع الوحدات الأخرى، ثمَّ يتمُّ تحديد وظيفة الملفوظ داخل الخطاب. والوظيفة عند مارتينيه هي المقابل اللغويّ للتجارب الإنسانية[80].

2.7.5. النواة والملفوظ الأدنى[81]

يضمُّ كلُّ ملفوظ كُلْماتٍ متفاوتة الأهمّية، بعضها ضروري وبعضها الآخر غير ضروريّ. تسمَّى الكُلْمات الأولى بالكُلْمات الإسنادية *monèmes prédicatifs*. وهي عناصر مستقلة عن غيرها استقلالاً تاماً تكون بمثابة عماد الملفوظ. وتشكّل الكُلْمات الإسنادية نواة ما يطلق عليه الملفوظ الأدنى *énoncé minimal* وتنتظم حولها باقي العناصر.

أما الكُلْمات التي تأتي بعد الكُلْمَة الإسنادية فليست سوى تَوَسُّع *expansion*، وهو كلُّ ما ليس ضرورياً في الجملة[82]. ويقوم التحليل الوظيفي لتركيب الجملة على التمييز بين شيئين:

- الملفوظ الأدنى،
- توَسُّع الملفوظ.

في جملة مثل:

- سأسافرُ إلى الرباط غداً

نجد أن الكُلْمات الإسنادية هي:

---

(80) *Langue et fonction*, p.65

(81) نكتفي في هذا الفصل بتقديم عام لتصورات مارتينيه، أما التطبيق الفعلي فيقتضي تقديم تفاصيل أخرى قد تشوش على تعامل قارئ هذا التقديم العام للمنهجيات اللسانيّة. ومن أجل الاطلاع على التفاصيل المتعلقة بتطبيق اللسانيّات الوظيفية في مجال اللغة العربية أو إحدى لهجاتها يمكن الاطلاع على سبيل التمثيل على المراجع المشار إليها في الصفحة السابقة (هامش 78).

(82) *Langue et fonction*, p.67 *et Eléments de linguistique générale*, p.128.

س + أسافر.

لأنها أساس الملفوظ.

ويمكن تعريف الجُمْلة وظيفياً، بأنها كلّ تركيب ليس جزءاً من تركيب أكبر منه[83]. إلّا أن هذا التحديد ليس نهائياً ولا قاراً، بل يخضعُ للسياق الذي توجد فيه التراكيب، بحسب التجارب التي يرغب المتكلم في التعبير عنها ونقلها لغوياً، وبالتالي، ما يمكن أن يُعَدَّ في تركيب معين جملةً، قد لا يكون كذلك في تركيب آخر. إن التركيب:

- يجري

"يعتبر جملة قائمة الذات، لكنه ليس كذلك في تركيب آخر من قبيل:

- جاء الولد يجري.

فالجملة تركيب لا يندرج في تركيب أكبر منه. وليس اللسان في نهاية الأمر سوى سلسلة ملفوظات. وتتكون الجُمْلة من ركنين يعدّان نواةً مركزيةً غير قابلة للاختصار، هما المُسْنَد والموضوع، يطلق عليهما مارتينيه الملفوظ الأدنى. ويعتبره مَقُولة كلية *universelle* إذ لا يخلو أي لسان طبيعي من ملفوظ أدنى.

يتشكّلُ الملفوظُ الأدنى من عنصر أساسي قار وثابت هو المركب الإسنادي *syntagme prédicatif*. و"يتميز بسمة المركزية والاستقلالية"[84]، تدور في فلكه وتنتظم تركيبياً بحسب طبيعته باقي مُكوِّنات الملفوظ التي تعتبر ثانوية[85]. "فالمُسْنَد هو النواةُ المركزية المُكوِّنة لكلِّ ملفوظ تامٍّ، والعنصر الأساسي الذي تقوم باقي مكوِّنات الملفوظ بتحديد وظائفها بالقياس إليه. ونتيجة لذلك، يُعَدُّ المُسْنَدُ (المحمول) محورَ الجملة والوحدة اللغوية التي لا غنى عنها في بناء الجملة أو الملفوظ الأدنى في كل الألسن"[86]. وبصفتها العنصر الذي تتمحور

---

(83) *La linguistique synchronique*, p.229.

(84) **مبادئ ألسنيّة عامة**، ص152.

(85) *Langue et fonction*, p.57.

(86) **مبادئ ألسنيّة عامة**، ص147، وانظر تقديماً مماثلاً في العربية في: أمينة فنان، «الجملة في النموذج الوظيفي البنيوي» في **اللسانيّات واللغة العربية بين النظرية والتطبيق**. منشورات كلية الآداب مكناس، سلسلة الندوات، رقم 4، مكناس 1992.

حوله باقي عناصر الملفوظ، ومنه تأخذ وظائفها، فإن الكُلْمة الإسنادية لا تمتلك أي وظيفة مُحدّدة سوى الوظيفية الإسنادية ذاتها. ولا يمكن أن نتصور وجود وظائف أخرى داخل الملفوظ دونها. والكُلْمَة المُسْنَد في كثير من الألسن الطبيعية ومنها اللسان العربي ثلاثة أنواع:

- مُسْنَد فعلي
- مُسْنَد اسمي
- مُسْنَد مؤسم، أي مسند فعلي الأصل انتقل إلى الاسمية مثل المشتقات والصفات.

ويلاحظُ أن وجود المُسْنَد الفعلي كنواة الملفوظ الأدنى في كل الألسن أمر يكاد يكون بديهياً، نظراً لانعدام إمكانية وجود ألسنة بدون أفعال، وإن اختلفت هذه الأفعال في طبيعتها، وكيفية اشتغالها، وخصائصها الصِّرافية والتركيبية من لسان إلى آخر. وتحدَّدُ وظيفة الكُلْمَة بالرجوع إلى الكُلْمات الموجودة في الملفوظ الأدنى ولاسيما الكُلْمات الإسنادية. وتنقسمُ الوظائف إلى نوعين: وظائف أولية ووظائف غير أولية، و"تتطابق الوظائف الأولية مع العلاقات المُكَوِّنة للجملة أي تلك التي تقام بين عناصر الملفوظ، وهي وظائف ترتبطُ مباشرةً بالملفوظ ككلٍّ وليس بمقطع منه"[87]. أما الوظائف غير الأولوية فتتعلق بما هو توسّع للملفوظ الأدنى أي بما ليس من الكُلْمات الإسنادية. ونوضح لاحقاً معنى التوسع الذي يلحق الملفوظ الأدنى.

وإذا كانت الكُلْمَة المُسْنَد ركناً أساسياً لا بدُّ منه في كل "ملفوظ أدنى" يُعبِّر بكيفية ما عن واقع تجربة، فإنه يحتاج إلى مُكَوِّنات أخرى لتحيينه، يطلق عليها الوظيفيون المُحَيِّنات *actualisants*[88] وأبرزها الفاعل أو الموضوع (المُسْنَد إليه)، إذ لا يمكن تصور ملفوظ أدنى فعلي بدون فاعل. "وقد يكفي المقام التواصلي لتحيين كُلْمة واحدة وذلك في حالات الأمر والشتيمة أو إلقاء التحية (اذهب، اركض، سلام، خائن) أو في الأجوبة مثل: نعم، لا، غداً، حيث تُقدِّم

(87) مبادئ ألسنيّة عامة، ص137.
(88) المرجع السابق، ص144.

صيغة السؤال المطروح مسبقاً السياق الضروري للتحيين"[89].

3.7.5. التوسُّع

الملفوظ الأدنى إذن أبسط تركيب يمكن أن يقوم عليه الملفوظ ويتشكل أساساً من مُسْنَد ومُحَيِّن، يكون اسماً مفرداً ظاهراً أو متصلاً. "ويسمّى توسُّعاً كلُّ عنصر يضاف إلى الملفوظ ولا يُغيِّر العلاقات المتبادلة ووظيفة العناصر الموجودة سابقاً"[90]. وعليه، فالعناصر التي تقبل أن تضاف إلى النواة الإسنادية المُكوِّنة لأساس الملفوظ تُعَدُّ تَوَسُّعاً أياً كانت طبيعة هذه العناصر باستثناء العناصر الضرورية التي يرتبط بها التوسُّع نفسه. والعناصر التي يتمّ التوسع بها هي عناصر لا تكون ضرورية في الملفوظ؛ إذ يمكن الاستغناء عنها مع بقائه قائماً. والتَّوَسُّع نوعان: توَسُّع بالعطف وتَوَسُّع بالتبعية. ومثال التَّوَسُّع بالعطف الجملة:

- حضر صاحب البيت وضيفه
- يبيع ويشتري المفروشات

فالعنصران "صاحب" و"ضيف" يشتركان في قيامهما بالدَّور التَّركيبي نفسه، أي وظيفة التوسُّع المرجعي، وعند حذف التوسُّع الثاني (ضيفه)، فإنَّ ذلك لا يُغيِّر شيئاً من بنية الملفوظ الأصلي الذي سيصبح : حضر صاحب البيت.

وفي المثال الثاني لا يقتصرُ التوسُّع بالعطف على عطف عنصرين في بناء مُماثل، بل يشمل أيضاً عطف بنيتَين مختلفتين لهما بالضرورة الوظيفة نفسها. فللمسند (يبيع ويشتري) الدور الإسنادي نفسه، ويقيم العلاقات نفسها مع باقي عناصر الملفوظ. وعندما يحذف التوسّع (يشتري) وعلامة العطف الخاصة به (و) يظل الملفوظ قائماً فنحصل على الجملة:

- يبيع المفروشات"[91].

---

(89) المرجع السابق، ص144.
(90) المرجع السابق، ص148-149.
(91) المرجع السابق، ص149.

"ويلحق التوسّع بالعطف كل العناصر التي تقوم بأدوار إسنادية ونذكر منها:

- كُلْمتين ظرفتين في مثال من ضَرْبِ: أَظَلُّ اليوم وغداً.
- وحدتين معجمتين في مثال من ضرب: البحر والنهر منظر جميل،
- مركبين إسناديين في نحو: ألعبُ وأربح(92)".

ويتجلى التَّوَسُّع بالتبعية في كون "وظيفة العنصر المضاف تختلف عن وظيفة العنصر الموجود سابقاً في نفس الإطار. ويشار إلى هذه الوظيفة، إما من خلال موقع العنصر الجديد بالنسبة إلى الوحدة التي يمارس وظيفة تجاهها وإما بواسطة كُلْمَة وظيفية"(93). ويحصل التَّوَسُّع بالتبعية بإضافة كُلْمَة واحدة أو أكثر. ونوضح ذلك بمثال تقريبي من اللسان العربي. فالملفوظ الأدنى:

- أُخرج

يمكن توسيعه، كأن نقول:

- اخرج اللحظة
- اخرج من غرفتي.

ويعتبر المفعول به "رسالة" في ملفوظ مثل:

- كتب الولدُ رسالةً

توسُّعاً بالتبعية من خلال موقعه بعد النواة الإسنادية "كتب".

قد يحصل التَّوَسُّع بالتبعية أيضاً بواسطة الكُلْمَة الوظيفية (حرف الجر) التي تسمح بتكملة عناصر غير إسنادية كما في الجملة "كتاب لزيد". وقد تكون هذه الكُلْمَة الوظيفية ضمنية. كما في بنية الإضافة في اللسان العربي التي لا تحتاج إلى الأداة الرابطة بين اسمين مثل الفرنسية *Le livre **de*** Zayd، حيث يعتبر "زيد"

---

(92) أمينة فنان، «المكونات التكميلية للجملة الفعلية: التوسعات»، **مكانة الأنحاء التقليدية في اللسانيّات الحديثة**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكناس، سلسلة الندوات رقم 10، 1997، ص120.

(93) المرجع السابق، ص150.

توسُّعاً بالتبعية بواسطة الكُلْمَة الوظيفية *de*. وهو يختلفُ عن وظيفة المفعول به (رسالة) بوصفه توسُّعاً بالتبعية عن طريق موقعه بعد النواة الإسنادية.

والتَّوَسُّع بدوره أنواع(94):

- **توسّع إحالي أو أولي** *expansion primaire/référentielle*

ويمثل له بالملفوظ التالي:

- دخل الولدُ

حيث يعتبر الفاعل/المبتدأ توسّعاً مرجعياً أولياً للملفوظ الأدنى:

- دخل.

- **توسّع مباشر** *expansion directe* ونجده في تعدية الفعل إلى المفعول به الأول:

- كتب التلميذُ الدرسَ.

- **توسّع غير مباشر** *expansion indirecte* ونجده في تعدية الفعل إلى المفعول به الثاني مثل:

- أهدى زيدٌ عَمْراً كتاباً.

ويمكن توضيح هذه التوسعات انطلاقاً من الملفوظ النواة كما يلي:

- **ملفوظ أدنى**: أهدى
- **توسّع أولي**: زيد أهدى أو أهدى زيد
- **توسّع مباشر**: أهدى زيد عمراً
- **توسّع غير مباشر**: أهدى زيد عمراً كتاباً

---

(94) أمينة فنان، «الجملة في النموذج الوظيفي» ضمن أعمال ندوة **اللسانيّات واللغة العربية بين النظرية والتطبيق**، منشورات كلية الآداب مكناس، رقم4/ 1992.
- «المُكوِّنات التكميلية للجملة الفعلية: التوسعات»، ضمن أعمال ندوة: **مكانة الأنحاء التقليدية في اللسانيّات الحديثة**، منشورات كلية الآداب مكناس، 1967 سلسلة الندوات، رقم 10.

وينتج عن هذا التحليل، أن الترتيب بين وحدات الجملة وما يتعلّق به من تقديم وتأخير وتوسط مرتبط أساساً بالتَّوَسُّع الذي تعرفه الجملة، انطلاقاً من بنائها الأساس، أي الملفوظ الأدنى الذي يتكون من مسند ومُحيِّنات. ويمكن القول بصفة عامة بأن تكوين جمل اللسان يقوم على التَّوَسُّع في عدد محدّد من الملفوظات الدنيا بإضافة عدد معين من الكُلْمات.

8.5. المستوى الصواتي

انطلاقاً من التمييز الذي أقامه سوسير بين لسان وكلام، وعلى غرار لسانيي حلقة براغ، يميِّز مارتينيه بين الأصواتية *Phonétique* والصِّواتة *Phonologie*؛ وهو تمييز يقيمه صاحبه على أساس ما هو وظيفيّ في اللسان يحقّق التواصل ويساهم في نقل تجربة معينة. "فالأصواتية دراسة التصويت بصورة عامة، أي اشتغال الأعضاء التي تشترك في إنتاج أصوات اللغة الإنسانية وفي تلقيها. وعندما تدرس الأصواتية على سبيل التمثيل الأصوات الصائتية، نكون إزاء لا متناه من التحقّقات المختلفة المدرجة ضمن النتاجات القصوى" (. . . .). أما "الصِّواتَة فهي الدراسة المبتكرة التي يستفيد بواسطتها كل لسان من الموارد التصويتية كي يؤمن التواصل بين مستخدميه. ومن بين الخيارات النطقية كلها، تحتفظُ الصِّواتة بعدد معين قابل لتحقيق نتاجات تماثل جيداً سمعياً، إنها تلك الخيارات التي يستخدمها المتكلمون كي يميزوا مختلف الأحداث (الوقائع) المعنوية بمقابلة بعضها مع بعض، وكي يثبتوا تباينات بين تلك الوحدات التي تتابع في السلسلة الكلامية"[95]. فما يهمّ عالِم الصواتة ليس الخصائص الصوتية المادية للصوتة[96] بقدر ما تهمّه السمات والصفات التي تميِّز الوحدات الصوتية فيما بينها، وأهمّها الوظيفة المميزة *fonction distinctive* كما قال بها تروبتسكوي

(95) **وظيفة الألسن وديناميتها**، ص188.

(96) تدَوَّن الخصائص الصوتية بين [ ] والقيم الصِّواتية بين / /. "[i] تمثل حقيقة فيزيائية بغضّ النظر عن القِيمة التي تضطلع بها في لسان معين. أما /i/ (بين سطرين مائلين)، فهي تعيين لفونيم (صُوتَة) يسمح في لسان محدّد من خلال وجوده حيث يمكن لفونيم آخر الظهور أن يُمَيِّز رسالة من أخرى (**وظيفة الألسن وديناميتها**، ص189).

وجاكبسون وقبلهما سوسير وبودوان دوكورتناي. ومن هذا المنطلق، نجد أن من أهمّ السِّمات المميزة للصوتات والصُّرْفات عند مارتينيه فكرة تلازم اختلاف الصورة باختلاف الشكل، وهي خاصية أساسية للقيام بوظيفة التواصل داخل سلسلة الملفوظ. ويعبِّر عن هذا المبدإ العام في اللسانيّات الوظيفية بمبدإ الملاءمة *Principe de pertinence* أي الملاءمة التواصلية. وقد تَمَّ وضعه في الأصل من قبل اللسانيّ الألماني كارل بوهلر في فيينا في العشرينيات من القرن الماضي. "ولا ينحصر هذا المبدأ في اللسانيّات، ولكنه متداول في كل العلوم، فكل علم يتميز من خلال اختيار بضع ميزات لمواضيعه وبدرجة أقل لجهة اختيار هذه المواضيع"(97).

فالصوتة /r/ في الفرنسية تتحقّق مثل تردد طرف اللسان لدى كثير من البرغونيين *Bourgogne* وتتحقق مثل [R] (تردّد اللهاة) في استخدامات بروفانسالية أخرى، وكذلك مثل [كا] (انسيابي لهوي) عند الباريسيين، وأخيراً مثل [y] (انسيابي ظهري) لدى الأنتيين *(Antille)* "(98). إن ـ r ـ الفرنسية تنطق بطرق مختلفة حسب الأصول الجغرافية للأفراد وحسب مجاورتها لحروف أخرى. إلّا أن هذه الاختلافات لا تؤثّر في دور هذه الصوتات الأساسية، لأنها لا تقوم بتغيير معاني الوحدات، وبالتالي لا قيمة لها في عملية التواصل. ومن جهة ثانية، فإنّ ملاحظة كون صوت ـ r ـ في اللسان الفرنسي له تحقيقات مختلفة، لا تهمّ عالِم الصِّواتة، لأنها ملاحظة خاصة بهذه الوحدة ولا تتعداها(99). أما في العربية فإنّ الأمر يختلف لأن "الراء" و"الغين" صوتتان قائمتان بذاتهما. نُميِّز في العربية بكل وضوح بين /غاب/ و/راب/ وبين /رش/ و/غش/. وفي العربية "تشكل الراء المُرَدَّدَة والراء المَلثوغة المُدوَّنة *gh* في عملية نقلنا لكلمة *maghreb* مثلاً صوتتين مُميَّزتين، بينما في الفرنسية لا يُسيء بشيء استخدام الأولى أو الثانية إلى معنى ما يقال، بل يعلمنا فقط عن شخصية المتكلم"(100). فالتمييز بين الراء والغين في اللسان العربي الفصيح تمييز ملائم، وليس كذلك في اللغة الفرنسية.

---

(97) **وظيفة الألسن وديناميتها**، ص72.

(98) المرجع السابق، ص190.

(99) *La linguistique synchronique*, p.54.

(100) **وظيفة الألسن وديناميتها**، ص73.

وكسائر اللسانيين البنيويين، يعتمدُ مارتينيه مبدأ الاستبدال *commutation* للتأكد من هوية الصوتات والصُّرْفات. فالمعيار الحقيقي لمعرفة الصوتة وتمييزها عن غيرها هو الإجراء القاضي باستبدال صوتة بأخرى ينتج عنه تغيير في مدلول الكُلْمات. "وتكون سِمة ما مُميِّزة أو مُلائِمة إذا كانت كافية بمفردها أنْ تميِّز بين الكُلمات أو الصِّيغ[101] ". والنتيجة هي صفة المُلاءَمة *Pertinence* سمة مميزة *trait distinctif* للصوتة، وهي كلُّ خاصِّية صوتِية بإمكانها أن تُميِّز بمفردها بين الصُّرْفات. وتشكِّل السِّمات المُميِّزة هدف الوصف اللِّساني في المستوى الصِّواتي[102]. وللإشارة فإن برنامج اللسانيّات الوظيفية عند مارتينيه في شقه الصِّواتي لم يخرج عن إطار الصِّواتَة الحديثة كما رسمها تروبتسكوي في **مبادئ الصِّواتة**.

9.6. الوصف التعاقبي

إنَّ تطور الألسن وما يصيب بنياتها الصوتية والصَّرفية والتركيبية والمعجمية ليس بالأمر الجديد في المباحث اللغوية القديمة والحديثة على السواء. ولعل مارتينيه واحد من أبرز اللسانيين الوظيفيين الذين أولوا مظاهر التطور اللغويّ عناية متميزة عامة وفي المجال الصِّواتي خصوصاً، محاولاً تحديد الأسباب الكامنة وراء نزوع الألسن نحو التغيير. "ففي السنوات الأخيرة تحقَّق أهمّ إسهام في نظرية التَّغيرات الصوتية على يد الفرنسي أندريه مارتينيه. وقد كانت مناهج عمله جدّ قريبة من مدرسة براغ[103]"، ومؤلفه "**اقتصاد التغيرات الصوتية**" شاهد على ريادته في مجال طالما هُمِّش في اللسانيّات البنيويّة.

لِمَ تتطوَّر الألسن وكيف ذلك؟ درس مارتينيه قضايا التطور من منظور وظيفيّ حرص فيه على أن يجعل من التعبير اللغويّ عن الحاجات اليومية بما يتضمّنه من حركية دائمة وتجدّد فكري واجتماعي وسياسي واقتصادي، دافعاً قوياً

(101) *Economie des changements*, p.68-69.
(102) *Ibid*, p.53.
(103) ميلكا إيفيتش، **اتجاهات البحث اللساني**، ص268.

وراء التطور دون الخروج عن دائرة ما يسمح به اللسان إن قليلاً أو كثيراً من إمكانات لغوية داخلية.

وتتجلى مساهمةُ مارتينيه في كونه قدَّم للسانيّات التعاقبية مقاربةً تفسيريةً عامة للتغيير الصوتي، معتبراً أن ما ينبغي الوقوف عليه هو التطور الذي تكون له نتائجُ مباشرة على نَسَق اللسان في إطار ما يترتب عنه من تعديلات منتظمة ووظيفية. فما يحدث في الألسن من تغيُّرات ليس انتقالاً عرضياً أو معزولاً عن النَّسَق، كما كان يقول بذلك النُّحاة الجُدُد الذين اعتبروا التَّطورات الصوتية مجرد انتقال *transition*، فاهتمّوا بأنواع الانتقال بوصفها "صَيْرُورات "مستقلة وغير واعية أو نتيجة مبدإ القياس *analogie* مع إغفال تام للسياق النَّسَقي الذي يجري فيه التغيير.

يخضعُ التطور اللغويّ لمجموعةٍ من الشروط التي تتحكّم فيه وتدفع به نحو الاستقرار في النسق اللساني. وتقوم نظريةُ مارتينيه في الوصف التعاقبي على مبدأين أساسيين:

- الاقتصاد (السهولة)
- والدينامية الداخلية للسان

6.9.1. الاقتصاد

يمكن أن نفسّر التطورات التي تطرأ على اللسان باعتبارها نتاج ميل المتكلم نحو ما هو أسهل في الكلام، سواء أتعلق الأمر بنطق الأصوات، أم بتركيب الجمل. بالنسبة إلى نطق الأصوات، يفسّر مارتينيه التطورات الصِّواتية على ضوء ميل المتكلم إلى بدل أقل مجهود *le moindre effort* في كل نشاط لغوي من خلال ما يحتاج إليه المتكلم من كلمات جديدة تفي بغرضه في التعبير والتواصل اليومي، مع ميل شديد إلى تقليل النشاط العقلي والعضلي إلى أقصى درجة[104].

(104) *Eléments de linguistique générale*, p.176.

- مفهوم "أقل مجهود" استعمله بول زيف 1902-1950 *George K. Zipf* لتفسير نشاط الفرد. وقد عوضه مارتينيه بمفهوم الاقتصاد *Economie des changements phonétiques*, p.94.

6.9.2 . الدينامية الداخلية للسان

تتخذ الدينامية الداخلية للألسن مظهرين:

- مظهر لسانيّ محض يَهُمُّ النَّسَق اللساني بِرُمّته.
- مظهر يتعلّق بتلبية حاجات التواصل.

بالنسبة إلى المظهر الأول تخضع الوحدات اللغوية سواء أكانت صوتة أم كُلْمة لضغط مزدوج: "ضغط السلسلة وضغط النَّسَق". يُمَارَسُ الضغط الأول على الوحدة من قبل الوحدات المجاورة لها، ويتمّ داخل سلسة الملفوظ، وتأثير تمارسه الوحدات الموجودة معها في النَّسَق نفسه بحيث يمكنها أن تظهر في الموقع نفسه من المحور السياقيّ، والتي تمّ إبعادها حتى يتمكّن الفرد المتكلم من اختيار ما يكون ملائماً تواصلياً. وتكون هذه الضغوط صوتية بالنسبة للصوتات ودلالية بالنسبة للكُلْمات، ومع ذلك فهي تخضع للترتيبات نفسها. ومعنى هذا أن كل وحدة تميل إلى التماثل مع سياقها في الكلام وإلى التمايز عن مثيلاتها في النَّسَق نفسه[105].

أمّا المظهرُ الثاني للدينامية فيتجلى في قوّة اللسان الداخلية المترتّبة عن حاجات المجتمع باستمرار إلى كَلمات جديدة للتعبير عن رغبات ومواقف وتجارب خاصة. فكلُّ البنيات التركيبية والبنيات الصوتية الجديدة تلعب دوراً حاسماً في تغيير البنية الشاملة للسان. فتغيير البنية الاجتماعية وحاجاتها إلى وسائل تعبير جديدة يقود بالضرورة إلى التغيير اللغويّ. إنّ الموضوع الحقيقيّ بالنسبة إلى الباحث التاريخي في اللسان "هو دراسة الصراعات التي توجد داخل اللسان في إطار الحاجات الدائمة للكائنات البشرية التي تتواصل بواسطة اللسان"[106]. ويمكن ردّ أسباب الصراعات الداخلية في اللسان إلى ما يلي:

- الحاجة الملحة إلى التواصل،

---

(105) *Eléments de linguistique générale*, p.196-198.

يتعلق في الضغط الأول بما يعرف بالمماثلة *assimilation* في مجال الأصواتية.

(106) *Ibid*, p.176.

- الحاجة إلى مفردات جديدة بحسب ما تقتضيه الحياة اليومية.

- ثقل العادات اللغوية ومحاولة المجتمع المحافظة على ما هو متعارف عليه لغوياً بين الجماعة.

وتطور الألسن مُرْتَهِنٌ بتطور الحاجات التواصلية لدى الناطقين بلسان معيَّن نتيجة التحولات الفكرية والاجتماعية والاقتصادية وما تستلزمه من مستجدات لغوية قادرة أن تُلبي حاجة المتكلّمين إلى التعبير عن تجاربهم الجديدة. وقد يظهر التطور على نحو ملحوظ في مستوى معين من اللسان أكثر من مستوى آخر. ويصيب التطور اللغويّ في الغالب الأعمّ المستوى المعجمي، إذ "يُحدِثُ بروزُ مواد استهلاكية جديدة تسمياتٍ جديدة ويؤدّي التقدم في ميدان تقسيم العمل إلى خلق كلمات جديدة تتلاءم مع الوظائف والتقنيات الجديدة. ويتزامن هذا مع عملية نسيان المفردات المشيرة إلى الأشياء والتقنيات المتروكة"[107]. وخيرُ مثال على سلامة التحليل الذي يذهب إليه مارتينيه، ما عرفه اللسان العربيّ إبان النهضة الحديثة حيث تكاثرت المفردات الحضارية بسبب انفتاح المجتمع العربي على المدنية الغربية. وما زال هذا المسلسل مستمراً إلى يومنا.

إن كل حالة لغوية توازنٌ بين العناصر الثلاثة السابقة. ويشكل التوازن بين الوسائل اللغوية المتاحة والغايات المستهدفة من وراء التواصل ما يعرف بالمردود الوظيفي *le rendement fonctionnel*. "ما نسمّيه باقتصاد اللسان هو البحث الدائم عن توازن بين حاجات متناقضة يجب إرضاؤها: حاجات تواصلية من جهة، ومن جهة ثانية نزعة إلى الخمود في الذاكرة والنطق. ويكون هذان الأخيران في نزاع مستمرّ وتعيق فعل كل تلك العوامل محرمات مختلفة تطمح إلى تحجّر اللسان مبعدة كل تجديد صارخ وأكيد"[108]. فالتطور اللغويّ محكوم بالتناقضات الدائمة بين الحاجات التواصلية والتعبيرية للإنسان وبين نزعته نحو اختصار نشاطه الذهني والفيزيائي إلى أدنى درجة[109].

---

(107) **مبادئ ألسنيّة عامة**، ص201.

(108) المرجع السابق، ص206-207.

(109) *Economie des changements phonétiques*, p.94.

إنّ اللسان يتغير في كل اللحظات دون أن يتوقّف أبداً عن العمل بهدف التواصل"[110]، ممّا يجعل التغيير لا يؤثّر في التفاهم بين المتكلمين باللسان الواحد ولا يعيق التواصل بينهم، لأنّ "الإبقاء على التواصل اللغويّ يقتضي أن يبقى المتكلّمون على توافق حول قواعد النُّطق والنحو وحول معنى الكلمات وقيمة توافقها[111]. "فالمتكلمون لديهم إحساس بأن لسانهم هو نفسه، ثابت وقار لا يتغير. و"كلّ شيء يساهم في إقناع الأفراد بثبات وتجانس اللسان الخاص الذي يمارسونه: استقرار الشكل الكتابي، والمحافظة على اللسان الرسمي والأدبي وعدم استطاعة الأفراد تَذَكُّر كيف كانوا يتكلمون من عشرة أو عشرين سنة"[112].

وبفضل مفهوم الوظيفة تتجاوز صِواتةُ مارتينيه الوظيفية التقابلَ الصارم الذي أقامه سوسير بين ما هو تزامُن وما هو تعاقُب. "فإذا كان النَّسَق يتكون من اشتغاله، واللسان يستمرّ في الاشتغال رغم أنه يتغير بصفة دائمة، فهذا يعني أن ليس هناك اختلاف موضوعي بين التغيير والاشتغال النسقي في تزامن ما، وهو ما يفسّر الشعار الذي رفعه مارتينيه، إن الألسن تتغير لأنها تشتغل"[113].

خاتمة

لقد ساهمت وظيفية مارتينيه في تطوير التحليل الصِّواتي التي سطّرت خطوطه العامة حلقةُ براغ وتابعه مارتينيه في مستوى التزامن والتعاقب. ويمكن القول بأن تصوّرات مارتينيه اللسانيّة استمرار لمبادئ حلقة براغ على المستوى الصوتي. أما في مستوى التركيب، فإن مارتينيه استطاع أن يقدّم تركيباً وظيفياً استمدّ أصوله الأولى من تصوّرات سوسير مثل: الوظيفة والبنية والتمييز بين

(110) **وظيفية الألسن وديناميتها**، ص77.

(111) المرجع السابق، ص77.

(112) **مبادئ ألسنيّة عامة**، ص200.

(113) Pierre Swiggers et Stijn Verleyen. «Principes fonctionnels (dans l'explication) du changement linguistique», p.107, in *La linguistique*, nº38 fascicule 2/2002, (p.105-116), Paris, PUF.

اللسان والكلام. كما استفاد من منهجيات بنيويّة أخرى مثل اللسانيّات التوزيعية الأميركية والغلوسيماتيّة. فآثار التوزيعية واضحة عنده من خلال ابتعاده عن التحليل الصّرافي القائم على معنى الوحدات وتحليل مُكوِّنات الجملة إلى الكُلْمات الإسنادية (ما يقابل تقريباً المُكوِّنات المباشرة الأساس عند التوزيعيين)، وعدم الاهتمام مباشرةً بالتحليل الدلالي. بينما تبدو آثار الغلوسيماتيّة واضحةً في عملية التمفصل المزدوج التي تقترب من ثنائية تعبير/مضمون ودراسة الدال والمدلول بالإجراءات نفسها وبالأهمّية نفسها وهو ما يوازي مفهوم التشاكل عند الغلوسيماتيّة.

لكنَّ الغائب البارز في المقاربة الوظيفية هو الجانبُ الدلالي. صحيح أنَّ قضايا الدلالة من منظور مارتينيه ليست محصورةً في جانب دون آخر، بل هي مرتبطة بالشكل مادام هذا الشكل تحدّده الوظيفة. وقد رأينا كيف أنَّ الوظائف التركيبية تلعب دوراً أساسياً في بناء المعنى الذي ينقله الملفوظ. وكان مارتينيه قد اقترح ما سمّاه بالقِيمية *axiologie*[114] التي تتعلّق بدراسة القِيمة الدلالية للكُلْمات أيْ السِّمات المُكوِّنة لمدلول الوحدات المعجمية والنحوية، وكذلك آثار المعنى التي يمكن أن تنتجها الوظائفُ التركيبية من خلال مواقع الوحدات والعلاقات الداخلية التي تربطها داخل الملفوظ. إنه حضور غير منسق لمُكوِّن هامّ في النشاط اللغويّ هو المُكوِّن الدلالي.

(114) مبادئ ألسنيّة عامة، ص243-244.

الباب الثالث

اللسانيّات الأميركيّة

الفصل الأول

اللسانيّات الوصفيّة في أميركا: الأصول والروّاد

1.1. من الأنثروبولوجيا إلى اللسانيّات

تعود البداياتُ الأولى للسانيّات الأميركيّة إلى اللساني ويليام ويتني[1] الذي يعدّ بحقّ، ولعدّة اعتبارات، أول علماء اللغة في أميركا الحديثة ورمزاً لجيل كامل من اللسانيّين الأميركيين لارتباطه بالدعوة إلى الوصف اللساني[2]. وكان ويتني متشبعاً بأفكار النّحاة التاريخيين كما تدلّ على ذلك أعماله المنشورة في نهاية القرن التاسع عشر التي سرعان ما تمّت ترجمتها إلى العديد من الألسن مثل الألمانية والإيطالية والفرنسية. وعُرِفَ ويتني بمعارضته الشديدة ومواجهته القوية لأفكار شلايشر زعيم تيار العُضْوانية *organisisme* في اللغة، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وهم اللغويون المتأثّرون بأفكار داروين التي تم تطبيقها على اللغة البشرية لاسيما منذ عمل شلايشر الشهير **الداروينية واللسانيّات** 1863. وكون اللغة جهازاً يَنْمُو ويتطور ثم يموت لا يعني بالضرورة بحسب ويتني أن اللغة حدث طبيعي. واشتهر ويتني أيضاً بنقده ماكس مولر (1823-1900) *Max Muller*[3]

---

(1) Whitney William Dwight. *La vie du langage*, Paris, Gremer Baillère, 1875.

(2) Julie Anderson. «La formation de l'école américaine», p.323, in Sylvain Auroux. *Histoire des idées linguistiques*, tome 3, Bruxelles, Mardaga, 2000.

(3) Max Muller. *Nouvelles leçons sur la science du langage*, Paris, A. Durand et Pédone Lauriel Libraires-Editeurs, 1867/1863.

المعروف بتبسيطه المبالغ فيه للفكر اللساني، كما رفض ويتني التصوّرات اللغوية الموروثة عن همبولدت التي روّجها لها في القرن التاسع عشر ما يعرف بالهمبولدتيين الجُدُد ومن بينهم هيمان ستاينتال (1823-1899) Heymann Steinthal[4].

وقد أشار سوسير في دروسه إلى ويتني مُنَوِّهاً بأفكاره المتعلّقة بكون اللغة أداة تواصل وبأن العلامات اللغوية اعتباطية، وبكون اللسان مؤسّسة اجتماعية بامتياز[5]. ولم يتردّد سوسير في وصف ويتني بأنه وضع اللسانيّات على محورها الأساسي، غير أنه لم يُكْمِل الشوط حتى النهاية"[6]. ونقرأ في "**كتابات**" المنشور أخيراً نصّ العرض الذي كان سوسير ينوي تقديمه سنة 1894 بمناسبة تأبين ويتني، وفيه ترحيب كبير من قبل سوسير بآرائه وإعجابه بدوره الكبير في قيام لسانيّات علمية على أسس جديدة[7]. واعتبر بلومفيلد مؤلّفات مواطنه ويتني بمثابة مقدّمات ممتازة في دراسة اللغة[8]. ويذهب مؤرّخ اللسانيّات جورج مونان *Georges Mounin* إلى أن ويتني يمثل مصدراً أساسياً ليس للسانيّات الأميركيّة فقط، وإنما أيضاً للسانيّات الأوروبية من خلال تأثيره القويّ في فكر سوسير[9].

ومع بداية القرن العشرين، تمكّنت اللسانيّات الأميركيّة من أن تخلق لنفسها إطاراً نظرياً ومنهجياً خاصاً بها ميّزها عن نظيرتها الأوروبية[10]، فكانت لها قضاياها الفكرية العامة ومشاكلها الخاصة بها التي تختلفُ عما كان معروفاً في أوروبا في الفترة الزمنية ذاتها، وبالتالي أصبح من المعقول جداً أن نتحدّث عن لسانيّات أميركية من نوع خاص أو لسانيّات تحمل علامة "صُنِعَ بالولايات

---

(4) Georges Mounin. *La linguistique au 20ème siècle*, p.16.

(5) F. de Saussure. *Cours de linguistique générale*, p.26 et p.110.

(6) **محاضرات في الألسنيّة العامة**، ترجمة يوسف غازي ومجيد النصر، ص92.

(7) F. de Saussure. *Ecrits de linguistique générale*, texte établi et édité par Simon Bouquet et Rudolf Engler, Paris Gallimard, 2002, p.203-222.

(8) L. Bloomfield. *Le langage*, p.21.

(9) Georges Mounin. *La linguistique au 20ème siècle*, p.15.

(10) انظر الفقرة المتعلّقة بالفرق بين اللسانيّات الأوروبية واللسانيّات الأميركيّة من الناحية المنهجيّة والنظرية (الفصل الثالث من الباب الأول).

المتحدة الأميركيّة *made in USA* بحسب تعبير مالمبرغ(11). وأهمّ ما يميز اللسانيّات الأميركيّة هو الإطار الفكريّ الذي ظهرت فيه وتطورت إلى أن استقامت وأصبحت على ما هي عليه مع سابير وبلومفيلد، لها سماتها وملامحها التي تميِّزها عن اللسانيّات الأوروبية. فإذا كانت اللسانيّات العامة في أوروبا قد ارتبطت في نشأتها بالفيلولوجيا المقارنة أو التاريخية، وكان أعلامها على دراية كبيرة بالألسن الكلاسيكية (اليونانية/ اللاتينية) وبالألسن الأوروبية الحديثة وآدابها، فإنّ اللسانيّات الأميركيّة نشأت في ارتباط وثيق بعلمين آخرين هما علم النفس والأنثروبولوجيا. وقد ازدهرت هذه الأخيرة في أميركا نتيجة ما وفّرته من أساليب جديدة لدراسة المحيط الحضاريّ والعِرْقيّ للأقليات اللغوية والإثنية التي يتشكّل منها الشعبُ الأميركي. وتبعاً للتقليد الذي أرساه بوعاز، فقد انبثقت أقسام اللغويات في الجامعات الأميركيّة من أقسام الأنثروبولوجيا بعكس ما حصل في الجامعات الأوروبية التي انبثقت فيها اللسانيّات العامة من أقسام الألسن الحديثة(12). ونظراً للتداخل الوثيق بين الأنثروبولوجيا واللسانيّات، كان جُلّ اللسانيين الأميركيين أنثروبولوجيين، وكان العديد من الأنثروبولوجيين لسانيين. وللأنثروبولوجيا في الفكر الأميركي دلالة أعمّ وأشمل ممّا هي عليه في أوروبا، فهي تشمل ضمن أشياء أخرى، ما يسمّى بالإثنولوجيا وبعض جوانب علم الاجتماع وتاريخ الأديان(13). والإثنولوجيا هي العلمُ الذي يختصّ بدراسة الظواهر العقلية في حياة الشعوب. وكان الرأي السائد في هذه الفترة أن اللسانيّات باعتبارها دراسة أحد أهمّ الجوانب في حياة الفرد والجماعة يجب أن تكون جزءاً من الإثنولوجيا. ويعدّ سابير أبرز نموذج في هذا الاتجاه. فَفَضْلاً على كتاباته اللسانيّة المتميزة والرائدة بالنسبة إلى الفترة التاريخية التي ظهر فيها بدءاً بكتاب **اللغة** الصادر سنة 1921، عُرِفَ الرجل بدراساته القَيِّمة والمتميزة في

---

(11) Bertil Malmberg. *Les nouvelles tendances de la linguistique*, Paris, PUF, 1972/ 1962, p.238.

(12) جيفري سامبسون، **المدارس اللغوية، التطور والصراع**، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1993، ص61.

(13) *Les nouvelles tendance de la linguistique*, p.239.

مجال الأنثروبولوجيا. وربما جاز لنا القول بأنّ أبحاثه الأنثروبولوجية فاقت من النَّاحية النَّظرية والمنهجية والميدانية قيمة ما قام به في اللسانيّات.

لقد سعى الأميركيون[14] خلال القرن التاسع عشر، بعد تثبيت الوحدة السياسية واستقرار الإنكليزية بوصفها لغة رسمية للبلاد إلى المحافظة على التراث اللغويّ والحضاري الذي كانت تزخرُ به بلادهم نتيجة وجود مئات الألسن المحلية التي كانت تتكلم بها قبائلُ الهنود الحمر، وهي ألسن مجهولة الأصول لم تكن تملك أيّ وصف لغويّ أو تقعيد نحوي يذكران. وكانت الحاجة ماسة إلى البحث عن الوسائل التي تُمَكِّن من المحافظة على هذا التراث اللغويّ والثقافي الغنيّ والضخم لمدّ جسور التواصل والاتصال بهذه الشرائح الاجتماعية (الغريبة)، وتجنباً لكل نسيان أو اندثار محتمل لذاكرتها الشعبية. وليس معنى هذا أنّ ألسنَ الهنود الحمر لم تدرس من قبل. تشير المصادر إلى أنه شُرع في دراستها منذ القرن الثامن عشر، إذ "ترجع الدراسات الوصفيّة لهذه الألسن إلى عام 1788، حيث وصف جوناثان إدوارد *Johnathan Edwards* لسانَ الهنود في مساشوستس متبعاً في وصفه المناهج التقليدية"[15] التي تعتمدُ مفاهيم ومقولات النحو الهندي-الأوروبي. غير أنّ المعلومات المتعلّقة بهذه الألسن لم تكن تتجاوز حدودَ القوائم المعجمية، أي كتابة المفردات كتابة صوتية، ومقابلتها بما يناسبها من الإنكليزية، وأوليات بسيطة جداً في التركيب على منوال النحو الإغريقي.

---

(14) لمزيد من التفاصيل عن المشروع المتعلّق بوصف الألسن المحلية في أميركا في إطار اللسانيّات الأنثروبولوجية يمكن الرجوع إلى مقال Julie Andeson السالف الذكر، ص324 وما بعدها.

(15) ميلكا إيفيتش، **اتجاهات البحث اللساني**، ص282. وتشير المؤلّفة إلى أن بداية النشاط اللغويّ في أميركا تعودُ إلى القرن السادس عشر حين "بدأت الدراسات الوصفيّة لبعض اللغات الأميركيّة والفليبينية بالوصول إلى أوروبا عن طريق التقريرات التي أرسلتها الإرساليات الإسبانية. وفي نهاية القرن الثامن عشر، تمّ التعرف إلى وجود ما يقرب من مائتي لغة. ومع العقد الأول من القرن التاسع عشر وصل العدد إلى ما يقرب من خمسمائة" . ميلكا إيفيتش، **اتجاهات البحث اللساني**، ترجمه عن الإنكليزية سعد عبدالعزيز مصلوح ووفاء كامل فايد، منشورات المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة. 2000/ 1965، ص39.

وللقيام ببعض الأعمال والمهامّ الإدارية والعسكرية (بسط الهيمنة وتوحيد البلاد والإدارة الترابية) والتواصل مع الأقليات الهندية - الأميركيّة، كان لابدّ من معرفة بنيات هذه الألسن في شمولياتها، بما فيها الشروط الاجتماعية والثقافية، والتقاليد والعادات. ومن هنا كان البحث اللساني الأميركي في هذه المرحلة متأثراً إلى حدّ كبير باعتبارات خارج- لغوية تندرجُ في مجال فكري أوسع يتسع جداً ليشمل ظواهر أخرى تتجاوز حدود ما هو لغويّ صرف، كانت معه الحاجة مُلِحَّةً إلى معارف ومبادئ منهجيّة من علوم إنسانية أخرى، مثل الأنثروبولوجيا، وعلم الاجتماع، وعلم النفس[16].

في هذا السياق السياسي والفكري، جاءت فكرةُ وصف الألسن المحلية في أميركا الشمالية التي قاربت الألف لسان محلي. وقد بدأ اهتمامُ الأميركيين بقضايا اللغة أول ما بدأ بهدف وصف شامل للألسن المحلية التي لم يكن لها تقاليد لغوية شفوية أو مكتوبة، ولم تكن تتوفر على أيّ وصف شامل لبنياتها مثل ما هو الحال بالنسبة إلى الألسن الغربية. ومن هنا، اكتسبت اللسانيّات الأميركيّة وجهتها العملية والتطبيقية. لقد أدرك اللسانيون في أميركا في بداية القرن العشرين المهمة الملقاة على عاتقهم والمتمثلة في "دراسة الواقع اللغويّ ووصفه بواسطة تقنية ملائمة، وعدم إقحام أي فرضيات نظرية عامة أو تاريخية لمباشرة هذا الوصف الذي يجب أن يكون تزامنياً، وأن يحلّل اللسان إلى عناصره الصورية الخاصة"[17]. وتبعاً لهذه العناية البالغة بالألسن التي لم يسبق وصفها، ظهرت إذن تسمية **اللسانيّات الوصفيّة** *linguistique descriptive* في أميركا وانتشرت حتى لازمت اللسانيّات الأميركيّة، مقابل **اللسانيات العامة** *linguistique générale* التي ظهرت في أوروبا وتهتمّ بدراسة ووضع المبادئ العامة المتحكّمة في الألسن الطبيعية. واعتباراً لهذه المنطلقات العملية والتطبيقية الخاصة بالألسن المحلية في أميركا الشمالية عموماً (الولايات المتحدة وكندا)، لم تهتمّ اللسانيّات الوصفيّة بما كان يروج في أميركا وأوروبا من تصورات لسانيّة ومناهج مقارنة تاريخية

(16) Enrico Arcaini. *Principe de linguistique appliquée*, Paris, Payot, 1972/967, p.94.

(17) Emile Benveniste: *Problèmes de linguistique générale*, tome 1, Paris, Gallimard, 1966, p.20.

ناشئة، رغم وجود العديد من كبار ممثليها في أميركا أمثال ويتني الذي سبق الحديث عنه. كما تُعَدُّ اللسانيّات الوصفيّة في أميركا وجهة مضادة للدراسات النحوية التقليدية في الغرب القائمة على التصحيح اللغويّ وانتقاء الأساليب السليمة في اللسان، أي الإقرار بوجود معايير لغوية تحدّد الاستعمالات الصحيحة التي تعدّ وحدها المقبولة، وينبغي اتباعها.

2.1. المصادر الأساس للسانيّات الأميركيّة

ارتبط الدرسُ اللساني الأميركي بثلاثة مؤلّفات رئيسية أرست أسسه العامة ورسمت ملامحه وهي:

- **الدليل إلى الألسن الهندية-الأميركية** *Hand book of American-Indian Languages* لفرانز بوعاز (1858-1942) الذي صدر الجزء الأول منه سنة 1911.
- **اللغة** *Langage* لإدوارد سابير (1884-1939) *Edward Sapir* الصادر سنة 1921.
- **اللغة** *Langage* لليونارد بلومفيلد (1887-1949) الصادر سنة 1933.

وتقدّم هذه المؤلّفات الثلاثة بكيفية مختلفة أهمّ الأطروحات الأساسية التي تعدّ بدون جدال منطلقَ اللسانيّات الأميركيّة في اتجاهاتها المتعدّدة. و"تاريخ اللسانيّات البنيويّة الأميركيّة هو تاريخ التأثيرات المتبادلة لهذه المصادر الثلاثة"[18].

وتنقسمُ اللسانيّات البنيويّة الأميركيّة إلى اتجاهين بارزين:

- لسانيّات عقلية/ذهنية ولسان حالها هو مجلة *Word* ومقرها نيويورك. ويعتبر سابير الأب الروحيّ لهذه اللسانيّات. وتأسست حول هذه اللسانيّات حلقة نيويورك التي أنشأها اللسانيون النازحون من أوروبا أمثال جاكبسون ومارتينيه وغيرهما. وتمثل حلقة نيويورك اللغوية نوعاً

(18) H. A. Gleason: *Introduction à la linguistique*, p.169-170.

من جامعة المنفى لعلماء أوروبيين هربوا من الفاشية. وتمّ الحديث بشأنها كفرع من حلقة براغ، ولذلك فهي أسيرة وبقوة للاتجاهات الأوروبية[19].

- اللسانيّات مع بلومفيلد أو ما يعرف كذلك بمدرسة ييل *Yale* ولسان حالها مجلة *Language* الذائعة الصيت التي ظهرت في 1925 والناطقة باسم الجمعية الأميركيّة للسانيّات التي تأسست سنة 1924 بمدينة نيويورك.

1.2.1. فرانز بوعاز *Franz Boas*

من أبرز الأسماء المؤسّسة للسانيّات الوصفيّة الأميركيّة فرانز بوعاز الذي بدأ حياته العلمية متخصّصاً في الفيزياء والجغرافيا، ليتحول بعد ذلك إلى الأنثروبولوجيا ويتخصّص في دراسة قبائل أميركا الشمالية. اكتشف بوعاز خلال دراسته للمجتمعات الهندية-الأميركيّة الأصلية وثقافتها، أهميةَ اللغة باعتبارها مفتاحاً ضرورياً لولوج ثقافة مجتمع معين وفهم أبعادها ومكوناتها وخصوصياتها. ويمكن القول بأنّ البحث اللغويّ الذي أرسى همبولدت دعائمه في أوروبا حول علاقة اللغة بعقلية الشعوب التي تتكلمها قد ترسّخ نهائياً مع أعمال بوعاز حول الألسن الهندية الأميركيّة[20].

يعدّ بوعاز أستاذ كلّ اللسانيين الأميركيين ـ أمثال بلومفيلد وسابير وغيرهما ـ الذين سيؤثّرون في مسار اللسانيّات وصيرورتها عموماً وفي اللسانيّات الأميركيّة على وجه مخصوص. "فهو أول من جعل الوصف التزامني غاية الاهتمام الأساسية"[21] راسماً الملامح المنهجية العامة للبحث في الألسن المحلية وتصنيفها ووصفها وذلك في مقدّمة كتابه السالف الذكر الذي يعدّ أضخم عمل في مجاله، وتمّ فيه رصد خصائص مئات الألسن المحلية التي تمّ التعرف عليها،

---

(19) غيرهارد هيلبيش، **تاريخ علم اللغة الحديث**، ص119.

(20) Bertil Malmberg. *Histoire de la linguistique de Sumer à Saussure*, Paris, PUF, 1991, p.462.

(21) ميلكا إيفيتش، **اتجاهات البحث اللساني**، مرجع سابق، ص274.

ووصف قواعدها الصوتية والصرفية والنحوية والمعجمية بشكل منهجيّ لم يسبق له مثيل. ومع ذلك فإنّ بوعاز لم تسعفه تقنياتُ عصره وأدواتُ ومفاهيمُ لسانيّات الفترة التي عاش فيها في الكشف عن طبيعة الألسن الجديدة التي يختلف ناموسها النحويّ والدلاليّ في الكثير من الأمور المتداولة في التقاليد اللغوية الأوروبية. فلم تكن ترسانة الصِّواتَة التي ساهم كلّ من سوسير ودي كورتناي وأعضاء حلقة براغ وبلومفيلد، وما ظهر لاحقاً من مفاهيم جديدة، مثل الصوتة والبدائل الصوتية والتقابلات والسمات المميزة قد استقرّ بين اللسانيين في أوروبا وأميركا. ويرجع الفضل إلى بوعاز في إبعاد الكثير من الآراء والأحكام المسبقة والجاهزة حول طبيعة الألسن الهندية-الأميركية وبنياتها الصوتية والتركيبية والمفهومية، ومنها القول بأنها ألسن ليس لها نطق أو مخارج صوتية محدّدة ودقيقة أو سمات صوتية مميزة في مستوى ما هو متعارف عليه في الألسن الهندية-الأوروبية. وقد استمرّ سابير وورف ـ في إطار ما عرف باللسانيّات النسبية ـ في الدفاع عن مواقف بوعاز بشأن خصوصية الأنساق اللسانيّة واكتفائها بذاتها في التعبير عن حاجات المتكلمين في التواصل اليومي.

إنّ هذا الإطار التاريخيّ هو الذي يفسّر انبثاق اللسانيّات الأميركيّة من داخل أقسام الأنثروبولوجيا الاجتماعية. وقد خرج بوعاز من دراسته الطويلة للألسن الهندية-الأميركيّة المحلية بجملة من الخُلاصات والأفكار اللسانيّة الهامة أبرزها، أنّ البناء المنطقي واللغويّ المتداول في التقليد اللغويّ الأوروبي، لا يمكن أن يكون معياراً ونموذجاً تُسْقَطُ عليه بنيات باقي ألسن الكون، لاسيما الأَلْسُن التي ليس لها تقاليد لغوية معروفة أو تاريخ لغويّ مكتوب، مثلما هو الحال بالنسبة إلى ألسن الهنود الحمر في أميركا الشمالية، نظراً لما بينها وبين الألسن الهندية-الأوروبية من اختلافات جوهرية. ومن الخطإ منهجياً الاعتقاد أن ثمة منطقاً أو حدوداً مثالية يمكن أن تُسْتَمَدَّ من الألسن الغربية، ليتقيد بها وصفُ ألسن أخرى ويخضع لها تحليلها. وبالفعل فقد وضع وصف الأنماط اللسانيّة في الألسن الهندية-الأميركيّة مشاكل تقنية جديدة أمام الطريقة التقليدية المتَّبعة أوروبياً في دراسة الألسن الإغريقية ـ اللاتينية[22]، "فالأطر التقليدية المستعملة في

(22) Emile Benveniste. *Problèmes de linguistique générale*, tome 1, p.6.

دراسة الألسن الهندية-الأوروبية وتحليلها، لا يمكن أن تُطبَّق على نظائرها الهندية-الأميركية التي تتوفر على مقولات مغايرة كلياً[23]. وليس للباحث أن يفرض طرقاً غريبة عن المادة اللغوية المدروسة مثل الطريقة النحوية التقليدية والمَقُولات المستعملة منذ زمن بعيد في التحليل النحويّ الأوروبيّ، بل العكس هو ما يجب أن يحصل، أي إن المادة اللغوية المعروضة للوصف هي وحدها التي تفرض على الباحث أن يسلك هذا المسلك أو ذاك، وأن يختار من طرائق التحليل وأدواته ومَقُولاته ما يناسبُ المادة اللغوية التي تملك منطقاً خاصاً بها. وليس من المنهجي في شيء إخضاعها لمنطق لسان آخر أو مبادئ نظرية عامة مُهَيَّأة قبلياً.

إنّ ثَمّة خصوصيات لسانيّة بارزة مثلما توجد خصوصيات ثقافية وحضارية وجغرافية. ولكلّ لسان تنظيمه الخاص به، لا يُشاركه فيه لسان آخر. وقادت بوعاز تجربتُه الطويلةُ في عالم ألسن الأقليَّات الأميركيّة وثقافاتها المُتنوِّعة إلى القول بضرورة الفصل بين العِرْق (*race*) واللغة والثقافة، وهي مُكوِّنات ليس من المؤَكَّد أن تجتمِع دفعةً واحدةً بالنِّسبة إلى الثقافة الواحدة أو اللُّغة الواحِدة أو العِرق الواحد. وكان من نتائج هذا الوضع أن اضْطُرَّ الوصفيُّون الأميركيُّون إلى إيجاد آليات جديدة كلياً للتَّعامِل مع هذه الألسن غير المألوفة، تم في ضوئها اقْتراحُ منهجيّةٍ جديدةٍ للتَّحليل اللسانيّ.

1 . 2 . 2. إدوارد سابير

في المسار نفسه دافع لسانيٌّ آخر هو إدوارد سابير في كتابه **اللُّغة** الصَّادر سنة1921 بقُوَّة عن مثل أفكار بوعاز، وقدَّم أمثلةً لغويّة ملموسة للاختلافات القائِمة بين بنيات الألْسُن الأوروبية والألسن الهندية- الأميركيّة. وتمَّ تطوير هذا النَّوع من الأبحاث التي تربط الألسن بمُحيطها الثَّقافي في إطار ما أصبح يُعرَف بفرضية وورف- سابير أو "اللسانيّات النسبيّة"، ومفادها أنّ رؤية العالم الخارجيّ وإدراكه مسألة نسبية، فلا يَتِمُّ الوعي بالواقع وإدراكه إلّا عبر اللِّسان الَّذي يتكلَّمه

(23) *Ibid*, p.20.

الفرد[24]. وتُعدُّ تصوُّرات سابير اللُّغوية استمراراً للأبحاثِ التي قيمَ بها في إطار القضايا الفِكريّة والفلسفيّة الكبرى التي شكَّلت محور الفِكر الأوروبي منذ القرن التَّاسع عشر، وعُرِفت عن مفكّري أوروبا ولغويِّيها أمثال، هيردر وهمبولدت وكروتشه[25] وغيرهم. "فالأَرضيّة الجوهريّة للُّغَة، تطوير نظام صوتيّ واضح الحدود، والاجتماع المتميِّز بين العناصر اللُّغويّة والمفاهيم والتَّزويد الدقيق للأبنيّة الشَّكلية بمختلف الأَضْرب من التعليق - يتجلى لنا كلُّ ذلك شديد الاكتمال والانتظام في اللُّغات المعروفة"[26]. وقد شكَّل الإنْسانُ في أبعاده النفسيّة والاجتماعيّة والأنثروبولوجية والفنيّة وغيرها محورَ دراسات سابير وأبحاثه العديدة. وأكَّد سابير على أهميّة الدِّراسات اللسانيّة وجدواها لفهم الجوانب المختلفة في ثقافة من الثَّقافات الإنسانيّة. فلا يمكن أن تَتِمَّ الدِّراسة العلميّة لثقافة مُعيَّنة دون المعلومات الَّتي تقدِّمها اللسانيّات، وبمعنى ما، فإن النَّماذج الثَّقافية لحضارة ما تكون مُسَجَّلة في اللُّغة التي تُعبِّر بها. ومن الخطإ الاعتقاد أَنَّه بالإمكان تَصوُّر القدرة على إدراك الجوانب المُمَيِّزة للثقافة بالملاحظة وحدها دون الاستعانة بالرَّمزية اللُّغَوية التي تجعل هذه الجوانب مُدْرَكةً[27]. وتميَّزت أعمال سابير في مختلف المجالات المعرفيّة بتتبُّع دقيق لسلوكات الإنسان المتنوِّعة في تجلياتها ومواقفها المتعددة، أبان فيها عن حسٍّ فَنيٍّ وتعامل مُرهف مع الشَّخصيّة الإنسانيّة تعكس ميلاً واضحاً وتعاطفاً حميماً معها، حتى قيل عنْه إنَّه أكْثر اللسانيِّين الأميركيين إنسية *le plus humaniste des linguistes américains*[28]. كان سابير يمتلك قُدرةً سحرية على النُّفوذ إلى عمق النَّشاط اللُّغوي في أبعاده ومُكوِّناته المختلفة في علاقاتها بالنَّفس وبالمجتمع وبالثَّقافة والأدب والفنون. إنها اللُّغة، ذلك الإرث التاريخي للمجموعة البشرية متحضِّرة كانت أم بدائية، وليس

---

(24) انظر كتابنا: **في اللسانيّات العامة**.

(25) أشار سابير في الصفحة الأولى من مؤلّفه إلى كروتشه واصفاً إياه «بأنه أحد القليلين الذين أدركوا الدلالة الأساسية للغة». (*langage*, p.7).

(26) إدوارد سابير، **اللغة، مقدمة في دراسة الكلام**، ص34.

(27) Edward Sapir. «La place de la linguistique parmi les sciences», in *La linguistique*, Paris, Minuit 1968/1928/1929, p.135.

(28) G. C. Lepschy. *La linguistique structurale*, p.101.

هناك شعوب على الأرض ليس لها لغة. لذا شكل البحثُ في جوهر اللغة في علاقاتها المتعدّدة بالاهتمامات الإنسانية مثل، إشكالية الفكر وطبيعة التطور التاريخي، والعِرْق والثقافة، والفن محورَ مباحث سابير[29] التي كانت أشبه بدائرة معارف حقيقية. وتتجلى ثقافةُ سابير الموسوعية في تعامله المتعدّد مع الوقائع اللغوية، حيث تناول اللغة من جوانب متباينة ومتكاملة في الوقت ذاته نذكر منها:

- الجانب الاجتماعي للغة المتمثل في التواصل،
- الجانب التقني للغة بما في ذلك طبيعة اللغات الاصطناعية،
- الجانب الإبداعي والجمالي للغة،
- الجانب الأدبي للغة كتابة ومشافهة.
- الجانب الوجودي والنفسي من خلال إشكالَيْ علاقة اللغة بالفكر وعلاقة اللغة بالواقع[30].

ينطلقُ سابير من تعريف عام للغة *langage*. إنها وسيلةُ تواصل إنسانية خالصة وليست غريزية، للتعبير عن الأفكار والعواطف والرغبات بواسطة نسق من الرموز التي ابتكرت لهذا الغرض[31]. فالتواصل والرمزية سمتان أساسيتان في اللغة البشرية، لكنّ اللغة هي أيضاً شكل ومضمون مجتمعان في تضامن وثيق مع الفكر. فاللغة في جانبها الداخلي أثر للفكر، "فلا يمكن تصور التفكير مجرداً من الكلام في نشأته اليومية وممارسته"[32].

---

(29) Edward Sapir. *Le langage*, Paris, Payot, 2001/1921, p.7.

(30) G. C. Lepschy. *La linguistique structurale*, p.102.

(31) Edward Sapir. *Le langage*, p.15.

(32) إدوارد سابير، **اللغة، مقدمة إلى دراسة الكلام**، ترجمة المنصف عاشور، تونس، الدار العربية للكتاب، ج1، ط2/ 1997، ط1/ 1987/ 1921؛ ونجمع في الإشارة إلى كتاب سابير بين النسخة العربية والنسخة الفرنسية كلما كان التعبير واضحاً من حيث الفكرة المراد التنصيص عليها.

1.2.3. إرهاصات بنيويّة

يقدّم سابير في كتاب "**اللغة**" تحليلاً شاملاً للغة بدءاً بالأصوات وانتهاء بالدلالة مروراً بالتركيب. ويوحي كل شيء في اللغة عند الإنسان بالتعقيد والبساطة في الوقت ذاته، وازدواجية في كل شيء: الشكلي والوظيفي، المادي والمعنوي، النفسي والفيزيولوجي، الطبيعي والثقافي، الانتظامي والفوضوي، المطلق والنسبي، المطَّرد والشاذ، الإرادي واللاإرادي، الحرّ والمقيَّد ..الخ. لكن هذا الخليط غير المتجانس لا يمنع من تحليل المنهجي قائم على الانتظام دون أي شيء آخر. فحقيقة جوهر اللغة البشرية هي شيء آخر غير هذه الفوضى. إنَّها كل لا يتجزأ: صوت ومعنى، شكل ووظيفة. "إن اجتماع العناصر الأصول والعناصر النحوية والكلمات والجمل اجتماعاً عادياً بالمفاهيم أو بمجموعات من المفاهيم التي يتعلّق بعضها ببعض في أنظمة متماسكة هو نفسه حقيقة اللغة"[33]. ولا شك أنّ هرمية التحليل هذه تُذَكِّرنا بجوهر المقاربة البنيويّة المتعلّقة بتحليل اللغة إلى مستويات عند البنيويين الأميركيين. ويشعر المرءُ عندما يقرأ نصوص سابير[34] أنه بالفعل أمام تحليل بنيوي لا يختلف في شيء عن تحليل البنيويين في أميركا وأوروبا، تحليل لا ينقص من "بنيويته" سوى المصطلحات المناسبة للتعبير عَمَّا أشار إليه سابير حدسياً وحدَّده بدقَّة دون أن يسمِّيه التَّسميّة المناسبة. فلم يستعمل سابير في كتاب "**اللغة**" مفاهيم مثل الصُّرفة أو الصوتة أو البنية أو العلاقات الداخلية، وما إلى ذلك من المفاهيم الأساس في التحليل البنيوي، ولكنّ إحساسه بها وإدراكه لها تصوّرياً وعملياً كان موجوداً في تأمله وتفكيره. ويظهر هذا الوضع جلياً عندما نقرأ تحليله للكَلمة من خلال أمثلة محدّدة من اللغة الإنكليزية، حيث يستعمل سابير عبارة "العنصر ذو الفكرة التامة" أو "الكَلمة المستقلة". وتحلل الكَلمات بحسب سابير *sings* و*singer* و*singing* كعبارات مزدوجة تتضمّن مفهوماً جوهرياً أو ملموساً *concept concret* وآخر أكثر تجريداً مثل: الشخص والعدد والزمن الخ. أي إن هناك عدة مفاهيم منتظمة. وبعبارة أخرى هناك الكلمة التامة والمستقلة[35] *mot complet et indépendant* أو ما يسمّى

(33) المرجع السابق، ص52.
(34) المرجع السنابق، ص35.
(35) المرجع السابق، ص35.

بالجذر ومجموعة من الصيغ *s-ing-er* التي تُحيل على مفهوم ثانويّ يكون عادة أكثر تجريداً يمكن أن نسمّيه العنصر النحوي *élément grammatical* أو اللاصقة *affixe*. وليس ضرورياً أن تأخذ هذه العناصر المضافة صفة اللاصقة كأن ترد سابقة للجذر أو لاحقة به أو في وسطه، ولكنها قد تكون أيضاً بتضعيف أحد حروف الجذر أو تغييره بحرف آخر *sung-song* أو *dead-death*. وتشترك هذه العناصر كلها في خاصية واحدة، وهي أنَّها لا ترد في أغلب الحالات مُستعمَلةً بمفردها، بل ينبغي أن تكون مرتبطة بكيفية معينة بالجذر أو ملتحمة به لتأخذ كامل قوتها. ولا شكّ أن سابير في هذا التحليل المبسّط والدقيق يحدس بشكل واضح مفهوم الصُّرفة (المورفيم) كما يتضح من تعريفه للكَلمة: "الكلمة أصغر جزء من أجزاء المعنى التام المستقل الذي تتحلل إليه الجملة: ولا يمكن للكَلمة أن تتجزأ من دون أن يطرأ خلل على المعنى، فيتحول جزء من أجزائها أو كل أجزائها المنفصلة إلى شيء مهجور عندنا. ويسدي هذا المقياس البسيط إلينا أحسن الخدمات من جهة الممارسة وذلك أكثر ممّا نتصور"[36]. وفي مجال الأصوات يؤكّد سابير على دور العلاقة بين الأصوات داخل النظام الواحد. فالنظام (النَّسَق) الصوتي للكلام لا يُكَوِّن بمفرده الحقيقة الجوهرية للغة، وأن الصوت بمفرده من الكلام المنطوق ليس في ذاته عنصراً البَتّة"[37]. ولم يرد هذا الكلام عند سابير على شاكلة خاطرة عابرة، بل نجد له صدى في دراسات أخرى ظهرت بعد كتاب **اللغة**. وفي مقال تاريخيّ بعنوان **البنية الصوتية** *Sound Patterns in Language* 1925[38]، اعتبر بمثابة ميلاد للدراسات الصِّواتية قبل ظهور حلقة براغ، مَيَّز سابير بين طبيعة الصوت المادي العام والصوت كوحدة داخل نَسَق صوتي خاص بلسان محدّد، إذ "تخضع أصوات لسان ما لتنظيم بنيوي"[39]. ولا يكفي أن نقابل أصوات اللغة كما هي بالأصوات الأخرى التي تنتجها أعضاء الكلام، مهما كان التشابه النطقي والسمعي لهذه الأصوات. ومعنى هذا بلغة بنيويّة أن أصوات لسان محدّد تشكل نسقاً مغلقاً، بحيث يستحيل تحديد صوت ما

(36) المرجع السابق، ص49-50.

(37) المرجع السابق، ص61.

(38) Edward Sapir. «la notion de structure phonétique»; in *Linguistique*, Paris, Minuit, 1968/1925, p.143-164.

(39) *Ibid*, p.147.

في لسان مُعين بالنظر إلى صوت معين مطلقاً. إن هاتين الفئتين من الإنتاج الصوتي تنتميان إلى عالمين نفسيين مختلفين. ولسابير تشبيه لطيف في هذا الفرق المطلق بين المادة الخام والمواد المحدّدة التي يمكن أن تستخرج من المادة الخام. "فإذا كانت اللغة بنية ومُكَوِّناتها الدلالية حجارة تلك البنية، فإن الأصوات اللغوية لا يمكن مقارنتها إلّا بالجير الذي لا شكل له ولا هيئة والذي تصنع منه الحجارة"[40]. صحيح أنّ سابير لم يكتشف مفهوم الصوتة، ولكنه في كتاب "**اللغة**" وفي دراسات أخرى تلته، يشير إلى الفرق بين النَّسَق الصوتي المادي والنَّسَق الوظيفي للأصوات، وهو ما يعبِّر عنه سابير بوضوح انطلاقاً من تصوّره لمفهوم البنية الصوتية في لسان معين. "يتعين علينا ـ وهذا هو الأعسر، ولكنه الأهم بالنسبة للساني ـ أن ندقِّق هذا الجانب الثاني لمفهوم البنية الذي تحدثنا عنه أي استخراج التشكيل الداخلي *configuration* للنَّسَق الصوتي الخاص بلسان معين والموقع الذي تحتله الأصوات"[41]. فمصطلح الصوتة غير موجود في كتاب **اللغة**، ولكن هناك ما يُحيل عليه في عبارات واضحة تفي بالغرض مثل: "القيمة الصوتية" والنَّسَق المثالي" و"النَّسَق العميق" و"النَّسَق القائم بذاته" و"النَّسَق اللاشعوري" للأصوات، والمقارنة بين نَسَقين: نَسَق صوتي مثالي ونَسَق صوتي مادي يزاوجه. لنقرأ هذا النصّ لسابير الذي يبدو لنا وكأنه لا يختلف في فكرته العامة عن أي نصّ يمكن أن يكتبه أحد أعضاء حلقة براغ أو أي عالم صِواتي لاحقاً عن السمات المميزة (أو ما أسماه الجهاز المعنوي) وعن علاقة الأصوات فيما بينها ووظائفها وهو الجانب المعنوي في الدراسة الصوتية: "إذا عدنا للنظام الصوتي الموضوعي المحض الذي تختص به اللغة والذي لا يمكن الوصول إليه إلا بإنجاز تحليل صوتي شاق، فإننا نجد نظاماً (نَسَقاً) داخلياً أو مثالياً محدّداً بشدّة، فلا يشعر به المتكلم العادي على أساس كونه نظاماً قائماً بنفسه وبالإمكان فهمه مباشرةً أسرع من غيره على أساس كونه بناء نهائياً وضرباً من الجهاز المعنوي. فالنظام الصوتي العميق على ما فيه من ازدحام الظواهر الآلية أو القليلة الأهمّية مبدأ حقيقي هام جداً في حياة اللغة. ويمكن لهذا النظام

---

(40) إدوارد سابير، **اللغة، مقدمة في دراسة الكلام**، ج1، ص39.

(41) Edward Sapir. «la notion de structure phonétique»; in *Linguistique*, p.147.

أن يترسَّخ في الوجود باعتباره بناء يحتوي على عدد الوحدات الصوتية وعلاقاتها ووظائفها"[42]. وقبل حلقة براغ، تحدّث سابير عن القِيمة البنيويّة للصوت *valeur structurale* والقِيمة الوظيفة للصوت والقِيمة النفسية/المعنوية *valeur psychologique* وهي عبارات تذكّرنا كثيراً بتصور كورتناي وبالعديد من عبارات تروبتسكوي نفسه. ويبدو هذا التصوّر الوظيفي في التحليل الصوتي والصرفي على السواء مرتبطاً بالدور الذي يمكن أن تقوم به وحدة صوتية أو كلمة أو حتى إجراء شكلي في لسان معين. "ومن المفيد أن نستحضر بالذهن أنّ الظاهرةَ اللغوية لا يمكن النظر إليها باعتبارها مجسّمة لإجراء محدّد إلا متى توفرت فيها القِيمة الوظيفية الخاصة. فالتغيير الحرفي (الصامتي) في الإنكليزية مثلا في*books* و*bags* (*s* في الكلمة الأولى و*z* في الثانية) غير مفيد وظيفياً، بل هو تغيُّر خارجي آليّ محض اقتضاه الحرف المهموس *k* في المثال الأول والحرف المجهور *g* في المثال الثاني. وهذا الإبدال الآلي نظير ما يحدث في الاسم *house* والفعل *to house* من حيث مظهره الخارجي"[43]. وهكذا يميِّز سابير بين الصوت الذي له قِيمة وظيفية وهو الصوتة، والصوت الذي لا قِيمة له في التمييز بين الكَلمات، ويكون نطقه مجرد فرق سياقي أو فردي، أي ما يعرف بالبدائل الصوتية. وبإبعاد البدائل الصوتية أو المتغيرات بنوعيها الفردي والتوليفي يمكن أن نتصوّر النَّسَق الصوتي الحقيقي الذي يُكَوِّنُ أصوات لسان معين[44]. ويلحّ سابير أيضاً على فكرة الفرق بين الصوت ككيان مادي والصوت كقيمة وظيفية أي الصوتة. ويقدّم سابير مثالاً للاستدلال على القِيمة الوظيفية المعنوية للصوت، ليس فقط بالنظر إلى النَّسَق الصوتي الإنكليزي ولكن مقارنة بعِدّة أنساق صوتية أخرى. "فالوحدة الصوتية *ts* في *hats* الإنكليزية مجرد *t* متبوعة بصوت وظيفيّ مستقل هو *s*. وللوحدة نفسها *ts* في *zeit* (زمن) قيمة مماثلة لصوت *t* مثلاً من كلمة *tide* الإنكليزية. فصوت *t* في *time* يختلفُ بدوره اختلافاً بارزاً عن مثله في *sting*. إلّا أن الفارق لا يُعْتَدُّ به في ذهن المتكلم بالإنكليزية وليس له قيمة. وإذا قارنا

(42) إدوارد سابير، **اللغة، مقدمة في دراسة الكلام**، ج1، ص68، ص74-75.

(43) المرجع السابق، ص 86. (في هذا المثال تنطق s في الاسم *house* عادية بينما تنطق s في الفعل z، غ-م).

(44) E. Sapir. *La notion de structure phonétique*; p.150-151.

أشكال صوت *t* في لغة الهايدا *Haida* الهندية المستعملة في جزر الملكة شارلوت وجدنا للاختلاف نفسه في النُّطق قيمة حقيقية. ففي مثل *sting* (اثنان) ينطق بصوت *t* نطقاً فيه شهيق نطقه في كلمة *time*. وبعبارة أخرى فالفرق الموضوعي الذي لا يعتد به في الإنكليزية له قيمة وظيفية في لغة الهايدا(45).

إنها إرهاصات حقيقية وسبق ملحوظ عند سابير للمنهجية البنيويّة بمفاهيمها وإجراءاتها في مجال الأصوات والصِّرافة التي سيكون لها شأن في اللسانيّات البنيويّة مع حلقة براغ والبنيويين الأميركيين أمثال بلومفيلد وهو ما أشار إليه أحد أبرز مؤرّخي اللسانيّات قائلاً: "لقد وضع سابير تحديداً للصوتة قبل ظهور صِواتة براغ"، وأنه "عرض أسس لسانيّات بنيويّة قبل حلولها"(46).

1.2.3. الوظيفة والشكل

في مجال اللغة، كل شيء يوحي بأسبقية الوظيفة وأولويتها على الشكل. "فالدوافع نحو الشكل لا تتحقّق إلّا في تعبيرات وظيفية ملموسة، إذ يجب أن نقول شيئاً ما لكي نستطيع قوله في كيفية معينة"(47). وتمثل الوظيفة ما لدينا من أشياء نريد التعبير عنها. وأما الشكل فهو التعبير عن هذه الأشياء بكيفية معينة(48). وتبدو الوظيفة أقرب إلى متناول الفرد المتكلم باللغة، إذ هي مفتاح العالم الخارجي وجواز السفر إليه. "إن تَكَوُّن الأفكار يسيطر على اللغة سيطرة كبرى، وإن الإرادة والانفعال من العوامل الثانوية المتميزة. وذلك أمر يدرك بالعقل تمام الإدراك، لأنّ عالم الصور والمفاهيم، ذلك الرسم الفسيح إلى ما لا نهاية له للواقع الموضوعي، والذي يتغير على الدوام هو المادة الجوهرية التي لا مفرّ منها في التبليغ الإنساني"(49). إنّ الوظيفة أقرب إلى الإدراك الحسّي المباشر، وهي محور التواصل والاستعمال اليومي وأساس النشاط اللغويّ. "فالتجربة اللغوية سواء تجلّت في صورة مثالية مكتوبة أو اختبرت في الاستعمال

---

(45) إدوارد سابير، **اللغة، مقدمة في دراسة الكلام**، ج1، ص73-74.

(46) Bertil Malmberg. *Histoire de la linguistique de Sumer à Saussure*, p.461.

(47) إدوارد سابير، **اللغة، مقدمة في دراسة الكلام**، ج1، ص86.

(48) Georges Mounin. *La linguistique au 20ème* siècle.

(49) إدوارد سابير، **اللغة، مقدمة في دراسة الكلام**، ج1، ص54.

اليومي، تدلّ دلالةً عجيبةً على أنه لا وجود عادة لأدنى صعوبة تَحُول دون إدراك الكلمة باعتبارها حقيقة معنوية"[50]. ويلاحظُ قارئ سابير في "**اللغة**" هذه المُزاوَجة الناجحة بين عناصر الواقع (التجربة) والشكل اللغويّ الذي تتخذه كلباس لها. ويؤكّد سابير على العلاقة الوثيقة بين الشكل والوظيفة من الناحية العملية. إن تحليل المعطيات اللغوية ذاتها الذي يفضي إلى استخراج الأبنية الشكلية المتعلّقة بالإجراءات النحوية التي يعتمدها كل لسان على حدة، ينبغي ألّا يحجب عنا الجانبَ الوظيفيّ لهذه الأشكال. "فلا يجب أن نستنتج انطلاقاً من هذه المجموعات من الأمثلة ـ ويمكن تعدادها إلى ما لا نهاية له ـ أن الشكل اللغويّ يُدْرَسُ أو ينبغي أن يُدْرَسَ باعتباره أنواعاً من الأبنية دون النظر في ما يتعلق بها من وظائف".

ومع ذلك هناك نوع من الاستقلال النسبي بين الشكل اللغويّ ووظيفته، فليس استعمال اللغة تطبيقاً حرفياً أو تطابقاً تاماً لأنساقها الصّواتية والصّرافية والتركيبية، بحيث لا مجال للانفلات منها، بل المُلاحظ أنّ النَّسَقَ شيء واستخدام هذا النَّسَق شيء آخر[51]، ممّا يحتّم علينا دراسة الأشكال اللغوية باستقلال عن الوظائف التي ترتبط بها. فلا تناظر مطلقاً بين الوظيفة والشكل[52]. "والعنصر الأصلي (أو العنصر النحوي) والجملة وهما الوحدتان الوظيفيتان الأوليان للكلام. الأولى باعتبارها أدنى وحدة مجردة والثانية باعتبارها التجسيم الجمالي الذي ينجز الفكرة الموحّدة. فوحدات الكلام الشكلية الحقيقية أي الكلمات يمكن عرضاً أن تماثل إحدى الوحدتين (...). وليست الجملة جزءاً منطقياً يقابل الفكرة التامة إلّا متى اعتبرتها مبنية من العناصر الأصول والعناصر النحوية التي تكمن في خفايا الكلمات. ولا تكون الجملة طرفاً نفسياً مقابلاً للتجربة والفنّ إلّا متى أَحْسَسْنا بوجودها وهو ما يحدث عادة، معتبرين إياها نسقاً من الكلمات. ومتى أصبح حدّ الفكرة وحدها دون غيرها ضرورة ملحة لأجل ذاتها، فإن الكلمة تعجز شيئاً فشيئاً عن أدائها لها"[53].

(50) المرجع السابق، ص49.
(51) المرجع السابق، ص72.
(52) المرجع السابق، ص60.
(53) المرجع السابق، ص48.

- الجانب الشكلي في اللغة

على الرغم من أهمّية الجانب الوظيفي في اللغة، فلا شيء يمكن أن يَحْجُب جوهر الحقيقة المتمثلة في أن "اللغة نظام شكلي"[54]. إن الجانب الشكلي هو المنطلق. ولَمَّا كان هناك "ميل اللغة الغريزي نحو الشكل"[55]، ينبغي أن تدرس اللغة من حيث هي نَسَق شكلي ثابت بصرف النظر عن الوظائف التي ترتبط به، فليس في اللغة ما هو ثابت غير شكلها الخارجي"[56]. ولأنّ الأساس هو الشكل وليس شيئاً آخر، يبدو من المستحيل كلياً أن نحدّد الكلمة انطلاقاً من الوظيفة، لأنّ الكلمة المنعزلة يمكنها أن تعبِّر عن أي شيء. "الكلمة شكل"[57]. وليست الكلمة المنعزلة بالضرورة أبسط عنصر للتعبير[58]. فالكلمة (أو الجذر) هي المقابل اللغويّ أو الرمزي لمفهوم منعزل"[59]. وعلى غرار سوسير وبلومفيلد يلحّ سابير بقوة على أهمّية الجانب الشكلي في التحليل اللغويّ. فالوظيفة ليست سوى مظهر خارجي يُحيل على خصائص شكلية قارة تُعَدُّ بمثابة المِنْوال الذي يسير عليه نَسَق الوحدات أياً كانت طبيعتها، والمستوى الذي ننظر منه إليها. "وراء الجملة التامة جملة حية نموذجية ذات خصائص شكلية ثابتة، ويمكن لتلك النماذج الثابتة أو قواعد الجمل الحقيقية أن تتركّب تركيباً حراً بإضافة معطيات حسب ما يحرص المتكلم أو الكاتب على وضعه"[60].

وقضايا الشكل في اللغة حاضرةٌ بقوة عند سابير لاسيما ما يتعلّق بالإجراءات النحوية التي خصّص لها الفصل الرابع من كتابه "**اللغة**"، وذلك لرصد مظاهر الشكل التي "يمكن النظر إليها إما من خلال الطرائق النحوية الملازمة للغة، وإما بتحديد المفاهيم التي تساهم في إعداد هذا الشكل وبلورته

(54) المرجع السابق، ج2، ص11.
(55) المرجع السابق، ص75.
(56) المرجع السابق، ص26.
(57) المرجع السابق، ص42.
(58) المرجع السابق، ص34.
(59) المرجع السابق، ص41.
(60) المرجع السابق، ص52.

في اللغة[61]. ما أبنية الشكل في اللغة؟ وما المفاهيم التي تشكّل محتوى هذا الشكل؟ يختلفُ الجوابُ بحسب الطريقة أو الطرائق التي تملكها كل لغة للتعبير عن الشكل، ولكنّ الطرائق لا تخرج في نظر سابير عن ستة أنواع رئيسية هي:

- رتبة الكلمات،
- التركيب *composition*
- الإلصاق، (السوابق والأواسط واللواحق)،
- التغيير الداخلي للجذر، أو للعنصر النحوي بواسطة الصوامت والصوائت،
- التضعيف بالحرف أو الحروف.
- الاختلافات النبرية.

وتتفاوت هذه الأنواع النحوية في درجة أهمّيتها ودورها بالنسبة إلى كل لسان على حدة. ولا يتفق لسانان في مقدار اللجوء إلى الأنواع نفسها. فما يكون استعماله سائداً في هذا اللسان قد يكون شاذاً في لسان ثانٍ أو غائباً في لسان ثالث وهكذا.

ويستندُ التحليل الذي قام به سابير لهذه الأنواع إلى مفهوم الكلمة التامة والمستقلة[62] أو ما أسماه العنصر الأصل أو الجذر كما سبقت الإشارة إلى ذلك قياساً على وحدات أخرى مثل العناصر النحوية. ولم يكن سابير قد عرف بعد في كتاب "**اللغة**" مفهوم الصُّرْفة، لكنّ تحليله لا يختلفُ في شيء عن التحليل الصّرافي الذي أقامه البلومفيلديون على أساس مفهوم الشكل الحرّ *forme libre* أو الصُّرفة الحرة. فالعنصر النحويّ عند سابير هو نوع من الشكل المقيد *la forme liée* (الصُّرفة المقيدة) ومثاله اللواصق وكل ما هو مزيد إلى المادة الأصلية أو الجذر. "واللواصق ليست صورةَ عنصر لغويّ مفهوم ومقبول ومستقل برأسه"[63]. ولا تختلف سمة العنصر النحوي في صوره المتعدّدة عن مفهوم

(61) المرجع السابق، ص71 وما بعدها.
(62) المرجع السابق، ص35.
(63) المرجع السابق، ص41.

الصُّرفة المقيدة بأنواعها على غرار ما تمّ توضيحه في فصل سابق من هذا الكتاب[64]. ويميِّز سابير بين العنصر النحوي المرتبط بالاسم والعنصر النحوي المتعلّق بالفعل. "فعلامة *s* في *he hits* ترمز إلى معنى مختلف تمام الاختلاف عن *s* في *books*[65]". "وعلى الرغم من لجوئه إلى مفهوم الكلمة، فإنّ سابير استطاع أن يوضح بدقّة متناهية ما تتضمّنه الكَلمة الواحدة ـ خطياً ـ حين تكون مُرَكّبة من مفاهيم مختلفة، تعبِّر عنها عناصر نحوية أخرى تتآزر فيما بينها للتعبير عن مفاهيم أخرى تدقّقها أو تغيِّر بعضاً منها، فتصبح الكلمة عبارة عن مُكوِّنات، "كل مكوِّن منها علامة خارجية دالة على فكرة مخصوصة لمفهوم مُفْرد أو لصورة أو لعدد من المفاهيم أو الصور التي يقترنُ بعضها ببعض أشدّ الاقتران داخل كُلٍّ متماسك"[66]. وبديهيّ أن هذا الاقتران بين مُكَوِّنات الكلمة لا يبدو جلياً للمتكلم، بل يحتاج استخراجه إلى نوع من التجريد. "فلا العنصر الأصلي ولا العنصر النحوي كلاهما بحاصلين إلّا بضرب من التجريد[67]". والشخص الوحيد المهيأ لهذا النوع من التجريد في الكشف عن طبيعة الكلمة مفردة أو مركَّبة هو اللساني، "فلا أحد غير اللساني بإمكانه الوعي بالعلاقة بين *ly* (العنصر النحوي) والكلمة المستقلة *like*"[68].

ونقطة الخلاف الوحيدة بين التحليل البنيوي عند بلومفيلد وأتباعه وتحليل سابير في نظرنا هو أن تحليل سابير يتميز، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، بالتأكيد على العلاقة بين الوظيفة والشكل. يقول سابير: "ليست دراستنا للغة دراسة لنشأة نظام (نَسَق) معيَّن من الأنظمة وإجراءاته، بل دراستنا بحثٌ في وظيفة الأنظمة الاعتباطية من العلامات وشكلها"[69]. فهذا المنحى من الدراسة اللسانيّة الذي يُحيل على الوظيفة بما تحمله من شِحْنة دلالية والذي دافع عنه سابير في كتاباته

(64) انظر الفصل السادس من الباب الأول المتعلق بمستويات التحليل: الصرفة نموذجاً.
(65) إدوارد سابير، **اللغة، مقدمة في دراسة الكلام**، ص41.
(66) المرجع السابق، ص40.
(67) المرجع السابق، ص41.
(68) المرجع السابق، ص44.
(69) المرجع السابق، ص23.

اللسانيّة والأنثروبولوجية يرفضه بلومفيلد. ولاشكّ أن بلومفيلد وهو يتحدث عن التقابل الحاصل بين الآليين *mécanistes* والذهنيين *mentalistes* في دراسة اللغة إنما كان يُشير ضمنياً إلى مقاربة سابير وأتباعه(70). فالوجه الآخر للإجراءات النحوية التي تشكّل الأبنية الشكلية للسان في تصور سابير تتضمّن جملةً من المفاهيم الدلالية المتنوعة. وتنقسمُ هذه المفاهيم كما يلي:

- مفاهيم محسوسة ذات مضمون مادي، وهي المفاهيم الأساسية (الأشخاص والأحداث والصفات) التي يعبِّر عنها عادة بكلمات مستقلة أو بعناصر أصلية لا تقتضي أي علاقة بالفعل.
- مفاهيم اشتقاقية، تُضفي على العنصر الأصلي مزيداً من الدلالة. ويعبِّر عنها عادة بإلحاق عناصر من غير العناصر الأصول بالعناصر الأصول أو بتغييرها الداخلي (الفاعلية التي تدل عليها **er** في **farmer**، والتصغير وما إلى ذلك).
- المفاهيم التعليقية وتشمل مُجْمَل العلاقات التي تعبِّر عنها العناصر النحوية. (علاقات التعريف بين الكلمة وأداة التعريف و*s* المتصلة بالفعل **kills** وعلاقات الشخص الذي تدل عليه كلمة **farmer** ومعنى المفعولية والإسناد والعدد، والزمن وما إلى ذلك)(71).

وبديهي أن لا يتحمّس بلومفيلد والبلومفيلديون لهذه المقاربة وأن لا ينخرطوا في تصوّر قائم على الربط بين الأبنية الشكلية وشبكة من المفاهيم الدلالية، بل سيلجؤون في التحليل اللغويّ إلى معايير شكلية محضة تعتمد ضبط توزيع الوحدات دون استناد إلى المفاهيم التي تعبِّر عنها.

ومع ذلك فلا يخفى على أحد أهمّية دعوة سابير المبكرة إلى العناية بالجانب الشكلي والتأكيد عليه باعتباره الجانب المحوري في دراسة اللغة. ولاختيار سابير الموفّق لهذا المنحى، قيمته في السياق التاريخيّ الذي ظهر فيه،

---

(70) Leonard Bloomfield. *Le langage*, p.134.

(71) إدوارد سابير، **اللغة، مقدمة في دراسة الكلام**، مرجع سابق، ص122، 136.

إذا ما قُورن بأعمال الفترة التي ظهر فيها كتابه **اللغة** (1921)، حين كانت اللسانيّات التاريخية تهيمنُ على موضوعات اللغويين، على الرغم من دعوة سوسير إلى الدراسة التزامنية. كما أنه ساهم في إرساء قواعد التحليل اللساني البنيوي الذي سيطوِّره بلومفيلد وأتباعه. وقد أشار بعض الدارسين إلى الإنجاز الهام الذي قام به سابير. بالنسبة إلى مالمبرغ Malmberg فإنّ التمييز الذي وضعه سابير بين الشكل والوظيفة في مجال الأصوات وتحديداً تأكيده على أن اللغة كما هي مستقلة عن استعمال الأصوات المتلفظ بها، والتجريد الذي يتضمّنه هذا التمييز لم يصل إليه لا البلومفيلديون ولا صِوَاتيو حلقة براغ[72].

1.2.3. ليونارد بلومفيلد

لا تتضحُ معالم اللسانيّات البنيويّة بمعناها الحقيقي وفي صورتها المنهجية الدقيقة، إلّا مع بلومفيلد في كتابه "**اللغة**" الصادر سنة 1933. ويمثل كتاب **اللغة** بدايةَ عهدٍ جديد في اللسانيّات الأميركيّة خصوصاً والعالمية عموماً، وظلت مبادئه متحكّمة في جلّ الأوساط اللسانيّة الأميركيّة إلى عهد قريب. ويتميز هذا الكتاب الذي ما يزال مفيداً إلى اليوم بوصفه مقدّمة ممتازة للسانيّات الحديثة [73]، باستقلاله التام عن إطار الأنثروبولوجيا الذي طبع اللسانيّات الوصفيّة الأميركيّة في العقود الأولى من القرن العشرين. وقد ابتعد بلومفيلد عن الأنثروبولوجيا ليتبنى مبادئ علم النفس، بعكس كتابه الأول سنة 1914 **مدخل إلى دراسة اللغة** *Introduction to a Study of Language* "الذي حظي بشهرة كبيرة في ذلك الوقت"[74]. وقد أشار بلومفيلد في مقدّمة كتابه **اللغة** إلى أنه كان متأثراً في **مدخل إلى دراسة اللغة** بعلم النفس الذي وضعه ويليام فونت (1832-1920) Wilhem Wundt. يقول بلومفيلد: "أقمت في 1914 جزءاً من هذا العرض على النسق السيكولوجي لـ فونت"[75]. وكان فونت وهو مؤسّس علم النفس التجريبي يرى أن مهمَّة علم النفس اللغويّ تتمثل في إبراز الظواهر النفسية التي تظهر في

(72) Bertil Malmberg. *Histoire de la linguistique de Sumer à Saussure*, p.461.

(73) ميلكا إيفيتش، **اتجاهات البحث اللساني**، ص281.

(74) المرجع السابق، ص277.

(75) Leonard Bloomfield. *Le langage*, p.7.

التغيرات والتطورات التاريخية للسان. وحاول فونت أن يشرح الاتجاهات المتعدّدة للتطور اللغويّ عند الإنسان في ضوء تحليله لنفسية الشعوب المتكلمة بهذا اللسان أو ذاك [76].

يأخذ بلومفيلد مكانته المتميزة في اللسانيّات انطلاقاً من تأكيده القويّ مثل سوسير، على ضرورة دراسة اللُّغة بمعزل عن الظواهر المصاحبة لها، وباستقلال عن باقي المعارف اللغوية والعلوم الأخرى[77]. وسواء اطَّلع بلومفيلد على **دروس** سوسير أم لا، فما يتبيَّن من كتاب "**اللغة**" هو انخراطه التام في المبدإ العام الذي أقام عليه سوسير صَرْح اللسانيّات الحديثة والمتمثل في أن الموضوع الحقيقيّ والوحيد للسانيّات هو اللسان في حد ذاته ومن أجل ذاته"[78].

ويذهب كثير من المهتمّين بتاريخ اللسانيّات إلى تخصيص عبارة "اللسانيّات البنيويّة" *linguistique structurale / Structural linguistcs* للإشارة إلى الدرس اللسانيّ الأميركي الذي تزعّمه اللساني ليونارد بلومفيلد. "نعني باللسانيّات البنيويّة اللسانيّات الأميركيّة البلومفيلدية"[79]. ويدلّ الربط التاريخي بين تسمية "اللسانيّات" وبلومفيلد على الدور الكبير الذي لعبه الرجل في تطور مسار اللسانيّات الأميركيّة عموماً واللسانيّات البنيويّة على وجه أخصّ باعتباره "مُرشداً للمرحلة الوصفيّة في البنيويّة الأميركيّة"[80]. ويذهب بعض الدارسين إلى أن الدراسات اللسانيّة الأميركيّة الحديثة مرت بثلاث مراحل هي:

- مرحلة التأسيس مع بلومفيلد.
- المرحلة التوزيعية الهاريسية
- المرحلة البنيويّة التحويلية مع هاريس أولاً ثم تشومسكي لاحقاً[81].

(76) W. Wundt. *Eléments de psychologie physiologique*; Paris, F. Alcan, 1886, traduits de l'allemand sur la 2ème édition par le Dr. Élie Rouvier, précédés d'une nouvelle préface de l'auteur et d'une introduction par M. D. Nolen, 2 vol. http://gallica2.bnf.fr/ ark:/ 12148/ bpt6k94384g

(77) F. de Saussure. *Cours de linguistique générale*, p.317.

(78) *Ibid.*, p.317,

(79) G.-C. Lepschy. *Linguistique structurale*, Paris, Payot, 1968/1966, p.157.

(80) غيرهارد هيلبيش، **تاريخ علم اللغة الحديث**، ص123.

(81) المرجع السابق، ص131.

3.1. الوصف عند بلومفيلد

يتبدّى من خلال قراءة أولية لكتاب **اللغة** تأكيد بلومفيلد على أهمّية الوصف ودوره في التحليل اللساني. ومن شأن هذه المقاربة الوصفيّة الجديدة أن تتجاوز فكراً لغوياً كان يسير آنذاك في اتجاهين مختلفين:

- اتجاه معياري
- اتجاه فلسفي

يحصر الاتجاه الأول جلّ اهتماماته في العناية بما هو سليم من الاستعمالات اللغوية في اللسان استناداً إلى سلطة لغوية ما، بينما يبحث الاتجاه الثاني قضايا اللغة في إطار استدلال فلسفي متوسّلاً مصطلحات ومفاهيم فلسفية ومنطقية مثل: فاعل، ومفعول به، ومُسْند[(82)]. وتقود مثل هذه التصوّرات اللغوية في نظر بلومفيلد إلى أحكام غير واقعية، لا علاقة لها بالطبيعة اللغوية، وإلى نتائج لا تعدو أن تُكرِّر في الغالب ما قاله الفلاسفةُ ونُحاةُ العصور السابقة. ويتطلّب تحقيق تجاوز هذا النَّمط من التَّفكير القطعَ النِّهائي والشَّامل مع التَّحليل المدرسي لموضوعات اللُّغة الَّذي يقدِّمه تعليم النَّحو في المدرسة القائم على مفاهيم تقليدية[(83)].

ويجب أن يتقوى التفكير اللساني العلمي الذي بدأ في العصر الحديث بخلق نوع من الإدماج بين النتائج الإيجابية التي تمّ تحقيقها في الاتجاهين الأساسيين في اللسانيّات الحديثة وهما المقاربة المقارنة ـ التاريخية التي صارت زعامتها للنّحاة الجدد أمثال هرمان بول (1846-1921) Hermann Paul وليسكيان (1840-1919) August Leskien وكارل بروغمان (1849-1919) Karl Brugmann، والمقاربة الفلسفية الوصفيّة التي يمثلها همبولدت اعتماداً على ما تمّ جمعه وإعداده من معطيات وصفيّة ملموسة مستمدّة من الألسن المدروسة التي تنتمي إلى مختلف الأسر اللُّغوية المعروفة وغير المعروفة [(84)]. يتعين إذن أن

(82) Leonard Bloomfield. *Le langage*, p.9.

(83) *Ibid*, p.10.

(84) *Ibid*, p.23-24.

نبدأ بملاحظة ظواهر اللسان كما تلاحظ الظواهر في علوم أخرى، وأن نتخلّص من الأحكام القِيمية حول اللُّغة وما يتمُّ ملاحظته، وأن تكون التعميمات المتوصل إليها مبنية على الاستقراء، لأنَّ التعميمات المُفيدة في اللغة هي التعميمات الاستقرائية. فلا مجال للحديث عن الكلّيات اللغوية أو أشياء من هذا القبيل، لأنَّ بعض السِّمات المميزة التي نعتقدُ أنها كلّية قد تكون موجودةً في هذا اللسان، لكنَّها قد لا توجد في ألسن أخرى قد يُتاح لنا مستقبلاً التعرف إليها أو تصبح رهن إشارتنا. علينا أن نعاين الظواهرَ اللغوية بالدرجة الأولى، وأن تتم المعاينة بنوع من الحياد وباستقلال تامّ عن كل التصوّرات الفلسفية القائمة على ما هو قبلي بعيداً عن الأحكام الجاهزة. فلسنا في حاجة إلى أي معرفة لغوية أياً كانت طبيعتها لوصف لسان معين، ومُلاحِظُ اللسان الذي يترك هذه المعرفة تغير وصفه سيجد نفسه مدفوعاً لتغيير طبيعة هذه المعطيات[85].

يبتعد بلومفيلد عن التصوّرات الفلسفية التي تعطي للسان أوصافاً عامة وغامضة تستند إلى تجليات نفسية وباطنية في النشاط اللغويّ عند الأفراد والجماعات. وعلى الرغم من أنه يقرُّ بقيمة اللغة وأهمّيتها في حياة الفرد والمجتمع[86]، فإنه نَبَّه إلى عواقب القرابة والألفة بين الفرد ولغته، ممّا قد يمنع ملاحظة اللسان بشكل موضوعي مقبول. ولذلك فإنّ لسان مجموعة لغوية هو مِلْكُ من يلاحظ هذا اللسان. وينظر بلومفيلد إلى اللسان كشيء مادي وفيزيقي صرف. ولا شكّ أن لتشبعه السلوكي دوراً كبيراً في هذا الموقف. فاللسان ليس أكثر من مجموعة عادات" وهو في الوقت ذاته بنية من العادات الصوتية والمعجمية والنحوية. واللسان أيضاً نَسَقٌ من الإشارات التي تشتغل بشكل جيد[87]. فهذه الاعتبارات جعلت بلومفيلد يدعو إلى الاقتصار على دراسة الجانب المادي الملموس في اللسان، ألّا وهو الكلام أو الملفوظ *énoncés/ utterance* وليس شيئاً آخر. ويشكّل هذا المنحى الاختباري عند بلومفيلد نقطة اختلاف مع سوسير وباقي أقطاب اللسانيّات البنيويّة الأوروبية. فالمبدأ الأساس في اللسانيّات هو أنه في الدراسة اللسانيّة. "يجب أن ننطلق من الصوت وليس

---

(85) *Le langage*, p.24.

(86) *Ibid*, p.9.

(87) *Ibid*, p.154.

من المعنى"[88]، نظراً إلى الطبيعة المادية والموضوعية للصوت. وليس لدينا الوسائل الكافية لتحديد المعنى وضبطه بشكل يساعد على استقراره في الاستعمال اللغويّ[89]. وينبغي الابتعاد ما أمكن عن المجالات التي لا يمكن اختبارها بالملاحظة الموضوعية المباشرة. يمكن أن نقوم بدراسة اللسان على الوجه الصحيح دون خلفيات خاصة، طالما أننا لا نُعير اهتماماً بمعنى ما هو منطوق[90]، وهذا ما يحصل في الأصواتية التجريبية والأصواتية الفيزيولوجية، إذ يمكنُ الحصول على قسط كبير من المعلومات المتعلّقة بالأصوات اللغوية بفضل ما تسمح به الأدوات في المختبرات الصوتية وتقنيات التحليل المُتَّبعة فيها. وليس من مهام عالم الأصواتية أن يحدّد السمات التي لها علاقة بالمعنى داخل التواصل[91]. وعلى الرغم من أنّ السمات الصوتية المميزة قليلة في كل لسان، فنحن لا نملك ما يجعلنا قادرين على التمييز بينها وبين تلك التي لها دور في معنى التواصل اللغويّ.

يتعين الاهتمامُ بدراسة السمات الصورية التي تحدّد الصيغ في لسان معين. فلوصف لسان ما، ينبغي أن نحدّد الفئات الصورية *classes formelles* لكل صيغة معجمية، وأنْ نعيِّن الخصائص التي تجعل المتكلِّم يسندها إلى هذه الفئات الصورية[92]. ولكي تقوم الدراسة على أسس موضوعية قابلة للوصف، ينطلق بلومفيلد من مصادرة أساسية حول طبيعة اللسان، مفادها وجود بعض الإصدارت الصوتية المتماثلة في الشكل والمعنى لدى كل مجموعة لغوية[93]، مقصياً من الألسن الطبيعية كلّ ما لا يمكن ضبطه بكيفية منهجية وإجرائية. ويترتب عن هذه المصادرة الهامة المتعلقة بوجود ملفوظات (جمل) متماثلة شكلاً ومعنى، أن كل صيغة لغوية لها معنى ثابت وقارّ، وإذا اختلفت الصّيَغ في شكلها كان معناها مختلفاً كذلك[94]. وينتج عن هذه المصادرة فيما يتعلق بموضوع المعنى عدم

(88) *Le langage*, p.154.
(89) *Ibid*, p.137.
(90) *Ibid*, p.74.
(91) *Ibid*, p.75.
(92) *Ibid*, p.249.
(93) *Ibid*, p.77.
(94) *Ibid*, p.137.

وجود ترادف حقيقي في اللسان. ويعدُّ التواصل اللغويّ من هذا المنظور الصوري للصّيَغ اللغوية بأنَّه التواصل الناجح الذي ليس فيه ما يُعيقه بفضل تعاون المتخاطبين، وأن ما قد يَحدث من سوء تفاهم بينهما أمر عرضيّ لا يُعتدّ به، ولا يُشَكّل حالةً عامة. ويفترض وصف اللسان تجانساً بين المتكلمين ينتج عنه استقرار الصّيَغ المستعملة ومعناها. ويخرج بلومفيلد بخلاصة منهجية عامة تتعلق بالتحليل اللساني، مفادها أنّ المرحلة الوصفيّة في اللسانيّات تتمثلُ في تحليل صارم لكل صيغ الخطاب انطلاقاً من الفرضية التي ترى أن صيغ الخطاب لها معنى قارّ وقابل للتحديد[95]. ولهذه الاعتبارات التصوّرية القائمة على النظر إلى اللسان كمجموعةٌ من الأنساق الصِّواتية والصِّرافية والتركيبية والمعجمية، يمكن تحديد سماتها الصورية دون تدخّل اللساني في المعطيات ولا في تأويلها وفهمها عندما يقوم بتصنيف الصيغ اللُّغوية داخل فئات مُحدّدة صورياً. وتخضع الصيغُ اللغوية لمبدإ عام يحكم الألسن والمتمثل في أنه لا يمكن للسان مُعين أن ينقل إلا المعاني المرتبطة ببعض السمات الصورية. فالمتكلمون لا يتواصلون إلّا بواسطة إشارات محدّدة. والمنهجية التي يقترحها بلومفيلد هي وحدها الكفيلة في نظره بدراسة وصفيّة موضوعية تتجاوز التحليل المدرسي الذي يسعى إلى تحديد الفئات الصورية بواسطة معنى الفئة من خلال تحديد المعنى المشترك لكل الصّيَغ اللغوية التي تندرجُ في هذه الفئة الصورية أو تلك، كالقول بأنّ الاسم ما دلّ على شخص أو مكان أو حدث[96]. لقد أبانت مثل هذه التعريفات عن قصورها وعدم جدواها في إطار النحو التقليدي الذي يعتمد مقاربة مفهومية في تعريف أجزاء الكلام. وإنه لخطأ جسيم كما يقول بلومفيلد، أن نحاول استعمال المعنى أو أي شيء آخر وليس السمات الصورية، نقطة انطلاق كلّ نقاش لساني[97].

4.1. التصوّر السُّلوكي للّغة

تحوَّل بلومفيلد مع كتاب "**اللغة**"، نحو علم النفس السلوكي

---

(95) *Le langage*, p.150.

(96) *Ibid*, p.249.

(97) *Ibid*, p.163.

le béhaviorisme[98] الذي أسسه واطسون Watson. وكان يسعى إلى وضع علم نفس موضوعي لا يلجأ إلى الاستبطان أو المُلاحظة الذاتية. فعلم النفس الذي تَصَوَّره واطسن، من ناحية المنهج، ينبغي أن يكون شبيهاً بالعلوم الطبيعية، لاسيما الجانب الفيزيولوجي والعصبي منها، بحيث يُراد دراسة السلوك والتصرف الإنساني كمجموعة من المُثِيرات والاستجابات التي لا تتطلبُ بالضرورة اعتماد عوامل ذهنية وروحية عند الفرد[99]. وتبنّى بلومفيلد السلوكية ليشرح في ضوئها مظاهرَ السلوك اللغويّ عند الفرد المتكلم، وهو ما جعله يسعى جاهداً إلى وضع الأسس الصورية الكفيلة بوصف البنيات اللغوية بدءاً بالصوتات إلى الجملة، دون الرجوع إلى ذات المتكلم أو اعتماد معنى الوحدات اللغوية مثلما سنبين ذلك لاحقاً.

ترى السّلوكية أنه يمكن وصفُ السلوكات الإنسانية ـ ومن بينها السلوك اللغويّ ـ انطلاقاً من المقامات التي تظهر فيها دون اعتبار العوامل والمواقف النفسية الداخلية. فجميع المواقف، أياً كانت طبيعتها مُثِير (مُنَبِّه) *Stimulus* واستجابة (رد فعل) *Réponse* يمكن ضبطها اختبارياً والتنبؤ بها. هذا الموقف السلوكي جعل بلومفيلد يعارضُ التصوّر الذهني الوارد عند سوسير وسابير اللذين يعتبران الظواهر اللغوية وقائع نفسية واجتماعية بالدرجة الأولى (مفهوم اللسان عند سوسير وسابير مثلاً). ويقف بلومفيلد أيضاً في مقابل المُقاربة الوظيفية التي دعت إليها حلقةُ براغ والتي أكّدت على غائية النشاط اللغويّ من خلال العناية بوظائف اللغة وبدور الفرد المتكلم والمحيط الثقافي الذي يندرج فيه النشاطُ اللغويّ. ويَعْتَبِر بلومفيلد، انطلاقاً من هذا الموقف السلوكي، أنّ إدماج العوامل الذهنية أياً كان مصدرها مرفوض، لأنه يُقحم مفاهيم غير موضوعية في التحليل اللساني. فالوصف المستقلّ عن غيره من المؤثّرات والقائم على أسس لغوية موضوعية ومحدّدة بوضوح أقوى وأصلح من الوصف الذي يستعين بعلوم ومفاهيم غريبة عنه. وترفضُ السلوكية تدخّل الشعور والعقل والإرادة لأنها مفاهيم غامضة

---

(98) للاطلاع على فهم السلوكية لطبيعة اللغة البشرية، يمكن الرجوع إلى كتابنا: في اللسانيّات العامة.

(99) Enrico Arcaini. *Principe de linguistique appliquée*, p.99.

يستعصي ضبطها تصورياً والتحكّم فيها عَمَليًّا تجريبيًّا، فضلاً على أنها ليست بذات جدوى في فهم الظواهر اللغوية.

تقومُ السلوكية في دراسة اللغة عند بلومفيلد على غرار نظيرتها في العلوم الطبيعية على إقصاء كلّ العمليات المتعلّقة بوعي الإنسان ومداركه الداخلية، باعتبارها عمليات عقلية باطنية لا يمكن النظرُ إليها كموضوع تجريبي. وتقتصر السلوكية على تناول ما تُقَدّمه الخبرة والتجربة المتاحتان للملاحظة المباشرة ألا وهو السلوك الفعلي والملموس. ويكون الهدف من التحليل السلوكي ضبط السلوكات بتحديد العلاقات المُمْكنة بين المُثِيرات والاستجابات التي يمكن التحكّم في مجرياتها. ويَنظر السلوكيون ـ بناءً على هذا الأساس ـ إلى النشاط اللغويّ على أنه آلة تتحدّد بين المُثِير والاستجابة كما في العلوم الطبيعية وفي علم نفس الحيوان. وبديهي أن السلوك البشري لا يستجيب بصفة مطلقة في سلوكه للمعايير نفسها التي تحكم العلاقة بين المُثِير والاستجابة عند الكائنات الحية الأخرى، ذلك أن التفاعل مع المُثِير والاستجابة عند الإنسان ليس آلياً مثل ما هو الشأن عند الحيوان. فالإنسان محكوم باعتبارات نفسية واجتماعية وثقافية بالغة التعقيد.

هذه الرؤية السلوكية في التعامل مع ما هو حسّي ومادي تحقيقاً للموضوعية؛ دفعت اللسانيّات البنيويّة الأميركيّة إلى الاهتمام بما هو صوتيّ وصِرافيّ بالدرجة الأولى، ليس لأنهما أساسيان في اللسان فقط، وإنما بالنظر إلى قابليتهما الخضوع للملاحظة المباشرة خضوعاً تاماً (دراسة الأصوات في المختبرات)، بينما تم إبعاد كل ما له علاقة بالمعنى والدلالة بمعناهما الواسع لأنَّ وصفهما علمياً يتطلبُ معرفة علمية دقيقة بجملة من الحقائق حول طبيعة الأشياء الموجودة في العالم الخارجي.

5.1. إهمال المعنى[100]

إنّ تَبَنِّي بلومفيلد علمَ النفس السلوكي جعله يعتبر اللسان عند الإنسان سلوكاً قابلاً لأن يختصر في مثير واستجابة كما تقول بذلك السلوكية في تحليلها

(100) L.Bloomfield: *Langage*, p.134 et suivantes.

لظواهر فيزيولوجية أخرى. والنتيجة الحتمية للتفسير الآليّ لعملية الكلام، أن التحليل الذي اعتمده بلومفيلد أقصى كل إحالة إلى المعنى أو إدماجه في التحليل اللساني. فليس موضوع اللسانيّات بالنسبة إلى بلومفيلد ما له دلالة في اللسان، وإنما موضوعها ربط أصوات معينة بمعنى مُحدَّد *une association de sons déterminés à un sens déterminé*. فالأصوات في ذاتها لا تهمُّ اللساني إلّا من حيث إنَّها تسمح بتمييز الدلالات[101].

ولا تُشكِّل الدَّلالة الحسّية المباشرة للصّيَغ اللغوية في مستويي التركيب والمعجم موضوعَ البحث اللساني، بل المهمُّ هو الاختلاف بين معنيين أو كلمتين. ويستعمل المعيار الدلالي *Critère sémantique* عند التوزيعيين وسيلةً لتحديد المعنى الاختلافي *sens différentiel*، وهي كيفية أخرى للتعبير عما يسمّيه اللسانيون البنيويون في حلقة براغ والغلوسيماتيّة بالاستبدال *commutation*[102].

إنّ اللسانيّات الذي يريدها بلومفيلد تقومُ على المُلاحظة والتجريب دون الخوض في ما هو داخليّ أو باطنيّ يصعبُ تحديده وملاحظته تجريبياً. ويدعو بلومفيلد إلى المُلاحظة الموضوعية للتواصل اللغويّ انطلاقاً ممّا هو قابل للمُلاحظة *observable*، مثلما يمكن أن يفعل ذلك أي مُلاحظ قادم من كوكب آخر[103]. فمن الصعب أن نتصوَّر حسب بلومفيلد، معرفة علمية صحيحة لمفاهيم ذهنية مثل: صورة/ تصور/ شعور/ مدلول وما شابه هذه المفاهيم، لأن معرفتنا بها معرفة قاصرة لم تبلغ بعد النضج العلمي المطلوب. إن معرفتنا الحقيقية بالعالم الذي نعيش فيه معرفة غير كاملة تجعلنا غير قادرين على القيام بتحديد الصّيَغ اللُّغوية تحديداً دقيقاً إلّا نادراً[104]. وعالَم المعنى عالَم غامض لا يمكن اعتماده في التحليل. إن اللغة مُحَمَّلة بالمعاني وكل خطاب فيها يُسْتَعْملُ للتعبير عنها ونقلها. إلّا أنه من الصعب إدراك هذه المعاني بكيفية منهجية لأسباب عديدة منها:

---

(101) Ju. D. Apresjan. *Eléments sur les idées et les méthodes de la linguistique structurale contemporaine*, p.41.

(102) *Ibidem.*

(103) L. Bloomfield. *Le langage*, p.29.

(104) *Ibid*, p.27 et p 74.

* ارتباطها بمقامات مادية ومواقف تخاطبية متعدّدة ومتنوعة لا يمكن حصرها أو الإحاطة بها.
* كونها بناءً ذهنيًّا، ومن ثمة فهي لا تخضعُ لأيّ مُلاحظة مباشرة وموضوعية.

إنّ التعريف العلمي السليم لمعنى الصيغة اللغوية *Forme linguistique* مرهون بما نملكه من معرفة علمية عن عالم المتكلم والسامع. وكلما زادت معرفتنا بالمحيط الذي يعيشان فيه، زادت معرفتنا بالأشياء التي نكون بصدد تحليل معناها. لكنَّنا لن نستطيع حتماً -في نظر بلومفيلد- تحديدَ دلالة صيَغ الخطاب علمياً إلّا إذا كانت جميع فروع العلم، ولاسيما علم النفس والفيزيولوجيا، قريبة من الكمال[105]. ويحصر بلومفيلد معنى كل ملفوظ في موقف المتكلم وجواب السامع، لأنّ كلاً منهما يطلعنا على الكيفية التي يقوم فيها بردِّ الفعل أمام الوقائع أو المواقف والاستجابة لها وذلك على الشكل التالي[106]:

مقام المتكلم ← الملفوظ ← جواب السامع

إن المعنى في تصوّر بلومفيلد هو "المقام الذي ينتج فيه المتكلم الصيغ اللغوية والأجوبة التي تخلفها عند السامع". وبعبارة أخرى، فإنّ المعنى مُثير واستجابة لا أقل ولا أكثر. فالمقام التواصلي هو الذي يحدّد دلالة الملفوظ[107]. ويشكِّل المقام الذي يصدر فيه الملفوظ إضافة إلى جواب السامع الدلالةَ اللغوية للصيغة"[108]. وينطلقُ بلومفيلد في هذا الموقف من وجهة نظر المدرسة السلوكية التي سبق بيانها، والتي ترى أنّه من الصَّعب تحديد المفاهيم الذهنية والمجرَّدة. قد نصل إلى تعريفات مضبوطة ودقيقة بشأن بعض المواد الطبيعية أو الكيمائية مثل، الماء والملح، كأن نقول بأن "الماء يتركّب من ذَرّات أوكسجين وذَرّات هيدروجين"، إلَّا أنَّنا لا نستطيع القيام بالشيء نفسه عندما يتعلّق الأمرُ بمعاني بعض الكلمات مثل: الحب والكراهية، وما يشابهها والتي

(105) *Le langage*, p.77.

(106) *Ibid*, p.132.

(107) *Ibid*, p.132.

(108) *Ibid*, p.150.

تتعلق بِمقامات لم يسبق تصنيفها بدقة[109]. يحتاجُ اللسانيّ إذن إلى أخصائيين آخرين لحل مشاكل الدلالة والمعنى والمعرفة المشتركة. وليس في اللسان البشري ما يسمح بمثل هذه المقاربات العلمية. فليس للساني إمكانية عالم الرياضيات وهو يحدّد مبادئ عمله الأولى انطلاقاً من وحدات دنيا هي عملية + والعدد1 لتصبح العمليات اللاحقة من قبيل: 1+1 = 2، و2+1=3 وما شابه هذا أمراً عادياً ومقبولاً بشكل لا جدال فيه. أمّا في دراسة اللسان، فلا يمكن تعميم دلالة المَؤنَّث أو المذكَّر بكيفية مطلقة كأن نقول مثلاً بأنَّ الحصول على الاسم المؤنث يتمّ بإضافة تاء في آخر كل اسم. فهذه القاعدة تسعفنا في الحصول على بعض الأسماء المؤنثة بإضافة التاء (طفل ≠ طفلة، عصفور ≠ عصفورة هرّ ≠ هرّة؛ لكنَّها لا تسمح لنا بالتَّقدم بعيداً في الحصول على الأسماء المؤنثة بكيفية مطلقة. فليس لدينا ولد ≠ *ولدة، وإنما ولد ≠ بنت وليس لدينا رجل ≠ *رجلة، وإنما رجل ≠ امرأة. ومثل هذا التنافر كثير في كلِّ الألسن. ونجد كثيراً من الصفات الدالة على التأنيث دون أن تتصل بالتاء مثل، طالق وحامل التي تدلّ على صفة خاصة بالمؤنّث. وما نتعارف عليه من أشياء ليس قار التسمية *dénomination*. وقد يجد المتكلم نفسه في كثير من الملفوظات في مقامات لم يسبق له أن عاشها، ممّا يدفعه إلى التلفظ بكلمات ذات معانٍ مختلفة عمّا هو متعارف عليه بين المتكلّمين بلسان معين. يقول الطفل لأمه: "إنني أشعر بالجوع"، بينما تعرف هي أنه يتلكّأ في الذهاب إلى النوم. ويدل هذا المثال على انتقال المقصود بالملفوظات من مقام إلى آخر، وهو ما يُطْلَقُ عليه الخطاب المحول *Discours déplacé*[110]، الذي يبيِّن حسب بلومفيلد، أن الملفوظات تحدّد على ضوء المُثِير والاستجابة، أي السلوك الفعلي، أو باللجوء إلى التعريفات العلمية للأشياء. ويلاحظ أيضاً أنّ معاني الصّيَغ اللغوية لا تتطابق بالضرورة مع التصنيفات التي يضعها العلماء للأشياء أو للكائنات الحية[111]. ولعل في كيفية التعبير عن ظاهرة الألوان في الألسن الطبيعية ما يدعمُ هذا الموقف. ويزيد في صعوبة تحديد المدلول، أنّ الألسن تتوفر على صيَغ لغوية

---

(109) *Le langage*, p.132.
(110) *Ibid*, p.134-135.
(111) *Ibid*, p.133.

معقّدة مثل "المشترك اللفظي/الترادف" و"التضاد"، وهي صيَغ تبين عملياً أن مدلول الملفوظ ينبغي أن يحدّد بالرجوع إلى معرفة المقام والمواقف التواصلية التي تمّ إنجازه فيها. ويمكن للمعنى الواحد أيضاً أن يأخذ بعداً مجازياً أو تأويلياً غير مألوف.

لا يسع اللسانيّ، أمام هذه الصعوبات، في نظر بلومفيلد، إلّا أن يترك مجال المعنى وما يتصل به من دلالة وتأويل لغيره من الأخصائيين الذين يتناولون واقع الإنسان ومحيطه العام، علما بأن معرفتنا العلمية بالعالم الخارجي ما تزال ناقصة، ولم تتقدّم كثيراً مثلما حصل في مجالات معرفية أخرى(112). يفسّر بلومفيلد معنى الملفوظات ودلالتها على ضوء المُثِير والاستجابة في مقام معين وما يترتّب عنهما. وما عدا ذلك، لا قيمة له، نظراً لتداخل عوامل ذهنية أخرى يَرْفض بلومفيلد اللجوء إليها أو التعامل معها لعدم دقّتها وانفلاتها من أي اختبارية محتملة.

وباعتماد التَّحليل اللسانيّ الذي لا يلجأُ إلى المعنى، فإنّ بلومفيلد لم يُساهم في خلق علم الدَّلالة ولا في قيام دراسات قريبة منه، بل بعكس ذلك، أسهم في تأخّره وضعفه، لأن وضع الدلالة في نظره "يشكل نقطة الضعف في الدراسة اللسانيّة"(113) وقد أبعد هذا الموقف المتشدّد إزاء المعنى والدلالة اللسانيين البنيويين بعد بلومفيلد عن العناية الفعلية بالمعنى اللغويّ وما يرتبط به من قضايا معقّدة، رغم ما له من أهمّية بالغة في النشاط اللغويّ. لكن، يجبُ التأكيد على أن إبعاد المعنى عند بلومفيلد هو إبعاد منهجيّ فقط. إنه يرفضُ المعنى كموضوع للوصف اللساني العلمي، وليس باعتباره جزءاً أساسياً من السُّلوك اللغويّ. "فالقول بأن بلومفيلد هَوَّنَ من جانب المعنى هو قول لا تؤيده الحقائق، بل واقع الأمر على نقيض ذلك"(114). إنّ المعنى من الناحية المنهجية غير قابل للإدراك على أسس شكلية محضة في ضوء ما هو مُتاح للمعرفة البشرية في الوقت الراهن (النصف الأول من القرن العشرين)، لكنّ دور المعنى حاضر بقوة في هذا السلوك، فلا تواصل ولا تفاهم بدون المعنى. "إن اللسان تنسيق بين

(112) *Ibid*, p.133.

(113) *Ibid*, p.133.

(114) ميلكا إيفيتش، **اتجاهات البحث اللساني**، ص279.

أصوات معينة لمعانٍ معينة"[115]، ويدعم هذا الرأي ما أشار إليه جاكبسون وهو يتحدّث عن تطور الدراسات اللسانيّة خلال القرن العشرين. "والجدير بالملاحظة أنّ الشعارات المناهضة للنـزعة الدلالية لم يكن يشاركهم فيها بلومفيلد، الأستاذ الحقيقيّ للوصف اللساني (...) وفي كتاباته خلال العام 1945 كان ما يزال يرفضُ إمكانية إهمال المعنى أو تجاهله، ويرفض إمكانية الشروع بدراسة اللغة من دون المعنى، أي دراستها بوصفها مجرد صوت لا معنى له"[116]. وعلى الرغم من كون بلومفيلد أكّد أنّ الدراسة الصوتية بفرعيها الأصواتي والصِّواتي تتطلب معرفة أولية بالمعاني، فقد تعرض لسوء فهم من قبل أتباعه حين ذهبوا أبعد ممّا ذهب إليه في التعامل مع المعنى، فأقصوا كل إحالة إلى هذا الجانب الهام في النشاط اللغويّ الذي أكد بلومفيلد على دوره وبيَّن قيمته حين قال "بأن دراسة أصوات الخطاب دون اعتبار لدلالتها هو تجريد"[117]. لقد كان موقف بلومفيلد من المعنى نتيجة حتمية لمتطلبات المنهج الشكلي الصارم التي تفرض نوعاً من الابتعاد عن كل ما لا يمكن الإمساك به وملاحظته مباشرة. فالإقرار بحضور المعنى ودوره في النشاط اللغويّ شيء، واعتماده في التَّحليل اللسانيّ شيء آخر. لا يصلح المعنى أداة مضبوطة لتحليل الصّيَغ اللغوية وتحديدها وتصنيفها بشكل مقبول وقارّ. فالمعنى غير قابل للإدراك منهجياً إلّا من خلال الشكل الذي يندرج فيه. يجب أن تسعى اللسانيّات إلى دِقّة العلوم وفق شروط الممارسة العلمية الدقيقة التي تجعل التَّحليل اللسانيّ صادقاً أو كاذباً ممّا يتعينُ معه الاقتصار على دراسة الجانب الشكلي للسان، وإبعاد كل ما هو غير واضح وغير قابل للمعرفة العلمية المضبوطة مثل الجوانب الاجتماعية والنفسية. وحول الفرضية المتمثلة في إبعاد المعنى من الدراسة العلمية للسان؛ تتفق العديد من الاتجاهات اللسانيّة البنيويّة إضافة إلى النحو التوليدي التحويلي في نماذجه الأولى، وتحديداً إلى حدود عمل كاتز وفودور *Fodor–Katz* في عملهما "**بنية النَّظَريّة الدَّلاليّة**" (1963).

---

(115) *Le langage*, p.131.

(116) رومان ياكوبسون، **الاتجاهات الأساسية في علم اللغة**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2002، ص26.

(117) Leonard Bloomfield. *Le langage*, p.132.

ومقابل هذا التجاهل للمعنى، أسْهَم بلومفيلد بفعالية في خلق منهجية علمية وعملية لوصف أصوات لسان معين وصِرافَته وتركيبه دون الاستعانة بمعرفة معنى الوحدات الصّرفية والجُمل. وتعتمدُ الطرائق المُتَّبعة من قبل بلومفيلد وأتباعه لتحقيق هذه الغاية على توزيع الصّيَغ اللغوية سياقياً أي بتحديد المواقع التي تحتلها دون اعتبار معانيها.

6.1. أسس التحليل

تميَّزت اللسانيّات الحديثة بسعيها الدؤوب نحو مقاربة الظواهر اللسانيّة ووضع الأساليب والإجراءات العملية القمينة بالوقوف على خصائص بنياتها الصوتية والصَّرفية والتركيبية والآليات المتحكّمة فيها. وقد سعى بلومفيلد إلى جعل الدراسة اللسانيّة المرتبطة بهذه الفروع دراسة علمية وذلك بضبط إجراءات الوصف الذي ينبغي اتباعها، وأساليب التحليل الدقيقة والواضحة. وجعله حرصه على المنهج العلمي الصارم يهتمّ بالجوانب المنهجية والشكلية لآرائه ومفاهيمه ومصطلحاته محدّداً جملة من "المصادرات" *Postulats* التي ينبغي اعتمادها في التحليل اللساني الوصفي بشكل لا لبس فيه كما لو أن الأمر يتعلّق بقواعد وصياغات رياضية(118).

يؤكّد بلومفيلد على منهجية المصادرات في اللسانيّات على الرغم من أن اللسان كموضوع للسانيّات لا يسمحُ دائماً باتباعها مثلما هو معمول به في علوم أخرى، ولاسيما الرياضيات، لكون اللغة البشرية على جانب كبير من التعقيد وعدم الاستقرار. وكلُّ حدث متجدّد فيها يصبح موضوع مُصادرات جديدة وهكذا دواليك. وتكمنُ أهمّية منهج المُصادرات في اللسانيّات أنه "يسمح لنا بجعل دراسة اللسان تتقدّم، لأنه يجبرنا على أن نعلن بوضوح كل فرضياتنا، وأن نضبط ألفاظنا ونحدّد الأشياء التي يجب أن يكون لها وجود مستقل. وتسمح المصادرات أيضاً بتجنّب الأخطاء وتصحيحها بفحص صياغة تعريفاتنا"(119).

(118) L. Bloomfield. «Un ensemble de postulats pour la science du langage, trad. de A set of postulates for the Science of Language, in A. Jacob. *Genèse de la pensée linguistique*. Paris, A.Colin, 1973/1926.

(119) L. Bloomfield. «Un ensemble de postulats pour la science du langage, p. 184.

وجاء كتاب "**اللغة**" في مستوى عال من الدقّة في ضبط المفاهيم وصياغتها بدقة ليعكس بذلك حرص بلومفيلد ووعيه بضرورة دراسة قضايا اللغة دراسة موضوعية، رائده في ذلك الدعوة إلى تبني المنهج التجريبي الاستقرائي، والبحث في الوسائل والسُّبل التي يضمنُ اتباعها في التحليل اللساني الحصول على نتائج مضبوطة. هذا المسعى هو ما هدف إليه بلومفيلد وهو يحاول وضع أسس التحليل اللساني المعروف بالتوزيعية والذي يعتمد تحديد السمات الصورية للفئات بتحديد مواقعها في بناء الوحدة الصّرفية أولاً ثم الجملة ثانياً أو الملفوظ.

لقد سارت اللسانيّات البنيويّة مع بلومفيلد ومن جاء بعده ما بين 1939 و1960 في اتجاهين بارزين:

- المنهجية التوزيعية الهادفة إلى التحديد الدقيق للطرائق الصورية المتعلّقة بتقطيع سلسلة الملفوظ (الجملة) إلى وحدات متميزة في إطار العلاقات التي تربطها بواسطة السياقات التي توجد فيها هذه الوحدات.

- المنهجية المعروفة بالتحليل إلى المُكوِّنات المباشرة التي تحدّد التحليل التوليفي لهذه الوحدات بدءاً بالوحدات الدنيا ووصولاً إلى وحدات المستوى الأعلى، أي من الصُّرْفَة إلى الملفوظ، ومن الجملة إلى الصُّرْفَة. وتولى عدد غير قليل من أتباع بلومفيلد نذكر منهم على سبيل التمثيل لا الحصر: - تراجر *Trager* وبلوخ *Bloch* ونيدا *Nida* وهوكيت *Hockett* وبايك *Pike* وويلز *Wells* وهاريس *Z. S. Harris*. وغيرهم[120]، توضيح الأسس النظرية والإجرائية التي وضعها بلومفيلد في كتابه "**اللغة**" حتى استقامت كلياً بشكل دقيق ومضبوط، وأصبحت تشكّل معالم بارزة وسمات نظرية ومنهجية خاصة باللسانيّات البنيويّة الأميركيّة عموماً والبلومفيلدية على وجه التحديد.

---

(120) Jean Dubois et Fr. Dubois Charlier. *Principes et méthodes de l'analyse distributionnelle,* Langages nº20/1970, Paris, Didier-Larousse, 1970, p.3.

7.1. التوزيعية

ليست التوزيعية نظريةً لسانيّةً متكاملة ومستقلة بذاتها ذات صياغة نهائية كما هو معروف مثلاً عند سوسير أو حلقة براغ أو هلمسليف أو عند تشومسكي حالياً. إنّ التوزيعية بحسب تعبير ويلز *R. S. Wells*[121] -أحد أقطابها- جملة من التعليمات والتوصيات العملية المتعلّقة بالوصف اللساني والكيفية التي ينبغي أن يتمّ بها اكتشاف نَحْو لسان ما. إنها منهجية اختبارية لجمع المعطيات اللغوية ومعالجتها بدقّة وموضوعية. واختيار الوصفيّة الأميركيّة هذه الإجراءات العملية نابع من التجربة التي قام بها اللسانيون الأميركيون، لاسيما الأنثروبولوجيون منهم، في وصف ألسن الهنود الحمر منذ بوعاز، حيث يتحوَّل اللسانيّ الواصف إلى مفكِّك لرموز لسان غير معروف. فالمعطى اللغويّ الوحيد المتوفر لدى اللسانيّ الواصف هو المتن اللغويّ الخاضع للتحليل والذي تُسْتَقرأ منه كل المعلومات حول اللسان المدروس. فلا يقدّم المتن المعروض للبحث أي معلومات مباشرة عن جوانبه الصّواتية والصّرافية والتركيبية والدلالية. هذه المواجهة المباشرة بين اللساني الواقع اللغوي هي التي أملت اللجوء إلى الإجراءات المتنوعة التي استعملها اللسانيون الأميركيون في وصفهم المباشر لألسن غالباً ما كانوا يجهلون كل شيء عن بنياتها المتعدّدة أو لا يعرفون عنها في أحسن الأحوال إلّا النزر القليل[122]. والمقاربة التوزيعية توكيد للفرضية الأساس في اللسانيّات البنيويّة والمتمثلة في أنه بالإمكان دراسة لسان معين دراسة داخلية، باعتباره بنية قائمة الذات ومستقلة عن العوامل الخارجية لا يُحْتاج في فكّ رموزها إلى معطيات خارجة عنها. فليس بين يدي اللساني الواصف سوى متتالية من العمليات التي يتعين اتباعها في التعامل موضوعياً مع لسان معين وهو ما أُطْلِقَ عليه إجراء الاكتشاف *Procédure de découverte*. وقد حدَّدت اللسانيّات الأميركيّة أولوياتها منذ مراحلها الأولى في تدقيق نوعية الإجراءات المُتَّبعة في الوصف وما

(121) Ju. D. Apresjan. *Eléments sur les idées et les méthodes de la linguistique structurale contemporaine*, Paris, Dunod, 1973, p.43.

(122) Ju. D. Apersjan. *Eléments sur les idées et les méthodes de la linguistique structurale contemporaine*, p.43- 44.

تتطلبه من خطوات عملية لإنجاز هذه المهمّة بكيفية ناجعة تحقّق أهداف الباحث الوصفي، في إطار الموضوعية والصورية وقابلية المُراقبة المباشرة.

وحاول أتباعُ بلومفيلد أو البلومفيلديون الجُدُد *New bloomfieldiens* السير على نهج أستاذهم فكان تأكيدهم قوياً على أهمّية الوصف الدقيق للألسن والبحث في الأساليب والطرائق الإجرائية الملموسة الكفيلة بمعالجتها معالجة وصفيّة موضوعية ومستقلة عن المحلّل اللساني. وفي هذا المنحى تَمَّ تحديد المُواصفات الموضوعية اللازم توفرها في الأدوات الإجرائية (الوصفيّة) التي بإمكانها تفادي أي لجوء إلى المعنى.

ويؤكّد اللسانيون التوزيعيون أنّ هدف التحليل اللساني البنيوي يتلخّص في ترتيب الوحدات اللغوية في مختلف مستويات التحليل اللساني، ومن ثمة فهو لا يقتضي بالضرورة أي معرفة بمعنى الوحدات. إن التوزيعيين لا يعتمدون المعنى في وصف البنيات اللغوية إلّا من حيث إنه وسيلة تقنية وإجرائية، وليس باعتباره هدفاً في ذاته. فالمعطيات الدلالية غير لازمة، لأن المعرفة بها قد تفسد التحليل الموضوعي.

وفي هذا السياق، تَمَّ تَعْريفُ الجملة مثلاً، بأنها "ليست ما يدلّ على معنى يحسن السكوت عنه أو التي تنقل فكرة أو معنى تاماً"، مثلما يقال عادة، ولكنها "الشكل اللغويّ المستقلّ الذي لا يتضمّنه تركيب آخر أكبر منه"[123]. أمَّا المَقُولات الأساس مثل، الاسم والفعل والحرف، فلم يعد الأمر يتعلق بتعريفها على أساس مفهومي يعتمد دلالة الأشياء في العالم الخارجي كالقول بأن الفعل "ما دلَّ على حدث" وأنَّ "الاسم ما دلَّ على شخص أو مكان أو شيء"، لأنَّ هذه التعريفات تتطلب معرفةً فلسفيةً وعلميةً لا يمكن أنْ يملكها الإنسان، كما تفترض أنَّ الفئات الصورية في لسان ما يجب أن تكون موافقة للتصنيفات التي يضعها الفيلسوف أو العالِم"[124]، إنّ الحدّ المقبول يتمّ باعتماد معايير صورية محضة تضبط توزيع الفئات داخل الملفوظات في إطار العلاقات التي تجمعها بما

(123) *Le langage*, p.161.

(124) *Ibid*, p.249.

يتوارد معها من وحدات مُماثلة لها. فكل الصّيَغ والمركّبات الّتي يمكنها أن تحتلّ موقع الفاعل *acteur* في بناء من قبيل فاعل-حدث *acteur-action* تشكل فئة صورية كبرى *classe formelle*[125].

ولم يعد مفهوم الوظيفة مثل، الفاعلية والمفعولية يحدّد بكيفية دلالية أو منطقية مطلقة استناداً إلى مفهوم الفاعل أو المفعول به، وإنما أصبحت وظيفة وحدة ما تحدّد بالرجوع إلى الموقع الذي تحتله، وكل الوحدات التي تظهر في نفس الموقع تُشكِّل مقولة لها نفس الوظيفة. فالمواقع التي يمكن أن تظهر فيها صيغة ما هي وظيفتها أو وظائفها، وكل الصّيَغ التي يمكنها أن تحتل موقعاً معيناً تشكل بهذه الكيفية فئة صورية"[126].

إن المطلوب من اللساني الواصف في هذا المستوى من التحليل أن يعرف ما إذا كان معنى ملفوظين متساوياً أو متقارباً أو مختلفاً، وذلك بإجراء مجموعة من التقنيات الصورية الفعّالة. ويلاحظ في موضوع علاقة المعنى بالتحليل التوزيعي تردّد اللسانيين الأميركيين في التعامل مع قضايا المعنى والدلالة. وليس المعنى هدفاً مباشراً للمقاربة التوزيعية، وإنما يكون إما وسيلة تقنية مساعدة، وإما إجراءً استكشافياً.

في هذا الصدد قدّم بعض الدارسين[127] أمثلةً واضحةً على بعض التناقضات بين الموقف النظري عند اللسانيين البنيويين (لاسيما عند هاريس) الرافض لإدماج الاعتبارات الدلالية والاستعانة بها، والتحليل الفعلي الذي يتمّ فيه الرجوع إلى المعنى للوقوف على حقيقة البنيات الصّواتية والصّرافية والتركيبية. ولتحديد الوحدات الصرفية وتقسيمها، لا يمكن الاستغناء عن المعنى لتقرير مدى سلامة التّقطيع المقترح توزيعياً. كيف يمكن مثلاً أن نحصل على تقطيع الصُّرفة *boiling* إلى *ling* و *boi* وليس إلى *boil+ing* بدليل وجود الصُّرفة *boyling*؟ هل يمكن - دون الاستناد إلى المعنى - أن نعالج المشاكل التي تتعلّق بتحديد طبيعة

---

(125) *Le langage*, p.175.

(126) *Ibid*, p.175.

(127) G. Mounin. *La linguistique au XX^ème^ siècle*, p.176.

بعض الصُّرفات مثل: *boysenberries* عندما تَرِد صُرفة مثل *berries* في صُرفات أخرى مثل، *strawberries/blackberries*، بينما لا تَرِدُ *boysen* في أيّ سياق آخر؟.

ويتضحُ هذا التردّد في التعامل مع المعنى والدَّلالة من خلال ما كتبه هاريس نفسه قائلاً: "إن الصوتة لها بكيفية ما دلالة أولية باعتبارها تميِّز صُرْفَة عن صُرفة غيرها. والمُلاحظ أن اختلاف الدلالة بين الوحدات *shorte/shorn/shore* مرتبط بوجود الوحدة /t/ ".

وفي السياق نفسه، يتضح وجودُ اعتبارات دلالية قوية في التحليل التوزيعي الذي اعتمده هاريس في تحديد طبيعة بعض الصُّرفات، ولتحديد سلسلة الوحدات المُكوِّنة من *this/that/thither/then/there* التي تكشف عن وجود الصُّرفة *th* التي تحمل دلالة الإشارة، وكذلك الأمر في الأمثلة *why/which/whither/when* الَّتي تمتلك فيها صُرفة *wh* قيمة استفهامية(128).

وفي ضوء هذه الأمثلة، فإنّ ضلوعَ المعنى في الكشف عن تحديد الصُّرفات أمر واضح، وإن اللجوء إليه في التحليل البنيوي التوزيعي (عند هاريس وغيره) يتم دون أيّ تحفظ، على المعنى سواء بكيفية تلقائية أم نَسَقية(129)، ممّا يؤشر إلى أن هذا الرفض المعلن للمعنى من الناحية التصوّرية والمنهجية ليس سوى الواجهة التي تخفي أشياء متناقضة ومنها:

أولاً: الإقرار بانفلات المعنى وعدم القدرة نظرياً ومنهجياً على الإمساك به.

ثانياً: استحالة الاستغناء عن المعنى ودوره في التحليل مهما كان طابعه الصوري وموضوعية أدواته الإجرائية كما هو الحال بالنسبة إلى اللسانيّات البنيويّة ذات المنهجية التوزيعية.

ويبدو من خلال العديد من الأمثلة أنّ الفرضية التي قامت عليها اللسانيّات التوزيعية، والمتمثلة في إبعاد مُكَوِّن المعنى من البحث اللساني، مجرد كلام ليس إلّا. وحتى نقد التوزيعيين التقسيم الأرسطي لأجزاء الكلام ليس له ما يبرره منهجياً، إذ تحضر عند التوزيعيين بدورهم اعتبارات دلالية ولو لم يُصرِّحوا بذلك.

---

(128) *La linguistique au XX^ème^ siècle*, p.176.

(129) *Ibid*, p.180.

ويرى التوزيعيون أنه حين يتعلّق الأمر بتحديد الصُّرفة دلالياً، يكون المعنى وسيلة تقنية فقط، وأنه لا يصلح سوى لتمييز المُتتاليات والعبارات. فالعبارة مُماثلة أو غير مُماثلة لعبارة غيرها على المستوى الدلالي، بحيث إذا غَيَّرنا عنصراً واحداً فقط، فإنّ المعنى يتغير كذلك، وهو ما يمكن من تشخيص مُماثلة أو عدم مُماثلة *non -identité* العبارات ليس أكثر[130].

إنّ الارتباط بين التوزيع والمعنى أساسي. وليس بالإمكان تحديد وحدات المستوى الصّرافي أو التركيبي دون اللجوء إليه، بل وفي تحديد النسق اللغويّ برُمَّته. فكل صوتة أو متتالية منها لا تكوِّن صُرفةً إلّا إذا قامت هذا الصوتة بدور المُمَيِّز [الدلالي] الملائم بين صُرفَتين أو أكثر. في الإنكليزية، كما في ألسنة أخرى، يمكن للصوتة الواحدة مثل /Z/ أن تكُون صُرفَة حينما تقوم بدور المُمَيِّز الدَّلالي، أيْ المغيِّر لمضمون الصُّرفة *boys /raods /goes*. إلّا أنَّ هذا لا يعني أنَّ الصوتة /Z/ هي أيضاً صُرفة في متتاليتين مثل، *rose* أو *zoo*.

يَعتبر اللسانيون البنيويون الأميركيون الجُملة سلسلةً من الوحدات الصَّرفية التي لا تتجاور بشكل اعتباطي، بل إنَّ كلَّ مُكوِّن فيها يحتلّ موقعه بحسب علاقته بالمُكوِّنات الأخرى المجاورة له. ومن هنا التجأ أتباعُ بلومفيلد إلى البحث عن خصائص مُكوّنات الجُمْلة بتحديد مواقعها الممكنة. ويتم تحديد موقع وحدة ما، ولنسمِّها ص في جملة ج، بحصر وتعداد مجموع الوحدات، ص1 وص2 وص3 التي تسبق ص في الجملة ج، ومجموع الوحدات، ص 4 وص5 وص6 الّتي تأتي بعد ص في بنية الجملة نفسها.

إنّ الموقع هو المكان الذي تأخذه وحدة معينة في تركيب معين. ونظراً إلى أن التحليل التوزيعي لا يأخذ في الاعتبار معنى الوحدات ولا يهتمّ به في تحديد وحدات الجُمْلة، فالموقع الذي تحتلّه الوحدات هو الذي يحدّد معناها، أي إن مدلول الوحدات مدلول توزيعي فحسب، مُرْتبط بالموقع الذي توجد فيه. كما أن المواقع التي تحتلها هذه الوحدات هي وظائف الوحدات نفسها. إن

---

(130) Jean Dubois. *Grammaire structurale du français: Nom et prénom,* Paris, Larousse 1965.

معنى بناء مركّب يمكن أنْ يقسَّم إلى أجزاء تتحدّد معانيها بحسب الوظيفة التي تشغلها في هذا الموقع. فالاسم له عِدّة وظائف لأن له عِدّة مواقع. وتستخدم فكرة التموقُع *Positionnement* لتحديد توزيع الصُّرْفة. يقول هاريس مُعرِّفاً التوزيع: "توزيع وحدة مُعَيَّنة هو مجموع المواقع التي يمكن أن تحتلّها هذه الوحدة، وهو ما نسمّيه علمياً بالتوزيع داخل نماذج من الملفوظات الصغرى التي يجب أن تنتمي إلى نفس الجزء من الجملة"[131]. وبعبارة أبسط نقول إن التوزيع هو مجموع المواقع التي نجد فيها الوحدات داخل جمل تنتمي إلى متن لغوي معين.

(131) Z. S. Harris. «La structure distributionnelle», In *Langages*, N°20, Décembre, 1970, Didier-Larousse, Paris, 1970.

الفصل الثاني

التحليل البنيويّ للجُمْلة

1.2. مكانة تحليل الجُمْلة في اللسانيّات البنيويّة

حظِيَت الجُمْلة باهتمام اللِّسانيِّين حتىّ إنَّه لا تخلو نظريّة لسانيّة بنيويّة أو غير بنيويّة من تصوُّر مُحدَّد لتحليل الجُمْلة. وليست التحليلات الصّواتيّة والصّرافيّة الَّتي قيمَ بها في اللسانيّات عموماً وفي اللسانيَّات البنيويّة الأميركيّة والنتائج الَّتي تمَّ التوصُّل إليها سوى مدخل لدراسة بنية الجُمْلة. فالجُمْلة ليست صُرْفات وُضِعَت جنباً إلى جنب اعتباطياً، ولكنَّها تخضعُ في كل الألسن الطبيعيّة لمجموعة من القيود والقواعد التي تضبط مختلف العلاقات المُتحَكِّمة في تجاور مواقع وحداتها المُكَوِّنة[1]. إن بناء الجُمْلة *construction* ليس مُجرَّد وضْع كَلِمة إلى جانب أخرى، ولكنه بناء مُقيَّد ومضبوط يقتضي أن يحصل بين مكونات الجُمْلة نوع من الانسجام. فلا يكفي أن يجاور أي فعل اسماً ما أو اسمين لنحصل على جملة صحيحة تركيبياً (ودلالياً).

يُعرِّف بلومفيلد الجملة بأنها "الشَّكل اللُّغوي المُستَقِل الَّذي لا يتضمَّنه تركيب آخر أكبر منه"[2]. وتتآلف الوحدات اللُّغويّة المُكَوِّنة للجملة فيما بينها بحسب الطَّرائق الآتيّة[3]:

---

(1) Z. Harris. «La structure distributionnelle», p.15, in *Langages*, nº20, Décembre 1970, Paris, Didier-Larousse.

(2) L. Bloomfield. *Le langage*, p.161.

(3) *Ibid*, p.156 et suivantes.

أ ـ الرُّتْبة *Ordre* وهي التَّتابع الذي تنطق فيه مُكَوِّنات الجُمْلة، وتظهر أهميَّتها في الألسن الَّتي تعتمد رُتْبة الكلمات كالفرنسيّة أو الإنكليزيّة وفي بعض الأمثلة العربيّة: ضرب موسى عيسى ≠ ضرب عيسى موسى.

ب ـ التعديل: *Modulation* وهو استعمال وحدات تكميليّة تُمثِّل الإيقاع الموسيقي للجُملة، فتبيِّن نوعيَّتها مثل: الاستفهام ـ التوكيد ـ النفي ـ الإخبار ـ الإنشاء ـ التعجُّب.

جـ ـ التغيُّرات الصوتيّة *Modification* التي تطرأ على الأصوات من جرَّاء تَقارُبها كدخول المجهور على المهموس والمُفخَّم على المرقَّق أي التأثيرات الصوتية الناتجة عن تجاور الأصْوات.

د ـ الانتقاء *Sélection* وهو انتماء الوحدات إلى فئة الصّيَغ اللُّغويّة التي تملك سمات مُعيَّنة تسمح لها بارتباطات سياقيّة مُحدَّدة بغيرها من الفئات، أي انتقاء الفئات التي تتلاءم فيما بينها. وتتضمَّن كلُّ فئةٍ من الصّيَغ اللُّغويّة وحدات لها سِمات صُوريّة تجعلها تتصرَّف تركيبياً بطريقة مُحدَّدة. "إن معنى صيغَة مُركَّبة ما يتعلَّق في جزء منه بانتقاء الصّيَغ المُكَوِّنة لها"[(4)]. فالفعل "أكل" يحتاج إلى "مركَّبين اسميَّين يليانه في المحور السِّياقي"، وبالتَّالي ينبغي أن يحصل بين وحدات الجملة نوع من "المُلاءمة النَّحويّة"، فبعض الصّيَغ تدخل على صِيَغ مُعيَّنة ولا تقبل أخرى. فأداة التَّعريف (أل) وحروف الجرِّ مثلاً تسبق الأسماء ولا تسبق الأفعال. وأدوات مثل: "أن" و"لن" و"كي" تسبق فقط الأفعال الدالة على الزمن الحاضر أو المُسْتقبَل فتنصبها وهكذا ممَّا هو كثير في الألسن الطبيعيّة. وكل لسان له قواعده التي تضبط الإمكانات المُتاحة لتجاور مواقع الوحدات بعضها مع بعض لبناء تراكيب صحيحة ومقبولة.

ويمكن التمييز بين ثلاثة أنواع من العلاقات القائمة بين وحدات الجُملة[(5)]:

---

(4) *Le langage*, p.156.

(5) R. H. Robins. *Linguistique générale : Une introduction*, p.193.

* **علاقة الموقع** *Relation de position*
* **علاقة التوارد** *Relation de co-occurrence*
* **علاقة التعويض** *Relation de substitution*

تهتمّ علاقة الموقع بما يعرف عادة بترتيب الوحدات في الجُملة، إذ يقوم بناء الجُملة على ترتيب محدّد بين وحداتها. فالبنية البسيطة المُكوَّنة من: فعل + مُرَكّب اسمي 1 + مُرَكّب اسمي 2، أي من فعل وفاعل ومفعول تخضع لقيود معيَّنة تسمح ببعض التراكيب التي يتغير فيها ترتيبُ الوحدات ولا تسمح بأخرى. إنّ التنوع في الترتيب الذي يتميز به اللسان العربي باعتباره لساناً إعرابياً وذا بناء مرن تتمتّع فيه الوحدات بنوع من الحرية في احتلال المواقع ـ بعكس الفرنسية أو الإنكليزية ـ لا يمكِّن دائماً من الحصول على جمل مقبولة. إن تغيير موقع الوحدات ليس مطلقاً أو اعتباطياً. "إن تغيرات الرُّتْبة في اللغة الواحدة أو في اللغات المختلفة ليست اعتباطية أو غير محدّدة، بل هناك ما يدلّ على وجود قيود على رُتَب المُكَوِّنات الكبرى داخل الجُمَل (من فعل وفاعل ومفعول) أو رُتَب مُكوِّنات أصغر داخل المُرَكّبات الاسمية أو الحرفية أو الفعلية. ومن أهداف النظرية اللسانيّة أن تبحث في مجموعة المبادئ التي تقيد الرُّتَب داخل اللغات لأنّ كفايتها ليست مرهونةً فقط بتخصيص ووصف ما يلاحظ من الظواهر الرتبية بل أيضاً ما لا يمكن أن يلاحظ منها"[6]. فإذا كان المتكلم يقبل جملة مثل:

- ذهب الولدُ إلى المدرسة صباحاً

فإنه لا يقبل البتة جملاً يختلّ فيها الترتيبُ بين المُرَكّب الاسمي الفاعل والمُرَكّب الحرفي والمُرَكّب الظرفي من قبيل:

- ذهب إلى صباحاً المدرسةِ الولدُ
- ذهب إلى الولدُ صباحاً المدرسةِ
- صباحاً إلى ذهب الولدُ المدرسةِ

---

(6) الفاسي الفهري، «إشكال الرُّتبة»، **مجلة تكامل المعرفة**، ص53، الرباط، 1986.

فبين الفعل والفاعل والمفعول في البنية البسيطة للجُملة العربية ترتيب محدّد تضبطه قُيود محدّدة. وكل تغيير أو ما يعرف في النحو بالتقديم والتأخير والتوسط تنتج عنه تبعات تركيبية تمسّ بناء الجُمْلة برمّته.

أمّا علاقة التوارد فتقوم على تحديد العناصر التي يمكنها أن تصاحب ظهور الوحدات في مواقع معيَّنة من الجملة. يكون الاسم مسبوقاً بفعل و"مُعرِّف "مثل: " جاء الولد"، ويمكن أن يرد بعد "ضمير منفصل" وقبل "صفة": هو «ولد ظريف"، ولكنه لا يتوارد مع بعض الحروف مثل، قد ولن وما شابههما، فلا يقال "قد ولد" أو "لن كلب". أمّا الفعل فيأتي في أول الجملة أو بعد الاسم، ويأتي بعده الاسم والحرف وتدخل عليه الضمائر ولكنه لا يقبل دخول حروف الجر ولا أدوات التعريف.

علاقة التعويض: يلاحظ أنّ الوحدات التي تملك الخصائص الصرفية والتركيبية نفسها يمكنها أن تأخذ المواقع نفسها داخل بناء الجُمْلة وقد يعوض مُكوِّن معين بمُكوِّن مفرد مماثل أو مُركّب. ومعلوم أنّ تحديد الموقع يتمّ بناء على مبدإ التوزيع. والتوزيع كما سبقت الإشارة إلى ذلك في الفصل السابق هو مجموع المواقع التي يمكن أن تحتلّها وحدةٌ معينة. فالمُرَكَّب الاسمي الفاعل يَرِد مفرداً كما في الجملة: جاء الولد، وقد يعوض بضمير كما في: "جاء هو" لكن المُرَكّب الاسمي المفرد قد يرد مُرَكّباً اسمياً مُكَوَّناً من عدة مُكَوِّنات كما في:

- جاء هذا الولدُ

وتحدّد علاقةُ التعويض الفئاتِ أو المُكوِّنات التي تحتل الموقع نفسه مع بقاء بناء الجملة قائماً. ويتمّ التأكد من صحّة التركيب بإجراء رائز التعويض.

ويلاحظ أن هذه العلاقات الثلاث وإن كانت مختلفة من حيث طبيعتها، فهي مترابطة فيما بينها. فترتيب الوحدات يحدّد مواقعها، وتحديد الموقع يتطلب الوقوف على جميع تواراداتها في حدود الإمكانات التي تسمح بها علاقة التعويض وإحلال فئة مكان أخرى، فضلاً على أن ضبط هذه العلاقات وتطبيقها يتطلب ضمنياً الاستعانة بباقي الإجراءات المُتَّبعة في التحليل التوزيعي مثل التقطيع والتوزيع وغيرهما. فتقطيع الجملة إلى مُكوِّناتها لا يتمّ اعتباطياً ولكنه يراعي

علاقات الموقع والتوارد والتعويض القائمة بين المُكوِّنات والعكس صحيح. نستطيع أن نقطع الجملة:

- امتطى الرجل سيارته إلى: امتطى ـ ال ـ رجل ـ سيارة ـ ه ولكن لا نستطيع أن نقطعها إلى:

امتطى ال- رجل ـ سيارة ـ ه، إذ لا يمكن تعويض الاسم رجل ب "هو" أو بـ "**ذلك سائق**"، لأنّ الجُمْلة الجديدة ستصبح هي: ***امتطى الهو سيارته** أو * **امتطى الذلك سائق سيارته**، وهما معاً جُملتان غير مستقيمتين في العربية. وتتضح العلاقةُ بين التقطيع والترتيب أيضاً من خلال ما يقود إليه التقطيع السابق من استحالة تغيير رُتبة الوحدات:

فلا يمكن أن نقول: "***امتطى ال سيارته رجل**" مقابل سلامة الجملة ذات التقطيع العادي: "**امتطى سيارتَه الرجلُ**».

ونستخلص ممّا تقدم، أنّ بناء الجُمْلة قائم على قواعد مضبوطة بالنسبة لكل لسان على حدة؛ وأنّ وحدات الجملة تنتظم في علاقات تخضع لمجموعة من القيود التي يختص التركيب *syntaxe* بتحديدها.

2.2. التحليل إلى المكونات المباشرة

لا ينتهي التَّحليل الصُّوريُّ عند بلومفيلد في حدود تحديد السِّمات الصُّوريّة للصِّيَغ اللُّغويّة، بسيطةً كانت أم مُركَّبةً، وسواء تعلّق الأمر بالصُّرْفات الحرَّة (كلمة مستقلة) أم بالصُّرْفات المقيَّدة مثل: الضَّمائر المُتَّصلة وغيرها. وتُطبَّق المعايير الصُّوريّة والإجراءات نفسها على باقي وحدات الجُمْلة.

تعودُ الفكرة الجوهريّة في التحليل إلى المُكوِّنات المباشرة في أصْلها إلى بلومفيلد[7] الذي يرى أن كلَّ متكلِّم بالإنكليزيّة يمكنه أن يهتدي بكلِّ تأكيد إلى أن المُكَوِّنات المباشرة لجُمْلة مثل: *Poor John ran away* هما الصِّيغتان المُركَّبتان *Poor John/ran away*، اللّتان تُقسَّمان بدورهما إلى مُكَوِّنين أساسيَّين هما: *poor*

---

(7) *Le langage*, p.153 et suivantes.

وJohn وran وaway. وبِعبارة أخرى، تُقسَّم الجُمْلة إلى أكبر جزءين فيها (Phrasesبالإنكليزية أو Syntagmes بالفرنسية)، ثم تُقَسَّم هذه المُكَوِّنات مرَّة ثانية إلى مُكَوِّنين فرعيَّين وهكذا إلى أن يصل التَّحليلُ إلى المكَوِّنات الصُّغرى التي توصف في الغالب بأنَّها صُرْفات حرَّة[8] forme libre أو مُشَكِّلاتٌ Formants. ويُسَمَّى الجزء من كلِّ مُكَوِّنٍ مُكَوِّناً (Constituant). فكلُّ جزء باستثناء الجُمْلة ذاتها هو مُكَوِّن، وكلُّ مُكوِّن في الوقت ذاته باستثناء المُشَكِّلات (مصطلح للدَّلالة على الصُّرفات المقيَّدة) هو مُركَّب. والمُكَوِّنات المباشرة هي المكَوِّنات التي تُشكِّل الجزء الأعلى مباشرة"[9]. وبعبارة أخرى" كُلُّ كَلِمة هي مُكَوِّن إلا إذا كانت جُمْلة، ومُكَوَّنة إلّا إذا كانت صُرْفَة منفردة"[10].

ينطلقُ التحليل إلى المُكَوِّنات المباشرة للجُمْلة من فكرة جوهرية مُفادها أنَّ الجُمْلة تناسق وتوليف وارتباط بين وحدات صغرى هي الصُّرْفات morphèmes. فداخل مُتتاليّة suite (جُمْلة) معيَّنة من الوحدات تَتَوسَّع المُكوِّنات على شكل بناء تراتبي من أصغر وحدة، الَّتي هي الصُرْفَة، إلى الوحدة الكبرى الَّتي هي الجُمْلة، وهذا يعني أن انتظام Arrangement الصِّيَغ في الجُملة ليس اعتباطيًّا، وإنما يكون خاضعاً لعدد من القيود والضوابط العامَّة الخاصَّة بكل لسان على حدة. وبعبارة أخرى، يُبَيِّن التحليل إلى المكَوِّنات المباشرة أنّ الجُمْلة ليست مُتَتاليّة بسيطة من العناصر الـمُتراصَّة اعتباطياً. إن الجُمْلة تراتب Hiérarchie من المكَوِّنات المباشرة والمُكَوِّنات الفرعيّة المتداخلة فيما بينها، وهي تسمح بالتدرُّج في تكوين وحداتٍ أكثر اتساعاً تلتقي كلُّها في بناء الجُمْلة. فالمُكوِّن المباشر هو مجموعُ الوحدات اللُّغوية التي تعمل كجزء من مُكوِّن أكبر. والأساس في التَّحليل إلى المُكَوِّنات المباشرة كما تشير إلى ذلك التسمية، هو تحديد نقط الفَصْل points de coupe؛ أي المواقع التي يُمْكِن أن تُعيَّن فيها المُكَوِّنات المباشرة للجُمْلة في إطار تراتبي، حيث يتمُّ أولاً تمييز المُكوِّنات

(8) Rudon S. Wells. «Constituants immédiats», p.64, in *Langages* n°20/ Décembre 1970, Paris, Didier - Larousse, 1970.

(9) غيرهارد هيلبّيش، **تاريخ علم اللغة الحديث**، ص144.

(10) R. S. Wells: *Constituants immédiats*, p.65.

المباشرة الأولى، ثم تقسيمها بدورها إلى مُكَوِّنات مباشرة ثانية وهكذا.. ويدُلُّ مصطلح مُباشر *Immédiat* على أن مكوِّنات الجُمْلة تتألَّف من مُركَّبات تكون قابِلةً لأن تحلَّلَ بدورها إلى مُكَوِّنات أخرى وصولاً إلى أصْغر وحدة غير قابلة للتحليل إلى مُكَوِّنات أخرى أصغر، أي الصِّيغة الحرَّة. إنّ الجُمْلة في هذا التَّصوُّر طبقات من الْمُكَوِّنات التي يحتوي بعضها بعضاً. فتحليل جُمْلة مثل:

- الشَّباب ذكوراً وإناثاً مستقبل هذه البلاد

يُفضي إلى مكَوِّنيْن مباشرين هما:

- الشَّباب ذكوراً وإناثاً

- مستقبل هذه البلاد

أما المُركَّب الوصْفيّ "**ذكوراً وإناثاً**" فليس مُكَوِّناً مباشراً للجملة؛ لأنه مرتبط بمُكوِّن مباشر أكبر هو المُركَّب الاسمي "**الشَّباب ذكوراً وإناثاً**". ويصدُق التَّحليلُ نفسه على المُرَكَّب الإضافيِّ "**هذه البلاد**" الَّذي هو جُزْء من مكَوِّن مباشر أكبر هو المركَّب الاسمي "**مستقبل هذه البلاد**".

يُحيل المصطلحان (مُكَوِّن ومُرَكَّب) على مفهوم البناء *construction*. فكُلَّما ركَّبنا صيغتين (وفي حالات قليلة أكثر من صيغتين) باعتبارهما مُكَوِّنين لصيغة مركبة *forme complexe*، فإن السِّمات النَّحوية الَّتي تُوالِف بينهما تُشكِّل بناءً(11). لكنَّ المُكَوِّن والمُرَكَّب لا يصوِّران نفس العلاقات والوظائف النحويّة والتَّركيبيّة بين وحدات الجملة. فكل مُكَوِّن يحتوي على مُركَّب والعكس ليس صحيحاً. وقد يَرِدُ مُركَّب معيَّن بمفرده مُكَوِّناً مباشراً للجملة(12)، كما في الجملة البسيطة: "ظهر ولدٌ". فالفعل "**ظهر**" مركَّب مفرد مُكَوِّن مباشر أول للجُملة، و"**ولد**" مركَّب اسمي مفرد مُكوِّنها المباشر الثاني. وحين يُنظَر إلى الجملة على أنَّها بناء ينظر إلى المُكَوِّن والمركب على أنهما في تراتبية معينة لبناء هذا التوسع

---

(11) L. Bloomfield. *Le langage*, p.160.

(12) *Ibid*, p.153.

Expansion الذي تقدمه مكونات الجملة[13]. يشير المُكَوِّن إلى موقع صيغة مفردة أو مُرَكَّبة ضمن وحدات أخرى تتألف فيما بينها لتكوين وحدة أعلى هي الجُمْلة، بينما يشير المُركَّب إلى علاقة تركيبية معيَّنة بين صيغتين لغويتين داخل الجُمْلة أو داخل المُكَوِّن. إن المركب في بنيته الصَّرْفية والنَّحْوية ارتباط متبادل بين عنصرين أو أكثر، وهو كذلك تكامل بين مَقُولتين تركيبيَّتين. فالمُرَكَّب بنية مكَوَّنة من وحدتين صرفيتين دون اعتبار طبيعة بنيتهما الداخليّة أو درجة تعقيدها. ويعني الارتباط الداخليُّ بين وحدات الجُمْلة أن للمُرَكَّب قواعده الخاصة به، وأن أيَّ تغيير بالحذف أو الزيادة لا يتِمُّ دون المسِّ بالعناصر الأخرى[14]. يقوم المُرَكَّب الاسمي أو الفعلي أو الحرفي على علاقة بين الوحدات المُكوِّنة له الَّتي تتمحور حول عنصر مركزيّ يعتبر رأس هذا المُركَّب. والمُركَّب توليف بين مجموعة من الوحدات التي تعرف نوعاً من الانتظام يسمح بتكوين وحدة نحويّة أكبر. هناك "رأس المُركَّب" وهناك "المُخَصِّص *spécificateur*" و"التَّكْمِلة (الفضلة في النَّحو القديم" *complément*) إلى غير ذلك. فالمُركَّب الاسمي "**الولد**" يتكوَّن من "مُعرِّف" و"اسم"، لَكنَّ مُركَّباً اسمياً آخر مثل: "**صديقي**" يتكوَّن من اسم وضمير. ولا شيْء يمنعُ من توسيع هذا المُركَّب الاسمي بإضافة مُركَّب وصفي إليه: "**الولد الذكي**" أو مُركَّب حرفي "**الولد الذكي في البيت**". ويتكوَّن المُركَّب الحرفي "**في البيت**" من حرف واسم: **في + البيت**، وقد يتمُّ توسيعه فيُصْبح مُكوِّناً مُركَّباً (من مكَوِّنات أخرى) من حرف واسم وصفة "**في البيت الصغير**"، أو بإضافة عناصر مُدمَجة فيه "**في بيتنا الصغير**" ليبقى مُحافِظاً على استقلاليَّته باعتباره مُكوِّناً مباشراً في تراتبيّة معيَّنة بحيث يكون قابلاً للتحليل إلى مُكوِّنات مباشرة أخرى": **في+ البيت + الصغير أو: في + بيت+ نا + ال+ صغير**"[15].

(13) مفهوم التَوسُّع *Expansion* استعمله ويلز Wells في المقالة المشار إليها سابقاً. وهو غير مفهوم التوسع الذي تحدثنا عنه عند مارتينيه في فصل سابق.

(14) *Ibid*, p.28

(15) للوقوف على نظرة مفصّلة لمفهوم المُرَكّب في الدراسات اللسانيّة الحديثة لاسيما في الاتجاه البنيوي يمكن الرجوع إلى دراسة:

R. F. Mikus: *Principes de syntagmatique*, Bruxelles, Paris, Didier, 1972.

بالنسبة إلى العربية يمكن الاطلاع على التقديم الواضح والمدعَّم بأمثلة عربية في =

وقد تتغيَّر بعض المصطلحات المتعلِّقة بالتَّحليل إلى المُكوِّنات المُباشِرة، ولكنَّ طريقة التَّحليل تظلُّ هي نفسها. فقد قسَّم ويلز الجُمْلة إلى بُؤَر *foyers* وجِوارات *environnements*. وكلُّ متتاليّة قابلة للتَّعويض بمتتاليَات أخرى تُشكِّل بؤرةَ الجُمْلة. ويعتبر باقي وحدات الجُمْلة جِواراً لها[16].

وعلى الرُّغْم من هذه الواجهة الصُّورية للتَّحليل إلى المُكوِّنات المباشرة، فهو في نهاية الأمر، ليس إلّا صياغة جديدة للطَّريقة المعروفة في الأنحاء التقليديّة الغربيّة باسم التحليل المنطقي أو الإعراب *parsing*[17]. والإعراب بمعناه النحوي القديم تغيير أواخر الكلمات بفعل طارئ ماديٍّ أو معنويّ، يهُمُّ أيضاً مواقع الأسماء ودخول بعض الأدوات على الأفعال في الجُمْلة، وشكلها الصَّرفي، وما يلحقها من تغيرات دلالية في علاقتها بالخصائص الصرفيّة للمَقُولة المجاورة. و"الإعراب ليس أكثر من آلية منطقية لتفتيت الجُمْلة إلى أجزاء ثم إعادة تصفيفها"[18]. ويكمن الفرق بين التحليل اللغويّ القديم والتحليل إلى المُكوِّنات المباشرة في أن الأول يعتمد مفاهيم وأدوات دلالية مرتبطة بوظيفة الكلمة داخل الجُمْلة، بينما يعيدُ التَّحليل إلى المُكوِّنات المُباشِرة، صيَّاغة هذه القضايا معتمداً معايير صوريّة محضة لا علاقة لها بمعنى المقولات المحدّدة للجُمْلة، تقوم على الموقع داخل الجُمْلة والعلاقة بباقي مُكَوِّناتها.

يقوم التحليلُ إلى المُكوِّنات المُباشرة بدوره على التحليل المنطقي المتمثل في تقسيم الجُمْلة إلى موضوع *sujet* ومحمول *prédicat* أو بنية فاعل-حدث *acteur-action* بتعبير بلومفيلد[19] وهو تقسيم لا يناسب كل الألسن الطبيعية، سواء في أبعاده النظرية أم التطبيقية. فإذا كان التقسيم الثنائي للجملة يصدق على

= القسم الثالث من كتاب منذر عياشي: **قضايا لسانيّة وحضارية**، دار طلاس، دمشق، 1991، ص112-205.

(16) R. S. Wells. op. cit. p.66.

(17) P. M. Postal. *Constituant Structure: A Study of Contempory Models of Syntactic Description*, p.7.

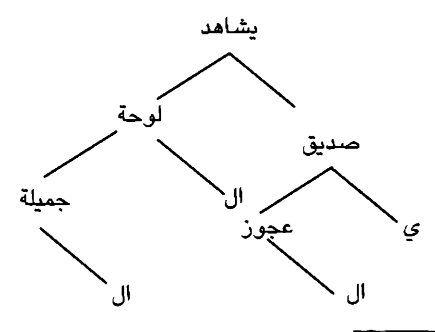
(18) دايفيد كريستل، **التعريف بعلم اللغة**، ترجمة حلمي خليل، ص109.

(19) L. Bloomfield. *Le langage*, p.175.

الألسن الهندية-الأوروبية، فهو لا يصدق بالضرورة على فصائل لغوية مغايرة كالألسن السامية ومنها العربية. ومعروف أنّ العربية تتوفر على مُرَكّب فعلي لا يتحقّق بالكيفية نفسها في الألسن الهندية-الأوروبية.

وقد حاول اللسانيُّ الفرنسي لوسيان تنيير 1893-1954 Lucien Tesniere[20] تجاوز تقسيم أرسطو المعروف للجُمْلة إلى موضوع ومحمول. فإذا كان نموذج التحليل إلى المُكَوِّنات المباشرة يقيم تحليل الجُمْلة على أساس "علاقة الجزء بالكلّ" التي تحكم وحدات بناء الجُمْلة، فإنّ ما يقترحه تنيير يقوم على علاقة التبعية *Dépendance* بين وحدات الجُمْلة. وتقضي هذه العلاقة الانطلاق من وحدات لغوية مركزية في الجُمْلة، وأخرى تابعة لها بحيث تكون الأولى محورية من حيث تدرّجها وتسلسلها، بينما تكون الوحدات التابعة وحدات صغرى[21]. ويرتكزُ التحليل التركيبيّ في نحو التبعية *Grammaire de dépendance* الذي يخالف تصوّر التحليل إلى المُكَوِّنات المباشرة في كثير من المسائل التصوّرية بشأن بناء الجُمْلة وتحليل العلاقة بين مُكَوِّناتها، على مفهوم الجُمْلة النواة يكون الفعل رأسها، وتكون باقي الوحدات تابعة له مباشرة. يصور تنيير العلاقة بين مُكَوِّنات الجُمْلة بشكل مغاير في شكل شجيرة *Stemma*، يعتبر الفعل فيها مركزاً تتمحورُ حوله باقي مُكَوِّنات الجُمْلة كما يوضح ذلك التمثيل التالي للجُمْلة:

- يشاهدُ صديقي العجوزُ اللوحةَ الجميلة،



(20) Lucien Tesniere. *Eléments de syntaxe structural*, Paris, Klincksiek, 1959/1968.

(21) سعيد حسن بحيري، **نظرية التبعية في التحليل النحوي**، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1988، ص10.

ويختلفُ نحو التبعية عن التحليل البنيوي للجُمْلة في عدّة أمور أهمّها التمييز بين الترتيب الخطي *Ordre linéaire* للجُمْلة أي تتابع وحدات الجُمْلة خارجياً والترتيب البنيوي *ordre structural*، أي الترتيب الداخلي لوحدات الجُمْلة. وتحليل الجُمْلة من منظور نحو التبعية يقتضي الانتقال من الترتيب الخطّي إلى الترتيب البنيويّ الذي يتضمّن العلاقات الفعلية بين وحدات الجُمْلة. وبعبارة أخرى، يوجد وراء البعد الأحادي المتمثل في تسلسل وحدات الجُمْلة ترتيب متعدّد الأبعاد. والبناء الحقيقيّ للجُمْلة هو البناء البنيوي.

ومن مزايا التحليل إلى المُكَوِّنات المباشرة للجُمْلة الذي وضع بلومفيلد لبناته الأولى أنه يجعل وصف الجُمْلة أبسط، ويكشف عن بنية الجُمْلة كتوسّع من البسيط إلى المُرَكَّب[22]، ويوضح مختلف العلاقات التركيبية القائمة تراتبياً بين وحداتها، بعكس الإعراب في النحو التقليدي الذي لا يتجاوز حدود التقيد بوضع كلّ مفردة من مفردات الجُمْلة على حدة. وتظهر العلاقة بين الفعل والأسماء التي تليه في المحور السياقي بشكل أوضح في التحليل اللساني للجُمْلة ممّا عليه في التحليل اللغويّ القديم. وتبدو بعضُ الوظائف النحوية العادية مثل الفاعلية والمفعولية أكثر بداهةً ومنطقيةً عندما ينظر إليها في التحليل اللساني بوصفها مُرَكَّبات اسمية وليست وحدات منفردة.

3.2. النموذج المُرَكَّبي[23]

يندرج تحت اسم النموذج المُرَكَّبي */Phrase Structure Rules syntagmatique Modèle* أو النحو المُرَكَّبي *Grammaire syntagmatique* أو نحو المركبات *Grammaires des constituants* مجموعة من المنهجيات اللسانيّة البنيويّة التي عرفت في الولايات المتحدة الأميركيّة نهاية النصف الأول من القرن العشرين. ويعتبر النموذج المُرَكَّبي، من حيث اختياراته النظرية الكبرى ومفاهيمه الإجرائية

(22) R. S. Wells, op. cit. p.66.

(23) نعتمد في الفقرات المتعلقة بالنموذج المركبي على ما جاء في كتابنا: **اللسانيّات التوليدية: من النموذج ما قبل المعيار إلى البرنامج الأدنوي**، بمشاركة محمد الملاخ وحافظ اسماعيلي علوي، إربد، عالم الكتب، 2010.

المُتحَكِّمة فيه، صورة عامَّة للممارسة اللسانيَّة عند التَّوزيعيين، في إطار التَّحليل اللِّساني البنيوي القائم على العمليَّات الإِجْرائيّة مثل:

- التَّقْطيع *Segmentation*
- التصنيف *Classification*
- الاستبدال *Commutation*
- التعويض *Substitution*

وتتلَخَّص المبادئُ العامة للنحو المُرَكَّبي في تمثيل بنية الجملة على شكل بناء تراتبي يتوسّع تدريجاً. وباعتباره مقاربة بنيويّة توزيعية، يهدفُ النحو المُرَكَّبي إلى تقسيم الجُمْلة إلى مُكَوِّناتها الأساس، وتحديد مَقُولاتها وتصنيفها في فئات صورية دونما إحالة على المعنى. ويُعرف هذا التصوّر في اللسانيّات البنيويّة الأميركيّة، كما سبقت الإشارة إلى ذلك بالتحليل إلى المُكَوِّنات المباشرة الذي ينطلق في الأصل من تصوّرات بلومفيلد اللسانيّة[24]. وقد تمّت إعادة صياغة تصورات بلومفيلد بطرائق مختلفة متقاربة أحياناً ومتباعدة أحياناً أخرى من قبل مجموعة من اللسانيين نذكر منهم على وجه التحديد:

- هاريس (1909-1992) Zellig Sabattei Harris
- ويلز (1918-2008) Rulon S. Wells
- نيدا (1914-) Eugene Nida
- بيرنارد بلوخ (1907-1965) Bernard Bloch
- تراجر (1906-1992) G. L. Trager
- تشارلز فرانسيس هوكيت (1916-2000) Charles Francis Hockett

(24) L.Bloomfield. *Le langage*, p.160-209-212.

ومن مزايا النحو المُرَكَّبي أنه تمكّن من وضع صياغة صورية *formalisation* دقيقة للتصورات النحوية القديمة. وعلى الرغم من وجود بعض الاختلافات النظرية المتعلّقة بطبيعة بعض الإجراءات العملية وكيفية تسميتها، فقد نجح النموذج المركبي إجمالاً في اقتراح نموذج موحّد لتحليل بنية الجملة بتجزيئها إلى المُكَوِّنات المباشرة. وقد اعتبره تشومسكي(25) نموذجاً أفضل وأقوى من نموذج ماركوف Markov وأنه صالح لأن يكون نظريّة صوريّة لتحليل بنيات الألْسن الطبيعيّة إذا أدخلت عليه بعض التعديلات.

4.2. التمثيل المبياني للوصف البنيوي

بعد أن يقوم اللساني الواصف بجمع المتن اللغويّ وضبط معطياته وتحليلها للوقوف على الاطرادات التوزيعية في مستوى الأصوات والصُّرفات والبنيات التركيبية (الجُمْلة) ووضعها في فئات *Classe* (فعل/اسم/صفة/حرف/ ...)، ينتهي إلى وضع تمثيلات مِبْيانية *Représentations graphiques* تسمحُ بتجسيد مختلف التقسيمات وتوضيح العلاقات الموجودة بين مُكَوِّنات الجُمْلة؛ أي تقديم صورة إجمالية لشبكة العلاقات المتحكّمة في بنية الجُمْلة. ومن أشهر هذه التمثيلات المِبْيانية نذكر:

2.4.1. أقواس ويلز *Parenthèsation de Wells*:

في تمثيلات ويلز المعروفة بالأقواس أو التقويسات، توضع المُكَوِّنات المؤلّفة للجُمْلة في أقواس بدءاً من المُكَوِّن الأعلى الذي هو الجُمْلة، إلى أصغر مكوِّن دالّ وهو صُرْفة.

يمكن تقويس الجُمْلة:

- الولد يأكلُ التفاحة

على الشكل التالي:

(25) N. Chomsky. *Structures syntaxiques*, Paris, Seuil, 1969/1957.

(الولد يأكل التفاحة)
1 1

((الولد) (يأكل التفاحة))
2 21 — 12 2

((الولد) (يأكل التفاحة))
((ال) (ولد)) — (يأكل التفاحة))
23 3 3 321 — 12 2

(((ال) (ولد)) — ((يأكل) (التفاحة)))
23 3 3 321 — 124 4 4 42

(((ال) (ولد)) — (((ي)(اكل)) (التفاحة)))
23 3 3 321 — 134 4 45 55 542

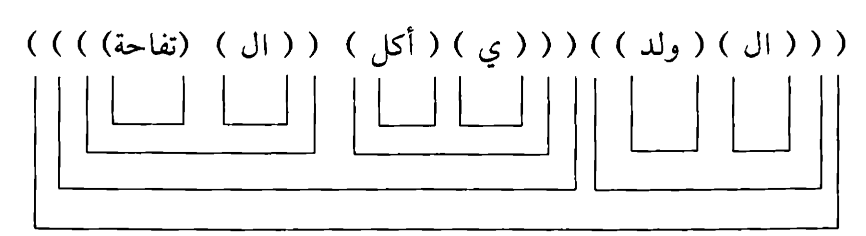
(((ال) (ولد)) — (((ي)(اكل))((ال)(تفاحة))))
23 3 3 321 — 1246 66 6445 55 542

كيف حصلنا على الأرقام في الرسم السابق؟ نقسم الجُمْلة هذه المرة بدون أقواس في الرسم1 ونقابلها بالأقواس دون ترقيم الرسم 2 حتى نفهم جيداً هذا التداخل بين مُكَوِّنات الجُمْلة. ونُشير إلى أننا لا نطبق في كلّ سطر إلّا تفكيكاً واحداً إلى أن يشمل التحليل كل المكونات.

الرسم 1	الرسم 2
الولد يأكل التفاحة	(الولد يأكل التفاحة)
الولد يأكل التفاحة	((الولد) (يأكل التفاحة))
ال ولد يأكل التفاحة	(((ال)(ولد)) (يأكل التفاحة))
ال ولد يأكل التفاحة	(((ال)(ولد)) ((يأكل) (التفاحة)))
ال ولد ي أكل التفاحة	(((ال)(ولد)) (((ي)(اكل)) (التفاحة)))
ال ولد ي أكل ال تفاحة	(((ال)(ولد)) (((ي)(أكل) ((ال)(تفاحة))))

الرسم 1 — **الرسم 2**

يبين التقطيع في الرسم 1 الوحدات المُكَوِّنة للجُمْلة، ويبين الرسم 2 وضع هذه المُكَوِّنات داخل الأقواس بدءاً من الجملة إلى أصغر وحدة دالّة. ويمكن أن نربط بين الوحدات التي تتركّب منها مُكَوِّنات الجُمْلة على الشكل التالي:



2.4.2. خانات هوكيت *Cases de Hockett*

يُعدُّ هذا التمثيل المِبْياني من أكثر التمثيلات تداولاً في اللسانيّات البنيويّة الأميركيّة، وهو قريب جداً من التمثيل السابق، إلّا أنه أكثر وضوحاً منه، من حيث تبيانه للعلاقات القائمة بين المُكَوِّنات المباشرة للجُمْلة. ويقدّم تمثيل هوكيت في شكل خانات تحمل كل منها وحدةً لغويةً محدّدة، بحسب المستويات الممكنة، انطلاقاً مِن المستوى الأعلى، وهو الجُمْلة إلى أصغر وحدة مستقلة بذاتها (صرفياً ونحوياً)، وهي الصُّرفات. ويمكن تقديم الجُمْلة السابقة :

- يأكل الولد التفاحة

في خانات هوكيت على الشكل التالي:

سابقة	فعل	محدّد	اسم	محدّد	اسم	6
يـ	أكل	ال	ولـــد	ال	تفاحة	5
يـ	أكل	ال	ولـــد	التفاحة		4
يـ	أكل	الـــولـــد		التـــفاحـــة		3
يـأكل		الـــولـــد		التـــفاحـــة		2
يـــأكل		الولـــد		التفاحـــة		1

ينطلقُ التحليل من الخانة رقم 1 حيث تشيرُ كل خانة تباعاً إلى الوحدات الكبرى

المؤلّفة للجملة، ويستمرّ التحليل إلى أصغر الوحدات الدالة على معنى سواء أكانت صرفات حرة (أكل/ ولد/ تفاحة) أم صرفات مقيدة (ي/ ال) (خانة رقم 6).

2 .4 .3. معادلات هاريس *Equations*

تمثيل مبياني اقترحه هاريس *Z. Harris* وهو على الشكل التالي:

1 - ج ← ف + م س + م س (ف= فعل، م س = مركب اسمي، س =اسم)

2 - ف ← أكل

3 - م س ← معرف+ اسم

4 - معرف ← ال

5 - س ← ولد/ تفاحة

وتقرأ هذه المعادلات على الشكل التالي:

في القاعدة 1 تُعاد كتابة ج (الجملة) إلى فعل ومركب اسمي ومركب اسمي، ويدلّ على ذلك السهم الذي تتضمّنه القاعدة. وفي القاعدة 2 تُعاد كتابة "فعل" بما يناسبه معجمياً. وفي القاعدة 3 تُعاد كتابة المركب الاسمي إلى مُكَوِّنَيْه: المعرف والاسم. وفي القاعدة 4 تُعاد كتابة "المعرف" بما يناسبه وهو أداة التعريف "**ال**". وأخيراً تُعاد كتابة الاسم بما يناسبه معجمياً مثل "**ولد**" أو "**تفاحة**" أو ما شابه ذلك. وكما في التمثيلات المبيانية السابقة يسمح بـ"إعادة كتابة" قاعدة واحدة فقط قبل الانتقال إلى القاعدة الثانية.

وتعرف هذه المعادلات في الأدبيات اللسانيّة بقواعد إعادة الكتابة. وقد تم توظيفها في النحو التوليدي مع ظهور أول نماذجه سنة 1957.

5.2. قصور النموذج المركبي

يتسمُ النحو المركبي بمجموعة من الخصائص الصورية المقبولة نظرياً في تحليل البنيات اللغوية. إلّا أن ثمة مجموعة من الظواهر اللغوية التي تطرح مشاكل محدّدة لا يستطيع التحليل إلى المكونات المباشرة أن يقدّم لها الحلول الملائمة والكافية.

حاول تشومسكي كما يتّضح جلياً في كتابه **البنيات التَّرْكيبية** الصادر سنة 1957[26] تقديم صياغة صورية جديدة للنموذج المركبي تقوم على إمكانية خلق نوع من التوافق النظريّ والمنهجيّ بين البنية التركيبية التي يتوفر عليها النحو المُرَكَّبي والتحليل التحويلي الذي وضعه هاريس. فتمّت بذلك إعادة النظر في النموذج المركبي، ليس بتقديم بديل لسانيّ عنه، وإنما بتطعيمه بالمُكَوِّن التحويلي. وفي ضوء هذه المراجعة؛ عمل تشومسكي على رصد الظواهر التركيبية التي لا يستطيع التحليل إلى المُكَوِّنات المُباشرة أن يجد لها جواباً بحسب ما تتوافر عليه قواعده من إجراءات ومفاهيم.

2 .5 .1. الترتيب البنيوي والترتيب الخطّي

لا يمكن للتحليل إلى المُكَوِّنات المباشرة أن يأخذ في الحسبان التعارض بين الوحدات المُكَوِّنة للجملة على المستوى الخطّي؛ أي في التسلسل الذي يتبعه التلفظ بالوحدات فعلاً، وبين الترتيب البنيوي العميق الذي يمكن أن يربط بين مُكَوِّنات الجُمْلة. إنّ الترتيب الخطّي أو السطحي ليس دائماً مطابقاً للترتيب الذي تكون عليه وحداتُ الجُمْلة في بنيتها العميقة. وقد أشرنا إلى هذا الأمر حين حديثنا عن نحو التبعية الذي اقترحه الفرنسيّ تنيير.

إنّ النموذجَ المُرَكَّبي لا يقدّم تحليلاً ملائماً لبنية النفي *Négation* في جُمْلة من قبيل: *-Il ne mange pas.*

يقدّم التحليل المُرَكَّبي للنفي الوارد في هذه الجُمْلة في صورة دال متقطع؛ أي إنه ليس وحدةً دالة قائمة الذات، ولكنه وحدتان تردان في موقعين مختلفين على مستوى الترتيب الخطّي، لكنهما تدلان مجتمعتين على النفي في الترتيب البنيويّ العميق.

لا يستطيع التحليل إلى المُكَوِّنات المباشرة تقديم الوصف المناسب لِمَقُولة النفي ليقف عند حدود الترتيب الخطّي الذي يعكسه البناءُ السطحي للجملة المتضمّنة للنفي.

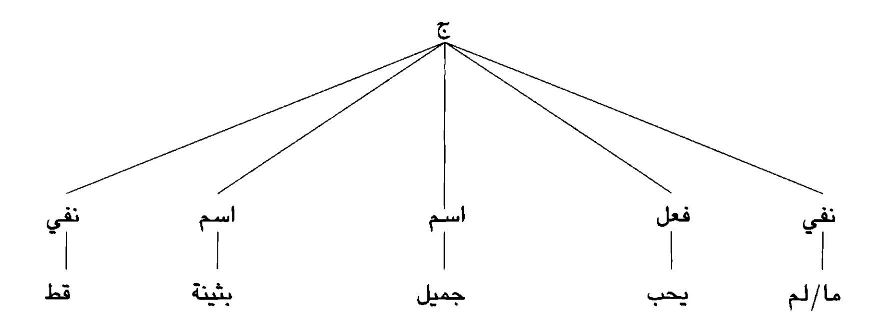
(26) N. Chomsky. *Structures syntaxiques*, p.54-59.

وليست القواعد المركبية المقترحة كافيةً لتحليل هذا النوع من المُكَوِّنات، لأنها لا تستطيعُ القيام بوظيفتين مختلفتين: ضبط الترتيب السطحي وضبط الترتيب البنيوي العميق الذي تقيمه فيما بينها الوحَدات المُكَوِّنة للجملة. أما النَّحو التَّوليدي فيمكنه بواسطة التحويلات أن يقدّم الوصف البنيوي الملائم لطبيعة الجُمَل التي تتضمّن دوال متقطعة تحيل على النفي أو الماضي التام.

يُعبِّر اللسانُ العربي عن ظاهرة النفي في الزمن الماضي أو المستقبل بواسطة الدوال المتقطّعة مثل (**لم/ما + قط/**) **أو** (**لن + أبداً**) كما يظهر من خلال تحليل الجملة التالية:

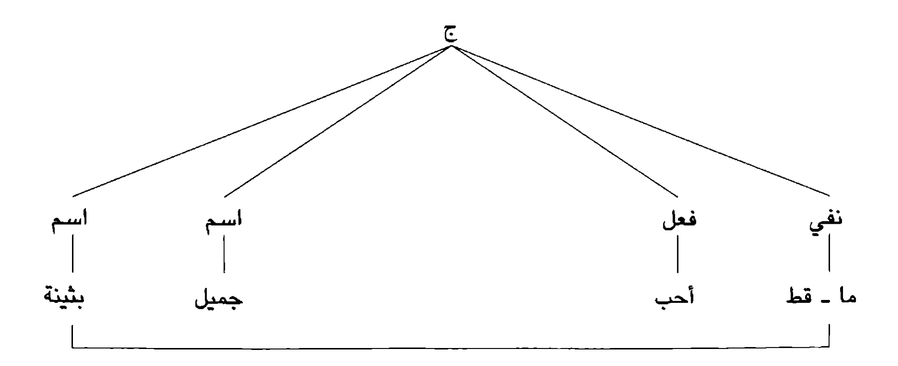
- ما أحبّ جميل بثينة قطّ

التي يمكن تصويرها شجرياً كما يلي:



فالنفي يحتلّ موقعين مختلفين في سطح الجملة.

أمّا النحوُ التحويلي فيسند إلى الجُمْلة نفسها تصويراً شجرياً يرد فيه النفي في البنية العميقة للجُمْلة في موقع واحد (**ما/قط ولن/أبداً**)) ويتمّ في مرحلة ثانية إدخال القاعدة التحويلية الاختيارية التي تتكلف بنقل **قط/أبداً** إلى الموقع الذي تحتلّه في البنية السطحية للجُمْلة:



إنّ المُعالجة التي يُقدّمها التَّحليل إلى المُكَوِّنات المباشرة لمثل هذه الظواهر تبقى ناقصة؛ لأنه لا يُميِّز بين ما هو سطحي وما هو عَمِيق، بينما يُولي النحو التوليدي لهذين المستويين من التَّرتيب أهميّة كبرى، رابطاً بينهما بواسطة القواعد التَّحويليّة.

ولهذه المسألة أهمّية كبرى بالنظر إلى وجود بنيات لغوية يختلفُ فيها بناء الجُمْلة السطحي عن بنائها العميق. ما يحتاج إليه اللسانيّ الواصف أمام مثل هذه الظواهر، هو مجموعة من القواعد التحويلية القادرة على تقديم حلّ موحّد للقضايا اللغوية التي ينبغي أن يحترم فيها حدس المتكلم.

2.5.2. العلاقة بين الجمل

نجِدُ في النَّموذج المُرَكَّبي ولاسيَّما في أعمال هاريس تصنيفاً توزيعياً للوحدات انطلاقاً من موقعها داخل سلسلة الملفوظ، غير أنّ هذه التصنيفات لا توصلنا دائماً إلى ملفوظات مقبولة حتى ولو كانت تبدو مستقيمةً نحوياً *grammaticale*. ففئة الأفعال لا تقبل أن يرد بعدها أي اسم. إن وصفاً خطياً في مستوى السطح من نوع:

1)- ف+ م س 1 + م س 2

غير كاف لوصف جمل اللسان وصفاً دقيقاً، ومن شأنه كذلك أن يمدّنا بجمل صحيحة التركيب لكنها غير مقبولة دلالياً مثل:

2)- شرب الولدُ الفيلَ

3)- قرأ الرجلُ السيارةَ

فالوَصْف السَّطحي القائم على تعداد مواقع الوحدات داخل الجملة لا يُمَكِّن من معرفة العلاقة أو العلاقات القائِمة بين الوَحدات المُكوِّنة للجملة.

لنتمعن في الجمل التالية:

4)- يقرأُ أحمد كتبَ الأدب

5)- أحمد قارئٌ لكتبِ الأدب

6)- قراءةُ أحمد لكتبِ الأدب

7)- زيدٌ كريمُ النسب

8)- نسبُ زيدٍ كبير

9)- زيدٌ نسبُهُ كريم

يدرك متكلِّم العربيّة بحدسه اللُّغوي الطبيعي التشابهَ القويَّ الَّذي يجمع بين الجُمَل الثلاث الأولى تركيباً ودلالةً، غير أن النَّموذج المُرَكَّبي لا يملك الأدوات الإجرائيّة التي يستطيعُ من خلالها أن يُقدِّم وصفاً مناسباً لنوعيّة العلاقة القائمة بين الجمل (4-5-6)، مهما كانت بسيطةً في بنيتها. فهو يُسنِدُ إلى كل جُمْلة منها وصفاً بنيوياً مختلفاً، رغم أنَّها في الواقع تملك ترتيباً بنيوياً واحداً، ويُمْكنُ بسهولة الربط بين مختلف بنياتها السطحية بواسطة القواعد التحويلية. إنّ بين الجمل (5-6) و(7-9) علاقة ترادف جُمَلي. فحدس المتكلم يتعرف دون عناء على التشابه الدلالي بين الجُمَل رغم اختلاف بنياتها العميقة، بينما يُلاحَظ أنّ النموذج المُرَكّبي يعالجُ هذه الجُمَل معتبراً إياها بنيةً واحدة. لننظر إلى المثال التالي[27]:

10) - زيدٌ كبيرُ الرأس

11) - زيدٌ كبيرُ الإخوة

---

(27) عادل فاخوري، **اللسانيّة التوليدية**، بيروت، لبنان الجديد، 1980، ص22.

12)-*دُفعَ المالُ من زيدٍ

13)- سُرِقَ المالُ من زيدٍ

يعتبرُ النموذج المركبي بنية الجُمْلة (10) مُماثلة لبنية الجُمْلة (11) وبنية الجُمْلة (12) مُماثلة لبنية الجُمْلة (13). وهو تحليل ليس مناسباً؛ لأنه يقتصر على النظر إلى سطح بنية الجملة. ويكفي أن نخضع الجُمْلتين (10) و(11) لتحويلات التقديم أو التأخير أو الحذف ليظهر الاختلافُ الحاصل بين هاتين البنيتين رغم تشابههما السطحي. إن جملة:

10) - زيدٌ كبيرُ الرأسِ

يمكن تحويلها إلى جملةٍ أخرى قريبة منها هي:

14)- رأسُ زيدٍ كبيرٌ

دون أيّ تغيير جوهري. لكنّ هذا الضرب من التحويل لا يصلح مع الجملة الثانية إذ إن الجُمْلة:

15)- إخوةُ زيدٍ كبارٌ

لا تعادل جملة:

16)- زيدٌ كبيرُ الإخوةِ

ويصدق التحليل نفسه على الجُمْلتين 12 و13.

3.5.2. اللبس

وهو أن يكون للمُكَوِّن أو التركيب الواحد داخل بناء معين أكثر من دلالة أو معنى، أي إن البنية التركيبية الواحدة لها دلالتان. واللبس في الألسن الطبيعية نتيجة طبيعية لخطية اللسان[28]. إذا اعتبرنا جملاً مثل:

(28) Yuen Ren Chao. *Langage et systèmes symboliques*, p.72, Paris, Payot, 1970.

17)- صيدُ الأسودِ مروّعٌ

18)- نقدُ المعرّي لاذعٌ

19)- كتابُ زيدٍ

تَبيَّن أنها تتوافر على بنية مُرَكَّبية متشابهة هي:

- م س 1+ م س 2

غير أنّ التحليل العميق للجُمَل السابقة (17-18-19) يبين أننا أمام بنيات تركيبية مختلفة انطلاقاً من الدلالة التي يمكن أن تسند إلى كل جُمْلة على حدة، وعلى نحو مستقلّ عن كل سياق أو مقام تواصلي يمكن أن توجد فيه هذه الجُمَل. لا يُميِّز التحليل إلى المُكَوِّنات المباشرة بين الترتيبات البنيويّة المختلفة الثاوية وراء الترتيب الخطّي لكل جملة على حدة. لننظر أيضاً إلى الجمل الآتية:

29)- بابُ البستانِ الكبير

حيث يمكن أن تسند الصفة "كبير" إلى الباب أو إلى البستان كما يظهر في الترسيمتين التاليتين:

[بابُ البستانِ] [الكبيرُ]

[بابُ[البستانِ الكبيرِ]]

30)- الأطفالُ والرجالُ الأقوياءُ

إذ يمكن إسناد صفة القوة إلى الرجال فقط أو إلى الأطفال والرجال معاً كما يظهر في الترسيمتين التاليتين:

- [الأطفالُ] و[الرجالُ الأقوياءُ]

- [الأطفالُ والرجالُ] [الأقوياءُ])

وباقتراح القواعد التحويلية التي تربط بين البنيات السطحية والبنيات العميقة، أو بين الترتيب الخطّي والترتيب البنيوي الذي يعكسُ العلاقات الفعلية القائمة بين مُكَوِّنات الجُمْلة، حاول تشومسكي أن يتجاوز قصورَ النحو المُرَكَّبي بعد إعادة صياغته صوريًّا.

الفصل الثالث

لسانيّات هاريس

1.3. اللسانيّ المخضرم

يُعدُّ زليغ هاريس (1909-1992) من أبرز وجوه اللسانيّات البنيويّة الأميركيّة إن لم يكن أكثرها شهرةً وتأثيراً بعد أستاذيه سابير وبلومفيلد وتلميذه تشومسكي. وقد جمع هاريس في كتاباته العديدة والمتنوعة بين تجريبية اللسانيّات الوصفيّة وما تطلبته من ابتعاد جذريّ عن المعنى في الوصف والتحليل وصرامة الإجراءات والتصوّر الحركيّ التوليديّ للألسن الطبيعية بإدراج مفهوم الخطاب ومفهوم التحويلات في صلب اللسانيّات البنيويّة. ورغم إسهاماته، لم تنل أعماله[1] الغزيرة ما تستحقّه من قيمة وعناية. وقد ذكر

---

(1) يمكن الرجوع إلى أعمال هاريس التالية:

-*Methods in Structural Linguistics*, Chicago, University of Chicago Press, 1951.

(يشير هاريس نفسه أن هذا الكتاب كان بين أيدي الدارسين منذ 1946). انظر المقال في مجلة **لغات** الفرنسية عدد 99/ 1990، ص10.

- *«Distributional structure», Word*, X1954, p.42-162, Tra. in *Langages*, nº20/1970, Paris, Larousse.

- «From phoneme to morpheme», *Language*, XXXI, 1955/p. 190-222.

- «Co-occurrence and transformation in linguistic structure», *Language*, XXXIII, 1957, p. 283-340.

- *String Analysis of Sentence Structure*, La Haye, Mouton, 1962.

- *Discourse Analysis* Reprints, La Haye, Mouton, 1963.

=- «Transformational theory», *Language*, XLI, 1965, p. 363-401.

مونان أنه كثيراً ما يُشَار إلى أعمال هاريس، لكنه قليلاً ما يُقْرأ، ونادراً ما يُنَاقش. ولم تكن مؤلّفاته المتنوّعة القضايا موضوعَ أي دراسة شاملة تركيبية تعرض بالتحليل آراءه وتصوّراته على الرغم من انسجامها النظري وعلميتها العالية(2). والواقع أنّ النصوص التي كتبها هاريس تتسمُ بلغة علمية دقيقة تعتمد الرموز الصورية والقواعد الجبرية فضلاً على أسلوب مكثف بالإحالات والإشارات إلى سجل واسع من البحوث والدراسات في هذا المنحى أو ذاك. ولعلّ هذا ما حال دون متابعة إنجازات هاريس رغم قيمتها النظرية.

2.3. مسار لسانيّات

عرف مسار هاريس اللساني، خلال أكثر من نصف قرن من الزمن- ثلاث مراحل أساسية يمثل لكل واحدة منها بمؤلَّف بارز من مؤلّفات هاريس. وهذه المراحل هي(3):

- **مناهج في اللسانيّات البنيويّة** (1947-1951) *Methods in structural linguistics*
- **البنيات الرياضية للغة** (1968) *Mathematical structure of Language*
- **نحو الإنكليزية وفق المبادئ الرياضية** 1982 *A Grammar of English on Mathematical Principles*

ويستند هذا التقسيم إلى تحديد مفهوم القاعدة في النحو *Règle de grammaire* في أعمال هاريس، ممّا يجعل منهجية كلّ مرحلة ومبادئها وأهدافها مختلفة عن الأخرى.

حاول هاريس في المرحلة الأولى وضع منهجية توزيعية تضبط انتظام

- *Structures mathématiques du langage*, Paris, Dunod, 1971/1968. =
- *Papers in Structural and Transformational Linguistics*, Dordrecht, Reidel 1970.
- *Notes du Cours de syntaxe*, Paris, Seuil, 1976.

(2) Georges Mounin. *La linguistique au XX^{ème} siècle*, p.170, Paris, PUF, 1972/1975.

(3) Anne Deladier. «Présentation du numéro 99», *Langages*, volume 25, 1990, Paris, A. Colin.

التقابلات البنيويّة في التحليل اللساني. وسنعود لاحقاً لتوضيح ملامح هذه المرحلة باعتبارها مرحلة تندرج مباشرة في موضوع اللسانيّات البنيويّة التي هي محور مؤلفنا.

وتتميزُ المرحلة الثانية التي هي استمرار للأولى بإدخال مفهوم التحويلات إلى التحليل اللساني البنيوي منذ 1952 في مقاله الشهير "**تحليل الخِطاب**". وتشكّل هذه المرحلة فترة بحث عن الطريقة التي ينبغي أن يكون عليها نحو تحويلي للسان.

وقدّم هاريس في المرحلة الثالثة تصوّراً مغايراً للتحويلات. فالجُمَل التي تربطها علاقة تحويلية لها بنية تركيبية واحدة وهي في الوقت ذاته بنية تتعلّق بالإدماج المعجمي *insertion lexicale* وبنية تأويل الملفوظات. أما القيود على رُتْبة تسلسل الكلمات فتحكمها قواعد الخطية *Les règles de linéarisation*، وبعبارة أخرى فإنّ القواعد الملائمة للبنيات التركيبية ليست قادرةً على تحليل آليات التأويل المرتبطة بدلالة الجُمْلة. فالبنيات التركيبية تطبيقات مرتّبة من العناصر المعجمية، وهي غير قابلة للتغيير عن طريق التحويلات التي لم تعد في هذه المرحلة مجرد استبدال للصّيَغ المختصرة صرفياً بصيغ صرفية أخرى أكثر وضوحاً في بنيات تظلّ دون تغيير أثناء تفريع جملة ما. وممّا لا شكّ فيه أنّ ظهور النحو التوليدي على يد تشومسكي كان له كبير الأثر في هذه المقاربة التحويلية عند هاريس. وتختلفُ المراحل السابقة فيما بينها بالنظر إلى ما يلي:

- اختلافُ تقنيات التحليل اللساني المُتَّبعة في كلّ مرحلة.
- القضايا الاختبارية المترتّبة عنها.
- الفرضيات العامة حول الوصف اللساني المتبناة في كلّ مرحلة.
- المقولات اللغوية موضوع الوصف وتحديداً ما يعرف بأجزاء الكلام التي تمت مراجعتها بحسب الأسس السابقة والمتعلقة بكل مرحلة على حدة.

إلّا أن الانتقال من تصوّر إلى آخر خلال أكثر من خمسين سنة من البحث العلمي الجاد والصارم، جعل بعضهم يرى فيه محاولةً غير مسبوقة من قبل

هاريس لبناء لسانيّات بنائية *linguistique constructive*، ومن جهة ثانية جعلت أعمال هاريس الأخيرة عُرْضة للتجاهل سواء في مجال اللسانيّات أم في مجال الذكاء الاصطناعي[(4)].

3.3. مصادر لسانيّات هاريس

كتب هاريس في مقال خصّ به مجلة **لغات** الفرنسية عن **نشأة وتكوين التحليل التحويلي واللغة الواصفة**[(5)] أشار فيه بوضوح إلى المصادر التي اعتمدها خلال مساره العلميّ الحافل بالإنجازات اللسانيّة الهامة، التي رام منها "محاولة تنظيم التحليلات التي قيم بها في اللسانيّات الوصفيّة بُغْية تحديد نوعية المناهج المُتَّبعة فيها وصياغتها"[(6)]. وتنقسمُ هذه المصادر إلى نوعين:

- مصادر رياضية ومنطقية،
- مصادر لسانيّة.

تأخذ المصادر الرياضية المنطقية ينابيعها الأولى من التأمُّل في الأسس الرياضية (أسس الرياضيات الحديثة) والمنطق وتحليل مختلف الصياغات الصورية. وقد كان النقاش الدائر حول هذه الأسس ملائماً بالنسبة إلى تحليل اللغة نظراً لأن الأنساق الرياضية والمنطقية تَستعمِلُ بشكل مماثل نسبياً صيغاً تشبه مفاهيم مثل: الجُمَل والقضايا. وتدريجاً ترسّخت عند هاريس، المقاربة البنائية (الاسموية *nominaliste* القائمة على إبعاد أي إحالة على المعنى أو اعتماده في التحليل اللساني). ومن هذه المصادر أيضاً الأعمال الرياضية والمنطقية التالية:

- الأبحاث المنطقية والرياضية حول الاطّرادية التي صاغها كلّ من غودل *Gödel* وألفرد تارسكي *A.Tarski* وآخرين.

---

(4) Anne Deladier. «Présentation du numéro 99», *Langages*, volume 25, 1990, Paris, A. Colin.

(5) Z. Harris. «La genèse de l'analyse des transformations et de la métalangue», *Langages*, nº99, volume25, 1990, Paris, A. Colin.

(6) Z. Harris, Ibid, p.9.

- أعمال لوكازيفيتش (1878-1956) *Jan Lukasiewicz* ولاسيما مقاله حول *Sentential calculus* "حساب الجُمَل"
- أعمال ليسنيفسكي (1886-1939) *S.Lesniewski* في إطار النحو العلاقي.
- أعمال الفيلسوف والمنطقي وليام فان كواين (1908-2000) *Willian Van O Quine*

ووجدت هذه المصادر الرياضية والمنطقية سندها في فلسفة نيلسن غودمان *Nelson Goodman* (1906-1998)

- أما المصادر اللسانيّة فتتضمّن أعمال سوسير في المجال الصوتي وخاصية أهمّية البدائل أو المتغيرات الحُرّة والتكاملية كأساس لتحديد المزيد من المَقُولات غير المقيدة. وفي مجال الصّرف والتركيب تابع هاريس أعمال أستاذيه سابير وبلومفيلد متابعةً تامة سعى من خلالها إلى تدقيق الطرائق التوزيعية التي وضعها رائدا اللسانيّات الوصفيّة في بداية القرن العشرين وهي الطرائق التي تقوم على تحليل ورودات *occurrences* العناصر النحوية وتوليفاتها في جوارات *environnements* خاصة بعناصر أخرى. ويقوم هذا البرنامج العلميّ المنهجيّ على إيجاد أقصى ما يمكن من اطراد ورودات بعض أجزاء الملفوظ.

والواقع أنّ الملامحَ الرياضية بارزة في كلّ أعمال هاريس حتى ليمكن أن نعتبره واحداً من أبرز اللسانيين البنيويين الذين زاوجوا بين الآلة الرياضية والتحليل اللساني القائم على الإجراءات المُتَّبعة في اللسانيّات الوصفيّة. ومع ذلك فإنّ هاريس يعتبر أن ثمة فرقاً بين اللسانيّات الرياضية *linguistique mathématique* واللسانيّات البنيويّة. فاللسانيّات الرياضية تحدّد سمات اللغة الطبيعية بوصفها نسقاً لمجموعة من العناصر الاعتباطية، وتكون هذه المجموعات مغلقةً بالنسبة إلى بعض العمليات. كما تتضمّن تطبيقات لهذه المجموعات سواء في ذاتها أم على مجموعات أخرى ترتبط بها. ويُقَدِّم تأويل هذه العمليات التطبيقية معنى عبارات اللسان[7]. أمّا اللسانيّات البنيويّة فتبين" كيف يمكن أن نحدّد سمات

(7) Z. Harris. *Structures mathématiques du langage*, Dunod, Paris, 1971/1968, p.1.

هذه العبارات بوصفها نَسَقاً من التراكيب القائمة على عناصر محدودة"[8]. لا يتعلّق الأمر بالنسبة إلى هاريس بالبحث عن نَسَق رياضي محدّد له علاقة ما باللغة، وإنما بصياغة نَسَق رياضي يحدّد السمات والعلاقات الضرورية والكافية للكشف عن الطبيعة الصورية للألسن الطبيعية.

4.3. هاريس التوزيعي

يُعَدّ هاريس من أبرز اللسانيين الأميركيين الذين حاولوا ضبط الإجراءات المتَّبعة في التحليل اللساني الوصفي في إطار ما سُمّي بلسانيّات الإجراءات *Linguistique des procédures*، ويتعلّق الأمر بالوقوف على الفرضيات العامة المتعلّقة اللِّسانيّات الوصفيّة نظرياً ومنهجياً. وتتمثل مهمّةُ اللسانيّات في نظر هاريس في الصياغة التقنية أو الإجراءات الممكن تطبيقها على متن من المتون اللغوية لاستخلاص قواعد النحو باستقلال تام عن أحكام التماثل أو الاختلاف التي تصدر عن الرواة/ مساعدي البحث"[9].

وقد دخلت اللسانيّات الأميركيّة مع هاريس مرحلةً جديدةً تميزت بإعطاء المنهجية التوزيعية بعداً صورياً دقيقاً، ليصل التحليل البنيويّ التوزيعيّ في بداية الخمسينيات إلى قمته وأوجه مستنفداً كل طاقاته النظرية وإمكاناته الإجرائية. لقد سار زليغ هاريس على منوال بلومفيلد ليصل بصورانية هذا الأخير إلى أبعد ما يكون، وبتصوراته إلى نهايتها كما يتجلى في كتابه **مناهج في اللسانيّات البنيويّة** *Methods in structural linguistics*. وقد اعتمد هاريس في هذا المؤلّف الذي يُعَدُّ خلاصةً شاملة للسانيّات الوصفيّة والتوزيعية أسلوباً صارماً في التعامل مع قضايا اللغة وتحليلها على نحو يكاد يضاهي صرامةَ العلوم الرياضية. وحدَّد هاريس منهجية البحث المُتَّبعة في اللسانيّات الوصفيّة والخطوات العملية التي ينبغي للساني الواصف اتباعها في أبحاثه الاستقصائية. ورَتَّب منهج البحث اللساني الوصفي بحسب تسلسل إجراءات التحليل المفروضة على اللساني في تعامله مع المعطيات

---

(8) *Ibid*, p.2.

(9) Z. Harris: *Structural linguistics*, Chicago, Phoenix Books, The University of Chicago Press, 6th Impression 1963, p.5.

اللغوية المزمع دراستها[10]. ويختصر هاريس مهمّة اللسانيّات في معرفة ترتيب العناصر اللغوية وتوزيعها فيما بينها داخل مجرى الكلام وعلاقة بعضها ببعض[11]. "لقد قدم هاريس قوانين شديدة التفصيل والدقة والوضوح في الانتقال من تجميع التسجيلات النطقية في أسطوانات صوتية خطوة خطوة إلى التحليل الصوتي ثم التحليل الصَّرفي وأخيراً إلى تسجيل النماذج التركيبية"[12]. ولتحقيق هذا الهدف، تبقى الوسيلة الوحيدة في نظره هي التَّعَرُّف إلى الوحدات من خلال توزيعها فقط. ويقومُ توزيع الوحدات على تحديد كل الجوارات الممكنة بالنسبة إلى الوحدة الواحدة، أي مجموع المواقع التي يرد فيها عنصر معين بالنظر إلى ورود عناصر أخرى[13] مع استبعاد أي إحالة على الجوانب المرتبطة بالمعنى، أو ما هو وظيفي في التمييز بين الوحدات وترتيبها.

ويتمثل هدفُ المنهجية التوزيعية في المستوى الصِّواتي والصِّرافي في مهمتين أساسيتين تشكلان الغاية القصوى للسانيّات البنيويّة وهما:

- التقطيع *Segmentation*
- التصنيف *Classification*.

لتحقيق هذه الأهداف من منظور التحليل البنيوي التوزيعي، يتعين اتباع الخطوات التالية[14]:

أ - استخراج أصغر الوحدات اللغوية في مستوى معين كالمستوى الصِّواتي أو المستوى الصِّرافي، وذلك بإجراء تقطيع الصُّرفات إلى صوتات بناء على توزيعها.

ب- وضع فئات *Classes* خاصة بالوحدات التي تملك السِّمات الصُّورية نفسها. ويتمّ ذلك بتحديد الجوارات الممكنة بالنسبة إلى وحدات

(10) Z. Harris: *Structural linguistics*, p.1.

(11) *Ibid*, p.5.

(12) جيفري سامبسون: المدارس اللغوية، التطور والصراع، ص79.

(13) Z. Harris. *Structural linguistics*, p.16.

(14) *Ibid*, p.20-21.

المستوى الصِّواتي أو المستوى الصِّرافي. والقاعدة المُتَّبعة في هذا الإجراء هي أن العنصرين (أو أكثر) اللّذيْن تكون لهما الجوارات نفسها ينتميان إلى الفئة نفسها، ولا دخل في هذا التصنيف للمعنى.

ج - تحديد العلاقات الممكنة بين الفئات التي تمّ تحديدها في (ب) ويكون هذا التحديد بالاستناد أيضاً إلى معيار صوريّ هو التوزيع[15].

وتتحققُ الخطوات السابقة باتباع اختبار الاستبدال المعروف لدى اللسانيين البنيويين بمختلف اتجاهاتهم. ومع توزيعية هاريس تراجع كلّ حديث عن المعنى ودوره في التحليل اللساني على الأقل من الناحية المبدئية. ولا يحتاج اللساني الواصف إلى نظرية في الدلالة مستقلة عن النظرية اللسانيّة التي يتمّ بها وصف لسان ما. فالألفاظ الأولية *primitifs termes* التي يتمّ اعتمادها في التحليل اللساني (جمل أولية ومعاملات *opérateurs*) لها معنى محدّد أي إنها تقبل تأويلاً دلالياً معيناً. إنّ الجُمْلة باعتبارها متتالية من العناصر والمُعاملات تتشكل من توالي مُكَوِّناتها وهو ما يعني الاستغناء المطلق عن أي نظرية دلالية. وانطلاقاً من هذا المُعْطى، لا تستدعي البنيات التركيبية الخصائص الفيزيائية للأصوات أو المفردات أو دلالتها، ذلك أن الدلالة التي تحملها البنيات أو تعبّر عنها ليست سوى نتيجة العلاقات بين العناصر المكوِّنة لهذه البنيات.

وهكذا ارتبط معنى العناصر اللغوية بتوزيعها (الداخلي) في علاقات الجوار (السياق/الموقع) بعناصر أخرى. وينحصرُ دور المعنى في تحديد مظاهر التكافؤ والاختلاف بين العناصر اللغوية فحسب، دون اهتمام بالمعنى الخارجي. إن ملفوظين أو سمات ما تكون متكافئةً توزيعياً إذا كانت متماثلة من حيث عناصرها اللغوية. فالتشابه بين الوحدات لا يعني التماثل المادي أو المعنوي، وإنما قابلية التعويض. فإذا عرفنا أنّ العُنْصر "تاب" ليس تكراراً للعنصر "ناب" استنتجنا أنهما يختلفان في المعنى. وليس المعنى في مثل هذه الحالات هدفاً في ذاته، ولكنه وسيلة اختبار للتأكد من صحّة إجراء التوزيع. فالوحدات المختلفة دلالياً

(15) *Ibid*, p.16-18.

هي التي تختلفُ أيضاً في جواراتها، وحين تختلفُ وحدتان دلالياً، فإنهما تظهران في جوارين مختلفين. ويَعْتَبر هاريس أن الألسن الطبيعية قابلة للوصف وصفاً علمياً تاماً وفق الإجراءات التوزيعية، دون اللجوء إلى عوامل خارجة عن الألسن ذاتها، مثل المعنى أو أي معطى خارجي آخر. إنّ مفهوم التوزيع يمكن أن يطبق باستقلال تامّ عن بنية اللسان الموصوف. وتوزيع وحدة "أ" هو مجموع جواراتها. والجوار هو القائمة التامة والكاملة لكلّ الوحدات التي يمكنها أن تتوارد مع الوحدة "أ"(16).

5.3. من الجُمْلة إلى الخطاب

لا تخرج المنهجية التي قدّمها هاريس في دراسته "**تحليل الخطاب**" سنة 1952 عن أساسيات اللسانيّات البنيويّة التي سادت أميركا بين الأربعينيات والخمسينيات من القرن العشرين. والخطاب *discours* عند هاريس مفهوم عادي. إنه ليس أكثر من ملفوظ طويل أو متتابع *Enoncé suivi*، وهو يعني عنده كل تعبير لساني يتجاوز حدود الجُمْلة. فالخطاب "كل متتالية من اللسان يمكن تقطيعها إلى أجزاء صوتية تتميز بنيتها باعتبارها قطعة من جملة ترتبط بغيرها"(17). وهكذا تشكِّل التعليقات الصحفية المسموعة والمرئية والمقالات الأدبية والعلمية والحوار بأنواعه خطابات. وكلّ خطاب هو فئة من الأجزاء التي تتميز بتكرارها، وهي ليست دائماً جملةً ولكنها قد تكون أيضاً مُكَوِّنات جمل أو تتجاوزها(18).

ينطلقُ هاريس في مقاربته للخطاب من مشكلين أساسيين":

- محاولة توسيع تقنيات التحليل المعروفة في اللسانيّات الوصفيّة إلى ما وراء حدود الجُمْلة.
- الكشف عن مظاهر العلاقة بين الثقافة واللسان، أي بين السّلوك اللغويّ والسلوك غير اللغويّ.

---

(16) *Ibid*, p.7.

(17) Z. Harris. *Structure mathématique du langage*, p.164.

(18) *Ibid*, p.165.

أمّا المُشْكِلُ الأول فيستدعيه كون اللسانيّات البنيويّة في صورتها التوزيعية تقف عادة عند حدود الجُمْلة. ولذا كانت التقنيات والإجراءات الوصفيّة في أميركا قد أُعِدَّت لتسمح بدراسة الملفوظ الواحد فقط (الجملة) كيفما كان طوله. وحدث أنّ النتائج المحصل عليها في جميع الألسن تقريباً تتعلّق بنوع من الملفوظ القصير نسبياً يطلق عليه الجملة.

أمّا العلاقة بين الثقافة واللسان، فقد أهملتها اللسانيّات الوصفيّة لعدم اكتراثها لمعنى الصُّرفات، على الرغم من أنه تمَّ تفادي الصِّعاب المرتبطة بهذا المُشْكِل بالابتعاد عن المقام الاجتماعي والبَيْن- ذاتي الذي يُنْتَجُ فيه الملفوظ، وليس بالحديث عن المعنى نفسه. ولا تملك اللسانيّات الوصفيّة من النظريات والأدوات الإجرائية والآليات المنهجية ما يؤهلها لاعتبار المقام الاجتماعي. إنها تهتمّ فقط بتحديد تكرار *Récurrence* عنصر لغويّ معين بالقياس إلى تكرار عناصر أخرى. ولم تستَفِد الدراسات التي قيم بها حول العلاقة بين الثقافة واللسان، بحسب هاريس، من الدراسات التوزيعية الأخيرة. وينحصرُ اهتمام التحليل اللساني التوزيعي للمعنى في وضع ثبت عام يتضمّن المعاني المُعَبَّر عنها في دراسة المخزون المعجميّ للسان ما، أو في استنتَاج خلاصات تتعلّق بالمعاني التي يعبر عنها بواسطة الصُّرْفة نفسها في اللسان، أو مناقشة تنوع المعنى *Variation du sens*، أو استعمال وحدة ما بتقريبها من ألفاظ أخرى كما في الأسلوبية. وتَمَّ تبيان بعض النِّقاط الهامة مثل ضرورة اعتبار المعنى الإجمالي للمُرَكَّبات وليس مجموع معاني الصُّرفات المُكَوِّنة لهذه المُرَكّبات. تدل عبارة: How are you? على مظهر من مظاهر اللياقة الأدبية بين أفراد المجتمع، أكثر ممّا هي سؤال فعلي عن حقيقة صحة السامع وحالته. ويوضح هذا المثال الارتباط القائم بين الخطاب والمقام الاجتماعي. فكل خطاب ينتج في مقام محدّد سواء أتعلق الأمر بالفرد المتكلم أم بحوار مطول أم بالشخص الذي يجلس في مكتبه للكتابة. وبالمثل، تمّت دراسة ملامح الشخصية في الملفوظ بتقريب السمات اللغوية المتكررة عند فرد معين من السمات المتكررة في سلوكه وحساسياته.

إنّ التحليل التوزيعي للخطاب، في نظر هاريس، ملائم للوقوف على بعض الجوانب المتعلقة بالمشكلين اللذين سبقت الإشارة إليهما. فمن جهة، يسمح هذا

التحليل بتجاوز نطاق الجُمْلة كوحدة أساس للتحليل مثلما هو مُتَداول في اللسانيّات التوزيعية. ومن الواضح أنه من غير الممكن أن نُحَدّد في مستوى التركيب توزيع الجُمَل، أو أن نُحدّد بصفة عامة أي علاقة بين جمل مجموعة اعتباطية من الجمل المأخوذة من لسان معين، بينما يمكن الحصول في تحليل الخطاب على نتائج دقيقة بشأن بعض العلاقات التي تتجاوز حدودَ الجملة إذا ما أخذنا في الاعتبار جمل خطاب متتابع *Discours suivi* واحد، أي الجمل التي تُنْطَقُ أو تُكْتَبُ الواحدة تلوى الأخرى من قبل شخص أو عدة أشخاص في مقامٍ واحد.

تتميز المنهجيةُ التي اقترحها هاريس لتحليل الخطاب بما يلي:

- إنها منهجية شكلية تهتمّ بالوسائل وليس بالنتائج. وتكتسي المنهجية المقترحة صبغة صورية لكونها " تقوم على توارد الصُّرفات باعتبارها عناصر قابلة للعزل"(19).

- إنها منهجية لا تُقدِّم لنا أي جديد عن المعنى الخاص بالوحدات الصرفية المُكَوِّنَةِ للخطاب. فهي لا تهتمُّ بالمعنى أو الدلالة، وإنَّما بالتنظيم الداخلي للخطاب (النص). ومع كلّ الأهمّية المعترف بها للمعنى في النشاط اللغويّ، ودوره في الكشف عن علاقة اللسان بالثقافة، فإن المنهجيّة المقترحة في تحليل الخطاب لا تخضعُ للمعرفة التي يمكن أن يَمْلِكها المحلّلُ اللساني عن المعنى النوعي للعناصر الصرفية. واعتراف هاريس بأهمّية تحليل الخطاب وقدرته على تقديم معلومات هامة خارجة عن طبيعة النصّ اللغوية، لم يمنع منهجيته البنيويّة التوزيعية من أن تظلّ أسيرة رؤية وضعية تتعامل بحذر شديد مع المعنى وما يرتبط به. غير أنّ اتصاف المنهجية التوزيعية في تحليل الخطاب بالسمات السابقة، لا يعني في نظر هاريس، أنها لا تستطيعُ الكشف عن شيء آخر غير الكيفية التي ينتظم بها نحو لسان معين عبر الخطاب، أو أنها تحليل يمكن حصره في هذه المهمة. ويعتمدُ تحليل الخطاب عند هاريس طرائق صورية صُرفة هي نفسها الطرائق المستعملة في اللسانيّات البنيويّة التوزيعية. وبالإمكان في اعتقاد هاريس،

---

(19) Z. Harris. «Analyse du discours», in *Langages* nº13, Paris, Didier - Larousse, 1969, p8.

وعلى هذه الدراسة نعتمد في تقديم مضامين الفقرات التالية.

أن نحصل على معلومات أخرى من النصّ المدروس، وهي المعلومات التي لا يتأتى الحصول عليها في التحليل اللساني العادي. ما يرومه تحليل الخطاب الهاريسي هو تحديد معالم الارتباط النوعي بين الصُّرفات كما هي في نص معيَّن (خطاب). ويَحْصُلُ أننا قد لا نعرف على وجه التحديد ما يقوله النص، ولكن نستطيع أن نحدّد كيف يقول النصّ ما يقوله. إنّ تحليل الخطاب هو الكشف عن خُطاطات تكرار *schémas de récurrcifité* الصُّرفات الأساسية التي تُكَوِّنُ النصّ، وبالتالي يصبح من الممكن أن نحدّد الخُطاطات العامة بالنسبة إلى نُصوص معينة، أو لأشخاص مُحَدّدين أو موضوعات معينة. ويمكن في بعض الحالات أن نستنبطَ خلاصات صورية للخطاطة النوعية لتوزيع الصرفات في نص معين. ومن الممكن غالباً، أن نوضح اختلاف البنيات المكرَّرة بين خطابات أفراد مختلفين أو بين أساليب وموضوعات متنوعة. ومهما يكن، ينبغي أن يظلّ مصدر المعلومات حول النص، محصوراً في النصّ نفسه.

يسمحُ تحليل التكرار بالوقوف على التكرار المُطَّرد لعناصر الخطاب. وعندما نضع ارتباطاً بين العنصرين "أ" و"ب"، يكون الحاصل تقريباً دائماً هو انتماؤهما إلى الجُمْلة ذاتها. ولا يعني هذا أنّ الخُطْوة المتعلّقة بتحديد العناصر المتكافئة آلية. فلا يتعلّق الأمر بالعثور على الوحدات التي تظهر في جوارات (سياقات/مواقع) متشابهة *identiques*، بل في تكافؤ الوحدات اللغوية من خلال الارتباطات التي تكون فيها هذه الوحدات متطابقة أو ذات سياقات لغوية مماثلة. وللوصول إلى هذا الهدف، يبدأ التحليل التوزيعي للخطاب بالعملية الأولى التي تتمثَّل في وضع مبدإ فئات التكافؤ *Principe de classes d'équivalence* الذي يقتضي شيئين أساسيين:

أولاً: بحث شروط توارد *co-occurrence* العناصر المتتابعة داخل الجملة في النص.

ثانياً: تحديد العناصر القابلة للدخول بكيفية تكرارية في الفئة المتكافئة نفسها.

ويتمّ هذا التحديد في حالتين:

أ - إذا وُجِدَت هذه العناصر في جوار متماثل *Environnement identique*.

ب- إذا وَرَدَت في جوارات متكافئة *Environnements équivalentes* تكون هي بدورها جزءاً من الفئة المتكافئة.

ويكون جواران متكافئين إذا اختلفا فقط في تعويض الصُرفات الموجودة في هذين الجوارين المختلفين، وليس في جوارين متماثلين *identique*. ويُمَثَّل للعلاقات السياقية داخل الخِطاب بواسطة سلسلة أسماء الفئات السياقية التي تقابلُ الجملَ المتتابعة فيه. ويتمّ تشكيل سلاسل الرموز بتعويض كلّ عنصر معجمي من كل جملة برمز الفئة السياقية التي ينتمي إليها العنصر المعجمي المذكور. ويميز هاريس بين ثلاثة أنواع من التكافؤ:

- تكافؤ العناصر الصَّرْفية أو متتاليات من العناصر الصَّرْفية في الجوار نفسه (الموقع) داخل الجُمْلة.
- تكافؤ الجُمَل في نصّ معين ويتعلّق الأمر بجُمَل النص التي لها مواقع بنيويّة متماثلة.
- تكافؤ جمل لسان معين، وتحديداً تلك التي تتضمّن الوحدات الصَّرْفية ذاتها، وتعبر عن العلاقات النحوية ذاتها بصيغ لغوية مختلفة.

لتوضيح ما سبق نفترض الأمثلة التالية المعرَّبة عن نظائرها الإنكليزية الواردة عند هاريس:

1 ـ هنا تسقطُ الأوراقُ حوالى منتصفِ فصلِ الخريف.

2 ـ هنا تسقطُ الأوراقُ حوالى نهايةِ شهرِ أكتوبر.

3 ـ تصلُ موجات البردِ الأولى بعد منتصفِ فصلِ الخريف.

4 ـ بدأنا التدفئةَ (تدفئة الغرف) بعد نهايةِ شهرِ أكتوبر.

فالمقطعان (المُكَوِّنان) "**منتصف فصل الخريف**" و"**نهاية شهر أكتوبر**" متكافئان *équivalents* لأنهما يظهران في الجوار نفسه "**هنا تسقط الأوراق حوالى**". **ويلاحظ التكافؤ ذاته في الجملتين 3 و4 بحيث يمكن القول بأن المقطعين "تصل موجات البرد الأولى" و"بدأنا التدفئة"** يظهران أيضاً في

جوارين متكافئين. والكلمة "بعد" مماثلة في الجوارين. ويعدُّ مبدأ التكافؤ أساسياً في التحليل التوزيعي. إنّ العنصرين MوN متكافئان في المُتتالية أو السلسلة AM وAN، أو لنقل بأن M وN يظهران في الجوار A ذاته (لهما الموقع ذاته). ويقال كذلك، إن M و N يظهران كجوار للوحدة نفسها A، وإذا وجدنا BM وCN أو MB وNC في النص ذاته، نقول إن B متكافئة مع C في درجة ثانية من التكافؤ، لأن B وC توجدان في جوار M و N اللذين سبق تحديد تكافئهما، وعليه فإن B تساوي C. (B=C).

وإذا عثرنا على BK وCL نقول إن K = L عندما يكونان في جوار B وC (درجة ثانية) وهكذا دواليك... والقول بأن العنصر B يساوي العنصر C أي B=C، لا يعني أنهما متساويان *Egaux* دلالياً بصفة تامة، أو أنهما يعنيان الشيء نفسه.

ويتمّ تحليل الخطاب عبر مراحل تهدفُ في مجملها إلى تقطيع جمل النص إلى الأجزاء المتكافئة، التي يمكنها أن تحتلّ العمود نفسه في الجدول الموضوع لهذا الغرض (انظر الجمل من 1 إلى 4 أعلاه) أي بينهما علاقة تقويض (substitution).

وتعتبر علاقة التكافؤ بين جمل الخطاب بحسب هاريس علاقة تحويلية بالدرجة الأولى تؤدّي إلى نوع محدّد من العلاقات الدلالية القائمة بين الجمل أو ما يطلق عليه الترادف الجملي *Paraphrase*. وتحافظ العلاقة القائمة بين مجموع الجمل على معاني هذه الجمل. ويتمّ التمييز ضمن علاقات الترادف بين ما يقود إلى علاقة تحويلية تغير معنى الجمل أو التي تساهم في هذا التغيير وبين تحويلات لا تؤدّي إلى ذلك. ويسعى هاريس إلى التحقّق من فكرة أساسية تتمثل في إمكانية اختصار بنيات الجمل في فئات قليلة العدد ذات طبيعة تكرارية تكون قابلة للتعويض *Substituable* فيما بينها، مثل الصفات وأسماء المصادر والجمل التابعة الموصولة، دون تغيير ملحوظ في المعنى[20].

---

(20) G. Mounin. *La linguistique au XX^ème^ siècle*, p.173.

ولا يقلّل البحث في التكرار *réccursivité* من شأن تحليل الخطاب المتتابع، لأن كلّ تكرار في اللسان يملك اتساقاً *Cohérence* داخلياً. إنّ اللسان لا يظهر في صورة كلمات أو جُمَل مستقلة، وإنما في خطاب متتابع، سواء أتعلّق الأمر بكلمة واحدة أم بملفوظ مختصر، أم بحوار داخلي، أم بمناقشة سياسية، أم بمؤلف من عشرة أجزاء.

وعلى الرغم من أنّ تحليل الخطاب يحتاج إلى التحليل النحوي ويستعين به، فإن هذا التداخل لا يَفْقِد تحليل الخطاب استقلاليته في الوسائل والأهداف. واللجوء إلى المعلومة النحوية أو الوصف النحوي في تحليل الخطاب لا يعني أنّ هذا الوصف يعوض تحليلَ الخطاب.

وكان هدفُ هاريس من تحليل الخطاب تبيان السمات الصورية لاتساق الخطاب ولو في مفهومه الحدسي عند المتكلّمين بلسان ما. إنّ تحليل الخطاب يعني دراسة مختلف العلائق القائمة بين الجُمَل المتتابعة المُشَكِّلة للنص. وقد اعتمد هاريس الوسائل والإجراءات نفسها التي اتَّبعها اللسانيون التوزيعيون في تحليل الجُمْلة باعتبار الخطاب/النص متتالية من الجُمَل. ويكشفُ التحليل التوزيعي للخطاب عن فئات صُرفات الخطاب الأساسية التي تكون قليلة العدد بعكس ما يحصل عادة في تحليل الجُمْلة. وتعكسُ هذه الصُّرفات الملامحَ اللغوية الخاصة بكل خطاب.

وتمَّ في الحالتين معاً، تحليل الجُمْلة وتحليل الخطاب، توسيع مفهوم التوزيع المستعمل في تحليل الجُمْلة، ليشمل الجوارات المتكافئة في الخطاب. وأصبح بالإمكان الحديث في تحليل الخطاب عن مفهوم الفئة السياقية *classes contextuelles* على غرار مفهوم الفئة التوزيعية في تحليل الجملة. وتضمُّ الفئة السياقية الصفات الصّرفية بالقياس إلى الجوارات الضيقة التي تظهر في خطاب معين. وتتميز الفئات السياقية المحصل عليها، بالنسبة إلى كلّ خطاب على حدة، بتجانس دلالي ملحوظ، نظراً لأنها تكشف عن البنية التنظيمية المعجمية للخطاب.

6.3. مفهوم التحويل

تميَّزت أعمال هاريس منذ بداية الخمسينيات من القرن الماضي بإدخال مفهوم التحويل إلى صلب التحليل اللساني البنيويّ مستهدفاً تجاوز مستوى الجُمْلة الذي وقف عنده التحليل التوزيعي. ومن هنا يُعْتَبر اللجوء إلى التحويلات استمراراً للتحليل التوزيعي بإجراءاته المتنوّعة في المستوى التركيبي والصّرفي. ويقوم التحليل التحويلي عند هاريس على أسس تركيبية ذات طابع صوري. فالعلاقة التحويلية تطابقُ نوعاً محدّداً من العلاقات الدلالية بين الجُمَل أو ما يطلق عليه الترادف الجُمْلي *paraphrasage*. وقد سبقت الإشارة إلى أنه يتمّ التمييز ضمن علاقات ترادف الجمل *Paraphrase* بين علاقة(ات) تحويلية تغير معنى الجُمَل أو التي تساهمُ في تغييره وتحويلات لا تقوم بذلك.

يستعمل هاريس التحويلات كتقنية مساعدة في إطار التحليل التوزيعي. وكان ينظر إليها على أنها وسيلة لتعويض *substitution* جملة نص محدّد بجملة أخرى تتضمّن فئات التكافؤ نفسها. فالتحويلات بهذا المعنى علاقة تكافؤ بين الجُمَل انطلاقاً من تحليل الجوانب المختلفة لتواردها. والتحويلات تعميم لمبدإ التكافؤ الذي تمّ تطبيقه بنجاح على العناصر المُكَوِّنة للجُمْلة في مستوى الصُّرفات. ويعني التكافؤ بين الجمل أنها تتوفر على خصائص بنيويّة متشابهة داخل النص، أي إن الصُّرفات المُكَوِّنة للجملة لها العلاقات التركيبية نفسها رغم أن لها صيغاً مختلفة. ويميز بين نوعين من التحويلات:

- تحويلات نصّية وهي التي تقومُ على التكافؤ بين جمل نصّ معين.

- تحويلات نحوية وهي التي تقومُ على التكافؤ بين جمل اللسان ويلجأ فيها إلى التحويلات النصية.

ويستعمل الترادف الجُمْلي كرائز لتحديد العلاقة بين مجموعة من الجُمَل. وتمكن العلاقة الترادفية التحويلية من الكشف عن ورود الجُمَل المركَّبة انطلاقاً

من جمل نواة[21]. إنّ اللُّجُوء إلى القواعد التحويلية له طابع إجرائيّ صرف. فالتَّحويلات وسيلة لردّ الجُمل المُرَكَّبة إلى جُمَل أوليّة *phrases élémentaires* ومطَّردة تشكِّل الجُمَل النواة في لسان معين ممّا يسمح بالوقوف على طابعها التكراري داخل النص. كما يقوم تكافؤ الجُمَل على أسس صورية، دون إحالة على الدلالة. إنه تكافؤ صوري يستند إلى تماثل الجوارات وليس تشابهاً في المعنى أو اختلافه.

وتجدر الإشارة إلى أن محاولة هاريس وتعدّ الأولى في تاريخ اللسانيّات الحديثة قد ظهرت في محيط معروف بعدائه المنهجيّ إزاء الدلالة اللغوية، ومن ثم فقد ظلَّت نقطة الضعف في تحليل الخطاب عند هاريس، عدم اكتراثه لمعنى النص/الخطاب. وبدل العمل على تطوير هذا المنحى في تحليل الخطاب، وجدناه يسعى إلى إعادة انتظام المعنى وبنائه داخل النصّ أو الخطاب. ولا تساهم علاقات التكافؤ كإجراء محوري في تقديم أي معلومات عن علاقات المعنى بين الجمل. وقد لاحظ برفيتش بهذا الصدد[22] "أن المرء يستطيع إنشاء نصّ غير سليم ولكنه يفي في الوقت نفسه بمقاييس التكافؤ التي استعملها هاريس".

ومن المعلوم أن لسانيّات هاريس التوزيعية تتميز بكونها، لاعتبارات فكرية عامة، لا تقيم وزناً لثنائية سوسير الشهيرة لسان/كلام، وبالتالي فلا وجود للتمييز الذي سطّره سوسير بين لسانيّات اللسان ولسانيّات الكلام. إنّ الموضوع المباشر للسانيّات التوزيعية ليس هو اللسان، وإنما الملفوظات *Utterances*. وبذلك تصبح الثنائية الأساس عند هاريس هي ملفوظ/خطاب.

(21) للوقوف على مفهوم التحويلات عند تشومسكي ينظر في كتابنا: **اللسانيّات التوليدية من النظرية ما قبل المعيار إلى البرنامج الأدنوي**. ويميز ميلنر بين مدرستين في التحويلات: مدرسة كمبريدج ويمثلها تشومسكي وتلامذته. ومدرسة بنسيلفانيا ويمثلها هاريس وأتباعه لاسيما هيز Hiz. للوقوف على الاختلافات النظرية والمنهجيّة بين هاريس وتشومسكي يمكن الرجوع إلى:

J. C. Milner. *Arguments linguistiques*, Tours, Mame, 1974.

(22) إلهام أبو غزالة وعلي خليل حمد، **مدخل إلى علم لغة النص**، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1999، ص46.

7.3. نموذجان للتحليل التركيبي

إن مختلف الأوصاف التي قَيِّم بها في إطار اللسانيّات الوصفيّة والبنيويّة الأميركيّة يمكن أن ترد إلى نموذجين بارزين لوصف بنيات الألسن، ولاسيما ما يتعلّق منها بدراسة جانب التركيب *syntaxe* ويتعلق الأمر ب(23):

* نموذج العنصر والترتيب " *Item and arrangement* " أو النموذج التوليفي *Combinatoire*
* نموذج "العنصر والصيرورة" *Item and proces*

وكلا النموذجين يعتمد الورود *Occurrence* النسبي للوحدات.

يقوم النموذجُ الأول على" دراسة البنية اللغوية بتحليلها إلى وحداتها المختلفة (صوتات/ صُرْفات إلخ بحسب توزيع الصوتات أو الصُّرْفات أي بحسب مستوى التحليل. ويتمّ تحديد كل وحدة بضمّها إلى وحدات أخرى في سياق التوليف الذي يجمع بينها، حيث يمثّل لكل وحدة لغوية بعناصر لغوية أخرى توضع حسب انتظام *arrangement* خاص يمكن التعبير عن اطّراداتها في لوائح محدّدة. إذا ما اعتبرنا أن الوحدة "**خرجنا**" تتكون من صُرْفَتَين مُرَتَّبَتَيْنِ: "**خرج** " و"**نا**"؛ وإذا نظرنا إلى الوحدة "أكلنا" نجد الصُّرْفة "**أكل**" مضافة إلى الصُّرْفة "**نا**"من جديد وهكذا. ومعنى هذا أن الصيغة أ تحتوي على الصيغتين ب + ن، وتحتوي الصيغة ك على الصيغتين م + ن وبهذه الكيفية تُحدِّد اللائحةُ ترتيب هذه الوحدات على نحو قواعد جبرية.

أما نموذجُ العنصر والصيرورة فيقوم على إمكانية تفريع مختلف الوحدات الموجودة في لسان معيّن من عدد محدّد من الثوابت الأولية، عن طريق صيرورة محدّدة تضبط اطراداتِها قواعدُ محدّدة. فالوحدة الصرفية"**خرجنا**"تعتبر تفريعاً أو اشتقاقاً *dérivation* من الصُّرْفَة النواة "**خرج**" بواسطة قاعدة عامة تتعلّق بتكوين صيغة المتكلم الجمع في الماضي. وتسمح هذه القاعدة بالانتقال من الوحدة

(23) Z. Harris. *La structure distributionnelle*, in Langages n°20/décembrë 1970, Paris, Didier-Larousse, p.17-18.

"خرجنا" إلى الوحدة "خرجتم" أو إلى "خرجوا" وهكذا دواليك. فالصيغة أ تحتوي ب + ن وك تحتوي م + ن. نقول إن الصيغة ك مفرَّعة عن أ بواسطة تعويض "ب" ب "م".

وإذا كان نموذج "العنصر والترتيب" اقتصادياً في عدد القواعد وصياغتها، ومن حيث كونه يعتمد في صياغة القواعد كماً كبيراً من المعطيات اللغوية، فإن نموذج "العنصر والصيرورة" يتسمُ بطابع التقعيد التفريعي في مجال محدود، فضلاً على أنه مُجْدٍ جداً في الحالات المعقّدة المتعلّقة بالجانب الصرفـ صواتي *morpho-phonologique* مثل أزمنة بعض الأفعال كتفريع الماضي *ran* من الفعل *run*[24].

ويشترك النموذجان معاً في كونهما يهدفان إلى وضع قائمة العناصر *Items* وورودها[25]. وغنيّ عن الإشارة أن هذا الهدف تشترك فيه مختلف الاتجاهات اللسانيّة الوصفيّة والبنيويّة في أميركا.

إلّا أنّ التحليل التوزيعي لم يكن دائماً صارماً ودقيقاً في التعامل مع اللسان كنص ينبغي فكّ رموزه للوصول إلى القواعد المتحكّمة فيه. فقد خرج اللجوء إلى الراوي اللغويّ (مساعد البحث وقد يكون هو الباحث اللساني نفسه)، بالتحليل التوزيعي عن إطاره الأولي، ذلك أن الإجراءات التي تمَّ تسطيرها كان يتمّ التحايل عليها. كان على الراوي مساعد البحث أن يجيب عن سؤالين أساسيين بنعم أو بلا وهما:

- هل الصيغة المقدّمة صحيحة أم لا ؟
- هل الصيغتان المقدّمتان صحيحتان أم لا[26]؟

(24) Z. Harris. *La structure distributionnelle*, p.18, voir aussi: H. A. Gleason . *Introduction à la linguistique*, p.172-173.

(25) Z. Harris. *La structure distributionnelle*, p.18.

(26) Ju.D Apresjan. *Eléments sur les idées et les méthodes de la linguistique structurale contemporaine*, Paris, Dunod, 1973/1963, p.47.

وطبيعيّ أن الإجابة كانت تدعم في كثير من الحالات التحليلَ التوزيعي الذي يصبح في النهاية مجرد تأكيد لحدس الراوي، فهو الكفيل بتأكيد صحة أو عدم صحة المادة الأساس من خلال إجابته عن السؤال الأولي. وتتمثل المرحلة التالية في تطبيق الإجراءات المطلوبة للتأكد من أنّ الصيغة الصحيحة هي الصيغة التي تتوفر على احتمالات قوية للظهور في مواقع محدّدة.

إنّ دراسة البنية الداخلية للسان استناداً إلى مختلف العلاقات القائمة بين مُكَوِّنات الجملة فقط، دون الرجوع إلى معطيات خارجية، يجعل من البحث اللسانيّ البنيويّ في أميركا بحثاً قائماً على مبدإ المحايثة *Principe d'Immanence*، وهو في هذا يشارك اتجاهات لسانيّة أخرى كثيراً من الاعتبارات التصوّرية ولاسيما الغلوسيماتيّة عند هلمسليف التي لا تولي في تحليل اللسان أي اعتبار أو اهتمام للعناصر الخارجة عن البنية الداخلية للسان. ويذهب هاريس إلى أن بنية اللسان ليست مطابقةً تماماً لِبنية الأشياء في العالم الخارجي. إنها لا تطابق بنية التجربة الموضوعية التي تستمدّ منها الدلالات. وليست البنية اللغوية بالضرورة مشابهةً لِبنية التجربة الدلالية أو العالم الذاتي للدلالات. وبالتالي، لا داعي لاستحضار معنى الوحدات، لأنه لا توجد ثمة علاقة بين اللسان المدروس والمعنى مهما كان المعنى الذي نعطيه للفظ المعنى(27).

وأياً كانت قيمةُ اللسانيّات التوزيعية ومكانتها في تاريخ الفكر اللساني عموماً والأميركي خصوصاً، فلا أحد يجادل في الدور الكبير الذي لعبته هذه اللسانيّات بتأثير من أفكار بلومفيلد وتصوّراته وتطبيقات هاريس في إرساء دعائم بحث لسانيّ متطور يتطابق ومتطلبات العلم.

(27) Z. Harris. *La structure distributionnelle*, In *Langages*, n°20/1970, Paris, Larousse, p.20-21.

خاتمـــة

لكي لا نختم:

قدّمنا في فصول هذا الكتاب مبادئ التحليل اللساني الوصفي وأهمّ الاتجاهات اللسانية والمنهجيات التي اعتمدتها اللسانيات البنيوية في تحليل اللسان وقضايا اللغة البشرية. وكان سعينا أن نتتبع بدقّة ما عرفته اللسانيّات من تطوّرات كبرى في أسسها النظرية والمنهجية بالنظر إلى المقاربات السابقة عليها، وما حصل من انتقال معرفي من نموذج لساني إلى آخر أو من إطار نظريّ ومنهجيّ إلى آخر، وما يصاحب ذلك من استمرار أو قطائع إبستيمولوجية يتيح الوقوف على طبيعة المبادئ الكبرى في اللسانيّات والنفوذ إلى عمق اختلاف أسسها النظرية والمنهجية أو تماثلها.

قد يبدو مما تقدّم أن المنهجيات اللسانيّة البنيويّة من وظيفية وغلوسيماتية وتوزيعية منهجيات مختلفة فيما بينها، وهذا صحيح من بعض النواحي، لكن من جهة أخرى، لا يعدو أن يكون هذا الاختلاف عبارةً عن تنوّع شكلي لا أكثر أو تدقيق أو توسيع لأفكار متداولة هنا أو هناك. ولظروف فكرية وسياسية واجتماعية خاصة بأوروبا وأميركا فضلاً على الأحداث التاريخية الكبرى المتمثلة في اندلاع بعض الأزمات العالمية الكبرى (اقتصادية وسياسية (الحرب العالمية الأولى))، لم تتمكّن اللسانيّات الحديثة بمختلف مشاربها من مدّ جسور التواصل بينها، علماً بأنّ اللقاءات العلمية الأولى التي تمّت بين لسانيي القارتين خلال نهاية العقد الثاني والثالث من القرن العشرين كانت تسير في الاتجاه السليم. ومن الواضح جداً أنّ لسانيي القرن العشرين لم يتداولوا معجماً لسانيّاً موحّداً، بل كان كل فريق منهم في أوروبا وأميركا متشبثاً بمفاهيمه ومصطلحاته ومواقفه. وقد جاء هذا الوضعُ نتيجة تطور اللسانيّات الحديثة على شكل جماعات محلية أو إقليمية ودوائر فكرية مستقلة بعضها عن بعض وأحياناً كثيرة منغلقة على نفسها. إلّا أن

التحليل العميق لهذه الأسس التصوّرية التي قامت عليها هذه المنهجيات يبين أن العديد من الإجراءات التحليلية والمصطلحات اللسانيّة التي تمّت صياغتها داخل هذه الاتجاهات والمجموعات، كانت تُحيل على الممارسة نفسها وتتداول المفاهيم نفسها من خلال مصطلحات مغايرة.

وهكذا فإنّ غياب الحوار النظري وانعدام جسور التكامل بين التصوّرات المقترحة خلال النصف الأول من القرن العشرين، أظهر اللسانيّات في شكل اتجاهات ومدارس تبدو متناقضةً فيما بينها ومتضاربة حتى داخل البلد الواحد. ولم يكن أمر هذا الاختلاف بين المنهجيات اللسانيّة في غالب الأحيان يتجاوز حدودَ الاختلافات الخارجية التي لا تمسّ جوهر المبادئ الكبرى المشتركة. "إن الاختلافات النظرية والمنهجية بين الاتجاهات اللسانيّة الأوروبية والأميركيّة راجع بالأساس إلى ثقل التقاليد الفكرية المختلفة بين القارتين وإلى صَلابة المُصْطلحية"[1].

وقد كان بالإمكان أن نعرض لمنهجيات لسانيّة أخرى سادت خلال المرحلة التي تحدّثنا عنها في فصول هذا الكتاب مثل الوظيفية الجديدة أو المنظور الوظيفي للجُمْلة *Functionnal perspective of sentence* التي ظهرت منذ منتصف الستينيات من القرن العشرين، وهي اتجاه حاول أصحابه استثمار المفاهيم اللسانيّة الواردة في أعمال حلقة براغ بصفة عامة وتصورات ماتزيوس بصفة خاصة. ومن هؤلاء نذكر دانش وسبوفودا وفيرباس وسكال[2]. ويؤكّد هؤلاء اللسانيون الوظيفيون على مفهوم مركزي يتمثل فيما أسموه "حركية التواصل" *Dynamisme de la communication*. إنّ التواصل في لحظة معينة ليس شيئاً ثابتاً، كما قد يوحي بذلك نموذج جاكبسون حول وظائف اللغة أو نظام التواصل عند مهندسي الإعلام. إنّ التواصل حركية مستمرة تحمل بنية اللسان آثارها. وليست الجُمْلة كلمات فحسب، ولكنها فعلٌ لغويّ وموقف إزاء واقع معين. فهي تنقل تجارب المتكلمين وتموقعها بالقياس على التجارب الأخرى المعروفة لدى المتكلم

---

(1) G. Mounin. *La linguistique au XX siècle*, p.172.

(2) P. Sgall et autres. *Topics, Focus and Generative Semantics*;Verlag Kronberg, 1973.

السامع أو التي يـمكن إدراكها في إطار العلاقة الاجتماعية التي تربط بينهما[3].

إنّ التحليل الملائم للجُمْلة هو التحليل القادر على تبيان مقدار هذه الحركية التي تساهم بها كلّ جُمْلة في عملية التواصل اللغويّ. ومن هذا المُنطلق، يرفضُ هؤلاء الوظيفيون الجُدُد تبعاً لماتزيوس التقسيم المنطقي المعروف للجُمْلة، أي تحليلها إلى مُسند ومُسند إليه. وتبعاً لمبدإ حركية التواصل، تقسم الجُمْلة إلى مَقولتين وظيفيتين أساسيتين: المحور والتعليق *Topic/Comment*.

كما أننا لم نتحدّث عن المدرسة النَّسَقية التي ظهرت وتطورت باستقلال نسبي عن حلقة براغ والتوزيعية وإن لم تنجُ من التأثر بها ولو بكيفية غير مباشرة. وتستمدّ المدرسة النسقية أو وظيفية لندن أسسها الفكرية ومصادرها العامة من عالم الأنثروبولوجيا مالينوفسكي Malinowsky. ويعتبر اللسانيّ الإنكليزيّ جون فورث (1900-1957) J.Firth المؤسّس الحقيقيّ للمدرسة النَّسَقية *systémique*. يرى هاليداي (1925-) M. A. K Halliday. وهو يُعَدُّ حاليَّاً أبرز ممثل لهذه المدرسة، أن اللغة سيميائية اجتماعية، يجبُ دراستها وتفسير ظواهرها على هذا الأساس[4]. وتؤكّد أعمال هاليداي على الطابع الاجتماعي للغة من خلال وظائفها المتعدّدة داخل المجتمع. فغاية البحث اللسانيّ هو الوصول إلى بعض المبادئ العامة المرتبطة باستعمال اللغة[5]. ولا يمكن للبحث اللساني في نظر هاليداي أن يتجاهل مثل هذه الوظائف، لأن لها آثاراً فعلية على المستوى اللغويّ. إنّ وجود وظائف متعدّدة للغة تسمح لنا بافتراض وجود مجموعة من أنواع اللغة *Des types de langage* وللمستويات المتنوعة المرتبطة في جوهرها بتعدّد الاستعمالات اللغوية والوظائف المتوخّاة من اللغة. وتجدر الإشارة إلى أن نموذج هاليداي تركيب لمجموعة من الأفكار والتصوّرات اللغوية المتنوعة التي استطاع أن يُعيد صياغتها في شكل متماسك. فهو ينطلقُ من الأبحاث

---

(3) للاطلاع على التصوّر المعروف بالمنظور الوظيفي للجملة انظر: أحمد المتوكل: **اللسانيّات الوظيفية، مدخل نظري**، عكاظ، الرباط، 1988.

(4) M. A. K Halliday. *Language as social semiotic*, Arnold, London 1978.

(5) M. A. K. Halliday. *Les bases fonctionnelles du langage* in Langage nº34/1974, Paris, Didier-Larousse.

الأنثروبولوجية الإتنوغرافية، ومن سوسير وهلمسليف وماتزيوس وحلقة براغ ومالينوفسكي وفورث وبازل *Bazell* في إنكلترا وبوعاز وسابير وورف في أميركا، ومن أفكار اللسانيين الاجتماعيين المعاصرين أمثال، لايبوف وبرنشتاين(6).

ونحن نرى في هذين الاتجاهين استمراراً للسانيّات الوظيفية التي عرفتها أوروبا وأميركا خلال النصف الأول من القرن العشرين وهي لا تختلف كثيراً عن اللسانيّات البنيويّة في صورتها العامة إلّا من خلال تأكيدها القويّ على دور الوظيفة وقِيمتها في خلق آثار لغوية واضحة في بنيات الألسن.

لقد جاء الحديثُ عن هذه المنهجيات والاتجاهات البنيويّة. مُحَمَّلاً بالعديد من المصطلحات اللسانيّة المشتركة بين هذا الاتجاه أو ذاك. وقد يختلف المصطلح وتأويل المعطيات والطرائق المتَّبعة في التَّحليل، لكنَّ التَّطبيق العملي ومقوِّمات التفكير اللساني وأسسه المنهجية تظلّ هي نفسها بالنسبة إلى كل الاتجاهات والنزعات البنيويّة، سواء تلك التي تناولناها هنا، أم تلك التي أغفلنا الحديث عنها لسببٍ من الأسباب.

وغنّي عن الإشارة أننا لم نتناول في هذا الكتاب إلّا جوانبَ منهجية عامة من اللسانيّات البنيويّة دون الدخول في تفاصيل وجزئيات قد تشوِّش كثيراً على القارئ العربي الذي لم يستأنس بعد بالمقاربات اللسانيّة. كما أننا حرصنا على أن نتجاوز حدودَ الإطار العام للسانيّات دون تغليب هذا المستوى من التحليل على الآخر. وعسى أن نرى في الأيام أو السنوات المقبلة دراسات عربية قائمة الذات تتعلّق بكل اتجاه على حدة، تقدّم بتفصيل أكثر مع تطبيقات ضافية ودقيقة على معطيات لغوية من اللسان العربي معالمَ هذه التصوّرات اللسانيّة الحديثة التي غيرت كثيراً من الممارسات اللغوية بالنظر إلى ما كان سائداً في التحليل اللغويّ والنحويّ التقليديين.

---

(6) M. A.K. Halliday. *Language as social semiotic*, p.5, Arnold, London, 1978.

ثبت المصطلحات

A

تجريد	Abstarction
مجرد	Abstrait
نَبْر	Accent
عرض	Accident
عرضي	Accidentel
سمعي	Acoustique
مكتسب	Acquis
اكتساب	Acquisition
فعل	Acte
فعل تصرفي	Acte comportatif
	de langage
فعل اللغة (فعل لغوي) فعل الكلام	
فعل لغوي مباشر	direct
فعل عرضي	Acte expositif
فعل لغوي غير مباشر	indirect
فعل التلفظ	Acte locutionnaire
فعل التأثير	Acte perlocutionnaire
فعل وعدي	Acte promissif
نشاط لغوي	Activité linguistique
مُحَيِّن	Actualisant
تَحْيين	Actualisation
كفاية	Adéquation
بديل صوتي	Allophone
بديل صرفي	Allomorphe
مُدْمَج/ كُلْمة مُدمجة	Amalgame
تحليل	Analyse
تحليل السلاسل (هاريس)	En chaine
تحليل دليلي (تجزيئي)	Analyse componentielle
تحليل إلى المُكَوِّنات المباشرة	A. en constituents immédiats
تحليل نحوي	Analyse grammaticale
تحليل منطقي	Analyse logique
تحليلي	Analytique
قابلية التطبيق	Applicabilité
مقاربة/ مقاربات	Approche/s
قبلي	A-priori
تعلم	Apprentissage
اعتباطي	Arbitraire
اعتباطية العلامة	Arbitraire du signe
حُجّة/ موضوع	Argument
حِجاج	Argumentation
حِجاجي	Argumentatif
انتظام	Arrangement
فنّ	Art
تمفصل	Articulation
تمفصل أول	première articulation
تمفصل ثانٍ	deuxième articulation
إثبات	Assertion
إثباتي	Assertif
مماثلة	Assimilation
محور	Axe

du choix	محور الاختيار
Axiologie	قيمية (مارتينيه)
Axiome	مسلّمة

B

Binarisme	مثنوية (نظرية جاكبسون)
But	هدف

C

Caractéristique	خصائص/ طابع
Catégorie	مَقُولة
Catégorie grammaticale	مَقُولة نحوية
Cénèmes	وحدات التعبير
Cercle linguistique	حَلْقة لسانيّة (براغ/ الغلوسيماتيّة)
Chaine	سلسلة
Champ sémantique	حقل دلالي
Changement	تغيير
Chronologie	تسلسل الأحداث
Choix	اختيار
Classe	فئة
contextuelle	فئة سياقية
distributionnelle	توزيعية
grammaticale	نحوية
Classe de classes	فئة الفئات
Classification	تصنيف
Code	شفرة/ قن
Cognitif	معرفي
Cognitive (science)	علم المعرفة
Cohérence	اتساق
Collectif	جَمْعي
Combinaison	توليف
Combinatoire	توليفي (نحو توليفي)
Communauté linguistique	عشيرة لغوية
Communicatif	تواصلي
Communication	تواصل
Compatible	موافق
Compatibilité	توافق
Composition	تأليف/ تركيب
Concept/s	تصور/ مفهوم/ مفاهيم
Conception/s	تصور/ تصورات (عملية)
Conceptuel	تصوري
Concret	ملموس/ مادي
Confirmation	تثبيت (نظرية)
Confirmer	ثبَّت/ دعَّم
Conforme	مطابق
Conjonction	وصل منطقي
Connaissance	معرفة
Connotation	إيحاء
Conscience	وعي
Consonne	صامت
Constatif (verbe)	معاين فعل (/ عند أوستين)
Constance	ثبات
Constant	ثابت/ قار
Constituant	مُكَوِّن
affectif	انفعالي/ عاطفي (براغ ـ بالي)
intellectuel	مُكَوِّن فكري (براغ/ بالي)
Construction	بناء
Contact	اتصال
Contenu	مضمون
Contenu propositionnel	محتوى قضوي
Contexte	سياق
Contiguité (relation)	تقارب (علاقة)
Convention	تواضع على/ اصطلاح/ عرف
Conventionnel	/ متواضع عليه/ اصطلاحي
Co-occurrence	توارد
Corrélation	ارتباط
Critère	معيار

D

Dénnotation	تقرير
Dénomination	تسمية/ تسميات
Dépendance	ارتباط
Dépendance libre	ارتباط حر

Dépendance unilatérale	ارتباط أحادي الجانب
Descriptif	وصفي
Description	وصف
Désignation	تعيين
Destinataire	مرسل إليه
Destinateur	مرسل
Dérivation	اشتقاق/ تفريع
Déviation	انحراف
Diachronie	تعاقب
Diachronique	تعاقبي
Dialect	لهجة
Dialectologie	علم اللهجات
Dictum	مقول(شارل بالي)
Différence	اختلاف
Différenciel	اختلافي/ خلافي
Directif	توجيهي(فعل/ عند أوستين)
Discours	خطاب
deplacé	خطاب محول/
Discret	محدد (عنصر)
Discursif	خطابي
Distinctif(trait)	مميز(ة)/ (سمة)
Distribution	توزيع
complémentaire	توزيع تكاملي
contrastive	توزيع تقابلي
libre	توزيع حر
Distributionnalisme	توزيعية (المنهجية)
Distributionnel	توزيعي
Division	تقسيم
Donne	معطى
Données	معطيات
Double articulation	تمفصل مزدوج
Dynamique	حركية/ دينامية
Dynammique communicationnelle	حركية التواصل

E

Echantillion	عَيِّنة
Economie	اقتصاد
Effort	مجهود/ مجهود
Elément	عنصر
Empirie	اختبار
Empirique	اختباري
Empirisme	اختبارية
Empreintes	بصمات/ أثر
Enoncé/s	قول/ أقوال
Enonciation	عملية القول
Enoncé minimal	قول أدنى (مارتينيه)
Enregistrement	تسجيل
Entité	كيان
Environnement	جوار
d' équivalence	جوار تكافؤ
identique	جوار مماثل
Etat de chose	وضع/ حال (العالم الخارجي)
Evolution	تطور
Expansion	توسيع
directif	توسيع مباشر
primaire	توسيع أولي
référentielle	توسيع إحالي
Expréssif	تعبيري
Expression	تعبير/ عبارة
constative	عبارة وصفيّة
Expression performatif explicite	عبارة إنجازية أولية
Expression performatif primitif	عبارة إنجازية صريحة
Expérience	تجربة
Expérimental	تجريبي
Extention	ما صدق
Extra-linguistique	خارج-لغوي

F

Facteur/s	عامل/ عوامل
Faculté	ملكة
Faculté linguistique	مَلَكة لغوية

نحو التعليق (التبعية) de dépendance
نحو توليدي générative
نحو علاقي relationnelle
stratificationnelle
نحو تنضيدي (سيدني لامب)
نحو تقليدي traditionnelle
نحو تحويلي transformationnelle
وحدة نحوية Grammème
مقدار/ مقدارات (هلمسليف) Grandeur/s
وحدة حرفية Graphème

H

غير متجانس Hétérogène
تراتبية Hiérarchie.
Hiérarchie corrélationnelle
تراتبية ارتباطية (هلمسليف)
متجانس Homogène
تجانسية Homogéniété
أفقية (علاقة) Horizontale (relation)
إنسية Humanisme
إنسي Humaniste
فرض/ افتراض Hypothèse
فرضي (المنهج) Hypothéthique

I

تحديد/ ضبط (وحدة ما) Identification
إشارة Index/indice
إشاري Indexical
لُغَيّة Idiolect
استعمال خاص Idiosyncratic
صورة Image
صورة سمعية Image accoustique
محايثة Immanence
استلزام Implication
ضمني/ مقدر Implicite
عرض Incidence
فردي Individuel
استقرائي Inductif

Faits (linguistique) واقعة/ وقائع لغوية
Figure وجه/ وجوه (هلمسليف)
Figures du contenu وجوه المضمون
Flexion إعراب
Fonctif مُوَظَّف (هلمسليف)
Fonction وظيفة
Fonction conative وظيفة ندائية
Fonction distinctive وظيفة مميزة
Fonction expréssive وظيفة تعبيرية
Fonction informationnelle وظيفة إبلاغية
Fonction métalinguistique
وظيفة لغوية واصفة
Fonction phatique وظيفة لغوية
Fonction référentielle وظيفة إحالية
Fonction sémiotique وظيفة سيميائية
Fonction textuelle وظيفة نصية
Fonctionnalisme وظيفية (التيار)
Fonctionnel وظيفي
Fonctionnement اشتغال
Force illocutionnaire قوة إنجازية
Formalisation صياغة صورية
Formaliser صاغ صورياً
Formant/s مُشَكِّل/ مشكلات
Formation تَكَوُّن
Forme صورة/ شكل
Forme archaique صيغة مهجورة
Forme linguistique صيغة لغوية
Forme du contenu صورة المضمون
Forme de l'expression صورة العبارة
Formel صوري/ شكلي
Formuler صاغ

G

Glossématique غلوسيماتية (هلمسليف)
Grammaire نحو
catégorielle نحو مَقُولي
des constituants نحو مُكَوِّنات

Induction	استقراء
Inférence	استدلال
Inférentiel	استدلالي
Infirmer	دحَض
Infirmation	دحْض
Informant/ informateur	راوٍ/ مساعد البحث
Innée	فطري
Innéisme	فطرية
Inventaire	ثبت/ جرد
Intentionnalité	قصدية
Interaction	تفاعل
verbale	تفاعل لفظي
Interactivité	تفاعلية
Interdépendance	ترابط
Interprétation	تأويل
Intuitif	حدسي
Intuition	حدس
Isolé	منعزل/ معزول
Isomorphisme	تشاكل
Item and arrangement	عنصر وترتيب
Item and process	عنصر وصيرورة
Invariant	ثابت
Inventaire	ثبت
J	
Jugement	حكم
Jugement de valeur	حكم قيمة
Juxtaposition	تجاور موقعي
L	
Langage	لغة
humain	لغة بشرية
interne	لغة داخلية (براغ)
manifeste	لغة متجلية (براغ)
naturel	لغة طبيعية
ordinaire	لغة عادية
poétique	لغة شعرية
pratique	لغة عملية
théorique	لغة نظرية
Langue	لسان (عند سوسير)
mère	لسان أم
Langues naturelles	ألسن طبيعية
Lexème/s	مُعْجَمة/ مُعْجَمات
Lexème nominale	مُعْجَمَة اسمية
Lexème verbale	مُعْجَمَة فعلية
Lien	رابط
Linéarité	خطية
Linéarité du signifiant	خطية الدال
Linguistique	لسانيّات
classique	لسانيّات تقليدية
comparative	لسانيّات مقارنة
contrastive	لسانيّات تقابلية
descriptive	لسانيّات وصفيّة
diachronique	لسانيّات تعاقبية
fonctionnelle	لسانيّات وظيفية
formelle	لسانيّات صورية
générale	لسانيّات عامة
générative	لسانيّات تاريخية
historique	لسانيّات توليدية
immanente	لسانيّات محايثة
structurale	لسانيّات بنيويّة
synchronique	لسانيّات تزامنية
transcendentale	لسانيّات متعالية (عن موضوعها)
Linguistique de la langue	لسانيّات اللسان
de la parole	لسانيّات الكلام
de la parole organisée	لسانيّات الكلام المنظم (سيشهاي)
Linguistique (adjectif)	لغوي/ لساني
Locuteur	متكلم/ الفرد
Logique	منطق
M	
Manifeste	بيان
Manifestation	تجلٍّ

Matière	مادة
Mécanisme/s	آلية/ آليات
Membre	طرف(هلمسليف)
Mental	ذهني
Mentaliste	ذهني
Mentalité	ذهنية/ عقلية
Message	إرسالية
Métalangue	لغة واصفة
Méta-sémiotique	سيميائية واصفة
Méthode	منهج
Méthodique	منهجي
Méthodologie	منهجية
Modalisateur	موجه
Modalité	جهة عند بالي
Modalités (les)	أنماط (مارتينيه)
Modèle	نموذج
Modus (modalité)	جهة (بالي)
Moindre effort (le)	أقل جهد
Monème	كُلْمَة/ كُلْمات (مونيم مارتينيه)
Monème amalgamé	كُلْمَة ملغمة
Monèmes dépendants	كُلْمَة (ات) خاضعة
Monème grammatical	كُلْمَة (ات) نحوية
Monème lexical	كُلْمَة معجمية
Monème fonctionel	كُلْمَة وظيفية
Monème prédicatif	كُلْمَة إسنادية
Morphème	صُرْفَة (وحدة صرفية)
dérivationnel	صُرْفَة (ات) اشتقاقية
inflectionnel	صُرْفَة إعرابية
libre	صُرْفَة حرة
lié	صُرْفَة مقيدة
Mot/s	كَلِمَة/ كلمات
N	
Niveau	مستوى
d'analyse	مستوى التحليل
de langue	مستوى اللسان
Non signe/s	لاعلامة (ات)
Norme	معيار/ مقياس
Non signe	لا علامة (هلمسليف)
O	
Objet	موضوع
Objectif	موضوعي
Objectivité	موضوعية
Observation	ملاحظة
Observable	قابل للمُلاحظة
Observationnel	ملاحظاتي
Occurrence	ورود
Opposition/s	تقابل (لات)
bilatérale	ثنائي (ئية)
constante	ثابت (ة)
équipolente	متكافئ(ة)
isolée	منعزل(ة)
multilatérale	متعدد(ة) الجوانب
privatives	سالب(ة)
proportionnelle	متناسب (ة)
supprimable	قابل(ة) للحذف
Oppositionnel	تقابلي
Ordre	رُتْبة
Organe	عضو
Organique	عضوي
Organisation	تنظيم
Organisisme	عضوانية
Origine	أصل
Origine commune	أصل مشترك
P	
Paradigmatique	جدولي
Paradigme	أنموذج (توماس كون)
Paradigme	مصفوفة (هلمسليف)
Paraphrase	ترداف جملة
Parole	كلام
Parallélisme	توازٍ
Partie/s	جزء/ أجزاء (هلمسليف)
Pause	وقف

Pensée	فكر
Performance	إنجاز
Performatif	إنجازي (فعل إنجازي عند أوستين)
Perspective	منظور
Pertinence	ملاءمة (مارتينيه)
Philosophie analytique	فلسفة تحليلية
Phonation	تصويت
Phonème	صوتة/ صوتات
Phonétique	الأصواتية
Phonétique(adj)	أصواتي
Phonologie	صِواتة
Plan	صعيد/ صُعُد (هلمسليف)
Plan du contenu	صعيد المضمون(هلمسليف)
Plan d'expression	صعيد التعبير (هلمسليف)
Plérème	وحدات المضمون
Position	موقع/ موضع
Postulat/s	مصادرة(ات)
Pragmatique	تداولية/ تداولي
Prédicat	محمول
Prédicatif	حملي
Prédication	حمل/ إسناد
Prémisses	مقدمات منطقية
Présupposition	اقتضاء
Principe	مبدأ
Procés	حدث
Procédé/s	طريقة/ طرائق
Procédure/s	إجراء(ات)
Processus	صيرورة
Production de la parole	إنتاج الكلام
Prosodie	تطريز
Psychologie	علم النفس
Psychologisme	نفسانية

R

Réalité	واقع/ حقيقة
Rapports	علاقات/ نسب
associatives	علاقات تداع
paradigmatiques	جدولية/ استبدالية
Réalisation	تحقيق/ إنجاز صوت
Reconnaissance	تعرف
Réccurence	تكرار
Réccursif	تكراري
Référence	إحالة
Référent	مدلول عليه/ مرجع
Référentiel	إحالي
Régularité	اطراد
Régulier	اطرادي
Relation	علاقة
Relationnel	علاقي
Grammaire	نحو علاقي
Representation	تمثيل
Representation graphique	تمثيل مِبْياني
Représentationnel	تمثيلي
Rhème	تعليق
Rôle sémantique	دور دلالي

S

Science du langage	عِلم اللغة
Schèma	خُطاطة
Schématique	ترسيمي
Schème	صيغة
Segment	مقطع
Segmentation	تقطيع
Sémème	دُلة/ وحدة دلالية
Sens	معنى
Sémantique	علم الدلالة
Sémiologie	سيميولوجيا
Sémiologique	سيميولوجي
sémiotique	سيميائية
Sémiotique connotative	سيميائية إحائية
Sémiotique dénotative	سيميائية تقريرية
Signal	إشارة
Signifiant	دال

Signifiant discontinu	دال متقطع
Signe	علامة
Signification	دلالة
Signifié	مدلول
Simultaneités	متزامنات
Situation	مقام
Situationnel	مقامي
Social	اجتماعي
Sociologie	علم الاجتماع
Sociologique	اجتماعي
Solidarité	تعاضد
Sonore	جهر
Sonorité	جهورية
Spécification	تخصيص (هلمسليف)
Statut	وضع/ حال
Strata	طبقة (هلمسليف)
Structural	بنياني
Structuralisme	بنيويّة
Structuraliste	بنيوي (نسبة إلى المذهب)
Structure	بنية
Structurel	بنيوي (نسبة للبنية)
Structure grammaticale	بنية نحوية
Structure linguistique	بنية لغوية
Structuration	بنينة (عملية)
Structurer	بَنْيَنَ (فعل)
Style	أسلوب
Stylistique(la)	أسلوبية
Stylistique expressive	أسلوبية تعبيرية (بالي)
Subjectif	ذاتي
Subjectivité	ذاتية
Substance	مادة
substance de l'expression	مادة العبارة
Substituer	عوَّض
Substitution	تعويض
Succéssivités	متتابعات
Suite	متتالية
Sujet parlant	فرد متكلم
Syllogisme	قياس منطقي
Symbole	رمز
Symbolisme	رمزية
Synchronie	تزامن
Synchronique	تزامني
Syntagmatique	سياقي/ مركبي
Syntagme	مُرَكَّب
Syntaxe	تركيب
Systématisation	تنسيقية
Syntème	مؤتَلِف/ مؤتلفات
Système	نَسَق
Systèmique	نَسَقية

T

Table rase	صفحة بيضاء
Téléologique	غائية(وظيفية جاكبسون/ مارتينيه)
Temps	زمن
Tendance	اتجاه/ نزعة
Terme	لفظ/ ألفاظ
Test	رائز/ اختبار
Texte/s	نص/ نصوص
Textuel	نصي
Thème	محور/ موضوع
Théorie	نظرية
du langage	نظرية اللغة (هلمسليف)
linguistique	نظرية لسانيّة
Théorique	نظري
Thèse	أطروحة/ أطروحات
Tonalité	رنين
Totalité	كلية
Trait/s	سمة/ سمات
Transcendance	تعالٍ
Transformation/s	تحول/ تحويلات
Transitif	متعدٍّ
Transition	انتقال
Transitivité	تعدية

Translation نقل
Transposition نقل(بالي)
Triangle sémantique مثلث دلالي
sémiotique مثلث سيميائي
Types de langage أنماط لغوية
Types de phrase أنواع الجمل

U

Unité وحدة
Univers du discours عالم الخطاب
Universaux كليات
Universel كلي
Usage استعمال

V

Valeur قيمة
absolue مطلقة
pure خالصة
relative نسبية
Variante بديلة/ متغيرة
Vérité حقيقة/ صدق
Verticale (relation) عمودية (علاقة)
Virtuel ضمني/ تقديري
Voyelle/s صائت/ صوائت

ببيليوغرافيا

المصادر العربية

(تشير السنة الميلادية المذكورة بعد الخط المائل إلى سنة الطبعة الأولى للكتاب أو إلى سنة الصدور الأصلي عندما يكون مترجماً).

- أبو ناضر، موريس. «مدخل إلى علم الدلالة الألسني»، **مجلة الفكر العربي المعاصر**، عدد 18-19 شباط، مركز الإنماء القومي، بيروت، 1982.
  ـــــــ. «مفهوم اللغة في الألسنيّة البنيويّة»، **مجلة الفكر العربي المعاصر**، عدد25 آذار-نيسان، منشورات مركز الإنماء القومي، بيروت، 1983.
- أريفيه، ميشال. **البحث عن فردينان دو سوسير**، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت 2009/ 2007، (ترجمة محمد خير محمود البقاعي).
- أشواق محمد النجار. **دلالة اللواصق التصريفية في اللغة العربية**، عمان، دار دجلة للنشر، 2007.
- أوزياس وآخرون. **البنيويّة**، ترجمة ميخائيل فغول، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1972.
- إيفيتش، ميلكا. **اتجاهات البحث اللساني**، منشورات المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة 1968 الطبعة 2/ 2000. (ترجمة سعد مصلوح ووفاء كامل).
- إيكو، أمبرتو. **العلامة، تحليل المفهوم وتاريخه**، المركز الثقافي العربي/كلمة، الدار البيضاء، 2007/ 1973. (ترجمة د. سعد بنكراد).
- إيلام، كير. **العلامات في المسرح، في مدخل إلى السيميوطيقا**، ج2، ترجمة سيزا قاسم. منشورات عيون، الدار البيضاء، 1986.
- إينو آن وآخرون. **السيميائية، الأصول، القواعد، التاريخ**، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان 2008 (ترجمة رشيد بن مالك، وتقديم عز الدين المناصرة).
- بارت، رولان. **مبادئ في علم الأدلة**، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط2، 1987/ 1966 (ترجمة محمد البكري)، اللاذقية.

- باي، ماريو. **أسس علم اللغة**، عالم الكتب، القاهرة، ط8/ 1998، ط1/ 1973/ 1965. (ترجمة أحمد مختار عمر).

- بحيري سعيد حسن. **نظرية التبعية في التحليل النحوي**، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1988.

- برهومة، عيسى. **مدخل في اللسانيّات**، عمان، 2005.

- بشر كمال محمد. **علم الأصوات**، دار المعارف، القاهرة، 1973.

- بن حمودة، رفيق. **الوصفيّة، مفهومها ونظامها في النظريات اللسانيّة**، دار محمد علي وكلية الآداب، سوسة، 2004.

- بوقرة، نعمان. **المدارس اللسانيّة المعاصرة**، مكتبة الآداب، القاهرة، 2004.

- بياجي، جان. **البنيويّة**، منشورات عويدات، بيروت، 1972/ 1968.

- بيرس تشارلز ساندرس. **تصنيف العلامات** (ترجمه عن الإنكليزية فريال جبوري) ضمن كتاب **مدخل إلى السيميوطيقا**، إشراف سيزا قاسم ونصر حامد أبو زيد، منشورات عيون، الدار البيضاء، 1986.

- تمام، حسان. **مناهج البحث في اللغة**، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1975/ 1957.
  ______. **اللغة بين المعياريّة والوصفيّة**، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1980/ 1958.
  ______. **العربية معناها ومبناها**، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 1973.
  ______. **الأصول الإبستيمولوجية للفكر اللغويّ العربي**، دار الثقافة، الدار البيضاء 1980.

- جاكوبسون، رومان. **الاتجاهات الأساسية في علم اللغة**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2002 (ترجمة علي حاكم صالح وحسن ناظم).

- حسن عبد العزيز، محمد. **سوسير رائد علم اللغة الحديث**، دار الفكر العربي، القاهرة، 1990.

- حلمي، خليل. **العربية وعلم اللغة البنيويّة، دراسة في الفكر اللغويّ العربي الحديث**، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية 1988.

- حليلي عبد العزيز. **اللسانيّات واللغة العربية**، منشورات دراسات سال، 1991.

- حنون، مبارك. **لسانيّات سوسير**، دار توبقال، الدار البيضاء، 1987.

- الخولي محمد علي. **معجم علم اللغة التطبيقي**، مكتبة لبنان، بيروت، 1976.
  ______. **مدخل إلى علم اللغة**، دار الفلاح للنشر والتوزيع، الأردن، ط2000/ 1993.

- دميان، جورج. «نظرية المرجع في الألسنيّة»، **مجلة الفكر العربي المعاصر عدد 25**- آذار ـ نيسان، منشورات مركز الإنماء القومي، بيروت، 1983.

- الراجي، التهامي الهاشمي. **توطئة لدراسة علم اللغة**، دار النشر المغربية، الدار البيضاء 1977.
  ـــــــ. **الثنائيات اللسانيّة**، دار النشر المغربية، الدار البيضاء 1981.
  ـــــــ. **مدخل لدراسة النفسي ـ الآلي للحديث**، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1983.
- رمضان، عبد التواب. **المدخل إلى علم اللغة**، مكتبة الخانجي، القاهرة 1980.
- زكريا، ميشال. **الألسنيّة أعلامها ومبادئها**، بيروت 1980.
- سابير، إدوارد. **اللغة، مقدمة في دراسة اللغة**، في جزءين، تونس الدار العربية للكتاب، ط2/ 1997/ 1987/ 1921 (ترجمة المنصف عاشور).
- سامبسون، جيفري. **المدارس اللغوية التطور والصراع**، (ترجمة أحمد الكراعين)، المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع، بيروت، 1993.
- السغروشني، إدريس. **مدخل للصواتة التوليدية**، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 1987.
- سوسير، فردينان. **محاضرات في علم اللسان العام**، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ط2/ 2008/ 1916. (ترجمة عبد القادر قنيني).
  ـــــــ. **محاضرات في الألسنيّة العامة**، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر 1986/ 1916. (ترجمة يوسف غازي، مجيد النصر).
- سيزا، قاسم. **السيميوطيقا: حول بعض المفاهيم والأبعاد ضمن كتاب مدخل إلى السيميوطيقا** إشراف سيزا قاسم ونصر حامد أبو زيد، منشورات عيون، الدار البيضاء، 1986.
- شاهين، عبد الصبور. **علم اللغة العام**، مؤسسة الرسالة، بيروت 1980.
- شمس الدين، جلال. **الأنماط الشكلية لكلام العرب، نظرية وتطبيقا، دراسة بنيويّة**، توزيع مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، 1995. (3 أجزاء).
- الصباح، أنطوان. «تطور مفهوم البنيان في اللسانيّة الحديثة»، **مجلة الفكر العربي المعاصر**، عدد 25 آذار ــ نيسان، منشورات مركز الإنماء القومي، بيروت، 1983.
- صحراوي، مسعود. **التداولية عند علماء العرب**، دار الطليعة، بيروت، 2005.
- الطبال بركة فاطمة. **النظرية الألسنيّة عند رومان جاكبسون**، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1993.
- طحان، ريمون. **الألسنيّة العربية**، دار الكتاب العربي، بيروت 1972.
- عبد الحميد، عبد الواحد. **الكلمة في اللسانيّات الحديثة**، توزيع قرطاج للنشر والتوزيع، صفاقس، تونس، 2007.
- العبد، محمد. **اللغة المكتوبة واللغة المنطوقة، بحث في النظرية**، دار الفكر للدراسات والتوزيع والنشر، القاهرة، 1990.

- علوية، نعيم. «الرزمة الصوتية بين الدال والمدلول»، **مجلة الفكر العربي المعاصر** عدد18-19 شباط 1982 مركز الإنماء القومي، بيروت، 1982.

- عياشي، منذر. **قضايا لسانيّة وحضارية**، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، 1991.

- غرين، جودث. **علم اللغة النفسي**، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة 1993/ 1974 (ترجمة مصطفى التوني).

- غلفان، مصطفى. (بمشاركة محمد الملاخ وحافيظ اسماعيلي علوي). **اللسانيّات التوليدية من النموذج ما قبل المعيار إلى البرنامج الأدنوي، مفاهيم وأمثلة**، عالم الكتب الحديث، إربد، 2010.

———. **في اللسانيّات العامة: تاريخها، طبيعتها، مفاهيمها**، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت 2010.

———. **اللسانيّات في الثقافة العربية الحديثة**، مكتبة المدارس، البيضاء، 2006.

———. **اللسانيّات العربية الحديثة. قراءة نقدية تحليلية في الأسس النظرية والمنهجية**، منشورات كلية الآداب عين الشق، الدار البيضاء 1998.

- فاخوري، عادل. **اللسانيّة التوليدية**، لبنان الجديد، بيروت، 1980.

- فارس، مروان. النهج الألسني عند دو سوسير، **مجلة الفكر العربي المعاصر** عدد25 - آذار ـ نيسان 1983 منشورات مركز الإنماء القومي، بيروت 1983.

- فريال، غزول. **علم العلامات (السيميوطيقا) مدخل استهلالي ضمن كتاب مدخل إلى السيميوطيقا** إشراف سيزا قاسم ونصر حامد أبو زيد، منشورات عيون، الدار البيضاء 1986.

- فنان، أمينة. «**الجملة في النموذج الوظيفي**» **ضمن أعمال ندوة اللسانيّات واللغة العربية بين النظرية والتطبيق**، منشورات كلية الآداب مكناس، رقم4/ 1992.

———. «المُكَوِّنات التكميلية للجُمْلة الفعلية: التوسعات»، ضمن أعمال ندوة: **مكانة الأنحاء التقليدية في اللسانيّات الحديثة**، منشورات كلية الآداب مكناس، 1997 سلسلة الندوات، رقم 10.

———. **اللسانيّات الوظيفية: مباحث صِواتية وتركيبية**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية مكناس، 2005.

- الفهري، عبد القادر الفاسي. **اللسانيّات واللغة العربية**، دار توبقال للنشر، البيضاء، 1985. (جزءان).

- قدور أحمد محمد. **مبادئ اللسانيّات**، دار الفكر، دمشق 1996.

- كريستل، دايفيد. **التعريف بعلم اللغة**، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1993 (ترجمة حلمي خليل).

- الكشو، صالح. **مدخل في اللسانيّات**، الدار العربية للكتاب، تونس، 1985.
- لينز، جون. **نظرية تشومسكي اللغوية**، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1985/ 1970. (ترجمة حلمي خليل).
- مارتان، روبير. **مدخل لفهم اللسانيّات**، المنظمة العربية للترجمة، توزيع مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 2007/ 2002 (ترجمة عبد القادر المهيري).
- مارتينيه، أندريه. **مبادئ ألسنيّة عامة**، دار الحداثة، بيروت، 1990/ 1960 (ترجمة ريمون رزق الله).
———. **وظيفة الألسن وديناميتها**، دار المنتخب العربي، بيروت 1996/ 1989. (ترجمة نادر سراج).
- المتوكل، أحمد. **الوظائف التداولية في اللغة العربية**، دارالثقافة، الدار البيضاء، 1985.
———. **اللِّسانيّات الوظيفية: مدخل نظري**، منشورات عكاظ، الرباط، 1988.
- موكاروفسكي، جان. «**الفن باعتباره حقيقة سيميوطقية**»، ضمن كتاب **مدخل إلى السيميوطيقا**، ج2، إشراف سيزا قاسم ونصر حامد أبو زيد، منشورات عيون، الدار البيضاء، 1986.
- مومن، أحمد. **اللسانيّات. النشأة والتطور**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2002.
- مونان، جورج. **تاريخ علم اللغة منذ نشأتها حتى القرن العشرين**، منشورات الجامعة السورية، دمشق، 1972. (ترجمة بدر القاسم).
- ميخائيل، باختين. **الماركسية وفلسفة اللغة**، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 1986 (ترجمة محمد البكري ويمنى العيد)
- هاريس روي وتولبت جي تيلر. **أعلام الفكر اللغوي، (التقليدي الغربي من سقراط إلى سوسير)**، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2004. (تعريب أحمد شاكر الكلابي).
- هودسون، جون. **علم اللغة الاجتماعي**، عالم الكتب، القاهرة. 1990/ 1980.
- هيلبيش، جيرهارد. **تاريخ علم اللغة الحديث**، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، 2003/ 1974. (ترجمة سعيد حسن بحيري).
- يوسف، أحمد. «**توزيعية هاريس والتحليل النَّسَقي للخطاب**»، عالم الفكر، المجلد 33/ 1 يوليو- سبتمبر، 2004 الكويت.
- يول، جورج. **معرفة اللغة**، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، اسكندرية، 2000/ 1995.

المصادر الأجنبية

- Amacker René, *Linguistique saussurienne*, Genève, Paris, Droz, 1975.

- Anderson Julie, *La formation de l'école américaine*, in Sylvain Auroux : *Histoire des idées linguistiques*, tome3, Bruxelles, Mardaga, 2000.

- Apresjan J. D, *Analyse distributionnelle des significations et champs sémantiques structurés*, Langages n°1, Paris, Didier- Larousse, 1966.

——. *Eléments sur les idées et les méthodes de la linguistique structurale contemporaine*, Paris, Dunod, 1973/1963.

- Arcaini Enrico, *Principes de linguistique appliquée*, Paris, Payot, 1972 /1967.

- Auroux Sylvain et autres, *Matériaux pour une histoire des théories linguistiques*, Presses Université de Lille, 1984.

——. *La notion de linguistique générale*, in Histoire, Epistémologie et langage, 10-II, 1988. Presse Universitaires de Lille.

——. *Histoire des idées linguistiques*, Bruxelles, éd. Mardaga, 1989-2000.

- Austin John Langshaw, *Quand dire, c'est faire*, Paris, Le Seuil, 1970.

- Bach Emmon, *Linguistique structurelle et philosophie des sciences*, in Diogène n°51, Problèmes du langage, pp. 117-136, Paris, Gallimard, 1951.

- Bachelard Gaston, *Formation de l'esprit scientifique*, Paris, PUF.

- Bakhtine Mikhail, *Le marxisme et la philosophie du langage*, Paris, Minuit, 1977.

- Bally Charles, *Traité de stylistique française*, Paris, Klincksieck, 2ième éd., 1919/1909.

——. *Le langage et la vie*, Genève, Atar, 3ième éd., 1952/ 1913.

——. *Linguistique générale et linguistique française*, Berne, A. Francke, 4ième éd. 1965/1932.

——. *L'arbitraire du signe*, Le Français Moderne, 8 Année, n°3, 1940.

- Barthes Roland, *L'activité structuraliste*, in les nouvelles lettres, 1963.

——. *Eléments de sémiologie*, in Communications n°4, Paris, Seuil, 1966.

- Bastide Roger (Ed.), *Sens et usage du terme structure dans les sciences humaines et sociales*, La Haye, Mouton, 1972/1962.

- Bédard Edith et Maurais Jacques (Ed), *La norme linguistique*, Québec, Conseil de la langue française et Paris, Le Robert, 1983.

- Badir Sémir, *Saussure : langue et représentation*, Paris, L'Harmattan, 2001.

- Bendix Edward Herman, *Componential Analysis of General Vocabulary The Semantic Structure of a Set of Verbs in English, Hindi and Japanese*, 1966, traduit en partie dans Langages, n°20, Paris, Larousse, déc. 1970" *Analyse componentielle du vocabulaire gén*éral, p 101-125.

- Benveniste Emile, *La nature du signe linguistique*, Acta Linguistica. 1/1939 p. 23-30, repris in Problèmes de linguistique générale (PLG).

——. *Tendances récentes en linguistique générale*, repris in Problèmes de linguistique générale.

——. *Catégories de pensée et catégories de langue*, Les Etudes philosophiques 4 /1958 repris in PLG.

——. *Structure en linguistique* in BASTIDE R. éd 1962, pp. 31-39.

——. *Les niveaux de l'analyse linguistique*, 1964, repris in PLG.

——. *Le langage et l'expérience humaine*, Diogène 51/1965 Problèmes du langage, pp. 3-13, repris in Problèmes de linguistique générale.

——. *L'appareil formel de l'énonciation*, Langages N°17/1970, Paris, Larousse, repris in PLG.

——. *Problèmes de linguistique générale*, Paris, Gallimard, 1966/1974, 2 vol.

- Bloch Bernard and George L. Trager, *Outline of Linguistic Analys*is, Baltimore, Waverly Press, 1942.

- Bloomfield Leonard, *A Set of Postulates For The Science of Language* Language, 2 (1926) traduit en français dans André Jacob: *Genèse de la pensée linguistique*, Paris, A. Colin, 1973.

——. *Le langage,* traduit en français par J. Grazio, introduction de Fr. François, Paris, Payot, 1972.

- Bopp Franz, *Grammaire comparée des langues indoeuropéennes comprenant le sanscrit le zend l'arménien le grec le latin le lithuanien l'ancien slave le gothique et l'allemand,* Paris, Imprimerie impériale et imprimerie nationale,; nouvelle édition. 5 vol, 1885-1889/1866- 1874. Traduit en français par Michel Bréal.

- Boudon Raymond, *A quoi sert la notion de structure. Essai sur la signification de la notion de structure dans les sciences humaines*, Paris, Gallimard, 1968.

- Bouveresse Jacques, *Langage ordinaire et philosophie*, Langages N°21, p35- 70 Paris, Larousse, 1973.

——. *La parole malheureuse. De l'alchimie linguistique à la grammaire philosophique*, Paris, Edition de Minuit, 1971.

- Bronckart Jean- Paul, *Théories du langage : Une introduction critique*, Bruxelles, Dessart et Mardaga, 1977.

- Brondal Viggo, *Essais de linguistique générale*, Copenhague, Munksgaard, 1943.

——. *Les parties du discours*, Copenhague, Munksgaard, 1948.

——. *Théorie des prépositions. Introduction à une sémantique rationnelle*, Copenhague, Munksgaard, 1950.

- Bouquet Simon, *Après un siècle, les manuscrits de Saussure reviennent bouleverser la*

linguistique Texto! juin 2005 [enligne]. Disponible sur : < http://www.revue-texto. net /Saussure/Sur_Saussure/ Bouquet _ Apres.html > . (Consultée le 25/ 01/ 2010...).

- Bühler Karl, *L'onomatopée et la fonction représentative du langage*, Journal de Psychologie, 1933,repris in Jean Claude Pariente : Essais sur le Langage, pp 113-139, Paris, Minuit,1969.
- Bureau Conrad, *Linguistique fonctionnelle et stylistique objective*, Paris, PUF, 1976.

——. *Syntaxe fonctionnelle du français*, Laval, Quebec, Presse Universitaire de Laval, 1975.

- Calvet Louis - Jean, *Pour et contre Saussure*, Paris, Payot, 1975.
- Chevalier Jean Claude, *Les congrès internationaux et la linguistique*, pp 517- 528, in Histoire des idées linguistiques, (sous la direction de Sylvain Auroux), Mardaga, Bruxelles, 2000.
- Cassirer Ernst, *La philosophie des formes symboliques. Le langage*, Paris, Ed. de Minuit, 1972, traduction française de Philosophie der symbolischen Formen, t I, Berlin, 1923.

——. *Le langage et la construction du monde des objets*, Journal de Psychologie, 1933, repris in Jean Claude Pariente : *Essais sur le langage*, pp. 39-68. Paris, Minuit, 1969.

- Cervoni Jean, *l'énonciation*, Paris, PUF, 1987.
- Chao Yuen Ren, *Langage et systèmes symboliques*, Paris, Payot, 1970, traduction française de *Language and Symbolic Systems*, 1968.
- Chiss Jean-Louis, Jacques Filliolet et Dominique Mainguenau, *Initiation à la problématique structurale*, tome 1, Paris, Hachette, 1977, tome 2, Paris, Hachette 1978.
- Chomsky Noam, *Structures syntaxiques*, Paris, Seuil, 1969/1957.

——. *Aspects de la théorie syntaxique*, Paris, Seuil, 1972/1965.

- Conseil de l'Europe, *les théories linguistiques et leurs applications*, Paris, A.I.D.E.L.A. et Didier, 1967.
- Corneille Jean - Pierre, *La linguistique structurale : sa portée, ses limites*, Paris, Larousse, 1976.
- Culioli Antoine, *La formalisation en linguistique*, Cahiers pour l'analyse, 9 Paris, Seuil, 1968.

——. *A propos d'opérations intervenant dans le traitement formel des langues naturelles*, Revue des Mathématiques et Sciences Humaines, Paris, 1971.

——. *Sur quelques contradictions en linguistique*, Communications, 20, Paris, Seuil, 1973.

——. *Comment tenter de construire un modèle logique adéquat à la description des langues naturelles*, in J. David & R. Martin (Edi), Modèles logiques et niveaux d'analyse linguistique. Paris, Klincksieck, 1975.

——. *Séminaire de D.E. A.*, manuscrit non publié, Université Paris VII, 1976.

- Dauzat Albert, *Essai de méthodologie linguistique dans le domaine des langues et des patois romans*, Paris, Champion, 1906.

  ——. *La vie du langage*, Paris, A. Colin, 1910.

- Delacroix Henri, *Le langage et la pensée*, Paris, Alcan, 1924.
- Deladier Anne, *Présentation du numéro 99, Langages*, volume 25, 1990, Paris, A. Colin.
- Deledalle Gérard, *Théorie et pratique du signe*, Paris, Payot, 1979.
- De Mauro Tullio, *Introduction et commentaire* de la traduction italienne de F. de Saussure Corso di linguistica generale, Bari, Laterza, 1968.
- Diogène, *Problèmes du langage* (contributions de Emile Benveniste, Noam Chomsky, Roman Jakobson, André Martinet, etc.), Paris, Gallimard, 1966.
- Doroszewski Witold, *Quelques remarques sur la sociologie et de la linguistique : Emile Durkheim et F. de Saussure*, in Jean Claude Parienté : *Essais sur le langage*, Paris, Minuit, 1969/1933.
- Dubois Jean, *Grammaire structurale du français : I, Nom et pronom; II, le Verbe; III, la phrase et les transformations*, Paris, Larousse, 1965- 1969, 3 vol.
- Dubois Jean et autres, *Dictionnaire de linguistique et des sciences du langage*, Paris, Larousse, 1999/1994.
- Dubois Jean et Fr. Dubois Charlier, *Principes et méthodes de l'analyse distributionnelle*, Langages N°20, Décembre 1970, Paris, Didier- Larousse, 1970.
- Ducrot Oswald, *Dire et ne pas dire*, Paris, Hermann, 1972.

  ——. *Le structuralisme en linguistique*, Paris, Seuil, 1968.

  ——. *De Saussure à la philosophie du langage*, dans John R. Searle, *Les actes de langage*, Paris, Hermann, 1972.

- Ducrot Oswald et Todorov Tzvetan, *Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage*, Paris, Le Seuil, 1972.
- Durrer Sylvie, *Introduction à la linguistique de Charles Bally*, Lausanne, Delachaux et Niestlé, 1998.
- Eco Umberto, *La structure absente*, Paris, Mercure de France, 1972trad fr, Milano, Bompiani, 1968
- Engler Rudolf, *Théorie et critique d'un principe saussurien : l'arbitraire du signe*, Genève, Impr. populaire, 1962.

  ——. *Cours de linguistique de F. de Saussure* : édition critique, Wiesbaden, Otto Harrassowitz, 1967-1974.

- Feuillard Colette, *Le fonctionnalisme d'André Martinet*, in Linguistique 2001/1-37, Paris, PUF, 2001.

- Fillipi M, *Introduction à la linguistique et aux sciences des langages*, Paris, Ellipses, 1995.
- Forel Claire; *La linguistique sociologique de Charles Bally*, Genève, Droz, 2007.
- François Frédéric, *La communication inégale*, Neuchâtel, Delachaux et Niestlé, 1990.
- [éd.], *Linguistique*, Paris, PUF, 1980.
- Frege Gottlob, *Ecrits logiques et philosophiques*, Paris, éd. du Seuil, 1971.
- Fryba-Reber Anne- Marguerite *Albert Sechehaye et la syntaxe imaginative. Contribution à l'histoire de la linguistique saussurienne*, Genève, Droz 1994. (Publications du Cercle Ferdinand de Saussure).
- Fontaine Jacqueline, *Le cercle linguistique de Prague*, Tours, Mame, 1974.
- Frei Henri, *La grammaire des fautes. Introduction à la linguistique fonctionnelle*, Paris, Geuthner et Genève, Kündig, 1929.
- Fuchs Catherine et Le Goffic Pierre, *Initiation aux problèmes des linguistiques contemporaines*, Paris, Hachette, 1975.
- Gadet Françoise, *Saussure, une science de la langue*, Paris, PUF, 1990/1987.
- Gardiner Alain Henderson, *Langage et actes de langage. Aux sources de la pragmatique*, Lille, Presses Universitaires de Lille, 1990/ 1932.
- Garmadi Juliette, *La sociolinguistique*, Paris, PUF, 1981.
- Garvin, Paul L., *Une épistémologie empiriste pour la linguistique*, La Linguistique, XV, I, 1979, pp. 65- 89. Paris, PUF.
- Gazdar Gerald et al, *Generalized Phrase Structure Grammar*, Oxford, Blackwell, 1985.
- Germain C., *La sémantique fonctionnelle*, Paris, PUF, 1981.
- Gleason Henry Allan, *Introduction à la linguistique*, Paris, Larousse, 1969, trad. française de: *An Introduction to Descriptive Linguistics*, 1955.
- Gochet Paul, *Esquisse d'une théorie nominaliste de la proposition*, Paris, A. Colin, 1977.
- Godel Robert, *Les sources manuscrites du cours de linguistique générale de Ferdinand de Saussure*. Genève, Paris, Droz et Minard, 1968/1957.
- Algirdas- Julien Greimas, *L'actualité du Saussurisme*, dans *Le français moderne*, 1956, nº24, p 191- 203 à l'occasion du 40ième anniversaire de la publication du Cours de linguistique générale.

  ——. *Sémantique structurale*, Paris, Larousse, 1966.
- Greimas Algirdas Julien et Courtès J, *Sémiotique. Dictionnaire raisonné de la théorie du langage*, I et II, Paris, Hachette, 1986.
- Gusdorf Georges, *La parole*, Paris, PUF, 1953.
- Hagège Claude, *La structure des langues*, Paris, PUF, «Que sais-je?», 1982.
- Haroche Claudine, *Faire dire, vouloir dire*, Lille, Presses universitaires de Lille, 1984.
- Et Henry Paul et Pêcheux Michel, *La sémantique et la coupure saussurienne langue,*

langage, discours, Langages, 24, décembre 1971: (L'épistémologie du langage), p. 93-106, Paris, Didier- Larousse.

- Harris Zellig S., *Methods in Structural Linguistics*, Chicago, University of Chicago Press, 1951; *Structural Linguistics*, Phoenix Books,Chicago, 1963.

——. *Structures mathématiques du langage*, Paris, Dunod, 1971.

——. *Notes du Cours de syntaxe*, Paris, Ed. du Seuil, 1976.

——. *A Grammar of English On Mathematical Principles*, New York, Wiley-Interscience, 1982.

——. *La structure distributionnelle, in* Langages, N°20, Décembre1970, Paris, Didier-Larousse (*Distributional structure*, Word X, 1954, p 42-162.

——. *La genèse de l'analyse des transformations et de la métalangue*, Langages, N°99, volume 25, 1990, Paris, A. Colin.

- Hjelmslev Louis, *Prolégomènes à une théorie du langage*, suivi de *La structure fondamentale du langage*, (inédit), Paris, Minuit, 1968/ 1943.

——. *Essais linguistiques* (recueil d'articles de 1937 à 1956), Paris, Minuit, 1986.

——. *Le langage*, Paris, Minuit, 1971.

——. *Nouveaux essais*, Paris, PUF, 1985.

- Hjelmslev Louis et Brondal Viggo, *Editorial* (en français d'Acta Linguistica. I 1939.
- Hockett Charles F, *A Course in Modern Linguistics*, New York, Macmillan, 1958.
- Holenstein Elmar, *Roman Jakobson*, Paris, Seghers, 1974.
- Hormann Hans, *Introduction à la psycholinguistique*, Paris, Larousse, 1972. traduction française de Psychologie der Sprache, 1967.
- Jacob André, *Temps et langage*, Paris, A. Colin, 1967.

——. *Points de vue sur le langage, 270 textes* choisis et présentés avec Introduction et Bibliographie par André Jacob, Paris, Klincksieck, 1969.

——. *Les exigences théoriques de la linguistique selon G. Guillaume*, Paris, Klincksieck, 1970.

——. *Genèse de la pensée linguistique*, Paris, A. Colin, 1973.

- Jakobson Roman, *Essais de linguistique générale*, Paris, Minuit, 1963- 1973, 2 volumes.

——. *Structuralisme et téléologique*, in Revue ARC n°60, spécial Jakobson, Aix en Provence, 1975. p 50- 52.

——. *Six leçons sur le son et le sens*, Paris, Ed. de Minuit, 1976.

——. *Une vie dans le langage*, Paris, Ed. de Minuit, 1985.

——. *Dialogues avec Roman Jakobson*, Paris, Flammarion, 1980.

- Jakobson, Roman et Halle Morris, *Fundamentals of Language*. La Haye: Mouton, IX-1956, La première partie de cet ouvrage, *Phonology and Phonetics*, est reprise dans

Selected Writings, pp. 464- 504, la seconde partie, *Deux aspects du langage et deux types d'aphasie*, est traduite dans les Essais, pp 43-67.

- رومان، جاكوبسون وموريس هالة. **أساسيات اللغة**، المركز الثقافي العربي/كلمة، الدار البيضاء، بيروت، 2008، تاريخ الإصدار الأصلي بالإنكليزية 1956.

- Jakobson Roman et Waugh Linda, *La charpente phonique du langage*, Paris, Ed. de Minuit, 1980, traduction française de The Sound shape of Language, 1979.

- Joyaux Julia [Julia Kristeva], *Le langage cet inconnu*, Paris, Seuil, 1980.

- Konrad Koerner, *Meillet, Saussure et la linguistique générale*, dans *Histoire Epistémologie et Langage*, volume 10 / II, 1988, Presses Universitaires de Lille.

- Larsen Svend Erik, *Vigo Brondal,linguiste,philosophe,sémioticien*, in Langages, volume 22, numéro 86, 1987, Paris, A. Colin.

- Leeman Danielle (Ed), *La paraphrase*, Langages, 29/1973, Paris, Didier Larousse.

- Léon Pierre, Schogt Henry et Burstynsky Edward, *La phonologie, la théorie et les écoles,* Paris, Klincksieck, 1977.

- Lepschy G. C. *La linguistique structurale*, Paris, Payot, 1966/1964.

- Leroy Maurice, *Les grands courants de la linguistique moderne*, Bruxelles, Presses Universitaires de Bruxelles, et Paris, PUF, 1964.

- Lévi-Strauss Claude, *Anthropologie structurale*, Paris, Plon, 1958.

- Lyons John, *Linguistique générale*, Paris, Larousse, 1970/1968.

- Mahoudian, Mortéda, *Les modalités nominales en Français*, Paris, PUF, 1970/ 1975,

  ——. *A propos de syntagme et synthème*, La Linguistique, XI, I, pp. 51- 73, Paris, PUF.

- Malmberg Bertil, *Les nouvelles tendances de la linguistique*, Paris, PUF, 1966.

  ——. *Histoire de la linguistique de Sumer à Saussure*, Paris, PUF, 1991.

- Marek Nekula, *Vilém Mathesius*, Publié dans: J. Verschueren, J. O. Östman, J. Blommaert & Ch. Bulcaen (eds.): *Handbook of Pragmatics*. Amsterdam: John Benjamins Publishing Company, 1999.

- Martinet André, *Economie des changements phonétiques. Traité de phonologie diachronique*, Berne, A. Francke, 1964/1955.

  ——. *Eléments de linguistique générale,* Paris, A. Colin, 1974/1960.

  ——. *La linguistique synchronique. Etudes et recherches*; Paris, PUF, 1974/1965.

  ——. Langue et fonction, Paris, Gonthier, 1971, traduction Française de: A Functional View of Language, 1962.

  ——. *Le Français sans fard*; Paris, PUF, 1969.

  ——. *Grammaire fonctionnelle du français, Paris, Credif, 1979.*

  ——. *Syntaxe générale*, Paris, A. Colin, 1985.

——. *Fonction et dynamique des langues, Paris, A. Colin, 1989*

- وظيفة الألسن وديناميتها، دار المنتخب العربي، بيروت 1996 (ترجمة نادر سراج).

——. *Mémoires d'un linguiste*, Paris, Quai Voltaire, 1993.

——. éd.) Le langage, Paris, Gallimard, Encycl. de La Pléiade, 1968.

——. éd.) Linguistique : Guide alphabétique, Paris, Denoël- Gonthier, 1969.

——. *Au sujet des fondements de la théorie linguistique de Louis Hjelmslev*, Paris, Republications Paulet, 1946, 1968 pp. 19- 42; article d'abord paru dans le BSLP, XLII, I, pp. 19- 42.

- Matejka Ladislav, *Le formalisme taxonomique*, in Revue ARC n°60 Aix en Provence 1975, Numéro spécial : Jakobson.

- Meillet Antoine, *Linguistique historique et linguistique générale*, Paris, Champion et Klincksieck, 1921- 1936, 2 vol. 1958.

——. *La méthode comparative en linguistique*, Paris et Oslo, 1925, réédition. Champion, 1966.

- Merleau Ponty Maurice, *Sens et non-sens*. Paris, Nagel, 1949.

——. *Signes*, Paris, Gallimard, 1960.

- Meunier André, *Sechehaye et Bally : Le sujet et la vie*, p145, in DRLAV n°30/1984, Paris, Centre de Recherches de l'Université de Paris 8.

- Milner Jean-Claude, *Introduction à une science du langage*, Paris, Ed. du Seuil, 1989.

- Mouloud Noël, *Langage et structures*, Paris, Payot, 1969.

- Mounin Georges, *Histoire de la linguistique des origines au xx^ème^ siècle*, Paris, PUF, 1970/ 1967.

——. *Saussure ou le structuraliste sans le savoir*, Paris, Seghers, 1968.

——. *Introduction à la sémiologie*, Paris, Ed. de Minuit, 1970.

——. *La linguistique du xxème siècle*, Paris, PUF, 1975.

——. *Dictionnaire de la linguistique*, Paris, PUF, 1974.

- Nique Christian, *Hypothèses et argumentations en grammaire générative*, Paris, A. Colin, 1978.

- Pagès Robert, *Le langage, textes et documents philosophiques*, Paris, Hachette, 1959.

- Parain Brice, *Recherches sur la nature et la fonction du langage*, Paris, Gallimard, 1942.

- Pariente Jean- Claude, *Essais sur le langage*, textes de E. Cassirer, A. Sechehaye, W. Doroszewski, K. Bühler, N. Troubetzkoy, Ch. Bally, E. Sapir, G. Guillaume, A. Gelb, K. Goldstein, A. Meillet, Paris, éd. de Minuit, 1969/ 1933.

- Piaget Jean, *Le structuralisme*, Paris, PUF, (Que Sais-je?), 1968.

——. *Epistémologie des sciences de l'homme*, Paris, Gallimard, 1970.

- Pottier (Bernard), *Le langage*, Paris, Centre d'Etude et de Promotion de la Lecture, 1973. collection « Les dictionnaires du savoir moderne».

——. *Linguistique générale, théorie et description*, Paris, Klincksieck, 1974.

- Prieto Luis, *Messages et signaux*, Paris, PUF, 1966.

——. *Pertinence et pratique. Essai de sémiologie*, Paris, Ed de Minuit, 1975.

- Ramat Paolo, *Typologie linguistique*, Paris, PUF, 1985.
- Rastall Paul R, *L'empirisme en linguistique*, in La Linguistique, XV, 2, Paris, PUF, 1979.
- Revzin Isaac Iosifovitch, *Les modèles linguistiques*; Paris, Dunod, 1968. Moscou, 1962
- Rey Alain, *Théories du signe et du sens*, Paris, Klincksieck, 1973- 1976, 2 volumes.
- Robins Robert Henry, *La linguistique générale aujourd'hui*, in Archives européennes de sociologie, V, 1964: pp. 277- 310.

——. *Linguistique générale. Une introduction*, Paris, A. Colin, 1973, traduction. Française de General Linguistics: An Introductory Survey, 1967.

——. *Brève histoire de la linguistique*, Paris, Ed. du Seuil, 1976. Traduction française de A Short History of Linguistics, 1967.

- Roulet Eddy, *F. de Saussure : Cours de Linguistique Générale*, Paris, Hatier, 1975.
- Sapir Edward, *Le langage*, Paris, Payot, 2001/1967, Language An Introduction to the Study of Speech, 1921.

——. *La place de la linguistique parmi les sciences*, in La linguistique, Paris, Minuit1968/1928.

——. *La notion de structure phonétique*; in Linguistique, Sound Patterns in language, Language 1, 1925, pp. 37- 51.

——. *La réalité psychologique des phonèmes*, in Essais sur le langage, Reprit in Linguistique, Paris, Minuit, 1969/1912.

——. *Linguistique*, Paris, Minuit, 1968.

- Saussure Ferdinand de, *Mémoire sur le système primitif des voyelles dans les langues indo- européennes*, Leipzig, 1878.

——. *Cours de Linguistique générale*, édition critique préparée par Tullio de Mauro, Paris, Payot, 1916/1974.

——. *Ecrits de linguistique générale*, Paris, Gallimard, 2002, texte établi et édité par Simon Bouquet et Rudolf Engler.

- Sautet Olivier, *La linguistique*, Paris, PUF, 2ème édit 2002/1995.
- Searle John R, *les actes du langage. Essai de philosophie du langage*, Paris Hermann 1973.Traduction française de speech- Acts, An Essay in the Philosophy of Langage, 1969.

——. *Sens et expression*, Paris, Ed. de Minuit, 1982. Traduction française de Expression and Meaning, 1979.

- Sebeok Thomas A, (ed.) *Portraits of Linguists. A Biographical Source Book for the History of Western Linguistics, 1746-1963*, Bloomington et Londres, Indiana University Press, 1966, 2 vol.

- Sechehaye Albert, *Programme et méthodes de la linguistique théorique*, Paris et Genève, 1908.

——. *La pensée et la langue ou comment concevoir le rapport organique de l'individuel et du social dans le langage*, Journal de Psychologie, 1933 repris in Jean Claude Pariente: Essais sur le Langage, pp. 69-96, Paris, Minuit, 1969.

——. *Essai sur la structure logique de la phrase*, Paris, Champion, 1950/1926.

——. *L'école genevoise de linguistique générale*, in Indogermanische Forschungen, volume. 44, 1927.

——. *Les trois linguistiques saussuriennes*, in Vox Romanica, t. V, Zürich, 1940.

- Serbat Guy, *Cas et fonction*, Paris, PUF, 1981.

- Sobieszczanski Marcin, *Contribution du R. P. Jacq Van Ginneken à la linguistique moderne*, in Histoire, Epistémologie du langage, 12/1, Lille. Presses Universitaires de Lille. 1990.

- Sorensen Hans Christian, *Fondements épistémologiques de la glossématique, in Langages*, nº6 Juin 1967, Paris, Larousse, 1967.

- Starobinsky Jean, *les mots sous les mots. Les anagrammes de Ferdinand de Saussure*, Paris, Gallimard, 1971.

- Stepanov Youri, *La description sémiologique en linguistique In Système et structures du langage*, pp87- 132, Editions du Progrès, Moscou, 1981.

- Swiggers Pierre et Stijn Verleyen, *Principes fonctionnels (dans l'explication) du changement linguistique*, in La linguistique, nº38 fascicule 2/2002, (pp105 - 116), Paris, PUF, 2002.

- Tesnière Lucien, *Eléments de syntaxe structurale*, Paris, Klincksieck, 1965/1959.

- Togeby. Knud, *Structure immanente de la langue française*, Paris, Larousse, 1965/ 1951.

- Troubetskoï Nikolaï Sergueïevitch, *La phonologie actuelle.* Journal de. Psychologie, 1933, pp. 227- 246, reprit in Essaissur le langage, pp. 141-164, Paris, Minuit,1968.

——. *Principes de phonlogie*, Paris, Klincksieck, 1967/1949, traduction française de *Grundzüge der Phonologie*, 1939.

- Uldall HansJorgen, *Outline of Glossematics. A study in the Methodology of the Humanities with special Reference to Linguistics*, Part I General Theory, Copenhague, Munksgaard, 1957.

- Ullmann Stephen, *Précis de sémantique française*, Berne, Francke, 1952. traduction française de *The Principles of Semantics*; 1951.

- Vachek Josef, *Dictionnaire de linguistique de l'école de Prague*, Utrecht et Anvers, Spectrum, 1960.

- Vendryes Joseph, *Le langage. Introduction linguistique à l'histoire*, Paris, A. Michel, 1968/1929.

- William Washabaugh; *Saussure; Durkheim and socilogical theory*, in Archivum Linguisticum, Numéro special, 5/1974.

- Wells Rulon S, *Constituants immédiats*, in Langages n°20/ Décembre 1970, Paris, Didier-Larousse, 1970, *Immediate constituents*. Language 23 (1947), pp81- 117.

- Whitney William Dwight, *La vie du langage*, Paris, Baillière, 1877.

- Whorf Benjamin Lee, *linguistique et anthropologie. Les Origines de la sémiologie* Paris, Denoël-Gonthier, 1969. Traduction française de *Language Thought and Reality* 1956.

فهرس المصطلحات

فهرس الأعلام والأماكن

الفهــرس

الباب الثاني: اللسانيات البنيوية الأوروبية

الباب الثالث: اللسانيات الأميركية

في إطار التحولات المعرفية الكبرى التي تعيشها اللسانيات اليوم، يمكن للمرء أن يتساءل عن جدوى مؤلَّف يعرض من جديد للسانيات البنيوية في اتجاهاتها المتعددة. والواقع أن الانتقال من الأنموذج البنيوي إلى الأنموذج التوليدي لا يعني أن اللسانيات البنيوية قد اختفت من الساحة المعرفية والعلمية في أميركا وأوروبا، أو أنها لم تعد قابلة للتطبيق، أو هي اليوم غير صالحة لتحليل الألسن الطبيعية. لقد طوَّرت اللسانيات البنيوية نفسها في اتجاه إيجاد حلول ملائمة لبعض مظاهر النقص التي وُسِمَت بها. و تحاول العديد من المجموعات العلمية المحسوبة على اللسانيات البنيوية في أوروبا وأميركا إعادة النظر في أسسها ومفاهيمها في إطار نوع من المساءلة الإبستمولوجية لاحتواء كثير من الإشكاليات التي غابت عنها أو عيبت عليها. ومن هذا المنطلق، فإن المبادئ الكبرى والمرتكزات التي تأسَّست عليها اللسانيات البنيوية ما زالت قائمة، وما زالت هناك حاجة إليها كلما حصلت تحولات نظرية أو منهجية؛ وما زالت أسس اللسانيات البنيوية قائمة في الكثير من المذاهب التي تهتم بتحليل الخطاب أو النصّ وفي سيميائيات النصّ الأدبي في أجناسه المختلفة، حيث الحاجة إلى مفاهيم التحليل اللساني البنيوي ملحَّة، بل لا مفرّ منها.

وقد اتجه الاهتمام نحو المحتوى النظري والمنهجي للتصورات اللسانية، فاسحين المجال للنصوص الأصلية لتنطق بآراء أصحابها دون تكلّف في الشرح أو تعقيد في التوضيح، محاولين قدر الإمكان الابتعاد عن التجريد الذي لاحظنا أنه بات يشكل عائقاً كبيراً أمام القارئ العربي، العادي والمتخصّص في متابعة الأدبيات اللسانية العربية، لاسيما مع التطورات الأخيرة التي عرفتها اللسانيات؛ واقتفاء أثر بعض التيارات اللسانية التي ما فتئت توغل في الصورية والتجريد. ولهذه الاعتبارات التربوية العامة تم شرح المبادئ الأساس في اللسانيات البنيوية بلغة مبسطة وواضحة.

اللسانيات البنيوية
منهجيات واتجاهات

يتناول هذا الكتاب الأسس النظرية والمنهجية التي تقوم عليها اللسانيات البنيوية بدءاً بتحديد المتن اللغوي وانتهاءً بتحليل الجملة إلى مكوّناتها المباشرة؛ ويقدّم أيضاً أبرز الاتجاهات اللسانية البنيوية، متمثّلةً في مدرسة جنيف وحلقة براغ والغلوسيماتية ومارتينيه ويتحدث أيضاً عن اللسانيات الأميركية ورائديها الكبيرين سابير وبلومفيلد بشكل مستفيض يمكّنه تقديم علم نافع لكلّ مهتم باللسانيات البنيوية، هذا من جهة؛ ومن جهة ثانية، يحرص الكتاب على إطلاع القارئ العربي على التطوّرات الأخيرة بشأن بعض اللسانيين المؤسّسين أمثال سوسير حيث تمّ تقديم لمحة موجزة عن النقاش الذي يثيره فكر الرجل في الساحة اللسانية في أوروبا ولاسيما في فرنسا وسويسرا، وهو النقاش الذي لا يُعثر له على أثر في الثقافة اللسانية العربية الحديثة.

ويستعرض الكتاب بصورة شاملة ملامح التعدد النظري والمنهجي في اللسانيات البنيوية Linguistique structurale أو ما يعرف أيضاً باللسانيات الوصفية Linguistique descriptive دون إغفال الملامح المشتركة بين مختلف التصوّرات والاتجاهات، وهي ملامح قد تكون بارزة في هذا الاتجاه، وقد لا تكون كذلك في اتجاه آخر؛ كما أنّ الكتاب قد تتبّع بدقة ما عرفته اللسانيات من تطوّرات كبرى في أسسها التصورية بالقياس للمقاربات السابقة عليها، وما حصل من انتقال معرفي من نموذج لساني إلى آخر أو من إطار نظري ومنهجي محدّد إلى آخر، مع ما يصاحب ذلك من استمرار أو انقطاع إبستيمولوجي يتيح الوقوف على حقيقة تطور المبادئ الكبرى في اللسانيات والنفوذ إلى عمق تماثل أسسها النظرية والمنهجية بين مختلف المدارس اللسانية البنيوية أو اختلافها.

موضوع الكتاب لسانيات بنيوية منهجية

ISBN 9959-29-556-9



موقعنا على الإنترنت
www.oeabooks.com

دار المدار الإسلامي
توزيع حصري